GEORGE
ORWELL



جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

ترجمة: أسعد الحسين

دراسات فكرية



الجزء الأول

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

إهداء لـ..

من شاركونا

سر هذا الكتاب

المسافرين

على طريق

الساحل الطويل

عنوان الكتـــاب: جورج أورويل - الأعمال السياسية والأدبية - الجزء الأول

اســم المؤلـــف: جورج أورويل

إعداد وترجمــة: أسعد الحسين

الموضـــــــوع: دراسات فكرية

عدد الصفحات: 628 ص

القيــــــاس: 17 × 24 سم



جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

الجزء الأول

مكتبة | 1258

إعداد وترجمة:

أسعد الحسين

الفهرس

ملاحظات حول القومية

استفاد بايرون من كلمة LONGEUR الفرنسية (التي تعني طول) في أكثر من مكان، وعلق ملاحظاً على ذلك: رغم أننا لا نملك الكلمة في إنكلترا، إلا أننا نملك الشيء بوفرة هائلة، وبنفس الطريقة هناك عادة ذهنية منتشرة كثيراً الآن، وتؤثر على تفكيرنا في كل موضوع تقريباً، لكنها لم تُعط اسماً بعد. وقد اخترت كلمة "قومية" كأقرب مرادف موجود لها. وسيتبين في لحظة أنني لا أستخدمها بمعناها العادي تماماً، لأن العاطفة التي أتكلم عنها، لا تربط نفسها بما يسمى أمة دائماً - أي، سلالة واحدة أو منطقة جغرافية واحدة، وإنما يمكن أن ترتبط بكنيسة أو طبقة أو يكون لها معنى سلبي ضد شيء ما أو آخر، من دون أي هدف إيجابي من الولاء.

أقصد بـ"القومية" أولاً عادة الافتراض بإمكانية تصنيف الكائنات البشرية كالحشرات، ووصف زمر كاملة من ملايين أو عشرات ملايين الناس بثقة بـ"خيرين" أو "شريرين"[1] وأقصد ثانياً- وهذا أهم بكثير- عادة نسب الشخص نفسه إلى أمة واحدة أو وحدة أخرى، ووضعها في منزلة أبعد من الخير والشر، وعدم الاعتراف بأي واجب آخر يتقدم على مصالحها. يجب ألا نخلط بين القومية والوطنية، فكلاهما تستخدمان عادة بطريقة غامضة جداً. لذلك بات أي تعريف لها عرضة للاعتراض، لكن يجب التمييز بينهما، فهما يتضمنان فكرتين مختلفتين، بل ومتعارضتين حتى. أقصد بـ"الوطنية" الولاء لمكان خاص أو أسلوب حياة خاص، يُعتقد بأنه الأفضل في العالم، لكن دون فرضه بأية طريقة على أي شعب آخر. كما أن الوطنية بطبيعتها دفاعية عسكرياً وثقافياً، لكن القومية من الجانب الآخر، لا تنفصل عن الرغبة في السلطة، والهدف الثابت لكل شخص قومي، أن يضمن سلطة أكبر ونفوذاً أكثر، ليس لنفسه، وإنما للأمة أو الوحدة الأخرى التي اختار أن يغرق فرديته فيها.

---

١ - ينظر إلى الأمم والكيانات الأكثر غموضاً كالكنسية الكاثوليكية أو البروليتاريا مثلاً، على نحو شائع، كأفراد، ويشار إليها بـ"هي". إن الملاحظات السخيفة الجلية مثل "ألمانيا غدارة بشكل طبيعي" موجودة في أي صحيفة يفتحها المرء، وتقال التعميمات الطائشة حول الهوية القومية ("الإسباني أرستقراطي بالفطرة" أو "كل إنكليزي منافق") في كل مكان ومن قبل الجميع تقريباً. يتبين بشكل متقطع أن هذه التعميمات بلا أساس، لكن عادة صنعها تدوم، ويتحمل الناس من ذوي النظرة الدولية الصريحة من أمثال تولستوي وبرنارد شو هذا الذنب غالباً.

طالما تطبق على الحركات القومية الأكثر تميزاً والأردأ سمعة في ألمانيا واليابان ودول أخرى فحسب، فكل هذا واضح تماماً، وعند مقارنتها بظاهرة كالنازية مثلاً التي نستطيع ملاحظتها من الخارج، سنقول كلنا تقريباً الأشياء عينها بخصوصها. لكن يجب أن أكرر هنا ما قلته آنفاً أنني أستعمل كلمة "قومية" لعدم وجود الأفضل. تشمل القومية، بالمعني الموسع الذي أستخدمه، حركات وميول مثل الشيوعية والكاثوليكية السياسية والصهيونية ومعاداة السامية والتروتسكية والسلامية، ولا تعني بالضرورة الولاء لحكومة ما أو بلاد، حتى لبلاد الشخص نفسها. وليس من الضروري نهائياً أن تكون الوحدات التي تتعامل معها موجودة فعلياً. لنسمي بضع أمثلة واضحة: اليهودية والإسلام والمسيحية والبروليتاريا والعرق الأبيض، كلها مواضيع شعور قومي متقد، لكن وجودها يمكن أن يكون مثار جدل جدي، وليس لها أي تعريف مقبول عالمياً.

يجدر بنا أن نؤكد مرة أخرى، أن الشعور القومي يمكن أن يكون سلبياً فقط. هناك مثلاً التروتسكويون الذين أصبحوا أعداء للاتحاد السوفيتي، فقط من دون تطوير ولاء مماثل لأي وحدة (كيان) أخرى. حين يفهم المرء مضامين هذا، تصبح طبيعة ما أقصده بالقومية أوضح بكثير. إن الشخص القومي، هو المرء الذي يفكر فقط أو أساساً من منظور مكانة تنافسية. قد يكون قومياً إيجابياً أو سلبياً، أي أنه يمكن أن يستخدم طاقته العقلية في التعزيز والتشجيع أو التشويه والتسويد- لكن في كل المعايير تدور أفكاره حول انتصارات وهزائم وأفراح انتصارات ومشاعر خزي وعار، ويرى التاريخ، وخصوصاً المعاصر منه، مجرد ارتقاء وانحطاط لا يتنهيان لوحدات القوة العظمى، ويبدو له كل حدث تاريخي برهاناً وإثباتاً بأن جانبه الخاص في حالة ارتقاء، ومنافسه المكروه في حالة انحدار. لكن أخيراً من المهم ألا نخلط القومية بتأليه النجاح. على العكس، بعد أن يختار القومي جانبه يقنع نفسه بأنه الأقوى، ويستطيع التمسك بمعتقده، حتى عندما تكون الحقائق ضده بشكل ساحق. إن القومية تعطش للقوة ملطف بخداع الذات، وكل شخص قومي قادر على أشد أنواع التضليل – بما أنه يخدم شيئاً أكبر من نفسه – وواثق بشكل لا يتزحزح بأنه على حق وصواب.

بعد أن أعطيت هذا التعريف المطول، أعتقد أنه سيتم الاعتراف والتسليم بأن عادة الذهن التي أتحدث عنها منتشرة وسط الطبقة المثقفة الإنكليزية، بشكل أوسع من انتشارها وسط جماهير الشعب. بالنسبة إلى هؤلاء الذين يشعرون بعمق حول السياسة المعاصرة، فإن مواضيع

محددة أصبحت ملوثة جداً باعتبارات من المكانة والهيبة، لدرجة باتت مقاربتها المنطقية الصادقة مستحيلة تقريباً. من مئات الأمثلة التي يمكن أن يختارها المرء، نأخذ هذا السؤال: أي من الحلفاء الثلاث، الاتحاد السوفييتي وبريطانيا والولايات المتحدة، ساهم أكثر في هزيمة ألمانيا؟ نظرياً، من الممكن كما يفترض إعطاء جواب منطقي وحاسم لهذا السؤال، لكن عملياً لا يمكن إجراء الحسابات الضرورية، لأن أي شخص مهتم بمثل هذا السؤال سيراه حتماً بمنظور المكانة التنافسية، لذلك سيبدأ حكمه بتفضيل روسيا أو بريطانيا أو أمريكا كما تتطلب الحالة. وبهذا فقط سيبدأ البحث عن حجج تؤيد حالته. وهذا هو سبب الفشل اللافت للتكهن السياسي والعسكري في زمننا. من الغريب ألا يكون هناك واحد من بين خبراء المدارس كلها قادر على التنبؤ باحتمال حدوث حدث مثل معاهدة ١٩٣٩ بين روسيا وألمانيا[1] التي بعد أن تفشى خبرها، حظيت بأشد التفسيرات المختلفة وأكثرها شذوذاً، وأُطلقت التكهنات التي دُحضت على الفور تقريباً، لأن كل حالة منها لم تتأسس على دراسة للاحتمالات، وإنما على رغبة في جعل الاتحاد السوفييتي يبدو خيراً أو رديئاً، قوياً أو ضعيفاً. يستطيع المعلقون السياسيون النجاة من أي خطأ تقريباً كالمنجمين، لأن أكثر أتباعهم المخلصين لا ينظرون إليهم من أجل تقييم الوقائع، وإنما من أجل تحفيز الولاءات القومية.[2] إن الأحكام الجمالية والأدبية منها خصوصاً فاسدة كنظيراتها السياسية؛ إذ من الصعب على القومي الهندي الاستمتاع بقراءة كيبلينغ، وبالمثل لا يرى الشخص المحافظ أية جدارة في ماياكوفسكي. وهناك إغراء دائم للزعم بأن أي كتاب لا يتفق المرء مع فحواه وميله، يجب أن يكون كتاباً رديئاً من وجهة النظر الأدبية، والناس من ذوي النظرة القومية يقومون بهذه الخدعة، من دون شعور بعدم الاستقامة.

---

١ - تكهن بضعة كتاب من ذوي الميول المحافظة كبيتر دروكر مثلاً باتفاق بين ألمانيا وروسيا، لكنهم توقعوا تحالفاً فعلياً أو اندماجاً دائماً. لم يقترب أي ماركسي أو يساري مهما كان لونه من التكهن بالمعاهدة.

٢ - يمكن تصنيف المعلقين العسكريين في الصحافة الشعبية بمؤيدين للروس ومعادين للروس، مؤيدين للبليمب أو معارضين للبليمب. أخطاء مثل الاعتقاد بأن خط ميرغينوت منيع، أو التكهن بأن روسيا ستدحر ألمانيا في غضون ثلاثة أشهر، فشلت في هز سمعتهم، لأنهم يقولون دائماً ما يريد مستمعوهم الخاصون بهم سماعه. الناقدان العسكريان المفضلان لدى الطبقة المثقفة هما النقيب ليديل هارت واللواء فولر، تعلمنا من الأول أن الدفاع أقوى من الهجوم، ومن الثاني أن الهجوم أقوى من الدفاع. لم يمنع تناقضهما من القبول بهما كخبيرين من الجمهور نفسه. السبب الخفي لهذا الرواج والشعبية في دوائر اليسار، كونهما على خلاف ونزاع مع وزارة الحرب. (حاشية المؤلف)

في إنكلترا، لو تأمل المرء عدد الناس المتورطين فقط، لوجد على الأرجح أن الشكل المهيمن للقومية هو شكل قديم الطراز من النعرة الوطنية البريطانية (الشوفينية). ومن المؤكد أنه لازال واسع الانتشار وأكثر بكثير مما ظنه أغلب المراقبين قبل عشر سنوات. لكني سأهتم بشكل أساسي، في هذا المقال، بردود أفعال المثقفين الذين ماتت فيهم تقريباً النعرتان القومية (الشوفينية) والوطنية من النوع القديم، واللتان كما يبدو تعودان الآن إلى الحياة ثانية وسط أقلية. لا ضرورة للقول إن الشكل المهيمن من القومية وسط المثقفين هو الشيوعية - أستخدم هذه الكلمة بمعنى فضفاض جداً لتشمل ليس أعضاء الحزب الشيوعي فقط وإنما "رفاق السفر" ومحبي الروس عموماً. الشيوعي، لغرضي هنا، شخص ينظر إلى الاتحاد السوفيتي كأرض أجداده، ويشعر أن واجبه تبرير السياسة الروسية وتقديم مصالح روسيا على غيرها بأي ثمن. من الواضح أن مثل هؤلاء الناس كثيرون في إنكلترا اليوم، وتأثيرهم المباشر وغير المباشر عظيم جداً. لقد ازدهرت أشكال أخرى من القومية أيضاً، ويستطيع المرء رؤية المسألة من منظور أفضل بملاحظة التشابه في التيارات الفكرية المختلفة والمتعارضة بشكل ظاهر.

قبل عشر سنوات أو عشرين سنة، كانت الكاثوليكية السياسية شكل القومية الأقرب للشيوعية والأشد شبهاً بها، ومن أبرز دعاتها - ربما جي كي تشيسترتون الذي كان حالة متطرفة أكثر من كونها حالة أنموذجية. كان تشيسترتون كاتباً ذا موهبة معتبرة، استخدمها لكبت أحاسيسه واستقامته الفكرية، من أجل قضية الدعاية الرومانية الكاثوليكية. خلال العشرين سنة الأخيرة تقريباً من حياته، كان كل نتاجه في الحقيقة تكراراً دائماً لنفس الشيء البسيط والممل تحت براعة مجهدة، مثل كتابه "عظيمة ديانا الإيفسوسية". كل كتاب كتبه وكل حوار صغير يجب أن يثبت فيه، بما لا يدع مجالاً للخطأ، تفوق الكاثوليك على البروتستانت والوثنيين. لكن تشيسترتون لم يقنع بأن يقتصر هذا التفوق على جانبه الفكري أو الروحي، وإنما يجب أن يُترجم في شكل مكانة وطنية مميزة وقوة عسكرية، استلزمت إضفاء مثالية جاهلة على البلدان اللاتينية وخصوصاً فرنسا. لم يعش تشيسترتون في فرنسا طويلاً، وصورته عنها - كأرض للفلاحين الكاثوليكيين الذين ينشدون باستمرار النشيد القومي الفرنسي فوق أكواب النبيذ الأحمر - علاقة هذه الصورة بالواقع كعلاقة شو شين شاو بالحياة اليومية في بغداد، ولم يستمر بهذه المغالاة الهائلة بتقدير القوة العسكرية الفرنسية (قبل وبعد

١٩١٤ - ١٩١٨ وقوله إن فرنسا لوحدها أقوى من ألمانيا) فقط، وإنما بتمجيد سخيف وسوقي لعملية الحرب الفعلية. إن قصائد تشيسترتون عن المعارك مثل ليبانتو أو أغنية القديسة بربارة، تجعل من هجوم الفرقة الخفيفة كراسة دينية سلمية: أشد المقاطع المبهرجة من الكلام الطنان الذي يمكن إيجاده في لغتنا ربما. الشيء المشوق، لو كان الهراء الوهمي الذي كتبه بشكل عادي عن فرنسا والجيش الفرنسي مكتوباً بواسطة شخص آخر عن بريطانيا والجيش البريطاني، لكان هو أول من سخر منه. في السياسة المحلية كان تشيسترتون إنكليزياً صغيراً وكارهاً حقيقياً للنعرة القومية والإمبريالية، ووفقاً لمبادئه التي وضعها لنفسه، هو صديق حقيقي للديمقراطية. ومع ذلك عندما تطلع للخارج إلى المجال الدولي، استطاع هجر مبادئه، من دون أن يلاحظ أنه فعل ذلك. ولهذا لم يمنعه إيمانه شبه الصوفي بفضائل الديمقراطية، من الإعجاب بموسوليني، الذي دمر الحكومة النيابية وحرية الصحافة، اللتين ناضل تشيسترتون من أجلهما بقوة في الوطن. لكن موسوليني كان إيطالياً، وجعل من إيطاليا دولة قوية، وهذا برر القضية. كما لم يجد تشيسترتون كلمة يقولها عن الإمبريالية وغزو العروق الملونة، حين مارس ذلك الإيطاليون أو الفرنسيون. كانت قبضته على الحقيقة وذوقه الأدبي وحتى حسه الأخلاقي، إلى حد ما، تنخلع وتتفكك، حالما يتعلق الأمر بولاءاته القومية.

من الواضح وجود تشابه هام بين الكاثوليكية السياسية ممثلة بتشيسترتون، وبين الشيوعية، وكذلك بينهما وبين الوطنية الاسكتلندية أو الصهيونية أو عداء السامية أو التروتسكية مثلاً. إن القول بأن كل أشكال القومية متماثلة، هو تبسيط مفرط حتى في جوها الفكري، لكن هناك قواعد محددة تظل جيدة في كل الحالات. التالية هي المزايا الرئيسية للفكر القومي:

الهاجس: تقريباً لم يفكر أو يتحدث أو يكتب أي قومجي عن أي شيء سوى تفوق قوة وحدته أو الكيان الذي ينتمي إليه، ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، لأي قومي أن يخفي ولاءه، كما أن أصغر قدح لكيانه الاجتماعي أو مدح ضمني للوحدة المنافسة، يملأه بالقلق الذي لا يريحه منه سوى القيام برد حاسم وحاد؛ فإن كانت الوحدة المختارة بلاداً حقيقية كإيرلندا أو الهند، يزعم بتفوقها ليس في القوة العسكرية والطهارة السياسية فقط، وإنما في الفن والأدب والرياضة وبنية اللغة وفي الجمال البدني للسكان وربما في المناخ والمناظر الطبيعية والطبخ أيضاً، ويبدي حساسية كبيرة حول أشياء كهذه مثل العرض الصحيح للأعلام والرايات والحجم

النسبي للعناوين والترتيب الذي تُسمى فيه البلدان.[1] تلعب التسمية والتصنيف دوراً هاماً في الفكر القومي. تبدل البلدان، التي نالت استقلالها أو باشرت في ثورات قومية، أسماءها عادة. وأي بلاد أو وحدة أخرى تدور حولها مشاعر قوية، يكون لها أسماء كثيرة، على الأرجح يحمل كل منها دلالة مختلفة. كان لدى طرفي الحرب الأهلية الإسبانية تسعة أو عشرة أسماء تعبر عن درجات الحب والكره. كان بعض هذه الأسماء (مثل "وطنيين" لمؤيدي فرانكو أو "موالين" لمؤيدي الحكومة) مسألة جدالية، ولم يستطع أي من الطرفين المتنافسين الاتفاق على استخدام اسم واحد منها. يعتبر القوميون كلهم أن واجبهم يقضي بنشر لغتهم الخاصة بهم للإضرار باللغات المنافسة، ويظهر هذا الصراع بين الناطقين بالإنكليزية في أشكال أحد كصراع بين اللهجات؛ فالأمريكيون المبغضون للإنكليز يرفضون استخدام عبارة عامية، إن عرفوا أنها من أصل بريطاني، وكذلك تكمن خلف الصراع، بين من يعتبرون أنفسهم لاتينيين ومن يعتبرون أنفسهم ألمانيين، محرضات قومية. يصر القوميون الاسكتلنديون على تفوق اسكتلنديي - الأراضي المنخفضة والاشتراكيون الذين تأخذ قوميتهم شكل كره طبقي عنيف ومطول ضد لهجة محطة البي بي سي، والذي يعطي في أحوال كثيرة الانطباع بأن فيه مسحة اعتقاد بسحر عصبي ودي - اعتقاد ربما يتجلى في عادة منتشرة في حرق الأعداء السياسيين، من خلال حرق تماثيل مصغرة لهم، أو استخدام صورهم كأهداف في صالات الرماية.

عدم الاستقرار: إن الحدة التي تُضبط بها الولاءات القومية، لا تعيقها من القدرة على الانتقال. وكما أشرت مسبقاً في البداية، يمكنها الارتباط ببلد أجنبي ما. يجد المرء على نحو عادي أن القادة القوميين الكبار أو مؤسسي الحركات القومية، لا ينتمون إلى البلاد التي مجدوها حتى، وأحياناً يكونون أجانب تماماً، أو في الغالب ينحدرون من مناطق محيطية يُشك بصفتها القومية. والأمثلة على ذلك ستالين وهتلر ونابليون ودي فاليرا وديزرائيلي وبوينكير وبيفربروك. كانت الحركة الجامعة للألمان من ابتداع رجل إنكليزي يدعى هوستون تشامبرلاين جزئياً. في الخمسين أو المائة سنة الماضية كانت القومية المنقولة ظاهرة شائعة وسط المثقفين الأدبيين، فمع لافيكاديو هيرنه كان الانتقال إلى اليابان، ومع كارليل وآخرين غيره في زمنهم إلى ألمانيا، وفي عصرنا نحن

---

١ - عبر بعض الأميركيين عن استيائهم من أن كلمة "أنغلوأميركان" التي هي شكل لتوحيد هاتين الكلمتين، أُقترحوا تحويلها إلى "أميريكوبريتش".

إلى روسيا. لكن الحقيقة المشوقة بشكل خاص هي إمكانية إعادة الانتقال أيضاً، فقد تُصبح فجأة بلاداً أو وحدة أخرى ظلت تؤله لسنوات كثيرة مقيتة جداً، وربما يأخذ مكانها شيء آخر بدون أي فترة فاصلة تقريباً. في النسخة الأولى من كتاب إتش جي ويلز، موجز للتاريخ وفي كتابات أخرى له عن ذلك الزمن، يجد المرء أنه مجد الولايات المتحدة بشكل مسرف، كما يمجد الشيوعيون روسيا اليوم. وخلال بضع سنوات فقط، انقلب هذا الإعجاب الساذج إلى عداوة. إن الشيوعي المتعصب الذي يتغير في غضون أسابيع أو حتى أيام إلى تروتسكاوي متعصب، هو مشهد مألوف وشائع. في أوروبا القارية كانت الحركات الفاشية تُجند من بين الشيوعيين، وقد تحدث العملية المعاكسة خلال السنوات القليلة التالية. ما يبقى ثابتاً في القومجي حالته الذهنية: موضوع هذه المشاعر متقلب وقد يكون خيالياً.

لكن الانتقال بالنسبة إلى المثقف، له وظيفة هامة ذكرتها آنفا بإيجاز فيما يتعلق بتشيسترتون، فقد مكنته من أن يكون أكثر قومجية - أكثر سوقية وأكثر سخفاً وأكثر خبثاً وأكثر تضليلاً - مما يستطيع أن يكونه لمصلحة بلاده الأصلية أو أي وحدة له معرفة حقيقية بها. حين يرى المرء الهراء الوضيع والمتبجح الذي كتبه أشخاص أذكياء وحساسون عن ستالين والجيش الأحمر، يدرك أن هذا غير ممكن إلا بسبب حدوث نوع من الخلع. من النادر في مجتمعات كمجتمعاتنا أن يشعر أي شخص يمكن وصفه بالمثقف، برابط عميق جداً ببلاده. الرأي العام - أي القسم من الرأي العام الذي يدرك أنه مثقف يقظ - لن يمسح له بفعل هذا. إن أكثر الناس المحيطين به شكاكين وساخطين، وربما يتبنى نفس الموقف بدافع التقليد أو الجبن: في تلك الحالة سيتخلى عن شكل الوطنية الأقرب إلى متناوله دون الاقتراب أكثر من وجهة نظر أممية أصيلة، وباكتشافها يستطيع التمرغ دون قيد في تلك العواطف التي يعتقد أنه تحرر منها، ويعود الرب والملك والإمبراطورية وبريطانيا - كل الأوثان الساقطة - إلى الظهور ثانية تحت مسميات مختلفة، ولكونها غير معترف بها لما هي عليه، تستطيع أن تُأله بضمير صالح. تستخدم القومية المنقولة كطريقة لتحقيق الخلاص من دون تبديل للسلوك مثل كباش الفداء.

عدم المبالاة بالحقيقة: لدى كل القوميين القدرة على التعامي عن أوجه الشبه بين مجموعات من الحقائق المتماثلة؛ فالإنكليزي المحافظ (توري) يدافع عن حق تقرير المصير في أوروبا، ويعارضه في الهند بدون الشعور بالتناقض، وتعتبر الأعمال جيدة أو رديئة، ليس بما

تستحقه، وإنما حسب من فعلها. ولا يوجد تقريباً أي نوع من السخط والتعذيب واستخدام الرهائن والعمل القسري والترحيل الجماعي والحبس، بدون محاكمة والتزوير والاغتيال وقصف المدنيين - الذي لا يتبدل لونه الأخلاقي حين يرتكبه من يقف في "جانبنا". نشرت صحيفة نيوز كرونيكل الليبرالية صوراً لروس شنقهم الألمان مثالاً عن البربرية المروعة، ثم نشرت بعد سنة أو اثنتين باستحسان حار نفس الصور تقريباً لألمان شنقهم الروس.[1] وينطبق الشيء نفسه على الأحداث التاريخية. يُنظر إلى التاريخ أساساً من مناظير قومية، وأصبحت أشياء مثل التحقيق والتعذيب في حجرة النجوم ومآثر القراصنة الإنكليز (مثل فرانسيس دريك الذي عاقب أسرى إسبان بإغراقهم أحياء) وعهد الإرهاب، وأبطال العصيان الذين أزهقوا أرواح مئات اليهود ببنادقهم، أو جنود كرومويل الذي شقوا وجوه النساء الإيرلنديات بأمواس الحلاقة، أعمالاً محايدة أخلاقياً أو حتى أهلاً للتقدير، حين اعتبرت أنها حدثت في القضية "الصحيحة". لو نظر المرء إلى ربع القرن الماضي، لما وجد سنة واحدة لم تنقل فيها أخبار عن قصص وحشية من جزء من العالم؛ ومع ذلك لم تصدق الطبقة المثقفة الإنكليزية أو تستنكر حالة واحدة من هذه الأعمال الوحشية، التي ارتكبت في إسبانيا وروسيا والصين وهنغاريا والمكسيك وارمستار وسميرنا. كانت النزعات والميول السياسية تقرر استحقاق هذه الأفعال للشجب من عدمه وحدوثها حتى.

لا يكتفي القومجي بعدم شجب الأعمال الوحشية التي تُرتكب من جانبه فقط، وإنما لديه قدرة رائعة بعدم السماع بها. لمدة ست سنوات كاملة استنبط الإنكليز المعجبون بهتلر طريقة تجاهلوا فيها وجود داخو وبوخنوفالت. وهؤلاء الذين رفعوا عقيرتهم عالياً في استنكار معسكرات الاعتقال الألمانية، لم يشعروا أبداً أو شعروا بشكل باهت جداً بوجود معسكرات اعتقال في روسيا أيضاً. أحداث هائلة مثل مجاعة أوكرانيا عام ١٩٣٣ التي تسببت في موت الملايين من الناس، غابت عن انتباه غالبية الإنكليز المحبين للروس، وكثير من الإنكليز لم يسمعوا شيئاً عن إبادة الألمان واليهود البولونيين أثناء الحرب الحالية. تسبب عداؤهم الذاتي

---

١ - نصحت صحيفة نيوز كرونيكل قراءها بحضور الأفلام الجديدة التي تُظهر عملية الإعدام برمتها بلقطات مقربة. نشرت صحيفة ذا ستار باستحسان ظاهر صورا لنساء عاريات تقريباً متعاونات مع العدو مزقتهم غوغاء باريس. تحمل هذه الصور أوجه شبه ملحوظة مع الصور النازية لليهود الذين مزقتهم غوغاء برلين.

للسامية في إسقاط هذه الجريمة الضخمة من وعيهم. في الفكر القومي هناك وقائع صحيحة وغير صحيحة، معروفة وغير معروفة. قد تكون الواقعة المعروفة لا تحتمل أبداً، لذلك تُزاح جانباً عادة، ولا يُسمح بالدخول إلى صيرورتها المنطقية، وحتى لو دخلت فلا يُعترف بها كواقعة حتى في ذهن المرء.

يراود كل قومجي الاعتقاد بأن الماضي يمكن تبديله، ويقضي قسماً من وقته في عالم خيالي تحدث فيه الأشياء كما يفترض ويجب - يبدو فيه الأسطول الحربي الإسباني عملاً ناجحاً أو أن الثورة الروسية سُحقت في ١٩١٨ - وينقل شظايا من هذا العالم إلى كتب التاريخ كلما أمكن ذلك. إن الكثير من الكتابات الدعائية في عصرنا، ترقى إلى درجة التزوير. تطمس الحوادث المادية وتبدل التواريخ وتزال الاقتباسات من سياقاتها وتعالج لكي تتغير معانيها. الأحداث التي يُرى أنها ينبغي ألا تحدث، لا تُترك بدون ذكر فقط، بل يتم نكرانها نهائياً[١]. في عام ١٩٢٧ سلق شيانغ كاي شيك مئات الشيوعيين الأحياء، ومع ذلك أصبح واحداً من أبطال اليسار خلال عشر سنوات، وجلبته إعادة الاصطفاف في عالم السياسة إلى المعسكر المعادي للفاشية، واعتُبر سلق الشيوعيين "لا يهم" أو ربما لم يحدث. إن الهدف الأساسي للدعاية، هو التأثير على الرأي المعاصر طبعاً، لكن الذين يعيدون كتابة التاريخ، يؤمنون بقسم من عقولهم أنهم يقحمون فعلياً بعض الحقائق في الماضي. حين يتأمل المرء أعمال التزوير الواسعة التي ارتُكبت، لتبين أن تروتسكي لم يلعب أي دور مهم في الحرب الأهلية الروسية، يصعب علينا أن نشعر بأن هؤلاء الناس المسؤولين يكذبون. إن الاحتمال الأكبر أنهم يشعرون أن روايتهم هي ما حدث في نظر الرب، وأن له الحق في إعادة ترتيب السجلات التاريخية بناء على ذلك.

إن عدم المبالاة بالحقيقة الموضوعية التي يساعدها عزل كل قسم من العالم عن الآخر، تصعب أكثر اكتشاف ما يحدث فعلياً ويظل هناك شك حقيقي حول أضخم الأحداث دائماً تقريباً فمثلا يستحيل حساب عدد الوفيات التي سببتها الحرب الحالية ضمن ملايين أو حتى عشرات الملايين. تنزع الأخبار التي تنقل الكوارث دائماً - المعارك والمجازر والمجاعات والثورات - إلى إثارة شعور بالزيف في الشخص العادي. ليس لدى المرء طريقة للتأكد من

١ - مثال: المعاهدة الروسية الألمانية التي مُحيت بأسرع ما يمكن من الذاكرة الشعبية. أخبرني مراسل روسي أن ذكر المعاهدة قد حذف مسبقاً من الكتاب السنوي الروسي، الذي يرتب الأحداث السياسية الحديثة.

الوقائع أو حتى التأكد من حدوثها، وتُقدم له دائماً تفسيرات مختلفة كلياً من مصادر مختلفة. ما هي صوابات وأخطاء تمرد وارسو في أغسطس/آب ١٩٤٤؟ هل صحيح ما قيل عن أفران الغاز الألمانية في بولندا؟ على من تقع اللائمة عن مجاعة البنغال؟ ربما الحقيقة قابلة للاكتشاف، لكن الوقائع تقدم بطريقة مضللة في أي جريدة تقريباً، لذلك يترك القارئ العادي إما ليبلع الأكاذيب ويقبل بها أو يفشل في تشكيل رأي. الشك العام بما يحدث فعلياً يجعل التشبث بالاعتقادات المجنونة أسهل. إن أشد الحقائق وضوحاً يمكن نكرانها لعدم وجود شيء مثبت أو منفي. إضافة إلى ذلك، فإن التفكير الدائم بالقوة والنصر والهزيمة والانتقام، يجعل القومجي غير مهتم إلى حد ما بما يحدث في العالم الحقيقي، فكل ما يريده هو الشعور بأن وحدته الاجتماعية تتقدم على وحدة أخرى، ويفعل هذا بواسطة تقريع الخصم بدلاً من تفحص الوقائع ليرى إن كانت تؤيده أم لا. إن الجدل قومجي غير حاسم تماماً، لأن كل متنافس يصدق نفسه بشكل ثابت أنه فاز بالنصر، وبعض القومجيين ليسوا بعيدين عن (الشيزوفرينيا) الانفصام، ويعيشون سعداء تماماً وسط أحلام بالقوة والفتح لا صلة لها بالعالم الطبيعي المادي.

تفحصت بأقصى ما أستطيع العادات العقلية المشتركة في كل أشكال القومية. الشيء التالي هو أن أُصنف تلك الأشكال، لكن من الواضح أن هذا لا يمكن فعله بشكل شامل. القومية موضوع هائل. العالم تقلقه وتعذبه أوهام وضغائن لا تحصى، تتقاطع مع بعضها البعض بطريقة معقدة جداً، وبعض من أشدها فساداً وشراً لم يصطدم بعد بالوعي الأوروبي. أنا مهتم في هذا المقال بالقومية كما تحدث وسط الطبقة المثقفة الإنكليزية، فهي لم تختلط عند أفراد الطبقة المثقفة بالوطنية، كما حدث للشعب الإنكليزي العادي، ولذلك يمكن أن تدرس نقية. أدرجت قائمة في الأسفل بضروب القومية المتنوعة التي تزدهر الآن وسط المثقفين الإنكليز، مع تعليقات يبدو أنها ضرورية. من المناسب استخدام ثلاثة عناوين، إيجابي ومنقول وسلبي، لكن بعض الضروب يندرج ضمن أكثر من تصنيف:

القومية الإيجابية

أ – التورية الجديدة ممثلة بأشخاص مثل اللورد إيلتون، وأ ب هيربرت، وجي أم يونغ، وبالبروفيسور بيكتهورن، وأدب لجنة توري للإصلاح، ومجلات مثل نيوإنغليش ريفيو، وذا نايتينث سنتشري، وأند آفتر. القوة الدافعة الحقيقية للتورية الجديدة، بسبب ميزتها القومية

وتميزها عن النزعة المحافظة العادية، هي الرغبة في عدم الاعتراف بانحسار السلطة البريطانية وتأثيرها. حتى هؤلاء الواقعيون الذين يرون أن موقع بريطاني العسكري ليس كما كان، يميلون إلى الادعاء بأن "الأفكار الإنكليزية" (عادة يسارية غير محددة) يجب أن تهيمن على العالم. كل التوريين الجدد معادين للروس، وأحياناً يكون العداء للأمريكان هو التأكيد الأساسي. الشيء الهام هو أن تلك المدرسة الفكرية تكسب أرضية وسط المثقفين الصغار كما يبدو: أحياناً، شيوعيون سابقون مروا بعملية التحرر من الوهم المعتادة. مبغضون للإنكليز أصبحوا فجأة مناصرين أقوياء للبريطانيين شكل شائع جداً. من الكتاب الذين يمثلون هذه النزعة إف أي فويت ومالكولم ماغريدج وإيفلن واو وهيو كينغزميل، ويمكن ملاحظة تطور نفسي مماثل في تي إس إيليوت ووينذهام لويس والعديد من أتباعهما.

١ - القومية السلتية: تتشابه القوميات الويلزية والإيرلندية والاسكتلندية في توجهها المعادي للإنكليز رغم ما بينها من نقاط خلاف. عارض أعضاء الحركات الثلاث الحرب، واستمروا في وصف أنفسهم بأنهم مؤيدون للروس، والحاشية المجنونة استنبطت لتكون مؤيدة للروس ومؤيدة للنازية في الوقت نفسه. لكن القومية السلتية ليست مثل بغض الإنكليز. إن قوتها الدافعة هي الاعتقاد بعظمة ماضي ومستقبل الشعوب السلتية، وفيها مسحة قوية من العنصرية، فهي تفترض أن السلتيين متفوقين روحياً على الساكسونيين - أبسط وأكثر إبداعاً وأقل سوقية وأقل تكبراً إلخ - لكن التعطش المعتاد للسلطة موجود تحت السطح. أحد أعراضها الوهم بأن إيرلندا أو اسكتلندا أو حتى ويلز، تستطيع الحفاظ على استقلالها دون مساعدة، ولا تدين بأي شيء للحماية البريطانية. من بين الكتاب الذين يعتبرون أمثلة جيدة عن هذه المدرسة الفكرية، هو هيو مكديامارد وشون أوكيسي، ولا يخلو أي كاتب إيرلندي حديث، حتى ولو كان بمكانة ييتس أو جويس، من آثار القومية.

٢ - الصهيونية: حركة قومية ذات خصائص غير معتادة، لكن بديلها الأمريكي أكثر عنفاً وخبثاً من البريطاني كما يبدو. أنا أصنفها تحت قومية مباشرة وليست منقولة، لأنها تزدهر حصرياً تقريباً وسط اليهود أنفسهم. يؤيد المثقفون في إنكلترا لأسباب عديدة متنافرة، اليهود في قضية فلسطين، لكنهم غير متحمسين كثيراً لها. وكل الشعب الإنكليزي الودود مؤيد

لليهود، بمعنى استنكار الاضطهاد النازي، لكن لا يوجد أي ولاء قومي فعلي أو إيمان بالتفوق اليهودي الفطري وسط غير اليهود.

ب- القومية المنقولة

١ - الشيوعية

٢ - الكاثوليكية السياسية

٣ - الشعور اللوني: لقد ضعف الموقف القديم المزدري نحو "السكان الأصليين" كثيراً في إنكلترا، وهُجرت نظريات علمية زائفة متنوعة تؤكد تفوق العرق الأبيض.[1] وسط الطبقة المثقفة لا يحدث الشعور باللون إلا في أشكال منقولة، أي، كاعتقاد في التفوق الفطري للأعراق الملونة. هذا شائع الآن وبشكل متزايد وسط المثقفين الإنكليز، وناتج ربما عن المازوشية (الانحراف الجنسي) والإحباط الجنسي، أكثر من اتصاله بالحركات القومية الشرقية والزنجية. وللتكبر والمحاكاة تأثير قوي حتى وسط هؤلاء الذين لا يتحمسون لمسألة اللون. كل مثقف إنكليزي تقريباً يصدمه الادعاء بتفوق العروق البيضاء على العروق الملونة، بينما يبدو له الزعم المضاد فوق الاعتراض حتى لو اختلف معه. تتوجه المودة القومية نحو الأعراق الملونة عادة، باعتقاد يرى أن حياتها الجنسية أقوى وأفضل. وهناك أسطورة سرية واسعة حول البراعة الجنسية الفائقة للزنوج.

٤ - الشعور الطبقي: يوجد الشعور الطبقي وسط مثقفي الطبقتين العليا والوسطى فقط في الشكل المنقول - أي الاعتقاد في تفوق البروليتاريا. هنا يكون ضغط الرأي العام غامراً داخل الطبقة المثقفة مرة أخرى، ويمكن أن يتواجد الولاء القومي في البروليتاريا، وأبغض أشكال الكره النظري للبورجوازية مع التكبر العادي في الحياة اليومية.

---

١ - مثال جيد خرافة ضربة الشمس. حتى وقت متأخر ظل يُعتقد بأن العروق البيضاء أكثر عرضة لضربة الشمس من الملونة، وأن الرجل الأبيض لا يستطيع المشي بأمان في الشمس الاستوائية من دون خوذة من الريش. ليس هناك أي دليل لهذه النظرية، لكنها خدمت الغرض في تأكيد الاختلاف بين "السكان الأصليين" والأوروبيين. أثناء الحرب سقطت النظرية تماماً، وكانت جيوش بأكملها تناور في المنطقة الاستوائية من دون خوذ ريشية. طالما تظل خرافة ضربة الشمس موجودة، يتوجب على الأطباء الإنكليز الإيمان بها بقوة مثل عامة الناس. (حاشية المؤلف).

٥ - السلامية (رفض العنف): إن أغلب الرافضين للعنف (السلاميين) إما أنهم ينتمون إلى طوائف دينية مبهمة، أو مجرد إنسانويين يعارضون انتزاع الحياة، ويفضلون أن يتابعوا أفكارهم إلى أبعد من تلك النقطة. لكن هناك أقلية من السلميين المثقفين حافزهم الحقيقي لكن غير المعترف به هو كره الديمقراطية الغربية كما يبدو والإعجاب بالنظام الشمولي الاستبدادي. تنحط دعاية السلميين إلى القول إن ذاك الجانب سيء كالجانب الآخر، لكن لو نظر المرء عن كثب إلى كتابات السلميين المثقفين الشباب، لوجد أنها لا تُعبّر عن استنكار جزئي، وإنما موجهة بشكل كامل ضد بريطانيا والولايات المتحدة. علاوة على ذلك هم كقاعدة لا يشجبون العنف لذاته، وإنما العنف المستخدم في الدفاع عن البلدان الغربية. فالروس مثلاً على خلاف البريطانيين، لا يلقى اللوم عليهم بسبب الدفاع عن أنفسهم بوسائل حربية. وفي الواقع كل دعاية السلميين التي من هذا النوع، تتجنب ذكر روسيا أو الصين، ولم يطالبوا أيضاً بوجوب تجنب الهنود للعنف في صراعهم ضد البريطانيين. إن أدب السلميين يعج بملاحظات ملتبسة، التي إن كانت تعني شيئاً، فهي تعني كما يبدو أنهم يفضلون رجال دولة من أنموذج هتلر على الآخرين من أنموذج تشرشل، وأن العنف ممكن غفرانه إن كان عنفاً بالحد الكافي. بعد سقوط فرنسا واجه السلميون الفرنسيون خياراً حقيقياً، لم يُجبر زملاؤهم الإنكليز على اتخاذه؛ حيث انتقل أغلبهم إلى الحزب النازي. وفي إنكلترا هناك عضوية مشتركة صغيرة بين اتحاد ضمان السلام والقمصان السود كما يبدو. كتب كتاب سلميون مديحاً في كارليل، أحد آباء الفاشية المثقفون. إجمالاً من الصعب ألا نشعر أن السلامية كما ظهرت وسط شريحة من الطبقة المثقفة، قد أُلهمها سراً وجزئياً إعجابها بالقوة والوحشية الناجحة. كان الخطأ الذي ارتكب، قد ربط هذه العاطفة، وشبكها بهتلر، لكن يمكن نقلها بسهولة.

ج- القومية السلبية

١ - الأنغلوفوبيا (الخوف من الإنكليز وبغضهم): هناك موقف ساخر وعدائي باعتدال وإلزامي تقريباً ضمن الطبقة المثقفة تجاه بريطانيا، لكنه عاطفة غير زائفة في كل الأحوال. تمظهر خلال الحرب في انهزامية الطبقة المثقفة التي استمرت طويلاً بعد أن بات واضحاً بأن قوى المحور لا يمكنها أن تنتصر. أناس كثيرون كانوا مسرورين على نحو غير خفي حين سقطت سنغافورة أو حين طُرد البريطانيون من اليونان، وكان هناك عناد لافت في تصديق

الأخبار الطيبة مثل العلمين أو عدد الطائرات الألمانية التي أسقطت في بريطانيا. لم يرد المثقفون البريطانيون في الحقيقة أن يفوز الألمان أو اليابانيون في الحرب، لكن الكثير منهم لم يستطيعوا تجنب فرحة رؤية بلادهم وهي تذل، وأرادوا أن يكون النصر النهائي لروسيا أو ربما لأمريكا وليس لبريطانيا. في السياسة الخارجية، اتبع كثير من المثقفين المبدأ الذي يرى أن أي زمرة تدعمها بريطانيا، يجب أن تكون في الخطأ. كنتيجة الرأي "النير" في غالبه، فهي صورة معكوسة لسياسة المحافظين. إن بغض الإنكليز عرضة للانعكاس غالباً، لهذا مشهد مألوف أن يكون السلمي في حرب مولع بالقتال في حرب تالية.

٢ - معاداة السامية: هناك دليل قليل حول هذا في الوقت الحاضر، لأن أعمال الاضطهاد النازية جعلت من الضروري لأي شخص يفكر، أن يصطف إلى جانب اليهود ضد مضطهديهم. أي متعلم بدرجة كافية يسمع بكلمة "معاداة السامية" يزعم كأمر بديهي بأنه متحرر منها، كما أزيلت الملاحظات المعادية لليهود بعناية من كل أصناف الأدب. فعلياً يبدو أن معادة السامية تتسع في انتشارها حتى بين المثقفين، والمؤامرة العامة في الصمت ربما تساعد على مفاقمتها. الناس ذوو الآراء اليسارية ليسوا محصنين ضدها وموقفهم يتأثر أحياناً بواقع أن التروتسكيين والفوضويين من اليهود. لكن معادة السامية تأتي بشكل طبيعي أكثر إلى الناس ذوي الميول المحافظة، الذين يتهمون اليهود بإضعاف المعنويات القومية وتوهين الثقافة القومية. إن التوريين الجدد والكاثوليك السياسيين دائماً عرضة للقبول بمعادة السامية، على الأقل على نحو متقطع.

٣ - التروتسكية: استخدمت هذه الكلمة بشكل فضفاض، لتشمل الفوضويين والاشتراكيين الديمقراطيين وحتى الليبراليين، أما أنا فأستعملها هنا لتعني الماركسي العقائدي المتشدد الذي دافعه الرئيسي عداؤه لنظام حكم ستالين. من الأفضل للمرء دراسة التروتسكية من كراسات مغمورة أو من جرائد مثل سوشاليست ابيل، بدلاً من دراستها من أعمال تروتسكي نفسه الذي كان رجل الفكرة الواحدة بلا شك. تمكنت التروتسكية في بعض الأماكن كالولايات المتحدة مثلاً، من جذب عدد كبير من الأنصار، وأن تتطور إلى حركة منظمة مع فوهرر صغير خاص بها وإلهامها سلبي في جوهره. إن التروتسكوي ضد ستالين كما الشيوعي مؤيد له، ومثل الغالبية من الشيوعيين لا يريد كثيراً أن يبدل العالم الخارجي بقدر أن

يشعر بأن المعركة من أجل المكانة والنفوذ تسير لمصلحته. في كلا الحالتين هناك ولع مفرط في موضوع واحد، ونفس العجز في تشكيل رأي منطقي أصيل مؤسس على الاحتمالات الراجحة. حقيقة أن التروتسكويين أقلية مضطهدة في كل مكان، وأن الاتهام الموجه ضدها كالتآمر مع الفاشيين مثلاً زائف بشكل مفضوح، يخلق انطباعا بأن التروتسكية فكرياً وأخلاقياً أسمى من الشيوعية، لكن يشك إن كان ذلك الفرق كبيراً جداً. التروتسكاوي الأكثر نموذجية في كل الحالات هو شيوعي سابق، ولم يصل أحد إلى التروتسكية إلا من خلال إحدى حركات الجناح اليساري. ليس هناك شيوعي واحد آمن ضد سقطة مفاجئة للتروتسكية، إلا إذا كان مقيداً بالحزب بسنين من العادة. العملية المعاكسة لا تحدث بالتساوي كثيراً كما يبدو، لكن ليس هناك سبب واضح لعدم حصول ذلك.

في التصنيف الذي حاولته آنفاً، ربما يبدو أنني بالغتُ وأفرطتُ في التبسيط، وقمت بافتراضات غير مجازة، وحذفت الدوافع المحترمة العادية من الوجود. هذا كان محتوماً، لأنني حاولت في هذا المقال أن أعزل وأحدد الميول التي توجد في عقولنا وتضلل تفكيرنا، من دون أن تخطر في بالنا بالضرورة في حالة نقية أو تعمل باستمرار. من المهم في هذه النقطة تصحيح التبسيط المفرط للصورة التي أُجبرت على رسمها. بداية ليس للمرء الحق أن يفترض أن كل شخص أو كل مثقف حتى مصاب بعدوى القومية. ثانياً، يمكن أن تكون القومية متقطعة ومحدودة. قد يستسلم الشخص الذكي جزئياً لاعتقاد يعرف أنه سخيف ويبقيه خارج عقله لفترات طويلة، ولا يرجع إليه إلا في لحظات الغضب والتدفق العاطفي، أو حين يكون واثقاً أنه لا يتضمن قضايا مهمة. ثالثاً، يمكن تبني العقيدة القومية بنية سليمة بسبب دوافع غير قومية. رابعاً، تستطيع أنواع كثيرة من القومية، حتى التي تلغي منها، أن تتعايش في الشخص نفسه.

من خلال كل ما قلت، "القومجي يفعل هذا" أو "القومجي يفعل ذاك" مستغلاً لأغراض توضيحية النموذج المتطرف وغير العقلاني من القومجي، الذي ليس في عقله مناطق محايدة ولا اهتمام بأي شيء سوى الصراع من أجل القوة والنفوذ. في الواقع مثل هؤلاء الناس شائعين كثيراً لكنهم لا يستحقون البارود والطلقة. في الحياة الحقيقية يجب القتال ضد اللورد إيلتون ودي ان بيت والليدي هوستون وإيزرا باوند واللورد فانيستارت والأب كوفلين وكل الآخرين من قبيلتهم الكئيبة، أما نقائصهم الفكرية فلا نحتاج إلى من يشير إليها. المس

الأحادي ليس مشوقاً، وحقيقة عدم وجود أي قومجي واحد من النوع المتعصب جداً يستطيع أن يكتب كتاباً يظل جديراً بالقراءة بعد فترة من السنين وله أثر طيب. لكن حين يعترف المرء أن القومية لم تنتصر في كل مكان، وأنه مازال هناك أناس أحكامهم وآراؤهم ليست تحت رحمة رغباتهم، تبقى الحقيقة أن المشاكل الضاغطة مثل الهند وبولندا وفلسطين والحرب الأهلية الإسبانية ومحاكمات موسكو والزنوج الأمريكان والمعاهدة الروسية الألمانية أو ما لديك - لا يمكن أن تناقش أو لم تناقش بمستوى معقول على الأقل أبداً. إن أمثال إيلتون وبيت وكوفلين أفواه وأبواق هائلة، يجأرون بنفس الأكذوبة ويكررنها مرة تلو أخرى، هم حالات متطرفة بشكل جلي، لكننا نخدع أنفسنا إن لم ندرك أننا نستطيع أن نكون مثلهم في لحظات غير محمية. دعونا نلفت الاهتمام إلى ملاحظة محددة، دع هذه أو تلك الحبة تُداس - وقد تكون حبة لم يُشك بوجودها ذاته حتى الآن - وربما يتحول الشخص المنفتح والودود فجأة إلى متعصب شرير، غير متلهف إلا لتسجيل انتصار على خصمه، وغير مبال بعدد الأكاذيب التي يقولها أو بعدد الأخطاء المنطقية التي يرتكبها بفعلته هذه. حين أعلن لويد جورج الذي كان مناوئاً لحرب البوير في مجلس العموم أن البلاغات الرسمية البريطانية، إن جمعها المرء معاً، ادعت بقتل بويريين أكثر من كل ما في الأمة البويرية من أناس، وسجل أيضاً عن اللورد بيلفور أنه وقف على قدميه وصاح "وغد!". عدد قليل جداً من الناس منيمون ضد زلات من هذا النموذج. إن الزنجي الذي يُعامل بازدراء من امرأة بيضاء، والإنكليزي الذي يسمع بإنكلترا تُنتقد عن جهل من قبل أمريكي، والمدافع عن الكاثوليكية الذي يذكر بالحرب الإسبانية، سيرد هؤلاء كلهم بنفس الطريقة تقريباً. يمكن بضربة واحدة على عصب القومية، أن تتلاشى الآداب الفكرية وتزول، ويمكن أن يصبح إنكار أوضح الحقائق ممكناً.

إذا خبأ المرء ولاء أو كرهاً قومياً في أي مكان في عقله، تظل بعض الوقائع الحقيقية غير مقبولة له. هذه بضعة أمثلة فقط، جدولتها في خمسة نماذج من القوميين، وضد كل واحد منهم ذيّلت واقعة يستحيل على ذلك النموذج القومي القبول بها حتى في أفكاره السرية:

البريطاني المحافظ (التوري): ستخرج بريطانيا من هذه الحرب بنفوذ أضعف ومكانة أقل.

الشيوعي: روسيا ستُهزم أمام ألمانيا، إن لم تساعدها بريطانيا وأمريكا.

القومي الإيرلندي: لا تستطيع إيرلندا البقاء مستقلة إلا بالحماية البريطانية.

التروتسكاوي: نظام ستالين مقبول من قبل الجماهير الروسية.

الرافض لحمل السلاح (السلمي): يستطيع الذين "يشجبون" العنف فعل هذا، فقط لأن غيرهم يرتكب العنف نيابة عنهم.

كل هذه الحقائق واضحة جداً، إن لم يشرك المرء عواطفه في ذلك؛ لكنها لا تطاق بالنسبة إلى الشخص المسمى في كل حالة، ولهذا يجب أن يتم إنكارها، وتُبنى نظريات زائفة على نكرانها. أعود إلى الفشل المذهل للتكهن العسكري في الحرب الحالية. صحيح، كما أعتقد، القول إن الطبقة المثقفة كانت مخطئة حول تقدم الحرب وتطورها أكثر من الشعب العادي، وأنها تأرجحت أكثر في مشاعرها الموالية. فمثلاً أعتقد المثقف اليساري أن الحرب خُسرت في عام ١٩٤٠ وأن الألمان سيجتاحون مصر في ١٩٤٢ بالتأكيد، وأن اليابانيون سيبقون، ولن يطردوا من الأراضي التي فتحوها أبداً، وأن الهجوم الأنكلوأمريكي الجوي لم يكن له أي أثر على ألمانيا. يقدر على تصديق هذه الأشياء، لأن كرهه للطبقة الحاكمة البريطانية يمنعه من الاعتراف بإمكانية نجاح الخطط البريطانية. ليس هناك حد للحماقات التي يمكن بلعها إن كان المرء تحت تأثير شعور من هذا النوع. لقد سمعتهم يصرحون عن ثقة أن القوات الأمريكية لم تُجلب إلى أوروبا لتحارب الألمان وإنما لسحق الثورة الإنكليزية. يجب أن يكون المرء منتمياً إلى الطبقة المثقفة حتى يصدق أشياء مثل تلك: لا يستطيع أي إنسان عادي أن يكون مثل هذا المغفل. حين غزا هتلر روسيا، أصدر مسؤولو وزارة الإعلام تحذيراً يتوقعون فيه انهياراً في غضون ستة أسابيع. من جانب آخر، اعتبر الشيوعيون كل طور من الحرب نصراً روسياً حتى عندما أُجبر الروس على التقهقر إلى بحر قزوين وخسروا ملايين الأسرى. لا ضرورة لمضاعفة الأمثلة. المغزى حالما أنه يُشرك الخوف والكره والغيرة وعبادة القوة، يصبح الإحساس بالحقيقة مفككاً ومشوشاً. وكما أشرت مسبقاً، يصبح الإحساس بالخطأ والصواب مفككاً ومشوشاً أيضاً. ليس هناك جريمة على الإطلاق لا يمكن غفرانها حين يرتكبها جانبنا. حتى لو لم ينكر المرء حدوث الجريمة، وحتى لو عرف المرء أن نفس الجريمة بالضبط أُدينت في حالة أخرى، وحتى لو اعترف المرء بشكل عقلي أنها غير مبررة - رغم ذلك لا يستطيع الشعور بأنها خطأ. بمجرد إشراك الولاء، تتوقف الشفقة عن تأدية وظيفتها.

سبب عودة القومية وانتشارها سؤال أكبر بكثير من أن يطرح هنا. يكفي القول، في الأشكال التي تظهر فيها وسط المثقفين الإنكليز، أنها انعكاس مشوه للمعارك البغيضة التي تحدث فعلياً في العالم الخارجي، وأن أسوأ حماقاتها باتت ممكنة من خلال تعطيل الوطنية والمعتقد الديني. لو تابع المرء تسلسل هذه الأفكار سيكون مهدداً بالانقياد إلى نوع من النزعة المحافظة أو إلى التصوف السياسي. ويمكن الجدل بشكل عقلاني، مثلاً - وحتى صحيح - أن الوطنية لقاح ضد القومية، وأن الملكية حماية من الديكتاتورية، وأن الدين المنظم حارس ضد الخرافة. أو مرة أخرى بالجدل بعدم وجود رأي غير منحاز، وأن كل العقائد والقضايا تتضمن نفس الأكاذيب والحماقات والأعمال البربرية؛ وهذا يُقدم كمبرر دائماً تقريباً للابتعاد عن السياسة برمتها. أنا لن أقبل بهذه الحجة، حتى لو لم يكن هناك واحد فقط يمكن وصفه بالمثقف في العالم الحديث يستطيع الابتعاد عن السياسة بمعنى عدم الاكتراث بها. أعتقد أن على المرء أن ينهمك بالسياسة - أستعمل الكلمة بعناها الواسع - ويجب أن تكون لديه خياراته المفضلة: أي يجب أن يعترف أن بعض القضايا أفضل بشكل موضوعي من الأخرى، حتى لو قُدمت على التساوي بوسائط سيئة. إن لأشياء التي يحبها القومجيون ويكرهونها التي تكلمت عنها، هي جزء من تركيبتنا كلنا إن أحببناها أم كرهناها. أنا لا أعرف إن كان التخلص منها ممكناً أم لا، لكنني أعتقد أن الصراع ضدها ممكن وأنها محاولة أخلاقية أساساً. أولاً وقبل كل شيء، هي مسألة اكتشاف المرء لما يكونه في الحقيقة وما هي مشاعره الحقيقية، ومن ثم التفكير ملياً في الانحياز المحتوم. إن كنت تكره روسيا وتخشاها، أو كنت غيوراً من ثروة أمريكا وقوتها، أو كنت تحتقر اليهود، أو كان لديك شعور بالدونية اتجاه الطبقة الإنكليزية الحاكمة، فإنك لا تستطيع التخلص من تلك المشاعر بمجرد معرفتك بها والتفكير فيها، لكنك تستطيع الاعتراف بأنها لديك على الأقل ومنعها من تلويث صيرورتك العقلية. يجب على الحوافز العاطفية التي لا مفر منها والتي قد تكون ضرورية للفعل السياسي حتى، أن تكون قادرة على التعايش جنباً إلى جنب مع القبول بالحقيقة. لكن أكرر وأقول إن هذا يحتاج إلى جهد أخلاقي. ويظهر الأدب الإنكليزي المعاصر بقدر إدراكه لقضايا زمننا الرئيسية، أن المستعدين لبذل هذا الجهد قلة قليلة.

الأسد ووحيد القرن:
الاشتراكية والعبقرية الإنكليزية

القسم الأول: إنكلترا إنكلترتكم.

١ – وأنا اكتب الآن، هناك مخلوقات بشرية قمة في التمدن، تطير فوق رأسي وتحاول قتلي.

هم لا يكنون أية عداوة ضدي كفرد، وأنا لا أضمر لهم الشر بالمثل أيضاً، لكنهم "يقومون بما يفرضه عليهم واجبهم فقط" كما يقال. ولا أشك بأن أغلبهم طيبو القلب ومطيعون للقانون، ولم يحلموا بارتكاب أية جريمة في حياتهم الخاصة. ومن جانب آخر، إذا نجح أحدهم في قصفي وتمزيقي بقنبلة توضع في مكان مناسب، فلن يتورع عن ذلك، فهو يخدم البلاد التي لها السلطة التي تحله من شر عمله.

لا يستطيع المرء أن يرى العالم الحديث، حتى يدرك قوة الوطنية الغامرة والولاء القومي. في ظروف معينة يمكن للعاطفة القومية أن تنهار وألا تتواجد في مستويات محددة من الحضارة، لكنها تظل قوة إيجابية لا يضاهيها شيء. وتعتبر المسيحية والاشتراكية الأممية مجرد قشة مقارنة بها. وصعد كل من هتلر وموسوليني إلى السلطة في بلديهما بقوة، لأنهما استوعبا هذه الحقيقة التي لم يفهمها غيرهما.

ويجب أن يعترف المرء أيضاً بأن التقسيمات بين أمة وأمة أخرى، تُؤسس على اختلافات حقيقية في وجهات النظر. حتى وقت متأخر، ظل الاعتقاد المناسب هو التظاهر بأن كل البشر متماثلين جداً، لكن في الواقع كل من يستطيع استخدام عينيه، يعرف أن السلوك البشري العادي يختلف من دولة إلى أخرى. الأشياء التي يمكن حدوثها في بلاد ما، يستحيل حدوثها في بلاد أخرى. إن أعمال التطهير التي ارتكبها هتلر في حزيران، لا يمكن أن تحدث في إنكلترا. وكما ترى الشعوب الغربية إن الإنكليز مختلفون بشكل كبير. يوجد نوع من الاعتراف غير المباشر بهذا في الكره الذي يشعر به كل الأجانب تقريباً نحو طريقتنا القومية في الحياة. لا تستطيع سوى ثلة من الأوروبيين تحمل العيش في إنكلترا. وحتى الأمريكان يشعرون بالارتياح في أوروبا في أكثر الأحوال.

حين تعود إلى إنكلترا من بلاد أجنبية، يتكون لديك الإحساس بأن تتنفس هواء مختلفاً. عشرات الأشياء الصغيرة تتعاون منذ الدقائق القليلة الأولى لتعطيك هذا الشعور: البيرة أشد مرارة والنقود المعدنية أثقل والعشب أكثر اخضراراً، والإعلانات أكثر صخباً. حشود الناس في البلدات الكبيرة بوجوههم اللطيفة الملوية وأسنانهم الرديئة وطرائقهم الدمثة، تختلف عن الحشود الأوروبية. ثم تبتلعك سعة إنكلترا، وتفقد للحظة شعورك بأن للأمة كلها شخصية مستقلة وحيدة. هل توجد فعلاً أشياء كهذه في الأمم مثلاً؟ ألسنا ستة وأربعون مليون فرد مختلفين؟ اختلافها وتنوعها هو الفوضى! قعقعة القباقيب في بلدات لانكشاير الصناعية والشاحنات الذاهبة والعائدة على طريق الشمال العظيم والطوابير خارج مكاتب التشغيل والتوظيف، وجلبة طاولات البولينغ في حانات سوهو، ونزهة العذراوات الكبيرات في السن إلى العشاء الرباني عبر غشاوة سديم صباح خريفي - كل هذه الأشياء ليست سوى شظايا، لكنها شظايا مميزة للمشهد الإنكليزي. كيف يستطيع المرء صنع نمط من هذا الخليط المشوش؟

لكن تحدث مع الأجانب واقرأ كتباً وصحفاً أجنبية، وستعود إلى التفكير نفسه. نعم هناك شيء مميز ومدرك في الحضارة الإنكليزية. إنها حضارة فذة وفريدة كحضارة إسبانيا. إنها مرتبطة بشكل ما بوجبات إفطار صلبة وأيام آحاد كئيبة وبلدات ينبعث منها الدخان وطرق متعرجة وحقول خضراء وصناديق البريد العمودية الحمراء. فيها نكهة خاصة بها. علاوة على ذلك إنها مستمرة، تمتد إلى المستقبل والماضي، يوجد شيء ما فيها يواصل بعزم وعناد كما في أي مخلوق حي. ما هو المشترك والمتشابه بين إنكلترا عام ١٩٤٠ وإنكلترا عام ١٨٤٠؟ لكن عندئذ ما هو المشترك بينك وبين الطفل ابن الخمس سنوات الذي تحتفظ أمك بصورته على رف الموقد؟ لا شيء باستثناء أن صادف وكنت الشخص نفسه.

أولاً وقبل كل شيء إنها حضارتك، إنها أنت. مهما كرهتها أو سخرت منها لن تكون سعيداً أبداً بعيداً عنها لأي فترة من الزمن. الحلوى الدهنية وصناديق البريد الحمراء دخلت إلى روحك. إنها أنت سواء كانت خيرة أم شريرة، وأنت تنتمي إليها ولن تستطيع الهروب أبداً من العلامات التي أعطاها لك هذا الجانب من القبر.

إن إنكلترا المعاصرة تتغير، وكذلك بقية العالم في الوقت الحالي. ومثل أي شيء آخر تستطيع التغير في اتجاهات محددة فقط، يمكن التنبؤ بها إلى حد ما، لكن هذا لا يعني أن

المستقبل ثابت فيه بدائل محددة ممكنة وبدائل أخرى غير ممكنة. يمكن لأية بذرة أن تنمو أو لا تنمو، لكن في كل الأحوال لن تنمو بذرة اللفت في جزرة بيضاء أبداً. لذلك من الأهمية القصوى أن نحاول ونحدد أي إنكلترا تكون، قبل التخمين حول القسم من إنكلترا الذي يستطيع أن يلعب في الأحداث الضخمة التي تحدث الآن.

٢ - ليس من السهل تحديد الصفات القومية، وحين تحدد تبدو تفاهات لا علاقة بينها. الإسبان قساة في معاملة الحيوانات، والطليان لا يستطيعون القيام بأي شيء دون إصدار ضجيج صام للآذان، والصينيون مدمنون على القمار. من الواضح أن هذه الأشياء لا تعني شيئاً بحد ذاتها. لكن رغم ذلك لاشيء بلا سبب، وواقع أن للإنكليز أسناناً رديئة، يمكن أن يخبرنا شيئاً ما عن حقائق الحياة الإنكليزية.

هناك تعميان حول إنكلترا. الأول أن الإنكليز ليسوا موهوبين فنياً. ليسوا موسيقيين مثل الألمان أو الإيطاليين، ولم يزدهر التصوير الزيتي والنحت في إنكلترا كما في فرنسا. الثاني أن الإنكليز ليسوا مفكرين. لديهم رعب من التفكير المجرد، لا يشعرون بالحاجة إلى الفلسفة أو وجهة النظر العالمية المنظمة، وهذا ليس لأنهم "عمليون"، كما هم مغرمون في نسب هذا لهم. على المرء فقط أن ينظر إلى أساليبهم في تخطيط المدن والإمداد بالمياه وتشبثهم العنيد بكل شيء قديم ومزعج - نظام هجائي يتحدى التحليل، ونظام في الوزن والقياس لا يفهمه سوى مؤلفو كتب الحساب - ليرى مدى قلة اهتمامهم بالكفاءة. لكنهم يملكون قدرة معينة للعمل بدون الأمل والتفكير. رياؤهم المشهورون به عالمياً - مواقفهم المزدوجة نحو الإمبراطورية مثلاً - مرتبط بهذا. وأيضاً في لحظات أزمة ما شديدة الخطورة، تلتقي الأمة بكاملها معاً وتتصرف بنوع من الغريزة، وفي شيفرة سلوكية يفهمها كل واحد تقريباً رغم أنها لم تُصغ أبداً. إن العبارة التي صاغها هتلر للألمان "شعب يمشي وهو نائم" يمكن أن تنطبق على الإنكليز بشكل أفضل، بالرغم من عدم وجود ما يدعو للفخر في هذا اللقب.

لكن من الجدير الانتباه إلى ميزة إنكليزية ثانوية، لُوحظت جيداً لكن لم يُعلق عليها كثيراً، وهي حب الزهور. هذه واحدة من الأشياء الأولى التي يلاحظها المرء حين يصل إلى إنكلترا من الخارج، خصوصاً إن كان قادماً من جنوب أوروبا. ألا تتناقض هذه مع لامبالاة الإنكليز بالفنون؟ لا في الحقيقة، لأنها موجودة في أناس ليس لديهم أحاسيس جمالية أياً كانت. إنها

ترتبط بميزة إنكليزية أخرى لم يلاحظها جزء كبير منا، وهي الإدمان على الهوايات والنشاطات التي تمارس في وقت الفراغ. إنها خصوصية الحياة الإنكليزية. نحن أمة من عاشقي الزهور، لكننا أمة من جامعي الطوابع ومربي الحمام والنجارين الهواة ومن قناصي الكوبونات ولاعبي سهام الريشة ومن أنصار ألغاز الكلمات المتقاطعة. كل الثقافة الأصيلة الحقيقية تتركز حول أشياء ليست رسمية، حتى عندما تكون شعبية ومشاعية، مثل الحانة ومباراة كرة القدم والحديقة الخلفية وطرف الموقد و"كأس الشاي اللذيذ". لا تزال حرية الفرد موضع تصديق وإيمان كما كانت في القرن التاسع عشر تقريباً. لكن هذا لا علاقة له بالحرية الاقتصادية، الحق في استغلال الآخرين من أجل الربح. إنها الحرية بأن تمتلك بيتاً لك وتفعل ما تحب في وقت فراغك، وتختار تسليتك بدلاً من أن يتم اختيارها لك من الأعلى. أكثر الأسماء كرهاً في الأذن الإنكليزية هو نوزي باركر (كناية عن الشخص الفضولي والمتطفل - المترجم). من الواضح طبعاً أن حتى هذه الحرية الشخصية قضية خاسرة. إن الشعب الإنكليزي ككل الشعوب العصرية يمر بعملية متواصلة من التعداد والإحصاء والتصنيف والتجنيد الإجباري والتنسيق. لكن قوة جذب بواعثهم في الاتجاه الآخر. ونتيجة لذلك سوف يُعدل نوع النظام الصارم الذي يمكن أن يُفرض عليهم. لن تكون هناك حشود حزبية كبيرة أو حركات شبابية أو قمصان ملونة أو مضايقة لليهود أو مظاهرات "عفوية" ولا جيستابو أيضاً بالتأكيد.

لكن في كل المجتمعات، يجب على عامة الناس أن يعيشوا ضد النظام القائم إلى حد ما. الثقافة الشعبية الأصيلة لإنكلترا هي شيء يستمر تحت السطح، بطريقة غير رسمية ومستنكرة من قبل السلطات. شيء واحد يلاحظه المرء إن نظر مباشرة إلى عامة الناس، خصوصاً في البلدات الكبيرة، أنهم ليسوا متزمتين. هم يقامرون بإدمان ويشربون البيرة بالقدر الذي تسمح لهم فيه أجورهم، ويكرسون أنفسهم للدعابات الفاسقة، ويستعملون أشنع لغة في العالم ربما. هم مضطرون لإرضاء هذه الأذواق في وجه قوانين مرائية مذهلة (قوانين الترخيص ومراسيم اليانصيب، إلخ.. إلخ) صُممت كي تتدخل في كل شخص، لكنها عملياً تسمح بحدوث أي شيء. أيضاً ليس للعامة معتقد ديني محدد، وهم هكذا منذ قرون. لم يكن للكنيسة الإنكليزية قبضة حقيقية عليهم أبداً، إنها مجرد حامية لطبقة ملاكي الأراضي، والطوائف المنشقة مجرد أقليات متأثرة. ومع ذلك احتفظوا بمسحة عميقة من الشعور المسيحي، في الوقت الذي نسوا

فيه اسم المسيح تقريباً. إن عبادة السلطة - الدين الجديد لأوروبا - التي أصابت بعدواها الطبقة المثقفة الإنكليزية لم تلمس العوام أبداً. لم يتورطوا أبداً في سياسة القوة و"الواقعية" التي وعظت بها الصحف اليابانية والإيطالية، وكانت ترعبهم. يستطيع المرء أن يتعلم الكثير حول روح إنكلترا من البطاقات البريدية الملونة الهزلية التي تراها في واجهات محلات القرطاسية الرخيصة. هذه الأشياء نوع من مفكرة دوّن الإنكليز أنفسهم عليها. نظرتهم القديمة الطراز وعجرفتهم المتدرجة ومزجهم بين الفسق والرياء ودماثتهم المفرطة وموقفهم الأخلاقي العميق من الحياة، كلها معكوسة هناك.

ربما تكون رقة الحضارة الإنكليزية أهم صفة مميزة فيها. تلاحظها بمجرد أن تطأ قدمك التراب البريطاني. إنها بلاد فيها محصلو الحافلات دمثون ورجال الأمن لا يحملون المسدسات. لا توجد بلاد سكنها الناس البيض يمكن إبعاد الناس عن الرصيف فيها بطريقة أسهل منها. ومع هذا يسري شي نبذه المراقبون الأوروبيون دائماً ووصفوه بـ"الانحطاط" أو الرياء، وهو الكره الإنكليزي للحرب والعسكرة. إنه متجذر عميقاً في التاريخ وقوي في الطبقات الوسطى الدنيا والطبقة العاملة أيضاً. هزته حروب متتالية لكنها لم تدمره. في الذاكرة الحية من المألوف تماماً أن تُطلق صيحات استهجان على "المعاطف الحمراء" في الشوارع، وأن يرفض أصحاب الحانات المحترمة السماح بدخول الجنود لمجرد الافتراض أنهم جنود. في زمن السلم حتى حين يكون هناك أكثر من مليوني عاطل عن العمل، من الصعب أن تملأ صفوف الجيش الصغير الدائم الذي تديره طبقة نبلاء البلاد وشريحة مختصة من الطبقة الوسطى ويشكل قوامه الأساسي عمال المزارع وبروليتاريو الأحياء الفقيرة. ليس لدى جمهور الناس أي معرفة عسكرية أو تقليد، وموقفهم من الحرب دفاعي بشكل ثابت، ولم يتمكن أي سياسي من الصعود إلى السلطة من خلال تمهده بغزو أو مجد عسكري، ولم تنجح أية ترنيمة كره في جذبهم. في الحرب الأخيرة، لم تكن الأغاني التي ألّفها الجنود بأنفسهم انتقامية، وإنما هزلية وانهزامية ساخرة.[1]

---

١ - (مثال على ذلك: أنا لا أريد أن التحق بالجيش الدموي/ أنا لا أريد أن أذهب إلى الحرب / لا أريد المزيد من التجوال/ أفضل البقاء في البيت / أقتات على ما تكسبه عاهرة. لكنهم لم يقاتلوا أبداً بتلك الروح. كان العدو الوحيد الذي سموه قط هو الرقيب الأول. حاشية المؤلف).

في إنكلترا كل التبجح والتلويح بالأعلام وهراء "احكم بريطانيا" تم فعله من قبل أقليات صغيرة. وطنية الناس العاديين ليست صريحة أو متعمدة. هم لا يحتفظون بذاكرتهم التاريخية ولو باسم انتصار عسكري واحد. الأدب الإنكليزي كغيره من الآداب، يغص بقصائد المعارك، لكن الجدير بالملاحظة أن القصائد التي نالت لنفسها نوعاً من الشعبية، هي دائماً حكاية النكبات والانسحابات. ليس هناك قصيدة واحدة محبوبة عن ترافيلغار أو واترلو مثلاً. جيش السير جون مور في كورونا، الذي كان يخوض معركة دفاعية يائسة في المؤخرة قبل الفرار عبر البحار (مثل دونكيرك تماماً!) لها جاذبية أكبر من انتصار مشرق. أكثر قصيدة معركة محركة للمشاعر في الإنكليزية، هي واحدة حول لواء من سلاح الفرسان عُبئ في الاتجاه الخاطئ. وفي الحرب الأخيرة، الأسماء الأربعة التي نقشت نفسها حقيقة في الذاكرة الشعبية هي مونس وايبر وغاليبولي وياسشينديل وكلها نكبات. أسماء المعارك الكبرى التي انكسرت فيها الجيوش الألمانية غير معروفة تماماً لعموم الشعب.

إن السبب الذي يجعل النزعة الإنكليزية المعادية للعسكرة تثير اشمئزاز المراقبين الأجانب، هو تجاهلها لوجود الإمبراطورية، وهي تبدو مجرد رياء. فأولاً وأخيراً امتص الإنكليز ربع الأرض وسيطروا عليها بواسطة أسطول بحري ضخم، فكيف يجرؤون على الالتفات بعدئذ والقول بأن الحرب شريرة؟

صحيح تماماً أن الإنكليز مراؤون بخصوص إمبراطوريتهم، وهذا الرياء عند الطبقة العاملة يأخذ الشكل المتمثل في جهلهم وعدم معرفتهم بوجود الإمبراطورية، لكن كرههم للجيوش الدائمة غريزة صحيحة تماماً. توظف البحرية عدد قليل من الناس نسبياً، وهي سلاح خارجي لا يمكنه التأثير على السياسة الداخلية مباشرة. تتواجد الديكتاتوريات العسكرية في كل مكان، لكن لا يوجد شيء اسمه ديكتاتورية بحرية. ما يشمئز منه الشعب الإنكليزي في كل طبقاته تقريباً ومن صميم قلوبهم، هو أنموذج الضابط المختال وجلجلة المهاميز وصوت الأحذية العسكرية. قبل أن يُسمع بهتلر بعقود، كان لكلمة "بروسي" نفس القدر من المعنى في إنكلترا الذي تحمله كلمة "نازي" اليوم. هذا الشعور متجذر في الأعماق، لذلك منذ مائة سنة مضت كان ضباط الجيش البريطاني في أوقات السلم، يلبسون دائماً ثياباً مدنية حين يكونون خارج أوقات العمل.

أحد المعالم الدالة السريعة والأكيدة تماماً على الجو الاجتماعي للبلاد، هو الاستعراض العسكري لجيشها. الاستعراض العسكري حقيقة، هو نوع من الرقص الشعائري، وشيء مثل رقص الباليه، وتعبير عن فلسفة معينة في الحياة، وخطوة الوزة مثلاً واحدة من أكثر المناظر رهبة في العالم، مرعبة أكثر من الطائرة القاذفة. إنها مجرد تأكيد للقوة السافرة؛ تتضمن عمداً وبشكل مقصود صورة حذاء عسكري يدوس بقوة على وجه بشري ويسحقه. قبحه جزء من جوهره، لأنه يقول "نعم أنا قبيح لكنكم لا تجرؤون أن تسخروا مني"، مثل المستأسد الذي يسخر من ضحيته. لماذا مشية الوزة غير مستخدمة في إنكلترا؟ يوجد الكثيرون من ضباط الجيش الذين يسرهم إدخال مثل هذا الشيء. إنها غير مستخدمة، لأن الناس في الشارع سيضحكون ويسخرون منها. إن العرض العسكري ممكن فقط في البلدان التي لا يجرؤ فيها الناس العاديون على السخرية من الجيش. تبنى الإيطاليون مشية الوزة في الوقت الذي مرت فيه إيطاليا بوضوح تحت السيطرة الألمانية، وكما للمرء أن يتوقع، فعلوها بإتقان أقل من الألمان. ولو بقيت حكومة فيشي حية، لأدخلت قواعد انضباط أقسى للاصطفاف والاستعراض وطبقتها على ما تبقى من الجيش الفرنسي. في الجيش البريطاني، التدريب صارم ومعقد ومليء بالذكريات من القرن الثامن عشر، لكن بدون اختيال واضح ومحدد، والمشية العسكرية مجرد مشية شكلية. إنها تنتمي إلى مجتمع يحكمه السيف بلا شك، لكنه سيف يجب ألا يُستل من غمده أبداً.

مع ذلك إن رقة الحضارة الإنكليزية اختلطت بأعمال بربرية ومفارقات تاريخية. قانونها الجنائي قديم مثل البنادق القديمة التي في البرج. بمواجهة جنود العاصفة النازيين، عليك أن تطلق تلك الشخصية النمطية الإنكليزية: القاضي الشناق المتنمر العجوز الملطخ بالدم، الذي تجذر عقله في القرن التاسع عشر، يوزع الأحكام الوحشية. لازال الناس في إنكلترا يُشنقون من رقابهم ويُجلدون بالسياط. هاتان العقوبتان فاحشتان وقاسيتان، لكن لم يكن هناك أي احتجاج شعبي صادق ضدهما. الناس قبلوا بهما (ودارتمور - سجن في ديفون - المترجم - وبورستال - سجن للمجرمين القاصرين - المترجم) كما قبلوا بالطقس تقريباً، وهما جزء من القانون الذي يبدو غير قابل للتغيير.

وهنا نصل إلى الصفة الإنكليزية الأكثر أهمية والمميزة: احترام الدستورية والشرعية والإيمان بالقانون كشيء فوق الدولة وفوق الأفراد، وهي صفة قاسية وغبية طبعاً، لكنها غير قابلة للفساد في أي حال.

ليس الأمر أن الكل يتخيلون أن القانون عادل، فكل واحد منهم يعرف أن هناك قانوناً للأغنياء وآخر للفقراء، لكن لا أحد يقبل مضامين هذا، وكلهم يسلمون بديهياً بأن القانون، كما هو عليه، يجب أن يُحترم، ويشعرون بإحساس من الإهانة إن لم يكن كذلك. ملاحظات مثل "لا يستطيعون اعتقالي وحبسي، أنا لم أرتكب أي خطأ" و"لا يستطيعون فعل ذلك؛ فهو مخالف للقانون" هي جزء من الجو في إنكلترا. أعداء المجتمع المعترف بهم، لديهم هذا الشعور بقوة مثل أي شخص آخر. يراه المرء في كتب السجن مثل كتاب ويلفريد مكارثي للجدران أفواه أو كتاب جيم فيلان رحلة في السجن وفي البلاهات الرزينة التي تحدث في محاكمات (السلاميين) رافضي حمل السلاح لأسباب عقائدية، وفي الرسائل التي تصل من الأساتذة الجامعيين الماركسيين إلى الصحف الذين يشيرون بأن هذا أو ذاك "إجهاض للعدالة البريطانية". كل شخص يؤمن من صميم قلبه بأن القانون يمكن ويجب وفي المجمل أن يُدار بتحيز ونزاهة. إن الفكرة الديكتاتورية التي لا ترى وجوداً لشيء اسمه القانون ولا ترى إلا القوة فقط، لم تتجذر أبداً. حتى الإنتلجنسيا لم تتقبلها إلا نظرياً فقط.

يمكن للوهم أن يصبح شبه حقيقة، ويستطيع القناع أن يبدل ملامح الوجه. الجدل المألوف الذي فحواه أن الديمقراطية "تماماً مثل" أو "سيئة مثل" الحكم الشمولي، لم يأخذ في حسابه هذا الواقع أبداً. كل هذه الجدالات تنتهي إلى القول بأن نصف الرغيف مثل عدم وجود خبز تماماً. في إنكلترا مازال الناس يؤمنون بمفاهيم كالعدالة والحرية والحقيقة الموضوعية مثلاً، التي قد تكون أوهاماً، لكنها أوهام جبارة جداً والإيمان عليها يؤثر على السلوك، وبسببها تختلف الحياة القومية، ولإثبات أي منها انظر حولك فقط. أين الهراوات المطاطية وأين زيت القندس؟ لايزال السيف في غمده، وطالما هو هناك لا يستطيع الفساد أن يتجاوز نقطة معينة. إن النظام الانتخابي الإنكليزي مثلاً كله خداع، لكنه صريح، وبدزينة من الطرق البينة يُقسّم إلى مناطق انتخابية لفائدة الطبقة الثرية، لكنه لا يستطيع أن يصبح فاسداً تماماً حتى يحدث تغيير عميق في عقل الشعب. أنت لا تصل إلى كشك الاقتراع لتجد رجالاً يحملون المسدسات ويأمرونك بالطريقة التي يجب أن تنتخب فيها، ولا يحصل أي خطأ في تعداد الأصوات، وليس هناك أية رشوة مباشرة. حتى الرياء حماية جبارة. إن القاضي الشناق الرجل العجوز في الرداء القرمزي والشعر المستعار الذي لا يمكنك أن تعلمه بأي قرن يعيش،

لا يقل عن الديناميت، ولكنه أيضاً يفسر القانون وفقاً للكتب، ولا يأخذ رشوة مالية بأي ظرف كان، هو واحد من الشخصيات الرمزية في إنكلترا. إنه رمز للخليط الغريب من الواقع والوهم ومن الديمقراطية والامتياز ومن الدجل والاحتشام، وهو الشبكة المصقولة من التسويات التي تحفظ الأمة بواسطتها شكلها المألوف.

٣ - لقد كنت أتكلم عن "الأمة"، "إنكلترا" كما لو أن التعامل مع خمس وأربعين مليون روح كوحدة واحدة ممكناً. لكن أليست إنكلترا أمتين، الفقراء والأغنياء؟ هل هناك من يجرؤ ويزعم بوجود أي شيء مشترك بين أناس دخلهم السنوي ١٠٠,٠٠٠ جنية في السنة وأناس دخلهم جنيه واحد في الأسبوع؟ حتى أن القراء الويلزيين والاسكتلنديين يشعرون بالإهانة لأنني أستخدم دائماً كلمة إنكلترا وليس بريطانيا، كما لو أن كل السكان استوطنوا في لندن، وليس لمقاطعات المركز ولا الشمال أو الغرب أي حضارة بحد ذاتها.

يمكن للمرء أن يرى هذه القضية بشكل أفضل، لو اهتم بالنقاط الثانوية أولاً. صحيح أن السلالات البريطانية تشعر باختلافها عن بعضها البعض، فالاسكتلندي لا يشكرك حين تناديه بالإنكليزية. نستطيع رؤية التردد الذي نحس به في هذه النقطة بحقيقة أننا نسمي جزرنا بما لا يقل عن ستة أسماء مختلفة: إنكلترا وبريطانيا وبريطانيا العظمى والجزر البريطانية والمملكة المتحدة، وفي لحظات الصفاء الكبيرة البيون. حتى الاختلافات بين الشمال والجنوب، تبدو ضخمة في عيوننا. لكن بطريقة ما تتلاشى هذه الاختلافات في اللحظة التي يتواجه فيها بريطانيان اثنان مع أوروبي. من النادر أن تقابل أجنبياً غير الأمريكي، يستطيع التمييز بين الإنكليز والاسكوتلنديين أو حتى بين الإنكليز والإيرلنديين. بالنسبة إلى الفرنسي يبدو البريتوني والأوفري كائنين مختلفين جداً، وتثير لهجة المرسيليين دعابة كبيرة في باريس. ومع ذلك نحن نتكلم عن "فرنسا" و"الفرنسيين" مقرين بفرنسا ككيان وحضارة متفردة، وهي في الواقع كذلك وكذلك نحن أيضاً. فحتى الكوكني واليوركشايري بينهما شبه عائلي قوي حين ينظر إليهما الغريب.

وحتى التمييز والفرق بين الأغنياء والفقراء يتضاءل نوعاً ما، حين ينظر المرء إلى الأمة من الخارج. ليس هناك شك في عدم التساوي في الثروة في إنكلترا. إنه أفدح من أي بلد أوروبي، وما عليك إلا أن تنظر إلى أقرب شارع إليك حتى ترى ذلك. اقتصادياً، إنكلترا أمتان بالتأكيد إن لم تكن أربعة. لكن في الوقت نفسه فإن الغالبية الواسعة من الناس يشعرون بأنهم أمة

واحدة، ويدركون التشابه فيما بينهم أكثر من تشابههم مع الأجانب. الوطنية عادة أقوى من الكره الطبقي وأقوى دائماً من أي نوع من الأممية. لم تفكر الطبقة العاملة البريطانية أو تتصرف بشكل أممي أبداً ماعدا لحظة قصيرة في عام ١٩٢٠ حركة (لا تتدخلوا في روسيا). لسنتين ونصف راقبوا رفاقهم في إسبانيا وهم يُخنقون ببطء ولم يساعدوهم ولو بإضراب واحد.[1]

لكن حين كانت بلادهم (بلاد لورد نوفيلد والسيد مونتاغ نورمان) في خطر كان موقفهم مختلفاً جداً. في اللحظة التي بدت فيها إنكلترا معرضة للغزو، ناشد أنتوني ايدن من خلال الإذاعة متطوعين محليين للدفاع، فحصل على ربع مليون رجل في الساعات الأربع والعشرين الأولى ومليون رجل آخر في الشهر التالي. يجب على المرء أن يقارن هذه الأرقام مثلاً مع عدد الرافضين للقتال، ليرى المدى الواسع لقوة الولاءات التقليدية مقارنة بالولاءات الجديدة.

في إنكلترا تأخذ الوطنية أشكالاً مختلفة في الطبقات المختلفة، لكنها تسري كخيط واصل بينها كلها. فقط طبقة المثقفين المتأوربين هي المنيعة عن ذلك. كعاطفة موجبة هي في الطبقة الوسطى أقوى مما هي عليه في الطبقة العليا - المدارس الخاصة الرخيصة مثلا، مكرسة للمظاهرات الوطنية أكثر من المدارس الغنية - لكن عدد الرجال الأغنياء الخونة على نحو واضح، أنموذج لافال - كويسلينغ، صغير ربما. الوطنية عند الطبقة العاملة عميقة، لكنها غير واعية. قلب الرجل العامل لا يثب حين يرى العلم الاتحادي. لكن "العزلة" و"الخوف من الأجانب" اللذين يشتهر بهما الإنكليز، أقوى بكثير في الطبقة العاملة منه في البورجوازية. في كل البلدان، الفقراء أكثر وطنية من الأغنياء، لكن الطبقة العاملة الإنكليزية بارزة في بغضها للعادات الأجنبية. حتى عندما يُكرهون على العيش خارج البلاد لسنوات، يرفضون أقلمة أنفسهم على الطعام الأجنبي أو تعلم اللغات الأجنبية. كل إنكليزي تقريباً أصوله من الطبقة العاملة، يعتبر لفظ كلمة أجنبية بشكل صحيح تخنثاً. أثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ كانت الطبقة العاملة في تماس مع الأجانب بأدنى حد ممكن. كانت النتيجة الوحيدة أنهم جلبوا معهم كره الأوروبيين، ماعدا الألمان، الذين أعجبوا بشجاعتهم. في أربع سنوات على التراب الفرنسي لم يكتسبوا حب النبيذ. "عزلة" الإنكليز، رفضهم لأخذ الأجانب على محمل الجد،

١ - (صحيح أنهم ساعدوهم إلى حد معين بالمال، لكن المبلغ المجموع للصناديق المخصصة لمساعدة إسبانيا لم يكن يساوي خمسة بالمائة من دخل رهانات كرة القدم أثناء الفترة نفسها). حاشية المؤلف.

حماقة كان عليهم دفع تكلفتها غالياً من حين إلى آخر. لكنها تلعب دورها في الغموض الإنكليزي، والمثقفون الذين حاولوا تحطيمها سببوا ضرراً أكبر من الفائدة بشكل عام. في القاع إنها نفس الصفة في الشخصية الإنكليزية التي تنفر من السائح وتطرد الغازي.

هنا نعود إلى صفتين مميزتين إنكليزيتين أشرت إليهما، عشوائياً على ما يبدو، في بداية الفصل الأخير. الأولى نقص البراعة الفنية. هذه ربما طريقة أخرى للقول بأن الإنكليز خارج الثقافة الأوروبية، إذ ليس هناك سوى فن واحد أظهروا فيه وفرة من الموهبة - أقصد الأدب، لكنه أيضاً الفن الوحيد الذي لا يستطيع عبور الحدود. الأدب وخصوصاً الشعر والشعر الغنائي أغلبه نوع من المزاح العائلي، مع قيمة قليلة أو بلا قيمة خارج مجموعته اللغوية الخاصة به. ماعدا شكسبير، أفضل الشعراء الإنكليز غير معروفين في أوروبا حتى كأسماء إلا نادراً. الشعراء الوحيدون الذين تُقرأ أعمالهم على نطاق واسع هما بايرون الذي نال الإعجاب لأسباب خاطئة وأوسكار وايلد، الذي رُثي بأنه ضحية للرياء الإنكليزي. وارتبط بهذا، لكن ليس بشكل واضح جداً، نقص القدرة الفلسفية، الغياب وسط الإنكليز كلهم لأي حاجة لمنظومة فكرية مرتبة أو حتى لاستخدام المنطق.

إلى حد ما، الإحساس بالوحدة الوطنية بديل عن "رؤية عالمية". فقط لأن الوطنية عالمية تقريباً ويتأثر بها ليس الأغنياء فقط، يمكن أن تكون هناك لحظات تتمايل فيها الأمة معاً فجأة وتفعل الشيء نفسه، مثل قطيع من الماشية يواجه ذئباً. كانت هناك مثل تلك اللحظة، بوضوح، في زمن النكبة في فرنسا. بعد ثمانية أشهر من التساؤل الغامض حول السبب الذي اندلعت من أجله الحرب، عرف الناس فجأة ما يجب عليهم أن يفعلوه: أولاً، ترحيل الجيش من دونكيرك، وثانياً منع الغزو. كانت مثل يقظة عملاق. أسرع! خطر! الفلسطينيون فوقك يا شمشون! ثم بعد ذلك العمل الجماعي السريع - و، من ثم، وأسفاه، الارتداد العاجل إلى النوم. في أمة مقسومة كان ذلك بمقدوره أن يكون اللحظة المناسبة من أجل نهوض حركة سلام كبيرة. لكن هل هذا يعني أن غريزة الإنكليز ستخبرهم بفعل الشيء الصحيح دائماً؟ لا إطلاقاً. هي ستخبرهم بفعل الشيء عينه. في الانتخاب العام لسنة ١٩٣١ مثلاً فعلنا كلنا الشيء الخطأ في انسجام تام، وكنا عنيدين مثل خنزير إدارين، لكنني أشك بصدق إن كنا نستطيع القول بأننا دُفعنا إلى أسفل المنحدر دون رغبة منا.

هذا يؤدي إلى أن الديمقراطية البريطانية أقل من الخداع الذي تظهر به أحياناً. لا يرى المراقب الأجنبي سوى عدم المساواة الهائل في الثروة والنظام الانتخابي غير العادل وسيطرة الطبقة الحاكمة على الصحافة والإذاعة والتعليم، ويستنتج بأن الديمقراطية مجرد اسم مهذب للديكتاتورية. لكن هذا يتجاهل الاتفاق المهم الموجود لسوء الحظ بين القادة والمنقادين. مهما كره المرء أن يعترف به، من المؤكد تقريباً أن بين ١٩٣١ و١٩٤٠ مثلت الحكومة الوطنية إرادة الجمهور الكبير من الشعب. لقد تسامحت مع الأحياء الفقيرة، والبطالة والسياسة الخارجية الجبانة. نعم، لكن هكذا فعل الرأي العام. كانت فترة ركود، وقادتها الطبيعيون كانوا معتدلي القدرة.

رغم الحملات لبضعة آلاف من الأجنحة اليسارية، من المؤكد تماماً أن السواد الأعظم من الشعب الإنكليزي كان خلف سياسة تشامبرلاين الخارجية بل أكثر، من المؤكد تماماً أن نفس الصراع كان دائراً في ذهن تشامبرلاين كما في أذهان الناس العاديين. قبل خصومه بأن يروا فيه مخططاً مراوغاً غامضاً يتآمر لبيع إنكلترا إلى هتلر، لكنه على الأرجح كان مجرد عجوز غبي بذل أقصى جهده وفقاً لأضوائه الباهتة جداً، وإلا من الصعب تفسير تناقضات سياسته وفشله في إدراك المسارات التي كانت مفتوحة له. مثل الجمهور الأكبر من الشعب، لم يرد أن يدفع ثمن السلام أو الحرب أيضاً، وكان الرأي العام خلفه كل الفترة، في سياسات كانت متضاربة تماماً. كان خلفه حين ذهب إلى ميونيخ، وحين حاول أن يصل إلى تفاهم مع روسيا، وحين أعطى الضمانة لبولندا، وحين كرمها، وحين أدان الحرب بصورة ضعيفة ومترددة. فقط حين أصبحت نتائج سياسته ظاهرة وانقلبت ضده؛ أي أنها انقلبت ضد سباتها في السنين السبع الماضية، اختار الشعب بناء عليه قائداً أقرب إلى مزاجه، تشرشل، الذي كان قادراً بأي حال أن يدرك بأن الفوز في الحروب لا يتم بدون قتال. ربما سيختار الشعب قائداً آخر لاحقاً يستطيع أن يدرك أن الأمم الاشتراكية فقط هي التي تستطيع القتال بشكل فعال.

هل أقصد من كل هذا بأن إنكلترا ديمقراطية أصيلة؟ كلا، ولا حتى قارئ الديلي تيلغراف يستطيع ابتلاع ذلك تماماً.

إنكلترا هي الدولة المريضة بالطبقية الأكثر تحت الشمس. إنها بلد التكبر والامتياز، محكومة بالعجزة والسخيفين. لكن في أي حساب حولها، يجب على المرء أن يأخذ في اعتباره وحدتها العاطفية، نزعة كل ساكنيها للشعور بالتشابه والعمل معاً في لحظات أزمة كبرى. إنها

البلاد الوحيدة في أوروبا التي ليست مجبرة أن تسوق مئات الآلاف من مواطنيها إلى المنفى أو معسكرات الاعتقال. في هذه اللحظة، سنة تلو أخرى، صحف وكراريس تسيء للحكومة، تمدح العدو وتطالب بالاستسلام تُباع في الشوارع، بدون تدخل تقريباً. وهذا ليس مجرد إدراك لأهمية هذه الأشياء، وإنما هو احترام لحرية التعبير في المقام الأول. من الآمن أن تدع صحيفة مثل بيس نيوز تباع، لأنه من المؤكد أن خمسة وتسعين بالمائة من السكان لن يرغبوا في قراءتها. الأمة مرتبطة معاً بسلسلة خفية. في أي وقت عادي الطبقة الحاكمة تسرق وتسيء الإدارة وتخرب وتقودنا إلى الدرك الأسفل؛ لكن لندع الرأي يكون مسموعاً، ولندعهم (الطبقة الحاكمة) يتعرضون لشد قوي من الأسفل بأنهم لا يستطيعون التغاضي عن الشعور، وأنه من الصعب عليهم ألا يستجيبوا. كتاب اليسار الذين اتهموا وشجبوا الطبقة الحاكمة كلها بأنها "مناصرة للفاشية"، بالغوا في تبسيط الأمور لدرجة مقززة. حتى وسط الزمرة الداخلية من السياسيين الذين أوصلونا إلى مأزقنا الحالي، من المشكوك فيه أنهم كانوا خونة متعمدين. الفساد الذي يحدث في إنكلترا نادر شبيهه. هو دائماً تقريباً نوع من طبيعة خداع الذات ومن اليد اليمنى التي لا تعرف ماذا فعلته اليد اليسرى. وكونه غير مقصود، هو محدود. يرى المرء هذا في أجلى صوره في الصحافة الإنكليزية. هل الصحافة الإنكليزية صادقة وأمينة أم كاذبة ومضللة؟ في الأوقات العادية هي ضليعة في الكذب والتضليل. كل الصحف المهمة تقتات على إعلاناتها، ويمارس المعلنون رقابة غير مباشرة على الأخبار. لكنني مع ذلك لا أعتقد بوجود صحيفة واحدة في إنكلترا يمكن أن تُرشى بالمال العيني بشكل صريح. في فرنسا الجمهورية الثالثة كان من الممكن شراء الصحف كلها ما عدا القليل بطريقة شائنة وفوق الطاولة مثل باوندات من الجبنة. الحياة العامة في إنكلترا لم تكن مخزية علناً وعلى المكشوف أبداً. لم تصل إلى درجة التفسخ التي يمكن للخداع فيها أن يُمرر بلا حساب.

إنكلترا ليست الجزيرة المزينة بالحلي التي تجدها في رسالة شكسبير وتُقتبس كثيراً، ولا الجحيم الذي صوره الدكتور غوبلز. هي أكثر من كليهما، وتشبه عائلة أو بالأحرى عائلة فيكتورية تقليدية، لكن بدون خراف سوداء كثيرة فيها، وإنما مع كل مخزنها الطافحة بالهياكل العظمية. لديها علاقات ثرية يجب أن يُسجد لها وعلاقات فقيرة يُرثى لها بشكل رهيب، وهناك مؤامرة عميقة من الصمت حول مصدر الدخل العائلي. إنها عائلة الصغار، فيها عموماً

معاقون ومحبطون وجلّ السلطة بأيدي الأعمام والأخوال غير المسؤولين والعمات والخالات طريحات الفراش. لكنها تظل عائلة. لها لغتها الخاصة وذكرياتها المشتركة، وعند اقتراب العدو تغلق صفوفها. عائلة يسيطر عليها الأفراد الخطأ - ذلك ربما أقرب ما يستطيع المرء أن يصل في وصف إنكلترا في عبارة واحدة.

٤ - ربما جرى الفوز بمعركة واترلو في على ملاعب ايتون، ولكن خسارة كل المعارك الافتتاحية للحروب اللاحقة تمت هناك. كانت إحدى الحقائق المهيمنة على الحياة الإنكليزية في ثلاثة أرباع القرن الماضي، هي انحطاط قدرة الطبقة الحاكمة الذي حدث بسرعة التفاعل الكيمائي في الفترة بين ١٩٢٠ و١٩٤٠. لكن حتى زمن هذه الكتابة من الممكن القول إن الطبقة الحاكمة الإنكليزية مثل سكين لها شفرتان جديدتان وثلاثة مقابض جيدة؛ الحافة العليا من المجتمع الإنكليزي لا تزال كما كانت في منتصف القرن التاسع عشر. بعد عام ١٨٣٢ فقدت الطبقة الأرستقراطية القديمة المالكة للأرض سلطتها، لكنها بدلاً من الاختفاء أو التحول إلى مستحاثة، اختلطت ببساطة مع التجار والصناعيين والماليين الذين حلوا محلها وحولتهم فوراً إلى نسخ دقيقة عن نفسها. إذ نصّب مالك السفن الثري أو صاحب معمل القطن نصب نفسه سيداً ريفياً، بينما تعلم أبناؤه حق التأنق في المدارس الخاصة التي صُممت لأجل ذلك الغرض. حُكمت إنكلترا من قبل أرستقراطية تُجند دائماً من حديثي النعمة، ونظراً للطاقة التي يملكها هؤلاء الرجال العصاميين ونظراً لأنهم كانوا يشترون طريقهم إلى طبقة لها تقليد في الخدمة العامة بأي ثمن، كاد المرء أن يتكهن بأن الحكام القادرين يُمكن أن يُحدثوا بطريقة كهذه.

ولكن الطبقة الحاكمة فسدت رغم ذلك، ففقدت قدرتها وجرأتها وأخيراً قسوتها أيضاً، حتى أتى وقت استطاعت فيه القمصان المكوية المنشاة مثل ايدين أو هاليفاكس أن يبرزا كرجلين ذوي مواهب استثنائية. بالنسبة إلى بولدوين، لا يستطيع المرء أن يبجله حتى بقميص محشو. كان مجرد ثقب في الهواء. سوء معالجة المشاكل الداخلية في إنكلترا أثناء عشرينات القرن العشرين كان متردياً بما يكفي، لكن سياسة بريطانيا الخارجية بين ١٩٣١و١٩٣٩ كانت إحدى أعاجيب العالم. لماذا؟ ماذا حدث؟ ما الذي يجعل كل لحظة حاسمة تجعل كل رجل دولة بريطاني يقوم بالشيء الخطأ بغريزة معصومة جداً؟

الحقيقة الضمنية، هي أن موقع الطبقة المالية، لم يعد له أي مبرر منذ زمن طويل. هناك جلس أفراد تلك الطبقة، في مركز إمبراطورية شاسعة وشبكة مالية عالمية يستجرون الفوائد والأرباح وينفقونها - على ماذا؟ من المناسب القول إن الحياة ضمن الإمبراطورية البريطانية، كانت أفضل من الحياة في خارجها بأشكال كثيرة. لكن الإمبراطورية كانت متخلفة، فالهند نائمة في العصور الوسطى، والسيادة البريطانية على المستعمرات تركت فارغة مع أجانب حُظر عليهم الحكم، وحتى إنكلترا نفسها كانت مملوءة بالأحياء القذرة الفقيرة وبالبطالة. نصف مليون شخص فقط، أولئك الناس في البيوت الريفية، الذين استفادوا من النظام القائم. إضافة إلى ذلك، ميل المشاريع التجارية الصغيرة للاندماج في مشاريع أكبر، سرق أكثر فأكثر من أفراد الطبقة المالية وظيفتهم وحوّلهم إلى مجرد مالكين، عملهم يقوم لهم به مدراء وفنيون برواتب، أناس آخرون لقاء رواتب. لوقت طويل ظلت هناك طبقة لا وظيفة لها نهائياً في إنكلترا، تعيش على المال المستثمر وقلما عرفت مكانه، "الأثرياء الكسالى" الناس الذين يمكنك النظر إلى صورهم الفوتوغرافية في تاتلر وبايستاندر، يفترضون دائماً بأنك راغب في ذلك. كان وجود هؤلاء الناس غير مبرر بأي مقياس. كانوا مجرد طفيليين، أقل نفعاً للمجتمع من نفع براغيثهم لكلب.

في عام ١٩٢٠ كان هناك الكثير من الناس الذين أدركوا كل هذا، وفي عام ١٩٣٠ أصبحوا ملايين، لكن من الواضح أن الطبقة الحاكمة البريطانية لم تعترف لنفسها بأن نفعها لم يبق منه شيء، ولو أنها فعلت ذلك لتنازلت عن السلطة. لأنه من غير الممكن لأفرادها أن يحولوا أنفسهم إلى مجرد قطاع طرق، مثل المليونيريين الأمريكيين، الذين تشبثوا عمداً بامتيازاتهم غير الجائرة، وأقنعوا المعارضة بالرشوة والقنابل الغازية. أخيراً، هم انتموا إلى طبقة ذات تقاليد محددة وارتادوا المدارس الخاصة حيث الموت من أجل بلادك واجب إن كان ضرورياً، ويُعتبر أول وأهم الوصايا. كان عليهم أن يشعروا بأنهم مواطنون حقيقيون حتى حين ينهبون أبناء بلدهم. من الواضح وجود مفر واحد لهم - إلى الغباوة. استطاعوا إبقاء المجتمع في شكله القائم لأنهم عجزوا عن إدراك إمكانية التحسين. رغم صعوبة هذا، فقد أنجزوه إلى حد كبير، وذلك بتثبيت أعينهم على الماضي، ورفض ملاحظة التغييرات التي كانت تجري في كل العالم.

هذا يفسر الكثير في إنكلترا. إنه يفسر اضمحلال الحياة في الريف، بسبب الإبقاء على النظام الإقطاعي المزيف الذي أبعد العمال الأكثر نشاطاً عن الأرض، ويفسر أيضاً جمود المدارس الخاصة التي قلما تبدلت منذ ثمانينات القرن الماضي. إنه يفسر العجز العسكري الذي أذهل العالم مرة تلو أخرى؛ فمنذ الخمسينات، كل حرب تورطت فيها إنكلترا، كانت تبدأ بسلسة من النكبات، ثم يُنقذ الوضع بعد ذلك بواسطة أناس دونيين نسبياً في السلم الاجتماعي، فكبار القادة المأخوذين من الطبقة الأرستقراطية، لم يستطيعوا أبداً التحضير لحرب حديثة، لأنهم لكي يفعلوا هذا يتوجب عليهم الاعتراف لأنفسهم بأن العالم كان يتغيّر. ظلوا يتمسكون دائماً بوسائل وأسلحة مهجورة، لأنهم رؤوا كل حرب أمراً محتوماً، نسخة عن سابقتها. قبل حرب البوير حضروا لحرب الزولو، قبل حرب ١٩١٤ لحرب البوير، وقبل الحرب الحالية لحرب ١٩١٤. لكن في هذه اللحظة مئات الآلاف من الرجال في إنكلترا يدربون على الحربة، ذلك السلاح القيم تماماً ماعدا لفتح المعلبات. يجدر الملاحظة بأن البحرية ومؤخراً القوة الجوية، كانت دائماً أكثر كفاءة من الجيش النظامي. لكن البحرية كانت جزئياً فقط، والقوة الجوية نادرة تماماً، ضمن فلك الطبقة الحاكمة.

يجب الاعتراف أن الأشياء طالما كانت سلمية، فإن أساليب الطبقة الحاكمة البريطانية تخدمها بشكل مقبول. شعبها كان يتحملها على ما يبدو. مهما كان جائراً الشكل الذي نُظّمت فيه إنكلترا، فإنها لم تكن في كل الأحوال منطقة تمزقها حرب طبقية أو تلازمها الشرطة السرية. كانت الإمبراطورية هادئة كما لم تكن منطقة بحجم مشابه لها أبداً. عبر امتدادها الواسع، تقريباً ربع الأرض، كان هناك عدد من الرجال المسلحين أقل مما يتوجب وجوده في دولة البلقان. كناس يحكمون، وبالنظر إليهم من نقطة استشراف ليبرالية سلبية، حققت الطبقة الحاكمة الإنكليزية نقاطاً لصالحها. فقد كان أفرادها مفضلين على الرجال العصريين الحقيقيين، النازيين والفاشيين. لكن بات واضحاً ومنذ زمن بعيد بأنهم سيكونون عاجزين ضد أي هجوم خطير من الخارج.

لم يستطيعوا النضال ضد النازية أو الفاشية، لأنهم لم يستطيعوا فهمها، وكذلك لم يكن بمقدورهم النضال ضد الشيوعية كذلك، لو كانت الشيوعية قوة خطرة في أوروبا الغربية. لكي يفهموا الفاشية، كان يجدر بهم أن يدرسوا النظرية الاشتراكية، التي كانت ستجبرهم

على إدراك أن النظام الاقتصادي الذي يعيشون فيه جائر وغير كفؤ وخارج التاريخ. لكن هذه كانت الحقيقة بالضبط التي دربوا أنفسهم على ألا يواجهوها أبداً. تعاملوا مع الفاشية كما تعامل جنرالات سلاح الفرسان لسنة ١٩١٤مع البنادق الآلية - بتجاهلها. بعد سنوات من العدوان والمذابح، لم يستوعبوا سوى حقيقة واحدة، بأن هتلر وموسوليني كان معاديين للشيوعية. لذلك نُوقش الأمر وتوصلوا بأنهما يجب أن يكونا صديقين لساحب الحصص البريطاني. لذلك المشهد المرعب حقيقة لأعضاء البرلمان المحافظين المهللين لخبر تعرض السفن البريطانية التي كانت تجلب الطعام لحكومة الجمهورية الإسبانية، للقصف من قبل الطائرات الإيطالية. حتى حين بدؤوا يدركون خطورة الفاشية، ظل جوهر طبيعتها الثورية والجهد العسكري الضخم التي تقدر على صنعه ونوع التكتيك الذي ستستخدمه، أبعد من فهمهم. في زمن الحرب الأهلية الإسبانية، عرف كل واحد ملمّ بمعرفة سياسية بالقدر الذي يمكن اكتسابه من كراسة رخيصة عن الاشتراكية، بأنه لو فاز فرانكو، فستكون النتيجة كارثية بالنسبة إلى إنكلترا. ورغم ذلك الجنرالات والأدميرالات الذي وهبوا حياتهم لدراسة الحرب، عجزوا عن أن يفهموا هذه الحقيقة. وريد الجهل السياسي يسري في الحياة الرسمية الإنكليزية، عبر وزراء المجلس والسفراء والقناصل والحكام والقضاة ورجال الأمن. رجل الأمن الذي يعتقل "الحمر" لا يفهم النظريات التي يبشر بها "الحمر"؛ ولو قام بعمله كحارس للطبقة المالية، لبدت له أقل إمتاعاً. يوجد مبرر للتفكير بأن التجسس العسكري نفسه معاق بشكل ميئوس منه بواسطة جهل العقائد الاقتصادية الجديدة وتشعب الأحزاب السرية.

لم تكن الطبقة الحاكمة الإنكليزية مخطئة تماماً في الاعتقاد بأن الفاشية كانت إلى جانبها. الحقيقة أن أي رجل غني، إن لم يكن يهودياً، لديه خوف من الفاشية أقل من خوفه من الشيوعية أو الديمقراطية الاشتراكية. ينبغي ألا ينسى المرء هذا، لأن كل الدعاية الألمانية والإيطالية تقريباً مصممة لتغطيتها. الغريزة الطبيعية لرجال مثل سايمون، هاور، تشامبرلاين..إلخ، كانت ستتوصل إلى اتفاق مع هتلر. لكن - تدخلت هنا الميزة الخاصة الغريبة للحياة الإنكليزية التي تكلمت عنها، الإحساس العميق بالتضامن الوطني - لم يستطيعوا أن يفعلوا هذا إلا بتفتيت الإمبراطورية وبيع شعبهم إلى شبه عبودية. طبقة فاسدة حقيقية كانت ستفعل ذلك بدون تردد كما في فرنسا!. لكن الأشياء لم تصل إلى ذلك المدى في

إنكلترا. من النادر أن يوجد السياسيون الذين سيلقون خطابات تملقية حول "واجب الولاء لفاتحينا" في الحياة العامة الإنكليزية. مترددين بين دخولهم ومبادئهم، كان من المستحيل على رجال مثل تشامبرلاين أن يفعلوا أي شيء، سوى أن يقرروا الأسوأ من كلا العالمين.

الشيء الوحيد الذي يبين دائماً بأن الطبقة الحاكمة الإنكليزية سليمة أخلاقياً بشكل مقبول، هو استعدادها الكامل لأن تُقتل في زمن الحرب. قُتل الكثير من أفرادها من أدواق وايرلات والذين بلا ألقاب في حملات حديثة في فلاندرز. ذلك لم يكن يحدث لو أن هؤلاء الناس كانوا الأنذال الكلبيين كما اتهموا علناً أحياناً. من المهم ألا يُساء فهم دوافعهم، وإلا لن يستطيع المرء التنبؤ بأفعالهم. لم يكن المتوقع منهم خيانة أو جبناً بدنياً، وإنما غباوة وتخريب غير مقصود وغريزة لا تخطئ لفعل الأشياء الخطأ. هم ليسوا أشراراً، أو ليسوا أشراراً بالكامل؛ هم غير قادرين على التعلم فقط. عندما تزول أموالهم وسلطتهم، فقط سيدرك الصغار منهم بأي قرن يعيشون.

٥ - أثر ركود الإمبراطورية في فترة ما بين الحربين على كل واحد في إنكلترا، لكن هذا التأثير كان مباشراً على شريحتين فرعيتين هامتين من الطبقة الوسطى بشكل خاص. الأولى الطبقة الوسطى العسكرية والإمبريالية، الملقبة عموماً بالبليمبس، والثانية مثقفو الجناح اليساري. هذان النموذجان المتخاصمان، نقيضان رمزيان - الكولونيل بمرتبه الزهيد ورقبته الضخمة كرقبة ثور ودماغه الشديد الصغر، مثل ديناصور، والمثقف بجبينه المقبب ورقبته الرفيعة كقصبة مرتبطان معاً عقلياً ويؤثران على بعضهما البعض دائماً، في كافة الأحوال هما مولودان في نفس العائلات إلى درجة مهمة.

كانت طبقة البليمبس تفقد حيويتها قبل ثلاثين سنة. كانت عائلات الطبقة الوسطى التي مجدها كيبلينغ، العائلات ذات الثقافة البسيطة الخصبة التي قاد أبناؤها الجيش والبحرية واندفعوا كالجراد في كل أرجاء الأماكن الخاوية في الأرض من يوكون إلى ايراوادي، تتضاءل قبل عام ١٩١٤. الشيء الذي قتلهم كان التلغراف. في عالم يضيق، ويخضع أكثر فأكثر للتحكم من الوايتهول (الحكومة)، ضاقت فيه الفرص بوجه المبادرات الفردية سنة تلو أخرى. فلم يجد رجال مثل كلايف وويلسون ونيكلسون وغوردون مكاناً لهم في الإمبراطورية البريطانية الحديثة. في عام ١٩٢٠ كانت كل بوصة

من الإمبراطورية الكولونيالية في قبضة الوايتهول (الحكومة). رجال متمدنون جداً ونواياهم حسنة، في بدلات سوداء وقبعات لبادية سوداء، ومظلات ملفوفة بأناقة عقفت فوق أذرعهم اليسرى، كانوا يفرضون رؤيتهم المصابة بالإمساك في الحياة على مالايا ونيجيريا وممومبازا وماندالي. وتحول بناة الإمبراطورية السابقين إلى مجرد كتبة، طُمروا تحت أكوام من الورق والشرائط الحمر. في العشرينات كان المرء يرى في كل أرجاء الإمبراطورية الموظفين الكبار الذين عرفوا أياما أكثر ترفاً، وهم يتلوون تحت التغيرات التي كانت تحدث. منذ ذلك الوقت فصاعداً، كان من شبه المستحيل أن تُقنع الشباب النشيطين في المشاركة في إدارة الإمبريالية. وما هو صحيح في عالم الموظفين، صحيح أيضاً في عالم التجارة. ابتلعت الشركات الاحتكارية الكبرى جموع التجار الصغار. بدلاً من الخروج إلى الأنديز ليتاجروا بجرأة، دخلوا إلى مكتب في بومباي أو سنغافورة. والحياة في بومباي أو سنغافورة كانت عملياً أكثر بلادة وأماناً من الحياة في لندن. العاطفة الإمبريالية ظلت قوية بالطبقة الوسطى، ويعود ذلك إلى التقليد العائلي بشكل أساسي، لكن وظيفة إدارة الإمبراطورية لم تعد جذابة. قلة من الرجال فقط ذهبوا إلى شرق السويس، حين لم يكن تفادي ذلك ممكناً بأي شكل.

لكن الإضعاف العام للإمبريالية وكل المعنويات البريطانية إلى درجة ما الذي حدث في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان من فعل الطبقة المثقفة اليسارية جزئياً، ونوع من التطور تبرعم من ركود الإمبراطورية.

يجب أن يُلاحظ الآن انعدام وجود أي طبقة مثقفة ليست "يسارية" بشكل ما. ربما كان آخر مثقف من الجناح اليميني تي أي لورانس. منذ عام ١٩٣٠ تقريباً كل واحد يُوصف بـ"مثقف" يعيش في حالة من السخط المزمن من النظام القائم. وهكذا بالضرورة، لأن المجتمع بالشكل الذي نشأ فيه، لم يترك مكاناً له. في إمبراطورية راكدة لا تتطور ولا تتداعى، وفي إنكلترا يحكمها أشخاص رصيدهم الرئيسي غباءهم، كان الذكاء شبهة. لو كان لديك عقل يستطيع أن يفهم قصائد تي إس إيليوت أو نظريات كارل ماركس، سيعتبرونك من في القمة شخصاً يجب أن يُقصى عن أي وظيفة هامة، لذلك لم يجد المفكرون عملاً لهم إلا في المراجعات الأدبية النقدية وفي أحزاب اليسار السياسية.

يمكن دراسة عقلية طبقة المثقفين اليساريين الإنكليز في نصف دزينة من الصحف الأسبوعية والشهرية. الشيء اللافت على الفور حول هذه الصحف سلبيتها العامة والموقف الخلافي والانعدام التام وفي كل الأوقات لأي مقترح بناء. يوجد القليل فيها ماعدا الانتقاد غير المسؤول للناس الذين لم يكونوا من أصحاب المناصب في السلطة أو لن يكونوا أبداً. صفة مميزة أخرى بارزة، وهي الضحالة العاطفية للناس الذين يعيشون في عالم من الأفكار، وليس لديهم سوى القليل من الاتصال بالواقع المادي. الكثير من مثقفي اليسار كانوا سلميين مترهلين حتى عام ١٩٣٥، يصرخون من أجل الحرب ضد ألمانيا في السنوات ١٩٣٥ - ١٩٣٩ وهدأوا فجأة حين بدأت الحرب. من الصحيح وعلى نطاق واسع ولكن ليس دقيقاً، أن الناس الذين كانوا الأشد عداوة للفاشيين خلال الحرب الأهلية الإسبانية، هم الآن الأكثر انهزامية. وضمن هذا تنطوي حقيقة هامة حول الكثيرين جداً من الطبقة المثقفة الإنكليزية - انفصالهم عن الثقافة الشعبية العامة للبلاد.

لكن على أي حال، تأورب أفراد الطبقة المثقفة الإنكليزية في النوايا. أخذوا طبخهم من باريس وآراءهم من موسكو، أما في الوطنية العامة للبلاد، فقد شكلوا نوعاً من جزيرة من الفكر المنشق. ربما إنكلترا هي البلاد العظيمة الوحيدة التي يخجل مثقفوها من قوميتهم وجنسيتهم. في دوائر اليسار، هناك شعور دائم بأن هناك شيئاً مخزياً في كونك إنكليزياً، ويجب أن تسخر من كل عادة إنكليزية، من سباق الخيل إلى الحلويات الدهنية. إنها حقيقة غريبة، ولكنها صحيحة بلا ريب، ويشعر كل مثقف إنكليزي تقريباً بالخجل من الوقوف باستعداد أثناء "حفظ الرب الملك" أكثر من سرقة صندوق للفقراء. في كل السنوات الحرجة، كان الكثير من اليساريين يقضمون بالمعنويات الإنكليزية ويوهنونها محاولين نشر نظرة كانت سلمية بشكل مهروس أحياناً وأحياناً أخرى مؤيدة للروس بشكل عنيف، لكنها معادية دائماً للبريطانيين. قد يُشكك بدرجة التأثير، لكن التأثير ذاته مؤكد. لقد عانى الإنكليز من إضعاف حقيقي للمعنويات لعدد من السنوات، لذلك قدّرت الأمم الفاشية وحكمت بأنهم "منحطين" وأن خوض الحرب أمر آمن ومضمون، وكان التخريب الثقافي الذي سببه اليسار مسؤولاً عن ذلك جزئياً. كلتاهما نيوستيتمان ونيوزكرونيكل صرختا ضد تسوية ميونيخ، حتى لو كانتا قد فعلتا شيئاً لتحقيقها. عشر سنوات من إغواء البليمب (الضباط القدماء)

أصابت حتى البليمب أنفسهم وصعّبت أكثر من قبل أمر تهيئة شاب للانضمام إلى القوات المسلحة. بسبب ركود الإمبراطورية، يفترض بالطبقة الوسطى العسكرية أنها فسدت في كافة الأحوال، لكن انتشار اليسارية الضحلة عجّل بالعملية.

من الواضح أن الموقف الخاص للمثقفين الإنكليز أثناء السنوات العشر الماضية، كمخلوقات سلبية تماماً وكمجرد معادين للبليمب، كان منتجاً جانبياً لغباء الطبقة الحاكمة. لم يستطع المجتمع الاستفادة منهم، ولم يدركوا ليروا بأن إخلاص المرء وتفانيه لوطنه شيء لا يتغير ضمنياً. كلاهما المثقفون والبليمبز سلّما بديهياً، كما لو كان قانوناً طبيعياً، بالطلاق بين الوطنية والذكاء. إن كنت وطنياً فأنت تقرأ مجلة بلاكوود وتحمد الرب علناً بأنك "لست ذكياً". إن كنت مثقفاً فأنت تسخر من العلم البريطاني وتعتبر الشجاعة البدنية بربرية. من الواضح أن هذا العرف المنافي للعقل والطبيعة لا يستطيع الاستمرار. مثقف بلومزبيري مع قهقهته الآلية، هو عتيق وبالٍ مثل الكولونيل في سلاح الفرسان. الأمة الحديثة لا تستطيع أن تتحمل أياً منهما. الوطنية والذكاء يجب أن يتعاونا مرة أخرى. الواقع أننا نخوض حرباً وحرباً من النوع الغريب جداً، الذي قد يجعل هذا ممكناً.

٦ - أحد أهم التطورات المهمة في إنكلترا خلال السنوات العشرين الماضية، كان المد الصاعد والنازل للطبقة الوسطى الذي حدث بوتيرة كبيرة، جعلت التصنيف القديم للمجتمع إلى رأسمالي وبروليتاري وبورجوازي صغير (أصحاب الملكيات الصغيرة) مهملاً وعتيقاً تقريباً.

إنكلترا بلاد تتركز فيها الملكية والقوة المالية في أيد قليلة جداً. قلة من الناس في إنكلترا الحديثة لا يملكون أي شيء إطلاقاً سوى ثياب وأثاث وربما بيت. لقد اختفى الفلاحون منذ زمن بعيد، وتلاشى أصحاب المتاجر المستقلون، وتناقص عدد رجال الأعمال الصغار. لكن بنفس الوقت فالصناعة الحديثة معقدة جداً، لذلك لا تستطيع البقاء حية دون أعداد عظيمة من المدراء والباعة والمهندسين والكيميائيين والتقنيين من كافة الأنواع، الذي ينالون مرتبات كبيرة. وهذا بدوره استدعى وجود طبقة مهنية من الأطباء والمحامين والمعلمين والفنانين.. إلخ.. إلخ. لذلك كان ميل الرأسمالية المتقدمة نحو توسيع الطبقة الوسطى، وليس مسحها، كما بدا كفعل محتمل في الماضي.

لكن الأهم من هذا هو انتشار أفكار الطبقة الوسطى وعاداتها وسط الطبقة العاملة. الطبقة العاملة البريطانية الآن أغنى وأكثر راحة في كل الأشكال تقريباً مما كانت عليه قبل ثلاثين سنة. هذا بسبب جهود النقابات جزئياً والتقدم في العلوم الطبيعية جزئياً. لم يُدرك دائماً أنه ضمن حدود قصوى ضيقة، يمكن لمستوى الحياة في البلاد أن يرتفع دون ارتفاع متماثل ومواز في الأجور الحقيقية. إلى حد ما، تستطيع الحضارة رفع نفسها بواسطة بيانات صناديقها. لكن بعض التقدم التقني في مجالات محددة ملزم بتقديم النفع لكل الجماعة في المجتمعات المنظمة على نحو غير عادل، لأن أنواعاً معينة من البضائع تبقى بالضرورة مشتركة. فالمليونير مثلاً، لا يستطيع أن ينير الشوارع لنفسه ويتركها مظلمة للناس الآخرين. كل مواطني البلدان المتحضرة تقريباً ينعمون باستخدام طرق جيدة ومياه خالية من الجراثيم وحماية الشرطة ومكتبات مجانية وربما نوع من التعليم المجاني. التعليم العام في إنكلترا كان يعاني من افتقاره للمال، لكنه تحسن رغم ذلك، وإلى حد كبير بسبب جهود المعلمين المخلصة وعادة المطالعة التي أصبحت أوسع انتشاراً. فالغني والفقير يقرآن نفس الكتب ويشاهدان نفس الأفلام ويستمعان إلى نفس البرامج الإذاعية بشكل هائل وبدرجة متزايدة، كما قلّت الفروق بين طرق معيشتهم بفضل إنتاج الجملة للثياب الرخيصة وللتحسينات في الإسكان. وفيما يتعلق بالمظهر الخارجي، باتت ثياب الغني والفقير، خصوصاً في حالة النساء، تختلف بصورة أقل بكثير عما كانت عليه قبل ثلاثين أو خمسة عشر سنة. بالنسبة إلى الإسكان، لا تزال هناك أحياء قذرة مكتظة فقيرة في إنكلترا وهي وصمة عار على جبين الحضارة، لكن خلال السنوات العشر الأخيرة، تم بناء الكثير من المساكن جلها بواسطة السلطات المحلية. بيت الجمعية الحديث، بحمامه وإضاءته الكهربائية، أصغر من دارة سمسار البورصة، لكن كما هو واضح، ليس من نفس نوع كوخ عامل المزرعة. على الأرجح أو في الحقيقة، من الجلي أن يكون موقف الشخص الذي تربى في عقار جمعية سكنية مماثلاً لموقف الطبقة الوسطى أكثر من الشخص الذي تربى في حي فقير.

أثّر هذا كله في تليين عام لآداب السلوك الذي تعزز بحقيقة أن الأساليب الصناعية الحديثة تميل دوماً إلى طلب جهد عضلي أقل، ولذلك إلى ترك الناس بطاقة أكبر حين ينجزون عملهم اليومي. كثير من عمال الصناعات الخفيفة هم في الحقيقة عمال يدويون أقل من الطبيب أو البقال. في الأذواق والعادات وآداب السلوك ووجهة النظر كانت الطبقة العاملة والطبقة الوسطى

تتقاربان معاً. الفروق غير العادلة تبقى، لكن الاختلافات الرئيسية تقلّ. النمط القديم البروليتاري - بلا قبة وغير حليق الذقن مع عضلات مفتولة بالعمل المجهد - لا يزال موجوداً، لكنه يتناقص عددياً باستمرار؛ ويسود فقط في مناطق الصناعة الثقيلة في شمال إنكلترا.

بعد عام ١٩١٨ بدأ هناك ظهور شيء لم يكن موجوداً في إنكلترا من قبل قط: أناس من طبقة اجتماعية غير محددة. في ١٩١٠ في هذه الجزر كان بالإمكان تحديد منزلة كل كائن بشري في لحظة من ثيابه وسلوكه ولهجته. لم يعد الوضع كذلك. أولاً لم يعد الوضع في المناطق الإدارية الجديدة التي تطورت نتيجة السيارات الرخيصة والانتقال الصناعي باتجاه الجنوب. إن المكان الذي يجب البحث فيه عن بذور المستقبل، هو في مناطق الصناعة الخفيفة وعلى طول الطرق الشريانية. في سلو وداغنهام وبارنيت وليتشويرث وهيز - في كل مكان في الحقيقة، في ضواحي المدن الكبرى - النموذج القديم يتبدل تدريجياً إلى شيء جديد. في تلك البراري الجديدة الشاسعة من الزجاج والقرميد، لم يعد هناك وجود للفروق الحادة للنوع الأقدم من المدن بأحيائها القذرة وقصورها الفخمة، أو في الريف، بقصور مالكي العزب والأكواخ الحقيرة. هناك تدرج واسع في الدخل، لكن نوع الحياة المعاشة نفسه في مستويات مختلفة، في شقق التوفير العمالية أو في بيوت الجمعية، بموازاة الطرق الإسمنتية وفي الديمقراطية الصريحة لبرك السباحة. إنها حياة تخلو من الثقافة والطمأنينة نوعاً ما، تتركز حول الطعام المعلب، ومسند الصور والراديو ومحرك الاحتراق الداخلي. إنها حضارة يكبر فيها الأطفال بمعرفة أساسية للمولدات المغناطيسية وجهل تام للكتاب المقدس. إلى تلك الحضارة ينتمي الناس المرتاحون جداً في العالم الحديث، ومنهم بدون أدنى شك، التقنيون والعمال المهرة ذوو الأجور العالية وملاحو الجو وميكانيكيوهم وخبراء الراديو ومنتجو الأفلام والصحفيون الشعبيون والكيميائيون الصناعيون. هم طبقة غير محددة، بدأت الامتيازات الطبقية للكبار فيها بالتوقف.

هذه الحرب، إن لم نُهزم، ستكنس أغلب الامتيازات الطبقية القائمة، ففي كل يوم يقلّ عدد الناس الذين يرغبون في استمرارها، كما لم نعد نخشى من أن تبديل نمط الحياة في إنكلترا سيفقدها نكهتها المميزة. المدن الحمراء الجديدة في لندن الكبرى بسيطة كفاية، لكن هذه الأشياء هي مجرد طفح يرافق التغيير. مهما كان الشكل الذي ستنبثق فيه إنكلترا من الحرب، فسيكون مشوباً بشكل عميق بالصفات التي تحدثت عنها آنفاً. سيخيب أمل المثقفين الذين

تمنوا بأن يروها بصبغة روسية أو ألمانية. سوف تبقى الدماثة والرياء واللامبالاة وتوقير القانون وكره البدلات النظامية، بموازاة الحلويات الدهنية والسموات السديمية. تدمير ثقافة قومية يحتاج إلى كارثة كبرى، كالخضوع المطول لعدو أجنبي. سوف تنهار سوق الأوراق المالية، وسيخلي المحراث الذي يقوده الحصان المجال للجرار، وستتحول البيوت الريفية إلى معسكرات يقضي الأطفال إجازاتهم فيها، وسوف تُنسى مباريات إيتون وهارو، لكن إنكلترا سوف تظل إنكلترا، حيوان أزلي يتمطى في المستقبل والماضي، ومثل كل الأشياء الحية، يملك القوة لكي يتبدل إلى درجة لا يمكن معرفته فيها، ومع ذلك يظل نفسه.

القسم الثاني: أصحاب المتاجر يتحاربون

١ - بدأتُ هذا الكتاب على أنغام القنابل الألمانية، وأكملت الفصل الثاني في صخب وابل القصف المدفعي الإضافي. وميض المدافع الأصفر يضيء السماء، الشظايا تقعقع فوق أسطح المنازل وجسر لندن يتهاوى ويتساقط. كل من يقدر على قراءة الخريطة، يدرك أننا في خطر مميت. لا أقصد أننا هُزمنا أو سنُهزم، فالنتيجة تعتمد على إرادتنا بالتأكيد. لكننا في هذه اللحظة نحن في مأزق كبير، سنغرق فيه كلنا، إن لم نصلح طرقنا بسرعة.

هذه الحرب تثبت أن الرأسمالية الخاصة التي هي نظام اقتصادي، تكون فيه الأرض والمصانع والمناجم ووسائط النقل ملكية خاصة، تعمل من أجل الربح فقط، لن تنجح. إنها لا تستطيع توزيع البضائع. لقد بانت هذه الحقيقة معروفة لملايين الناس، لكن من دون أن ينجم شيء عن ذلك، لعدم وجود دفع حقيقي من الأسفل لتبديل النظام، وهؤلاء الذين في القمة دربوا أنفسهم ليكونوا أغبياء بشكل لا يخترق حول هذه النقطة. حجج ودعايات عقيمة. جلس أسياد الملكية متكاسلين، وصرحوا بأن كل شيء سيكون بأفضل حال. إن غزو هتلر لأوروبا كان تعرية مادية للرأسمالية. الحرب، بكل شرورها، في كل الأحوال، اختبار مفحم للقوة، مثل آلة تجريب القبضة. القوة الكبرى تستعيد المال، وليس هناك طريقة لتزييف النتيجة.

حين اخترع اللولب البحري لأول مرة، كان هناك جدل استمر لسنوات حول الأفضل بين السفن ذات اللولب وبين سفن التجذيف. سفن التجذيف، مثل كل الأشياء القديمة الطراز،

كان لها أبطالها، الذين أيدوها بحجج حاذقة. لكن أخيراً ربط أدميرال مميز سفينة لولب وسفينة تجذيف من نفس قوة الأحصنة، مؤخرة إلى مؤخرة، وأطلق محركيهما. هذا سوّى المسألة نهائياً وإلى الأبد، كما حدث شيء مماثل على حقول النرويج وفالاندرز. مرة وإلى الأبد أُثبت أن الاقتصاد المخطط أقوى من الاقتصاد غير المخطط. لكن من الضروري هنا أن نعطي نوعاً من التعريف لتلك الكلمات التي أُسيء استخدامها كثيراً، الاشتراكية والفاشية.

تُعرّف الاشتراكية ببساطة عادة بأنها "الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج": الدولة التي تمثل كل الأمة تملك كل شيء والكل مستخدمون عندها. هذا لا يعني أن الناس مجردون من الملكيات الشخصية مثل الثياب والأثاث، وإنما كل السلع الإنتاجية كالأرض والمناجم والسفن والمعدات مثلاً، هي ملك للدولة. الدولة هي المنتج الكبير. ليس من المؤكد أن الاشتراكية أفضل من الرأسمالية، لكنها بالتأكيد على خلاف الرأسمالية، تستطيع حل مشاكل الإنتاج والاستهلاك. في الأوقات العادية، لا يستطيع الاقتصاد الرأسمالي استهلاك كل ما ينتج، لذلك هناك دائماً فائض ضائع (حرق القمح في الأفران وإعادة السمك إلى البحر) وبطالة دائمة. في زمن الحرب من جهة أخرى، تواجه صعوبة في إنتاج كل ما تحتاجه، إذ لا يتم إنتاج شيء إلا إذا رأى أحد وسيلته لتحقيق الربح منه. في الاقتصاد الاشتراكي لا توجد هذه الأشياء. تحسب الدولة البضائع التي تحتاجها، وتبذل أقصى جهدها لإنتاجها. يتحدد الإنتاج بمقدار العمل والمواد الخام. المال، لغايات داخلية، يتوقف عن كونه الشيء الغامض الكلي القدرة، ويصبح نوعاً من القسائم أو البطاقات التموينية، التي تصدر بكميات كافية لشراء ما هو متوفر من سلع استهلاكية في وقتها.

لكن أصبح واضحاً في السنوات القليلة الأخيرة أن "الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج" ليست تعريفاً كافياً للاشتراكية، ويجب أن يضاف إليه التالي: الاقتراب من المساواة في الدخول والديمقراطية السياسية وإلغاء الامتيازات المورثة خصوصاً في التعليم. هذه ضمانات ضرورية ضد ظهور النظام الطبقي ثانية. ويمكن ألا تعني الدولة أكثر من حزب سياسي منتخب ذاتياً وحكم قلة وإمكانية لعودة الامتيازات المبنية على السلطة بدلاً من المال.

لكن ما هي الفاشية إذاً؟

الفاشية، في كل الأحوال نسخة ألمانية، وشكل من الرأسمالية التي استعارت من الاشتراكية المزايا التي تجعلها فعالة لأغراض الحرب فقط. داخلياً، هناك الكثير من الصفات المشتركة بينها وبين الدولة الاشتراكية، لكنها لم تُلغ الملكية أبداً، فهناك رأسماليون وعمال. وهذه هي النقطة الهامة والسبب الحقيقي لتعاطف الأغنياء في كل أرجاء العالم مع الفاشية - عموماً الناس أنفسهم رأسماليون وعمال أيضاً أمام الثورة النازية، لكن بنفس الوقت، فإن الدولة، التي هي ببساطة الحزب النازي، تسيطر على كل شيء. فهي تسيطر على الاستثمار والمواد الخام ومعدلات الفائدة وساعات العمل والأجور؛ فصاحب المصنع ظل يملك مصنعه لكن لأغراض عملية وتقلصت مكانته إلى مدير؛ الكل مستخدمون عند الدولة لكن الرواتب متنوعة؛ الكفاءة الوحيدة لهذا النظام، هي استئصال الهدر والانسداد، وقد تمكن في غضون سبع سنوات من بناء أقوى آلة حربية عرفها العالم.

لكن الفكرة التي تشكل أساس الفاشية، مختلفة بشكل لا يقبل التسوية عن تلك التي في الاشتراكية. تهدف الاشتراكية أخيراً إلى دولة عالمية من البشر الأحرار والمتساوين، وتعتبر المساواة في حقوق الإنسان أمراً بديهياً. أما النازية، فتفترض العكس تماماً، فالقوة الدافعة خلف الحركة النازية، هو الاعتقاد في عدم المساواة الإنسانية وتفوق الألمان على كل الأعراق الأخرى وحقهم في حكم العالم. كما "أثبت" بروفيسور نازي بارز مرة تلو أخرى، بأن الإنسان الاسكندينافي هو البشري تماماً الوحيد، وطرح فكرة إمكانية تهجين الشعوب غير الاسكندينافية (مثلنا) مع الغوريلات! لذلك مادام جنس الاشتراكية الحربية متواجد ضمن الدولة الألمانية، فإن موقفها من الأمم المهزومة موقف مستغل. إن دور التشيك والبولونيين والفرنسيين..إلخ إنتاج البضائع التي يحتاجها الألمان فقط، وينالون مقابل ذلك ما يكفي لمنعهم من التمرد. لو انتصر علينا هتلر وهزمنا، فستكون وظيفتنا صنع أسلحة لحروبه ضد روسيا وأمريكا. إن هدف النازيين بالتالي هو توطيد نوع من نظام طبقي فئوي مؤلف من أربع طبقات، مشابه للدين الهندوسي. في القمة يأتي الحزب النازي، ثانياً يأتي الشعب الألماني، ثالثاً تأتي الشعوب الأوروبية المهزومة، رابعاً وأخير تأتي الشعوب الملونة، "أنصاف القردة" كما سماهم هتلر، وقلص تماماً مرتبتهم إلى العبيد وبشكل صريح.

مهما بدا لنا هذا النظام رهيباً، فإنه ناجح. إنه ينجح، لأنه نظام مخطط ومولف لغرض محدد، وهو فتح العالم، ولا يسمح لأي مصلحة خاصة إن كانت للرأسمالي أم للعامل، بأن تقف في

طريقه. الرأسمالية البريطانية لا تنجح، لأنها نظام تنافسي، الربح الخاص فيه هو الهدف الرئيسي ويجب أن يكون. إنها نظام كل القوى فيه تشد في اتجاهات متعارضة، ومصالح الفرد عادة ليست متعارضة تماماً مع مصالح الدولة.

خلال كل السنوات الحرجة للرأسمالية البريطانية، مع مصانعها الضخمة ومورِدها الفذ من العمال المهرة، لم تكن كفؤاً لعبء الاستعداد للحرب. لتستعد لحرب حديثة يجب أن تحول قسماً من الدخل القومي للتسلح، مما يعني تقليص البضائع الاستهلاكية. تعادل الطائرة القاذفة في السعر خمسين سيارة وثمانين ألف جورب حريري أو مليون رغيف من الخبز. لا يمكنك امتلاك عدد كبير من القاذفات من دون تخفيض المستوى القومي للحياة. هي إما البنادق أو الزبدة كما لاحظ مارشال غورينغ. لكن في إنكلترا تشامبرلاين لم يكن الانتقال ممكناً. لم يواجه الأغنياء الضريبة الضرورية، وطالما ظل الغني غنياً بشكل واضح، فمن غير الممكن فرض ضرائب ثقيلة على الفقير أيضاً. علاوة على ذلك، طالما كان الربح الهدف الرئيسي لصاحب المصنع، فلم يكن لديه أي حافز كي يحول من البضائع الاستهلاكية إلى التسليح. واجب رجل الأعمال الأول هو لمساهميه. ربما تحتاج إنكلترا إلى الدبابات، لكن ربما تدر السيارات ربحاً أكبر لصاحب المصنع. أن تمنع المواد الحربية من الوصول إلى العدو أمر منطقي وشرعي، لكن أن تباع في أغلى سوق، فهو واجب رجل الأعمال. في نهاية شهر أغسطس/ آب مباشرة عام ١٩٣٩ كان التجار البريطانيون يتهاوون فوق بعضهم في تلهفهم لبيع ألمانيا القصدير والمطاط والنحاس والكـ - وهذا عمل بريء، ويعرفون بشكل مؤكد أن الحرب ستندلع في غضون أسبوع أو اثنين، وكان عملاً منطقياً مثل بيع شخص موسى حلاقة ليقطع حلقك بها تقريباً، لكنه كان "تجارة رابحة".

والآن انظر إلى النتائج. بعد عام ١٩٣٤ بات معروفاً بأن ألمانيا كانت تتسلح ثانية. بعد ١٩٣٦ كل من له عينان في رأسه عرف بأن الحرب قادمة. بعد ميونيخ كانت مسألة متى ستبدأ لحرب التي اندلعت في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩. بعد ثمانية أشهر اكتُشف بأن الجيش البريطاني كان دون مستواه في عام ١٩١٨ بالنسبة إلى المعدات. رأينا جنودنا يشقون طرقهم يائسين إلى الشاطئ مع طائرة ضد ثلاث طائرات وبنادق ضد دبابات وحراب ضد رشاشات ولم تكن هناك مسدسات كافية للضباط حتى. بعد سنة من الحرب كان ينقص الجيش النظامي

٣٠٠,٠٠٠ خوذة معدنية كما كان هناك نقص في الثياب الرسمية، في واحدة من أكبر بلدان العالم المنتجة للبضائع الصوفية!

ما حدث، أن الطبقة الثرية كلها التي لم تواجه التغير في أسلوب عيشها بجرأة، تعامت عن طبيعة الفاشية والحرب الحديثة. غذت صحافة البواليع التي تعتاش على الإعلانات تفاؤلية كاذبة، وسمت للحفاظ على أحوال التجارة عادية، فظلت صحافة بيفربروك سنة تلو الأخرى تؤكد لنا بعناوينها المريضة بأنه لن تكون هناك حرب، وظل اللورد روثرمير حتى بداية عام ١٩٣٩ يصف هتلر بـ"السيد العظيم". وفي الوقت الذي ثُبت فيه بأن إنكلترا في لحظة الكارثة كان ينقصها كل مواد الحرب ماعدا السفن، لم يُسجّل وجود أي عجز في السيارات ومعاطف الفرو والفونوغراف وأحمر الشفاه والشوكولا أو الجوارب الحريرية. وهل تجرأ أحد على الادعاء بأن نفس الصراع العنيف كان دائراً بين الربح الخاص والضرورة العامة؟ إنكلترا تقاتل من أجل حياتها، لكن التجارة تقاتل من أجل الأرباح. لا يمكن أن تفتح صحيفة دون أن ترى العمليتين المتناقضتين وهما تحدثان جنباً إلى جنب. على الصفحة نفسها ستجد الحكومة تحثك على التوفير والادخار، وبائع بعض وسائل الترف العقيمة يحثك على الإنفاق. قدم قرضاً للدفاع، لكن غينيس جيد بالنسبة إليك. اشتر سبيتفاير، لكن اشتر هيغ أند هيغ أيضاً، كريم بوند للوجه وشوكولا بلاك ماجيك.

لكن شيئاً واحداً يعطي الأمل - التأرجح الجلي في الرأي العام. إن استطعنا أن ننجو من هذه الحرب ونبقى أحياء، فستحول الهزيمة في فلاندرز، وتكون نقطة تحول عظيمة في التاريخ الإنكليزي. في تلك الكارثة المثيرة، استطاعت الطبقة العاملة والطبقة الوسطى وقسم من جماعة التجارة، أن ترى تعفن الرأسمالية الخاصة. قبل ذلك لم تُثبت القضية ضد الرأسمالية أبداً. روسيا، الدولة الاشتراكية الوحيدة بشكل واضح، كانت متخلفة ومعزولة. تفجر النقد بوجوه أصحاب البنوك المخادعة والضحك الوقح لحاملي الأسهم. اشتراكية؟ ها!ها! من أين ستأتي النقود؟ها!ها!ها! لوردات الممتلكات كانوا متشبثين في مقاعدهم وكانوا يعرفونها. لكن بعد سقوط فرنسا قدم شيء لم يكن مضحكاً، شيء لم يكن يفيد فيه لا دفتر شيكات ولا رجال شرطة ضد القصف. زوي - بوم! ما ذلك؟ أوه، مجرد قنبلة على سوق الأوراق المالية. زوي - بوم! أكر آخر من ملكية أحد الأشخاص النفيسة للأحياء القذرة الفقيرة انتقلت

غرباً. في كافة الأحوال سيُسجل هتلر في التاريخ بأنه الرجل الذي جعل مدينة لندن تضحك في الجانب الخاطئ من وجهها! للمرة الأولى في حياتهم كان المرتاحون غير مرتاحين، أُجبر المرتاحون المتفائلون على الاعتراف بوجود شي خاطئ. كانت خطوة عظيمة إلى الأمام. منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد الوظيفة المرعبة في محاولة إقناع الناس المخدرين الزائفة بأن الاقتصاد المخطط أفضل من الاقتصاد المفتوح بوجه الجميع الذي يكسب فيه أسوأ رجل – تلك الوظيفة لن تكون مخيفة تماماً مرة أخرى.

٢ – الفرق بين الاشتراكية والرأسمالية، ليس في الأصل فرقاً في التكنيك. لا يستطيع المرء ببساطة الانتقال من نظام إلى آخر كما يمكنه إدخال قطعة جديدة من الآلات وتركيبها في المصنع، ثم يستمر كما كان من قبل، مع نفس الأشخاص الذين في مركز التحكم والسيطرة. من الواضح وجود ضرورة لتغيير كامل للسلطة. دم جديد، رجال جدد، أفكار جديدة – بكل معنى الكلمة، ثورة.

لقد تحدثت سابقاً عن جدارة وصلابة وتجانس إنكلترا، الوطنية التي تسري مثل خيط يصل كل الطبقات ببعضها. بعد دونكيرك كل من له عينان ورأس استطاع رؤية ذلك. لكن من السخف التظاهر بأن وعد تلك اللحظة قد أُنجز. من المؤكد تقريباً أن جمهور الشعب جاهز الآن لتغييرات واسعة ضرورية؛ لكن هذه التغييرات لم تبدأ في الحدوث حتى.

إنكلترا عائلة يسيطر عليها أفرادها الخطأ. نحن نُحكم تماماً تقريباً من قبل الأغنياء، ومن أناس وصلوا إلى مواقع القيادة بحق المولد. قلة أو لا أحد من هؤلاء الناس خائن عمداً وبعضهم ليسوا حمقى أيضاً، لكنهم كطبقة عاجزين تماماً عن قيادتنا إلى النصر. هم لا يستطيعون تحقيق ذلك حتى لو لم تعثرهم مصالحهم المادية دائماً. كما أشرت سابقاً، كانوا مخدرين بصورة اصطناعية. بمعزل عن أي شيء آخر، نظر حكم المال للمسألة بأننا سنُحكم من قبل الكبار – أي، من قبل أناس عاجزين بشكل واضح عن إدراك العصر يعيشون فيه أو العدو الذي يقاتلونه. في بداية هذه الحرب لاشيء كان أكثر بؤساً من الطريقة التي تآمر الجيل الأكبر سناً بها ليزعم بأن الحرب كانت مثل حرب ١٩١٤ – ١٩١٨مرة أخرى. كل الفاشلين الكبار أعيدوا إلى لعمل الذين كانوا أكبر بعشرين سنة والجمجمة واضحة بوجوههم، فكان إيان هاي يهتف للجنود، وبيلوك كان يكتب مقالات حول الاستراتيجية، وموريس يقدم نشرات الأخبار، وبرينزفاذر

يرسم الكاريكاتير. كانت مثل حفلة شاي لأشباح. تلك الحالة لم تتبدل إلا بالكاد. صدمة الكارثة جلبت قلة من الرجال القادرين مثل بيفن إلى الواجهة، لكن بشكل عام كنا لا نزال نُحكم ونُؤمر من قبل الناس الذين نجحوا في أن يحيوا خلال سنوات ١٩٣١ - ١٩٣٩ من دون أن يكتشفوا بأن هتلر خطير حتى. جيل من رافضين التعلم معلق فوقنا مثل قلادة من الجيف.

حالما يتأمل أي واحد في مشكلة هذه الحرب - ولا يهم إن كانت أوسع وجه من الاستراتيجية أو أصغر تفصيل من تنظيم الوطن - يرى بأن الحركات الضرورية لا يمكن أن تُصنع طالما ظل البناء الاجتماعي لإنكلترا كما هو عليه. من المحتم، بسبب موقعها وتربيتها، الطبقة الحاكمة تقاتل من أجل امتيازاتها التي لا يمكن التوفيق بينها وبين المصلحة العامة. من الخطأ التخيل بأن أهداف الحرب والاستراتيجية والدعاية والتنظيم الصناعي، تتواجد في حجيرات معزولة كتومة. كلها متداخلة. كل خطة استراتيجية وكل أسلوب تكتيكي وحتى كل سلاح سيحمل طابع النظام الاجتماعي الذي أنتجه. الطبقة الحاكمة البريطانية تقاتل هتلر، الذي أجلته دائماً والذي لا يزال قسم منها يعتبره حاميها ضد البلشفية. هذا لا يعني أن أفرادها يبيعون أرواحهم قصداً؛ لكنه لا يعني أنهم في كل لحظة حاسمة يحتمل بهم أن يتلعثموا، ويعبروا بقوة ويفعلوا الخطأ.مكتبة .. سُر مَن قرأ

إلى أن دعت حكومة تشرشل إلى نوع من التوقف لتلك العملية، ظلوا يقومون بالشيء الخطأ بغريزة لا تخطئ دائماً منذ ١٩٣١. ساعدوا فرانكو ليطيح بالحكومة الإسبانية، رغم تأكد أي شخص غير معتوه بأن إسبانيا فاشية ستكون عدوة لإنكلترا، وزودوا إيطاليا بمواد الحرب طيلة شتاء ١٩٣٩ - ٤٠، رغم الحقيقة الواضحة لكل العالم بأن الإيطاليين كانوا سيهاجموننا في الربيع. وحولوا الهند من حليف إلى عدو من أجل بضع مئات الآلاف من ساحبي الحوالات الرابحة. علاوة على ذلك، طالما ظلت الطبقات الغنية مسيطرة، فلن نستطيع تطوير أي شيء باستثناء استراتيجية دفاعية. كل انتصار يعني تغيراً في الوضع القائم. كيف نستطيع طرد الإيطاليين من إثيوبيا دون إثارة أصداء وسط الشعوب الملونة في إمبراطوريتنا؟ كيف لنا أن نحطم هتلر دون جلب الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين إلى السلطة؟ الأجنحة اليسارية التي تنتحب بأن "هذه حرب رأسمالية" وأن "الإمبريالية البريطانية" تقاتل من أجل غنائم، لوت رأسها إلى الخلف. آخر شيء تتمناه الطبقة الثرية البريطانية، هو كسب أراضٍ جديدة. سيكون ذلك مجرد إرباك. هدفها (الذي يمكن بلوغه ويتعذر بلوغه) هو التمسك بما كسبته.

داخلياً، إنكلترا لا تزال فردوس الرجل الغني. كل الحديث عن "النساوي في التضحية" هراء. بنفس الوقت كما طُلب من عمال المصانع أن يتحملوا ساعات عمل أطول، ظهرت إعلانات لـ"بتلر. واحد كعائلة وثمانية في مجموع العاملين، في الصحافة. السكان الذين شردهم القصف في إيست ايند باتوا جائعين ومشردين، بينما الضحايا الأكثر ثراء، ركبوا سياراتهم وفروا إلى بيوت ريفية مريحة. تضخمت أعداد الحرس الوطني إلى مليون رجل في بضعة أسابيع، وجرى تنظيمهم عمداً من الأعلى بطريقة لا يستطيع فيها سوى أصحاب الدخول الخاصة من تسلم المناصب القيادية. حتى نظام المحاصصة رُتب لكي يضرب الفقراء دائما، بينما لم يتأثر به الأشخاص الذين يفوق دخلهم الـ٢٠٠٠ جنيه سنوياً. في كل مكان الامتياز يبدد النية الحسنة. في ظروف كهذه حتى الدعاية أصبحت شبه مستحيلة تقريباً. كمحاولات لتحريك الشعور الوطني، نشرت حكومة تشامبرلاين ملصقات حمراء في بداية الحرب، فاقت كل الأرقام القياسية. مع ذلك لم تكن أكثر مما كانت عليه، لأنه كيف لتشامبرلاين وأتباعه أن يخاطروا بإثارة شعور شعبي قوي ضد الفاشية؟ كل واحد كان معادياً صادقاً للفاشية، يجب أن يكون معارضاً لتشامبرلاين نفسه ولكل الآخرين الذين ساعدوا هتلر للوصول إلى السلطة. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى الدعاية الخارجية. في كل خطابات اللورد هاليفاكس ليس هناك اقتراح ملموس واحد يخاطر من أجله ساكن أوروبي واحد بالجزء العلوي من إصبعه الصغير. وهل كان لهاليفاكس أو أمثاله أي هدف حربي سوى إعادة عقارب الساعة إلى الوراء إلى عام ١٩٣٣؟

لا يمكن تحرير عبقرية الشعب الإنكليزي الأصيلة إلا بواسطة الثورة. لا تعني الثورة الرايات الحمر وقتال الشوارع، وإنما تغيير أساسي للسلطة. إن كانت ستحدث بسفك الدم أم بدونه، هي حدث يتعلق بالزمان والمكان. ولا تعني أيضاً ديكتاتورية طبقة بمفردها. في إنكلترا لم يقتصر الناس الذين أدركوا ما هي التغييرات المطلوبة والقادرين على حملها، على طبقة واحدة، لكن صحيح أن قلة قليلة من الناس الذين يفوق دخلهم السنوي ألفي جنيه من بينهم. ما هو مطلوب ومرغوب هو ثورة واعية صريحة من قبل الناس العاديين ضد عدم الكفاءة، والامتياز الطبقي وحكم الكبار. إنها ليست مسألة تغيير حكومي فقط. الحكومات البريطانية تمثل كما يشاع، إرادة الشعب، وإذا بدلنا بنيتنا من الأسفل، سننال الحكومة التي نحتاجها. سفراء وجنرالات وموظفون وإداريو مستعمرات مخرفون أو مناصرون للفاشية أكثر خطورة من مجلس وزراء يرتكب حماقاته أمام الملأ. خلال حياتنا الوطنية علينا أن نقاتل

ضد الامتياز وضد فكرة أن يكون طالب مدرسة خاصة أبله مؤهلاً بشكل أفضل للقيادة من ميكانيكي ذكي. رغم وجود أفراد موهوبين وصادقين بينهم، علينا أن نكسر قبضة الطبقة الثرية ككل. يجب على إنكلترا أن تلبس شكلها الحقيقي. إنكلترا تلك التي تحت السطح، في المعامل ومكاتب الصحف، في الطائرات والغواصات، يجب أن تتولى قدرها الذاتي بيدها.

في المدى القصير،"التساوي في التضحية"، أهم من التغييرات الاقتصادية الراديكالية حتى. من الضروري أن تؤمم الصناعة، لكن من الأكثر أهمية وبشكل عاجل أن تختفي تلك الفظاعات مثل الخدم و"الدخول الخاصة" على الفور. من المؤكد تقريباً أن السبب الرئيسي الذي مكّن الجمهورية الإسبانية من مواصلة القتال لأكثر من سنتين ونصف ضد خلافات بغيضة، هو عدم وجود تباينات ضخمة في الثروة. من ضباط وكولونيلات وسطهم. عانى الناس بشكل رهيب، لكنهم عانوا على قدم المساواة. حين لا يمتلك الجندي العادي سيجارة لا يكون عند الجنرال واحدة أيضاً. بسبب المساواة في التضحية، ستكون معنويات بلاد مثل إنكلترا غير قابلة للكسر. لكن في الوقت الحاضر نحن لا نملك شيئاً جذابا سوى الوطنية التقليدية، التي هي أعمق هنا من أي مكان آخر، لكن ليست بالضرورة بلا قرار. في نقطة أو أخرى عليك أن تتعامل مع الرجل الذي يقول "أنا لن أكون في حالة أسوأ تحت حكم هتلر". لكن ما هو الجواب الذي تقدمه له – أي ما الجواب الذي تستطيع أن تتوقع أن يسمعه – بينما يخاطر الجنود العاديون بحياتهم من أجل شلنين وست بنسات في اليوم، ونساء بدينات متجولات في سياراتهن الرولس رويس يربين الكلاب البكينية؟

يُحتمل جداً لهذه الحرب أن تستمر ثلاث سنين، وستعني جهداً قاسياً وشتاءات باردة كئيبة وطعاماً غير ممتع وانعداماً لكل أشكال التسلية، قصف مطول. لا تستطيع سوى تخفيض مستوى العيش العام، لكن الفعل الأساسي للحرب، هو لتصنيع الأسلحة بدلاً من البضائع الاستهلاكية. سيتوجب على الطبقة العاملة أن تعاني أشياء فظيعة. وسيعانون منها بشكل غير محدود تقريباً، بشرط أن يعرفوا ما يقاتلون من أجله. هم ليسوا جبناء ولا حتى مهتمين عالمياً. يستطيعون تحمل كل ما تحمله العمال الإسبان وأكثر، لكنهم سيطلبون نوعاً من الإثبات بأن حياة أفضل تنتظرهم وأطفالهم. عندما تفرض عليهم الأعباء ويرهقون، فالعلامة الأكيدة الوحيدة بأن يروا الأغنياء يضربون بشكل أقسى منهم، وإن صرخ الأغنياء بصوت مسموع، سيكون أفضل بكثير.

يمكننا خلق هذه الأشياء إن أردنا ذلك بشكل حقيقي. ليس صحيحاً أن الرأي العام ليس له قوة في إنكلترا. لم يجعل نفسه مسموعاً دون إنجاز شيء؛ لقد كان مسؤولاً عن أكثر التغيرات نحو الأفضل خلال الستة شهور الماضية. لكننا نتحرك ببطء النهر الجليدي، ولا نتعلم إلا من الكوارث. كلفنا التخلص من تشامبرلاين سقوط باريس، وكلفنا التخلص من سير جون انرسون معاناة غير ضرورية لعشرات آلاف الناس في إيست ايند. لا يجدر بنا أن نخسر معركة لكي ندفن جثة، لأننا نقاتل ضد عقول شريرة سريعة والزمن يضغط و: قد يقول التاريخ للمهزوم واحسرتاه! لكنه لا يستطيع أن يتبدل أو يصفح.

٣ - خلال ال أشهر الستة الأخيرة، دار حديث كثير عن "الطابور الخامس". من حين إلى آخر، يُسجن مجانين خفيون لإلقاء خطابات مؤيدة لهتلر، وتُعتقل أعداد كبيرة من اللاجئين الألمان، شيء سبب لنا بالتأكيد ضرراً كبيراً في أوروبا. من الواضح طبعاً أن فكرة جيش كبير منظم من الطابور الخامس يظهر فجأة في الشوارع مع أسلحة بأيديهم كما في هولندا وبلجيكا، هو شيء سخيف. لكن رغم ذلك، فإن خطر الطابور الخامس متواجد. يمكن للمرء أن يفكر فيه لو فكر في الطريقة التي قد تندحر فيها إنكلترا.

من غير المحتمل أن يستطيع القصف الجوي حسم حرب رئيسية. قد تتعرض إنكلترا للغزو والهزيمة، لكن الغزو سيكون مقامرة خطيرة، وإن حدث وفشل، سيتركنا أكثر اتحاداً وأقل تعرضاً لقصف المناطيد من قبل. علاوة على ذلك، إن اجتاحت القوات الأجنبية إنكلترا، سيعرف الشعب الإنكليزي بأنه هُزم، وسيستمر في الصراع. من المشكوك فيه إن كان ممكناً كبحهم بشكل دائم، أو إن كان هتلر يرغب في إبقاء جيش من مليون رجل متمركزاً في هذه الجزر. حكومة - و- (يمكنك ملأها بالأسماء) ستناسبه أكثر. لا يمكن للإنكليز أن يُخوفوا ويُدفعوا للاستسلام، لكنهم قد يُحملون على ذلك من خلال الملل أو المداهنة أو الخداع بشرط ما، مثلما لم يعرفوا في ميونيخ بأنهم كانوا يستسلمون. يمكن أن تحدث بسهولة أكبر حين تبدو الحرب تسير على نحو جيد بدلاً من سيء. النغمة المهددة للدعاية الألمانية والإيطالية، هي خطأ نفسي، ولن تؤثر إلا على المثقفين، أما مع عموم الناس، فستكون المقاربة المناسبة "دعنا نسميه تعادلاً". حين يُبذل مسعى للسلام بموازاة تلك الخطوط، يرفع مؤيدو الفاشية أصواتهم.

لكن من هم مؤيدو الفاشية؟ فكرة انتصار هتلر جذابة للأثرياء وللشيوعيين ولأتباع موسلي وللسلميين ولقطاعات معينة وسط الكاثوليك. أيضاً، إن ساءت الأوضاع كثيراً على الجبهة الداخلية، كل القطاعات الأشد فقراً من الطبقة العاملة، قد تميل إلى موقع انهزامي جداً، لكنه غير مؤيد لهتلر بشكل فعال.

في هذه القائمة متعددة الألوان، يستطيع المرء أن يرى جرأة الدعاية الألمانية، استعدادها لتقديم كل شيء إلى كل شخص. لكن القوى المؤيدة للفاشية المختلفة لا تعمل معاً بشكل مقصود، وإنما تعمل بطرق مختلفة.

يجب أن يُعتبر الشيوعيون مناصرين لهتلر، ومحكومين بالبقاء هكذا حتى تتبدل السياسة الروسية، لكنهم لا يملكون تأثيراً كبيراً. أتباع موسلي من أصحاب القمصان السود، الذين يتوسعون الآن ببطء شديد، يشكلون خطراً أكثر جدية بسبب موطئ القدم الذي يملكونه في القوات المسلحة. لكن، حتى في أزهى أيامهم لم يستطع أتباع موسلي أن يبلغوا الـ ٥٠٠٠٠ عضو. السلامية (رفض العنف) صفة غرابة نفسية أكثر منها حركية سياسية. بعض السلميين المتطرفين الذين بدؤوا بنبذ كامل عن العنف، انتهوا بمناصرة هتلر بحرارة وحتى العبث بمعاداة السامية. هذا ممتع، لكنه غير مهم. السلامية "النقية" التي هي منتج جانبي للسلطة البحرية، ليست جذابة إلا للناس الذين في مواقع محمية جداً. علاوة على ذلك، كونها سلبية وغير مسؤولة، لا تثير الكثير من الإخلاص والتفاني. أقل من ١٥ بالمائة من عضوية اتحاد ضمان السلام يدفعون اشتراكاتهم السنوية. لم يستطع أحد من هذه الكيانات البشرية، السلميون أو الشيوعيون أو أصحاب القمصان السود، تكوين حركة واسعة لوقف الحرب بجهودهم الذاتية، لكنهم ربما يساعدون في تسهيل حكومة خائنة للتفاوض على الاستسلام، مثل الشيوعيين الفرنسيين الذين أصبحوا العملاء شبه المعتمدين للمليونيرات.

الخطر الحقيقي من فوق. لا يجب على المرء أن يكترث بخط هتلر الحديث في الكلام بأنه صديق للفقراء وعدو لحكومة الأغنياء، إلخ إلخ، فذات هتلر الحقيقية في كتابه "كفاحي" وفي أفعاله. هو لم يضطهد الأغنياء أبداً، إلا من كان يهودياً منهم أو من حاول معارضته بشكل فعال، ولا يؤيد الاقتصاد المركز الذي يسرق الرأسمالي من جلّ قدرته، لكنه يترك إلى حد كبير تركيب المجتمع مقلوباً رأساً على عقب؛ تسيطر الدولة فيه على الصناعة، لكن يظل هناك

أغنياء وفقراء، سادة ورجال لذلك، كضد أصيل للاشتراكية، الطبقة الثرية كانت في صفه دائماً. هذا كان واضحاً جداً في زمن الحرب الإسبانية، وواضحاً مرة أخرى حين استسلم الفرنسيون. حكومة هتلر الدمية ليست من العمال، وإنما عصابة من أصحاب البنوك والجنرالات الحمقى وسياسي الجناح اليميني الفاسدين.

إن احتمال نجاح ذلك النوع المثير المتعمد من الخيانة قليل في إنكلترا، وأكثر من قليل في الواقع حتى لو حاول. مع ذلك، بالنسبة إلى كثير من دافعي الضريبة الإضافية، هذه الحرب هي مجرد شجار عائلة مجنونة يجب أن تُوّقف بأي ثمن. يجب ألا يشكك المرء بأن حركة "سلام" ما تقف في مكان ما في المراتب العالية، وربما شكلت وزارة ظل مسبقاً. هؤلاء الناس سينالون فرصتهم ليس في لحظة الهزيمة، وإنما في فترة راكدة، حين يفرض الاستياء الضجر ويعززه. هم لن يتحدثوا عن الاستسلام، بل عن السلام فقط؛ وبدون شك سيقنعون أنفسهم والناس الآخرين ربما بأنهم يعملون من أجل الأفضل. جيش من العاطلين عن العمل يقوده ميلونيرات يقتبسون خطبة على الجبل - ذلك هو خطرنا، لكن ليس بمقدوره أن يظهر حين ندخل درجة معقولة من العدالة الاجتماعية. إن السيدة التي في سيارة الرولس رويس مضرة للمعنويات أكثر من أسطول من طائرات غورينغ القاذفة.

الجزء الثالث: الثورة الإنكليزية

١ - لقد انطلقت الثورة الإنكليزية منذ سنوات عدة، وبدأت تجمع زخمها حين عادت القوات المسلحة من دونكريك، وككل شيء آخر في إنكلترا، إنها تحدث بطريقة بليدة ومكروهة، لكنها تحدث، وسرعت الحرب بحدوثها، وزادت أيضاً وبشكل مفرط في ضرورة التعجيل بها.

لم يعد للعلامات والشعارات الحزبية علاقة بالتقدمية أو الرجعية. إن أراد أحد أن يسمي لحظة معينة، يستطيع القول بأن الفرق القديم بين اليمين واليسار انتهى حين نُشر أول ملصق مصور. ما هي سياسة الملصقات المصورة؟ أو مواكب العربات أو نشرات بريستلس الإخبارية أو المقالات الافتتاحية في إيفينينغ ستاندرد؟ لا يناسبها أي من التصنيفات القديمة. إنها تشير إلى وجود أعداد غفيرة من الناس غير المصنفين، الذين أدركوا في السنة الأخيرة أو السنتين أن هناك شيئاً خاطئاً. وطالما يمكن القول عموماً عن أي مجتمع غير طبقي وبلا ملاكين "اشتراكية"، نستطيع أن نعطي ذلك الاسم للمجتمع

الذي نحن متوجهون نحوه. الحرب والثورة لا ينفصلان. لا يمكن توطيد أي شيء تعتبره الأمة الغربية اشتراكية دون دحر هتلر، ومن جهة أخرى لا نستطيع دحر هتلر، طالما نحن في القرن التاسع عشر اقتصادياً واجتماعياً. الماضي يحارب المستقبل، ولدينا سنتان أو ربما شهور قليلة لنرى بأن المستقبل ينتصر.

لا يمكننا النظر إلى هذه الحكومة أو مثيلاتها بأن تقوم بالتغييرات الضرورية من تلقاء نفسها؛ يجب أن تأتي المبادرة من الأسفل، وهذا يعني ضرورة أن ينبثق شيء لم تعرفه إنكلترا من قبل أبداً، حركة اشتراكية لديها جماهير شعبية تقف خلفها فعلياً، لكن يجب علينا أن نباشر في إدراك سبب فشل الاشتراكية الإنكليزية.

في إنكلترا لا يوجد سوى حزب اشتراكي واحد مهم هو حزب العمال، الذي لم يقدر أن ينجز أي تغيير رئيسي، لأنه لم يملك سياسة مستقلة بشكل حقيقي باستثناء القضايا المحلية. وكان في المقام الأول حزباً للنقابات العمالية، مكرساً لرفع الأجور وتحسين ظروف العمل. هذا يعني أنه خلال كل تلك السنين الحرجة، كان مهتماً مباشرة بازدهار الرأسمالية البريطانية. واهتم بالخصوص في الحفاظ على الإمبراطورية، لأن ثروة إنكلترا كانت تستجر بشكل واسع من آسيا وأفريقيا. مستوى معيشة عمال النقابات الذين يمثلهم حزب العمال، اعتمد مباشرة على عرق الحمالين الهنود. في الوقت نفسه كان حزب العمال حزباً اشتراكياً، استخدم اللغة الاشتراكية، وفكر بالطريقة المعادية للإمبريالية البالية، وتعهد إلى حد ما بتعويض الأعراق الملونة. كان عليه أن يناضل من أجل "استقلال" الهند، كما كان عليه أن يناضل من أجل نزع التسلح و"التقدم" عموماً، رغم إدراك الجميع بعقم ذلك. في عصر الدبابة والطائرة القاذفة، لم يعد بإمكان الدول المتخلفة الزراعية مثل الهند والمستعمرات الأفريقية، أن تكون مستقلة أكثر من القطط أو الكلاب. لو أن أي حكومة عمالية وصلت إلى السلطة بأغلبية واضحة، ثم شرعت في منح الهند أي شيء يمكن تسميته على نحو حقيقي بالاستقلال، لجرى امتصاص الهند من قبل اليابان أو تقسيمها بين اليابان وروسيا.

أمام حكومة عمالية تتولى السلطة، هناك ثلاث سياسات إمبريالية مفتوحة. الأولى أن تستمر في إدارة الإمبراطورية كما هي عليه في السابق تماماً، ما يعني إسقاط كل الذرائع للاشتراكية. السياسية الأخرى أن تطلق حريات الشعوب التابعة، ما يعني عملياً تسليم هذه الشعوب

لليابان وإيطاليا وقوى سلب أخرى، والتسبب بهبوط كارثي في مستوى المعيشة البريطاني. السياسة الثالثة والأخيرة، هي تطوير سياسة إمبريالية إيجابية تهدف إلى تحويل الإمبراطورية إلى اتحاد من الدويلات الاشتراكية كنسخة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي أكثر حرية وأقل إحكاماً. لكن تاريخ الحزب وخلفيته جعل من هذا مستحيلاً. كان حزباً من الاتحادات العمالية، ضيق الأفق بشكل ميئوس منه في نظرته، مع اهتمام ضئيل في المسائل الإمبريالية وفاقداً لأي اتصال بالرجال الذي حافظوا على تماسك الإمبراطورية. لكانت سلمت إدارة الهند وأفريقيا وكل مهمة الدفاع عن الإمبريالية لرجال مأخوذين من طبقة مختلفة ومعادين تقليديين للاشتراكية. يرجع على كل شيء الشك إن كانت حكومة العمال أي التجارة ستكون مطاعة. بالرغم من كل حجم أتباع حزب العمال، فليس لديهم أي سند في البحرية، وقلة أو لا أحد في الجيش أو القوة الجوية ولا بأي شكل في الخدمات الإمبريالية، ولا حتى مسند أكيد في الخدمة المدنية الوطنية. في إنكلترا كان موقعه قوياً، لكنه ليس مطلقاً. أما في خارج إنكلترا، فكل المواقع الأساسية في أيدي الأعداء. بمجرد أن يتسلم السلطة، ستواجهه نفس المعضلة دائماً: نفذ وعودك، وخاطر بالثورة أو استمر بنفس سياسة المحافظين وكفّ عن الحديث بالاشتراكية. لم يجد أبداً قادة الحزب حلاً. ومنذ عام ١٩٣٥ فصاعداً، بات من المشكوك فيه إن كانت لدى الحزب أي رغبة في تولي منصب الحكومة؛ لقد انحط إلى مستوى معارضة دائمة.

توجد أحزاب راديكالية متطرفة خارج حزب العمال، أقواها الحزب الشيوعي. وكان للشيوعيين تأثير ملحوظ على حزب العمال في الفترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٢٦ والفترة ما بين ١٩٣٥ - ١٩٣٩ لكن أهميتهم الرئيسية وأهمية الجناح اليساري ككل، كانت في دورهم الذي لعبوه في إبعاد الطبقات الوسطى عن الاشتراكية.

لقد بينت السنوات السبع الأخيرة تماماً عدم وجود أي فرصة للشيوعية في أوروبا الغربية. وكان الافتتان بالفاشية أعظم، وجرى في بلاد تلو الأخرى استئصال الشيوعيين من جذورهم من قبل أعدائهم العصريين، النازيين. لم يكن لهم موطئ قدم في البلدان الناطقة بالإنكليزية، ولم تجذب العقيدة التي ينشرونها سوى أنموذج نادر من الأشخاص، الموجود وسط مثقفين الطبقة الوسطى الذين توقفوا عن حب بلادهم، لكنهم ظلوا بحاجة إلى الوطنية، لذلك طوروا عاطفة وطنية تجاه روسيا. في عام ١٩٤٠ وبعد العمل لمدة عشرين عاماً وإنفاق الأموال

الكثيرة، لم يبلغ عدد الشيوعيين ٢٠،٠٠٠ عضو، وهو عملياً أقل من عددهم الذين بدؤوا فيه عام ١٩٢٠ أما الأحزاب الماركسية الأخرى، فكانت أقل أهمية، حتى إنه لم يكن لديها المال الروسي والنفوذ الداعم، وكانت مربوطة أكثر بعقيدة القرن التاسع عشر في الحرب الطبقية. لذلك استمرت سنة تلو أخرى في الوعظ بهذا الإنجيل العتيق والمهمل، ولم تتعلم أي درس، بأنه لن يكسبها أي تابع أو مريد.

لم يكن هناك أيضاً أي حركة فاشية قوية أهلية؛ فالظروف المادية ليست سيئة بما يكفي، وليس هناك قائد وشيك يؤخذ بجدية، فالمرء مضطر للانتظار طويلاً حتى يجد رجلاً أكثر عقماً في أفكاره من السير أوزوالد موسلي الفارغ كالإبريق الذي فاتته حتى الحقيقة الأولية بأن الفاشية يجب ألا تجرح الشعور القومي. وكانت حركته الكاملة مقلدة بشكل وضيع ومستوحاة من الخارج، فالزي الرسمي وبرنامج الحزب من إيطاليا، والتحية من ألمانيا، أما كره اليهود فأضافه كفكرة متأخرة، لأن موسلي بدأ حركته فعلياً بيهود كانوا من بين أبرز أتباعه. كان يمكن لرجل من طابع بتوملي أو لويد جورج أن يجلب حركة فاشية حقيقية إلى الوجود، لكن مثل هؤلاء القادة لا يظهرون إلا حين تكون هناك حاجة نفسية لتواجدهم.

بعد عشرين سنة من الركود والبطالة، لم تقدر الحركة الاشتراكية الإنكليزية أن تنتج نسخة من الاشتراكية مقبولة من الجماهير. فحزب العمال قبل بإصلاحية رعديدة، والماركسيون كانوا ينظرون إلى العالم الحديث بنظارات القرن التاسع عشر، فتجاهل كلاهما الزراعة والمشاكل الإمبريالية، واستعديا الطبقات الوسطى. لقد أرعبت دعاية الجناح اليساري الخانقة، ونفرت طبقات كاملة من الناس الضروريين، كمدراء المعامل والطيارين والملاحين وضباط البحرية والعمال ذوي الياقات البيض وأصحاب الحوانيت ورجال الشرطة. لقد ثُقف هؤلاء الناس على الاعتقاد بأن الاشتراكية خطر يهدد أسباب رزقهم، أو شيء منفر وتحريضي، "ضد بريطاني" كما كانوا يسمونها. لم ينجذب إلى الحركة سوى المثقفين، الفئة الأقل نفعاً في الطبقة العاملة.

كان على أي حزب اشتراكي راغب بصدق في إنجاز شيء، مواجهة حقائق كثيرة ظلت لليوم تعتبر أشياء لا يصح ذكرها في وسط دوائر الجناح اليساري. لقد كان الإقرار ضرورياً بأن إنكلترا متوحدة أكثر من غالبية البلدان، وأن العمال البريطانيين لديهم الكثير الذي يفقدونه غير

قيودهم، وأن الاختلافات في وجهة النظر والعادات بين طبقة وأخرى كانت تتقلص بسرعة. عموماً كان يجب الإقرار بأن الثورة البروليتارية العتيقة هي استحالة. لكن لم يظهر أي برنامج اشتراكي ثوري وعملي خلال فترة ما بين الحربين كلها؛ لأنه أساساً وبلا شك لم يكن هناك من أراد حدوث أي تغيير أساسي، فقادة العمال أرادوا الاستمرار في استجرار مرتباتهم وتبادل الوظائف دورياً مع المحافظين، وأراد الشيوعيون الاستمرار في معاناة الاستشهاد المريح وتقبل الهزائم التي لا تحصى، ثم الرمي باللائمة على الآخرين. أما الطبقة المثقفة اليسارية، فأرادت أن تستمر في السخرية في البليمبس واحتقار معنويات الطبقة الوسطى، مع احتفاظها بمركزها المفضل كطفيلي على ساحب الحصص. لقد أصبحت سياسة حزب العمال نوعاً آخر وبديلاً عن سياسة حزب المحافظين، وباتت السياسة "الثورية" لعبة الكاذب.

لكن الظروف تبدلت الآن، وانتهت سنوات النعاس. كونك اشتراكياً لم يعد يعني مقاومة النظام نظرياً والذي أنت راض عنه عملياً. هذه المرة ورطتنا حقيقية. إنهم "الفلسطينيون أصبحوا فوقك يا شمشون". يجب علينا أن نعطي لكلماتنا شكلاً مادياً أو نموت. نحن نعرف جيداً أن إنكلترا بهذه التركيبة الاجتماعية لن تنج، ويقع على كاهلنا أن نجعل شعبنا يرى هذه الحقيقة ويعمل عليها. لا يمكننا أن نربح الحرب دون البدء بالاشتراكية، ولا نستطيع تشييد اشتراكية دون الفوز بالحرب. في وقت كهذا، من الممكن كما لم يتوفر ذلك في سنوات السلام، أن تكون ثورياً وواقعياً في الوقت نفسه. حركة اشتراكية تستطيع تحريك الجماهير خلفها، وتطرد أنصار الفاشية من مراكز التحكم، وتزيل المظالم العامة الفاضحة، وتدع الطبقة العاملة ترى بأن لديها ما تقاتل من أجله، وتكسب الطبقة الوسطى بدلاً من مخاصمتها، وتنتج سياسة إمبريالية عملية بدلاً من خليط الخدع والطوباوية، وتُمكّن الوطنية والعقل من الشراكة - لأول مرة، حركة من هذا النوع سوف تصبح ممكنة.

٢ - إن حقيقة كوننا في حالة حرب، حوّلت الاشتراكية من كلمة في كتيب مدرسي، إلى سياسة قابلة للتحقق.

لقد ثبت عدم كفاءة الرأسمالية في كل أنحاء أوروبا، وثبت ظلمها في إيست ايند في لندن، وأصبحت الوطنية التي قاتل ضدها الاشتراكيون طويلاً، رافعة هائلة في أيديهم. الناس الذين كانوا متشبثين كالصمغ في نتف امتيازاتهم البائسة في أي وقت آخر، سيتخلون عنها سريعاً ما

إن يهدد الخطر بلادهم. إن الحرب أعظم عوامل التغيير كلها. فقد سرّعت كل العمليات وأزالت الفروقات الثانوية، وأبرزت الحقائق إلى السطح، وأوضحت قبل كل شيء للفرد بأنه ليس فرداً تماماً. سيموت الرجال في ميدان المعركة بسبب هذا الإدراك فقط. لم تكن القضية الآن مسألة تنازل عن الحياة، بقدر كونها تخلياً عن وقت الفراغ والراحة والحرية الاقتصادية والمقام الاجتماعي. ولم تكن هناك سوى قلة قليلة من الناس أرادت فعلاً أن ترى هتلر يهزم بلادها ولو تم تبيان أن دحر هتلر يعني إزالة الامتيازات الطبقية، لكانت الكتلة العظمى من الناس المتوسطين إلى جانبنا الذين يتراوح دخلهم بين ٦ جنيهات في الأسبوع إلى ٢٠٠٠ جنيه في السنة، وهؤلاء الناس لا يمكن الاستغناء عنهم، لأن أغلب الخبراء الفنيين منهم. من الواضح أن الغطرسة والجهل السياسي لهؤلاء الناس كالطيارين وضباط البحرية مثلاً، سيشكل صعوبة كبيرة، لكن بدون هؤلاء الطيارين، وقادة المدمرات، إلخ، لا يمكننا البقاء أحياء أكثر من أسبوع واحد. إن المقاربة الوحيدة معهم من خلال الوطنية، وستستفيد الحركة الوطنية الذكية من وطنيتهم، بدلاً من إهانتهم كما يحدث الآن.

لكن هل أقصد بأنه لن تكون هناك معارضة؟ لا طبعاً. من الحماقة توقع أي شيء من ذلك النوع.

سيكون هناك صراع سياسي، وسيكون هناك تخريب غير متعمد وشبه متعمد في كل مكان، وفي نقطة ما من الضروري استخدام العنف. من السهل تخيل اندلاع تمرد مناصر للفاشية في الهند مثلاً. يجب أن نقاتل ضد الرشوة والجهل والغطرسة. سيعارض المصرفيون ورجال الأعمال الكبار ومالكو الأراضي وساحبو الحصص والموظفون بعجائزهم الملتصقة بالمقاعد، وحتى الطبقات الوسطى ستقاوم حين تتهدد طريقة عيشها، لكن لكي لا يتفسخ الشعور الإنكليزي بالوحدة القومية، لأن الوطنية أخيراً أقوى من الكره الطبقي، ستكون الفرص لسيادة الأغلبية. لا فائدة من التوهم بإمكانية إحداث تغييرات أساسية دون التسبب بشقاق في الأمة؛ لكن الأقلية الخائنة ستكون في زمن الحرب أقل بكثير من أي وقت آخر.

تأرجح الآراء سيحدث من تلقاء ذاته، لكن لا يمكن التعويل على حدوثه بالسرعة المطلوبة. الحرب سباق بين تماسك إمبراطورية هتلر وبين نمو الوعي الديمقراطي. في كل مكان في إنكلترا يمكن أن ترى معركة مجلجلة تقوى وتضعف – في البرلمان وفي الحكومة وفي

المصانع والقوات المسلحة وفي الحانات وفي ملاجئ الغارات الجوية وفي الصحف والإذاعة. في كل يوم هناك انكسارات صغيرة وانتصارات صغيرة. إنه صراع بين المتلمسين طريقهم ومحطمي الأكاذيب، بين الشباب والكبار، بين الأحياء والأموات. لكن من الضروري جداً أن يأخذ ذلك السخط الموجود بشكل يقيني شكلاً هادفاً وليس مجرد عائق. لقد آن للشعب أن يحدد أهدافه الحربية. المطلوب بسيط، برنامج عمل واقعي يعطى كل الإشهار والشيوع الممكنين ويجمع الرأي العام حوله. وأرى بأن البرنامج الذي نحتاجه هو من البرنامج التالي المؤلف من ست نقاط. النقاط الثلاث الأولى تتعامل مع سياسة إنكلترا الداخلية، والنقاط الأخرى الباقية مع الإمبراطورية والعالم:

١ - تأميم الأرض والمناجم والخطوط الحديدية والمصارف والصناعات الرئيسية.

٢ - تحديد الدخول، بمقياس يكون فيه أعلى دخل معفى من الضرائب في بريطانيا، لا يتجاوز أقل دخل بأكثر من عشرة إلى واحد.

٣ - إصلاح النظام التعليمي وفق خطوط ديمقراطية.

٤ - اعتراف فوري بسيادة الهند ضمن مجموعة دول الكومنويلث، مع الحق في الانسحاب حين تنتهي الحرب.

٥ - تشكيل مجلس إمبريالي عام يجب تمثيل الملونين فيه.

٦ - إعلان تحالف رسمي مع الصين وإثيوبيا وكل ضحايا القوى الفاشية.

هذا البرنامج واضح، ويهدف بجلاء إلى تحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية، وتحويل إنكلترا إلى ديمقراطية اشتراكية. تعمدت بألا أضمنه أي شيء قد لا يفهمه الشخص البسيط ولا يرى مبرراً له، ويمكن نشره في الشكل الذي وضعته فيه مطبوعاً على الصفحة الأولى من الديلي ميرور، لكن هناك ضرورة لقدر محدد من التضخيم لأجل الأهداف من هذا الكتاب.

١ - التأميم: يستطيع المرء "تأميم" الصناعة بجرة قلم، لكن العملية الفعلية ستكون بطيئة ومعقدة. المطلوب والضروري أن يُعهد بملكية كل الصناعات الرئيسية رسمياً إلى الدولة التي تمثل عامة الشعب. بمجرد أن يحدث ذلك، يصبح من الممكن استئصال طبقة الملاكين الذين لا يعيشون بفضل ما ينتجون، وإنما بامتلاك صكوك التمليك وشهادات الأسهم. لذلك تستلزم ملكية الدولة ألا يكون هناك من يعيش دون أن يعمل، لكن سرعة التغيير في سلوك الصناعة

التي اشترطتها غير محددة. في بلاد مثل إنكلترا لا نستطيع أن ندك كل البنية ونبني من جديد من القاع، في زمن الحرب على الأقل. من المحتم أن تستمر أغلبية الكونسيرنات الصناعية بنفس دائرة الموظفين والمستخدمين كما في السابق، ويواصل الملاكون السابقون أو المدراء أعمالهم كموظفين عند الدولة. هناك سبب للاعتقاد بأن الكثير من الرأسماليين الصغار سيرحبون فعلياً بهذا الترتيب. المقاومة ستأتي من الرأسماليين الكبار والمصرفيين وملاكي الأراضي الأثرياء المتبطلين، وكل الطبقة التي يفوق دخلها ٢٠٠٠ جنيه سنوياً تقريباً، وحتى لو أحصى المرء كل أتباعهم، فهم لن يكونوا أكثر من نصف مليون شخص من سكان إنكلترا. تأميم الأرض الزراعية يتضمن إلغاء مالك الأرض وساحب العشر، لكن ليس بالضرورة التدخل في شؤون المزارع. من الصعب تخيل أية إعادة تنظيم للزراعة الإنكليزية لا تبقي على أكثر المزارع الحالية كوحدات في كافة الأحوال في البداية. المزارع، حين يكون كفؤاً، سيستمر كمدير بمرتب. هو كذلك مسبقاً عملياً لكن مع سلبية أنه ملزم بإنتاج الربح وأنه مدان للمصرف دائماً. مع أنواع معينة من التجارة الصغيرة، وحتى ملكية الأرض على درجة صغيرة، الدولة ربما لن تتدخل إطلاقاً. ستكون التضحية بطبقة الملاكين الصغار خطأ فادحاً. إن هؤلاء الناس ضروريين، فهم أكفاء إجمالاً، ومقدار العمل الذي يقومون به يعتمد على الإحساس بأنهم "سادة أنفسهم"، لكن الدولة ستفرض بالتأكيد حداً أقصى لملكية الأرض (ربما خمسة عشر أكراً على الأغلب)، ولن تسمح أبداً بأي ملكية للأرض في نطاق المدن. من اللحظة التي يُعلن فيها أن كل البضائع المنتجة ملكية للدولة، سيشعر عامة الشعب، لا كما يشعرون الآن، بأن الدولة هي هم. سيكونون مستعدين عندئذ لتحمل التضحيات التي تنتظرهم، في حالة الحرب أو بدونها. حتى وإن بدا بأن وجه إنكلترا لن يتغير إلا بالكاد، فإن سيطرة الطبقة الواحدة ستنكسر في اليوم الذي تُأمم فيه صناعاتنا الرئيسية رسمياً. ومنذ ذلك الحين فصاعداً سينتقل التأكيد من الملكية إلى الإدارة ومن الامتياز إلى الكفاءة. من المحتمل جداً أن تسبب ملكية الدولة بحد ذاتها بإحداث تغيير اجتماعي أقل من ذلك الذي ستفرضه علينا بالقوة الصعوبات الشائعة للحرب، لكنها الخطوة الضرورية الأولى التي تستحيل بدونها إعادة بناء حقيقية.

٢ - الدخول: يقتضي تحديد الدخول تثبيت حد أدنى للأجور، ويقتضي بدوره عملة داخلية منضبطة مؤسسة على كمية البضائع المستهلكة المتاحة. وهذا يقتضي مرة أخرى نظام محاصصة أشد انضباطاً من النظام المطبق الآن. من العبث في هذه المرحلة من تاريخ العالم

الاقتراح بأن يكون لكل لبشر دخول متساوية بالضبط فقد تبين وتكرر ذلك أنه لن يكون هناك حافز للتعهد بوظائف محددة بدون نوع من المكافأة المالية، ولكن من جانب آخر ليس بالضرورة أن تكون المكافأة المالية كبيرة جداً. في الواقع من المستحيل أن يكون المال المكتسب محدداً بصرامة كما أوحيت. ستظل هناك حالات دائمة من الشذوذ والتملص. لكن لا يوجد أي مبرر لكي لا يكون التفاوت القياسي الأقصى هو عشرة إلى واحد، وضمن هذين الحدين يصبح بعض الإحساس بالمساواة ممكناً، لكن إنسان دخله ثلاث جنيهات بالأسبوع وآخر دخله ألف وخمسمائة جنيه في السنة يستطيعان الشعور بأنهما مخلوقان متماثلان، هذا ما لا يستطيع دوق ويستمنستر والنائمون على مناضد السدود والجسور الشعور به.

٣ - التعليم: في وقت الحرب، يجب أن يكون الإصلاح التربوي بالضرورة تعهداً ووعداً أكثر منه إنجازاً. في الوقت الراهن نحن لسنا في وضع يسمح برفع سن ترك المدرسة أو زيادة الهيئة التعليمية للمدارس الابتدائية. لكن هناك خطوات محددة فورية نستطيع أخذها نحو نظام تربوي ديمقراطي. بمكننا الشروع في إلغاء الاستقلال الذاتي للمدارس الخاصة والجامعات القديمة وإشباعها بتلاميذ تساعدهم الدولة يُختارون على أسس المقدرة فقط. في الوقت الحاضر، إن التعليم في المدارس الخاصة جزئياً، هو تدريب على التحامل الطبقي، وجزئياً نوع من الضريبة تدفعها الطبقة الوسطى للطبقة العليا مقابل الحق في دخول مهن معينة. صحيح أن الظروف تتبدل. فقد بدأت الطبقة الوسطى في التمرد ضد غلاء تكاليف التعليم، وسوف تتسبب الحرب في إفلاس القسم الأعظم من المدارس الخاصة إن استمرت سنة أخرى أو سنتين. الإخلاء ينتج بعض التغييرات الثانوية المحددة أيضاً. لكن ليس هناك خطر من بعض المدارس القديمة التي ستنجو من العاصفة المالية الطويلة التي ستبقى حية بشكل أو بآخر كمراكز متقيحة للتكبر. بالنسبة إلى العشرة آلاف مدرسة "خاصة" التي تمتلكها إنكلترا، فإن أغلبها لا يستحق سوى القمع. هي مجرد مقاولات تجارية، وفي حالات كثيرة، مستواها التعليمي أدنى في الواقع من مستوى المدارس الابتدائية. هي موجودة فقط بسبب فكرة واسعة الانتشار بأن التعلم بواسطة السلطات الحكومية فيه شيء شائن. تستطيع الدولة تلطيف هذه الفكرة بإعلان نفسها مسؤولة عن كل التعليم، حتى لو لم يكن هذا أكثر من إيماءة في البداية. نحن نحتاج إلى إيماءات كما نحتاج إلى أفعال. من الواضح تماماً أن حديثنا

عن "الدفاع عن الديمقراطية" مجرد لغو عندما يكون مجرد حادث المولد هو الذي يقرر إن كان الطفل الموهوب سينال أو لن ينال التعليم الذي يستحقه.

٤ - الهند: ما يجب أن نقدمه للهند ليس "الحرية"، التي كما قلت سابقاً، بأنها مستحيلة وإنما التحالف، الشراكة - باختصار المساواة. لكن يجب أن نخبر الهنود أيضاً بأنهم أحرار في الانسحاب إن أرادوا ذلك. بدون ذلك لا يمكن أن تكون هناك مساواة في الشراكة، وادعاؤنا بالدفاع عن الشعوب الملونة ضد الفاشية لن يُصدق أبداً. لكن من الخطأ التخيل بأن الهنود سوف ينفصلون فوراً إن كانوا أحراراً في ذلك، وحين تقدم لهم الحكومة البريطانية استقلالاً غير مشروط، فإنهم سيرفضونه، لأنهم حالما يملكون السلطة للانسحاب فإن المبررات الرئيسية لهذا الفعل ستختفي.

الفصل القاطع بين الدولتين سيكون كارثة للهند لا تقل خطورتها عما سيكون لإنكلترا، والأذكياء من الهنود يعرفون هذا. كما هي الأشياء في الوقت الحالي، الهند ليس فقط لا تستطيع الدفاع عن نفسها بل إنها غير قادرة على إطعام نفسها إلا بالكاد حتى. إدارة البلاد كلها تعتمد على هيكل من الخبراء (مهندسين ضباط غابات رجال الخطوط الحديدية الجنود الأطباء) أغلبهم من الإنكليز، وليس في الإمكان استبدالهم خلال خمس أو عشر سنوات. علاوة على ذلك، اللغة الإنكليزية هي اللغة المشتركة الرئيسية، وكل الطبقة الهندية المثقفة تقريباً "تأنكلزت" بعمق. أي انتقال إلى حكم أجنبي - لأنه إن انسحب البريطانيون من الهند، فسوف تزحف إليها اليابان وقوى أخرى فوراً - سيعني خلعاً هائلاً. سيعجز اليابانيون والروس والألمان وكذلك الإيطاليون عن إدارة الهند حتى في المستوى المتدني من الكفاءة الذي بلغه البريطانيون، فهم لا يملكون الإمداد الضروري من الخبراء الفنيين أو المعرفة باللغات والظروف المحلية، وربما لا يستطيعون الفوز بثقة الوسطاء الذين لا غنى عنهم كالأوارسيين مثلاً. لو "حُررت" الهند أي حرمت من الحماية العسكرية البريطانية، فستكون النتيجة الأولى فتحاً أجنبياً جديداً، والنتيجة الثانية سلسلة من المجاعات الهائلة التي ستقتل ملايين الأشخاص خلال بضع سنوات.

ما تحتاجه الهند، هو القوة لتضع دستورها الخاص بها دون تدخل بريطاني، لكن في نوع من الشراكة التي تكفل حمايتها العسكرية والمشورة التقنية، وهذا لا يمكن التفكير فيه قبل أن تكون هناك حكومة اشتراكية في إنكلترا. لمدة ثمانين سنة على الأقل، ظلت إنكلترا تمنع على

نحو مصطنع تطور الهند، جزئياً خشية المنافسة التجارية من أن تكون الصناعات الهندية متطورة جداً، وجزئياً لأن الناس المتخلفين يُحكمون بسهولة أكبر من الناس المتمدنين. من المعتاد أن الهندي العادي (المتوسط) يعاني من أبناء بلده أضعاف ما يعانيه من البريطانيين. يستغل الرأسمالي الهندي الصغير عمال بلدته بأقصى قسوة، فالفلاح يعيش من ولادته حتى مماته في قبضة قارض المال. لكن هذا كله نتيجة غير مباشرة للحكم البريطاني الذي هدف متعمداً إلى إبقاء الهند متخلفة بقدر ما أمكن. الطبقات الأكثر ولاء لبريطانيا هم الأمراء ومالكو الأراضي وجمهور التجار - عموماً الطبقات التي تربح من الوضع الراهن. في اللحظة التي تكف فيها إنكلترا عن الوقوف تجاه الهند بعلاقتها كمستغل، ستبدل ميزان القوى. لن تظل هناك حاجة لتملق الأمراء الهنود السخيفين بفيلهم المطلية بالذهب وجيوشهم الكرتونية، لمنع تنامي الاتحادات العمالية الهندية، وتحريض المسلمين ضد الهندوس، وحماية الحياة التافهة لمقرضي المال، وتلقي التحيات من الموظفين الصغار المتزلفين، وتفضيل الغوركا نصف البربري على المثقف البنغالي. ما إن تدفق في ذلك النهر من إيرادات الأسهم التي تتدفق من أجساد الحمالين الهنود إلى الحسابات المصرفية للسيدات العجائز في شيلتينهام، رابطة الساكن المحلي والصاحب مع الجهل المتغطرس من الجانب الأول والحسد والخنوع من الجانب الآخر التي يمكن وضع نهاية لها. يستطيع الإنكليز والهنود أن يعملا جنباً إلى جنب من أجل تطوير الهند، ومن أجل تدريب الهنود في كل الفنون الممنوعين بشكل منهجي من تعلمها حتى الآن. كم عدد دوائر الموظفين المتواجدين في الهند، التجاريين والرسميين، الذين سينهارون جراء اتفاق كهذا، يعني بأن يظلوا "أصحاب" لكن، بشكل عام، يجب أن نتأمل الكثير من الشباب ومن هؤلاء الموظفين (المهندسين وخبراء الحراجة والزراعة والأطباء والتربويين) الذين تعلموا بشكل علمي. أما الموظفون الكبار من حكام المناطق والأرياف ومندوبي الحكومة والقضاة..إلخ، فميئوس منهم؛ لكنهم الأسهل استبدالاً أيضاً.

ذلك تقريباً ما يقصد بوضع السيادة إن قدمتها حكومة اشتراكية للهند. إنه عرض للشراكة بشروط متساوية، حتى يحين وقت تتوقف الطائرات القاذفة فيه عن حكم العالم. لكننا يجب أن نضيف إليها حقاً غير مشروط للانسحاب. إنه الطريقة الوحيدة التي نثبت فيها بأننا نعني ما نقول. وما ينطبق على الهند، ينطبق مع التعديلات الضرورية على بورما ومالايا وأغلب الممتلكات الأفريقية.

٥ و٦ يفسران نفسيهما. هما الإجراءان التمهيديان الضروريان لأي زعم بأننا نخوض هذه الحرب من أجل حماية الشعوب المسالمة ضد العدوان الفاشي.

هل الاعتقاد بأن تلك السياسة ستجد لها أتباعاً في إنكلترا، أمل ميئوس منه؟ منذ سنة أو قبل ستة أشهر حتى، كان الأمر كذلك، لكن ليس الآن. إضافة – وهذه الفرصة الفريدة لهذه اللحظة – يمكن أن تحظى بالعلنية الضرورية. هناك الآن صحافة أسبوعية ضخمة، تداولها بالملايين، ستكون جاهزة لتعممها على الجماهير – إن لم يكن البرنامج الذي رسمت مخططه آنفاً بالضبط، فبعض من السياسية المتوافقة مع تلك الخطوط في أي حال، فهناك ثلاث أو أربع صحف يومية ستكون مستعدة لنشرها وتأييدها. هذه هي المسافة التي قطعناها في الأشهر الستة الأخيرة.

لكن هل مثل هذه السياسة قابلة للتحقق؟ يعتمد ذلك علينا نحن.

بعض النقاط التي اقترحتها هي من النوع الذي يمكن تنفيذه فورياً، أما بعضها الآخر فيستغرق سنيناً أو عقوداً، ولن تُنجز بشكل كامل حتى بعدئذ. ليس هناك أبداً برنامج سياسي نُفّذ بكليته. لكن ما يهم أن شيئاً مثله يجب أن يكون سياستنا المعلنة. المهم دائماً هو التوجه والمسار. من المتعذر تماماً طبعاً أن نتوقع من الحكومة الحالية أن تُلزم نفسها بأية سياسة تتضمن تحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية. إنها أفضل حكومة تسويات، مع تشرشل يمتطي حصانين مثل بهلوان سيرك. قبل أن تصبح إجراءات مثل تحديد الدخول قابلة للتفكير حتى، يجب أن يكون هناك انتقال كامل للسلطة من الطبقة الحاكمة القديمة. إن تحولت الحرب أثناء هذا الشتاء إلى فترة ركود أخرى، ينبغي علينا برأيي أن نتحرك من أجل انتخابات عامة، شيء ستبذل ماكينة حزب توري جهوداً مسعورة لمنعه. لكننا نستطيع الحصول على الحكومة التي نريدها بدون انتخابات حتى، بشرط أن نريدها بشكل ملحّ وضروري تماماً. الدفع الحقيقي من الأسفل سوف ينجزها. بالنسبة إلى من سيكون في تلك الحكومة حين تأتي، لن أخمن ذلك. أنا أعرف فقط أن الرجال المناسبين سيكونون هناك حين يريدهم الشعب حقيقة، لأن الحركات تصنع القادة، وليس القادة هم من يصنعون الحركات.

خلال سنة أو ستة أشهر ربما، إن بقينا غير مدحورين، سنرى نهوض شيء لم يوجد من قبل قط، على وجه الخصوص حركة اشتراكية إنكليزية. حتى الآن ليس هناك سوى حزب العمال وهو من إنشاء الطبقة العاملة، لكنه لا يهدف إلى أي تغيير أساسي، والماركسية وهي نظرية

ألمانية فسرها الروس ونُقلت إلى إنكلترا بشكل غير ناجح، ولم يكن هناك شيء يلامس حقيقة قلب الشعب الإنكليزي. لم تنتج الحركة الاشتراكية خلال تاريخها كله أغنية بنغمة جذابة - لا شيء كالمارسييز أو الكوكوراشا مثلاً. حين تظهر حركة اشتراكية نابعة من طبيعة إنكلترا، سيكون الماركسيون ككل الآخرين غيرهم من ذوي الاهتمام الراسخ بالماضي، ألد أعدائها ومن المحتم أنهم سيشجبونها وينعتونها بـ"الفاشية". من المعتاد مسبقاً بين المثقفين نصف الناضجين من اليسار التصريح بأننا أن قاتلنا ضد النازيين، فستتحول نحن إلى نازيين. وربما يقولون بالمثل إننا إن قاتلنا ضد الزنوج فستتحول إلى سود. لتتحول إلى نازيين يجب أن يكون لدينا تاريخ ألمانيا خلفنا. الأمم لا تفر من ماضيها بمجرد القيام بثورة. حكومة اشتراكية إنكليزية سوف تبدل الأمة من القمة إلى القاع، لكنها ستظل تحمل فوق كاهلها العلامات الجلية لحضارتنا، الحضارة الفريدة التي ناقشتها آنفاً في هذا الكتاب.

لن تكون نظرية غير علمية أو حتى منطقية. إنها ستلغي مجلس اللوردات، لكنها ربما لن تلغي الملكية. ستترك المفارقات التاريخية والنهايات في كل مكان، القاضي بشعره المستعار السخيف والمأخوذ من ذيل الحصان والأسد ووحيد القرن التي على أزرار قبعة الجندي. هي لن تُنصّب أي ديكتاتورية طبقية صريحة. سوف تجمع نفسها حول حزب العمال القديم، وسيكون جمهور أتباعها من الاتحادات العمالية، لكنها ستسحب إلى داخلها أكثرية الطبقة الوسطى والكثيرين من الأبناء الأصغر من البورجوازية، وسيأتي أغلب عقولها الموجهة من عمال الطبقة غير المحددة الجديدة من المهرة والخبراء التقنيين والملاحين الجويين والعلماء والصحفيين، والناس الذين يشعرون بالارتياح في عصر الراديو والإسمنت المسلح، لكنها لن تفقد الاتصال مع عرف التسوية والحلول الوسطى والإيمان بالقانون الذي هو فوق الدولة. تسوف تعدم الخونة بالرصاص، لكنها ستعطيهم محاكمة وقورة سلفاً، وأحياناً ستبرئهم. سوف تسحق أي تمرد علني بقسوة وبدون إبطاء، لكنها لن تتدخل إلا قليلاً جداً في الكلمة المحكية أو المكتوبة، وستظل الأحزاب السياسية بمختلف مسمياتها موجودة، وستظل كذلك الفرق الثورية تواصل نشر صحفها وتمارس تأثيرها القليل كما كانت دائماً. سوف تسحب اعترافها بالكنيسة، لكنها لن تقمع الدين، وإنما ستُبقي على توقير غامض للنظام الأخلاقي المسيحي، وسوف تشير من حين إلى آخر إلى إنكلترا بـ"بلاد مسيحية". سوف تكون الكنيسة

الكاثوليكية ضدها، لكن الطوائف المنشقة والقسم الأعظم من الكنيسة الأنجليكانية، سوف تتوصل إلى تفاهم معها، وسوف تظهر قوة في استيعاب الماضي، ما سيصدم المراقبين الأجانب ويجعلهم يشكون أحياناً إن كانت الثورة قد حدثت.

لكن رغم ذلك، فهي ستقوم بالشيء الجوهري. سوف تؤمم الصناعة وتخفض الدخول وتؤسس نظاما تربوياً غير طبقي. ستكون طبيعتها الحقيقية ظاهرة من الكره الذي سيكنه لها الناجون من الأغنياء. لن تستهدف حل الإمبراطورية، وإنما تحويلها إلى اتحاد فيدرالي من الدول الاشتراكية، متحرر من العلم البريطاني، لكن ليس كشدة تحرره من مقرض المال وساحب إيرادات الأسهم المالية والموظف البريطاني الأحمق. إنها استراتيجية حربية ستكون مختلفة تماماً عن أية دولة تحكمها الملكية، لأنها لن تكون خائفة من أصغر الوساوس حول مهاجمة المحايدين المعادين أو إثارة عصيانات محلية في مستعمرات عدوة. سوف تقاتل بطريقة، حتى لو انهزمت فيها ستظل ذكراها خطرة على المنتصر. كما كانت ذكرى الثورة الفرنسية خطرة على أوروبا مترنيخ. سيهابها الحكام المستبدون كما لم يخافوا من نظام الحكم البريطاني الحالي حتى لو كانت قوته العسكرية عشرة أضعاف ما هو عليه.

لكن في هذه اللحظة، وفي الوقت الذي لم تتبدل فيه الحياة الناعسة لإنكلترا، وحين لا يزال التباين المهين للثروة والفقر موجوداً في كل مكان، حتى وسط القنابل، لماذا أتجرأ وأقول بأن كل هذه الأشياء "سوف" تحدث؟

لأن الوقت الذي يستطيع المرء فيه التنبؤ بالمستقبل على ضوء "إما - أو" قد حان. إما أن نحول هذه الحرب إلى حرب ثورية (أنا لا أقول إن سياستنا سوف تكون ما أشرت إليه آنفاً بالضبط - لكنها ستكون بموازاة تلك الخطوط العامة) أو أن نخسرها، بالإضافة إلى أشياء أكثر بكثير. قريباً جداً سيكون من الممكن القول بلا ريب بأن أقدامنا وُضعت إما على السبيل الأول أو على الآخر. لكن في كافة الأحوال، فمن المؤكد أننا لا نستطيع الفوز بتركيبتنا الاجتماعية الحاضرة، إذ لا يمكن تعبئة قوانا البدنية أو الأخلاقية أو العقلية.

٣ - الوطنية لا علاقة لها بالنزعة المحافظة. إنها في الواقع نقيض النزعة المحافظة، بما أنها تفان لشيء يتبدل دائماً ومع ذلك يظل يبدو نفسه على نحو خفي. إنها الجسر بين المستقبل والماضي. لم يحدث أبداً أن كان الثائر الحقيقي أممياً ولن يكون.

خلال العشرين سنة الماضية النظرة، فإن السلبية الخاملة التي كانت حديثة وسط أجنحة اليسار الإنكليزي، المثقف الساخر من الوطنية والشجاعة البدنية والجهد الحثيث لتكسير المعنويات الإنكليزية ونشر النظرة التلذذية، ما الذي سأناله منها - في الحياة، لم تفعل سوى الضرر. ستكون ضارة حتى لو كنا نعيش في عالم عصبة الأمم الهش الذي تخيله هؤلاء الناس. عصر الفوهررات والطائرات القاذفة كان كارثة. مهما كان حبنا للخشونة قليلاً، فهي ثمن البقاء. الأمة التي تدربت لتفكر بأسلوب تلذذي، لا تستطيع البقاء حية وسط شعوب تعمل مثل العبيد وتتناسل كالأرانب، وصناعتها الوطنية الرئيسية هي الحرب. الاشتراكيون الإنكليز من كل الألوان تقريباً أرادوا أن يتخذوا موقفاً ضد الفاشية، لكن في الوقت نفسه هدفوا إلى جعل أبناء بلدهم غير محبين للحرب. لقد فشلوا، لأن الولاءات التقليدية في إنكلترا أقوى من الولاءات الجديدة. لكن رغم كل بطولات صحافة الجناح اليساري "المعادية للفاشية"، ما هي فرصة صمودنا وما هو وضعنا حين يأتي الصراع مع الفاشية، إذا كان الإنكليزي العادي من نوع المخلوق الذي رغبت نيوستيتمان وديلي وركر وحتى نيوز كرونيكل في صنعه؟

حتى عام ١٩٣٥ عملياً، كانت كل أجنحة اليسار الإنكليزية سلمية على نحو غامض. بعد عام ١٩٣٥ الأكثر تشدقاً منهم رموا بأنفسهم بتلهف في حركة الجبهة الشعبية، التي كانت مجرد تهرب من المشكلة برمتها التي فرضتها الفاشية. بدأت لتكون "معادية للفاشية" بطريقة سلبية محضة - "ضد" الفاشية دون أن تكون "مؤيدة" لأية سياسة قابلة للاكتشاف - وتحتها تكمن الفكرة الرخوة بأن الروس سيقاتلون بدلاً منا حين يأتي الوقت. من المدهش كيف يفشل هذا الوهم في أن يموت. كل أسبوع يشهد فيضاً من الرسائل للصحافة تشير أنه لو كان لدينا حكومة ليس فيها توريين (محافظين) فإن الروس لن يستطيعوا تفادي تبديل رأيهم والوقوف إلى جانبنا. أو علينا أن نعلن عن أهداف حربية طنانة (راجع كتباً مثل كفاحي، مائة مليون حليف - لو رغبنا، إلخ)، عندئذ ستهب الشعوب تماماً لتقف لمصلحتنا. إنها نفس الفكرة الدائمة - ابحث عن إلهامك في الخارج، دع أحداً آخر يخوض حربك عنك. تحتها تكمن عقدة الدونية المخيفة للمثقف الإنكليزي، الاعتقاد بأن الإنكليز لم يعودوا سلالة حربية ولم يعودوا قادرين على التحمل والثبات.

في الحقيقة ليس هناك مبرر للاعتقاد بأن أي أحد سيخوض حربنا بدلاً منا ولو للحظة، ماعدا الصينيين الذين بدأوا يقومون بذلك منذ ثلاث سنوات.[1] وربما يُدفع الروس إلى القتال إلى جانبنا بفعل هجوم مباشر، لكنهم أوضحوا كفاية بأنهم لن يواجهوا الجيش الألماني إن كانت هناك وسيلة لتفادي ذلك. في كافة الأحوال من غير المحتمل أن يجذبهم مشهد حكومة يسارية في إنكلترا. نظام الحكم الروسي الحالي يجب أن يكون وبشكل مؤكد معادياً لأي ثورة في الغرب. شعوب أوروبا الخاضعة سوف تتمرد حين يبدأ هتلر في الترنح، لكن ليس قبل ذلك. حلفاؤنا المحتملون ليسوا الأوروبيين، وإنما من جهة الأميركيين الذين سيحتاجون إلى سنة ليعبئوا مواردهم، حتى لو تم إجبار التجارة وتطويعها. ومن جهة أخرى، فالشعوب الملونة لا يمكن أن تكون في صفنا حتى تبدأ ثورتنا. لوقت طويل، سنة، سنتين، ربما ثلاثة، يجب على إنكلترا أن تكون ماص الصدمات بالنسبة إلى العالم. يجب علينا أن نواجه القصف والجوع والعمل المفرط والأنفلونزا والضجر وعروض السلام الغادرة. من الجلي أنه زمن لتقسية المعنويات، وليس لإضعافها. بدلاً من أخذ موقف معادٍ للبريطانيين بشكل ميكانيكي وهو المعتاد من اليسار، من الأنسب أن نفكر في الشكل الذي سيؤول إليه العالم لو فنيت الحضارة الناطقة بالإنكليزية. من الصبيانية الافتراض أن البلدان الناطقة بالإنكليزية الأخرى، حتى الولايات المتحدة لن تتأثر إن دُحرت بريطانيا.

يعتقد اللورد هاليفاكس وكل قبيلته، بأن الأشياء ستعود كما كانت من قبل بالضبط، بمجرد أن تنتهي الحرب. عودة إلى الحجارة الواهنة لفرساي وعودة إلى "الديمقراطية" أي الرأسمالية، عودة إلى طوابير إعانات البطالة وسيارات الرولزرويس، عودة إلى القبعات الرمادية العالية والسراويل الفضفاضة المبطنة. من الواضح طبعاً أنه لن يحدث أي شيء من هذا النوع. تقليد عنه شبه واهن ربما يحدث في حالة سلام متفاوض عليه، لكن لفترة قصيرة. لقد ماتت رأسمالية عدم التدخل في الاقتصاد.[2] الخيار يكمن بين نوع من المجتمع التعاوني الذي سينشئه هتلر، والنوع الذي يمكن أن يظهر إن اندحر وخسر الحرب.

---

١ - (كتب قبل اندلاع الحرب في اليونان. حاشية المؤلف).

٢ - (من المشوق أن نلاحظ بأن السيد كنيدي، سفير الولايات المتحدة في لندن، لاحظ عند عودته إلى نيويورك في أكتوبر تشرين أول ١٩٤٠ أن "الديمقراطية هلكت" نتيجة للحرب. عنى بـ"الديمقراطية" طبعاً الرأسمالية الخاصة. حاشية المؤلف)

إن ربح هتلر هذه الحرب، فسوف يعزز حكمه فوق كل أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط، وإن لم يهد الإنهاك جيوشه، سينتزع مناطق واسعة من روسيا السوفيتية. سوف ينشئ مجتمعاً طبقياً متدرجاً، فيه الألمان هيرفولك ("العرق السيد" أو "العرق الأرستقراطي") وسيحكمون السلاف والشعوب الأقل التي ستكون مهمتها إنتاج منتجات زراعية منخفضة التكلفة. سوف يقلل منزلة الشعوب الملونة ويحولها إلى عبودية تامة. الصراع الحقيقي للقوى الفاشية مع الإمبراطورية البريطانية، هو أن الأولى تعرف بأن الثانية تتفسخ وتنحل. عشرون سنة أخرى بموازاة الخط الحالي للتطور، وستكون الهند جمهورية فلاحية مرتبطة بإنكلترا بتحالف طوعي فقط. "أنصاف القردة" الذين تكلم هتلر عنهم باشمئزاز كبير، سوف يقودون الطائرات ويصنعون البنادق الآلية. الحلم الفاشي بإمبراطورية رق سوف ينتهي. من الجانب الآخر، إن هُزمنا، فإننا سنسلم ضحايانا ببساطة إلى سادة جدد وصلوا إلى المهمة ولا يظهر عليهم أي تردد.

لكن الأمر أكبر من مصير الشعوب الملونة. رؤيتان متنافرتان للحياة تصارعان بعضهما. "بين الديمقراطية والشمولية" قال موسوليني، "لن تكون هناك تسوية أو حل وسط". لا تستطيع العقيدتان العيش جنباً إلى جنب حتى ولو لفترة محدودة من الوقت. طالما توجد الديمقراطية حتى في شكلها الإنكليزي الناقص، تكون الشمولية في خطر حقيقي. العالم الناطق بالإنكليزية برمته تلازمه فكرة المساواة الإنسانية، ورغم كذب القول بأننا نحن أو الأمريكان كنا نعمل دائماً وفقاً لمعتقداتنا، تظل الفكرة هناك، وقادرة بأن تصبح حقيقة في يوم من الأيام. من الثقافة الناطقة بالإنكليزية، إن لم تفنَ، سينبثق مجتمع مكون من كائنات بشرية حرة ومتساوية في النهاية. لكن هي بالضبط فكرة المساواة الإنسانية - الفكرة "اليهودية" أو "اليهودية - المسيحية" - بأن هتلر جاء إلى العالم كي يدمره. وهو كرر قول ذلك بنفسه كثيراً. فكرة العالم الذي فيه السود خيرون كالبيض، واليهود يعاملون فيه ككائنات بشرية، تسبب له رعباً ويأساً كالذي تسببه لنا فكرة العبودية اللانهائية لنا.

من المهم أن نتذكر التنافر الشديد بين وجهتي النظر هاتين. في وقت ما خلال السنة التالية يُحتمل تماماً حدوث رد فعل مؤيد لهتلر ضمن مثقفي اليسار، فهناك علامات أولية دالة عليه مسبقاً، كما أن إنجاز هتلر الموجب الحقيقي جذاب لخلاء هؤلاء الناس و- في حالة هؤلاء من ذوي الميول السلامية - لمازوشيتهم. المرء يعرف مقدماً ما سيقولونه تقريباً. سيبدؤون برفض

الاعتراف بأن الرأسمالية البريطانية تتطور إلى شيء مختلف أو أن دحر هتلر لا يمكن أن يعني أكثر من نصر بالنسبة إلى الأثرياء البريطانيين والأمريكيين. ومن ذلك سوف يشرعون في الجدل بأن الديمقراطية أخيراً "تماماً مثل" أو "تماماً بنفس سوء" الحكم الشمولي. ليس هناك حرية تعبير كبيرة في إنكلترا؛ لذلك هي ليست أكثر مما يوجد منها في ألمانيا. أن تكون على الإعانة الحكومية تجربة هيبة؛ لذلك هي ليست أسوأ من أن تكون في غرف تعذيب الجيستابو. على العموم، أسودان اثنان يساويان أبيض، نصف رغيف مثل بلا خبز.

لكن في الواقع مهما يكون صحيحاً عن الديمقراطية والشمولية، فليس صحيحاً أنهما متماثلتان. لن يكون صحيحاً، حتى لو كانت الديمقراطية البريطانية غير قادرة على التطور إلى أبعد من مرحلتها الحالية. فكرة الدولة القارية المعسكرة برمتها مع قواتها الأمنية السرية وأدبها الخاضع للرقابة وعملها الإلزامي، شيء مختلف تماماً عن ذلك الذي في الديمقراطية الملاحية الرخوة، مع أحيائها الفقيرة القذرة والبطالة وإضراباتها وسياساتها. إنه الاختلاف بين القدرة البرية والقدرة البحرية، بين القسوة وعدم الكفاءة، بين الكذب وخداع الذات، بين رجل الإس إس وجابي الإيجار. والاختيار بينهما ليس على أساس مدى القوة التي هما عليها الآن، وإنما على ما هما قادران أن يصبحا عليه. لكن بمعنى غير متصل بالموضوع، إن كانت الديمقراطية في أوجها أم في حضيضها، "أفضل" من الشمولية. لكي يقرر المرء، ينبغي عليه أن يمتلك مدخلاً إلى معايير كاملة. السؤال الوحيد الذي له أهمية، هو أين سيكمن تعاطف المرء حين يأتي الحرمان (القرصة). المثقفون المغرمون بالموازنة بين الديمقراطية والشمولية و"أثبتوا" أن الأولى بنفس سوء الثانية المهمة، هم ببساطة أشخاص تافهون لم يُدفعوا قط لمواجهة الحقائق. يظهرون نفس سوء الفهم الضحل للفاشية الآن، حين بدؤوا في مغازلتها، كما منذ سنة أو سنتين، عندما كانوا يتصارخون ضدها. السؤال هو ليس "هل تستطيع أن تقترح قضية اجتماعية جدالية لصالح هتلر؟" بل السؤال هو "هل تقبل بصدق بتلك القضية؟ هل أنت راغب بأن تخضع لحكم هتلر؟ هل تريد أن ترى إنكلترا مهزومة، أم لا تريد؟". يفضل أن تتأكد من تلك النقطة قبل الانحياز الطائش إلى صف العدو. لأنه في الحرب ليس هناك شيء اسمه الحياد؛ وعملياً يجب على المرء أن يساعد الطرف الأول أو الآخر.

حين يأتي الحرمان، فلن تقبل أية سلالة في العرف الغربي بالرؤيا الفاشية للحياة. من المهم أن يُدرك ذلك الآن ونعي ما ينتج عنه. بكل كسلها ورياءها وإجحافها، فالحضارة الناطقة

بالإنكليزية هي العقبة الكبيرة الوحيدة في درب هتلر. إنها تناقض حي لكل العقائد الفاشية "المعصومة". لهذا اتفق كل الكتاب الفاشيين خلال السنوات الماضية على وجوب تدمير سلطة إنكلترا ونفوذها. إنكلترا يجب أن "تُباد"، يجب أن "تتوقف عن البقاء". استراتيجياً من الممكن أن تنتهي هذه الحرب بحيازة هتلر المضمونة على أوروبا وببقاء الإمبراطورية البريطانية سليمة، وكذلك قوتها البحرية التي لن تتضرر تقريباً. لكن أيديولوجياً هذا غير ممكن، فلو قدّم هتلر مقترحاً بموازاة تلك الخطوط، فسيكون مجرد خداع، مع تطلع لإخضاع إنكلترا بشكل غير مباشر أو تجديد الهجوم في وقت مناسب أكثر. لا يمكن السماح لإنكلترا بأن تبقى نوعاً من القمع (الأنبوب) عبره تتدفق الأفكار المميتة من وراء الأطلنطي إلى دول أوروبا الأمنية. وبالنظر للقضية من وجهة نظرنا، نرى ضخامتها أمامنا، والأهمية الكبيرة للحفاظ على ديمقراطيتنا تقريباً كما عرفناها. لكن أن تحافظ وتصون يعني أن تتوسع وتتمدد. الخيار أمامنا ليس بين نصر وهزيمة بقدر ما هو بين ثورة ولامبالاة. إن تهدم الشيء الذي نقاتل من أجله تماماً، فإنه سيتهدم بفعلنا نحن جزئياً.

يمكن أن يحدث وتستطيع بريطانيا إدخال بدايات الاشتراكية وتحويل هذه الحرب إلى حرب ثورية وتظل مهزومة. ذلك قابل للتصور على أي حال. لكن، مهما كان ذلك بغيضاً لأي شخص بالغ الآن، إلا أنه أقل إماتة من "تسوية سلمية" تنشدها حفنة من الأثرياء والأفاقين المستأجرين من قبلها. الدمار النهائي لإنكلترا لا يمكن أن يُنجز إلا بعمل حكومة إنكليزية تتلقى أوامرها من برلين. لكن ذلك لا يمكن أن يحدث إن تنبهت إنكلترا مسبقاً، ففي تلك الحالة ستكون الهزيمة جلية والصراع سيستمر وتنجو الفكرة. الفرق بين النزول إلى القتال والاستسلام بدون قتال، هو بلا شك مسألة "شرف" وبطولات طلابية. قال هتلر مرة إن القبول بالهزيمة يدمر روح الأمة. هذا يبدو مثل قطعة من الكلام الفارغ، لكنه صحيح تماماً. هزيمة ١٨٧٠ لم تقلل التأثير العالمي لفرنسا. كان للجمهورية الثالثة تأثير فكري أكبر مما كان لفرنسا نابليون الثالث. لكن السلام الذي قبل به بيتان ولافال وكو، لا يمكن تحقيقه إلا بمسح متعمد للثقافة القومية. ستنعم حكومة فيشي باستقلال زائف، لكن بشرط أن تدمر المعالم المميزة للثقافة الفرنسية: الحكم الجمهوري والعلمانية واحترام العقل وغياب التحامل بحق الملونين. لا يمكن أن نُهزم بشكل تام إذا قمنا بثورتنا مقدماً. يمكن أن نرى جنود القوات

الألمانية يتبخترون في الوايتهول (مقر الحكومة) لكن ستبدأ صيرورة أخرى، مهلكة جوهرياً للحلم الألماني بالسلطان. لقد انهزم الشعب الإسباني، لكن الأشياء التي تعلمها خلال هاتين الستين والنصف البارزتين، ستعود يوماً ما على الفاشيين الإسبان مثل الكيد المرتد.

مقطع من كلام شكسبير المنمق اقتبس في بداية الحرب. حتى السيد تشامبرلاين اقتبسه مرة، إن لم تخدعني ذاكرتي:

لتأتي بأسلحتها أركان العالم الأربعة كلها وسوف نصدمهم: لا شيء سيجعلنا نندم إن اعتمدت إنكلترا على نفسها بصدق.

صحيح تماماً، إن فسرته بشكل صحيح، لكن على إنكلترا أن تكون صادقة مع نفسها. هي ليست صادقة مع نفسها حين يظل اللاجئون المحتجزون الذين سعوا إلى شواطئنا في معسكرات الاعتقال، ومدراء الشركات يخترعون مكائد حاذقة للتهرب من ضرائب فائض أرباحهم. إنه وداع للنهام وللمتفرج ووداع للسيدة التي في سيارة الرولزرويس. ورثة نيلسون وكرومويل ليسوا في مجلس اللوردات. هم في الحقول والشوارع، في المصانع والقوات المسلحة، في مشرب الجعة الرخيص وفي الحدائق الخلفية في الضواحي، وفي الوقت الحاضر لا يزالون محكومين من قبل جيل من الأشباح. مقارنة بمهمة إعادة إنكلترا الحقيقية إلى السطح، حتى الفوز بالحرب، رغم ضرورته، ثانوي. بالثورة نصبح أنفسنا أكثر وليس أقل. ليس هناك شك من أن إيقافها المفاجئ وعقد تسوية، و"إنقاذ الديمقراطية" لا يزال قائماً. ليس هناك شيء يظل قائماً للأبد. يجب علينا أن نضيف إلى تراثنا أو نخسره، يجب علينا إما أن نقوى أكثر أو نضعف أكثر، يجب علينا إما أن نتقدم أو نتراجع. أنا أؤمن بإنكلترا وأؤمن بأننا سنتقدم.



الكتّاب واللويثان (الدولة)

يعنون أورويل المقال على الشكل التالي: الكتّاب واللويثان، وهو وحش بحري مخيف ورد ذكره في الكتاب المقدس.

نوقش كثيراً وعلى نطاق واسع موضوع وضع الكاتب في زمن سيطرة الدولة، لكن أغلب الأدلة المتعلقة بالموضوع ليست متوفرة بعد. في هذا الموضع لا أريد أن أعبر عن رأي مؤيد أو معارض لعصر تبني الدولة للفنون، وإنما لأبين أن قواعد الدولة أياً كانت التي تتحكم بنا، يجب أن تعتمد جزئياً على الجو الفكري السائد: أقصد، في هذا السياق، جزئياً على موقف الكتاب والفنانين أنفسهم، وعلى رغبتهم واستعدادهم لإبقاء روح الليبرالية حية. فإن وجدنا أنفسنا في غضون عشر سنوات نتذلل أمام شخص مثل جدانوف، فسيكون هذا ما نستحقه. من الواضح وجود ميول قوية نحو الشمولية والديكتاتورية تعمل داخل الإنتلجنسيا الأدبية الإنكليزية مسبقاً. لكني لست مهتماً هنا بأية حركة واعية منظمة مثل الشيوعية، بل في الأثر على حماسة الناس وعلى التفكير السياسي وفي الحاجة إلى الاصطفاف السياسي.

هذا عصر سياسي. الحرب والفاشية ومعسكرات الاعتقال والعصي المطاطية والقنابل الذرية..إلخ، هي ما نفكر فيه يومياً، وما نكتب عنه إلى درجة ما حتى عندما لا نسميها صراحة. حين تكون على متن سفينة غارقة لا يمكنك التفكير إلا بالسفن الغارقة. لكن لم يتقلص موضوعنا الرئيسي فقط، وإنما تلون موقفنا من الأدب كله بولاءات غير أدبية بشكل متقطع على الأقل. لدي شعور شبه دائم بأن النقد الأدبي في أفضل أوقاته مخادع نظراً لغياب معايير مقبولة أياً كان نوعها - أي مرجع خارجي يستطيع أن يعطي معنى لمقولة إن هذا الكتاب "جيد" وذاك "رديء" - فكل حكم أدبي مبني على تلفيق مجموعة من القواعد لتبرير خيار غريزي. رد الفعل الحقيقي للمرء، إن وجد، يكون عادة "أنا أحب هذا الكتاب" أو "أنا لا أحبه" وما يتلو ذلك هو منطقة (تسويغ). لكني أعتقد أَن "أنا أحب هذا الكتاب" ليس رد فعل غير أدبي؛ رد الفعل غير الأدبي هو "هذا الكتاب في صفي، ولِذا يجب أن اكتشف فيه الفضائل". من الطبيعي أن يمجد المرء كتاباً لأسباب سياسية ربما يكون موالياً لها، بمعنى أنه يشعر باستحسان

قوي نحوها، لكن يحدث كثيراً أيضاً أن هذا التضامن الحزبي يتطلب الكذب الصريح. وكل من يكتب مراجعات نقدية للكتب لصالح الدوريات السياسية يدرك هذا. عموماً إن كنت تكتب لجريدة، يعني أنك متعاقد معها، أنت ترتكب إثماً بالتكليف، وإن كانت الجريدة ذات طابع مناقض فبالحذف. في كل الأحوال يجري الحكم على كتب خلافية لا تحصى - كتب ضد أو مع روسيا السوفيتية أو الصهيونية أو الكنيسة الكاثوليكية..إلخ قبل أن تُقرأ وبالأحرى قبل أن تُكتب، فالمرء يعرف مسبقاً أي استقبال سيناله بأي جريدة، ومع ذلك بالخداع الذي لا يكون شبه مدرك أحياناً يظل الزعم بتطبيق المعايير الأدبية الأصيلة والصادقة.

إن غزو السياسيين للأدب محتوم حدوثه طبعاً. كان يجب أن يحدث حتى لو لم تظهر مشكلة الشمولية والديكتاتورية أبداً، لأننا طوّرنا نوعاً من وخز الضمير الذي لم يعرفه أجدادنا، ووعي بالظلم الهائل وببؤس العالم، وشعور بالذنب يفرض على المرء القيام بشيء حوله، ما جعل الموقف الجمالي الصرف نحو الحياة مستحيلاً. لا أحد يستطيع الآن أن يكرس نفسه للأدب بإخلاص كما فعل جويس أو هنري جيمس. لكن لسوء الحظ، القبول بمسؤولية سياسية الآن يعني التخلي عن النفس إلى أرثوذوكسيات (عقائد تقليدية) و"خطوط حزبية" بكل ما يتضمنه ذلك من جبن وخداع. بعكس الكتاب الفيكتوريين، لدينا عائق العيش في أيديولوجيات سياسية محددة وواضحة تعرف بلمحة عادة الأفكار المهرطقة (منشقة). يعيش المفكر الأدبي المعاصر ويكتب في خوف دائم - في الحقيقة ليس من الرأي العام بمعناه الشامل، بل من الرأي العام ضمن مجموعته. كقاعدة، لحسن الحظ، هناك أكثر من مجموعة، لكن في أية لحظة مفترضة هناك أرثوذوكسية مهيمنة يجب تحديها، ما يتطلب جلداً سميكاً، وأحياناً يعني تخفيض دخل المرء إلى النصف لسنوات طويلة متتالية. من الواضح أن المعتقد المهيمن في السنوات الخمس عشرة الماضية وسط الشباب خصوصاً هو اليسار والكلمات الرئيسة هي "تقدمي" و"ديمقراطي" و"برجوازي" و"رجعي" و"فاشي". الكل تقدميون تقريباً اليوم، حتى أكثرية الكاثوليك والمحافظين يرغبون أن يُظن بهم أنهم كذلك على الأقل. ليس هناك من وصف نفسه بـ"البرجوازي" حسب معرفتي مثلما، ليس هناك متعلم واحد يعترف بكونه متهماً بعدائه للسلمية. كلنا ديمقراطيون طيبون نعادي الفاشية والإمبريالية ونحتقر الامتيازات الطبقية ومنيعون ضد الانحياز للون وهلم جرا. لا يوجد شك كبير بأن عقيدة

"اليسار" اليوم أفضل من عقيدة المحافظين المتكبرين الأتقياء التي سادت قبل عشرين سنة حين كانت الكراريتريون (وبمستويات أدنى) ميزان لنذن ميركيوري، المجلتين الأدبيتين المسيطرتين. العقيدة التي هدفت ضمنياً إلى شكل مجتمعي قابل للحياة يريده عدد كبير من الناس حقيقة، لكن أيضاً زيفها الخاص بها الذي لم يكن الاعتراف به ممكناً، جعل من المستحيل مناقشة قضايا محددة بشكل جدي.

وضعَ الأيديولوجيا اليسارية العلمية والطوباوية أشخاص لم يكن لديهم الأمل بنيل السلطة، لذلك كانت أيديولوجيا متطرفة تحتقر الملوك والحكومات والقوانين والسجون وقوات الأمن والجيوش والرايات والكشافة والدين والأخلاق التقليدية، وكل نظام الأشياء القائم في الحقيقة.

لقد ورث اليسار من الليبرالية معتقدات مشكوك بها، من مثل أن الحقيقة ستسود وأن الاضطهاد سيهزم نفسه أو أن الإنسان خيِر بطبعه لكن البيئة تفسده. واستمرت هذه الأيديولوجيا المثالية في داخل كل واحد منا، لكننا راكمنا في أذهاننا سلسلة كاملة من المتناقضات غير المعترف بها نتيجة ارتطامات متتالية مع الواقع.

كانت الصدمة الكبيرة الأولى هي الثورة الروسية. لأسباب معقدة اندفع كل اليسار الإنكليزي تقريباً للقبول بالنظام الروسي كنظام "اشتراكي"، في الوقت الذي أقر فيه صامتاً أن روحه وممارسته غريبة تماماً عن أي شيء تعنيه "الاشتراكية" في هذه البلاد. من هنا نشأ نوع من الانفصام في طريقة التفكير، كلمات مثل ديمقراطية تحمل فيه معنيين متناقضين، وأشياء مثل معسكرات الاعتقال والترحيل الجماعي القسري، يمكن أن تكون صحيحة أو خاطئة بنفس الوقت. أما الصدمة الثانية للأيديولوجيا اليسارية، فكانت ظهور الفاشية التي هزت سلامية اليسار وأمميته. إن تجربة الاحتلال الألماني، علمت الشعوب الأوروبية أن الشعوب الكولونيالية عرفت مسبقاً أن العداء الطبقي ليس كلي الأهمية، وهناك شيء يسمى المصلحة القومية. وبعد هتلر بات من الصعب الحفاظ بشكل جدي على "أن العدو في بلادنا" وأن الاستقلال القومي لا قيمة له.

خيبت الحكومات اليسارية على اختلاف أنواعها تقريباً آمال مناصريها، فحتى بعدما يُنجز الازدهار الذي وعدت به، تظل هناك حاجة لفترة انتقالية مزعجة لم يُحكَ عنها سوى القليل.

نحن نرى في هذا الوقت أن حكومتنا في العسر الاقتصادي اليائس تقاتل ضد دعايتها السابقة. إن الأزمة التي نحن فيها الآن ليست كارثة مفاجئة وغير متوقعة كالزلزال مثلاً ولم تسببها الحرب وإنما عجلت بحدوثها. كان يمكن التنبؤ منذ عقود بحدوث شيء من هذا النوع. منذ القرن التاسع عشر دخلنا القومي، الذي اعتمد جزئياً على الربح من الاستثمارات الأجنبية وعلى الأسواق المضمونة والمواد الخام الرخيصة في البلدان المستعمرة، كان في خطر محدق شديد. كان من المؤكد أن خطأ ما سيحدث عاجلاً أو آجلاً، وسنجبر على إقامة التوازن بين صادراتنا ووارداتنا، وعند حدوث ذلك سوف يهبط مستوى الحياة البريطانية بما فيها مستوى عيش الطبقة العاملة مؤقتاً على الأقل، ومع ذلك لم توضح أحزاب اليسار هذه الحقائق أبداً حتى حين كانت معادية للإمبريالية بصوت صاخب، وإنما كانت في المناسبات تعترف بأن الشغيلة البريطانيين استفادوا إلى حد ما من نهب آسيا وأفريقيا، ولكنها كانت تظهر الأمر دائماً بأننا يمكننا التخلي عن النهب، وسنجد وسيلة للبقاء مزدهرين.

مبدئياً، وفي الحقيقة، جرى إقناع الشغيلة بالاشتراكية، بإخبارهم أنهم كانوا مستغلين (بالفتح) بينما كانت الحقيقة الوحشية وبالشروط العالمية أنهم كانوا هم المستغِلين (بالكسر). لقد وصلنا الآن إلى النقطة التي لم يعد فيها الحفاظ على مستوى معيشة الطبقة العاملة ممكناً، عداك عن رفعه.

إن القبول بمعتقد تقليدي، يورث متناقضات مستعصية دائماً. خذ مثلاً حقيقة أن كل الأشخاص الحساسين يشمئزون من الصناعوية ومنتجاتها رغم أنهم يدركون أن قهر الفقر وتحرير الطبقة العاملة يشترطان الإكثار من التصنيع وليس الإقلال منه. أو خذ حقيقة وجود وظائف محددة ضرورية بلا ريب لكنها لا تُنجز إلا تحت نوع من القسر، أو حقيقة أنه يستحيل أن تكون لك سياسة خارجية إيجابية، دون أن تكون لديك قوات مسلحة قوية، ويمكن مضاعفة الأمثلة. في كل حالة كهذه، هناك نتيجة واضحة تماماً، لكن لا يمكن استخلاصها إلا إذا كان المرء غير مخلص وخائن بشكل سري للأيديولوجيا الرسمية. إن الاستجابة الطبيعية أن تدفع السؤال الذي لم يُجب عليه إلى زاوية العقل، وتستمر في تكرار الشعارات المتناقضة. يجب على المرء ألا يتعمق في البحث في مراجعات الكتب النقدية والمجلات، ليكتشف آثار هذا النوع من التفكير.

أنا لا أوحي طبعاً إلى أن التضليل العقلي يتميز به الاشتراكيون واليساريون فقط عموماً أو أنه الشائع بينهم. إن مجرد القبول بأي مبدأ سياسي يبدو متنافراً مع الاستقامة الأدبية. هذا يطبق بالتساوي على حركات مثل السلامية (رفض حمل السلاح) والشخصانية اللتين تزعمان أنهما خارج أي صراع سياسي عادي. في الحقيقة إن مجرد صوت الكلمات التي تنتهي في اللاحقة (ية) تجلب معها رائحة البروباغندا (الدعاية). إن الولاءات للجماعة ضرورية، لكنها سامة للأدب، طالما ظل الأدب نتاجاً فردياً، وحالما يُسمح لها بأي تأثير على الكتابة الإبداعية، حتى السلبي منه، فلن تكون النتيجة التزييف فقط، وإنما التجفيف الفعلي للقدرات الخلاقة غالباً.

حسناً، ماذا إذاً؟ هل علينا أن نستنتج أن من واجب كل كاتب أن "يبتعد عن السياسة؟" بالتأكيد لا! وبأي حال، كما قلت مسبقاً، ليس هناك شخص عاقل يستطيع الابتعاد بصدق عن السياسة في عصر كالعصر الحالي. أنا أقترح التالي: يجب أن نرسم خطاً أوضح مما نفعله الآن بين ولاءاتنا السياسية وولاءاتنا الأدبية، ويجب أن نعترف أن الاستعداد لفعل أشياء محددة مقززة، لكنها ضرورية، لا يحمل معه أي التزام بتصديق وقبول المعتقدات المرافقة له. حين ينشغل كاتب في السياسة، عليه أن يقوم بذلك كمواطن وكإنسان وليس ككاتب. أنا لا أعتقد أنه يمتلك الحق، لمجرد أحاسيسه المرهفة، بأن ينكمش ويتجنب العمل السياسي العادي القذر. تماماً كغيره يجب أن يعد نفسه ويتجهز ليلقي محاضرات في قاعات باردة ويعلّم الأرصفة بالطباشير ويجذب الناخبين ويوزع الوريقات والكراريس ويقاتل في الحروب الأهلية إن كان ذلك ضرورياً. يجب أن يبين أنه لا يكتب أبداً عن حزبه مهما فعل في خدمته وأياً كان، وأن يوضح أن كتاباته شيء آخر، وعليه أن يكون قادراً على العمل بشكل متعاون ومفيد إن اختار نبذ الأيديولوجيا الرسمية تماماً، وألا يتراجع عن متابعة أفكار قد تؤدي إلى هرطقة، وألا يهتم كثيراً إن فاحت رائحة هرطقته وانشقاقه كما يمكن أن يحدث. ربما يكون عدم اتهام الكاتب بميول رجعية، علامة سيئة اليوم، مثلما كان عدم اتهامه بالتعاطف مع الشيوعية قبل عشرين سنة.

لكن هل كل هذا يعني أن على الكاتب ألا يرفض ما يمليه عليه رؤساؤه السياسيون فقط، وإنما أن يمتنع عن الكتابة في السياسة أيضاً؟ مرة أخرى لا بالتأكيد. ليس هناك أي سبب بأن لا يكتب بأكثر الأساليب السياسية فجاجة، إذا رغب في ذلك. يجب عليه أن يقوم بذلك فقط كفرد وكغريب لامنتمٍ، وفي أقصى الحدود كمحارب عصابات غير مرغوب فيه إلى جانب

جيش نظامي. إن هذا الموقف منسجم تماماً مع المنفعة السياسية. من المنطقي، مثلاً، أن يكون مستعداً لخوض حرب يعتقد بوجوب الفوز بها، وفي الوقت نفسه يرفض كتابة دعاية حربية لها. إن كان الكاتب صادقاً ومخلصاً، قد تناقض كتاباته ونشاطاته السياسية بعضها البعض أحياناً، وهناك مناسبات كثيرة يكون فيها ذلك غير مرغوب بشكل واضح: لكن العلاج عندها ليس بتزييف بواعث المرء ودوافعه، وإنما بالبقاء ساكتاً.

الرأي الذي يرى أن على الكاتب المبدع في زمن الصراع، أن يفصل حياته في حجرتين منفصلتين، يبدو انهزامياً وتافهاً: لكن عملياً أنا لا أرى شيئاً آخر يمكنه فعله. أن تحبس نفسك في برج عاجي، أمر مستحيل وغير مرغوب. أن يستسلم ذاتياً ليس لآلة حزب فقط بل حتى لجماعة أيديولوجية، هو أن يدمر نفسه ككاتب. نحن نعرف أن هذا المأزق مؤلم، لأننا نرى الحاجة إلى الانشغال بالسياسة، ونرى في الوقت نفسه إلى أي مدى هي مهنة قذرة ومهينة، وأغلبنا مازال لديه اعتقاد راسخ بأن كل خيار حتى السياسي منه هو خيار بين الخير والشر، وأن كل ما هو ضروري يكون صحيحاً أيضاً. أعتقد أننا يجب أن نتخلص من هذا الاعتقاد الذي ينتمي إلى الحضانة. في السياسة لا يستطيع المرء أبداً أن يفعل أكثر من الحكم أي الشرين أقل، وفي بعض الأوضاع لا نستطيع سوى الهروب منها والتصرف مثل شيطان أو معتوه. الحرب مثلاً قد تكون ضرورية، لكنها ليست عملاً صحيحاً أو سليماً. حتى الانتخابات العامة ليست مشهداً مسراً أو مهذباً تماماً. إن وجب عليك المشاركة في مثل هذه الأشياء - وأعتقد أنه يجب عليك ذلك، إلا إذا كنت محصناً بالهرم أو الغباء أو الرياء - حينها عليك أن تحفظ جزءاً من نفسك من الانتهاك. لا تظهر المشكلة بالنسبة إلى أغلب الناس بنفس الشكل، لأن حياتهم انفصلت مسبقاً وهم أحياء حقاً فقط في ساعات فراغهم، وليس هناك أي رابط بين عملهم ونشاطاتهم السياسية، ولم يُطلب منهم عادة باسم الولاء السياسي أن يحطوا من قدرهم كعمال، أما الفنان وخصوصا الكاتب، فيُسأل عن ذلك بالضبط - في الحقيقة هو الشيء الوحيد الذي يطلبه منه السياسيون دائماً. إن رفض هذا لا يعني الحكم عليه باللاانفعالية. يستطيع أحد نصفيه، الذي هو كله بمعنى ما، العمل بتصميم وعنف إن تطلب الأمر كأي شخص آخر. لكن كتاباته بقدر ما لها من قيمة، تظل دائماً نتاج الذات العاقلة التي تقف جانباً، تسجل الأشياء التي تم فعلها وتعترف بحتميتها، لكنها ترفض أن تنخدع بطبيعتها الحقيقية.

لماذا أكتب؟

منذ نعومة أظفاري، وربما منذ الخامسة أو السادسة، عرفت أنني يجب أن أكون كاتباً حين أكبر. وبين السابعة عشرة والرابعة والعشرين، حاولت التخلي عن هذه الفكرة، لكنني قمت بذلك وأنا أعي أنني انتهكت طبيعتي الحقيقية، وأنني يجب أن أستقر عاجلاً أو آجلاً وأؤلف الكتب.

كنت الولد الأوسط من ثلاثة أطفال، لكن كانت هناك فجوة من خمس سنين بيني وبينهما، ونادراً ما رأيت والدي قبل أن أصبح في الثامنة، ويعود ذلك إلى أسباب أخرى، فقد كانت شخصاً انعزالياً، وقد طوّرت طريقة كريهة جعلتني غير محبوب في أيام الدراسة. كانت لدي عادة الأطفال الانعزاليين في تأليف القصص والتحدث مع أشخاص وهميين، وأعتقد أنه منذ البداية كانت آمالي الأدبية ممزوجة بشعوري بالانعزال والاستخفاف، وعرفت أن لدي براعة مع الكلمات، وقوة لمواجهة الحقائق البغيضة. وشعرت أن هذا خلق لي نوعاً من عالم خاص ألجأ إليه تعويضاً عن فشلي في الحياة اليومية، لكن كل ما كتبته خلال طفولتي وصباي لم يتجاوز نصف دزينة من الأوراق. كتبت قصيدتي الأولى في عمر الرابعة أو الخامسة، وأذلتها أمي إلى مستوى الإملاء. لا أتذكر أي شيء سوى أنها كانت عن نمر، وأتصور أنها انتحال لقصيدة وليام بليك (نمر، نمر). في الحادية عشرة، وحين اندلعت حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ كتبت قصيدة وطنية نشرتها لي صحيفة محلية، ثم قصيدة أخرى بعد سنتين عند موت اللورد كيتشنر. وبعد أن كبرت قليلاً كتبت بين الحين والآخر قصائد لم أكملها (قصائد الطبيعة) بالأسلوب الأورويلي، كما حاولت أيضاً كتابة القصة القصيرة، وفشلت فشلاً ذريعاً في هذا المجال. هذا كل ما كتبته خلال تلك السنوات.

لكن خلال هذا الوقت، انهمكت في نشاطات أدبية، وكنت أنتج بسرعة ودون متعة كبيرة مواد تطلب مني. عدا العمل المدرسي، كتبت قصائد شبه هزلية بسرعة مدهشة – في الرابعة عشرة كتبت مسرحية كاملة مقفاة تقليداً لأريستوفانيس، في غضون أسبوع،

وساعدت في تحرير مجلة المدرسة. لكن جنباً إلى جنب مع كل هذا، كنت أتدرب على نوع مختلف: كنت عاكفاً على كتابة قصة متواصلة عن نفسي، نوع من المفكرة موجودة في ذهني فقط، وأعتقد أنها عادة لدى الأطفال والمراهقين. كطفل صغير كنت أتخيل أنني روبين هود وأتصور نفسي بطل مغامرات تحبس الأنفاس، لكن فجأة أصبحت قصتي أنانية بطريقة فجة، وأصبحت مجرد وصف لما كنت أفعله وأراه. استمرت هذه العادة حتى الخامسة والعشرين. رغم أنني كنت أبحث عن الكلمات المناسبة، لكنني كنت أنتج هذا الجهد الوصفي رغماً عن إرادتي تحت نوع من الإجبار الخارجي. وأعتقد أن القصة عكست أساليب كتاب متنوعين أُعجبت بهم في فترات مختلفة من عمري. ولكن بقدر ما أتذكر، ظلت تحمل نفس النوعية الوصفية التفصيلية. حين كنت في السادسة عشرة، اكتشفت متعة الكلمات بحد ذاتها أي الأصوات وترابط الكلمات، ورغبت بكتابة روايات طبيعية ضخمة (المذهب الطبيعي) بنهايات غير سعيدة، تغص بوصف تفصيلي وتشبيهات لافتة، وتحفل بالمقاطع البنفسجية التي تستخدم الكلمات فيها لمجرد أصواتها، وفي الواقع تصور روايتي المكتملة الأولى، أيام بورمية، التي كتبتها وأنا في الثلاثين، هذا النوع إلى حد كبير.

قدمت كل هذه المعلومات عن خلفيتي، لأنني أعتقد أنه لا يمكن تقييم دوافع كاتب ما، دون معرفة شيء عن خلفيته المبكرة، وموضوعه الأساسي يتحدد بالزمن الذي يعيش فيه - على الأقل هذا صحيح في أوقات مضطربة وثورية كأزمتنا - لكن قبل أن يبدأ في الكتابة، يفترض به أن يكتسب موقفاً عاطفياً لن ينجو منه نهائياً أبداً. إن وظيفته بلا شك أن يضبط مزاجه ويتفادى الانحباس في مزاج منحرف في مرحلة غير ناضجة، لكنه إن نجا من كل تأثيراته المبكرة كلها، سيقتل دافعه للكتابة. بالإضافة إلى كسب الرزق، أعتقد بوجود أربعة بواعث للكتابة، تتنوع نسبتها من كاتب إلى آخر حسب الجو الذي يعيشه.

١ - الأنانية المحضة: الرغبة في الظهور كشخص ذكي، وأن تكون موضوع الأحاديث، وأن تُذكر بعد الموت..إلخ، وأن تتباهى وتنتقم من الراشدين الذين وبخوك وأنت طفل، ومن الخداع أن نتظاهر بأن هذا ليس حافزاً قوياً. ويشترك الكتاب في هذه الصفة مع العلماء

والفنانين والسياسيين والمحامين والجنود ورجال الأعمال الناجحين - باختصار مع كل قشرة الصفوة الإنسانية. إن القسم الأعظم من البشر، ليسوا أنانيين بصورة حادة، وبعد سن الثلاثين يتخلون عن شعورهم كأفراد، ويعيشون من أجل الآخرين أو يهزمهم الكدح، لكن هناك أقلية من الأشخاص الموهوبين العنيدين الذين يصممون أن يعيشوا حياتهم حتى النهاية، والكتاب ينتمون إلى هذه الفئة. إن الكتاب الجادين على العموم أنانيون ومغرورون أكثر من الصحفيين، لكن اهتمامهم بالمال أقل.

٢ - الحماس الجمالي. إدراك جمال العالم الخارجي أو من جانب آخر في الكلمات وترتيبها الصحيح. المتعة في أثر صوت على صوت آخر في متانة النثر الجيد أو الإيقاع في أقصوصة جيدة. الرغبة في المشاركة بتجربة يشعر المرء بقيمتها النفيسة وعدم تفويتها. إن الدافع الجمالي ضعيف جداً لدى الكثير من الكتاب، لكن حتى كتاب الكراريس والكتب المدرسية لديهم كلمات وعبارات محببة تجذبهم لأسباب غير نفعية، أو ربما يحسون بحماسة تجاه الطباعة وعرض الهوامش..إلخ. أي كتاب فوق مستوى كتيب مرشد القطارات، لا يخلو من اعتبارات جمالية.

٣ - الدافع التاريخي. الرغبة برؤية الأشياء كما هي، واكتشاف الوقائع الحقيقية، وتخزينها كي تستخدمها لأجيال القادمة.

٤ - الغرض السياسي - استخدام كلمة "سياسة" بأوسع معانيها. الرغبة في دفع العالم إلى جهة محددة، وتبديل أفكار الآخرين عن نوع المجتمع الذي يناضلون من أجل تحقيقه. أؤكد ثانية بأنه ليس هناك كتاب يخلو من الانحياز السياسي، والرأي الذي يقول إن الفن يجب ألا تكون له علاقة بالسياسة، هو موقف سياسي بحد ذاته.

يمكن رؤية تصارع هذه الدوافع ضد بعضها البعض وكيف تتموج من شخص لآخر ومن زمن لزمن. بالطبيعة - أقصد طبيعتك التي نلتها حين أصبحت راشداً لأول مرة - أنا شخص كانت دوافعه الثلاثة الأولى أهم من الدافع الرابع. لو كنت في زمن مسالم، لربما كتبت زخرفات ومنمقات أو مجرد كتب وصفية، وبقيت غير مدرك تقريباً لولاءاتي السياسية، وأُجبرت أن أكون كاتب كراريس. في الأول أمضيت خمس سنوات في مهنة غير لائقة (الشرطة الإمبريالية الهندية في بورما) ثم بعد ذلك قاسيت من الفقر والإحساس بالفشل،

وهذا زاد من كرهي الطبيعي للسلطة، وجعلني أدرك الطبقات العاملة بشكل كامل لأول مرة، وأعطتني وظيفتي في بورما فهماً لطبيعة الإمبريالية. ثم جاء هتلر والحرب الأهلية الإسبانية إلخ. في نهاية عام ١٩٣٥ لم أنجح في التوصل إلى قرار ثابت، وأتذكر قصيدة صغيرة كتبتها في ذلك التاريخ تعبر عن حيرتي:

ربما كنت قساً سعيد قبل مائتي عام، أبشر بالقدر الأبدي، وأراقب أشجار جوزي وهي تكبر، لكن يا للأسف، لقد ولدت في زمن شرير، وفقدت ذلك الملاذ المسر، لأن الشعر نما على شفتي العليا والقساوسة حليقون كلهم........ حلمت أني اسكن في قصور من المرمر، واستيقظت لأجد الحقيقة؛ لم أولد لعصر كهذا.

رجحت الحرب الإسبانية والأحداث اللاحقة في عامي ١٩٣٦ - ٧ الكفة، وعرفت بعدها أين أقف. كل سطر من الأعمال الجدية التي كتبتها منذ عام ١٩٣٦ كُتب بصورة مباشرة أو بشكل غير مباشر ضد الاستبداد (التوتاليتارية) ومؤيداً للاشتراكية الديمقراطية كما أفهمها، ويبدو لي من العبث في زمن كزمننا الاعتقاد بأن المرء يستطيع تجنب كتابة هكذا مواضيع. كل شخص يكتب عنها بقناع أو بآخر. إنها مسألة أي طرف تأخذه وأية مقاربة تسلكها، وكلما زاد وعي المرء بانحيازه السياسي، زادت فرصته أن يعمل كسياسي من دون أن يفرط باستقامته الجمالية والفكرية.

إن أكثر ما ابتغيته وأردته خلال تلك السنوات العشر الماضية، أن اجعل من الكتابة السياسية فناً بحد ذاته. كانت نقطة البداية والانطلاق عندي دائماً هي شعوري بالتحزب وإحساسي بالظلم. حين أجلس لأكتب، لا أقول لنفسي "سوف أنتج عملاً فنياً". أنا أكتب لأن هناك كذبة أريد كشفها وحقيقة أريد لفت الأنظار إليها، وأن هدفي الأولي أن أحظى بأن يسمعني الآخرون. لكني لا أستطيع أن أقوم بعمل كتابة كتاب أو حتى مقال لمجلة، إن لم يكن تجربة جمالية أيضاً. أنا لا أقدر ولا أريد أن أتخلى تماماً عن نظرتي إلى العالم التي اكتسبتها في طفولتي. طالما أنا حي سأستمر في الإحساس بقوة في الأسلوب النثري، وبحب سطح الأرض، والاستمتاع في الأشياء الصلبة وفتات المعلومات المهملة. من غير المجدي إخماد ذلك الجانب من نفسي. المهم أن أسوي بين

الأشياء الراسخة التي أحبها والتي لا أحبها، وبين النشاطات العامة غير الفردية الجوهرية التي يفرضها علينا كلنا هذا العصر.

وهذا ليس سهلاً. بل إنه يثير مشاكل في التركيب واللغة ويثير مشكلة الصدق بطريقة جديدة. دعوني أقدم مثالاً واحداً عن أبسط نوع من الصعوبة التي تُثار. كتابي عن الحرب الأهلية الإسبانية، **الولاء لكاتالونيا**، هو كتاب سياسي صريح طبعاً، لكن في جزئه الأساسي كُتب في تجرد واحترام للشكل. حاولت بكل جهدي أن أروي الحقيقة كلها دون انتهاك لغرائزي الأدبية، لكن من بين الأشياء الأخرى هناك فصل طويل يغص باقتباسات من الصحف وأشباهها تدافع عن التروتسكيين الذين اتهموا بالتآمر مع فرانكو. من الواضح أن مثل هذا الفصل الذي سيفقد أهميته بعد سنة أو اثنتين عند القارئ العادي، سوف يفقر الكتاب، وقد حاضر بي أحد النقاد الذين احترمهم قائلاً "لماذا وضعتَ كل ذلك الهراء؟ لقد حولت ما كان يجب أن يكون كتاباً جيداً إلى كتابة صحفية؟". ما قاله صحيح، لكنني لم أستطع القيام بغير ذلك. صدف أنني عرفت، ما سُمح للقلة القليلة في إنكلترا أن تعرفه، بأن هناك رجالاً أبرياء اتهموا زوراً وبهتاناً. لو لم أغضب من ذلك لما كتبت الكتاب أبداً.

لكن المشكلة تظهر بشكل أو آخر مرة أخرى. مشكلة اللغة أكثر حدة، ويستغرق نقاشها الكثير من الوقت. سأقول إنني في السنوات الخيرة فقط، حاولت أن أكتب بأسلوب أقل تصويرية وأكثر دقة. على أي حال وجدت أنه في الوقت الذي تتقن فيه أي أسلوب في الكتابة، فإنك تكبر عليه دائماً وتتخلص منه. مزرعة الحيوان كانت الكتاب الأول الذي حاولت بوعي تام بما أفعل، أن أدمج فيها الغرض السياسي والغرض الفني في كل واحد. لم أكتب رواية منذ سبع سنوات، وأرجو أن أكتب، واحدة أخرى قريباً، وهي ملزمة بالفشل، فكل كتاب هو عمل فاشل. لكنني أعرف بنوع من الوضوح أي نوع من الكتب أريد أن أكتب.

بالنظر ثانية إلى الصفحة الأخيرة أو الصفحتين، أرى أنني جعلت الأمر يبدو كما لو أن دوافعي للكتابة كانت مفعمة بالروح الشعبية تماماً. أنا لا أريد أن أترك ذلك كانطباع نهائي.

إن كل الكتاب تافهين وأنانيين وكسولين، ويكمن الغموض في صلب دوافعهم. إن كتابة كتاب صراع منهك ورهيب، مثل نوبة طويلة من مرض موجع. لا يباشر المرء بهكذا عمل إن لم يكن مدفوعاً بشيطان لا يستطيع مقاومته ولا فهمه. وكل ما يعرفه أن ذلك الشيطان هو نفس الغريزة التي تجعل الطفل يصرخ للفت الانتباه. لكن من الصحيح أيضاً أن المرء لا يستطيع كتابة شيء مقروء، إلا إذا صارع باستمرار كي يطمس شخصيته الخاصة. إن النثر الجيد مثل زجاج النافذة. لا أستطيع القول عن يقين أي حافز منها هو الأقوى، لكني أعرف أيها يستحق أن يتبع. عند النظر إلى أعمالي ثانية، أرى دائماً وبشكل ثابت أنني كتبت كتباً ميتة لا حياة فيها، وانخدعت بمقاطع أرجوانية وجملاً لا معنى لها وصفات مزخرفة منمقة ودجل عموماً في تلك التي افتقرت فيها إلى هدف سياسي.

الأدب والديكتاتورية

قلت في بداية حديثي الأول إن هذا العصر ليس نقدياً. إنه عصر تحازب وليس انفصال، عصر من الصعب خصوصاً أن ترى فيه قيمة أدبية في كتاب تختلف أنت مع استنتاجاته. السياسة - السياسة بمفهومها العام - غزت الأدب إلى درجة لم تحدث عادة، ما جلب إلى سطح وعينا الصراع الدائر دائماً بين الفرد والمجتمع. حين يفكر المرء بصعوبة كتابة نقد صادق غير منحاز في زمن كزمننا، يبدأ يدرك طبيعة التهديد المسلط فوق الأدب في العصر القادم.

نحن نعيش في عصر لم يعد للفرد المستقل وجود فيه - أو ربما ينبغي القول لم يعد لفرد فيه الوهم بأنه مستقل. الآن في كل ما قلناه عن الأدب والأهم وكلِ ما نقوله عن النقد، نحن نسلم غريزياً بالفرد المستقل. لقد بني الأدب الأوروبي الحديث كله - أنا أتكلم عن الأدب في السنوات الأربعمائة الأخيرة منه - على مفهوم الأمانة الفكرية، أو إن أحببت قولها بالطريقة الشكسبيرية 'كن صادقاً مع نفسك'. الشيء الأول الذي نطلبه من الكاتب، هو ألا يكذب وأن يقول ما يفكر ويشعر فيه حقيقة. الشيء الأسوأ الذي نستطيع قوله عن عمل فني إنه غير صادق. وهذا يصح في النقد أكثر منه في الأدب الإبداعي، الذي فيه قدر محدد من التكلف والتأنق، وحتى مقدار محدد من الخداع غير مهم، طالما كان الكاتب صادقاً بشكل أساسي. الأدب الحديث شيء فردي في الجوهر. إنه إما التعبير الصادق عما يفكر ويشعر فيه الإنسان، أو أنه لا شيء.

كما قلت، نحن نأخذ هذه الفكرة كشيء مسلم به، ومع ذلك حالما يعبر عنها المرء بالكلمات، يدرك حجم التهديد الكبير المحيط بالأدب. لأن هذا العصر عصر الدولة الديكتاتورية التي لا تسمح وربما لا نستطيع أن تسمح للفرد بأية حرية مهما كانت. حين يذكر المرء الديكتاتورية، يفكر فوراً بألمانيا وروسيا وإيطاليا، لكن في اعتقادي يجب علينا أن نواجه الخطر بأن هذه الظاهرة ستكون عالمية. من الواضح أن فترة الرأسمالية الحرة تشارف على نهايتها، وأن البلدان الواحدة تلو الأخرى تتبنى اقتصاداً ممركزاً يمكن تسميته بالاشتراكية أو

رأسمالية الدولة حسب ما يفضل، وبذلك الحرية الاقتصادية للفرد وإلى درجة كبيرة حريته بأن يفعل ما يشاء وأن يختار عمله الخاص به وأن يتحرك أماماً وخلفاً عبر سطح الأرض لم يعد لها وجود. الآن لم يتكهن أحد بمضامين هذا حتى عهد قريب، ولم يُدرك أن اختفاء الحرية الاقتصادية سيؤثر على الحرية الفكرية. لقد نُظر إلى الاشتراكية عادة كنوع من الليبرالية المسؤولة أخلاقياً، وأن الدولة ستتولى أمر حياتك الاقتصادية وتعتقك من الخوف من الفقر والبطالة وهلم جرا، لكنها لن تضطر إلى التدخل في حياتك الفكرية الشخصية، ويمكن للفن أن يزدهر كما فعل في العصر الرأسمالي الليبرالي تقريباً، لأن الفنان لن يظل تحت الإكراه الاقتصادي.

الآن من الدليل الموجود، يجب على المرء أن يعترف أن هذه الأفكار كانت مغشوشة، فقد ألغت الديكتاتورية حرية الفكر إلى درجة غير مسبوقة في أي عصر. ومن الهام أن ندرك أن سيطرتها على الفكر ليست سلبية فقط، وإنما إيجابية، فهي لا تمنعك من التعبير - التفكير حتى - عن أفكار محددة، وإنما تملي عليك ما ستفكر فيه، فهي تخلق لك أيديولوجيا وتحاول التحكم بحياتك العاطفية، بالإضافة إلى تنصيب مجموعة قواعد للسلوك، وتعزلك بأقصى ما يمكن عن العالم الخارجي، وتحبسك في كون اصطناعي ليس لديك فيه أي معيار للمقارنة. تحاول الدولة الاستبدادية بكل الأشكال أن تتحكم بأفكار وعواطف رعاياها، تماماً كما تتحكم في أفعالهم على الأقل.

السؤال المهم لنا هو: هل يمكن للأدب أن ينجو ويبقى في هذا الجو؟ أعتقد على المرء أن يجيب باختصار بأنه لن يستطيع. إن أصبحت الديكتاتورية عالمية ودائمة، فإن الأدب كما عرفناه يجب أن ينتهي، ولن ينفع - كما يبدو معقولاً في الأول - القول إن الذي سينتهي هو أدب ما بعد النهضة في أوروبا فقط.

هناك اختلافات أساسية كثيرة بين الديكتاتورية وكل أرثوذوكسيات الماضي في أوروبا أو في الشرق. الأهم أن هذه الأرثوذوكسيات السابقة لم تتبدل أو لم تتبدل بسرعة على الأقل. في أوروبا العصور الوسطى أملت الكنيسة عليك كل ما يجب أن تؤمن به لكنها على الأقل سمحت لك بأن تحتفظ بنفس المعتقدات من الولادة إلى الموت. لم تأمرك بأن تؤمن بشيء يوم

الاثنين وبشيء آخر غيره يوم الثلاثاء، وهذا صحيح تقريباً على كل الأرثوذوكسيات المسيحية والهندوسية والبوذية أو الإسلامية اليوم. بمعنى أن أفكار المرء محددة، لكنه يمضي كل حياته ضمن نفس الإطار الفكري، ولا يجري التلاعب بعواطفه.

الآن مع الديكتاتورية، فالعكس تماماً هو الصحيح. إن فرادة الدولة الاستبدادية تتجلى بأنها لا تدع الفكر يثبت رغم سيطرتها عليه، فهي تنصب تعاليم لا تقبل النقاش وتبدلها من يوم إلى آخر. هي تحتاج إلى التعاليم لأنها تحتاج إلى طاعة مطلقة من رعاياها، لكنها لا تستطيع تحاشي التغيرات التي تمليها حاجات سياسة السلطة. تعلن نفسها معصومة عن الخطأ، وفي الوقت نفسه تهاجم مفهوم الحقيقة الموضوعية عينه. لنأخذ مثالاً فجاً صريحاً، كل ألماني إلى شهر أيلول سبتمبر ١٩٣٩ كان ينظر إلى البلشفية الروسية برعب ومقت، ومنذ أيلول سبتمبر ١٩٣٩ أُجبر على أن ينظر إليها بإعجاب وحب. إن تحاربت روسيا وألمانيا كما ستفعلان خلال السنين القليلة التالية، سيحدث تغيير عنيف مساوي أيضاً. الحياة العاطفية للألماني، الأشياء التي يحب والتي يكره، متوقع منها عند الضرورة، أن تعكس نفسها في عشية وضحاها. لا حاجة للإشارة إلى أثر هذا النوع من الشيء على الأدب. إن الكتابة قضية شعور إلى حد كبير، ولا يمكن أن تُضبط من الخارج دائماً. من السهل التمتمة بالصلاة للأرثوذوكسية القائمة، لكن كتابة أي شيء له معنى لا يمكن أن تتم إلا حين يشعر المرء بصدق ما يقوله؛ بدون ذلك ينعدم الباعث الإبداعي. كل الدليل الذي قدمناه يبين أن التغيرات العاطفية المفاجئة التي تطالب الديكتاتورية اتباعها بها مستحيلة، وهذا هو السبب الرئيسي الذي دعاني إلى القول إنه إن انتصرت الديكتاتورية في كل العالم سينتهي الأدب كما عرفناه. في الواقع للديكتاتورية آثار أبعد من هذا بكثير كما يبدو، ففي إيطاليا عُطل الأدب، وفي ألمانيا يبدو أنه توقف ومات تقريباً، وبات أهم نشاط مميز للنازيين إحراق الكتب، وحتى في روسيا لم تحدث النهضة الأدبية التي توقعناها، وأظهر أشهر الكتاب الروس الواعدين نزعة ملحوظة للانتحار أو الاختفاء في السجن.

قلت في البداية إن الرأسمالية الليبرالية انتهت بشكل واضح، ولذلك قد يبدو أنني أوحيت بأن حرية الفكر هلكت بشكل محتوم أيضاً، لكن لا أعتقد أن هذا هو ما سيكون، وسأقول

ببساطة في ختام ذلك إنني أصدق الأمل في أن بقاء الأدب يكمن في تلك البلدان التي أرست فيها الليبرالية جذورها العميقة في البلدان غير العسكرية أوروبا الغربية والأمريكيتين والهند والصين. أعتقد - قد يكون أكثر من أمل زائف - وبالرغم من قدوم الاقتصاد الجماعي، إن تلك البلدان ستعرف كيف تطور شكلاً ليس ديكتاتورياً من الاشتراكية، تستطيع حرية الفكر فيه البقاء حية والنجاة من اختفاء الفردانية الاقتصادية. ذلك هو الأمل الوحيد في كل الأحوال الذي يستطيع كل من يهتم بالأدب التشبث به. كل من يشعر بقيم الأدب وكل من يرى الدور المركزي الذي يلعبه في تطور التاريخ البشري، يجب أن يرى أيضاً الضرورة القصوى في مقاومة الديكتاتورية، سواء أُفرضت علناً من الخارج أم من الداخل.

نشرت لأول مرة: ليسنر، (بث على محطة البي بي سي لما وراء البحار ١٩ يونيو حزيران ١٩٤١

المقالات المجمعة، الصحافة ورسائل أورويل ١٩٦٨.

معاداة السامية في بريطانيا

يوجد حوالي ٤٠٠٠٠٠ يهودي في بريطانيا، بالإضافة إلى بعض آلاف أو عشرات الآلاف على الأغلب من اللاجئين اليهود الذين دخلوا البلاد منذ عام ١٩٤٣ وبعد ذلك. تركز كل السكان اليهود تقريباً في عدد قليل من البلدات الكبيرة، وعمل أغلبهم في المهن الغذائية والملابس والأثاث، كما يوجد هناك قلة من الشركات الاحتكارية الكبيرة كآي سي أي مثلاً وجريدة أو اثنتان من الصحف الرئيسية، وواحد أو اثنان من المتاجر المتسلسلة على الأقل التي تعود ملكيتها كاملة أو جزئية إلى اليهود، لكن القول بأن حياة التجارة والأعمال خاضعة لسيطرة اليهود هو مجافاة للصواب. بل على العكس، يبدو أن اليهود فشلوا في مواكبة النزعة العصرية نحو اندماجات الشركات الكبرى، وبقوا متعلقين بتلك المهن التي تنفذ على صعيد صغير وبأساليب قديمة الطراز بالضرورة.

بدأت بهذه الحقائق المعروفة مسبقاً لأي شخص حسن الاطلاع، لكي أؤكد على عدم وجود "مشكلة" يهودية في بريطانيا. اليهود ليسوا كثيرين أو متنفذين جداً، وليس لهم أي تأثير ملحوظ إلا فيما يسمى بشكل مفكك بـ"الدوائر الثقافية". لكن من المسلم به عموماً أن عداء السامية في ازدياد، وأنها تفاقمت من خلال الحرب، وأن الإنسانيين والمتنورين ليسوا محصنين عن ذلك، ولم يأخذ هذا العداء الأشكال العنيفة (الشعب الإنكليزي بشكل ثابت تقريباً شعب لطيف ومطيع للقانون) لكنه ذو طبيعة سيئة تماماً، ويمكن له أن يفرز نتائج سياسية في ظروف مواتية. هذه بعض الأمثلة عن ملاحظات معادية للسامية حدثت لي أثناء السنة أو السنتين الماضيتين:

مستخدم في مكتب في أواسط عمره: "أنا أذهب إلى العمل بالحافلة عادة، وذلك تستغرق وقتاً أطول، لكنني لا أزعج نفسي في استخدام قطار الأنفاق من غولدرز غرين في هذه الأيام. هناك الكثير جداً من السلالة المختارة على ذلك الخط".

بائعة تبغ: "كلا، ليس لدي أعواد ثقاب لك. يجب أن أحاول مع السيدة التي بأسفل الشارع. لديها أعواد ثقاب دائماً. واحدة من السلالة المختارة، كما ترى".

مثقف شاب شيوعي أو قريب منه: "لا، أنا لا أحب اليهود. أنا لا أخفي ذلك أبداً. لا أستطيع تحملهم. انتبه أنا لست معادياً للسامية طبعاً".

امرأة من الطبقة الوسطى: "حسناً، لا أحد يستطيع نعتي بأنني معادية للسامية، لكن أظن أن الطريقة التي يتصرف بها هؤلاء اليهود نتنة بكل تأكيد. الطريقة التي يشقون طريقهم فيها إلى رأس الطوابير وهلم جر. هم أنانيون بشكل مقيت. أعتقد أنهم مسؤولون عن الكثير مما يحدث لهم".

موزع حليب: "اليهودي لا يعمل كما يعمل الرجل الإنكليزي. هو ذكي جداً. نحن نعمل بهذه "هنا" (يثني عضلة ذراعه) وهم يعملون بذاك" (ينقر جبينه بإصبعه).

محاسب مجاز، مثقف ومن الجناح اليساري بطريقة غير مباشرة: "هؤلاء الصبيان القذرون كلهم مؤيدون للألمان. سيبدلون تحالفهم غداً إن وصل النازيون هنا. أرى الكثير منهم في عملي. هم معجبون بهتلر في أعماق قلوبهم. هم ينافقون دائماً لكل من يركلهم."

امرأة ذكية، حين عرض لها كتاب لشرائه يعالج معاداة السامية والأعمال الوحشية الألمانية: "لا تعرضه علي أرجوك لا تفعل ذلك. سيجعلني فقط أكره اليهود أكثر من قبل".

يمكنني أن أملأ صفحات بملاحظات مماثلة، لكن هذه تفي بالغرض، وتنبثق منها حقيقتان: الأولى – وهي هامة جداً ويجب أن أعود إليها سريعاً – أن الناس الذين من فوق مستوى ثقافي معين يخجلون من كونهم معادين "للسامية" و"كارهين لليهود". الحقيقة الأخرى: أن السامية شيء غير عقلاني. لقد اتّهم اليهود بجرائم محددة (مثلاً، سلوك سيء في طوابير الطعام) التي يتحدث بها بعض الأشخاص بحماس، لكن من الواضح أن هذه الاتهامات تبرر تحامل متجذر وأن محاولة مجادلتهم بالحقائق والإحصائيات عمل عقيم وقد يكون أسوأ من عقيم أحياناً. كما تبين الملاحظات الأخيرة المقتبسة آنفاً، أن الناس يستطيعون أن يظلوا معادين للسامية أو معادين لليهود على الأقل، رغم إدراكهم التام لتعذر الدفاع عن وجهة نظرهم. إن كرهت شخصاً فأنت تكرهه، وهناك غاية لهذا الكره: لن تتحسن مشاعرك بسرد فضائله.

يحدث كثيراً أن الحرب تشجع على نمو معاداة السامية حتى في عيون الكثير من الناس العاديين، وتعطي بعض التبرير لها. بداية إن اليهود شعب واحد، ويمكن القول بيقين تام

إنهم سيستفيدون من انتصار الحلفاء. وبناء على تلك النظرية التي ترى أن "هذه الحرب حرب يهودية" لها قدر معين من المعقولية والتصديق، وسبب هذا لأن مجهود اليهود الحربي نادراً ما ينال حصته العادلة من التقدير والاعتراف. إن الإمبراطورية البريطانية منظمة هائلة متباينة يربطها معاً الوفاق المتبادل إلى حد كبير، ومن الضروري دائماً تقريباً أن نداهن العناصر الأقل تعويلاً عليها على حساب العناصر الأكثر ولاء. إن نشر وإعلان مآثر الجنود اليهود أو حتى الاعتراف بوجود جيش يهودي كبير في الشرق الأوسط، يثير العداء في جنوب أفريقيا والبلدان العربية وغيرها من الأماكن: من الأسهل تجاهل الموضوع برمته، والسماح لرجل الشارع أن يستمر في الاعتقاد بأن اليهود أذكياء على نحو استثنائي في التملص من الخدمة العسكرية. ثم مرة أخرى أن اليهود يتواجدون بالضبط في تلك المهن الملزمة في إثارة استهجان الجمهور المدني في زمن الحرب. يهتم اليهود كثيراً في بيع الأطعمة والملابس والأثاث والتبغ - بالضبط السلع التي فيها نقص مزمن مع ما ينتج عنها من أثمان فاحشة وبيع في السوق السوداء ومحاباة. ومرة أخرى إن التهمة الشائعة بأن اليهود يتصرفون بطريقة جبانة لافتة أثناء الغارات الجوية، أُعطيت مقداراً معيناً من الحجة بواسطة الغارات الكبيرة في عام ١٩٤٠. كما حدث كان الحي اليهودي في وايتشابل واحداً من أولى المناطق التي قصفت بقوة، مع النتيجة الطبيعية أن أسراب من النازحين اليهود وزعوا أنفسهم في كل أرجاء لندن. لو حكم المرء من خلال هذه الظاهرة في زمن الحرب فقط، لسهل عليه التخيل أن عداء السامية شيء شبه منطقي ومؤسس على مقدمات خاطئة، وبشكل طبيعي يظن المعادي للسامية نفسه كائناً صائب التفكير. كلما لامست هذا الموضوع في مقالة في جريدة، تأتيني ردود كثيرة، وبشكل ثابت بعض الرسائل من أناس متزنين ومعتدلين - دكاترة مثلا - بدون شكوى اقتصادية واضحة. هؤلاء الناس يقولون (كما قال هتلر في كفاحي) إنهم بدأوا بلا تحامل عدائي لليهود، لكنهم دُفعوا إلى موقفهم الحالي بمجرد رصد الحقائق. لكن إحدى علامات معاداة السامية هي المقدرة على تصديق قصص لا يمكن أن تكون حقيقية. يمكن للمرء أن يرى في الحادث الغريب الذي حدث في لندن عام ١٩٤٢ مثالاً جيداً، حين فرت مجموعة من الناس مرعوبين من انفجار قنبلة قربهم إلى داخل مدخل محطة المترو، ما أدى إلى انسحاق أكثر من مائة شخص إلى حد الموت. فتكرر في نفس اليوم

في كل أنحاء لندن أن "اليهود كانوا مسؤولين" وإن ظل الناس يصدقون هذا النوع من الشيء، فمن الواضح أن المرء لن يستفد كثيراً من الجدال معهم. إن المقاربة المفيدة الوحيدة، هي أن تكتشف لماذا هم يستطيعون بلع سخافات عن موضوع خاص واحد، بينما يبقون عقلاء في مواضيع أخرى غيرها.

لكن لنعد الآن إلى تلك النقطة التي ذكرتها سابقاً - هناك إدراك واسع الانتشار لتفشي الشعور المعادي للسامية وعدم الاعتراف بالمشاركة فيه. وسط الناس المتعلمين تعتبر معاداة السامية خطيئة لا تغتفر، وفي تصنيف مختلف عن الأنواع الأخرى من التحامل العنصري، ويتمادى الناس إلى حدود لافتة ليبرهنوا أنهم ليسوا معادين للسامية. لهذا، عُقدت جلسة وساطة لفائدة اليهود البولونيين في كنيس في سينت وود في عام ١٩٤٣ أعربت السلطات المحلية عن تشوقها للمشاركة فيها، وحضر الجلسة عمدة المدينة بثيابه الرسمية وسلاسله، وممثلين عن كل الكنائس ومفرزة من آر إيه إف (القوات الجوية الملكية) ومن الحرس الوطني والممرضات والكشافة الذكور وغيرهم. ظاهرياً كانت تعبيراً مؤثراً عن التضامن مع معاناة اليهود، لكنها جوهرياً محاولة مقصودة للتصرف باحتشام من قبل أشخاص يفترض أن مشاعرهم الشخصية مختلفة جداً في حالات كثيرة. لقد كان ذلك الحي في لندن يهودياً جزئياً وعداء السامية حافل هناك. وأعرف جيداً بعض من الرجال الجالسين حولي في الكنيس الذين تلفظوا من ذلك. في الحقيقة إن قائد فصيلتي من الحرس الوطني الذي كان متحمساً على نحو خاص مسبقاً كي "نقدم عرضاً جيداً" في جلسة المصالحة، كان عضواً سابقاً في عصبة القمصان السود التي أسسها موسلي. بينما يتواجد هذا الانقسام في المشاعر، إلا أن التسامح مع العنف الجماعي ضد اليهود أو الأكثر أهمية التشريع المعادي للسامية، غير ممكنين في إنكلترا. في الحقيقة ليس من المحتمل أن تصبح معاداة السامية محتشمة. لكن هذه فائدة أقل مما تبدو عليه.

لقد كان لواحد من آثار أعمال الاضطهاد في ألمانيا منع عداء السامية من أن يكون موضوعاً لدراسة جادة. في إنكلترا أُجري مسح مختصر وغير دقيق من خلال رصد جماهيري منذ سنة أو أثنتين، وإن كان هناك أية دراسة أخرى للموضوع، فإن نتائجها ظلت في سرية تامة. وفي الوقت نفسه كان هناك قمع متعمد من قبل كل الأشخاص

المهتمين لأي شيء يجرح حساسية المشاعر اليهودية. وبعد عام ١٩٣٤ اختفت الدعابة اليهودية من البطاقات البريدية والدوريات وصالات الموسيقى وبلمسة سحرية بات يعتبر رسم شخصية يهودية غير متعاطفة في رواية أو قصة قصيرة عداء للسامية. أما بخصوص القضية الفلسطينية، فقد كان قبول الناس المتنورين بالحالة اليهودية كحالة مثبتة وتجنب تفحص مزاعم العرب فظاظة - قرار قد يكون صحيحاً من حيث قيمته، لكنه أُقر أساساً لأن اليهود كانوا في ورطة ويجب عدم انتقادهم. بفضل هتلر كانت الصحافة خاضعة لرقابة فاعلة لفائدة اليهود بينما كان عداء السامية يتطور في السر حتى بين الناس الحساسين والأذكياء إلى حد ما. لُوحظ هذا في عام ١٩٤٠ على نحو خاص في زمن اعتقال اللاجئين. من الطبيعي أن يشعر كل شخص مفكر أن من واجبه أن يحتج ضد حبس الأجانب التعساء الجماعي الذين كان أكثرهم في إنكلترا لأنهم خصوم هتلر. لكن سُمعت عواطف مختلفة معبّر عنها بصورة سرية. أقلية من اللاجئين تصرفوا في طريقة تخلو من أي لباقة، وكان للشعور ضدهم بالضرورة تيار خفي معادي للسامية بما أن غالبيتهم من اليهود. شخصية بارزة في حزب العمال - لن أسميه، لكنه واحد من الأشخاص الأكثر احتراماً في إنكلترا - قال لي بعنف شديد: "لم نطلب من هؤلاء الناس أن يأتوا إلى هذه البلاد. إن اختاروا أن يأتوا إلى هنا فليتحملوا العواقب". على الرغم أن هذا الرجل كأمر طبيعي كان يشارك في أي عريضة أو بيان رسمي ضد احتجاز الأغراب. إن هذا الشعور بأن معاداة السامية شيء شرير وشائن وشيء لا يعاني منه الشخص المتمدن، غير مرغوب فيه وغير ملائم لأية مقاربة علمية. وفي الحقيقة سيعرف الكثير من الناس أنهم يخشون من إجراء سبر عميق للموضوع، أي ليس من اكتشاف انتشار عداء السامية وتفشيه فقط، وإنما من تعرضهم أنفسهم للإصابة به أيضاً.

لفهم هذا المنظور، يجب على المرء الالتفات إلى بضعة عقود إلى الوراء، إلى الأيام التي كان فيها هتلر صبّاغاً عاطلاً عن العمل لا يعرفه أحد، ليجد أن العداء للسامية الظاهر بصورة كافية الآن، أقل انتشاراً في إنكلترا، مما كان عليه قبل ثلاثين سنة. صحيح أن معاداة السامية كعقيدة عنصرية دينية مرسومة لم تزدهر في إنكلترا أبداً. لم يكن هناك شعور قوي ضد التزاوج أو ضد أن يأخذ اليهود دوراً بارزاً في الحياة العامة. لكن قبل ثلاثين سنة كان من المقبول تقريباً

كما لو كان قانوناً طبيعياً أن اليهودي شخص للهو والتسلية - رغم تفوقه في الذكاء - وشخصية ناقصة قليلاً. نظرياً لا يعاني اليهودي من أي إعاقات قانونية، لكنه فعلياً مُنع من مزاولة مهن محددة؛ فمثلاً لم يكن يُقبل كضابط في البحرية أو في فوج "أنيق وذكي" في الجيش كما جرت التسمية، والصبي اليهودي في المدارس العامة يقضي وقتاً سيئاً بشكل ثابت تقريباً. يمكنه طبعاً أن يعيش يهوديته إن كان رياضياً ساحراً بشكل استثنائي، لكنها كانت إعاقة أولية مشابهة للفأفأة أو الوحمة. نزع أثرياء اليهود إلى التخفي وراء أسماء أرستقراطية إنكليزية أو اسكتلندية، وبالنسبة إلى الشخص العادي كان من الطبيعي أن يفعلوا هذا، كما يبدو الأمر طبيعياً للمجرم أن يبدل هويته إن أمكن. منذ عشرين سنة تقريباً في رانغون، كنت أصعد إلى سيارة أجرة مع صديق حين اندفع نحونا صبي صغير الحجم رث الثياب ذو ملامح شقراء، وبدأ بسرد قصة معقدة عن وصوله من كولومبو على متن سفينة، ويريد نقوداً ليعود. كان من الصعب "تحديده وتمييزه" من طريقته ومظهره فقلت له:

"أنت تتكلم بلغة إنكليزية جيدة. ما هي جنسيتك؟".

أجاب بتلهف بلهجة تشي تشي (هندية) خاصته: "أنا يهودي يا سيدي!".

وأتذكر أنني التفت إلى رفيقي وقلت بصورة تهكمية نوعاً ما "هو يعترف بها صراحة". كل اليهود الذين عرفتهم كانوا أشخاصاً يخجلون من كونهم يهود أو يفضلون عدم التحدث عن نسبهم، وإن اضطروا إلى ذلك يميلون إلى استخدام كلمة "عبري".

لم يكن موقف الطبقة العاملة أفضل. كان اليهودي الذي تربى وترعرع في وايتشابل يعتقد كأمر بديهي أنه سيُهاجم أو يتعرض لصيحات الاستهجان، إن غامر ودخل إلى الأحياء المسيحية الفقيرة المكتظة والقذرة المجاورة، وكانت "الدعابة اليهودية" في صالات الموسيقى ومجلات الرسوم الهزلية المصورة مزعجة دائماً.[1] كان هناك أيضاً مضايقة أدبية لليهود، وصلت

١ - من الممتع المقارنة بين "الدعابة اليهودية" وتلك الأخرى البديلة في صالات الموسيقى "الدعابة الاسكتلندية" التي تشبهها سطحياً. أحياناً تُروى قصة (مثلاً عن اليهودي والاسكتلندي اللذين دخلا إلى حانة معاً وماتا كلاهما بسبب العطش) وتضع كلا العرقين في مساواة، لكن اليهودي لا يشتهر إلا بالمكر والجشع، بينما يشتهر الاسكتلندي بالقوة الجسدية أيضاً. تر هذا في قصة اليهودي والاسكتلندي اللذين حضرا معاً اجتماعاً مجانياً وبشكل غير متوقع، كان هناك جمع للمال، ولتجنب هذا أُغمي على اليهودي فحمله الاسكتلندي إلى الخارج. هنا ينجز الاسكتلندي عمله البطولي الرياضي في حمل الآخر. (حاشية للمؤلف).

إلى مستوى قاري في البذاءة على يدي بيلوك وتشيسترتون وأتباعهما، كما أتهم الكتاب غير الكاثوليكيين بالجرم نفسه، لكن بشكل أكثر اعتدالاً. كانت هناك نزعة معادية للسامية ملموسة في الأدب الإنكليزي منذ عصر تشوسر وما بعد، وأستطيع تذكر مقاطع دون أن أنهض عن طاولتي هذه لأبحث في كتاب لو كتبت الآن لوسمت بمعاداة السامية في أعمال شكسبير وسمولِت وثاكري وبرنارد شو وإتش جي ويلز وتي إس إيليوت وألدوس هكسلي وغيرهم. بشكل مرتجل إن الكاتبين الوحيدين الذين أستطيع تذكرهما واللذين بذلا جهداً للدفاع عن اليهود قبل عصر هتلر هما ديكنز وتشارلز ريد، ومهما كان قبول المثقف العادي لآراء بيلوك وتشيسترتون قليلاً، إلا أنه لم يستهجن رأيهما بحدة. إن خطب تشيسترتون المقرعة المطنبة ضد اليهود التي أقحمها في قصصه ومقالاته المستندة على ذرائع واهية، لم تورطه في أية مشكلة - في الحقيقة كان تشيسترتون واحداً من أكثر الشخصيات احتراماً في الحياة الأدبية الإنكليزية. أي واحد يكتب في تلك النزعة الآن سيجلب على نفسه عاصفة من الأذى والاحتمال، والأرجح سيجد أن نشر كتاباته مستحيل.

إذا كان التحامل ضد اليهود منتشراً نوعاً ما في إنكلترا دائماً كما أوحيت، فليس هناك مبرر للاعتقاد أن هتلر قلله بشكل حقيقي، لكنه سبّب انقساماً حاداً بين الشخص الواعي سياسياً الذي أدرك أن هذا ليس وقتاً لقذف اليهود بالحجارة، وبين الشخص غير الواعي الذي زادت عداوته الفطرية للسامية بسبب الإجهاد العصبي الذي سببته الحرب المتقدة. لذلك يمكن للمرء أن يفترض أن كثيراً من الناس يفضلون الموت على الاعتراف بمشاعرهم المعادية للسامية الذين هم عرضة لها. لقد أشرت مسبقاً أنني أعتقد أن معاداة السامية مرض عصابي في جوهرها، لكن لها مبرراتها التي تُصدق بإخلاص والصحيحة جزئياً طبعاً. إن التبرير الذي يقدمه الرجل العادي هو أن اليهودي شخص استغلالي، أما التبرير المحايد أن ذلك اليهودي في إنكلترا رجل أعمال صغير عموماً - يعني شخص أعمال سلبه ونهبه واضحة ومفهومة أكثر من أعمال بنك أو شركة تأمين مثلاً. في مستوى أعلى من السلم الثقافي تُبرر معاداة السامية في القول إن اليهودي شخص ينشر النفور ويضعف المعنويات الوطنية. مرة أخرى هناك تبرير سطحي لهذا. خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية نشاطات من يسمون بـ "المثقفين" كانت مؤذية بشكل واسع. لا أظن أنني أبالغ في القول لو أن المثقفين قاموا بعملهم بشكل

منظم وشامل لاستسلمت بريطانيا في عام ١٩٤٠ وطبعاً شملت تلك الإنتلجنسيا المستاءة بشكل محتوم عدداً كبيراً من اليهود، لذلك أصبح من الممكن القول مع بعض المصداقية أن اليهود أعداء للثقافة المحلية والمعنويات الوطنية. عند التفحص الدقيق يعتبر الزعم مجرد هراء، لكن هناك دائماً بضعة أفراد بارزين يمكن اقتباسهم لدعمه. أثناء السنوات الماضية القليلة كان هناك ما ارتقى إلى هجمة مضادة ضد اليساروية الضحلة التي راجت وكانت موضة في العقد السابق، واعتبرت قدوة من قبل منظمات كنادي الكتاب اليساري مثلاً. لقد كان في هذه الهجمة المضادة (راجع كتباً مثل كتاب أرنولد لوتين **الغوريلا الطيب** أو إيفلين واو **انشر رايات اكثر**) نزعة معادية للسامية ولو لم يكن الموضوع خطيراً جداً بشكل جلي للاحظت أكثر. وكما حدث ظلت بريطانيا لعقود كثيرة بلا إنتلجنسيا وطنية تستحق الاهتمام. لكن الوطنية البريطانية أي الوطنية من النوع الثقافي قد تنتعش وستنتعش إذا خرجت بريطانيا من الحرب الحالية ضعيفة جداً. ربما يكون المثقفون الشباب لعام ١٩٥٠ وطنيين بشكل ساذج مقارنة بأقرانهم لعام ١٩١٤. في تلك الحالة ربما تجد معاداة السامية التي ازدهرت وسط المناوئين لدريفوس في فرنسا والتي حاول أن يستوردها تشيسترتون وبيلوك ويدخلاها إلى هذه البلاد، موطئ قدم لها.

ليس لدي نظرية صلبة حول أصول معادة السامية والمصادر التي نشأت منها. التفسيران الحاليان، الأول أنها تعود لأسباب اقتصادية والثاني أنها إرث من العصور الوسطى، يبدوان لي غير مقبولين، لكنني أعترف لو جمعا معاً لشكلا غطاء للحقائق. كل ما سأقوله بثقة أن عداء السامية جزء من مشكلة القومية الأكبر التي لم تمحص بجدية حتى الآن، وأن اليهودي كبش فداء بشكل واضح، لكننا لا نعرف بعد لماذا هو كبش فداء ومن أجل من. في هذا المقال اعتمدت تماماً على تجربتي المحدودة، وقد يكون كل واحد من استنتاجاتي باطلاً ومنفياً من قبل مراقبين آخرين. في الحقيقة ليست هناك معلومات وبيانات حول هذا الموضوع. لكن سأوجز آرائي لما تستحقه التي أصبحت كالتالي بعد اختصارها:

هناك عداء للسامية في إنكلترا أكثر مما نرغب في الاعتراف به، أبرزته الحرب وأكدته، لكنها بالتأكيد ليست متنامية لو فكر المرء بمنظور العقود وليس السنوات.

وهي لن تؤدي إلى اضطهاد علني في الوقت الحاضر، لكنها تؤثر في تقسية قلوب الناس حول عذابات اليهود ومعاناتهم في بلدان أخرى.

أنها غير منطقية ولا تقبل بالحجة والبرهان.

أعمال الاضطهاد في ألمانيا سببت إخفاء الكثير من الشعور المعادي للسامية، ما أدى إلى تعتيم الصورة الكاملة.

الموضوع يحتاج إلى تفحص جدي.

النقطة الأخيرة هي الوحيدة الجديرة بالتوسع. لدراسة أي موضوع بشكل علمي يحتاج المرء إلى موقف غير متحيز يكون أصعب بصورة جلية حين تتورط المصالح والعواطف فيه. يستطيع الكثير من الناس أن يكونوا موضوعيين حول قنافذ البحر مثلاً أو الجذر التربيعي للعدد ٢ لكنهم يصبحون فصاميين إن كان عليهم التفكير حول مصادر دخولهم الخاصة. إن ما يفسد كل ما كتب عن معادة السامية تقريباً، هو الافتراض الموجود في عقل الكاتب بأنه هو نفسه منيع عليها. ويجادل: "بما أني أعرف أن معاداة السامية غير منطقية، فهذا يؤدي أني لا أستطيع أن أشارك فيها". وهكذا يفشل في بدء تقصيه في المكان الوحيد الذي يستطيع الإمساك بدليل موثوق - أي، في عقله الخاص.

يبدو لي الافتراض بأن المرض الذي يسمى على صورة غير دقيقة بالقومية هو كوني تقريباً الآن افتراضاً سليماً. إن معاداة السامية مجرد عرض من أعراض القومية وعلاماتها، ولن يكون المرض عند كل شخص بهذا الشكل الخاص، فاليهودي مثلاً لن يكون معادياً للسامية: لكن يبدو لي الكثيرون من الصهاينة مجرد أعداء للسامية مقلوبين رأساً على عقب، مثلما يظهر الكثير من الهنود والزنوج التعصب اللوني العادي بشكل معكوس. القصد أن المدنية الحديثة تفتقر إلى شيء ما أو فيتامين نفسي ما، وكنتيجة له نحن كلنا تقريباً عرضة لهذا الاعتقاد المجنون بأن كل الأعراق أو الأمم خيرة بشكل غامض خفية أو شريرة بشكل غامض. أتحدى أي مثقف معاصر أن يتفحص عن قرب وبصدق في عقله الخاص به دون أن يقع على ولاءات قومية وأحقاد من نوع أو آخر. وفي الواقع هو يشعر بجذب مثل هذه الأشياء العاطفية ويراها بنزاهة كما هي عليه والتي تعطيه منزلته كمثقف. لذلك سيتبين أن نقطة بداية تفحصي لمعاداة السامية

يجب ألا تكون "لماذا هذا الاعتقاد غير المنطقي يجذب إليه الناس؟" وإنما "لماذا معاداة السامية تبدو جذابة لي؟ ما الشيء فيها الذي أشعر بأنه صحيح وحقيقي؟". لو سأل المرء نفسه هذا السؤال لاكتشف مبرراته الخاصة على الأقل، ولربما تمكن من اكتشاف ما يكمن تحتها. يجب أن تُفحص معاداة السامية – وأنا لن أقول بواسطة المعادين للسامية وإنما من قبل الأشخاص الذين يعرفون أنهم غير محصنين ضد ذلك النوع من العاطفة. حين يختفي هتلر سيصبح في الإمكان إجراء تحقيق حقيقي في هذا الموضوع، وقد يكون من الأفضل البدء ليس بفضح معادة السامية وإنما بتجميع وتنظيم كل مبرراتها التي يمكن إيجادها في عقل المرء نفسه أو في عقل غيره. بتلك الطريقة ربما يحصل المرء على بعض المؤشرات والعلامات التي تؤدي إلى جذورها النفسية. لكن معاداة السامية لن تشفى نهائياً بدون شفاء المرض الأكبر، القومية كما أعتقد، التي لا أؤمن بها.

منع الأدب ١٩٤٦

منذ حوالي السنة تقريباً، حضرت اجتماعاً لنادي بي أي إن (الشعراء والروائيون والكتاب - المترجم) بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لكتيب ميلتون "ايروباغيتيكا" دفاعاً عن حرية الصحافة. وطبعت عبارة ميلتون الشهيرة حول جريمة "قتل" كتاب على الوريقات الإعلانية للقاء التي وزعت مسبقاً.

كان على المنصة أربعة خطباء. ألقى أحدهم خطاباً عن حرية الصحافة، لكن فيما يتعلق بالهند، والآخر قال متردداً وبشكل عام إن الحرية شيء جيد، أما الثالث فهاجم القوانين المتعلقة بالفحش في الأدب، والرابع كرس جل خطابه دفاعاً عن حملات التطهير الروسية. رجع بعض من خطابات القاعة إلى مسألة الفحش والقوانين المتعلقة بها، وكان بعضها الآخر مديحاً لروسيا السوفيتية. بدت الحرية الأخلاقية - مناقشة المسائل الجنسية بشكل صريح في الطباعة - مقبولة ومتفق عليها، أما الحرية السياسية فلم يرد ذكرها. نصف هذا الحشد المؤلف من عدة مئات من الناس لم يكن له أي علاقة مع مهنة الكتابة، ولم يشر أي واحد منهم إلى أن حرية الصحافة إن قصد بها شيء - فهو الحرية في أن تنتقد وتعارض، والمهم لم يقتبس أحد شيئاً من الكتيب المحتفى به، كما لم يرد ذكر لأي من الكتب التي "قتلت" في إنكلترا والولايات المتحدة أثناء الحرب. وبالمجمل كان اللقاء تأييداً لمصلحة رقابة المطبوعات.

لم يكن ما يدهش على نحو خاص في هذا. إن فكرة الحرية الفكرية في عصرنا تتعرض للهجوم من جهتين، من الجهة الأولى أعداؤها النظريون المدافعون عن الأنظمة الشمولية، ومن الجهة الثانية أعداؤها العمليون المباشرون الاحتكار والبيروقراطية. أي كاتب أو صحفي يريد أن يحفظ استقامته، يجد نفسه بمواجهة الانجراف العام للمجتمع الذي يمنعه ويخذله قبل القمع الفعال. إن طبيعة الأشياء التي تعمل ضده من تمركز الصحافة بيد قلة من الأثرياء وقبضة الاحتكارات على الإذاعة والسينما، ورفض العوام إنفاق المال على الكتب، جعلت من الضروري على كل كاتب تقريباً أن يكسب قسماً من معيشته من الأعمال الفنية التجارية، وتجاوز الهيئات الرسمية مثل وزارة الإعلام والمجلس الاستشاري البريطاني التي تساعد الكتاب في البقاء على قيد الحياة،

لكنها تهدر وقتهم وتملي عليهم آراءهم أيضاً بالإضافة إلى جو الحرب المستمرة في السنوات العشر الماضية الذي لم يستطع أن ينجو من آثاره أحد. كل شيء في عصرنا يتآمر لقلب آراء الكاتب وكل أنواع الفن الأخرى أيضاً، وتحويله إلى موظف ثانوي يعمل على مواضيع تسلم له من الأعلى ولا يستطيع أبداً قول الحقيقة الكاملة كما تبدو له. لكن في صراعه ضد هذا القدر، لا يحصل على أي عون من جانبه؛ أي، ليس هناك هيئة كبيرة للرأي تدعمه وتؤيده بأنه في المجال القويم. في الماضي، في القرون البروتستانتية اختلطت فكرة التمرد وفكرة الاستقامة الفكرية ببعضها. المنشق (المهرطق) سياسياً أو دينياً أو جمالياً - هو من رفض أن يغتصب ضميره. وجهة نظره تتلخص في كلمات في الترتيلة الدينية: **تجرا أن تكون دانيال، تجرا أن تقف لوحدك، تجرا أن يكون لك هدف ثابت، تجرا أن تكون معروفاً.**

لتحديث هذه الأنشودة كي تلائم عصرنا، يجب أن نضيف (لا) في بداية كل سطر فيها، فمن غرابة عصرنا أن المتمردين ضد النظام القائم وميزتهم الأهم والأكثر شيوعاً أنهم يتمردون ضد فكرة الاستقامة الفردية. "تجرأ أن تقف لوحدك" هو أن تكون أيديولوجياً مجرماً وعملياً خطيراً. لقد تآكلت استقلالية الكاتب بواسطة قوى اقتصادية غامضة، وقوضها بنفس الوقت من عليهم الدفاع عنها. سأهتم بالمسار الثاني هنا.

إن حرية الفكر والصحافة تهاجم بحجج ليست جديرة بالاهتمام عادة، وكل شخص لديه خبرة في إلقاء المحاضرات أو النقاش يعرفها. أنا لا أحاول هنا التعامل مع الزعم المألوف بأن الحرية وهم، أو الزعم بوجود حرية أكثر في البلدان الشمولية من البلدان الديمقراطية، وإنما مع الفرضيات الأكثر قبولاً وخطورة بأن الحرية غير مرغوبة، وإن الأمانة الفكرية شكل من الأنانية المعادية للمجتمع. رغم مظاهر القضية الأخرى التي تكون عادة في المقدمة، فإن حرية الخطاب والصحافة في صميمها مسألة خلافية عن المرغوبية أو كذب إن لم تكن كذلك. إن الموضوع المهم والحقيقي هو الحق في نقل أخبار الأحداث المعاصرة بصدق أو بصدق ينسجم مع الجهل والتحيز وخداع الذات الذي يعاني منه كل مراقب بالضرورة. ربما يبدو من قولي هذا أن "التحقيق الصحفي" المباشر والمستقيم، هو الفرع المهم الوحيد من الأدب، لكنني سأبين لاحقاً أن القضية نفسها تظهر في كل مستوى أدبي وربما في كل واحد من الفنون في أشكال مكررة. في الوقت الراهن من الضروري أن نزيل الأشياء غير الزائدة التي لا علاقة لها بالموضوع، والتي تلف هذا الجدال.

يحاول أعداء الحرية الفكرية دائماً عرض دعوتهم دائماً كذريعة للانضباط والنظام ضد الفردانية، أما قضية الحقيقة ضد اللاحقيقة فتبقى في الخلفية قدر الإمكان. رغم الاختلاف في درجة التأكيد يصنف الكاتب الذي يرفض بيع آرائه ومعتقداته دائماً بالأناني، ويتهم إما بعزل نفسه في برج عاجي، أو بتقديم عرض تفاخري لشخصيته، أو بمقاومة التيار التاريخي المحتوم في محاولة للتشبث بامتياز لا أساس له. يتشابه الكاثوليكيون والشيوعيون في افتراضهم بأن الخصم لا يمكن أن يكون صادقاً وذكياً معاً، ويدعي كل منهما ضمناً أن "الحقيقة" كشفت مسبقاً وأن المنشق (المهرطق) إن لم يكن ساذجاً، يدرك للحقيقة بالخفاء، ولكنه يقاومها بدوافع أنانية محضة. في الأدب الشيوعي يقنع الهجوم على الحرية الفكرية عادة بخطاب عن "فردانية البورجوازية الصغيرة" و"أوهام ليبرالية القرن التاسع عشر"....إلخ ويدعمونه بكلمات مسيئة وتعسفية مثل "خيالي" و"انفعالي" ليس لها معنى متفق عليه، لذلك يصعب الرد عليها. وبهذا الشكل المناور يتم إبعاد الجدال عن القضية الرئيسية. يستطيع المرء قبول، وأغلب المتنورين قبلوا، بالفرضية الشيوعية التي ترى أن الحرية الخالصة لا توجد إلا في مجتمع لاطبقي وأن المرء يكون حراً تماماً تقريباً حين يعمل على تحقيق وإحداث هذا النوع من المجتمع. لكن يتسلل مع هذا زعم آخر لا أساس له بأن الحزب الشيوعي نفسه يهدف إلى توطيد المجتمع اللاطبقي وأن هذا الهدف في طريقة إلى التحقق الفعلي في الاتحاد السوفيتي. لكن إن أجيز للزعم الأول اشتراط الثاني، فليس هناك هجوم لا يمكن تبريره على الفطرة السليمة والحشمة العامة. لكن في الوقت الحالي يجرى الزوغان عن النقطة الحقيقية. إن حرية العقل تعني الحرية في نقل ما يراه الشخص ويسمعه ويحس به وعدم إجباره على تلفيق حقائق وهمية ومشاعر. إن الخطب العنيفة المسهبة ضد "الفرارية" و"الفردانية" و"الرومانتيكية" وهلم جرا، مجرد وسيلة جدالية وبلاغية، الهدف منها أن يبدو تحريف التاريخ عملاً محترماً.

قبل خمسة عشر عاماً، عندما كنا ندافع عن حرية العقل، كنا نحميها من المحافظين والكاثوليك وإلى حد ما من الفاشيين الذين لم يكن لهم أهمية كبيرة آنذاك. أما اليوم فعلينا أن نحميها من الشيوعيين و"رفاق الطريق". ينبغي ألا يبالغ المرء في التأثير المباشر للحزب الشيوعي الإنكليزي الصغير، لكن ليس هناك أي شك حول الأثر السام للأسطورة الروسية على الحياة الفكرية الإنكليزية التي بسببها تكبت الوقائع والحقائق المعروفة وتشوه، لدرجة تثير الشكوك في إمكانية كتابة تاريخ حقيقي وصحيح لعصرنا. دعني أقدم مثالاً واحداً من المئات

التي يمكن الاستشهاد بها. حين انهارت ألمانيا وجد أن عدد كبير من الروس السوفييت - أغلبهم بسبب دوافع غير سياسية، لاشك - بدلوا اصطفافهم وولاءهم وكانوا يقاتلون مع الألمان. أيضاً جزء صغير لكنه مهم من الأسرى السوفييت والأشخاص المهجرين رفضوا العودة إلى الاتحاد السوفييتي وبعضهم على الأقل أعيدوا رغماً عنهم. هذه الحقائق المعروفة لكثير من الصحفيين مرت دون ذكر في الصحافة البريطانية، بينما في نفس الوقت استمر المعلقون على الشؤون العامة المحبون للروس في تبرير حملات التطهير والترحيل التي حدثت بين ١٩٣٦ - ١٩٣٨ وزعموا أن الاتحاد السوفييتي لا يوجد فيه "بائعو أوطان". ضباب الكذب والمعلومات المضللة التي غلفت أشياء كالمجاعة الأوكرانية والحرب الأهلية الإسبانية وسياسة روسيا في بولونيا وهلم جرا، لم تكن بسبب عدم الاستقامة المتعمدة كلياً، وإنما لأن كل صحفي أو كاتب متعاطف مع الاتحاد السوفيتي تماماً بالطريقة التي يريدها الروس - عليه أن يذعن ويقبل بالتزييف المتعمد للقضايا المهمة. أمامي كتيب نادر جداً كتبه مكسيم ليتفينوف عام ١٩١٨ يوجز فيه الأحداث الأخيرة في الثورة الروسية. لم يأت على ذكر ستالين، لكنه يكيل المديح لتروتسكي وزينوفييف وكامينيف وآخرين. ما هو موقف الشيوعي الأكثر شكوكاً بمثل هذا الكتاب؟ في أفضل الأحوال موقف الشخص الظلامي الذي يرى أن هذا الكتيب وثيقة غير مرغوبة ومن الأفضل قمعها وإن تقرر نشر نسخة مشوهة منه فستحط من قدر تروتسكي، وتقحم الإشارة إلى ستالين، ولا يمكن لأي شيوعي مخلص لحزبه الاحتجاج على ذلك. لقد ارتكبت أعمال تزوير كهذه على نطاق إجمالي وواسع في السنوات الأخيرة. لكن ليست العبرة بحدوثها، وإنما حتى حين تكشف وتصبح معروفة، فإنها لا تحدث أي رد فعل من مثقفي الجناح اليساري ككل.

إن الكذب المنظم الذي تمارسه الدول الشمولية، ليس حيلة مؤقتة من نفس طبيعة الخداع العسكري كما تزعم أحياناً. إنه شيء متمم للشمولية وشيء سيستمر حتى لو انتهت ضرورة معسكرات الاعتقال والشرطة السرية. هناك أسطورة سرية بين الشيوعيون الأذكياء، ترى أن الحكومة الروسية مجبرة الآن على التعامل بالدعاية الكاذبة والمحاكمات المدبرة وغيرها وأنها تدون سراً الوقائع الحقيقية وستنشرها في وقت ما في المستقبل. يمكننا التأكد تماماً في اعتقادي من أن هذا ليس هو الحال، لأن العقلية الضمنية لمثل هذا الأفعال هي لمؤرخ ليبرالي يعتقد أن الماضي لا يمكن تبديله وأن المعرفة الصحيحة للتاريخ قيمة ومسألة بديهية. إن رأي الشمولي في التاريخ شيء يمكن ابتداعه وليس تعلمه. إن الدولة الشمولية في الحقيقة والفعل دولة دينية

(ثيوقراطية) ويجب أن ينظر إلى طبقتها الحاكمة المتحجرة بأنها معصومة عن الخطأ لكي تحافظ على مركزها. وبما أنه ليس هناك أحد معصوم عن الخطأ عملياً غالباً ومراراً ما يكون من الضروري إعادة ترتيب الأحداث الماضية لكي تبين أن هذا أو ذاك الخطأ لم يرتكب أو هذا أو ذاك الانتصار الخيالي حدث فعلاً. ثم مرة أخرى كل تغيير رئيسي في السياسية يستلزم تغييراً مماثلاً في العقيدة وإظهار رموز تاريخية بارزة. هذا الشيء يحدث في كل مكان، ومن الواضح أنه سيؤدي إلى تزييف صريح وشامل في مجتمعات لا يسمح فيها إلا لرأي واحد في أية لحظة مفترضة. إن الشمولية في الحقيقة تستدعي التبديل المستمر للماضي، وعلى المدى البعيد تستدعي إنكار وجود الحقيقة الموضوعية نفسها. يميل أصدقاء الأنظمة الشمولية في هذه البلاد عادة إلى الجدال: بما أن الحقيقة المطلقة لا يمكن بلوغها، فالكذبة الكبيرة ليست أسوأ من الصغيرة. وتمت الإشارة إلى أن كل السجلات التاريخية منحازة وغير دقيقة أو من جانب آخر، إن الفيزياء الحديثة أثبتت أن ما يبدو لنا على أنه العالم الحقيقي، هو مجرد وهم، لذلك فإن الاعتقاد بدليل إحساس المرء، هو نزعة قديمة محافظة ومبتذلة. المجتمع الشمولي الذي نجح في تأبيد نفسه سيشيد نظاماً شيزوفرينياً للفكر تكون فيه قوانين التفكير السليم صحيحة في الحياة اليومية، وإلى درجة ما في بعض العلوم الدقيقة، لكن يمكن للسياسي والمؤرخ وعالم الاجتماع أن يتجاهلوها. يوجد مسبقاً عدد لا يحصى من الناس من يعتبر تزييف كتيب مدرسي فضيحة علمياً، ولا يرون شيئاً خطأً في تزييف حقيقة تاريخية. هذه هي النقطة التي يتقاطع فيها الأدب والسياسة التي تمارس فيها الشمولية أعظم ضغطها على المفكرين. العلوم الصارمة حتى هذا التاريخ لا تمثل خطراً على أي شيء بنفس الدرجة، ويعود هذا جزئياً إلى حقيقة أن العلماء يستطيعون الاصطفاف خلف حكوماتهم الخاصة، بصورة أسهل من الكتاب في كل البلدان.

لتظل الأشياء واضحة للعين، دعوني أكرر ما قلته في بداية المقال: إن الأعداء المباشرين للصدق، وبالتالي لحرية الفكر في إنكلترا، هم أسياد الصحافة وأقطاب السينما والبيروقراطيون، لكن العلامة الأكثر أهمية على إضعاف الرغبة في الحرية على المدى الطويل، نجدها لدى المفكرين أنفسهم. قد يبدو أني كنت أتحدث كل هذا الوقت عن آثار الرقابة عن قسم واحد من الكتابة الصحفية السياسية، وليس عن الأدب عموماً. لنسلم أن روسيا السوفييتية منطقة محظورة في الصحافة البريطانية، ولنسلم أيضاً أن بولونيا والحرب الإسبانية والمعاهدة الروسية الألمانية مواضيع لا يسمح بنقاش جاد لها، ولو كنت تملك معلومات

تتعارض مع الأرثوذوكسية السائدة فأنت إما شوهتها أو عليك أن تبقيها سراً - سلمنا بكل ذلك، لكن لماذا يجب أن يتأثر الأدب بمعناه العام؟ هل كل كاتب رجل سياسي وكل كتاب تحقيق صحفي مباشر بالضرورة؟ حتى في أشد الديكتاتوريات لا يستطيع الكاتب الفرد أن يبقى حراً داخل عقله ويسرب أفكاره اللاتقليدية ويقنعها بطريقة لا تدركها السلطات الغبية؟ وفي كافة الأحوال إن كان الكاتب في اتفاق مع الأرثوذوكسية السائدة، فلماذا يكون لها أثر مقيد عليه؟ أليس من المرجح أن يزدهر الأدب وكل الفنون الأخرى في المجتمعات التي ليس فيها صراعات رأي رئيسية وفرق حاد بين الفنان والمتلقي؟ هل يجب علينا أن نعتبر كل كاتب رجلاً متمرداً أو شخصاً استثنائياً إن كان هكذا؟

كلما حاول المرء الدفاع عن الحرية الفكرية ضد مزاعم الشمولية، فإنه يواجه هذه الحجج من شخص أو آخر، وهي حجج مبنية على فهم خاطئ تماماً للأدب، ما هو وكيف - يجب أن يسأل المرء لماذا - يظهر إلى الوجود. يعتقد الشموليون أن الكاتب إما مجرد مضيف مسلٍ أو سائق عربة مرتش يستطيع تبديل مواقفه من جانب دعائي إلى آخر بالسهولة التي يبدل فيها عازف الأورغان النغمات. لكن أخيراً وبعد كل هذا، كيف أصبحت الكتب تكتب دائماً؟ أولاً الأدب محاولة الأديب للتأثير على رأي معاصريه من خلال تسجيل تجربته وتدوينها. وبالنسبة إلى حرية التعبير، ليس هناك فرق كبير بين الصحفي العادي وأبرع كاتب خيالي "غير سياسي". الصحفي غير حر ومدرك لعدم حريته حين يجبر ويكتب أكاذيب أو يخمد ما تبدو له أخباراً هامة رغماً عنه؛ والكاتب الخيالي غير حر حين يجبر على تزييف مشاعره الشخصية التي تعتبر حقائق من وجهة نظره. ربما يشوه الحقيقة ويبالغ في تشويهها ليوضح معانيه، لكنه لا يستطيع تشويه مشهد عقله الخاص، ولا يستطيع القول بأي قناعة إنه يحب ما يكره أو يؤمن بما لا يؤمن به. إن أجبر على فعل ذلك، فالنتيجة الوحيدة هي تجفاف قدراته الإبداعية كما أنه لا يستطيع حل المشكلة بالابتعاد عن المواضيع الخلافية. لا يوجد هناك أدب غير سياسي حقيقي، على الأقل في زمن كعصرنا، حين يكون الخوف والكره والولاءات السياسية المباشرة قريبة من سطح وعي كل واحد منا. حتى لو كان تحريماً واحداً، فله نتيجة معطلة قاسية على العقل، لأن هناك خطر دائم بأن أية فكرة يتابعها المرء بحرية، قد تؤدي إلى الفكر الممنوع والمحرم. هذا يؤدي إلى أن جو الشمولية مميت ومهلك لأي نوع من كتاب النثر، لكن الشاعر وعلى الأقل الشاعر الغنائي ربما

يجد هذا الجو قابلاً للتنفس. وفي أي مجتمع شمولي يبقى حياً لأكثر من جيلين اثنين، من المحتمل أن يموت أدب النثر من النوع الذي وجد خلال الأربعمائة سنة الماضية وينتهي.

يزدهر الأدب أحياناً في ظل الأنظمة الاستبدادية، لكن كما أبرزنا مراراً فإن الأنظمة الاستبدادية في الماضي لم تكن شمولية. لقد كان جهازها القمعي عاجزاً على الدوام وكانت طبقاتها الحاكمة عادة إما فاسدة أو لامبالية أو شبه ليبرالية في وجهة نظرها، وكانت العقائد الدينية السائدة فيها تعمل عادة ضد الكمالية وفكرة العصمة الإنسانية، ولكن وبرغم ذلك وصل الأدب النثري إلى أعلى مستوياته في فترات الديمقراطية والتأمل الحر. إن الجديد في الأنظمة الشمولية ليس في أن عقائدها غير قابلة للتغيير فقط، وإنما في تقلبها أيضاً، ويجب أن يقبل بها تحت التهديد بالإدانة، لكنها من جهة أخرى هي عرضة للتبدل دائماً في لحظة دون سابق إنذار. لنأخذ مثلاً المواقف المتباينة والمتنافرة تماماً مع بعضها البعض التي كان على الشيوعي الإنكليزي أو رفيق السفر أن يتبناها نحو الحرب بين بريطانيا وألمانيا. في السنين التي سبقت أيلول ١٩٣٩ كان متوقعاً منه أنه يغلي من الغضب حول "الرعب من النازية" وأن يحرف كل شيء كتبه إلى اتهام لهتلر: بعد أيلول ١٩٣٩ ولمدة عشرين شهراً، كان عليه أن يصدق ويؤمن أن ألمانيا تعرضت لظلم أكثر مما فعلته بحق غيرها، وأن كلمة "نازي" بالشكل الذي استخدمتها الصحافة يجب أن تحذف تماماً ومباشرة من قاموس مفرداته. وكان عليه بعد سماع نشرة أخبار الساعة الثامنة في صباح ٢٢ حزيران ١٩٤١ أن يبدأ ويصدق ثانية أن النازية أفظع الشرور التي شهدها العالم. الآن من السهل على السياسي القيام بهذه التبدلات: لكن حال الكاتب مختلفة. إن كان عليه تبديل ولاءه في اللحظة الصحية تماماً، فعليه إما أن يكذب في مشاعره الشخصية أو يجمدها كلياً، وفي كلا الحالتين فهو يدمر مولده (طاقته الإبداعية وفاعليته). سترفض الأفكار أن تأتي إليه، وسوف تتيبس كل كلمة يستخدمها تحت لمسته أيضاً. إن الكتابة السياسية في زمننا تتألف من عبارات مصنعة مسبقاً مربوطة ببعضها مثل قطع طقم لعبة الأطفال ميكانو. إنها النتيجة الحتمية للرقابة الذاتية. لتكتب بلغة واضحة وسهلة وحيوية، عليك أن تفكر بدون خوف، وإن فكرت بلا خوف، لا يمكن أن تكون أرثوذوكسياً (تقليدياً) في السياسة. كان يمكن أن يكون الأمر مختلفاً في "عصر إيمان آخر تكون فيه العقيدة الأرثوذوكسية مؤسسة منذ زمن طويل ولا تؤخذ بالحسبان بشكل جاد جداً. في تلك الحالة سيكون من الممكن أو ربما يكون من الممكن لمناطق واسعة من عقل المرء

أن تبقى غير متأثرة بما يؤمن به رسمياً. حتى مع هذا يجدر أن نلاحظ أن أدب النثر اختفى تقريباً أثناء عصر الإيمان الوحيد الذي نعمت به أوروبا، وخلال كل العصور الوسطى لم يكن هناك نثر خيالي والقليل جداً من الكتابة التاريخية، وقد عبر قادة الفكر في المجتمع عن أفكارهم الأكثر جدية بلغة ميتة لم تتبدل خلال آلاف السنين.

في كل الأحوال إن الشمولية لا تنذر بأنها ستكون عصر إيمان بقدر ما هي عصر شيزوفرينيا (انفصام). يصبح المجتمع شمولياً حين يكون بنيانه اصطناعياً وزائفاً بشكل فاضح: أي حين تفقد طبقته الحاكمة دورها، لكنها تنجح في التشبث بالسلطة بواسطة القوة أو الخداع، ومهما استمر هذا المجتمع، فلا يمكنه أن يصبح متسامحاً أو مستقراً فكرياً أبداً، ولا يسمح أبداً بتسجيل حقيقي للوقائع أو للصدق العاطفي الذي يتطلبه الإبداع. لكن إن تفسد بالشمولية، ليس بالضرورة أن تعيش في مجتمع شمولي، إذ إن مجرد سيادة أفكار معينة تستطيع نشر نوع من السم يجعل المواضيع الواحد تلو الآخر مستحيلة للأغراض الأدبية. متى ما كان هناك عقيدة تقليدية مفروضة بالقوة أو حتى عقيدتين كما يحدث غالباً - تتوقف الكتابة الجيدة وقد توضح ذلك تماماً في الحرب الأهلية الإسبانية. كانت تلك الحرب لكثير من المفكرين الإنكليز تجربة مؤثرة بعمق، لكنها لم تكن التجربة التي استطاعوا أن يكتبوا عنها بأمانة وإخلاص. لم يسمح لهم بالكلام إلا عن شيئين اثنين وكلاهما كذبتان صريحتان: بالنتيجة، كان نتاج الحرب فدادين من المطبوعات التي أغلبها لا يستحق القراءة.

ليس مؤكداً إن كانت آثار الشمولية على الشعر مميتة كآثارها على النثر. هناك سلسة كاملة من الأسباب المجتمعة التي تجعل الشاعر أكثر ارتياحاً وحرية في المجتمع الشمولي. بداية يحتقر البيروقراطيون والرجال "العمليون" الآخرون الشاعر كثيراً جداً لدرجة لا يهتمون كثيراً بما يقوله. ثانياً إن ما يقوله الشاعر أي ما تعنيه قصيدته إن شرحت نثراً - غير مهم نسبياً حتى له نفسه. إن الفكرة المحتواة في القصيدة بسيطة دائماً، ولم يعد الغرض أساسي للقصيدة أكثر من الغرض الأساسي للمخطط بالنسبة إلى الصورة. إن القصيدة ترتيب لأصوات وتداعيات كما التصوير الزيتي ترتيب لعلامات الفرشاة. في لحظات خاطفة قصيرة وليس دائماً كما في لازمة الأغنية يمكن للشعر، أن يستغني عن المعنى كلياً. لذلك من السهل جداً على الشاعر أن ينأى عن المواضيع الخطرة ويتجنب التلفظ بالبدع؛ وحتى حين يتلفظ بها، قد تمر دون أن تثير الانتباه. لكن الأهم وقبل كل شيء أن الشعر الجيد لا يكون بالضرورة نتاجاً فردياً مثل النثر

الجيد. هناك أنواع محددة من الأشعار كالأغاني الشعبية، ومن جانب آخر، هناك أشكال اصطناعية جداً من الشعر يمكن نظمها بتشارك جماعات من الناس. مازال هناك نزاع وجدل إن كانت القصائد الغنائية الشعبية الإنكليزية والاسكتلندية قد أنتجت بواسطة أفراد أم بواسطة الناس عموماً، ولكن في كافة الأحوال هي غير فردية، بمعنى أنها تتبدل دائماً حين تنتقل من فم إلى آخر. حتى في الطباعة لا توجد نسختان متشابهتان تماماً لأغنية شعبية. إن الكثير من شعوب العالم تؤلف الشعر جماعياً. يبدأ أحد ما في الارتجال وربما يرفق نفسه بآلة موسيقية وينظم آخر غيره بيتاً مقفى حين يتوقف المغني الأول، وهكذا تستمر العملية حتى تتواجد أغنية كاملة ليس لها مؤلف خاص ومستقل.

إن هذا النوع من التعاون مستحيل تماماً في النثر. في كل الأحوال، يجب أن يؤلف النثر الجاد في عزلة، بينما الإثارة في كونك جزءاً من مجموعة، هي عبارة عملية مساعدة لأنواع محددة من نظم الشعر. يستطيع الشعر والنوع الجيد منه خصوصاً أن يبقى حياً تحت أسوأ الأنظمة البوليسية. حتى في المجتمعات التي أبطلت فيها الحرية والفردانية، تظل هناك حاجة إلى الأغاني الوطنية والقصائد الغنائية البطولية التي تحتفل بالانتصارات أو لحفلات التملق المنمقة. وهذه هي القصائد التي يمكن أن تكتب بناء على الطلب أو تؤلف بشكل جماعي دون أن ينقصها بالضرورة القيمة الفنية. إن النثر مسألة مختلفة، لأن الكاتب لا يستطيع أن يضيق مدى أفكاره دون قتل قدراته الإبداعية. لكن تاريخ المجتمعات الشمولية أو جماعات الناس التي تبنت وجهة النظر الشمولية، يشير إلى أن غياب الحرية ضار بكل أشكال الأدب. لقد اختفى الأدب الألماني خلال حكم هتلر، ولم تكن الحال أفضل في إيطاليا، والأدب الروسي بقدر ما يمكن للمرء الحكم من خلال الترجمة، انحط بشكل بارز منذ الأيام الأولى للثورة، لكن كان وضع بعض الشعر أفضل من النثر. لم يكن ممكناً أخذ أية رواية روسية باستثناء بضع منها على محمل الجد لكي تترجم خلال الخمس عشرة سنة الماضية. في أوروبا الغربية وأمريكا فئات واسعة من الإنتلجنسيا الأدبية جربت الحزب الشيوعي أو كانت متعاطفة معه، لكن هذه الحركة اليسارية بمجملها أنتجت كتباً استثنائية تستحق القراءة. يبدو أن للكاثوليكية الأرثوذوكسية أثراً مدمراً وماحقاً على بعض الأشكال الأدبية وخصوصاً الرواية. خلال فترة ثلاثمائة سنة، كم شخصاً كانوا روائيين جيدين وكاثوليكيين خيرين في الوقت نفسه؟ الحقيقة أن أفكار ومواضيع رئيسية لا محددة يمكن تمجيدها بالكلمات، والاستبداد أحدها. لم يكتب أحد أبداً كتاباً جيداً يمجد فيه

محاكم التفتيش. قد ينجو الشعر ويحيا في العصر الشمولي وبعض الفنون الأخرى وأشباه الفنون كالهندسة المعمارية مثلاً، وقد تجد الاستبداد مفيداً لها. أما كاتب النثر فخياره بين الصمت أو الموت. إن أدب النثر كما نعرف هو نتاج العقلانية والقرون البروتستانتية والفرد المستقل. إن تدمير الحرية الفكرية يعطل ويشل الصحفي وعالم الاجتماع والمؤرخ والروائي والناقد والشاعر بالترتيب. في المستقبل يمكن أن يظهر نوع جديد من الأدب لا يشترط مشاعر فردية أو مراقبة صادقة، لكن لا يمكن تخيل هذا الآن، ويحتمل أكثر كما يبدو لو تنتهي الثقافة الليبرالية التي عشنا فيها منذ عصر النهضة وتتوقف، فسيفنى الفن الأدبي معها.

طبعاً سوف يستمر استخدام الطباعة، ومن الممتع التخمين والتساؤل عن أنواع القراءة التي ستنجو في المجتمع الاستبدادي المتصلب. يفترض بالجرائد أن تستمر حتى تصل تقنية التلفاز إلى مستوى أعلى، لكن بمعزل عن الجرائد يشك حتى الآن إن كانت الكتلة الأكبر من الناس في البلدان الصناعية تشعر بالحاجة إلى أي نوع من الأدب فأفرادها غير راغبين بأية نسبة أن ينفقوا على مسألة القراءة شيئاً قريباً مما ينفقونه على هوايات عديدة أخرى، أو ربما ينجو نوع متدنٍ من النثر الحسي المثير ينتج بعملية الحزام الناقل الذي سيقلل المبادرة الإنسانية إلى الحد الأقصى.

تكتب أفلام الراديو عادة بواسطة كتاب هاكس مبتذلين يملى عليهم الموضوع وطريقة المعالجة مسبقاً: ومع ذلك، ما يكتبونه مجرد نوع من مادة خام تحول إلى شكل بواسطة المنتجين والرقابة، وهكذا الأمر أيضاً مع الكتب التي لا تحصى والكراريس التي تكتب بتكليف من دوائر الحكومة، أما إنتاج القصص القصيرة والمسلسلات والقصائد التي تكتب للمجلات الرخيصة جداً، فهو الأكثر شبهاً بالإنتاج الآلي. صحف مثل صحيفة ذا رايتر تزخر بإعلانات عن مدارس أدبية تعرض عليك كلها حبكات روائية جاهزة ببضع شلنات للحبكة الواحدة، وبعضها تزودك مع الحبكة بالجمل الافتتاحية والختامية لكل فصل، وبعضها الآخر تمدك بنوع من الصيغة الجبرية التي باستخدامها يمكنك بناء حبكة روائية لنفسك، ونوع آخر من الصحف فيها رزم بطاقات لشخصيات وأوضاع لا تحتاج إلا إلى خلطها وتوزيعها كورق الشدة لكي تنتج قصصاً إبداعية بشكل أتوماتيكي. من المحتمل أن ينتج الأدب في المجتمع الشمولي ببعض من هذه الطرق. الخيال - حتى الوعي، بأقصى ما يمكن - سوف يتم حذفه من عملية الكتابة، وسيجري تخطيط الكتب في خطوطها العريضة بواسطة بيروقراطيين، وتمرر إلى عدد كبير من الأيدي، وحين

تكتمل وتنجز لا تعود منتجاً فردياً أكثر من سيارة الفورد في نهاية خط التجميع. لا حاجة للقول إن أي شيء ينتج بهذه الطريقة سيكون عبارة عن هراء؛ لكن أي شيء لا يكون مجرد هراء سيشكل خطراً على بنية وتركيب الدولة. أما بالنسبة إلى ما سينجو من الأدب القديم، فسيكون من الضروري كبته وقمعه أو إعادة كتابته بشكل محكم ومدروس.

في الوقت الحالي لم تنتصر الشمولية تماماً في كل مكان، ولايزال مجتمعنا ليبرالياً عموماً. ولكي تمارس حقك في حرية التعبير، عليك أن تناضل ضد الضغط الاقتصادي وضد فئات قوية من الرأي العام، لكن ليس ضد قوات الشرطة السرية حتى الآن. يمكنك أن تقول وتنشر أي شيء تقريباً طالما أنك مستعد لفعل ذلك بطريقة صعبة، لكن النحس والشر كما قلت في بداية هذا المقال. إن أعداء الحرية المتعمدين هم هؤلاء الذين ينبغي أن تعني لهم الحرية الشيء الأهم. إن الجمهور الكبير لا يهتم بالمسألة بشكل أو بآخر، وهو لا يؤيد اضطهاد المنشق، ولا يحث نفسه للدفاع عنه. إن الجمهور عاقل جداً وغبي جداً بنفس الوقت في اكتساب وجهة النظر الشمولية. ويأتي الهجوم المباشر والمتعمد على الآداب الفكرية واللباقة، من المفكرين أنفسهم.

لو لم يخضع المثقفون المحبون لروسيا إلى تلك الخرافة الغريبة، لربما خضعوا إلى خرافة أخرى من نفس النوع، لكن على كافة الأحوال فإن الخرافة الروسية موجودة والعفن الذي تسببه تفوح رائحته. حين يرى المرء رجالاً مثقفين ينظرون بعدم اكتراث للقمع والاضطهاد، يتساءل عن الذي سيحتقره أكثر، كلبيتهم أم قصر نظرهم. إن كثيراً من العلماء مثلاً معجبون سذج بالاتحاد السوفييتي ويعتقدون أن تخريب الحرية ليس ذا أهمية طالما لم يتضرر خط عملهم الخاص بهم الحالي. إن الاتحاد السوفييتي شاسع وينمو بشكل سريع، ولديه حاجة حادة للعمال العلميين، وبالتالي يعاملهم بكرم وتسامح. فالعلماء أشخاص يحظون بامتيازات، بشرط أن يتجنبوا المواضيع الخطيرة كعلم النفس مثلاً. أما الكتاب من جانب آخر، فيضطهدون بقسوة. صحيح أن الفجار الأدبيين مثل إيليا اهرينبورغ أو ألكسي تولستوي تدفع لهم الأموال الطائلة، ولكن بعد أن سلبوا منهم كل ما له قيمة في عين الكاتب كحرية التعبير مثلاً. يستطيع بعض من العلماء الإنكليز على الأقل الذين يتكلمون بحماسة عن الفرص التي يتمتع بها العلماء في روسيا فهم هذا. إن تفكيرهم كالتالي كما يبدو: "الكتاب مضطهدون في روسيا.

وماذا في ذلك؟ أنا لست كاتباً". إنهم لا يرون ويدركون أن أي هجوم على الحرية الفكرية وعلى مفهوم الحقيقة الموضوعية، يهدد كل فروع الفكر على المدى الطويل.

في الوقت الحالي تتسامح الدولة الشمولية مع العلماء لأنها بحاجتهم. حتى في ألمانيا النازية، يعامل العلماء غير اليهود بشكل جيد نسبياً، والمجتمع العلمي الألماني عموماً لم يظهر أي مقاومة بوجه هتلر. في هذه المرحلة من التاريخ حتى أعتى حاكم استبدادي مجبر أن يأخذ بحسابه الواقع الفيزيائي المادي بسبب الاتكال على العادات الليبرالية في الفكر جزئياً وبسبب حاجة الاستعداد إلى الحرب جزئياً. طالما لا يمكن تجاهل الواقع المادي وطالما اثنان واثنان يجب أن يكونا أربعة، فحين ترسم مخطط طائرة مثلاً يظل للعالم دوره ويمكن السماح له بدرجة معقولة من الحرية. سنأتي يقظته لاحقاً بعد أن تتوطد الدولة الشمولية بقوة. في الوقت الحالي، إن كان يريد أن يحمي استقامة العلم وصدقه، فإن وظيفته أن يطور نوعاً من التضامن مع زملائه الأدبيين، وألا يغض النظر حين تكمم أفواه الكتاب أو يدفعوا إلى الانتحار وعندما تزيف الصحف بصورة منظمة، ويعتبر الأمر عدم انحياز.

لكن مهما سيكون الأمر مع العلوم الطبيعية أو مع الموسيقا والهندسة المعمارية، فمن المؤكد – كما حاولت أن أبين – إن الأدب محكوم بالهلاك والفناء إذا هلكت حرية الفكر. لن يموت الأدب في البلدان التي تحتفظ ببنية شمولية فقط، وكل كاتب يتبنى رأي الشمولية ووجهة نظرها ويجد أعذاراً للاضطهاد وتزوير الواقع والحقيقة، فإنه سيدمر نفسه ككاتب. لا يوجد أي مخرج من هذا الوضع. لا خطب حماسية ضد "الفردانية" و"البرج العاجي"، ولا ملاحظات مبتذلة وورعة في أن "الفردانية الحقة لا تكتسب إلا عبر التماهي مع المجتمع" تستطيع أن تتخطى حقيقة أن العقل المشترى عقل فاسد، وإذا لم تدخل العفوية بدرجة ما أو أخرى فسيكون الإبداع الأدبي مستحيلًا وتصبح اللغة نفسها شيئاً مختلفا تماماً عما عليه الآن، وربما نتعلم فصل الإبداع الأدبي عن الاستقامة الفكرية. في الوقت الحاضر لا نعرف إلا أن الخيال مثل بعض الحيوانات البرية لا يتكاثر في الأسر. أي كاتب أو صحفي ينكر تلك الحقيقة – كل المديح الحالي للاتحاد السوفييتي وتقريباً يحتوي أو يتضمن مثل هذا الإنكار – يطالب بتدمير نفسه.

دفاعاً عن بي جي ودهاوس

حين حقق الألمان تقدمهم السريع والمباغت في بلجيكا في وقت مبكر من صيف عام ١٩٤٠ أسروا من بين أشياء أخرى السيد بي جي ودهاوس، الذي كان يعيش طيلة الفترة الأولى للحرب في فيلته في لانوكيت، ويبدو أنه لم يدرك الخطر حتى اللحظة الأخيرة. وروي عنه أنه قال حين اقتيد إلى الأسر "ربما أكتب كتاباً جاداً بعد هذا". وُضع تحت الإقامة الجبرية في الوقت الحالي، ويبدو من تصريحاته اللاحقة أنه لاقى معاملة ودية، فقد كان يزوره ضباط ألمان في الجوار من أجل الاستحمام أو حفلة سمر.

بعد أكثر من سنة، في الخامس من يونيو حزيران ١٩٤١ أتت الأخبار بأن ودهاوس قد أطلق سراحه ويعيش في فندق ادلون في برلين. في اليوم التالي اندهش الجمهور حين علم أنه وافق على أن يلقي بعض النشرات ذات طبيعة غير سياسية في الراديو الألماني. إن الحصول على النصوص الكاملة لهذه النشرات ليس سهلاً في هذا الوقت، لكن يبدو أن ودهاوس قدم خمساً منها بين السادس والعشرين من يونيو حزيران والثاني من يوليو تموز، ثم أوقفه الألمان عن البث الحي ثانية. كانت النشرة الأولى في السادس والعشرين من حزيران، ولم تبث على الراديو النازي، وإنما أخذت شكل مقابلة مع ممثل شبكة الراديو الكولمبية هاري فلانري التي لايزال لها مراسلون في برلين، كما نشر وود هاوس أيضاً مقالة في ساتردي إيفيننغ بوست حين كان في معسكر الاعتقال.

كانت المقالة والنشرات الإذاعية عن تجارب ودهاوس في المعتقل، لكنها تضمنت تعليقاً صغيراً على الحرب. التالي نماذج مناسبة:

"أنا لم أهتم بالسياسة في حياتي قط، وأنا عاجز تماماً عن إحداث أي نوع من المشاعر القتالية والعدوانية، وحين أشعر بحب القتال ضد دولة ما، ألتقي بأحد الفتيان المهذبين ثم نخرج معاً وأفقد كل الأفكار أو المشاعر القتالية".

منذ وقت قريب ألقوا علي نظرة في موكب، وأدركت الفكرة الصحيحة؛ لقد أرسلونا إلى مصح للمجانين، على الأقل قضيت فيه اثنين وأربعين أسبوعاً. هناك الكثير الذي يقال عن

المعتقل، فهو يبعدك عن الصالون الأدبي، ويساعدك على أن تواظب على قراءتك، وحين أنضم إلى زوجتي، فمن الأفضل لي أن آخذ رسالة تقديم لأكون على الجانب الآمن.

في الأيام التي سبقت الحرب، كنت أفتخر بتواضع بكوني إنكليزياً دائماً، لكن الآن بعد أن أمضيت بضعة أشهر قاطناً في هذا المخزن أو المستودع من الرجال الإنكليز، فأنا لست متأكداً.... الامتياز الوحيد الذي أريده من ألمانيا أن تعطيني رغيف خبز وتأمر السادة حاملي البنادق عند البوابة الرئيسية أن ينظروا إلى الجهة الأخرى ويتركوا لي الباقي. مقابل ذلك أنا مستعد أن أسلم الهند ومجموعة من كتبي الممهورة بإمضائي، وأن أكشف سر عمل طبخ البطاطا على مشع الحرارة. هذا العرض قائم إلى أول أسبوع الصوم الكبير".

لقد سبب المقطع الأول المقتبس إهانة عظيمة، وانتقد وودهاوس من أجل استخدام عبارة "إن ربحت بريطانيا الحرب أم لم تربح" (في المقابلة مع فلانيري) ولم يفعل أفضل حين وصف في برنامج إذاعي آخر العادات القذرة للأسرى البلجيكيين الذين اعتقل معهم. سجل الألمان هذا البرنامج وأعادوه عدداً من المرات. يبدو أنهم أشرفوا على أحاديثه قليل،اً ولم يسمحوا بأن يسخر من إزعاجات الاعتقال فقط وإنما في التعليق "بأن الأسرى المعتقلين في معسكر تروست يؤمنون بحماس أن بريطانيا ستربح في آخر المطاف"، لكن الجوهر العام لأحاديثه كان عن عدم تعرضه لأية معاملة سيئة وأنه لا يكنّ أية ضغينة.

سببت هذه البرامج الإذاعية ضجيجاً فورياً في إنكلترا. كانت هناك أسئلة في البرلمان وتعليقات افتتاحية في الصحافة وسيل من الرسائل من الزملاء المؤلفين، عبروا فيها عن استنكارهم كلهم تقريباً، واقترح واحد أو اثنان تعليق الحكم، ودافع البعض القليل بأن وودهاوس ربما لم يكن يدرك ما يفعل. في ١٥ تموز نقلت محطة البي بي سي في الوطن مقالاً عنيفاً جداً لـ"كاساندرا" في الديلي ميرور تتهم فيه وودهاوس "ببيع وطنه" وأباح هذا الملحق استخدام عبارات مثل "بائع وطن" و"عبادة الفوهرر". كان التهمة الرئيسية أن وودهاوس وافق أن يقوم بدعاية ألمانية كطريقة لشراء نفسه وإنقاذها من معسكر الاعتقال.

سبب ملحق كاساندرا قدراً محدداً من الاحتجاج، لكنه كثف الشعور الشعبي ضد وودهاوس إجمالاً، كما يبدو، ومن نتائج ذلك أن عدداً هائلاً من مكتبات الإعارة سحبت كتب وودهاوس من التداول. ها هو بند نموذجي من الأخبار:

بعد أربع وعشرين ساعة من الاستماع إلى برنامج كاساندرا، أفاد كاتب العمود في الديلي ميرور أن مجلس بلدة بورتاداون (إيرلندا الشمالية) منع كتب وودهاوس من المكتبات العامة. وقال السيد إدوارد مككان إن برنامج كاساندرا حسم المسألة، وأن وودهاوس لم يعد مضحكاً بعد الآن". الديلي ميرور.

بالإضافة إلى ذلك، منعت محطة البي بي سي أشعار وودهاوس الغنائية من الهواء، وظلت تفعل بعد سنتين من ذلك، وكانت هناك مطالب في البرلمان على ضرورة محاكمة وود هاوس كخائن حتى وقت متأخر في كانون أول ديسمبر كانون الأول ١٩٤٤.

هناك قول قديم يقول إنك لو رميت ما يكفي من الوحل، فسيلصق بعضه، والتصق الوحل بوودهاوس بطريقة غريبة نوعاً ما. تُرك انطباع أن أحاديث وودهاوس (التي لا يتذكر أحد ما قاله فيها) لم تكشفه كخائن فقط، وإنما كمتعاطف أيديولوجي مع الفاشية. وفي ذلك الوقت زعمت عدة رسائل للصحافة باكتشاف "ميول فاشية" في كتبه، وتكررت التهمة منذ ذلك الوقت.

سوف أحاول أن أحلل الجو العقلي لتلك الكتب في الحال، لكن المهم أن ندرك أن الأحداث في عام ١٩٤١ لم تدن وودهاوس بأي شيء أسوأ من الغباء. السؤال المشوق فعلاً لماذا وكيف أمكنه أن يكون بهذا الغباء. حين قابل فلانيري وودهاوس (الذي أطلق سراحه لكنه ظل تحت الحراسة) في فندق ادلون في حزيران ١٩٤١ رأى فوراً أنه كان يتعامل مع بريء سياسي، وعند تحضيره للمقابلة الإذاعية اضطر إلى أن يحذره ضد التفوه بتعليقات غير ملائمة جداً كانت إحداها التلميح الضمني بعدائه للروس. وهكذا مرت عبارة "إن ربحت إنكلترا أم لم تربح" وانتشرت. بعد المقابلة بقليل أخبره وودهاوس أنه سيبث برنامجاً على الراديو النازي، وكان من الواضح أنه لم يدرك أن لهذا الفعل أي معنى خاص. (فلانيري تعليقات [مهمة إلى برلين] بقلم هاري دبليو فلانيري).

في هذا الوقت كانت مكيدة وودهاوس واضحة، وكانت واحدة من أفضل أعمال الدعاية النازية عن الحرب، المكيدة الأولى مع مظهر إنساني.... ذهب بلاك مساعد غوبلز إلى المعسكر قرب جلبويتز ليرى وودهاوس، فوجد المؤلف بلا إحساس سياسي تماماً وليس لديه أي

فكرة، فاقترح على وودهاوس أنه سيطلق سراحه من المعتقل مقابل سلسلة من البرامج الإذاعية يكتبها ودهاوس عن تجاربه، ووعد أنها لن تخضع للرقابة، وأنه سيلقيها على الهواء بنفســه. بطرح هذا المقترح أظهر بلاك أنه عرف رجله وعرف أن وودهاوس كان يسخر من الإنكليز في كل قصصه، ولن يكتب بأية طريقة أخرى، وأنه مازال يعيش في الفترة التي كتب عنها، وليس لديه أي تصور لما تعنيه النازية، فكان وودهاوس بيرقي ووستر الخاص به.

اللافت أن الصفقة الحقيقية بين وودهاوس وبلاك ليست سوى ترجمة لفلانيري. ربما كان الترتيب أقل وضوحاً وتحديداً، وللحكم من البرامج نفسها كانت فكرة ودهاوس الأساسية من عمل هذه النشرات الإذاعية أن تبقيه على اتصال مع جمهوره. ومن الواضح أن أقواله لم تكن عبارات بائع وطن من نموذج إيزرا باوند أو جون اميري، وليست لشخص قادر على فهم طبيعة بيع الأوطان. يبدو أن فلانيري حذر وودهاوس من بث البرنامج، لكن ليس بشكل قوي وأضاف أن وودهاوس (رغم أنه أشار إلى نفسه في أحد البرامج كإنكليزي) بدا يعتبر نفسه مواطناً أمريكياً. لقد فكر بالتجنيس، لكنه لم يملأ الأوراق الضرورية أبداً. حتى إنه استخدم مع فلانيري عبارة "نحن لسنا في حالة حرب مع ألمانيا".

أمامي الآن بيان بأعمال بي جي وودهاوس المطبوعة التي تقترب من الخمسين كتاباً، لكنها غير مكتملة بالتأكيد. ولكي أكون صادقاً ينبغي أن أعترف أن هناك كتباً كثيرة بقلم وودهاوس ربما الربع أو الثلث - لم اقرأها. ليس من السهل في الحقيقة أن تقرأ كل نتاج كاتب مشهور تنشر أعماله عادة في طبعات رخيصة، لكني تابعت أعماله عن كثب منذ عام ١٩١١ حين كنت في الثامنة من عمري، وأنا مطلع بشكل جيد على جوها العقلي الغريب - جو لم يبق تماماً بلا تغيير طبعاً، لكنه يظهر تبدلاً بسيطاً منذ عام ١٩٢٥. في المقطع المأخوذ من كتاب فلانيري الذي اقتبسته آنفاً، هناك ملاحظتان تلفتان انتباه أي قارئ يقظ لوودهاوس. الأولى هي حقيقة أن وودهاوس "مازال يعيش في الفترة التي كتب عنها" والأخرى أن وزارة الدعاية النازية استغلته لأنه "كان يسخر من الإنكليز". الحقيقة الثانية مبنية على اعتقاد خاطئ، سأعود إليه في الحال، لكن تعليق فلانيري الآخر صحيح تماماً ويحتوي فيه جزء من معلومات عن سلوك وودهاوس.

الشيء الذي ينساه الناس غالباً عن روايات بي جي وودهاوس، هو منذ متى كتبت رواياته الأكثر شهرة. نحن نراه في شعور ما يصور سخافة عشرينات القرن العشرين وثلاثيناته، لكن في الحقيقة المشاهد والشخصيات التي تذكر به أكثر، ظهرت كلها قبل عام ١٩٢٥ فقد ظهرت شخصية بيسميث أول مرة في ١٩٠٩ بعد أن تنبأت بها شخصيات أخرى في قصصه المدرسية المبكرة، وقُدمت قلعة بلاندينغز مع باكستر وايرل ايمزورث كلاهما في فترة الدراسة الجامعية في ١٩١٥ وبدأت دائرة جيفيز – ووستر في ١٩١٩ وظهر جيفيز ووستر بشكل مختصر قبل ذلك. ظهر اوكريدج في عام ١٩٢٤. حين يتفحص المرء قائمة كتب وودهاوس من عام ١٩٠٢ فصاعداً يلاحظ ثلاث فترات مميزة جداً. الأولى فترة القصص المدرسية وتشمل كتباً مثل المضرب الذهبي واللاعبون المحترفون، إلخ، وكانت ذروتها في مايك في عام ١٩٠٩. نُشرت بيسميث في المدينة في السنة التالية، وتنتمي إلى هذا الصنف، رغم أنها لا تهتم مباشرة في الحياة المدرسية. الفترة الثانية هي الفترة الأمريكية. بدا وودهاوس يعيش في الولايات المتحدة من ١٩١٣ إلى ١٩٢٠ وأظهر علامات تأمركه في المصطلحات ووجهات النظر، فبعض القصص في الرجل الذي بقدمين يساريتين (١٩١٧) تبدو متأثرة بـ أو هنري، وتضمنت كتب أخرى كتبت بنفس الوقت تقريباً مصطلحات أمريكية (مثل "هاي بول" بدلًا من "ويسكي وصودا" التي لا يستخدمها الرجل الإنكليزي شخصياً عادة. ورغم ذلك كل كتب تلك الفترة – بسميث والصحفي والأحمق الصغير وحماقات ارتشي وجيم البيكاديلي وغيرها – تعتمد في جوهرها على التباين بين أنماط السلوك الإنكليزية والأمريكية. تظهر الشخصية الإنكليزية في بيئة أمريكية أو العكس: هناك عدد محدد من القصص الإنكليزية الصرفة، لكن قلما توجد قصص أمريكية صرفة. الفترة الثالثة يمكن تسميتها على نحو ملائم بفترة البيوت الريفية. قبل بداية عشرينات القرن العشرين يفترض أن وودهاوس أحرز دخلاً ضخماً وارتفعت المكانة الاجتماعية لشخصياته بناء عليه، لكن قصص اوكريدج تشكل استثناء ناقصاً. البيئة النموذجية قصر ريفي أو شقة عازب مترف أو نادي غولف مكلف جداً. رياضية طالب المدرسة في الكتب السابقة تخبو وتخلي كرة القدم والكريكيت المجال للغولف، وأصبح عنصر الهزل والسخرية ملحوظاً أكثر. لا شك أن الكثير من الكتب التالية كبرق الصيف مثلاً كانت عبارة عن كوميديا (ملهاة) خفيفة أكثر من كونها هزلية صرفة، لكن

المحاولات العرضية في الجدية الأخلاقية التي توجد في بيسميث والصحفي والأحمق الصغير ومجيء بيل والرجل ذو القدمين اليساريتين وبعض من القصص المدرسية، لم تعد تظهر، وتحول مايك جاكسون إلى بيرتي ووستر. لكن هذا ليس تحولاً مفاجئاً، فإن أحد الأشياء الأكثر بروزاً عن وودهاوس، هو افتقاره إلى التطور، فكتب مثل المضرب الذهبي وحكايا القديس أوستن التي كتبت في السنوات الأولى من هذا القرن، لها جوها المألوف مسبقاً. يستطيع المرء أن يرى كم وكيف أصبح أسلوبه في كتبه التالية، من حقيقة أنه استمر في كتابة قصص عن الحياة الإنكليزية رغم السنوات الست عشرة التي عاشها في هوليوود ولاتوكيت قبل اعتقاله.

مايك الكتاب الذي يصعب الحصول عليه في شكله غير المختصر، يفترض أنه واحد من أفضل قصص المدارس الخفيفة في اللغة الإنكليزية. لكن رغم أحداثه الهزلية جداً هو بكل الأشكال هجاء لنظام المدارس العامة، والمضرب الذهبي واللاعبون المحترفون..إلخ أقل من هذا حتى. تعلم وودهاوس في دولويتش، ثم عمل بعد ذلك في بنك، ودخل عالم الرواية بالتدريج عن طريق الصحافة الرخيصة جداً. من الواضح أنه ظل لسنوات كثيرة "مثبتاً" في مدرسته القديمة واشمأز من الوظيفة غير الرمانسية وبيئة أسفل الطبقة الوسطى التي وجد نفسه فيها. في القصص السابقة عن الحياة في المدارس العامة "الفتنة" (المباريات المدرسية تدخين السجائر والشاي حول موقد الدراسة إلخ) بُنيت بشكل مكثف و"العب اللعبة: بلي ذا غيم" على مجموعة مبادئ أخلاقية، قُبلت بدون تحفظات كثيرة. رايكان مدرسة وودهاوس الخيالية الخاصة، أنموذج أكثر تطوراً من دولويتش، ويحصل المرء على انطباع بين المضرب الذهبي (١٩٠٤) ومايك (١٩٠٨) أن رايكاين نفسها أصبحت مكلفة أكثر وانتقلت إلى مكان أبعد عن لندن. نفسياً الكتاب المنور الأكبر من كتب وودهاوس في فترته الأولى، هو بيسميث في المدينة. يخسر جاكسون (والد مايك) نقوده فجأة، ويُقحم مايك، مثل وودهاوس، نفسه في وظيفة غير مجزية في بنك وهو في عمر الثامنة عشرة. بيسميث يُوظف بالمثل لكن ليس لضرورة مالية. هذا الكتاب والصحفي (١٩١٥) كلاهما غير عاديين في كونهما يعرضان قدراً محدداً من الوعي السياسي وودهاوس. يختار بيسميث في هذه المرحلة أن يلقب نفسه بالاشتراكي – برأيه، وهذا يعني بلا شك في رأي وودهاوس

ليس أكثر من تجاهل الفروق الطبقية - وفي إحدى المناسبات يحضر الصبيان اجتماعاً في الهواء الطلق في مجلس عموم كلافام، ويذهبان إلى البيت لشرب الشاي مع خطيب اشتراكي كهل يُوصف بيته الأرستقراطي البالي ببعض الدقة. لكن اللافت الأهم في الكتاب هو عجز مايك أن يفطم نفسه من جو المدرسة، فهو يباشر وظيفته دون التظاهر بالحماس، ولم تكن رغبته الرئيسية كما قد يتوقع المرء إيجاد وظيفة أكثر إمتاعاً وفائدة، وإنما لعب الكريكت فقط. حين يُجبر أن يجد لنفسه مسكناً، يختار الاستقرار في دولويتش، لأنه هناك يكون قريباً من مدرسة ويستطيع سماع الصوت السائغ لضرب الكرة بالمضرب. نصل إلى ذروة الكتاب حين يحصل مايك على فرصة للعب في مباراة ريفية يخرج من وظيفته ويتركها لكي يفعل ذلك. المغزى أن وودهاوس يتعاطف هنا مع مايك: في الحقيقة هو يتطابق معه ومن الواضح أن مايك يحمل نفس القرابة لوودهاوس كما جوليان سوريل إلى ستاندال. لكنه خلق أبطالاً آخرين كثيرين متشابهين في الجوهر. خلال كتب هذه الفترة والفترة التالية، مرت سلسلة من الشبان، كان لعب الألعاب والحفاظ على اللياقة البدنية لهم مهنة حياتية كافية. كان وودهاوس عاجزاً عن تخيل مهنة مرغوبة، فالشيء العظيم امتلاك المال الخاص بك، وفي حال الفشل إيجاد وظيفة لا تقوم بأي عمل فيها، فبطل شيء نضر وجديد (١٩١٥) يفر من صحافة الطبقة الدنيا ليصبح مدرب تربية بدنية لمليونير نكد وكئيب: هذا اعتبر كخطوة للأعلى، أخلاقياً ومالياً أيضاً.

في كتب الفترة الثالثة، ليست هناك نرجسية أو فصول إضافية، لكن المغزى الضمني والخلفية الاجتماعية تبدلت أقل بكثير مما تبدو من النظرة الأولى. لو قارن المرء بيرتي ووستر مع مايك أو حتى مع الطلاب المتقدمين الغليظين في أقدم المدارس القصصية، سيرى أن الفرق الوحيد الحقيقي بينهما أن بيرتي كان أغنى وأكسل. مثله العليا نفس مثلهم تقريباً، لكنه يفشل في الارتقاء إلى مستواهم. ارنشي موفام في **حماقات ارنشي** (١٩٢١)، أنموذج وسط بين بيرتي والأبطال الأوائل: هو أحمق وعنيد لكنه صادق وطيب القلب ورياضي وشجاع أيضاً. من البداية إلى النهاية يعتبر وودهاوس منظومة السلوك في المدارس الخاصة أمراً مسلماً به مع اختلاف في فترته المتأخرة الأكثر صقلاً، إذ فضل أن يظهر شخصياته تنتهكها أو ترتقي لمستواها رغماً عن إراداتها:

"بيرتي! أنت لن تخذل صديقاً أليس كذلك؟".

"نعم سأفعل".

"لكننا كنا ندرس في مدرسة معاً يا بيرتي".

"لا يهمني هذا".

"المدرسة القديمة يا بيرتي، المدرسة القديمة".

"أوه - حسناً اللعنة!".

بيرتي، دون كيشوت بليد، ليس لديه رغبة في مبارزة طواحين الهواء، لكنه لم يفكر برفض أن يفعل ذلك حين يناديه الشرف. كان أغلب الناس الذين أعدهم وودهاوس ليكونوا شخصيات متعاطفة طفيليين وبعضهم معتوهين خالصين والقليل جداً منهم يمكن وصفهم بفاسقين. حتى اوكريدج هو شخص حالم أكثر من كونه محتالاً صريحاً. الأشد فسقاً أو غير الأخلاقي من شخصيات وودهاوس جيفيس الذي يقوم بدور فويل، الشيء المغاير لنبل بريتي ووستر، وربما يرمز إلى الاعتقاد الإنكليزي الواسع الانتشار أن الذكاء والتجرد من المبادئ الأخلاقية هما نفس الشيء. يمكن رؤية مدى تقيد وودهاوس بالمبادئ الأخلاقية التقليدية في كتبه في خلوها من أي نوع من الدعابة الجنسية. هذه تضحية هائلة بالنسبة إلى كاتب هزلي، فليس هناك نكات قذرة فقط، بل ليس هناك أوضاع تعرض الشبهة والفضيحة: تجنب حافز القرون على الجبهة تماماً تقريباً. أغلب الكتب ذات الطول الطبيعي طبعاً تحتوي على "الحب كعنصر تشويق" لكن على مستوى الملهاة الخفيفة: علاقة الحب بتعقيداتها والمشاهد المسرة تستمر وتستمر لكن كما يقول المثل "لا شيء يحدث". من الهام أن وودهاوس كاتب مسرحيات هزلية بطبيعته، استطاع أن يتعاون في أكثر من مرة مع إيان الكاتب الهزلي الجدي والمناصر (راجع بيب) لتقاليد الرجل الإنكليزي المحتشم بأسخف أشكالها.

في شيء نضر وجديد اكتشف وودهاوس الإمكانيات الكوميدية للطبقة الأرستقراطية الإنكليزية وإرث من السخافات، لكنهم لم يكونوا في الواقع بارونات وضيعين وايرلات وأمثالهم الذين يتلونهم ما عدا قلة من الأمثلة. وكان لهذا أثر غريب نوعاً ما وسبب لاعتبار وودهاوس ناقداً حاداً للمجتمع الإنكليزي خارج إنكلترا. ولهذا كان تصريح فلانيري أن

وودهاوس "سخر من الإنكليز" هو الانطباع الذي تركه وودهاوس على القارئ الألماني أو الأمريكي. بعد بثه الإذاعي من برلين بوقت، كنت أناقش براجمه مع شاب هندي وطني دافع عن وودهاوس بحرارة، واعتبر ذهاب وودهاوس إلى العدو شيئاً صحيحاً من وجهة نظره، لكن الذي أمتعني أنه اعتبر وودهاوس كاتباً معادياً لبريطانيا، قام بعمل جيد حين أظهر الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية بألوانها الحقيقية.هذا خطأ من الصعب على شخص إنكليزي أن يرتكبه ومثال جيد على الطريقة التي تفقد فيها الكتب وخصوصاً الهزلية منها الظلال الرقيقة حين تصل إلى قارئ أجنبي. من الواضح أن وودهاوس ليس كاتباً معادياً لبريطانيا ولا للطبقة العليا، بل على النقيض ففي كل أعماله تلمس الغطرسة العتيقة غير الضارة، فكما يستطيع الكاثوليكي الذكي أن يرى أن تجذيف بودلير أو جيمس جويس لا يضر جدياً بالإيمان الكاثوليكي، كذلك يستطيع القارئ الإنكليزي أن يرى أن وودهاوس لا يهاجم حقيقة التراتب الاجتماعي في خلقه شخصيات مثل هيلدبراند سبنسر بوينس دو جون هانيسايد وكومبي - كرومبي وايرل دريفر الثاني عشر. وفي الواقع ليس هناك واحد احتقر الألقاب بصدق وكتب عنها هذا الكم الكبير. إن موقف وودهاوس تجاه النظام الاجتماعي الإنكليزي هو نفس موقفه تجاه منظومة المدارس الخاصة الأخلاقية - فكاهة معتدلة تغطي قبولاً غافلاً. إن ايرل ايمزويرث مضحك، إذ يفترض بالايرل أن يملك قدراً أكبر من الكرامة وأن اتكال بيرتي ووستر العاجز على جيفيز مضحك أيضاً لأن الخادم لا ينبغي أن يكون أعظم وأقوى من سيده. يمكن للقارئ الأمريكي أن يخطئ بهذين المثالين وبأمثلة أخرى مثليهما على أنهما كاريكتور عدائي لأنه يميل إلى بغض الإنكليز مسبقاً، ولأن هذه الأمثلة تتوافق مع أفكاره المسبقة عن أرستقراطية متفسخة. بيرتي ووستر بقماطه وخيزراناته رجل مسرحي إنكليزي تقليدي، لكن وودهاوس أعده ليكون شخصية متعاطفة كما يجب أن يراه أي قارئ إنكليزي. وإن خطيئة وودهاوس الحقيقية، هي أنه قدم الطبقات العليا الإنكليزية بأنهم أناس أفضل مما هم عليه في الواقع. في كل كتبه جرى تحاشي مشاكل محددة دائماً، فشبانه الأثرياء بدون استثناء تقريباً متواضعون وغير جشعين ويختلطون جيداً بالمجتمع: أسلوبهم حدده لهم بيسميث الذي احتفظ بمظهره الخارجي كفرد من الطبقة العليا وجسر الفجوة الاجتماعية بمخاطبة كل شخص بـ"رفيق".

لكن هناك نقطة هامة أخرى حول بيرتي ووستر:عتقه وقدمه. لقد تم تخيل بيرتي في عام ١٩١٧ تقريباً، لكنه ينتمي حقاً إلى فترة أسبق من ذلك. إنه "كنوت" فترة ما قبل عام ١٩١٤ الذي اشتهر في أغان مثل "جلبرت ذا فلبرت" أو "ريغي الطائش من قصر وصي العرش". هذا النوع من الحياة التي كتب عنها وودهاوس باختياره، حياة "عضو النادي" أو "رجل قرب البلدة" أو الشاب الأنيق الذي يتسكع كل الفترة الصباحية في البيكاديلي مع خيزرانة تحت ذراعه وقرنفلة في عروة سترته، لم ينجُ ويصل إلى عشرينات القرن العشرين. من الهام أن وودهاوس تمكن من نشر كتاب في عام ١٩٣٦ بعنوان شبان في أقمطة في ذلك التاريخ. لأنه من كان يرتدي أقمطة في ذلك التاريخ المحدد؟ لقد خرجت من الموضة قبل عشر سنوات. لكن "كنوت" التقليدي و"جوني البكاديلي" يجب أن يرتديا القماط، كما يجب على الممثل الإيمائي الصيني ارتداء ذيل الخنزير(ضفيرة تتدلى من خلف رأسه). الكاتب الهزلي غير ملزم بالتقيد بتاريخ محدد، وبعد أن اكتشف عرقاً ذهبياً أو عرقين (نجح) استمر وودهاوس في استغلالها بانتظام، فهذا أسهل عليه بلا شك، فهو لم يطأ أرض إنكلترا خلال السنوات الست عشرة التي سبقت اعتقاله، وصورته عن المجتمع الإنكليزي تشكلت قبل عام ١٩١٤ وكانت صورة ساذجة وتقليدية ومداهنة، ولم يتأمرك بشكل صادق وحقيقي أبداً كذلك. كما بينت سابقاً أن الأمركة العفوية ظهرت في كتب الفترة الوسطى، لكن وودهاوس بقي إنكليزيا تماماً، ولكنه وجد العامية الأمريكية بدعة مضحكة وصادمة قليلاً، فأحب أن يقحم عبارة عامية أو حادثة فجة في وسط إنكليزية شارع وردور ("بتأوه أجوف استقرض اوكريدج خمسة شلنات مني وخرج إلى قلب الظلام") وعبارات مثل "قطعة من الجبن" أو "لكمه على الرأس" تخدم غرضه، لكن الخدعة طُورت قبل أن يكون له أي اتصالات أمريكية، واستخدامه للاقتباسات المحرفة وسيلة شائعة بين الكتاب الإنكليز تعود في قدمها إلى فيلدينغ. كما بين السيد جون هيوارد أن وودهاوس يدين بالكثير من معرفته بالأدب الإنكليزي وخصوصاً شكسبير. لم تستهدف كتبه كما هو جلي جمهور القراء الرفيع الثقافة، وإنما جمهور تعلم وتثقف عبر الخطوط التقليدية، فمثلاً حين وصف شخصاً ما يطلق "نوع الحسرة التي أطلقها بروميثيوس حين خر عليه النسر من أجل غدائه" كان

يفترض بقارئه أن يعرف شيئاً عن الأساطير الإغريقية. إن الكتاب الذين أعجب بهم في أيامه الأولى باري باين وجيروم كي جيروم ودبليو دبليو جاكويز وكيبلينغ واف انستي، وظل أقرب إليهم منه إلى الكتاب الأمريكيين الهزليين سريعي التنقل مثل رينغ لاندر أو دامون رانيون. في مقابلته الإذاعية مع فلانيري تساءل وودهاوس إن كان "نوع الناس ونوع إنكلترا الذين أكتب عنهم سيعيشون بعد الحرب" غير مدرك أنهم كانوا أشباحاً مسبقاً. لقد قال فلانيري "إنه لايزال يعيش في الفترة التي كتب عنها"، وربما كان يقصد عشرينات القرن العشرين. لكن الفترة كانت في الحقيقة العصر الإدواردي بيرتي، ووستر قد قتل في عام ١٩١٥ إن كان له وجود.

إن كان تحليلي لعقلية وودهاوس مقبولاً، فستصبح فكرة مساعدته المتعمدة للنازية في ١٩٤١ مهزوزة وسخيفة حتى. ربما أُغري أن يذيع برنامجاً مقابل وعد بإطلاق سراح مبكر (كان إطلاق سراحه مستحقاً بعد بضعة أشهر عند بلوغه عيد مولده الستين) لكنه لم يدرك أن ما فعله سيضر بالمصالح البريطانية. كما حاولت أن أظهر، موقفه الأخلاقي ظل موقف تلميذ مدرسة خاصة وبناء على المبادئ الأخلاقية للمدرسة الخاصة، تعتبر الخيانة في زمن الحرب واحدة من أكبر الخطايا التي لا تغتفر. لكن لماذا لم يفهم أن ما فعله سيكون نصراً دعائياً كبيراً للألمان وسيجلب سيلاً جارفاً من الاستهجان على رأسه. للإجابة على هذا السؤال يجب أن نأخذ في اعتبارنا شيئين اثنين. الأول افتقار وودهاوس التام - بقدر ما يحكم المرء من أعماله المطبوعة - للوعي السياسي. إن الكلام عن "ميول نازية" في أعماله عبارة عن هراء. ليس هناك أي ميول بعد ١٩١٨ إطلاقاً. في كل أعماله هناك وعي مقلقل محدد لمشكلة الفروق الطبقية تبعثرت خلاله في أوقات مختلفة إشارات جاهلة لكنها ليست معادية للاشتراكية. في قلب أحمق (١٩٢٦) هناك قصة سخيفة نوعاً ما عن روائي روسي ألهمه الصراع العصبوي المتأجج آنذاك في الاتحاد السوفييتي، لكن الإشارات فيه إلى النظام السوفييتي تافهة تماماً وغير معادية بشكل ملحوظ بأخذ تاريخها بعين الاعتبار. ذلك هو مدى الوعي السياسي لوودهاوس بقدر ما كُشف من خلال كتاباته، فهو لم يستخدم كلمة "فاشية" أو "نازية" في أي مكان حسب معرفتي. في دوائر الجناح اليساري وفي الدوائر "المتنورة" على كافة أنواعها في الحقيقة يُعتبر إذاعة برنامج على الراديو النازي أو أي تعامل مع النازيين عملاً صادماً قبل

الحرب كما هو في أثنائها. لكن تلك عادة عقلية طُورت أثناء عقد من الصراع الأيديولوجي ضد الفاشية، ويجب أن نتذكر أن الجزء الأكبر من الشعب الإنكليزي بقي مخدراً عن ذلك الصراع حتى عام ١٩٤٠ ومرت إثيوبيا وإسبانيا والصين وتشيكسلوفاكيا - سلسلة طويلة من الجرائم والاعتداءات وانزلقت ببساطة دون أن يعيها أو لاحظها بشكل مبهم على أنها نزاعات بين أجانب و"ليست من شأننا". يستطيع المرء قياس الجهل العام من حقيقة أن الرجل الإنكليزي العادي أعتقد أن "الفاشية" شيء إيطالي حصراً، وارتبك حين طبقت الكلمة على ألمانيا. وليس هناك ما يوحي في كتابات وودهاوس أنه كان على اطلاع أفضل أو أنه كان مهتماً بالسياسة أكثر من عموم قرائه.

الشيء الآخر الذي يجب تذكره هو أن وودهاوس صدف أن وقع في الأسر في اللحظة التي وصلت فيها الحرب طورها اليائس. نحن ننسى هذه الأشياء الآن، لكن حتى ذلك الوقت كانت المشاعر تجاه الحرب فاترة بشكل ملحوظ، ولم يكن هناك أي قتال يذكر، وكانت حكومة تشامبرلاين غير محبوبة، وكان المعلقون البارزون على الشؤون العامة يلمحون إلى وجوب تسوية سلمية بأسرع ما يمكن، وكانت النقابات الحرفية وفروع حزب العمل في كل أرجاء البلاد تمرر قرارات مضادة للحرب. فيما بعد تبدلت الأشياء طبعاً. الجيش تحرر بصعوبة من دونكيرك، وفرنسا انهارت، فبقيت بريطانيا لوحدها، وأمطرت لندن بالقنابل، وصرح غوبلز أن بريطانيا يجب أن "تضعف إلى درجة الانحلال والفقر". في منتصف عام ١٩٤١ عرف الشعب الإنكليزي ما الذي عليهم مواجهته وباتت المشاعر أعنف مما سبق. لكن وودهاوس قضى السنوات الفاصلة في الاعتقال، ويبدو أن معتقليه عاملوه بشكل حسن ومعقول. لقد فوّت نقطة التحول في الحرب، وظل يتفاعل بعبارات عام ١٩٣٩ ولم يكن الوحيد في هذا. ففي مناسبات كثيرة في هذا الوقت تقريباً أحضر الألمان جنوداً بريطانيين أسرى إلى الميكرفون وأدلى بعضهم بملاحظات غير لبقة على الأقل كملاحظات وودهاوس، لكنهم لم يلفتوا انتباه أحد وحتى البائع لوطنه الصريح مثل جون امبري أثار فيما بعد نقمة وسخطاً أقل بكثير مما فعله وودهاوس.

لكن لماذا؟ لماذا أثارت بضع ملاحظات من روائي كهل مثل هذا الاحتجاج العنيف؟ يجب على المرء البحث عن الجواب الصحيح وسط الشروط والمتطلبات القذرة للحرب الدعائية.

هناك نقطة واحدة هامة من غير ريب حول برامج وودهاوس الإذاعية - تاريخها. أطلق سراح وودهاوس قبل يومين أو ثلاثة من غزو الاتحاد السوفييتي، وفي وقت عرفت فيه الرتب العالية من الحزب النازي أن الغزو بات وشيكاً. كان من الضروري أن يبعدوا أمريكا عن الحرب إلى أطول فترة ممكنة، وفي هذا الوقت تقريباً أصبح موقف الألمان من الولايات المتحدة الأمريكية استرضائياً أكثر مما كان عليه من قبل. لم يأمل الألمان بقدرتهم على دحر روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة، ولكن إن استطاعوا سحق روسيا بسرعة، ومن المفترض أنهم توقعوا أن يفعلوا هذا - فربما لا يتدخل الأمريكيون أبداً. لقد كان إطلاق سراح وودهاوس مجرد نقلة ثانوية ولكنها لم تكن رشوة سيئة رموها للانعزاليين الأمريكيين، فقد كان مشهوراً في الولايات المتحدة، وكان كما حسب الألمان - محبوباً من الجمهور الكاره للإنكليز كرسام كاريكاتيري سخر من الإنكليزي الأحمق المثير للضحك بقماطيه ونظارته ذات الزجاجة الواحدة. يمكن الوثوق بأنه سيضر بالهيبة البريطانية بطريقة أو بأخرى على الميكروفون، وأن إطلاق سراحه سيبرهن أن الألمان رفاق طيبون ويعرفون كيف يعاملون أعداءهم بشهامة. ذلك هو حسابهم كما يفترض، لكن حقيقة أن وودهاوس لم يبث سوى أسبوع واحد، توحي أنه لم يرتقِ إلى مستوى توقعاتهم.

لكن كانت تعمل حسابات مماثلة، لكنها معاكسة في الطرف البريطاني، ففي السنتين التاليتين لدونكيرك، اعتمدت المعنويات البريطانية أساساً على الشعور بأن هذه الحرب لم تكن حرباً من أجل الديمقراطية، وإنما حرب يجب أن ينتصر فيها الشعب العادي بجهوده الخاصة به، وفقدت الطبقات العليا مصداقيتها بسبب سياسة التهدئة والاسترضاء وكوارث عام ١٩٤٠ وبسبب عملية مساواة اجتماعية بدت تحدث. اقترنت الوطنية وأفكار اليسار العاطفية في العقل الشعبي، وعمل صحفيون عديدون متمكنون على شد هذا الترافق وتمتينه، وكانت برامج بريستلي الإذاعية ومقالات "كاساندرا" في الديلي ميرور نماذج جيدة للدعاية الديماغوجية التي ازدهرت في ذلك الوقت. في هذا الجو مثل وودهاوس الصبي المثالي للجلد. لأن الشعور العام رأى أن الأغنياء خونة ووودهاوس - كما أظهر - "كاساندرا" بنشاط من برنامجه الإذاعي - كان رجلاً غنياً لكنه كان من نوع الأغنياء الذين يمكن مهاجمتهم بحصانة ودون تعريض التركيبة الاجتماعية لأي خطر. إن شجب وودهاوس ليس مثل شجب

بيفربروك مثلاً. فهو مجرد روائي مهما كان ماله المكسوب وليس من الطبقة المالكة. حتى لو قارب دخله الـ ٥٠٠٠٠ جنيه في السنة، فهو لا يملك سوى الشبه الخارجي للمليونير. إنه دخيل محظوظ رماه حظه في الثروة - عادة ثروة مؤقتة - مثل الفائز بسباق جري كالكوتا، وبناء عليه فقد وفرت حماقة وودهاوس ثغرة دعائية جيدة، وكانت فرصة لـ"فضح" طفيلي ثري دون لفت الانتباه إلى أي طفيلي مهم فعلياً.

كان الغضب مما فعله وودهاوس مبرراً في الظروف اليائسة في حينها، لكن الاستمرار في شجبه بعد ثلاث أو أربع سنوات من ذلك - وأكثر، يترك انطباعاً لا يغتفر - بأنه قام بذلك بخيانة متعمدة. هناك بضعة أشياء في هذه الحرب مقرفة أخلاقياً أكثر من المطاردة الحالية للخونة وبائعي الأوطان، وفي أفضل أحوالها معاقبة الجاني بالجاني. في فرنسا جرت مطاردة كل أنواع الواشين الصغار - موظفو الشرطة والصحافيون.. والنسوة اللواتي نمن مع الجنود الألمان - وقبض عليهن، بينما نجا الواشون الكبار بلا استثناء تقريباً، وفي إنكلترا تشدق المحافظون الذين كانوا يسترضون العدو في عام ١٩٣٨ والشيوعيون الذين كانوا يؤيدونه في عام ١٩٤٠ بأشرس الخطب ضد بائعي الوطن. عملت جاهداً كي أبين كيف أصبح التعيس وودهاوس الذي بقي عقلياً في العصر الإدواردي بفضل النجاح والاغتراب فقط الجيفة الفاسدة في تجربة دعائية، وأقترح أن الوقت قد حان لاعتبار الحادث مقفلاً. لو أن السلطات الأمريكية اعتقلت إيرزا باوند وأعدمته رمياً بالرصاص، لتوطدت سمعته نتيجة ذلك كشاعر لمئات السنين؛ وحتى في حالة وودهاوس لو دفعناه للجوء إلى الولايات المتحدة وجردناه من جنسيته كمواطن بريطاني، فإننا سنخجل جداً من أنفسنا في النهاية. في الوقت الحالي، إن كنا نريد فعلاً أن نعاقب الأشخاص الذين أضعفوا المعنويات الوطنية في ظروف حرجة، فهناك متهمون آخرون أقرب في الوطن وجديرون أكثر بالمطاردة.

جيمس بيرنهام والثورة الإدارية

أحدث كتاب جيمس بيرنهام "الثورة الإدارية" بلبلة ضخمة في الولايات المتحدة وفي هذه البلاد عند نشره، ونوقشت فرضيته كثيراً لدرجة لم تعد هناك ضرورة لعرضها، لذلك سأوجزها بقدر ما أستطيع:

تختفي الرأسمالية لكنها لن تستبدل بالاشتراكية، وما يظهر الآن هو نوع من المجتمع المركز المخطط الذي لن يكون رأسمالياً ولا ديمقراطياً بأي معنى للكلمة، كما سيكون حكام هذا المجتمع هم الأشخاص الذين يسيطرون على أدوات الإنتاج - المدراء التجاريون والتقنيون والبيروقراطيون والجنود الذين كومهم بيرنهام معاً تحت اسم "مدراء" فهؤلاء الناس سيجتثون الطبقة الرأسمالية القديمة ويسحقون الطبقة العاملة وينظمون مجتمعاً تبقى فيه كل السلطة والامتيازات الاقتصادية في أيديهم. ستلغى حقوق الملكية الخاصة، لكن لن يتم ترسيخ الملكية العامة. لن تتألف مجتمعات المدراء من خليط من الدول المستقلة، بل من دول عظمى تتجمع حول المراكز الصناعية الرئيسية في أوروبا وآسيا وأمريكا، وستحارب هذه الدول بعضها البعض على امتلاك الأقسام الباقية من العالم التي لم يُستولِ عليها بعد، لكنها لن تستطيع دحر بعضها بعضها نهائياً على الأرجح. داخلياً، سيكون كل مجتمع تراتبياً في قمته أرستقراطي الموهبة وفي قاعه جماهير أنصاف العبيد.

في كتابه التالي "الميكيافليون" يتوسع ويعدل تصريحه الأصلي. إن القسم الأكبر من الكتاب عرض لنظريات ميكيافلي وأتباعه الحديثين موسكا وميتشل وباريتو: بتبرير ملتبس يضيف بيرنهام إلى هؤلاء الكاتب النقابي جورجس سوريل. كل ما اهتم به بيرنهام أن يبين بأن المجتمع الديمقراطي لم يوجد أبداً ولن يوجد بقدر ما نرى أيضاً، وأن المجتمع أوليغاركي بطبيعته وتستند قوة الأوليغاركية على القوة والخداع. لا ينكر بيرنهام أن الدوافع "الخيرة" قد تعمل وتؤثر في الحياة الخاصة، لكنه يصر على أن السياسة صراع من أجل السلطة ولا شيء سواه، وأن كل التغيرات التاريخية تنتهي في استبدال طبقة حاكمة بأخرى، وكل الكلام عن الديمقراطية والحرية والمساواة والأخوة وكل الحركات الثورية وكل الرؤى الطوباوية أو

"المجتمع اللاطبقي" أو "مملكة الرب على الأرض" عبارة عن دجل (ليس بالضرورة دجل متعمد) يغطي أطماع طبقة جديدة تشق طريقها نحو السلطة. فقد كان البيورتان الإنكليز واليعاقبة والبلاشفة مجرد باحثين عن السلطة باستغلال آمال الجماهير للفوز بمركز متميز لأنفسهم. يمكن الظفر بالسلطة بدون عنف أحياناً، لكنها تستحيل بدون خداع، إذ من الضروري استغلال الجماهير التي لن تتعاون إن عرفت أنها تخدم أغراض أقلية ما، ففي كل صراع ثوري عظيم تُقاد الجماهير بواسطة أحلام مبهمة عن الأخوة الإنسانية، وبعد أن ترسخ الطبقة الحاكمة الجديدة سلطتها تعيد تلك الجماهير إلى العبودية بالقوة. هذا هو التاريخ السياسي كله كما يراه بيرنهام.

يتخلى الكتاب الثاني عن سابقه الأول في تأكيده بأن العملية برمتها يمكن تفسيرها أخلاقياً إلى حد ما، لو ووجهت الحقائق بصدق أكبر. الميكيافيليون عنوان فرعي من كتابه المدافعين عن الحرية. علم ميكيافيلي وأتباعه أن آداب السلوك والاحتشام غير موجود في السياسة ببساطة، وبهذا تمكنوا من إدارة القضايا السياسية بذكاء أكبر وجور أقل. إن الطبقة الحاكمة التي تدرك أن هدفها الحقيقي هو البقاء في السلطة، تدرك أيضاً أن احتمال نجاحها، سيكون أكبر لو نجحت في خدمة الصالح العام، ويمكن أن تتفادى التيبس والتحول إلى أرستقراطية وراثية. يضع بيرنهام تأكيداً أكبر على نظرية باريتو في "تداول النخب". إن أرادت الطبقة الحاكمة البقاء في السلطة، يجب عليها القبول باستمرار بأعضاء جدد مناسبين من الأدنى، وبذلك يكون أبرع الرجال في القمة دائماً، ويمنع تشكل طبقة جديدة من الناقمين المتعطشين للسلطة من الوجود، وهذا مرجح حدوثه، كما يرى بيرنهام، في مجتمع يحتفظ بعادات ديمقراطية، أي، يسمح للمعارضة وهيئات أخرى محددة مثل الصحافة والنقابات العمالية بالحفاظ على استقلالها الذاتي. هنا يناقض بيرنهام من غير ريب رأيه السابق. في كتابه الثورة الإدارية الذي كتب في عام ١٩٤٠ اعتبر كشيء بديهي أن ألمانيا "الإدارية" في كل الطرق أكثر كفاءة من الديمقراطية الرأسمالية كفرنسا وبريطانيا مثلاً. وفي الكتاب الثاني الذي كتب في عام ١٩٤٢ يعترف بيرنهام أن الألمان كانوا قادرين على تجنب بعض أخطائهم الاستراتيجية لو أنهم سمحوا بحرية التعبير. لكن في كل الأحوال لم تُهجر النظرية الرئيسية. الرأسمالية محكومة بالهلاك والاشتراكية حلم. لو نفهم المهم لاستطعنا توجيه مسار الثورة الإدارية بدرجة ما،

لكن الثورة تحدث الآن شئنا أم أبينا. في كلا الكتابين، ولكن في الأول بشكل خاص هناك سمة مميزة لنكهة واضحة عن وحشية العمليات التي نوقشت وفظاعتها. رغم تكراره بأنه يبين الحقائق فقط ولا يعبر عن تفضيلاته الخاصة به، من الواضح أن بيرنهام مفتون بمشهد السلطة وأن تعاطفه كان مع ألمانيا طالما تبدو ألمانيا بمظهر الفائزة في الحرب. في مقال أحدث "وريث لينين" المنشور في بارتيزان ريفيو في بداية عام ١٩٤٥، يوحي بأن هذا التعاطف تحول إلى الاتحاد السوفييتي منذ ذلك الوقت. "وريث لينين" الذي أثار جدلاً عنيفاً في الصحافة اليسارية الأمريكية لم يطبع ثانية في إنكلترا ويجب أن أعود إليه لاحقاً.

سيتبين أن نظرية بيرنهام ليست جديدة. لقد تنبأ كثير من الكتاب بظهور مجتمع جديد ليس رأسمالياً ولا اشتراكياً، مؤسس على العبودية: لكنهم اختلفوا كلهم عن بيرنهام بأنهم لم يعتبروا أن هذا التطور حتمي. مثال جيد على ذلك دولة العبيد لهيلاري بيلوك الذي نشر في ١٩١١. دولة العبيد كتب بأسلوب ممل والعلاج الذي يقترحه (في العودة إلى الملكية الفلاحية الصغيرة) مستحيل لأسباب كثيرة. تنبأ تشيسترتون أيضاً باختفاء الديمقراطية والملكية الخاصة وصعود المجتمع العبودي الذي يمكن تسميته بالرأسمالي أو الشيوعي، وتنبأ جاك لندن في روايته العقب الحديدية ١٩٠٩ بمزايا المجتمع الفاشي، وكتب مثل كتاب ويلز النائم يستيقظ ١٩٠٠ ورواية زامايتين نحن ١٩٢٣ ورواية ألدوس هكسلي عالم جديد وشجاع ١٩٣٠ كلها وصفت عوالم خيالية تحل فيها مشاكل الرأسمالية دون الاقتراب أكثر من تحقيق الحرية والمساواة أو السعادة الحقيقية. وحديثاً أثبت كتاب مثل بيتر دروكر، وف أ فويت أن الفاشية والشيوعية نفس الشيء جوهرياً. وفي الحقيقة كان واضحاً دائماً أن الاقتصاد المخطط والمجتمع المركز مسؤول عن التطور إلى أوليغاركية أو ديكتاتورية. عجز المحافظون الأرثوذكسيون عن رؤية هذا، لأنه يشجعهم على الاعتقاد أن الاشتراكية لن تنجح وأن اختفاء الرأسمالية يعني التشوش والفوضى وكذلك عجز الاشتراكيون التقليديون عن رؤية ذلك، لأنهم تاقوا للاعتقاد أنهم سيتولون السلطة قريباً، لذلك سلموا بأن الرأسمالية ستختفي وعندها ستحل مكانها الاشتراكية. ونتيجة لذلك فشلوا في التنبؤ بظهور الفاشية أو في القيام بتكهنات صحيحة بعد ظهورها، ولاحقاً زاد غموض القضية أكثر من قبل بسبب الحاجة إلى تبرير الديكتاتورية الروسية واستبعاد

التشابه الواضح بين الشيوعية والفاشية، لكن فكرة أن الصناعوية يجب أن تنتهي في الاحتكار وأن الاحتكار يجب أن يتضمن الاستبداد، ليست فكرة مفاجئة.

يختلف بيرنهام عن أغلب المفكرين في محاولته في رسم مسار الثورة الإدارية بدقة على مستوى العالم، وفي افتراضه أن الانجراف نحو الشمولية لا يقاوم ولا يجب القتال ضده، ولكن ربما يمكن توجيهه. وفقاً لما كتبه بيرنهام في ١٩٤٠، فإن "الإداريانية" وصلت إلى تطورها التام في الاتحاد السوفيتي، وتطورت بشكل متساو تقريباً في ألمانيا، وسجلت ظهورها في الولايات المتحدة. ويصف نيو ديل أو الصفقة الجديدة (سياسة لتحسين الاقتصاد وضعها الرئيس روزفلت – المترجم) بأنها"إداروية بدائية" وأن النزعة نفسها في كل مكان أو في كل مكان تقريباً، وأن الرأسمالية المتسامحة (سياسة عدم التدخل في الاقتصاد – المترجم) تستسلم دائماً للتخطيط وتدخل الدولة، ويخسر الملاك السلطة أمام الفني والبيروقراطي. أما الاشتراكية – مثلاً أو ما كان يسمى بالاشتراكية – فلم تبد أية علامة للظهور:

يحاول بعض المدافعين تقديم عذر للماركسية بالقول إنها "لم تحظ بفرصة أبداً"، وهذا بعيد عن الحقيقة، فقد كان لدى الماركسية والأحزاب الماركسية ولايزال عشرات الفرص ففي روسيا تسلم السلطة حزب ماركسي وتخلى عن الاشتراكية ضمن وقت قصير إن لم يكن في الكلام في أثر أفعاله على الأقل، وفي أغلب الأمم الأوروبية كانت هناك أزمات اجتماعية تركت الباب مفتوحاً على مصراعيه للأحزاب الماركسية خلال الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأولى والسنوات التي تلتها مباشرة: بدون استثناء أثبتت عجزها عن الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها. لقد أدارت الأحزاب الماركسية الإصلاحية الحكومات في عدد كبير من البلدان – ألمانيا والدانمارك والنرويج والسويد والنمسا وإنكلترا وأستراليا ونيوزيلندة وإسبانيا وفرنسا – وفشلت بشكل متماثل في تقديم الاشتراكية والقيام بأية خطوة حقيقية نحو الاشتراكية. فهذه الأحزاب إما أنها أفشلت الاشتراكية أو تخلت عنها في التطبيق في كل اختبار تاريخي – وكانت كثيرة. هذه هي الحقيقة التي لا يستطيع أن يمحوها لا ألد أعداء الاشتراكية ولا أشد أصدقائها تحمساً. وهذه الحقيقة لا تبرهن وتثبت أي شيء حول الطبيعة الأخلاقية للمثل الاشتراكية، كما يعتقد البعض، وإنما كونت دليلاً لا يمكن التعامي عنه، بأن لاشتراكية لن تأتي بأية طبيعة أخلاقية.

لا ينكر بيرنهام طبعاً إمكانية تسمية الأنظمة الحاكمة الإدارية الجديدة مثل النظامين الروسي والنازي الألماني بالاشتراكية، ويقصد فقط أنها لن تكون اشتراكية بالمعنى الحرفي الذي كان سيقبل به ماركس أو لينين أو كير هاردي أو ويليام موريس أو في الواقع أي ممثل اشتراكي قبل عام ١٩٣٠ فقد كان من المفترض من الاشتراكية حتى وقت حديث، أن تتضمن ديمقراطية سياسية ومساواة اجتماعية وأممية، لكن ليس هناك أصغر علامة تدل على تطبيق أو السير نحو تطبيق أياً من هذه الأشياء بأي شكل في أي مكان، والبلاد العظمى الوحيدة التي حدثت فيها ثورة بروليتارية (كما وصف جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية بالتحديد) ابتعدت بشكل مستمر من المفهوم القديم للمجتمع الحر والمتساوي الهادف إلى أخوة إنسانية كونية. ففي تقدم غير منقطع تقريباً منذ الأيام الأولى للثورة، قُمعت الحرية وخُنقت المؤسسات التمثيلية، وبنفس الوقت ازدادت اللامساواة وتقوت النزعة القومية العسكرية أكثر من قبل. لكن بنفس الوقت يصر بيرنهام على عدم وجود النية للعودة إلى الرأسمالية، وأن ما يحدث هو ببساطة نمو "الإدارياتية" التي هي في حالة تقدم في كل مكان، حسب ما يرى بيرنهام، لكن الطريقة التي تحدث بها قد تتنوع من بلاد إلى أخرى.

الآن، في تفسير لما يحدث، فمن المنطقي جداً وضع نظرية بيرنهام في أدنى منزلة، ويمكنها طبعاً تفسير الأحداث، أحداث الخمس عشرة سنة الأخيرة بسهولة أكبر بكثير من أي نظرية أخرى. من الواضح أن جمهوريات الاتحاد السوفييتي ليست اشتراكية، ولا يمكن تسميتها بالاشتراكية، إلا إذا أعطى المرء معنى آخر للكلمة يختلف عن معناها الحقيقي بأي سياق آخر. من جانب آخر، التنبؤات بأن النظام الروسي سيرتد ويرجع إلى الرأسمالية، جرى تكذيبها دائماً وتبدو الآن أبعد عن التحقق من أي وقت مضى. إن بيرنهام يبالغ على الأرجح في الادعاء بأن العملية قطعت شوطاً بعيداً مساوياً لما قطعته ألمانيا النازية، لكن من المؤكد كما يبدو أن الانجراف كان بعيداً عن أنموذج الرأسمالية القديمة ونحو اقتصاد مخطط مع أوليغاركية حاكمة متبناة. في روسيا جرى تحطيم الرأسماليين أولاً ثم سحق العمال تالياً، أما في ألمانيا فقد جرى سحق العمال أولاً وبدأت بالتخلص من الرأسماليين، وكان الافتراض المؤسس على أن النازية "مجرد رأسمالية" يتناقض مع الأحداث دائماً. لكن بيرنهام يصل إلى أقصى ضلاله في اعتقاده بأن "الإدارياتية" متطورة وتتقدم في الولايات المتحدة، البلاد الكبيرة الوحيدة التي لاتزال الرأسمالية الحرة فيها نشيطة وقوية، لكن لو فكر المرء في الحركة العالمية ككل، فمن

الصعب معارض استنتاجاته أنه في الولايات المتحدة نفسها لن ينجو الإيمان السائد في الحرية الاقتصادية من الأزمة الاقتصادية الكبرى التالية. لقد اتهم بيرنهام بأنه أعطى أهمية كبيرة جداً "للمدراء" بالمعنى الضيق للكلمة، أي مدراء المصانع والمخططون والفنيون - وادعى أن هؤلاء الناس هم الماسكون الحقيقيون بالسلطة حتى في روسيا وليس زعماء الحزب الشيوعي. لكن هذا خطأ ثانوياً على أي حال وصحح جزئياً في المكافيليين، والسؤال الحقيقي ليس في تسمية هؤلاء الناس الذين سيمسحون جزمهم بنا خلال الخمسين سنة القادمة مدراء أو بيروقراطيون أو سياسيون: السؤال هل ستستسلم الرأسمالية التي تبدو محكومة بالهلاك الآن لأوليغاركية أم لديمقراطية حقيقية.

لكن الغريب جداً أن المرء حين يتفحص التنبؤات التي أسسها بيرنهام على نظريته العامة يجدها قابلة للدحض والتفنيد بقدر ما هي قابلة للإثبات. وقد أشار عدد من الناس إلى هذا مسبقاً لكن تنبؤات بيرنهام تستحق التتبع بالتفصيل، لأنها من نموذج مختلف يعود إلى أحداث معاصرة تكشف أيضاً باعتقادي عن ضعف هام جداً في الفكر السياسي الحديث.

لنبدأ بما كتبه في عام ١٩٤٠: يعتبر بيرنهام انتصار ألمانيا مسلم به تقريباً. وصف بريطانيا بـ"المنحلة" أو "المظهرة" لكل الخصائص التي تميز الحضارات المتفسخة في تحولات تاريخية ماضية، بينما وصف فتح وتوحيد أوروبا الذي أنجزته ألمانيا بـ"غير المعكوس". كتب بيرنهام أن "إنكلترا أياً كان حلفاؤها من غير الأوروبيين، لن تستطيع أن تأمل وتتخيل أنها ستهزم القارة الأوروبية". وألمانيا حتى لو حدث وخسرت الحرب، فلا يمكن تقطيع أوصالها أو تقليلها إلى منزلة جمهورية فايمر، فهي ملزمة أن تبقى مثل النواة لأوروبا الموحدة. "لقد رسمت خريطة العالم المستقبلية بدوله الثلاث الكبرى في كل الأحوال وثبتت خطوطها الأساسية مسبقاً: ونوى هذه الدول الكبرى الثلاث: اليابان وألمانيا والولايات المتحدة". ويربط بيرنهام نفسه للرأي الذي يرى أن ألمانيا لن تهاجم جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية قبل أن تهزم بريطانيا، وقال في تكثيف لكتابه الذي نشر في بارتيزيان ريفيو عدد مايو - يونيو عام ١٩٤١ وعلى الأرجح في وقت بعد صدور الكتاب نفسه:

كما في حالة روسيا، يبقى الجزء الثالث من المشكلة الإدارية في ألمانيا - الصراع من أجل الهيمنة مع قطاعات أخرى من المجتمع الإداري - للمستقبل. أولاً يجب أن تكون الضربة

الميتة والقاضية التي تضمن الإطاحة بالنظام الرأسمالي العالمي، وتعني أولاً وقبل كل شيء تدمير أساسات الإمبراطورية البريطانية (مرتكز النظام الرأسمالي العالمي) بشكل مباشر وبواسطة محق التركيبة السياسية الأوروبية التي تمثل دعامة ضرورية للإمبراطورية. وهذا هو التفسير الجوهري للحلف النازي السوفييتي الذين لا يمكن فهمه بمبررات أخرى. الصراع المستقبلي بين ألمانيا وروسيا سيكون صراعاً إدارياً بكل ما للكلمة من معنى، وقبل المعارك العالمية الإدارية الكبرى يجب التأكد من نهاية النظام الرأسمالي. إن الاعتقاد بأن النازية "رأسمالية متفسخة"..... يجعل من المستحيل تفسير التحالف النازي السوفييتي بشكل منطقي. ومن هذا الاعتقاد يستنتج أن الحرب المتوقعة الدائمة بين ألمانيا وروسيا لن تكون حرباً فعلية حتى الموت، كالتي بين ألمانيا والإمبراطورية البريطانية. إن الحرب بين ألمانيا وروسيا واحدة من الحروب الإدارية التي ستدور في المستقبل، وليست من حروب الأمس واليوم المعادية للرأسمالية. سيقع الهجوم على روسيا لاحقاً، ومن المؤكد أو شبه المؤكد أن تنهزم روسيا. "هناك كل الأسباب للاعتقاد بذلك..... أن روسيا سوف تتمزق إلى أجزاء وسينجذب النصف الغربي نحو القاعدة الأوروبية والشرقي نحو القاعدة الأسيوية". هذا الاقتباس يأتي من الثورة الإدارية. كتبت المقالة المقتبسة آنفاً بعد ستة أشهر، لكنها أوضحت بشكل أقوى: "يشير الضعف الروسي إلى أن روسيا لن تكون قادرة على التحمل، وستتحطم إلى أجزاء وتسقط باتجاه الشرق والغرب". وفي ملاحظة تكميلية أضيفت إلى الطبعة الإنكليزية (بيلكان) وكتبت كما يبدو في نهاية عام ١٩٤٤ يتكلم بيرنهام كما لو أن عملية التحطم إلى أجزاء قد حدثت مسبقاً "الحرب جزء من الوسائل التي بواسطتها سيتم دمج النصف الغربي من روسيا في الدولة الأوروبية الكبرى".

بفرز هذه التكهنات يكون لدينا التالي:

١ – ألمانيا ملزمة بالفوز بالحرب.

٢ – ألمانيا واليابان ملزمنان بالنجاة والبقاء كدولتين عظميين ونواتين للقوة في منطقتيهما.

٣ – ألمانيا لن تهاجم الاتحاد السوفييتي إلا بعد دحر بريطانيا.

٤ – الاتحاد السوفييتي ملزم بأن يهزم.

لكن بيرنهام قام بتكهنات أخرى بالإضافة إلى ما سبق. فقد أدلى برأيه في مقالة صغيرة في بارتيزيان ريفيو، في صيف ١٩٤٤ أن الاتحاد السوفييتي سيتحالف مع اليابان لكي يمنع الهزيمة الكاملة للأخير، بينما سيتكفل الشيوعيون الأمريكيون ببدء العمل على تخريب النهاية الشرقية للحرب. وأخيراً، في مقالة بنفس المجلة في شتاء ١٩٤٤ – ٤٥ ادعى بأن روسيا محكومة منذ فترة قصيرة بأن "تتحطم إلى أجزاء" ضمن مشهد فتح كل أوراسيا. هذه المقالة التي سببت جدلاً عنيفاً وسط الإنتلجنسيا الأمريكية، لم تطبع في إنكلترا، لذلك يجب علي أن أقدم بعض الوصف لها هنا، لأن أسلوبها في المقاربة ولهجتها العاطفية من نوع غريب، وبدراستها يقترب المرء أكثر من الجذور الحقيقية لنظرية بيرنهام.

إن المقالة بعنوان "وريث لينين"، وقد وُضعت لتظهر أن ستالين هو الوصي الحقيقي والشرعي للثورة الروسية التي لم "يخنها" بأي شكل، لكنه حملها إلى الأمام على خطوط كانت مضمنة فيها منذ البداية. بحد ذاته، هذا رأي بلعه أسهل من الزعم التروتسكاوي بأن ستالين مجرد لص محتال حرّف الثورة الروسية وشوهها لغاياته الخاصة، وأن الأشياء ستكون مختلفة جداً لو عاش لينين أو بقي تروتسكي في السلطة. في الواقع لا يوجد سبب قوي للاعتقاد أن الخطوط الرئيسية للتطور ستكون مختلفة جداً، فقبل عام ١٩٢٣ كانت بذور المجتمع الشمولي صريحة هناك. لينين في الواقع واحد من هؤلاء السياسيين الذين فازوا بسمعة لا يستحقها من خلال الموت قبل الأوان.[1] فلو عاش لتمت الإطاحة به من السلطة على الأرجح مثل تروتسكي، أو لكان احتفظ لنفسه بالسلطة بوسائل بربرية أو شبه بربرية كتلك التي اتبعها ستالين. لذلك عنوان المقال يطرح فرضية معقولة، ويتوقع المرء منه الاستغاثة بالوقائع.

على كل حال نادراً ما تلامس المقالة موضوعها الظاهري المزعوم. إذ من الواضح لكل مهتم حقيقي في إظهار وجود استمرارية سياسية بين لينين وستالين، عليه أن يبدأ بتحديد الخطوط

١ – من الصعب التفكير بأي سياسي يعيش ليبلغ الثمانين، ويظل معتبراً كناجح. ما ندعوه "رجل دولة عظيم، يعني عادة واحد يموت قبل أن يتوفر الوقت لسياسته لتعطي نتائجها المرجوة. لو عاش كرومويل بضع سنوات أكثر، لسقط من السلطة واعتبرناه فاشلاً في هذه الحالة، ولو مات بيتان في فرنسا في ١٩٣٠ لوقرته فرنسا كبطل ووطني غيور. لاحظ نابليون قائلاً مرة لو حدث وضربته قذيفة مدفع وهو يمتطي حصانه في موسكو لسقط في التاريخ كأعظم رجل عرفه العالم. (حاشية المؤلف).

الأساسية لسياسة لينين ثم يفسر الطريقة التي يشبهها ستالين بها. لم يفعل بيرنهام هذا. باستثناء جملة خاطفة أو اثنتين لم يقل شيئاً عن سياسة لينين، ولم يحظر اسم لينين نفسه إلا خمس مرات في مقال من اثنتي عشرة صفحة: في السبع صفحات الأولى لم يحظر أبداً إلا في العنوان. إن الهدف الحقيقي من المقال تقديم ستالين كشخصية شاهقة فوق بشرية، وفي الواقع جنس من نصف إله، والبلشفية كقوة لا تقاوم تتدفق فوق الأرض، ولا يمكن إيقافها حتى تصل إلى أقصى حدود أوراسيا. حتى الآن كل ما بذل بيرنهام من محاولات ليثبت قضيته، اقتصر على تكرير أن ستالين "رجل عظيم" مرة تلو الأخرى - الذي ربما يكون صحيحاً، لكنه غير لازم تماماً تقريباً، ورغم أنه يقدم بعض الحجج القوية للإيمان في عبقرية ستالين، لكن من الواضح أن فكرة "العظمة" في ذهنه تختلط بشكل لا ينفصم مع فكرة القسوة والخداع. هناك صفحات غريبة توحي كما يبدو أن ستالين يجب أن ينال الإعجاب بسبب العذاب الذي لا حدود له الذي سببه:

أثبت ستالين أنه "رجل عظيم" بالطريقة الفخمة. وصف الولائم التي قدمت في موسكو للضيوف أصحاب المقامات الرفيعة التي أقيمت في موسكو حدد النغمة الرمزية. بقوائم أنواع الطعام الهائلة من سمك الستيرجون الضخم الغني بالكافيار والمشاوي ولحوم الطيور والحلويات وأنهار الشراب الكحولي وعشرات الأنخاب التي أنهوا الولائم بها والشرطي الصامت الذي لا يتحرك خلف كل ضيف، كل ذلك على خلفية شتاء من جماهير ستالينغراد المحاصرة الكثيرة الجائعة والملايين التي تحتضر وتموت على جبهات القتال ومعسكرات الاعتقال المكتظة وجماهير المدن التي اكتفت بحصصها القليلة جداً على حافة الحياة؛ وبدلاً من أثر قليل للوسطية الباهتة أو يد بابيت (كناية عن أسلوب الطبقة الوسطى - المترجم) نرى أشد التقاليد إدهاشاً للقياصرة وملوك الميديين والفرس العظام وخانات القبيلة البدوية الذهبية والوليمة التي خصصت لآلهة العصور البطولية إجلالاً لنفاذ البصيرة بأن الصفاقة واللامبالاة والوحشية بهذا المقياس تزيح الكائنات من المستوى الإنساني..... إن تقنيات ستالين تظهر تحرراً من القيود التقليدية، لا تتوافق مع الوسطية والاعتدال: الرجل المعتدل شخص محكوم بالعادة. إن مستوى عملياتهم هو من يميزهم عن بعضهم البعض في غالب الأحيان. من العادي مثلاً أن يدبر رجال فاعلون في الحياة السياسية مكيدة عرضية، لكن تنفيذ المكيدة ضد عشرات آلاف الناس ونسبة هامة من طبقة كاملة من المجتمع تشمل العدد الأكبر من رفاق المرء أبعد ما تكون عن العادي،

لذلك يكون الاستنتاج الجمعي الطويل الأجل، إما أن المكيدة حقيقة أو على الأقل "فيها بعض الحقيقة" أو أن الخضوع لتلك السلطة الهائلة جداً "ضرورة تاريخية" كما قالها المثقفون.... لا شيء مفاجئ في ترك قلة قليلة من الأفراد يموتون من الجوع من عدة ملايين من أجل الدولة، لكن تجويع ملايين الناس بقرار هو أنموذج فعل لا ينسب إلا إلى الآلهة عادة.

في هذه المقاطع وأخرى مشابهة، هناك أثر من السخرية، لكن من الصعب عدم رؤية نوع من الإعجاب المفتون. يقارن بيرنهام في نهاية المقال ستالين مع هؤلاء الأبطال شبه الأسطوريين مثل موسى وازوكا الذين يجسدون عصراً تاريخياً كاملاً بأنفسهم، ويمكن نسب أعمال بطولية لهم لم يفعلوها في الواقع. يستخدم بيرنهام في الكتابة عن السياسة الخارجية السوفييتية التي يفترض أن يكون موضوعياً فيها لهجة أكثر غموضاً:

بدءاً من الجزء المركزي المغناطيسي للبر الأوراسي الأساسي، تغمر السلطة السوفييتية مثل حقيقة واحد الأفلاطونية الجديدة في سلسلة هابطة من التقدم المنبعث وتفيض إلى الخارج غرباً إلى داخل أوروبا، وجنوباً إلى داخل الشرق الأدنى، وشرقاً إلى داخل الصين، وتلتف حول شواطئ الأطلنطي والبحر الأصفر والبحور الصينية والبحر الأبيض المتوسط والخليج العربي. هذا الواحد الوحيد الذي لا يختلف في تقدمه، ينزل عبر درجات العقل والروح والمادة، ومن ثم يعود عبر عودته الحتمية إلى نفسه، هكذا تفعل السلطة السوفييتية، تنبثق من مركز استبدادي مكتمل وتتقدم إلى الخارج بالامتصاص (البلطيق وبيساريا وبوكوفينا وشرق بولندا) وتهيمن على (فنلندا والبلقان ومنغوليا وشمال الصين وغداً ألمانيا) ووراء المجال المادي الخارجي ووراء الحدود الأوراسية في تهدئة مؤقتة وارتشاح (إنكلترا والولايات المتحدة).

لا أعتقد أن الإيحاء بأن المقصود من الحروف الكبيرة غير الضرورية التي حشي بها هذا المقطع، أن يكون له أثر منوم على القارئ، هو إيحاء وهمي. يحاول بيرنهام تشييد صورة لسلطة مرعبة لا تقاوم وتحويل مناورة سياسية عادية مشابهة للارتشاح إلى ارتشاح يُضاف إلى الغطرسة العامة. يجب أن يُقرأ المقال كاملاً، فرغم أنه ليس من نوع المديح الذي يعتبره محب الروس العادي مقبولاً. ورغم ادعاء بيرنهام بأنه كان موضوعياً بشكل صارم، إلا أنه في الحقيقة يمثل فصلاً من الولاء والتقدير وإذلال الذات حتى. هذا المقال يعطينا نبوءة أخرى نضيفها إلى القائمة: جمهوريات الاتحاد السوفييتي ستغزو كل أوراسيا وربما أكثر منها بكثير،

ويجب على المرء أن يتذكر أن نظرية بيرنهام الأساسية تتضمن بنفسها نبوءة لازالت بحاجة للاختبار - مهما سيحدث غير ذلك، فإن الشكل الإداري للمجتمع سيسود بشكل حتمي.

إن نبؤة بيرنهام السابقة بانتصار ألمانيا في الحرب وتوحيد أوروبا حول النواة الألمانية، دُحضت ليس في خطوطها الرئيسية، بل وفي بعض من تفاصيلها الهامة. يصر بيرنهام دائماً أن الإدارياتية ليست أكثر كفاءة فحسب من الديمقراطية الرأسمالية أو الاشتراكية الماركسية، ولكنها مقبولة أكثر من الجماهير. لم يعد لشعارات الديمقراطية وحق تقرير المصير كما يقول أي جاذبية بالنسبة إلى الجماهير: لقد أكد على "إدارياتية" الألمان ضد "فتور الشعور" و"لامبالاة" البريطانيين والفرنسيين..إلخ، وصُورت النازية كقوة ثورية تكتسح أوروبا وتنشر فلسفتها "بالعدوى". إن الطابور النازي الخامس "لا يمكن استئصاله" والأمم الديمقراطية عاجزة تماماً عن وضع خطة لأية تسوية يفضلها الألمان أو الجماهير الأوروبية الأخرى على النظام الجديد. في كافة الأحوال لا تستطيع الديمقراطيات دحر ألمانيا "إلا إذا ذهبت في الطريق الإدارياتي أبعد مما فعلت ألمانيا".

أصل الحقيقة في كل هذا، هو أن الدول الديمقراطية الصغرى التي أفسدها تشوش وركود سنوات ما قبل الحرب، انهارت بصورة أسرع مما يجب أن تفعل، ويمكن التخيل أنها ستقبل بالنظام الجديد إن وفى الألمان بجزء من وعودهم. لكن التجربة الفعلية للحكم الألماني أثارت على الفور ضراوة من الكره وحب الانتقام، لم يشهد العالم لها مثيلاً من قبل. فبعد بداية عام ١٩٤١ لم تعد هناك أية حاجة لهدف إيجابي للحرب، وبات التخلص من الألمان هدفاً كافياً لوحده. إن مسألة المعنويات وعلاقتها بالتضامن الوطني مسألة ضبابية، ويمكن التلاعب بالدليل لإثبات أي شيء آخر. لكن لو قارن المرء نسبة الأسرى ومجموع باعة الأوطان، لوجد أن الدول الشمولية أسوأ من الديمقراطيات. يبدو أن مئات الآلاف من الروس ذهبوا إلى الألمان أثناء الحرب، وذهبت أعداد مماثلة من الألمان والإيطاليين إلى الحلفاء قبل أن تنشب الحرب. أما الرقم المطابق من المرتدين الأمريكيين والبريطانيين لم يصل إلى العشرات. كمثال عن عجز "الأيديولوجيات الرأسمالية" لتجنيد الدعم، يستشهد بيرنهام بـ"الفشل التام في التجنيد العسكري التطوعي في إنكلترا (وكل الإمبراطورية البريطانية) والولايات المتحدة." يفهم المرء من هذا أن جيوش الدول الشمولية كانت من المتطوعين. في الواقع ليس هناك أية

دولة شمولية اهتمت بالتجنيد التطوعي من أجل أي غرض، ولم يجمع جيش كبير بوسائل تطوعية في التاريخ كله.[1] القوائم الكثيرة من الحجج التي قدمها بيرنهام لا تستحق الذكر. النقطة أن بيرنهام يفترض أن الألمان يجب أن يربحوا الحرب الدعائية بالإضافة إلى الحرب العسكرية، وهذا التخمين لم تولده الأحداث في أوروبا في أية درجة.

يتبين مما سبق أن تنبؤات بيرنهام ليست حين تكون قابلة للإثبات يثبت أنها خاطئة فقط، وإنما تناقض بعضها البعض بطريقة قوية أحياناً. والحقيقة الأخيرة هي المهمة. التنبؤات السياسية عادة ما تكون خاطئة لأنها تبنى على تفكير رغبوي، لكنها قد تملك قيمة دلالية وخصوصاً حين تتبدل فجأة. إن العامل الكاشف والمظهر هو التاريخ الذي قيلت فيه غالباً. عند تأريخ كتابات بيرنهام المتنوعة بدقة كما يمكن فعل ذلك من الدليل الداخلي، نجد العلاقات التالية:

في الثورة الإدارية يتكهن بيرنهام بنصر ألماني وبتأجيل الحرب الروسية - الألمانية إلى ما بعد دحر بريطانيا، ومن ثم دحر روسيا. لقد كتب الكتاب أو جله في النصف الثاني من عام ١٩٤٠ في الوقت الذي اجتاح فيه الألمان أوروبا الغربية وكانوا يقصفون بريطانيا، وكان الروس يتعاونون معهم بقوة في ما بدا مزاج تهدئة واسترضاء في أي حال.

في الملاحظة التكميلية المضافة إلى النسخة الإنكليزية من الكتاب، يفترض بيرنهام أن الاتحاد السوفييتي دُحر وأن عملية الانشقاق على وشك البدء. نُشر هذا في ربيع ١٩٤٢ وكُتب كما يفترض في نهاية ١٩٤١ حين كان الألمان في ضواحي موسكو.

التكهن بأن روسيا ستنضم إلى اليابان وتشكلان جماعة ضد الولايات المتحدة، كُتب في وقت مبكر من ١٩٤٤ بعد عقد اتفاقية روسية يابانية جديدة.

التكهن بفتح روسي عالمي، كُتب في شتاء ١٩٤٤ حين كان الروس يتقدمون بسرعة في أوروبا الشرقية، بينما كان الحلفاء معاقين في إيطاليا وشمال فرنسا.

---

١ - جمعت بريطانيا مليون متطوع في القسم المبكر من حرب ١٩١٤ - ١٨. هذا بالتأكيد رقم عالمي، لكن الضغوطات المطبقة كانت هائلة، لذلك يُشك في إمكانية وصفه بالتجنيد بالتطوعي. حتى أكثر الحروب أيديولوجية تم خوضها برجال مرغمين ومضغوطين. في الحرب الأهلية الإنكليزية والحروب النابليونية والحرب الأهلية الأمريكية والحرب الأهلية الإسبانية..إلخ، كلا الجانبين فيها لجأ إلى التجنيد الإلزامي أو عصابات تجند الناس بالقوة. (حاشية المؤلف).

يتبين أن كل نقطة يتنبأ بها بيرنهام، هي استمرار للشيء الذي كان يحدث. الآن النزعة لفعل هذا ليس مجرد عادة رديئة مثل الغلطة أو المبالغة التي يستطيع المرء تصحيحها بالمراجعة، وإنما مرض عقلي تكمن جذوره جزئياً في الجبن وجزئياً في عبادة السلطة التي لا تنفصل تماماً عن الجبن.

افترض في ١٩٤٠ أنك أجريت استفتاء غالوب للآراء حول السؤال التالي: "هل ستربح ألمانيا الحرب؟" لوجدت ومما يثير العجب أن الجماعة التي تجيب "بنعم" تحتوي على النسبة المئوية للناس الأذكياء - الناس الذين يتجاوز مقياس الذكاء عندهم ١٢٠ أعلى بكثير من المجموعة التي أجابت "بلا". نفس الشيء في منتصف ١٩٤٢. في هذه الحالة لن تكون الأرقام مفاجئة جداً. لكن لو طرحت السؤال "هل سينتزع الألمان الإسكندرية؟" أو "هل يستطيع الألمان الاحتفاظ بالأراضي التي انتزعوها؟" عندئذ سيكون هناك ميل ملحوظ للذكاء مرة أخرى يتركز في جماعة "نعم". في كل حالة الشخص الأقل ذكاء يكون الأرجح في إعطاء الجواب الصحيح.

إذا مررنا بهذه الأمثلة فقط سيفترض المرء أن الذكاء العالي والرأي العسكري الرديء يسيران معاً دائماً، لكن ليس الأمر بهذه البساطة. كانت الطبقة المثقفة الإنكليزية في المجمل أكثر انهزامية من جماهير الناس - استمر بعض من أفرادها بانهزاميتهم في الوقت الذي كُسبت فيه الحرب تماماً - جزئياً، لأنهم كانوا أقدر على تصور السنوات الكئيبة للحرب التي تنتظرهم. لقد كانت معنوياتهم أسوأ لأن قدراتهم الخيالية كانت أقوى. إن أسرع طريقة لإنهاء الحرب هي خسارتها، وإن وجد المرء أن الحرب طويلة لا تطاق، فمن الطبيعي ألا يؤمن بإمكانية النصر. كان هناك نفور من عدد كبير من المثقفين أيضاً، مما جعل من الصعب عليهم ألا ينحازوا إلى جانب أي بلاد تعادي بريطانيا. وكان الأعمق من كل هذا وجود الإعجاب - لكن في حالات قليلة جداً إعجاب واعٍ - في قوة نظام الحكم النازي وطاقته ووحشيته. إن مراجعة صحافة الجناح اليساري وتعداد كل الإشارات العدائية للنازية خلال سنوات ١٩٣٥ - ٤٥ جهد مفيد لكنه ممل. سيجد المرء، وليس لدي شك، أنها وصلت إلى إشارة عالية في الأعوام ١٩٣٧ - ٨ و١٩٤٤ - ٥ وانخفضت بشكل ملحوظ في سنوات ١٩٣٩ - ٤٢ - أي أثناء الفترة التي كانت تحقق ألمانيا فيها انتصارات. سيجد المرء أيضاً أن نفس الناس يؤيدون

تسوية سلمية في ١٩٤٠ ويوافقون على تقطيع أوصال ألمانيا في ١٩٤٥. ولو درس المرء ردود أفعال المثقفين الإنكليز نحو الاتحاد السوفيتي، لوجد أيضاً دوافع متقدمة بصدق مختلطة بإعجاب بالقوة والوحشية. من الجائر جداً أن نوحي بأن عبادة القوة هي الحافز الوحيد لشعور المحب للروس، لكنه أحد الحوافز وربما يكون الأقوى وسط الطبقة المثقفة.

إن عبادة القوة تشوش الرأي السياسي لأنها تؤدي بشكل لا يمكن تفاديه إلى الاعتقاد في استمرار الميول الحالية. أياً كان الفائز الآن سيبدو دائماً لا يغلب. لو فتح اليابانيون جنوب آسيا فإنهم سيحتفظون بها إلى الأبد، وإذا انتزع الألمان طبرق، فإنهم سينتزعون القاهرة بشكل غير قابل للخطأ، وإذا كان الروس في برلين، فلن يمر وقت طويل حتى يكونوا في لندن وهكذا. هذه العادة الذهنية تؤدي أيضاً إلى الاعتقاد بأن الأشياء ستحدث بسرعة وكارثية أكبر مما تحدث عملياً. إن ظهور الإمبراطوريات وسقوطها واختفاء الثقافات والأديان متوقع حدوثه مع فجأة زلزالية، والعمليات التي بدأت بالكاد يجري الحديث عنها وكأنها في نهايتها سلفاً. كتابات بيرنهام تعج برؤى تنبؤية مروعة. أمم وحكومات وطبقات وأنظمة اجتماعية وُصفت باستمرار بالمتوسعة والمنكمشة والمضمحلة والمتبددة والمنقلبة والمنهارة والمتقوضة والمتبلورة والتي تتصرف بطريقة غير مستقرة وميلودرامية (مثيرة). لم يُسمح أبداً لبطء التبدل التاريخي وحقيقة أن أي عصر يتضمن دائماً قدراً كبيراً من العصر الذي سبقه. إن طريقة التفكير هذه تؤدي بشكل محتوم إلى تنبؤات خاطئة، لأنها حتى حين تقدر اتجاه الأحداث بشكل صحيح، فإنها تخطئ في حساب سرعة حدوثها. ضمن خمس سنوات تنبأ بيرنهام بهيمنة ألمانيا على روسيا وهيمنة روسيا على ألمانيا. في كل حالة كان يطيع نفس الغريزة؛ غريزة الركوع أمام الغازي والفاتح الراهن والقبول بالميل القائم كشيء غير عكوس. بهذه العقلية يستطيع المرء أن ينتقد تاريخه بطريقة أشمل وأوسع.

إن الأخطاء التي أشرت إليها لا تدحض نظرية بيرنهام، لكنها تلقي الضوء على المبررات المحتملة التي دعته إلى تبنيها. في هذا التسلسل المنطقي لا يستطيع المرء إهمال حقيقة أن بيرنهام أميركي. كل نظرية سياسية لها مسحة إقليمية محددة حولها، وكل أمة وكل ثقافة لها تحيزاتها المميزة ورقع من الجهل الخاصة بها. هناك مشاكل محددة يجب أن تُرى بشكل محتم تقريباً في منظور مختلف وفقاً للوضع الجغرافي الذي ينظر منه المرء. الآن، الموقف الذي يتبناه بيرنهام في

تصنيف الشيوعية والنازية بأنهما الشيء عينه تقريباً ويقبل بالاثنين بنفس الوقت - أو في كافة الأحوال لا يفترض الصراع العنيف ضد أي منهما - هو موقف أمريكي أساساً وهو موقف مستحيل بالنسبة إلى الرجل الإنكليزي أو الأوروبي الغربي. إن الكتاب الإنكليز الذين اعتبروا الشيوعية والفاشية الشيء عينه ظلوا متمسكين بشكل ثابت بأنهما شران رهيبان يجب القتال ضدهما حتى الموت: من جهة أخرى إن الرجل الإنكليزي الذي يعتقد أن الشيوعية والفاشية ضدان، يشعر بضرورة الانحياز إلى جانب أحدهما.[1] إن انتصر النظام الشمولي وتحققت أحلام الجيوسياسيين، ستختفي بريطانيا كقوة عالمية، وسوف تُبتلع أوروبا الغربية برمتها من قبل دولة كبرى وحيدة. هذا ليس توقعاً يسهل على الإنكليزي تأمله بعدم تحيز. إما أنه لا يريد أن تختفي بريطانيا - في هذه الحالة يميل إلى بناء نظريات تثبت الشيء الذي يريده أو يقرر مثل أقلية من المثقفين أن بلاده انتهت ويحول ولاءه إلى قوة أجنبية ما. الأمريكي غير مضطر إلى نفس الخيار. مهما يحدث ستنجو الولايات المتحدة كقوة كبرى. ومن وجهة النظر الأمريكية ليس هناك فرق كبير إن هيمنت روسيا أم ألمانيا على أوروبا. أغلب الأمريكيين الذين يفكرون بالقضية يفضلون أن يروا العالم مقسماً بين دولتين عملاقتين أو ثلاث اكتملت حدودهما الطبيعية، وتستطيع كل منهما مساومة الأخرى حول القضايا الاقتصادية دون أن تكترث وتزعج نفسها بالاختلافات الأيديولوجية. مثل هذه الصورة للعالم تناسب الميل الأمريكي في الإعجاب بالحجم بحد ذاته وفي الشعور بأن النجاح يشكل مبرراً وفي المشاعر السائدة المعادية لبريطانيا. عملياً أُجبرت بريطانيا والولايات المتحدة مرتين على التحالف ضد ألمانيا، وربما تُجبران على التحالف ضد روسيا قريباً: لكن موضوعياً، أغلب الأمريكيين يفضلون إما روسيا أو ألمانيا على بريطانيا، وبين روسيا وألمانيا يفضلون الأقوى منهما كما يبدو في الوقت الحالي.[2] لذلك ليس من المفاجئ أن تكون رؤية بيرنهام للعالم دائماً قريبة بشكل

---

١ - الاستثناء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو برنارد شو، الذي ظل يصرح لبعض سنوات أن الشيوعية والفاشية مثل بعضهما تقريباً وكان يؤيدهما كليهما، لكن شو أولاً وأخيراً ليس إنكليزياً، وربما لا يشعر أن مصيره مرتبط ببريطانيا (حاشية المؤلف).

٢ - في وقت متأخر في خريف ١٩٤٥، أجري استفتاء للآراء في معهد غالوب للجنود الأمريكيين في ألمانيا، فأظهر أن ٥١٪ منهم يرون "أن هتلر فعل الكثير من الخير قبل ١٩٣٩". كان هذا بعد خمس سنين من الدعاية المعادية لهتلر. هذا الرأي كما اقتبس لم تستحسنه ألمانيا، لكن من الصعب أن يُعطى رأياً مساوياً مؤيداً لبريطانيا بنسبة قريبة من ٥١٪ من الجيش الأمريكي. (حاشية المؤلف).

ملحوظ من وجهة نظر الإمبرياليين الأمريكيين من جانب أو من رؤية الانعزاليين من جانب آخر. إنها نظرة عالمية "قاسية" أو "واقعية" تتناسب مع الشكل الأمريكي للتفكير الرغبوي. إن الإعجاب الصريح تقريباً بالطرق النازية الذي يبديه بيرنهام في كتابيه السابقين والذي يبدو صادماً لكل قارئ إنكليزي تقريباً، يعتمد جوهرياً على حقيقة أن الأطلنطي أوسع من القنال.

كما قلت من قبل، ربما كان بيرنهام أقرب إلى الصواب في رؤيته فيما يتعلق بالحاضر والماضي القريب. ففي الخمسين سنة الأخيرة السابقة كان الانجراف العام نحو الأوليغاركية. التمركز المتزايد الدائم للصناعة والسلطة المالية والأهمية المتناقصة للرأسمالي الفرد أو المساهم، ونمو طبقة المدراء الجديدة من علماء وفنيين وبيروقراطيين، وضعف البروليتاريا أمام الدولة المركزية وزيادة عجز البلدان الصغيرة أمام الكبيرة، وانحلال المؤسسات التمثيلية، وظهور أنظمة الحزب الواحد المؤسسة على إرهاب الشرطة والاستفتاءات العامة المزيفة..إلخ كل هذه الأشياء تشير إلى نفس الوجهة. يرى بيرنهام هذه النزعة ويفترض أنها لا تقاوم مثل أرنب تشله عن الهرب عضلة أفعى ويفترض أنها أقوى شيء في العالم. حين ينظر المرء في العمق يرى أن كل أفكاره [بيرنهام] مبنية على بديهيتين سلم بهما في كتابه السابق ووضحهما في كتابه الثاني وهما:

١ - السياسة جوهرياً هي نفسها في كل العصور.

٢ - السلوك السياسي مختلف عن أنواع السلوك الأخرى.

لنأخذ النقطة الثانية أولاً. في الميكافيليين، يصر بيرنهام أن السياسة مجرد صراع من أجل السلطة. كل حركة اجتماعية عظيمة وكل حرب وكل ثورة وكل برنامج سياسي مهما كان منوراً وطوباوياً تكمن خلفه حقيقة أطماع جماعة قطاعية خرجت لتنتزع السلطة لنفسها. لا يمكن كبح السلطة بمجموعة قواعد أخلاقية أو دينية وإنما بسلطة أخرى. إن أقرب مقاربة ممكنة للسلوك الغيري هي إدراك الجماعة الحاكمة بأنها ربما تظل في السلطة أطول، إن تصرفت بأدب واحترام. لكن الغريب أن هذه التعميمات لا تطبق على أي نوع من السلوك سوى السلوك السياسي. في الحياة اليومية كما يرى بيرنهام ويعترف، لا يستطيع المرء تفسير كل فعل إنساني بتطبيق مبدأ لمصلحة من ومن المستفيد. من الواضح أن لدى الكائنات البشرية دوافع ليست أنانية. الإنسان لذلك حيوان يستطيع التصرف بشكل أخلاقي حين يتصرف كفرد، لكنه يصبح غير أخلاقي حين يتصرف بشكل جماعي. لكن حتى هذا التعميم ليس حقيقياً

وعملياً إلا للجماعات العليا. فالجماهير كما يبدو لديها طموحات وآمال غامضة نحو الحرية والأخوة الإنسانية التي يعزف عليها الأفراد المتعطشون للسلطة والأقليات بسهولة، لهذا يتألف التاريخ من سلسلة من عمليات الاحتيال، والجماهير أول من يتعرض فيها لإغواء الثورة ووعدها باليوتوبيا، وبعد أن تقوم بوظيفتها تستعبد مرة أخرى بواسطة سادة جدد.

لذلك النشاط السياسي نوع خاص من السلوك يتميز بتجرد تام عن المبادئ الأخلاقية والضمير، ولا يحدث إلا وسط جماعات صغيرة من الناس وخصوصاً وسط جماعات مستاءة، لا تحصل مواهبها على حرية العمل والتصرف تحت الشكل القائم للمجتمع. الجمهور الكبير من الناس - وهذا حيث يرتبط (٢) مع (١) - سيظل غير سياسي دائماً. لذلك تنقسم البشرية في الحقيقة إلى نوعين: الأقلية الأنانية المرائية، والرعاع البلهاء الذين يُقادون أو يُساقون إلى قدرهم كما يُعيد المرء خنزيراً إلى الحظيرة بركله في بطنه أو بقعقعة عصا داخل سطل طعامه حسب حاجات اللحظة الراهنة. وهذا النموذج الجميل يجب أن يستمر إلى الأبد. قد يعبر أفراد من صنف إلى آخر وقد تدمر طبقات كاملة بعضها البعض وتصعد إلى الموقع المسيطر، لكن قسمة البشرية إلى حكام ومحكومين راسخة ولا تتبدل، مثلما هم غير متساوين في رغباتهم وحاجاتهم. يوجد "قانون حديدي من الأوليغاركية" يعمل حتى لو لم تكن الديمقراطية مستحيلة لأسباب ميكانيكية.

الغريب أن بيرنهام لم يتوقف أبداً في حديثه كله عن الصراع من أجل السلطة للتساؤل لماذا يريد الناس السلطة، لكنه يفترض أن التعطش للسلطة غريزة طبيعية، ليس هناك داع لتعليلها مثل الرغبة في الطعام رغم أنها لا تهيمن إلا على قلة من الناس نسبياً، ويفترض أيضاً أن قسمة المجتمع إلى طبقات تخدم نفس الغرض في كل العصور. هذا عملياً تجاهل لتاريخ من مئات السنين. حين كان سيد بيرنهام، ميكيافيلي يكتب لم يكن الانقسام الطبقي محتوماً فقط بل جذاباً ومرغوباً أيضاً. طالما كانت وسائط الإنتاج بدائية كانت الجماهير الكبيرة مكبلة بالعمل اليدوي المرهق الكئيب: وكان من الضروري أن تتحرر قلة من الناس من هكذا عمل وإلا فلن تستطيع الحضارة الحفاظ على نفسها أو تحقيق أي تقدم. لكن منذ وصول الآلة تبدل النموذج برمته ولم يعد تبرير الامتيازات الطبقية - إن وجد - نفسه، لأنه لم يوجد مبرر آلي للسبب الذي يجبر الإنسان العادي أن يظل كادحاً. صحيح أن الكدح استمر والفروقات الطبقية أعادت توطيد

نفسها في شكل جديد، والحرية الفردية كانت في نزول: لكن بما أن هذه التطورات يمكن تفاديها تقنياً الآن، إذاً يجب أن يكون لها سبب نفسي، لم يبذل بيرنهام أي جهد لاكتشافه. السؤال الذي كان ينبغي أن يسأله ولم يفعل أبداً هو: لماذا تصبح الشهوة الصريحة للسلطة حافزاً إنسانياً رئيسياً الآن بالضبط حين باتت سيادة إنسان على إنسان آخر غير ضرورية؟ بالنسبة إلى الادعاء بأن "الطبيعة الإنسانية" أو "القوانين التي لا تتبدل" لهذا وذاك تجعل الاشتراكية مستحيلة، هو مجرد إسقاط للماضي في قلب المستقبل، وبالتالي يحاول بيرنهام أن يثبت بها أن سبب المجتمع الكوني كائنات بشرية حرة ومتساوية لم يوجد قط، فهو لا يمكن أن يوجد أبداً. بنفس الحجة يمكن للمرء أن يبرهن فكرة استحالة الطائرات في العام ١٩٠٠ أو السيارات في ١٨٥٠.

إن الفكرة التي ترى أن الآلة بدلت العلاقات البشرية، وبالتالي أصبح ميكافيلي عتيقاً، هي فكرة واضحة جداً، وإن فشل بيرنهام في التعامل معها، فذلك في اعتقادي، لأن غريزته السلطوية كانت تقوده إلى تجاهل أي إيحاء بأن عالم ميكيافيلي، عالم القوة والخداع والطغيان، قد انتهى بشكل ما. من الهام أن نحمل في ذهننا ما قلته سابقاً: إن نظرية بيرنهام مجرد شكل مختلف - شكل أمريكي ممتع بسبب شموليته - من عبادة السلطة المتفشية وسط المثقفين الآن، وهناك شكل مختلف آخر عادي أكثر في إنكلترا بأي حال هو الشيوعية. لو تفحص المرء الناس الذين لديهم فكرة ما عن ماهية نظام الحكم الروسي ويحبون الروس جداً، لوجد أنهم ينتمون بالمجمل إلى الطبقة "الإدارية" التي يكتب عنها بيرنهام. أي أنهم ليسوا مدراء بالمعنى الضيق بل عبارة عن علماء وتقنيين ومعلمين وصحفيين وإذاعيين وبيروقراطيين وسياسيين محترفين: على العموم أناس متوسطون يشعرون بأنهم مقيدون بنظام لايزال أرستقراطياً جزئياً ومتعطشون لسلطة أكبر ومكانة أكبر. هؤلاء الناس ينظرون إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية ويرون فيها أو يعتقدون أنهم يرون نظاماً تخلص من الطبقة العليا وأبقى الطبقة العاملة في مكانها وسلم سلطة غير محدودة للناس الذين يشبهونهم جداً. لم يبدأ المثقفون الإنكليز الاهتمام بنظام الحكم السوفييتي بأعداد كبيرة، إلا حين أصبح نظاماً شمولياً بشكل لا يحتمل الخطأ. رغم أن الطبقة المثقفة الإنكليزية المحبة لروسيا سوف تنكر تهمة بيرنهام لها وترفضه، إلا أنه في الحقيقة يعبر بصوت مسموع عن رغبتها الخفية: الرغبة في تدمير النسخة القديمة من الاشتراكية المنادية بالمساواة والدخول في مجتمع تراتبي، يستطيع المثقف فيه وضع

يديه على السوط (أن يحظى ببعض السلطة) على الأقل. لدى بيرنهام الاستقامة والصدق للقول إن الاشتراكية ليست قادمة، أما الآخرون فيقولون إن الاشتراكية قادمة، ومن ثم يعطون كلمة "اشتراكية" معنى جديداً يسفه المعنى القديم ويفرغه من مضمونه. لكن نظريته بكل ما تظهره من الموضوعية هي عقلنة للرغبة وتسويغ لها. لا يوجد مبرر قوي للاعتقاد أنها ستخبرنا شيئاً عن المستقبل ما عدا المستقبل القريب ربما، ولا تخبرنا إلا عن نوع من العالم الذي تحب طبقة الإداريين أو على الأقل أعضاء الطبقة الأكثر وعياً وطموحاً أن يعيشوا فيه.

لحسن الحظ لم يكن الإداريون لا يُغلبون كما يعتقد بيرنهام. يتجاهل بإصرار غريب في الثورة الإدارية الأفضليات العسكرية والاجتماعية التي تتمتع بها البلاد الديمقراطية، ويقحم الدليل في كل نقطة كي يبين قوة وحيوية ومتانة نظام هتلر المجنون. ألمانيا تتوسع بسرعة و"التوسع المحلي السريع كان دائماً علامة ليس على التفسخ...... بل على التجدد" ألمانيا تفتعل حروباً بشكل ناجح و"المقدرة على إشعال حر ب بشكل حسن ليس علامة تفسخ أبداً بل العكس". ألمانيا أيضاً "تثير في ملايين الأشخاص ولاء تعصبياً، وهذا أيضاً لا يترافق أبداً مع التفسخ" حتى أنه اقتبس قسوة النظام النازي لصالحه، بما أن"النظام الاجتماعي الفتي الصاعد ضد القديم فسيلجأ على الأرجح إلى الأكاذيب والإرهاب والاضطهاد بشكل واسع". لكن خلال خمس سنوات فقط حطم هذا النظام الاجتماعي الجديد الفتي نفسه إلى قطع واصبح متفسخاً حسب استخدام بيرنهام للكلمة، وحدث هذا بشكل واسع تماماً بسبب التركيبة الإدارية (غير الديمقراطية) التي أعجبت بيرنهام. لقد كان السبب المباشر لهزيمة الألمان، هو الحماقة غير المسبوقة في مهاجمة جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية في الوقت الذي لم تُهزم فيه بريطانيا وكانت أمريكا تستعد للقتال بشكل واضح. أخطاء بهذا القدر الكبير لا يمكن أن تُرتكب أو يُحتمل أن ترتكب إلا في البلدان التي لا يكون فيها للرأي العام سلطة. طالما يستطيع الرجل العادي الحصول على فرصة لسماع رأيه، فإن قوانين أولية مثل ألا تقاتل كل أعدائك في وقت واحد، تظل أقل عرضة للانتهاك.

لكن في أي حال، يجب أن يكون المرء قادراً على أن يرى منذ البداية أن حركة كالنازية لا تستطيع أن تفرز أية نتيجة جيدة أو راسخة. يبدو أن بيرنهام في الواقع لا يرى شيئاً خطأ في أساليب النازيين طالما هم يكسبون. ويقول إن هكذا أساليب تبدو شريرة لأنها جديدة فقط:

لا يوجد قانون تاريخي ينص على حتمية انتصار أنماط السلوك المحتشم و"العدل" لأن التاريخ فيه دائماً مسألة "سلوك من" و"عدالة من". يجب أن تخترق الطبقة الاجتماعية الصاعدة والنظام الاجتماعي الجديد منظومات القوانين الأخلاقية القديمة مثل اختراقهما للمؤسسات الاقتصادية والسياسية القديمة تماماً، ومن الطبيعي أن يكونا وحشين من وجهة نظر النظام القديم، وسيهتمان بأنماط السلوك ومبادئ الأخلاق في الوقت المناسب، إن فازا.

هذا يتضمن حرفياً أن أي شيء يمكن أن يصبح صحيحاً أو خطأ إن رغبت الطبقة المسيطرة الراهنة بذلك، وبهذا تتجاهل حقيقة وجود قواعد معينة من السلوك يجب مراعاتها إن كان للمجتمع أن يتماسك معاً، لذلك عجز بيرنهام أن يرى بأن جرائم وحماقات النظام النازي يجب أن تؤدي بمسار أو آخر إلى كارثة، وكذلك في إعجابه الوليد بالستالينية أيضاً. من المبكر جداً التحدث عن الطريقة التي سيدمر النظام الروسي نفسه فيها. إن كان علي التكهن، يجدر بي القول إن استمرار سياسات روسيا في الخمس عشرة سنة الأخيرة - والسياسة الداخلية والخارجية طبعاً مجرد وجهين لشيء واحد - فلن تقود إلا إلى حرب تدار بقنابل نووية وتجعل من غزو هتلر يبدو حفلة شاي. وفي كل الأحوال إن النظام الروسي إما سيدقرط نفسه أو يفنى. إمبراطورية العبيد الأبدية الضخمة التي لا تغلب، لن تصمد طويلاً وتدوم، لأن العبودية لم تعد أساساً مستقراً للمجتمع الإنساني.

لا يستطيع المرء أن يقوم بتنبؤات إيجابية دائماً، لكن هناك مرات ينبغي أن يكون المرء قادراً فيها على القيام بتنبؤات سلبية. لم يكن متوقعاً من أحد أن يتنبأ بالنتائج الدقيقة لمعاهدة فرساي، لكن ملايين الناس المفكرين استطاعوا وتنبئوا بأن تلك النتائج ستكون سيئة، واستطاع عدد وافر من الناس، ليسوا كثيرين جداً في هذه الحالة، التنبؤ بأن نتائج التسوية المفروضة على أوروبا الآن ستكون سيئة أيضاً، وأن الإحجام عن الإعجاب بهتلر أو ستالين أيضاً يجب ألا يستلزم جهداً عقلياً هائلاً.

لكنه جهد أخلاقي جزئياً. أن يرى رجل بمواهب بيرنهام لوهلة أن النازية شيء مثير للإعجاب وشيء ربما يبني نظاماً اجتماعياً عملياً ومتيناً، يبين مدى الضرر الكبير الذي لحق بالإحساس في الواقع بواسطة تغذية ما يسمى الآن بـ"الواقعية".

رأي بيرنهام في الصراع العالمي المعاصر

إحدى الأفكار الخاطئة المتبقية من القرن التاسع عشر ولازالت تؤثر على أفكارنا، هي أن حربين رئيسيتين لا يمكن أن تنشبا معاً خلال بضع سنين. صحيح أن الحرب الأهلية الأمريكية والحرب الفرانكوبروسية حدثتا بنفس الوقت تقريباً، لكنهما كانتا في قارتين مختلفتين، وخاضهما أناس مختلفون. وإلا فإن القاعدة ستفهم بأنك لا تستطيع أن تجعل الناس يتحاربون، إلا حين يكون كل من يتذكر كيف كانت الحرب الأخيرة قد تجاوز عمر تجنيده العسكري. حتى الفجوة بين الحربين العالميتين - واحد وعشرون سنة - كانت كبيرة بما يكفي لتضمن أن عدد الرجال الذين شاركوا فيهما كجنود عاديين قليل جداً. ولهذا السبب نوقش الاعتقاد الغامض المنتشر أو الأمل بأن الحرب العالمية الثالثة لن تندلع قبل عام ١٩٧٠ بتفاؤل أن "كل أنواع الأشياء يمكن أن تحدث" في ذلك الوقت.

لكن القنبلة الذرية بدلت كل هذا كما أشار جيمس بيرنهام. كتابه نتاج للأسلحة الذرية: إنه مراجعة وهجر تقريباً لصورته السابقة للعالم على ضوء حقيقة أن الأمم الكبرى الآن في وضع يمكنها أن تبيد بعضها فعلاً. حين تصل الأسلحة إلى هذا المستوى من القدرة على الإماتة لا يستطيع المرء أن يخاطر ويسمح للعدو بالضربة الأولى، لهذا بمجرد أن تمتلك أمتان القنابل الذرية، سيحدث الانفجار مباشرة. في رأي بيرنهايم أمامنا عشر سنوات أو على الأرجح خمس سنوات قبل الحرب العالمية الثالثة التي تأججت بشكل غير رسمي منذ ١٩٤٤ ودخلت في طورها العلني.

لا شك ليس من الضروري القول ما هي القوى التي ستتحارب. هدف بيرنهام الرئيسي من كتابة كتابه هو حثّ الولايات المتحدة وتحريضها كي تغتنم المبادرة وتؤسس ما يرقى إلى إمبراطورية عالمية الآن، قبل أن تبتلع الشيوعية كل أوراسيا. إن الاستمرار الفعلي للحضارة كما يقول مهدد بوجود الأسلحة الذرية، وليس هناك وقاية سوى التأكد بألا تمتلكها سوى أمة واحدة فقط. مثالياً، يمكن ضبط الطاقة الذرية من قبل سلطة دولية، لكن لا يوجد شيء كهذا، ومن غير المحتمل في الزمن الطويل القادم. وفي الوقت الحالي المتنافسان الوحيدان

على السلطة العالمية هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. لكن الصراع ليس مجرد صراع بين الديمقراطية الغربية والشيوعية. إن تعريف بيرنهام للشيوعية أساسي للكتاب ويجدر التوقف لتفحصه.

إنه لا يقبل بالتعريف واسع الانتشار الآن بأن الشيوعية مجرد إمبريالية روسية: من وجهة نظر الكتاب إنها حركة عالمية أصيلة والاتحاد السوفيتي ليس إلا القاعدة أو النواة التي ستبتلع الدول الواحدة بعد الأخرى في نظامها. لو غطى النظام كل الأرض فسيظل "وسط أوراسيا" بلا شك المركز الحقيقي للسلطة والحكومة، لكن عالم الشيوعية لا يعني تماماً غزو روسيا بواسطة شكل خاص من التنظيم الاجتماعي. إن الشيوعية ليست حركة سياسية بالمعنى العادي: إنها حركة تآمرية عالمية للاستيلاء على السلطة. هدفها تأسيس نظام مشابه للنظام السائد في روسيا السوفيتية في كل مكان - أي أنها نظام الجماعية تقنياً لكنها تركز كل السلطة في بضعة أيد قليلة جداً أساسها العمل القسري واستئصال كل الخصوم الحقيقيين أو الوهميين بواسطة الإرهاب، ويمكنها أن تمتد إلى خارج المدى الضارب للجيش الأحمر، لأن لها في كل دولة قلة من الناس المناصرين المخلصين وعدد أكبر من المخدوعين بدرجة ما، وآخرين أيضاً من الذين يقبلون بالشيوعية طالما هي التي ستفوز ولم يتوفر لهم بديل آخر. أما في البلدان التي لا يستطيعون السيطرة عليها، فيقوم الشيوعيون بدور الطابور الخامس، ويعملون من خلال منظمات خفية من شتى الأنواع، ويتلاعبون بطموحات الطبقة العاملة وجهل الليبراليين الطيبين، وهدفهم الدائم إضعاف المعنويات ضد اليوم الذي تندلع فيه الحرب، وكل النشاطات الشيوعية موجهة نحو هذه الحرب في الحقيقة. إذا لم يمكن إجبار الشيوعية على التراجع إلى الوضع الدفاعي ممكناً، فلن تظل هناك فرصة لتفادي الحرب بما أن حتمية "الصراع النهائي" جزء من الأسطورة اللينينية التي تحظى بتصديق، وكأنها بند من الإيمان.

بعد مناقشة طبيعة الشيوعية والسياسة الخارجية الروسية، يتفحص بيرنهام الوضع الاستراتيجي. "الشيوعية - أي الاتحاد السوفيتي مع الأمم التابعة له والطوابير الخامسة - تملك أفضليات هائلة في القوة البشرية والموارد الأولية في قلب أرض أوراسيا المعزول وفي

الجاذبية الشيوعية الشبيهة بالدين، وربما في نوعية قيادتها قبل كل شيء. القادة الكبار للحركة الشيوعية رجال ليس لهم أي هدف في الحياة سوى الاستيلاء على السلطة، ولا تُقلق الأخلاق ضمائرهم، وهم غير ملزمين بالاهتمام بالرأي العام فهم خبراء ومتعصبون بينما خصومهم هواة خرقاء غير متحمسين. من جانب آخر إن "الشيوعية" متخلفة تقنياً، وتعاني من ضعف في كونها أسطورة لا يصدقها سوى الناس الذين لم يروا الحكم الروسي عن قرب. إن الولايات المتحدة ضعيفة في القوة البشرية بالمقارنة، وموقعها الجغرافي ليس قوياً جداً بالمطلق، لكن في الناتج الصناعي والتكنيك تتقدم على كل منافسيها بأشواط، ولديها حلفاء محتمون في كل أنحاء العالم وخصوصاً في أوروبا الغربية. لذلك أكبر عائق للولايات المتحدة عدم وجود أي نظرة عالمية محددة وواضحة لديها: إذا فهم الأمريكيون قوتهم والخطر الذي يهددهم أيضاً، يصبح الوضع قابلاً للاسترداد والتعويض.

يناقش بيرنهام ماذا يجب فعله وماذا يمكن فعله، وماذا سيتم فعله على الأرجح. يشطب السلمية كعلاج عملي. من حيث المبدأ يمكنها (السلمية) حل أمراض العالم، لكن بما أن أعداداً هامة من الناس لا يمكن إقناعهم واستمالتهم لتبنيها، فهي لا تقدم سوى الخلاص لعدد قليل من الأفراد وليس للمجتمعات. البدائل الحقيقية أمام العالم هيمنة الشيوعية وهيمنة الولايات المتحدة. ومن الواضح تفضيل الأخيرة، ويجب على الولايات المتحدة أن تعمل بسرعة وخفة، وتوضح هدفها دون أي التباس. يجب أن تشرع في اقتراح اتحاد – ليس تحالفاً وإنما اندماج تام – مع بريطانيا والدول التابعة لها، وتجاهد لجذب كل أوروبا الغربية في فلكها. يجب عليها أن تقتلع بلا رحمة الشيوعية داخل حدودها. وتنصب نفسها علناً وصراحة بطل العالم ضد الشيوعية، وتدير دعاية متواصلة لشعوب البلدان المحتلة من قبل روسيا وللشعب الروسي نفسه أيضاً وتوضح لهم أنهم ليسوا هم الأعداء وإنما حكامهم. يجب أن تتبنى أشد موقف ممكن نحو الاتحاد السوفييتي، وتدرك دوماً أن التهديد أو الإيماء إن لم يدعما بالقوة العسكرية فلا طائل منهما. يجب أن تقف إلى جانب أصدقائها وتدعمهم، ولا تقدم هبات من الغذاء والآلات إلى أعدائها. والأهم أن تكون للولايات المتحدة سياسة واضحة. إن لم تكن لديها خطة محددة ومفهومة وواضحة من أجل تنظيم العالم، فلن تستطيع اغتنام المبادرة من الشيوعية. في هذه النقطة بالذات بيرنهام متشائم جداً. في الوقت

الحاضر الشعب الأمريكي ككل ليس لديه إدراك للوضع العالمي، والسياسة الخارجية الأمريكية ضعيفة ومتقلبة ومتناقضة. يجب أن تكون هكذا - بمعزل تام عن تخريب "رفاق السفر" وإقحام السياسة الداخلية - لأنها لا تملك هدفاً عاماً طاغياً. في تلخيصه للسياسة للولايات المتحدة، يشير بيرنهام إلى ما يمكن عمله فقط. أما ما يمكن حدوثه فهو أكثر إرباكاً وتذبذباً، وسيؤدي في ظرف خمس سنوات أو عشر إلى حرب تدخلها الولايات المتحدة في وضع غير موات وخطير.

هذا هو الموجز العام لحجة بيرنهام، لكنني أعدت ترتيب ما عرضه قليلاً. يتضح أنه يطالب بحرب وقائية فورية ضد روسيا. صحيح أنه لا يريد أن تحدث حرب، ويعتقد أنه يمكن منعها إن أظهرت الصلابة الكافية. لكن المغزى الأساسي من خطته: يجب ألا تمتلك القنابل الذرية سوى دولة واحدة وسيملكها الروس عاجلاً أو آجلاً إن لم يُعطلوا بحرب. كما يتضح أيضاً أن بيرنهام يهجر بشكل كبير صورته السابقة للعالم وليس الوجه الجغرافي منها فقط. في **الثورة الإدارية** تنبأ بيرنهام بظهور دول كبرى لن تكون قادرة على هزم بعضها البعض وتتقاسم العالم فيما بينها. الآن تضاءلت الدول الكبرى إلى اثنتين، وبفضل الأسلحة الذرية كلاهما لا تغلبان. لكن تبدل أكثر من ذلك. في الثورة الإدارية فهمنا ضمناً أن الدول الكبرى الثلاث ستكون متشابهة جداً. ستكون كلها شمولية واستبدادية في تركيبتها، أي أنها ستكون جماعية وليست ديمقراطية وستحكمها فئة من الإداريين والعلماء والبيروقراطيين الذين سوف يدمرون الرأسمالية ذات الأسلوب القديم ويخضعون الطبقة العاملة دائماً. في عبارة أخرى - سيسود شيء يشبه "الشيوعية" نوعاً ما في كل مكان. في **الميكيافيليين** أخفض من نغمة نظريته، لكنه استمر بالإصرار على أن السياسة ليست إلا صراع من أجل السلطة، وأن الحكومات يجب أن تُؤسس على القوة والخداع. الديمقراطية غير عملية، وفي كافة الأحوال لا تريدها الجماهير ولن تضحي دفاعاً عنها. في كتابه الحالي يبدو بيرنهام في الواقع بطل الديمقراطية من النمط القديم. الآن يقرر أن هناك مقداراً كبيراً في المجتمع الغربي يستحق المحافظة عليه. إن الإداريانية مع عملها القسري والترحيل والمجازر والمحاكمات المدبرة، ليست المرحلة التالية المحتومة في التطور البشري، ويجب علينا أن نتحد ونقمعها قبل أن يفوت الأوان. يجب أن تحتشد كل القوى المتاحة فوراً تحت

راية العداء للشيوعية. إنه برنامج رجعي محافظ في الحقيقة، يدعو إلى حب الحرية والحشمة العادية، وليس إلى عاطفة دولية.

قبل انتقاد أطروحة بيرنهام، هناك شيء واحد يجب أن يقال. إن لدى بيرنهام شجاعة فكرية ويكتب عن قضايا حقيقية، وهو متأكد بأنه سيُدان ويُشجب كمروج للحروب بسبب كتابة هذا الكتاب. لكن إن كان الخطر حاداً كما يعتقد، سيكون المسار الذي اقترحه هو المسار الصحيح على الأرجح: وأكثر من هذا إنه يتحاشى الموقف الريائي المعتاد في "تجريم" السياسة الروسية، وبنفس الوقت يستنكر أن يكون الذهاب إلى الحرب صحيحاً في أي ظرف. أما في السياسة الدولية فيرى إما أن تكون مستعداً لممارسة التهدئة دائماً وبشكل غير محدود، أو أن تكون مستعداً للحرب في نقطة معينة. ويرى أيضاً أن التهدئة سياسة غير واقعية، لأن الأمة العظيمة التي تشعر بقوتها لا تسير فيها أبداً. سيشعر المرء من كل الذي سيحدث عاجلاً أو آجلاً بطلب ما لا يمكن التسامح معه، فيتخبط في حرب ربما كان تفاديها ممكناً لو أنه أخذ موقفاً قوياً وثابتاً مسبقاً. إن قول أشياء كهذه غير دارج في هذه الأيام، وبيرنهام يستحق الفضل في قولها، لكن هذا لا يعني أنه محق في حجته الأساسية. الشيء المهم هو عامل الوقت. كم لدينا من الوقت قبل لحظة الأزمة؟ بيرنهام كالعادة يرى كل شيء في أشد ألوانه كآبة، ولا يسمح لنا إلا بخمس سنوات أو عشر على الأكثر. إن كان ذلك صحيحاً ستكون الإمبراطورية العالمية الأمريكية هي الأمل الوحيد. من جانب آخر، إذا كنا نملك عشرين سنة نناور فيها، فهناك احتمالات أخرى وأفضل ينبغي ألا نهملها.

إذا لم تكن العلامات مخادعة جداً، فإن الاتحاد السوفييتي يتحضر لحرب ضد الديمقراطيات الغربية. وفي الواقع كما يقول بيرنهام بشكل محق إن الحرب حدثت مسبقاً في حرب اعتباطية ومتقطعة. متى ستندلع وتتحول إلى صراع شامل، فهذا سؤال صعب يثير كل أنواع المشاكل العسكرية والاقتصادية والعلمية التي لا يملك الصحفي أو المراقب السياسي أي معلومات ومعطيات عنها. لكن هناك نقطة واحدة مهمة جداً لحجة بيرنهام التي يمكن مناقشتها بشكل مفيد، وهي موقف الأحزاب الشيوعية و"رفاق السفر" والاتكال الذي وضعته عليهم الاستراتيجية الروسية.

يشدد بيرنهام على تكتيك "الارتشاح" الشيوعي. الشيوعيون ورفاقهم العلنيون والسريون والليبراليون الذين يلعبون لعبتهم بغير معرفة، موجودون في كل مكان. إنهم في النقابات وفي القوات المسلحة وفي إدارة الدولة وفي الصحافة وفي الكنائس وفي المنظمات الثقافية، في كل عصبة واتحاد ولجنة مع أهداف تقدمية مزعومة، يتسربون داخل كل شيء مثل فيروس عابر للمصفاة. في الوقت الراهن ينشرون الفوضى والسخط، وعندما تأتي الأزمة سيضربون بكل قوتهم فوراً، وعلاوة على ذلك فإن الشيوعي مختلف تماماً نفسياً عن كائن إنساني عادي كما يرى بيرنهام:

الشيوعي الحقيقي...... "إنسان مكرس لغرض ما". ليس لديه حياة خارج منظمته ومجموعة أفكاره المنظمة بشكل صارم. كل شيء يفعله وكل شيء يملكه، العائلة والوظيفة والمال والمعتقد والأصدقاء والحياة، كل شيء يخضع لشيوعيته وهو ثانوي بالنسبة إليها. إنه ليس شيوعياً في يوم الانتخاب أو في مراكز الحزب فقط. هو شيوعي دائماً. يأكل ويمارس الحب ويفكر ويذهب إلى الحفلات ويبدل مكان إقامته ويضحك ويهين كشيوعي دائماً. بالنسبة إليه العالم مقسوم إلى صنفين اثنين من البشر: الشيوعيون وكل البقية.

ومرة أخرى:

لقد كشفت محاكمات موسكو الصورية الطبيعة الحقيقة الدائمة للأخلاق الشيوعية: أي يجب ألا تكون ممتلكات الفرد المادية وحياته ثانوية وخاضعة فقط، وإنما سمعته وضميره وشرفه وكرامته أيضاً. يجب عليه أن يكذب ويتذلل ويغش ويبلغ ويخون من أجل الشيوعية ويموت أيضاً. ليس هناك قيد ولا حد.

هناك مقاطع كثيرة مشابهة. كلها تبدو صحيحة، حتى يبدأ المرء بتطبيقها على الشيوعيين الذين يعرفهم فعلياً. لا شك أن وصف بيرنهام لـ"الشيوعي الحقيقي" جيد ويناسب بضع مئات الآلاف أو الملايين من الناس المتعصبين والمجردين من إنسانيتهم الذين أغلبهم داخل الاتحاد السوفييتي ويشكلون نواة الحركة. ويعتبر وصفه لكل من ستالين ومولوتوف وجدانوف إلخ ولعملائهم الأكثر إخلاصاً من في الخارج جيداً. لكن هناك حقيقة واحدة صحيحة ومصادقة عن الأحزاب الشيوعية في أغلب البلدان، وهي الانقلاب السريع في

عضويتها. اندفع الناس للدخول بعشرات الآلاف في المرة الواحدة أحياناً، والآن يندفعون للخروج مرة أخرى. في بلد مثل الولايات المتحدة أو بريطانيا يتألف الحزب الشيوعي أساساً من حلقة داخلية من الأعضاء الخانعين تماماً الطويلي الأمد الذين لبعضهم وظائف مدفوعة ومن جماعة أوسع من العمال الصناعيين المخلصين للحزب، لكنهم لا يفهمون بالضرورة أهدافه الحقيقية ومن كتلة متغيرة من الناس الذين يملأهم الحماس، ليبدأوا لكنهم يبردون بسرعة. بالتأكيد إن كل جهد يبذل يهدف إلى إقناع أعضاء الحزب الشيوعي بالعقلية الشمولية التي يصفها بيرنهام، وقد حقق هذا نجاحاً دائماً في بضع الحالات ونجاحاً مؤقتاً في حالات كثيرة: لكنك يمكن أن تقابل أشخاصاً مفكرين ظلوا شيوعيين عشر سنين قبل أن يستقيلوا أو يطردوا ولم يتعطلوا فكرياً بالتجربة. مبدئياً إن الأحزاب الشيوعية في كل أرجاء العالم منظمات بائعة للأوطان (خائنة) موجودة لهدف التجسس والتمزيق، لكنها ليست بالضرورة كفوءة جداً وخطرة كما يوحي بيرنهام. لا ينبغي أن يعتقد المرء بأن الحكومة السوفييتية تسيطر في كل دولة على جيش ضخم سري من المحاربين المتعصبين، الذين لا يعرفون الخوف ولا تنتابهم الشكوك، وليس لديهم أية فكرة سوى أن يعيشوا أو يموتوا من أجل وطن العمال الأم. في الواقع إن كان ستالين ميالاً إلى مثل هذا السلاح فإن المرء سيضيع وقته في مقاومته.

ليس من مصلحة حزب سياسي تماماً أن يبحر تحت راية مزيفة. هناك دائماً خطر أن يهجره أتباعه في لحظة أزمة حين تكون أفعاله ضد الصالح العام بشكل واضح. دعني أضرب مثالاً في المتناول. لقد تخلى الحزب الشيوعي البريطاني كما يبدو على الأقل في الوقت الحالي، عن محاولة أن يصبح حزباً جماهيرياً، وبدلاً من ذلك ركز على انتزاع مواقع رئيسة خصوصاً في نقابات العمال. طالما لا يتصرف الشيوعيون كجماعة قطاعية بشكل واضح، فهذا يعطيهم تأثيراً أكبر من نسبتهم العددية. ولهذا ونظراً لفوز حفنة من المندوبين الشيوعيين بقيادة عدة نقابات، تستطيع هذه الحفنة التحكم بعدة ملايين من الأصوات في مؤتمر واحد لحزب العمل، وهذا ناتج عن العمل غير الديمقراطي الداخلي للحزب الشيوعي الذي يسمح لمندوب أن يتكلم عن ملايين الناس الذين لم يسمعوا به، أو ربما هم في خلاف تام معه. في الانتخابات البرلمانية حيث يصوت الفرد عن نفسه، لا يستطيع المرشح الشيوعي كقاعدة أن يحصل على أي دعم.

في الانتخابات العامة لعام ١٩٤٥ فاز الحزب الشيوعي بـ ١٠٠٠٠٠ صوت فقط في كل البلاد، رغم أنه كان يتحكم بملايين الأصوات داخل النقابات العمالية نظرياً. حين يكون الرأي العام ثابتاً وهاجعاً تستطيع مجموعات من محركي الأسلاك الخفيين إنجاز الكثير، لكن في أوقات الطوارئ يجب أن يكون للحزب السياسي جمهور يتبعه أيضاً. مثال واضح عن هذا فشل الحزب الشيوعي البريطاني بالرغم من المحاولات الكثيرة، في تعطيل جهد الحرب أثناء الفترة ما بين ١٩٣٩ - ١٩٤١. إن الشيوعيين في كل مكان قوة خطيرة بالتأكيد، وبالأخص في آسيا؛ حيث يملكون أو يستطيعون تقديم أنفسهم ظاهرياً بأنهم يملكون شيئاً ما يقدمونه للسكان المستعمرين. لكن على المرء ألا يفترض، كما فعل بيرنهايم، أنهم يستطيعون جذب أتباع وراءهم مهما كانت السياسة التي يتبنونها.

هناك أيضاً قضية "رفاق السفر" و"الأعضاء السريين" والمتعاطفين من أطياف متنوعة الذين يعززون أهداف الشيوعيين دون أن تكون لهم أية رابطة رسمية معهم. لا يدعي بيرنهام أن كل هؤلاء الناس محتالون أو خونة، لكن يعتقد كما يبدو أنهم يستمرون دائماً في نفس اللحن حتى لو تدهور الوضع العالمي إلى حرب مفتوحة. أخيراً "رفاق السفر" المتحررون من الوهم شخص مثل الشيوعي المتحرر من الوهم. الشيء المهم عمله مع هؤلاء الناس - صعب جداً لأن المرء لا يملك سوى دليل استنتاجي - فرزهم وتحديد الصادق وغير الصادق منهم. هناك مثلاً مجموعة كاملة من أعضاء البرلمان في البرلمان البريطاني (بريت وزيلاكوز إلخ) الذي لقبوا بشكل مشترك وعام بـ"الأعضاء السريين". هم بلا شك تسببوا في الكثير من الأذى وخصوصاً في تشويش الرأي العام حول طبيعة الأنظمة الدمى الحاكمة في أوروبا الشرقية، لكن على المرء ألا يتسرع ويفترض أنهم كلهم كذابون بالتساوي أو أنهم يعتنقون الآراء ذاتها حتى. ربما بعضهم لم يدفعه سوى الغباء. أخيراً هكذا أشياء حدثت من قبل.

وهناك أيضاً الانحياز المؤيد للفاشية من قبل التوريين البريطانيين والطبقة المشابهة لهم في الولايات المتحدة في سنوات قبل ١٩٣٩. حين يرى المرء عضو برلمان يبتهج ويهلل لخبر قصف الطائرات الإيطالية التي تخدم فرانكو للسفن البريطانية، هذا يغريك للاعتقاد بأن هؤلاء الناس خونة بالفعل لبلادهم، لكن حين تأتي الفرصة (الضغط - الحرمان) يكتشف

أنهم وطنيون مثل الآخرين. إنهم بنوا آراءهم على قياس منطقي ينقصه الطرف الأوسط: الفاشية معادية للشيوعية لذلك هي في جانبنا. في دوائر الجناح اليساري هناك قياس منطقي مطابق: الاشتراكية معادية للرأسمالية لذلك هي تقدمية وديمقراطية. هذا غباء، لكنه يمكن أن يُقبل بقصد طيب من قبل القادرين على إدراك الحقيقة عاجلاً أو آجلاً. السؤال ليس إن كان "الأعضاء السريون" و"رفاق السفر" يقدمون مصالح الاتحاد السوفييتي على مصالح الديمقراطيات. من الواضح أنهم يفعلون هذا. السؤال الحقيقي هو كم منهم سيستمر بنفس الخط إن كانت الحرب وشيكة فعلاً؟ الحرب الكبرى - إلا إن كانت حرباً شنها بضعة من الاختصاصيين مثل بيرل هاربور بقنابل ذرية - غير ممكنة، حتى تصبح القضايا واضحة تماماً.

لقد توقفت عند مسألة الطوابير الخامسة داخل البلدان الديمقراطية، لأنها أقرب للإثبات من القضايا الأخرى التي يطرحها كتاب بيرنهام. بخصوص الاتحاد السوفييتي نفسه اقتصرنا على التخمين. نحن لا نعرف كم الروس أقوياء وكم عطلتهم الحرب، وعلى ماذا يعتمد شفاؤهم وإلى أي مدى سيعتمد شفاؤهم على المساعدة الأمريكية، وكم حجم السخط الداخلي الذي يواجهونه أو متى سيمتلكون الأسلحة الذرية. كل ما نعرفه بشكل مؤكد عدم وجود أي دولة كبرى في الوقت الحاضر تستطيع مادياً شن حرب سوى الولايات المتحدة، والولايات المتحدة ليست جاهزة نفسياً لفعل هذا. في نقطة ما حيث يتيسر دليل ما، يبدو بيرنهام لي أنه غالى في حالته، وهذه خطيئة مغرية باستمرار. إنه مغرم بالرؤى الدينية الغامضة ومستعد جداً للاعتقاد أن كل التطورات التاريخية المشوشة تحدث فجأة وبشكل منطقي. لكن أفترض أنه مخطئ. أفترض أن السفن لن تغرق وإنما ترشح فقط. أفترض أن الشيوعية ليست قوية بعد لتبتلع العالم، وأن خطر الحرب تأجل إلى عشرين سنة أو أكثر: عندها لن نقبل بعلاج بيرنهام - أو على الأقل لن نجبر على قبوله فوراً ومن غير جدال.

تتطلب نظرية بيرنهام، إن قبلت، أفعالاً فورية معينة.

الشيء الأول، أنها تطالب كما يبدو بحرب وقائية في المستقبل القريب طالما يمتلك الأمريكيون القنابل الذرية ولا يمتلكها الروس. حتى لو كان هذا الاستنتاج غير مبرر، فليس

هناك شكوك حول الطبيعة الرجعية لبرنامج بيرنهام في نقاط أخرى. مثلاً، لقد رأى في كتاباته في عام ١٩٤٦ أن الاستقلال التام يجب ألا يُعطى للهند لأسباب استراتيجية. هذا النوع من القرار يمكن أن يُؤخذ تحت ضغط ضرورة عسكرية، ولكنه غير مبرر في أي ظرف آخر. وها هو بيرنهام مرة أخرى يؤيد قمع الحزب الشيوعي الأمريكي والقيام بالفعل بشكل تام وكامل، ما يعني استخدام نفس الوسائل التي استخدمها الشيوعيون ضد خصومهم حين يكونون في السلطة. الآن هناك أوقات يبرر فيها قمع حزب سياسي. إن كنت تقاتل من أجل حياتك، وإن كانت هناك منظمة ما تعمل لصالح العدو علناً وقوية بما يكفي لتلحق الضرر بك، إذاً اسحقها وحطمها. لكن أن تقمع الحزب الشيوعي الآن أو في أي وقت لا يهدد فيه البقاء الوطني بشكل واضح، سيكون كارثياً. يجب على المرء المفكر استحسان الناس فقط! يدعي بيرنهام وقد يكون على صواب، أنه حين تتوطد الإمبراطورية الأمريكية يبات من الممكن الانتقال إلى هيئة عالمية مقبولة ومرضية أكثر. لكن المناشدة الأولى من برنامجه يجب أن تكون للمحافظين، وإن وجدت مثل تلك الإمبراطورية سيكون التأثير الثقافي الأقوى فيها للكنيسة الكاثوليكية.

في الوقت الراهن، هناك حل واحد ممكن تصوره في أي حال يهمله بيرنهام ويرفضه ولا يذكره تقريباً. ذلك، في مكان ما أو آخر - ليس في النرويج أو نيوزيلاندا وإنما فوق منطقة واسعة - أن نجعل الاشتراكية الديمقراطية تنجح. لو استطاع أحد تحقيق الأمان الاقتصادي بدون معسكرات العمل القسري ستختفي ذريعة الديكتاتورية الروسية، وستفقد الشيوعية الكثير من جاذبيتها. لكن المنطقة الملائمة والعملية الوحيدة هي أوروبا الغربية زائد أفريقيا. إن فكرة تشكيل هذه المنطقة الواسعة إلى ولايات اشتراكية متحدة لم تكسب أي رأي مويد بعد والمصاعب العملية والنفسية التي في الطريق هائلة. لكنه يظل مشروعاً ممكناً إن أراده الناس بشكل حقيقي وإن كانت هناك عشر سنوات أو عشرين من السلام الأكيد لتنفيذه في الواقع. وبما أن المبادرة يجب أن تأتي من بريطانيا في المقام الأول، الشيء الهام أن تتجذر هذه الفكرة وتترسخ وسط الاشتراكيين البريطانيين. في الوقت الحاضر إن كان لفكرة أوروبا موحدة أي انتشار يذكر، فذلك مرتبط بتشرشل. هنا يعود المرء إلى واحدة من النقاط الرئيسية في برنامج بيرنهام - اندماج بريطانيا مع الولايات المتحدة.

يعتقد بيرنهام أن الصعوبة الرئيسية في الطريق سيكون الكبرياء الوطني، بما أن بريطانيا ستكون الشريك الصغير. في الواقع لم يتبقَّ هناك الكثير من ذلك النوع الكبرياء، ولم يكن منذ سنين كثيرة مضت. بالمجمل، شعور عدائي للأمريكان في أشد قوته عند المعادين للإمبريالية والعسكرة. هذا ليس صحيحاً بالنسبة إلى الشيوعيين و"رفاق الطريق" الذين يتشوقون لفعل الضرر والأذى فقط، وإنما للناس الطيبين الذين يرون أن ربطهم بأمريكا ربما يعني رأسمالية محافظة في بريطانيا. لقد سمعت مراراً أو شاركت في أحاديث كهذه:

"كم أكره الأمريكيين! أحياناً يجعلوني أشعر بتأييد الروس تقريباً".

"نعم، لكنهم في الواقع ليسوا أعداءنا. إنهم ساعدونا في عام ١٩٤٠ حين كان الروس يبيعون النفط للألمان. لن نستطيع الوقوف على أقدامنا أطول من ذلك، وفي النهاية يجب علينا أن نختار بين الخضوع لروسيا أو الدخول مع أمريكا".

"أنا أرفض أن أختار. كلاهما قاطعي طريق تماماً".

"نعم لكن أفترض أنه عليك أن تختار. افترض أنه ليس هناك مخرج آخر، وأنك مجبر أن تعيش تحت النظام الأول أو الآخر. أيهما ستختار، روسيا أم أمريكا؟"

"أوه حسناً، طبعاً، إن كان المرء مجبراً على أن يختار، فليس هناك شك حولها - أمريكا طبعاً".

لقد أدرك الناس أن الاندماج مع الولايات المتحدة سيكون الطريق الوحيد للخروج من مصاعبنا. في الحقيقة، لقد كنا بلداً تابعاً تقريباً للولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٠ وورطتنا الاقتصادية اليائسة تدفعنا في هذا الاتجاه بشكل أسرع. إن الاتحاد الذي يرغب به بيرنهام قد يحدث من تلقاء ذاته وبدون ترتيب رسمي وبدون خطة أو فكرة خلفه. وأعتقد أن أقلية قليلة جداً صاخبة تفضل الاندماج مع النظام السوفيتي. إن الكتلة الكبرى من الشعب البريطاني لن تقبل بهذا أبداً، لكن الأشخاص المفكرين بينهم، لن يأخذوا في اعتبارهم البديل الممكن - الامتصاص من قبل أمريكا - بحماسة. أغلب اليساريين الإنكليز في الوقت الحاضر يؤيدون سياسة تافهة في "التعايش والانسجام مع روسيا" بأن نكون أقوياء بما يكفي لمنع هجوم، وضعفاء بما يكفي لنزع الشكوك. تحت هذا يكمن

الأمل أنه حين يصبح الروس أكثر ازدهاراً ربما يصبحون أكثر وداً ولطفاً. الطريق الآخر لخروج بريطانيا من أزمتها هو اتحاد الولايات الأوروبية الاشتراكية، الذي لاتزال له الكثير من الجاذبية بعد. وكلما طغت وسادت رؤية بيرنهام وأمثاله التشاؤمية للعالم، فإن صعوبة ظهور مثل تلك الأفكار وتمكنها تزداد.

يقدم بيرنهام خطة قد يكون لها حظ في النجاح ولكنها شريرة، ويجب ألا تُقبل عن طيب خاطر. في النهاية قد تقبل الشعوب الأوروبية بهيمنة أمريكية كطريقة لتجنب الهيمنة الروسية، لكن ينبغي أن يدركوا، بينما لايزال هناك الوقت، أن هناك إمكانيات أخرى. بنفس الطريقة تقريباً، لقد قبل الاشتراكيون بكافة ألوانهم تقريباً قيادة تشرشل أثناء الحرب حتى بفرض أنهم لم يريدوا لبريطانيا أن تهزم، ولأنه لا يستطيعون القيادة بأنفسهم ولعدم وجود أحد آخر فعال غيره، وكان تشرشل مفضلاً عند هتلر. لكن لو استطاعت الشعوب الأوروبية أن تفهم طبيعة الفاشية قبل خمس سنوات، لكان الوضع مختلفا، وفي تلك الحالة لكانت الحرب التي حدثت حرباً من نوع آخر، حرب حارب فيها الناس تحت قادة مختلفين ولغايات مختلفة.

إن ميل الكتاب من أمثال بيرنهام الذي فكرته الرئيسية هي "الواقعية"، أن يبالغ في تقدير الدور الذي تلعبه القوة الصرفة في العلاقات الإنسانية. أنا لا أقول إنه مخطئ طول الوقت. إنه محق تماماً في الإصرار على أن العرفان بالجميل ليس عاملاً في السياسات الدولية وحتى السياسة السامية لا فائدة منها، إذا لم تظهر طريقة عملية لتنفيذها وتفعيلها، وأنه في علاقات الأمم والمجتمعات، مقارنة بالأفراد، لا يستطيع المرء أن يأمل بأكثر من حلول مؤقتة ومنقوصة. وهو محق أيضاً في الجدل بأن المرء لا يستطيع أن يطبق على السياسة نفس القواعد الأخلاقية التي يطبقها أو يحاول أن يطبقها في حياته الخاصة الشخصية. لكن صورته عن العالم دائماً مشوهة قليلاً بطريقة ما. الثورة الإدارية مثلاً، يبدو لي وصفاً جيداً لما يحدث في أقسام مختلفة من العالم أي نمو المجتمعات ليس رأسمالياً وليس اشتراكياً ومنظم تقريباً على أساس نظام الطائفة. لكن بيرنهام يستمر في الجدل، بما أن هذا كان الذي يحدث، فليس هناك شيء غيره يمكن أن يحدث وأن الدولة الشمولية المتماسكة بإحكام يجب أن تكون أقوى من

الديمقراطيات الهيولية. لذلك - من بين أشياء أخرى - ألمانيا يجب أن تكسب الحرب. حتى بعد أن انهارت ألمانيا ولو جزئياً على الأقل بسبب بنيتها الشمولية. أي دولة أكثر ديمقراطية وأقل كفاءة، لم تكن ترتكب هكذا أخطاء في السياسة والاستراتيجية، ولم تكن ستثير هذا الحجم الكبير من الكره في كل أرجاء العالم.

إن كتاب بيرنهام أكثر من مجرد اقتراح لتنصيب إمبراطورية أمريكية طبعاً وهناك الكثير من التفاصيل الذي يتفق معه المرء فيها. أعتقد أنه محق إلى حد بعيد في وصفه للطريقة التي تعمل فيها الدعاية الشيوعية وفي صعوبة مجابهتها، وهو محق بالتأكيد في قوله إن واحدة من أهم المشاكل في هذه اللحظة، إيجاد طريقة لمخاطبة الشعب الروسي من وراء حكامهم. لكن الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب مثل كل شيء كتبه بيرنهام هو السلطة. بيرنهايم دائماً مفتون بالسلطة أن كان يؤيدها أو يقف ضدها، ودائماً يراها أكبر بقليل من الحياة. أولاً من كان سيبتلع العالم هي ألمانيا ثم روسيا بعدها، والآن أمريكا ربما. حين نشر كتابه الثورة الإدارية، تولد لدي انطباع أن وجدان بيرنهام وتعاطفه بالمجمل مع ألمانيا، وأنه قلق بكل الأحوال ألا تخسر الولايات المتحدة عبثاً بالمجيء لإنقاذ بريطانيا. المقال الذي نوقش كثيراً "وريث لينين" والذي كان أطروحة - أثر أدبي بالأحرى - عن قوة ومكر ووحشية ستالين، يمكن أن يُفسر كتعبير إما عن الاستحسان أو الاستهجان. أنا نفسي اعتبرته تعبيراً عن الاستحسان والقبول، لكن من النوع المروع.

هذا يبدو خطأ الآن. بيرنهام لا يؤيد ستالين أو الستالينية، وبدأ يجد فضائل في الديمقراطية الرأسمالية التي كان يعتبرها في حالة من السبات والاحتضار، ولكن نغمة سحر لاتزال فيها. قد تكون الشيوعية شريرة، لكنها كبيرة في أي حال مثل وحش مفترس، يقاتل المرء ضده دون أن يستطيع تفادي الإعجاب به. يعتقد بيرنهام دائماً بالوحوش والجوائح. لهذا لم يذكر احتمالين على الأقل كان يجب عليه أن يناقشهما في كتاب من هذا النوع. الأول أن النظام الروسي الحاكم ربما يصبح أكثر ليبرالية وأقل خطورة بعد جيل من الآن، إن لم تندلع الحرب في الوقت الفاصل. طبعاً هذا لن يحدث بموافقة الزمرة الحاكمة، لكن يمكننا أن نتصور أن ميكانيكا الوضع قد تحدثه. الإمكانية الأخرى أن

القوى العظمى سترتعب من آثار الأسلحة الذرية، ولن تستخدمها أبداً، لكن هذا يبدو باهتاً جداً وبطيئاً لبيرنهام. كل شيء يجب أن يحدث فجأة وتماماً، ويجب أن يكون الخيار كل شيء أو لا شيء قابلاً للتحقق المجد أو الخراب:

ربما تؤدي كآبة المأساة الكبرى إلى تسريع نهاية التاريخ القصير والساطع للولايات المتحدة - لأن هناك ما يكفي من الحقيقة في الحلم بالعالم الجديد بأن يجعل الفعل مأساوياً. لقد استدعيت على الولايات المتحدة قبل أن تكتمل التمارين والتجارب. قوتها ووعدها لم تنضجهما حكمة الزمن والمعاناة. والطلبات ليست أقل من قيادة العالم، هذا أو لا شيء. من المعقول توقع الفشل وذلك مجرد قياس لحجم الانتصار المأمول.

قد تكون الأسلحة الحديثة سرعت الأشياء إلى النقطة التي يمكن أن يكون فيها بيرنهام محقاً، لكن لو حكم المرء من الماضي ومن الكوارث الهائلة مثل سقوط الإمبراطورية الرومانية، فإن التاريخ لا يحدث أبداً بهذا الشكل الميلودارمي. نيوليدر (نيويورك) ٢٩ مارس ١٩٤٧.

نحو وحدة أوروبية

إن الاشتراكي اليوم في موقع طبيب يعالج كل شيء ماعدا الحالة الميئوس منها، ومن واجبه كطبيب إبقاء المريض على قيد الحياة، وبالتالي الافتراض أن للمريض فرصة في الشفاء على الأقل، ولكن من واجبه كعالم أيضاً أن يواجه الحقائق، وبالتالي أن يعترف أن المريض ربما يموت. ليس لنشاطاتنا كاشتراكيين أي معنى إلا إذا سلمنا بأن الاشتراكية يمكن أن تتوطد، لكن لو توقفنا لتأمل ما يحتمل أن يحدث، علينا عندئذ أن نعترف أن الفرص ضدنا في اعتقادي. لو كنا ناشري كتب ونحسب ببساطة الاحتمالات الراجحة ونترك رغباتنا جانباً، لأعطيت أفضليات ضد بقاء الحضارة خلال المائة سنة القادمة. فهناك ثلاثة احتمالات أمامنا:

١ - سيقرر الأمريكيون استعمال القنبلة الذرية طالما هم يملكونها ولا يملكها الروس. هذا لن يحل شيئاً. سوف تتخلص من خطر محدد تمثله جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية الآن، لكنها ستؤدي إلى ظهور إمبراطوريات جديدة وتنافسات جديدة وحروب أكثر وقنابل ذرية أكثر..إلخ. في كل حال هذه هي النتيجة الأقل احتمالاً بين الثلاث في رأيي، لأن الحرب الوقائية جريمة لا تغتفر بسهولة في بلاد تحتفظ بأقل قدر من الديمقراطية.

٢ - ستستمر 'الحرب الباردة' الحالية حتى يمتلك الاتحاد السوفييتي وبلدان أخرى غيره القنابل الذرية أيضاً. عندها فقط سيكون هناك فاصل قصير قبل أن نطلق الصواريخ وتنطلق القنابل وتمسح المراكز الصناعية العالمية عن وجه الأرض بشكل عصي على الإصلاح وحتى لو انبثقت دولة واحدة أو مجموعة من الدول من هكذا حرب كمنتصر تقني ستكون عاجزة عن بناء حضارة الآلة من جديد، لذلك سيسكن العالم مرة أخرى بضعة ملايين أو بضعة مئات الآلاف من الكائنات البشرية التي ستعتاش على مورد الزراعة، وربما بعد جيلين اثنين لن نحتفظ من حضارة الماضي بأكثر من معرفتنا كيف نصهر المعادن. هذا نتيجة مرغوبة في تصوري، لكن من الواضح أنها لا علاقة لها بالاشتراكية.

٣ - سيكون الخوف الذي أثارته القنبلة الذرية وأسلحة أخرى لم تأتِ بعد عظيماً، لذلك سيمتنع كل واحد عن استعمالها. يبدو لي هذا الاحتمال الأسوأ من الكل، وسوف يعني تقسيم

العالم بين دولتين أو ثلاث دول عظمى عاجزة عن هزم بعضها البعض ولا يمكن الإطاحة بها بواسطة عصيان داخلي وستكون تركيبتها في كل الاحتمالات تراتبية، تتربع طائفة شبه مقدسة في القمة وعبودية صريحة في القاع، وسيفوق سحق الحريات فيها أي شيء شهده العالم، وسيتم الحفاظ ضمن كل دولة على الجو النفسي الضروري بواسطة الفصل التام عن العالم الخارجي وبواسطة حرب زائفة مستمرة ضد الدول المنافسة. حضارة من هذا النوع قد تبقى راكدة لآلاف السنين.

إن أغلب الأخطار التي أوجزتها موجودة وتم التنبؤ بها منذ زمن طويل قبل اختراع القنبلة الذرية، والطريقة الوحيدة لتفاديها التي أستطيع تخيلها، أن نقدم في مكان ما أو آخر وعلى صعيد واسع مشهداً لمجتمع الناس فيه أحرار وسعداء نسبياً، والدافع الرئيسي في الحياة فيه ليس السعي وراء المال أو السلطة. بعبارة أخرى يجب أن تمكن الاشتراكية الديمقراطية من العمل في منطقة كبرى ما. لكن المنطقة الكبرى الوحيدة التي يمكن أن تعمل فيها في أي مستقبل قريب هي أوروبا الغربية. بمعزل عن أستراليا ونيوزلندا، لا يمكن القول بوجود بيئة اشتراكية ديمقراطية إلا في الدول الاسكندنافية وألمانيا والنمسا وتشيكسلوفاكيا وسويسرا والبلدان المنخفضة وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا وإيطاليا، حتى هنا لا توجد إلا في مخاطر. في تلك البلدان فقط هناك أعداد ضخمة من الناس لازال لكلمة اشتراكية بعض الجاذبية ومرتبطة بالحرية والمساواة والدولية بالنسبة إليهم. أما في أي مكان آخر فليس لها ولو موطئ قدم أو أنها تعني شيئاً مختلفاً. في أمريكا الشمالية الجماهير قانعة بالرأسمالية ولا يستطيع المرء أن يتنبأ بأية دورة سيأخذون حين تبدأ الرأسمالية بالانهيار. هناك، في الاتحاد السوفييتي، يسود نوع من الجماعية الأوليغاركية، التي يمكن أن تتطور فقط إلى اشتراكية ديمقراطية ضد إرادة الأغلبية الحاكمة. في آسيا اختُرقت كلمة 'اشتراكية' بصراحة. الحركات القومية الآسيوية إما حركات فاشية بطبيعتها أو تتطلع نحو موسكو أو نجحت في الجمع بين الموقفين: وفي الوقت الحاضر كل الحركات وسط الشعوب الملونة تشوبها مسحة من التصوف العرقي. في أمريكا الجنوبية الوضع مماثل في الجوهر وهكذا الأمر في أفريقيا والشرق الأوسط. لا توجد الاشتراكية في أي مكان آخر، وحتى كفكرة هي غير سارية إلا في أوروبا في الوقت الحاضر. طبعاً لا يمكن القول إن الاشتراكية لن تتوطد حتى تصبح في كل أرجاء العالم، لكن العملية

يجب أن تبدأ في مكان ما، ولا أستطيع تخيلها أن تبدأ إلا من خلال اتحاد دول أوروبا الغربية وتحولها إلى جمهوريات اشتراكية بدون ملاحق استعمارية. لذلك دول أوروبا الاشتراكية المتحدة تبدو لي الهدف السياسي الجدير الوحيد اليوم. هكذا اتحاد سيضم ٢٥٠ مليون نسمة وربما يشمل نصف العمال الصناعيين المهرة في العالم. أنا لست بحاجة لأن يقال لي إن صعوبات تحقيق شيء كهذا هائلة ومرعبة، وسأدرج بعضها في قائمة في لحظة، لكن ينبغي علينا ألا نشعر أنها مستحيلة في طبيعتها أو أن البلدان المختلفة جداً عن بعضها البعض لن تتوحد طوعياً. إن اتحاد أوروبي غربي بحد ذاته هو نتيجة محتملة أكثر من الاتحاد السوفييتي أو الإمبراطورية البريطانية.

والآن إلى المصاعب. الصعوبة الكبرى هي اللامبالاة والنزعة المحافظة للناس في كل مكان وجهلهم للخطر وعجزهم عن تخيل أي شيء جديد - عموماً، كما صاغها برتراند راسل مؤخراً، رفض العرق البشري الإذعان إلى بقائه. لكن هناك أيضاً قوى حقودة فاعلة تعمل ضد الوحدة الأوروبية وهناك علاقات اقتصادية قائمة تعتمد عليها الشعوب الأوروبية في مستوى معيشتها لا تنسجم مع الاشتراكية الحقيقية. أجدول ما يبدو لي أنه العقبات الرئيسية الأربع، وسأشرح كل منها باختصار بقدر الممكن:

١ - الخصومة الروسية. لا يستطيع الروس إلا أن يكونوا عدائيين لأي اتحاد أوروبي غير خاضع لسيطرتهم، لذلك على المرء أن يدخل هذا في حسبانه مع خطر الحرب الوقائية والترهيب المنهج للأمم الأصغر وتخريب الأحزاب الشيوعية في كل مكان، وأهم من ذلك الخطر أن تستمر الجماهير الأوروبية في تصديق الخرافة الروسية. طالما هم يصدقونها لن تكون فكرة أوروبا اشتراكية جذابة بما يكفي لتحريض الجهد الضروري.

٢ - الخصومة الأمريكية. إن ظلت الولايات المتحدة رأسمالية وإن احتاجت إلى أسواق للتصدير خصوصاً، فلن تنظر بعين الود إلى أوروبا اشتراكية. لاشك أن احتمال تدخلها بالقوة الوحشية أقل من الاتحاد السوفييتي، لكن الضغط الأمريكي عامل هام ويمكن ممارسته بسهولة على بريطانيا الدولة الوحيدة في أوروبا التي تقع خارج الفلك الروسي. منذ عام ١٩٤٠ حافظت بريطانيا على وقفتها ضد الديكتاتوريين الأوروبيين على حساب أن تصبح تقريباً بلدا تابعاً للولايات المتحدة. في الواقع لا تستطيع بريطانيا أن تتحرر من أمريكا، إلا

بإسقاط محاولتها بأن تكون قوى أوروبية زائدة. إن السيادات الناطقة بالإنكليزية التابعة لبريطانيا والبلدان المستعمرة ما عدا أفريقيا وحتى موارد بريطانيا من النفط كلها رهائن بيد أمريكا. لذلك هناك دائماً الخطر بأن تفكك الولايات المتحدة أي تحالف أوروبي بسحب بريطانيا منه.

٣ - الإمبريالية. تدين الشعوب الأوروبية وخصوصاً الشعب البريطاني منذ وقت طويل بمستوى معيشتها العالي، إلى الاستغلال المباشر أو غير المباشر للشعوب الملونة. هذه العلاقة لم توضحها الدعاية الشيوعية الرسمية أبداً، وبدلاً من أن يخبروا العامل البريطاني أنه يعيش فوق دخله بالمعايير العالمية، علموه أن يعتبر نفسه عبداً مستغلاً ومجهداً بالعمل. بالنسبة إلى الجماهير في كل مكان تعني الاشتراكية أو تترافق على الأقل مع أجور أعلى وساعات عمل أقصر وبيوت أفضل وتأمين اجتماعي شامل..إلخ، لكننا بالتأكيد لا نستطيع توفير هذه الأشياء إن تخلينا عن المنافع التي نجنيها من الاستغلال الاستعماري. كيفما قسمنا الدخل القومي بالتساوي، فإن هبط الدخل ككل يجب أن يهبط معه مستوى معيشة الطبقة العاملة، وفي أفضل الأحوال ستكون هناك فترة طويلة وغير مريحة من إعادة التنظيم والبناء لم يُحضر الرأي العام لها. لكن بنفس الوقت يجب على الأمم الأوروبية أن تكف عن استغلالها في الخارج إن كانت تنوي بناء اشتراكية حقيقية في أوطانها. إن الخطوة الأولى نحو اتحاد أوروبي اشتراكي بالنسبة إلى البريطانيين أن يخرجوا من الهند، لكن هذا يستلزم شيئاً آخر. لكي تكون الدول الأوروبية المتحدة مكتفية ذاتياً وقادرة أن تستجمع قواها وتدافع عن نفسها ضد روسيا وأمريكا، يجب أن تشمل معها أفريقيا والشرق الأوسط، لكن هذا يعني ضرورة تغيير موقف الشعوب الأصلية في تلك البلدان بواسطة الاعتراف بها - أي يجب ألا تبقى المغرب وإثيوبيا مستعمرات أو شبه مستعمرات، وتصبح جمهوريات مستقلة ذاتياً وعلى مساواة تامة مع الشعوب الأوروبية. هذا يشترط تغيراً واسعاً في وجهة النظر وصراعاً مريراً ومعقداً قد لا يُسوى بدون سفك دم. حين تأتي الشدة تنقلب قوى الإمبريالية لتكون قوية جداً، والعامل البريطاني الذي علموه أن ينظر إلى الاشتراكية بشروط مادية، قد يقرر أخيراً أن الأفضل له أن يبقى قوة إمبريالية بدلاً من أن يرضى بدور ثانوي لدى أمريكا. في كل الأحوال ستواجه الشعوب الأوروبية التي ستشكل جزءاً من الاتحاد المزعوم نفس الخيار في درجات مختلفة.

٤ - الكنيسة الكاثوليكية. بازدياد الصراع بين الشرق والغرب الذي بات مكشوفاً، هناك خطر أن يندفع الاشتراكيون الديمقراطيون والرجعيون إلى نوع من جبهة شعبية. الكنيسة هي الجسر المحتمل بينهما. في أي حال ستبذل الكنيسة كل جهدها للاستيلاء على أي حركة تهدف إلى وحدة أوروبية وإجدابها. الشيء الخطير حول الكنيسة أنها ليست رجعية في العقل العادي، وهي ليست مرتبطة بالرأسمالية أو بالنظام الطبقي القائم، ولن تفنى معهما بالضرورة، وهي قادرة تماماً أن تتصالح مع الاشتراكية أو تتظاهر بذلك، بشرط أن يبقى موقعها مصاناً، وستجعل من تأسيس الاشتراكية أمراً مستحيلاً، لأن تأثيرها دائم ويجب أن يكون ضد حرية الفكر والتعبير وضد المساواة الإنسانية وضد أي شكل للمجتمع يميل إلى تعزيز السعادة الأرضية.

حين أفكر بالمصاعب الأخرى، حين أفكر بإعادة الضبط والتعديل العقلي الهائل الذي يجب أن يتم، يبدو لي مظهر الدول الأوروبية الاشتراكية المتحدة حدثاً غير محتمل. لا أقصد أن القسم الأعظم من الناس غير معد ومجهز بطريقة سلبية، وإنما أقصد أنني لا أرى شخصاً أو جماعة من الأشخاص لهم أضعف فرصة في الوصول إلى السلطة وبنفس الوقت لديهم فهم تخيلي واسع ليروا الحاجات الملحة ويطالبوا بالتضحيات الضرورية من أتباعهم. لكنني أيضاً لا أرى أي هدف مشجع في الوقت الحاضر. سابقاً اعتقدت أن تشكيل الإمبراطورية البريطانية وتحويلها إلى اتحاد من الجمهوريات الاشتراكية أمر ممكن، لكن حتى لو وجدت تلك الفرصة، فنحن أضعناها بسبب فشلنا في تحرير الهند وموقفنا نحو الشعوب الملونة عموماً. ربما انتهت أوروبا، وعلى المدى البعيد قد يظهر شكل أفضل للمجتمع في الهند أو الصين، لكنني أعتقد أن أوروبا وليس أي مكان آخر هي التي يمكن أن تصبح فيها الديمقراطية الاشتراكية حقيقة وواقعاً في وقت قصير يكفي لمنع إسقاط القنابل الذرية.

طبعاً، هناك أسباب، إن لم تكن للتفاؤل، فعلى الأقل لإرجاء الحكم على نقاط محددة. أحد الأشياء التي لصالحنا أن الحرب الرئيسية غير محتملة الحدوث فوراً. أعتقد أنه يمكن أن يكون لدينا نوع الحرب الذي يتألف من إطلاق صواريخ وليست حرباً تنطوي على تعبئة عشرات الملايين من الرجال. في الوقت الحاضر أي جيش ضخم قد يتفكك، وهذا قد يبقى صحيحاً لعشر سنوات أو حتى عشرين. خلال ذلك الوقت قد تحدث أشياء غير متوقعة. فمثلاً قد

تظهر حركة اشتراكية جبارة لأول مرة في الولايات المتحدة. في إنكلترا الحديث الرائج الآن أن الولايات المتحدة دولة 'رأسمالية' مع المعنى الضمني بأن هذا شيء غير قابل للتغيير وهو نوع من صفة عرقية كلون العيون أو الشعر. لكن في الواقع لا يمكن أن تكون عصية على التغيير، لأن الرأسمالية نفسها ليس لها مستقبل كما هو واضح ونحن غير واثقين مقدماً من أن التغيير التالي في الولايات المتحدة لن يكون تغييراً نحو الأفضل.

ثم نحن لا نعرف ما هي التغيرات التي ستحدث في الاتحاد السوفييتي أيضاً إن استطاع الجيل التالي تفادي الحرب. في مجتمع من ذلك النوع فإن التغيير الراديكالي غير مرجح دائماً ليس لأنه لا يمكن أن تكون هناك معارضة علنية، وإنما لأن نظام الحكم بسيطرته التامة على التعليم والأخبار..إلخ يهدف متعمداً إلى منع الحركة النشطة المطردة بين الأجيال التي تحدث في المجتمعات الليبرالية. لكننا كلنا نعرف أن النزعة عند كل جيل في رفض أفكار الجيل السابق هي صفة إنسانية ثابتة تعجز عن اجتثاثها حتى وزارة الداخلية السوفييتية. في تلك الحالة بحلول عام ١٩٦٠ ربما يكون هناك الملايين من الشباب الروس الذين يضجرون من الديكتاتورية ومواكب الولاء ويتوقون إلى مزيد من الحرية وينظرون إلى الغرب بعين الود.

أو يمكن أن ينقسم العالم إلى ثلاث دول عظمى لا تُقهر أيضاً وتكون البيئة الليبرالية قوية بما يكفي ضمن القسم الأنغلو - أمريكي من العالم لتجعل الحياة مقبولة وتوفر بعض الأمل في التقدم أيضاً، لكن هذا تخميناً واحتمالات، وعلى النظرة الحقيقية والتفكير الجدي أن ينطلقا من الواقع.

نشرت لأول مرة في بارتيزان ريفيو - تموز/ يوليو - أب/ أغسطس ١٩٤٧ المقالات المجمعة صحافة ورسائل أورويل.

بلادي يمينية أم يسارية تظل بلادي

عكساً للاعتقاد الشعبي، لم يكن الماضي زاخراً بالأحداث أكثر من الحاضر، وإن بدا هكذا، فذلك لأنك حين تنظر إلى الأشياء التي حدثت منذ سنين كل على حدة تكون مضغوطة ومتداخلة معاً ولأن قلة قليلة من ذكرياتك تعود إليك نقية بشكل صادق، ويعود أغلب السبب إلى الكتب والأفلام والذكريات الماضية المختلفة عنها، فتبدو الحرب التي حدثت بين ١٩١٤ - ١٩١٨ كأنها تمتلك صفة هائلة وملحمية تفتقر إليها الحرب الحالية.

لكن لو كنت حياً أثناء تلك الحرب وعزلت ذكرياتك الحقيقية عن إضافاتها المتأخرة، لوجدت أنها لم تكن الأحداث الكبيرة المعتادة التي هيجتك مرة، فأنا لا أعتقد أن معركة مارني مثلا، لها الخاصية الميلودرامية (المثيرة) التي أعطيت لها فيما بعد عند الجمهور العام، ولا أتذكر أنني سمعت عبارة "معركة مارني" إلا بعد سنوات من حدوثها أنها كانت مجرد أن الألمان كانوا على بعد اثنين وعشرين ميلًا عن باريس - وبالتأكيد كان ذلك مروعاً جداً بعد قصص الأعمال الوحشية في بلجيكيا - ثم تراجعوا إلى الوراء لسبب ما. كنت في الحادية عشرة من العمر حين بدأت الحرب. لو فرزت ذكرياتي بصدق وتغاضيت عما تعلمته فيما بعد، لوجب علي أن أعترف أنني لم أتأثر بشيء خلال السنة كلها بعمق مثلما فعل بي فقدان التايتانيك قبل ذلك بقليل. هذه كارثة صغيرة بالمقارنة صدمت العالم كله ولم تتلاشَ الصدمة تماماً بعد. أنا أتذكر التقارير والأخبار المفصلة الفظيعة التي قرأتها بصوت عالٍ على طاولة الإفطار (في تلك الأيام كانت قراءة الصحيفة بصوت عال عادة شائعة) وأتذكر من بين كل قائمة الطويلة للأحداث المرعبة أن الحدث الذي أثر بي أكثر من الكل أن التايتانيك انقلبت فجأة أخيراً وغرقت مقدمتها أولاً، وارتفع الناس الذين تشبثوا بمؤخرة السفينة إلى أكثر من ثلاثمائة قدم في الهواء، قبل أن يغطسوا ويغرقوا في اللج، وولد في نفسي إحساساً كئيباً في البطن، لا أزال أشعر به، ولم يكن فيها في كل الحرب شيء ولد في نفسي مثل هذا الإحساس تماماً.

من نشوب الحرب، لدي ثلاث ذكريات نشطة لكونها تافهة ولا علاقة لها بالموضوع والتي لم تتأثر بأي شيء أتى لاحقاً. واحدة عن الصورة الكاريكاتورية للإمبراطور الألماني (أعتقد أن الاسم البغيض "القيصر" لم يصبح جماهيرياً إلا بعد وقت لاحق) التي ظهرت في الأيام الأخيرة من تموز يوليو. صدم الناس ببرود من السخرية من شخصية ملكية (لكنه في الحقيقة رجل وسيم!) رغم أننا كنا على حافة الحرب. الذكرى الأخرى حين صادر الجيش كل الخيول في بلدتنا الريفية الصغيرة، وبكى سائق عربة نقل في السوق حين أخذوا منه حصانه الذي كان يعمل عنده سنوات. والذكرى الثالثة لجمهرة من الشبان في محطة القطار تزاحموا من أجل صحف المساء التي وصلت لتوها في قطار لندن، وأتذكر كومة الصحف الخضراء (بعضها مازال أخضر في تلك الأيام) والياقات العالية والسراويل الضيقة والقبعات السوداء المستديرة، أفضل بكثير مما أستطيع تذكره عن أسماء المعارك الرهيبة التي كانت مستعرة على الجبهة الفرنسية.

في منتصف سنوات الحرب، أتذكر بشكل رئيس الأكتاف القوية وبطات الساق المتورمة والمهاميز المجلجلة لجنود المدفعية، الذين فضلت زيهم الرسمي على زي جنود المشاة. بالنسبة إلى الفترة النهائية الحاسمة، إن سألتني أن أتحدث بصدق عن الذكرى الرئيسية عندي، يجب أن أجيب ببساطة - السمن النباتي الصناعي. إنه شاهد على أنانية الأطفال الرهيبة قبل ١٩١٧ ولم تعد الحرب تحرك مشاعرنا إلا عبر بطوننا. في مكتبة المدرسة، خريطة ضخمة للجبهة الغربية ثبتت بإبر على حمالة، مع خيط حريري أحمر يسير بخط على دبابيس الرسم. أحياناً يتحرك الخيط بوصة بهذا الاتجاه أو ذاك، كل حركة تعني هرماً من الجثث. لم أبد أي اهتمام. كنت في المدرسة مع صبيان كانوا فوق متوسط مستوى الذكاء، ومع ذلك لا أتذكر أن حدثاً رئيسياً واحداً من ذلك الوقت بدا لنا في دلالته الحقيقية. الثورة الروسية مثلاً لم تترك أي أثر علينا، ماعدا قلة صدف أن لآبائهم أموالاً مستثمرة في روسيا. بين الصغار جداً دخل رد الفعل الرافض لحمل السلاح قبل أن تنتهي الحرب بوقت طويل، واعتبر الإهمال والتجرؤ على الاستعراضات العسكرية في المدارس وعدم الاكتراث بالحرب علامة تنوير. الضباط الصغار الذين عادوا وتقسوا بتجربتهم الرهيبة واشمأزوا من موقف الجيل الأصغر الذين لم تعنِ لهم تلك التجربة أي شيء، كانوا يوبخوننا على وهننا. طبعاً لم يستطيعوا إبراز

أي برهان كنا قادرين على فهمه، ولم يستطيعوا سوى النباح بوجهك بأن الحرب "شيء جيد" و"تجعلك صلب العود" و"تحفظ لياقتك" إلخ..إلخ. وكنا نسخر منهم فقط، وكانت حجتنا العوراء (السلامية - رفض حمل السلاح)، بأن الحرب امتياز للبلدان المحمية بأساطيل قوية. لسنوات بعد الحرب ظلت أية معرفة أو اهتمام بالمسائل العسكرية حتى لو معرفة أي طرف من البندقية تخرج منه الرصاصة شبهة بالدوائر "المتنورة". ١٩١٤ - ١٩١٨ شُطبت كمذبحة لا معنى لها، وحتى الرجال الذين ذبحوا تعرضوا للوم بطريقة ما. ضحكت مراراً عند التفكير في ذلك الملصق الخاص عن التطوع. "ماذا فعلت في الحرب العظمى يا أبي؟" (طفل يسأل هذا السؤال والده المصاب بالخزي) وكل الرجال الذين جرى إغراؤهم في الدخول إلى الجيش بذلك الملصق فقط، وبعد أن احتقرهم أولادهم لأنهم لم يكونوا من المعارضين ذوي الضمير الحي.

لكن الرجال الموتى نالوا انتقامهم أخيراً. بعد أن انتهت الحرب وأصبحت من الماضي، أدرك جيلي بالخصوص - هؤلاء الذين كانوا "صغاراً جداً" - سعة التجربة التي ضيعها، فكنت تشعر أنك أقل من رجل لأنك فقدتها. أمضيت السنوات ١٩٢٢ - ١٩٢٧ وسط أناس أكبر مني عمراً بقليل، خاضوا تجربة الحرب. تحدثوا عنها بلا توقف، برعب طبعاً، لكن بحنين متزايد بشكل ثابت أيضاً. تستطيع رؤية هذا الحنين تماماً بوضوح في كتب الحرب الإنكليزية. بالإضافة إلى ذلك، كان رد فعل رافضي حمل السلاح مجرد طور وحتى "الصغار جداً" تدربوا جيداً للحرب. أغلب أفراد الطبقة الوسطى تدربوا على الحرب من المهد فصاعداً ليس فنياً وإنما أخلاقياً. الشعار السياسي الأقدم الذي أتذكره هو "نحن نريد (ثمانية دروع) ولن ننتظر". في سن السابعة كنت عضواً في عصبة البحرية، ولبست بدلة بحار مع "سفينة ملكية لا تغلب" على قبعتي. حتى قبل مدرستي العامة، كنت في كتيبة التلاميذ في مدرسة خاصة. بشكل متقطع كنت أمشي بخطى قصيرة ببندقية منذ أن كنت في العاشرة، استعداداً ليس للحرب فقط بل لنوع خاص من الحرب، حرب ترتفع فيها البنادق إلى نشوة مسعورة من الضجيج، وفي اللحظة المعينة تتسلق وتخرج من الخندق وتكسر أظافرك على أكياس الرمل وتتعثر عبر الوحل والأسلاك تحت وابل من رصاص البنادق الرشاشة. أنا مقتنع أن قسماً من سبب الافتتان بالحرب الإسبانية الأهلية للأشخاص الذين بعمري تقريباً،

لأنها كانت تشبه الحرب الكبرى كثيراً. في أوقات معينة قدر فرانكو على الزج بطائرات كافية ورفع الحرب إلى المستوى الحديث، وكانت هذه نقاط تحول. لكن بقيتها كانت نسخة رديئة من ١٩١٤ - ١٩١٨، حرب خنادق موضعية ومدفعية وغارات جوية وقناصين وأسلاك شائكة وقمل وركود. في بداية عام ١٩٣٧ كان الجزء من جبهة أراغون الذي كنت فيه مثل قطاع هادئ في فرنسا في عام ١٩١٥. لم تنقصه سوى المدفعية. حتى في المناسبات النادرة التي كانت كل المدافع في هويسكا وخارجها تطلق النار في وقت واحد، لم تكن تخلق سوى ضجيج متقطع غير مؤثر مثل انتهاء عاصفة رعدية وكانت القذائف من عيار ست بوصات التي تطلقها مدفعية فرانكو تصدر صوتاً عالياً، لكن لم يكن منها أكثر من دزينة في المرة الواحدة. أعرف بماذا شعرت حين سمعت المدفعية تطلق نيرانها لأول مرة "بغضب" كما يقولون، كان شعوراً بالخيبة إلى حد ما، وكان مختلفاً جداً عن الهدير الهائل غير المتقطع الذي كانت تنتظره حواسي لمدة عشرين سنة.

لا أعرف تماماً في أية سنة عرفت لأول مرة بيقين أن الحرب الحالية قادمة. بعد عام ١٩٣٦ طبعاً كان الشيء واضحاً لكل شخص ما عدا الأبله. لسنوات كثيرة كانت الحرب القادمة كابوساً لي، حتى أني ألقيت خطباً وكتبت كراسات ضدها في بعض الأوقات. وفي الليلة التي سبقت إعلان المعاهدة الروسية الألمانية، حلمت أن الحرب بدأت. كان واحداً من تلك الأحلام التي مهما كان معناه الداخلي الفرويدي، فهو يكشف لك أحياناً عن الحالة الحقيقية لمشاعرك. لقد علمني شيئين اثنين، الأول أنني يجب أن أكون هادئاً ومرتاحاً حين تبدأ الحرب الطويلة المروعة، ثانياً لأنني كنت وطنياً في الصميم، فلن أشارك في أي عمل تخريبي ضد بلادي أو أقاتل ضدها، وسأؤيد الحرب وأقاتل فيها إن أمكن. نزلت إلى الطابق السفلي لأجد الجرائد تعلن عن ذهاب ريبنتروب جواً إلى موسكو [في ٢١ آب/ أغسطس دعي ريبنتروب إلى موسكو، وفي ٢٣ أغسطس وقع هو ومولوتوف المعاهدة الروسية الألمانية]. لهذا كانت الحرب قادمة، وكانت الحكومة حتى حكومة تشامبرلاين متأكدة من ولائي. لا حاجة إلى القول إن هذا الولاء كان ويبقى مجرد إيماءة، لأن كل واحد تقريباً يعرف أن الحكومة رفضت بصراحة أن تستخدمني في أي عمل مهم، حتى لو كان كاتباً في مكتب أو جندياً. لكن ذلك لا يغير مشاعر المرء، وسوف يجبرون على الاستفادة منا عاجلاً أو آجلاً أيضاً.

إن كان عليّ أن أدافع عن مبرراتي لتأييد الحرب، فيمكنني فعل ذلك كما أعتقد. ليس هناك بديل حقيقي بين مقاومة هتلر والاستسلام له. ومن وجهة نظر اشتراكية، يجب أن أقول إن الأفضل أن تقاوم. وفي كل الأحوال، لا أرى أية حجة تفضل الاستسلام لا تتفه المقاومة الجمهورية في إسبانيا والمقاومة الصينية لليابان إلخ..إلخ، لكني لا أزعم أن ذلك كان الأساس العاطفي لأفعالي. ما عرفته في حلمي في تلك الليلة، كان تلك الوطنية الثاقبة الطويلة التي تشعر بها وتحملها الطبقات الوسطى، والتي فعلت فعلتها، وعرفت أنه من المستحيل لي أن أخرب بمجرد أن تكون إنكلترا في ورطة خطيرة. لكن يجب ألا أدع أحداً يسيء فهم ما أعنيه. إن الوطنية تختلف تماماً عن النزعة المحافظة، وليس لها أية علاقة بها. هي إخلاص وحب لشيء يتبدل، لكنك تشعر بشكل غامض أنها نفسه مثل حب البلاشفة البيض السابقين لروسيا. أن تكون مخلصاً لإنكلترا تشامبرلاين وإنكلترا الغد، فهذا يبدو استحالة لو لم يعرف المرء أنها ستكون ظاهرة يومية. إن الثورة فقط هي التي تستطيع أن تنقذ إنكلترا، وكان ذلك واضحاً منذ سنين، لكن الآن الثورة بدأت وقد تتقدم بسرعة كبيرة، إن استطعنا إقصاء هتلر. وخلال سنتين وربما سنة سنرى تغييرات ستدهش البلهاء الذين ليس لديهم بصيرة إن استطعنا أن نتماسك ونصمد. وأظن أن بالوعات لندن ستسيل دماً. حسناً ليكن ذلك إن كان هناك ضرورة. لكن حين تتمركز الميليشيات الحمر رسمياً في الريتز، سأظل أشعر أن إنكلترا التي تعلمت حبها منذ زمن طويل جداً لأسباب مختلفة جداً، مستمرة بطريقة ما.

ترعرعت في جو مشبوب بالروح العسكرية، وبعد ذلك أمضيت خمس سنوات مملة ضمن صوت الأبواق، وإلى هذا اليوم يسبب عدم الوقوف باستعداد أثناء "أطال الرب عمر الملك" شعوراً واهناً من تدنيس المقدسات. ذلك طفولي طبعاً، لكن لو لم يكن لدي هذا النوع من التربية، لكنت مثل مثقفي الجناح اليساري "المتنورين" جداً لدرجة أنهم يستطيعون فهم أغلب العواطف العادية. إنهم بالضبط الأشخاص الذين لا تثب قلوبهم بالفرح أبداً بمنظر العلم الاتحادي الذي سيجفل من الثورة حين تحين اللحظة. دع أي شخص يقارن قصيدة جون كورنفورد التي كتبها قبل أن يقتل بوقت ليس بطويل ("قبل قصف هويسكا") مع قصيدة السير هنري نيوبولت "هناك صمت مطبق في البقعة

المسيجة الليلة"[1]. ضع جانباً الاختلافات الفنية التي هي مجرد مسألة عصر، وسترى أن المحتوى العاطفي للقصيدتين نفسه بالضبط تقريباً. الشيوعي الصغير الذي مات بشكل بطولي في اللواء الأممي كان مدرسة حتى الصميم. لقد تحدى ولاءه، ولكن ليس عواطفه. ماذا يثبت ذلك؟ يثبت إمكانية بناء شخص اشتراكي على عظام شخص بليمب (محافظ) وقدرة نوع واحد من الولاء على التحول والتغير من شكل إلى آخر، ويثبت أيضاً أن الحاجة الروحية إلى الوطنية والقيم العسكرية، التي مهما كان حب الأرانب المهتاجة من اليسار لها قليلاً، لم يوجد لها بديل حتى الآن.

١- قبل قصف هويسكا

يا فؤاد العالم المتحجر
أيها الفؤاد الغالي، التفكير بك
وجع في خاصرتي،
يظل يقشعر مشهدي.

الريح تهب في المساء
تذكرني باقتراب الخريف
أخشى أن أفقدك
أخشى من خشيتي.

عند آخر ابتسامة هويسكا،
آخر سياج لكبريائنا
توقع بصدر رحب يا عزيزي أنني
أحسك بجانبي.

وإذا الحظ العاثر دفن قوتي

في داخل قبر سطحي

تذكر كل الجيد الذي تستطيعه

لا تنس حبي.

٢- هناك صمت مطبق في البقعة المسيجة الليلة

هناك سكون يحبس الأنفاس في البقعة المسيجة لليلة

لتحقيق عشرة والفوز بمباراة

نغمة تسبب الصرع وضوء يعمي البصر

ساعة للهو والرجل الأخير فيها.

وهي ليست من أجل غلاف مزخرف بأشرطة زينة،

أو الأمل الأناني بسمعة آنية،

لكن يد قائده على كتفه ضربت بقوة -

"تباهى! تباهى! والعب اللعبة!"

رمل الصحراء تشبع باللون الأحمر -

أحمر بحطام ركن من الميدان انكسر -

ضُغطت بنادق الغاتلينغ ومات الكولونيل،

وأعمى الغبار والدخان الفوج.

وأُترعت ضفتا نهر الموت،

وإنكلترا بعيدة واللقب اسم،

لكن صوت تلميذ يحشد الصفوف

"تباهوا! تباهوا! والعبوا اللعبة!"

هذا هو العالم سنة تلو أخرى

بينما المدرسة في مكانها نصبت،

كل واحد من أبنائها يجب أن يسمع،

ولا يجرؤ أن ينسى أي شيء مما سمع،

هؤلاء هم كلهم بذهن مبتهج

يحملونه خلال حياتهم مثل مشعل مضطرم

"تباهوا! تباهوا! والعبوا اللعبة!"

كشف السر الإسباني

ربما أنتجت الحرب الإسبانية محصولاً من الأكاذيب أغنى وأكبر من أي حدث آخر منذ الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ لكنني أشك بصدق، رغم كل تلك المجازر عن الراهبات اللواتي اغتُصبن وصُلبن أمام أعين مراسلي الديلي ميل، إن كانت الصحف المناصرة للفاشية هي التي تسببت بمعظم الضرر. من فعل ذلك هما صحيفتا اليسار، ذا نيوز كرونيكل وذا ديلي وركر بأساليبهما الأدهى في التشويه، التي منعت الجمهور البريطاني من إدراك الطبيعة الحقيقية للصراع.

إن الواقع الذي أخفته هذه الصحف بمهارة هو خوف الحكومة الإسبانية (وتشمل حكومة كاتالونيا شبه المستقلة) من الثورة، الذي تجاوز بكثير خوف الفاشيين. من شبه المؤكد الآن أن الحرب سوف تنتهي بنوع من التسوية، وهناك مبرر للشك إن كانت الحكومة التي تركت بيلباو يفشل دون أن ترفع إصبعاً، ترغب بانتصار ساحق، ولكن ليس هناك أدنى شك حول حرصها التام على سحق ثوارها. في وقت ما مضى، كان هناك حكم رعب وهلع - قمع قسري للأحزاب السياسية ورقابة خانقة على الصحافة وتجسس لا يتوقف وحبس جماعي من دون محاكمات. حين غادرت برشلونة في أواخر يونيو/ حزيران كانت السجون متورمة حقاً، لقد فاضت السجون النظامية منذ زمن بعيد وقُذف بالسجناء في المتاجر الفارغة وأي مستودع مؤقت آخر يمكن إيجاده لهم. لكن النقطة التي يجب ملاحظتها أن الناس الذين في السجون الآن ليسوا فاشيين بل ثواراً وقريبين كثيراً من اليسار، وأن الأشخاص المسؤولين الذين وضعوهم هناك هم هؤلاء الثوريون المروعون الذين مجرد ذكر اسمهم يجعل جارفين يرتعد خوفاً في حذائه المطاطي - الشيوعيون.

في الوقت الحالي تستمر الحرب ضد فرانكو، لكن ماعدا العفاريت المساكين الذين في خنادق خط الجبهة، لا أحد في الحكومة الإسبانية يعتبرها حرباً حقيقية. إن الصراع الحقيقي هو بين الثورة والثورة المضادة؛ بين العمال الذين يحاولون عبثاً التمسك بالقليل الذي فازوا به

في عام ١٩٣٦ وكتلة الليبراليين والشيوعيين الذين يسلبونه منهم بنجاح. من الباعث للبؤس أن قلة قليلة فقط من الناس في إنكلترا أدركوا الحقيقة التالية: أن الشيوعية قوة مضادة للثورات، وأن الشيوعيين في كل مكان في تحالف مع الإصلاحية البورجوازية، ويستخدمون كل التهم الكبيرة لسحق أو تكذيب أي حزب يبدي علامات ميول ثورية. وهذا سبب المشهد الخيالي الغريب لمهاجمة الشيوعيين "الحمر" الأشرار، لهجوم من قبل مثقفي الجناح اليميني الذين هم في اتفاق معهم في الجوهر. فالسيد ويندهام لويس مثلاً، ينبغي عليه أن يحب الشيوعيين مؤقتاً على الأقل. في إسبانيا أصبح التحالف الليبرالي الشيوعي منتصراً تماماً تقريباً. من كل ما كسبه العمال الإسبان في عام ١٩٣٦ لم يبق شيء مادي صلب سوى بضع مزارع تعاونية وكمية محدودة من الأرض استولى عليها الفلاحون السنة الماضية، وهؤلاء يُحتمل أن يُضحى بهم لاحقاً حين لا تظل هناك حاجة لإرضائهم. كي نرى كيف انبثق الوضع الحالي، علينا أن نعود إلى الوراء وننظر إلى أصول الحرب الأهلية.

إن ادعاء فرانكو بالسلطة لنفسه، مختلف عن هتلر وموسوليني، كونه تمرداً عسكرياً مشابهاً للغزو الخارجي، ولذلك لم يحظ بدعم جماهيري رغم محاولات فرانكو لاكتسابه منذ ذلك الوقت. كان مؤيدوه الرئيسيون، باستثناء شرائح محددة من رجال الأعمال الكبار، هما الأرستقراطية مالكة الأرض والكنيسة الطفيلية الهائلة، وكان من الواضح أن ظهور هذا النوع سيجمع ضده قوى متنوعة ليست متفقة على أية نقطة أخرى. الفلاحون والعمال يكرهون الإقطاعية والأكليركية؛ ويشاركهم هذا الكره البورجوازي "الليبرالي" الذي لا يعترض على أية نسخة أحدث من الفاشية، طالما أنها لا تُسمى بالفاشية على الأقل. إن البورجوازي الليبرالي ليبرالي حقيقي إلى النقطة التي تتوقف فيها مصالحه الخاصة، ويؤيد درجة التقدم المتضمنة في عبارة "الدرب مفتوح للموهوبين" لأنه كما هو واضح، لا يملك أية فرصة للتطور في مجتمع إقطاعي عماله وفلاحوه فقراء جداً لا يستطيعون شراء بضائعه، وصناعته محملة بأعباء ضرائب ضخمة، يدفعها لأديرة الأساقفة. كل وظيفة مربحة فيه، تذهب بشكل طبيعي إلى صديق غلام ابن الدوق غير الشرعي. لهذا، في وجه رجعية سمجة كرجعية فرانكو، نجد وضعاً مؤقتاً يقاتل فيه العامل والبورجوازي جنباً إلى جنب، ولكنهما في الحقيقة عدوان لدودان. عُرف هذا التحالف المقلقل بالجبهة الشعبية (أو عرف في الصحافة الشيوعية بجبهة

الشعب، ليعطوها جاذبية ديمقراطية منحولة) وهو تجمع حيويته وحقه في التواجد مثل خنزير برأسين أو شكل أو آخر من بشاعة بارنوم وبايلي.

في أي ظرف طارئ جدي، كان التناقض الضمني في الجبهة الشعبية محكوماً بالإشعار عن نفسه، لأنه حتى حين يقاتل كل من العامل والبورجوازي ضد الفاشية، فإنهما لا يقاتلان من أجل الأشياء نفسها؛ يقاتل البورجوازي من أجل الديمقراطية البورجوازية أي الرأسمالية، بينما يقاتل العامل من أجل الاشتراكية بالقدر الذي يفهم فيه القضية. وفي الأيام الأولى من الثورة، فهم العمال الإسبان القضية جيداً جداً، فلم يكتفوا بطرد القوات المتمردة من البلدات في المناطق التي دُحرت فيها الفاشية، بل اغتنموا الفرصة، واستولوا على الأرض والمصانع، وشيدوا البدايات القاسية لحكومة عمالية بواسطة اللجان المحلية والميليشيات العمالية وقوات الشرطة وهلم جرا؛ لكنهم ارتكبوا خطأ (ربما لأن أغلب الثوار النشطين كانوا من الفوضويين الذين لا يثقون بالبرلمانات) في ترك الحكومة الجمهورية بسلطة اسمية، وظلت كل حكومة تالية من نفس الصفة البورجوازية الإصلاحية في إدارييها وموظفيها رغم التغيرات المتنوعة الكثيرة. لم يبدُ هذا الأمر مهماً في البداية، لأن الحكومة وخصوصاً في كاتلونيا، كانت ضعيفة وبلا سلطة تقريباً. وكانت البورجوازية مضطرة ألا تلفت الانتباه أو تتخفى كعمال (كان هذا يحدث حين وصلت إلى إسبانيا في كانون الأول). مؤخراً، حين انزلقت السلطة من أيدي الفوضويين إلى أيدي الشيوعيين والاشتراكيين اليمينيين وباتت الحكومة قادرة على إعادة تأكيد نفسها، خرجت البورجوازية من مخبئها، وظهرت ثانية قسمة المجتمع القديمة إلى أغنياء وفقراء، من دون تعديل يذكر. من الآن فصاعداً أضحت كل حركة، ماعدا بضع حركات أملتها الضرورة العسكرية، موجهة نحو تعطيل العمل الذي أُنجز في ال أشهر القليلة الأولى من الثورة. وسأورد من الصور الإيضاحية التي اخترتها واحدة فقط: تفتيت وتعطيل الميليشيات العمالية القديمة التي نُظمت بنظام ديمقراطي حقيقي وبضباط ورجال يتلقون نفس الأجر ويختلطون بشروط من المساواة التامة واستبدالها بالجيش الشعبي ("جيش الشعب" في اللغة الاصطلاحية الشيوعية مرة أخرى) الذي جعلوه بأقصى ما يمكن نسخة من الجيش البورجوازي العادي مع طبقة محظية من الضباط وفروق هائلة في المرتبات إلخ إلخ، وقُدّم كضرورة عسكرية تساعد على تحسين الكفاءة العسكرية بالتأكيد لفترة قصيرة على

الأقل، لكن كان هدف التغيير الذي لا لبس فيه، هو توجيه ضربة لمذهب المساواة. اتبعت نفس السياسة في كل قسم وإدارة، وكانت النتيجة الفعلية بعد سنة واحدة فقط من اندلاع الحرب والثورة، دولة بورجوازية عادية، بالإضافة إلى عهد حكم من الرعب للحفاظ على الوضع القائم.

لو حدث الصراع من دون تدخل أجنبي، لما وصلت هذه العملية إلى ذلك المدى ربما، لكن الضعف العسكري للحكومة جعل هذا مستحيلاً. أُجبرت الحكومة على أن تلجأ إلى روسيا بحثاً عن العون في وجه مرتزقة فرنسا الأجانب، ورغم المبالغة الكبيرة جداً بكمية الأسلحة التي قدمتها روسيا (في ال أشهر الثلاث الأولى لوجودي في إسبانيا، لم أر سوى سلاح روسي واحد، بندقية آلية فردية) فإن مجرد وصولها، جلب الشيوعيين إلى السلطة. بداية، لقد رفعت الطائرات الروسية والمدافع والصفات العسكرية الجيدة للألوية الأممية (التي لم تكن شيوعية بالضرورة وإنما تحت سيطرة الشيوعيين) هيبة الشيوعيين ومكانتهم بشكل هائل. لكن الأهم، بما أن روسيا والمكسيك كانتا البلدين الوحيدين المزودين بالأسلحة على نحو مكشوف، فإن الروس لم يحصلوا على المال لقاء أسلحتهم فقط، وإنما انتزعوا شروطاً قُدمت بأشد الأشكال فجاجة أيضاً: "اسحقوا الثورة، وإلا فلن تحصلوا على أي أسلحة أخرى". يعزى المبرر إلى الموقف الروسي: أنه لو بدت روسيا تحرّض على الثورة، فسوف يتعرض حلف السوفييت – فرانكو للخطر وربما (التحالف المأمول والمنتظر مع بريطانية العظمى) أيضاً، وربما يثير مشهد ثورة حقيقية في إسبانيا أصداء غير مرغوبة في روسيا. أنكر الشيوعيون طبعاً أي ضغط مباشر مارسته الحكومة الروسية. لكن حتى لو كان هذا حقيقياً، فإنه قلما يكون متصلاً بالموضوع، لأن الأحزاب الشيوعية في كل البلدان تعتبر منفذة للسياسة الروسية؛ ومن المؤكد أن الحزب الشيوعي الإسباني زائد الاشتراكيين اليمينيين الذين يتحكمون بهم زائد الصحافة الشيوعية في العالم كله، استخدموا كل نفوذهم الهائل والمتزايد على الدوام لدعم الثورة المضادة.

في القسم الأول من هذا المقال نوهت بأن الصراع الحقيقي في إسبانيا، من جانب الحكومة، كان بين الثورة والثورة المضادة، وأن الحكومة رغم تلهفها الشديد لتجنب الهزيمة أمام

فرانكو، كانت متلهفة أكثر لتعطيل وتخريب التغييرات الثورية التي ترافقت مع اندلاع الحرب.

هذا الفكرة سيرفضها كل شيوعي ويعتبرها خاطئة أو كذبة متعمدة، وسيخبرك أن الحديث عن سحق الحكومة الإسبانية للثورة عبارة عن هراء، لأن الثورة لم تحدث أبداً؛ وأن مهمتنا في الوقت الحاضر هي دحر الفاشية والدفاع عن الديمقراطية. وفي هذا الصدد فإن الأكثر أهمية أن نرى كيف تعمل الدعاية الشيوعية المضادة للثورة. من الخطأ الاعتقاد أن هذا ليس له صلة بإنكلترا حيث الحزب الشيوعي صغير وضعيف نسبياً. سنرى صلته بسرعة كافية إن دخلت إنكلترا في تحالف مع الاتحاد السوفييتي أو ربما قبل ذلك، لأن تأثير الحزب الشيوعي سيزداد حتما - ويزداد بشكل واضح الآن - بعد تأكد المزيد من الرأسماليين بأن الشيوعية العصرية تلعب لعبتهم.

تعتمد الدعاية الشيوعية عموماً على ترويع الناس من رعب الفاشية (الحقيقي)، وتشمل أيضاً التظاهر - ليس بالتعبير الصريح وإنما الضمني - بأن الفاشية لا علاقة لها بالرأسمالية. الفاشية نوع من الشر الخالي من المعنى وانحراف و"سادية جماعية"، نفس الشيء الذي يحدث إن أطلقت فجأة سراح مجانين قتلة يملؤون مستشفى أمراض عقلية. اعرض الفاشية بهذا الشكل، ويمكنك بذلك تعبئة الرأي العام ضدها لفترة على أي حال، من دون أن تثير أو تستفز أية حركة ثورية. يمكنك معارضة الفاشية بالديمقراطية البرجوازية يعني الرأسمالية، لكن في الوقت الحالي عليك أن تتخلص من الشخص المزعج الذي يشير بأن الفاشية والديمقراطية البرجوازية توأمان يصعب التمييز بينهما. تفعل ذلك بنعته بالمبشر غير العملي، وأنه يشوش القضية ويشق صفوف القوى المناوئة للفاشية، وأن هذه اللحظة ليست للمتاجرة بالعبارات الثورية، ويجب علينا الآن أن نقاتل ضد الفاشية من دون السؤال والبحث الدقيق عن السبب الذي نقاتل من أجله. لاحقاً، إن ظل يرفض السكوت، بدل نغمتك وانعته بالخائن، وبصورة أدق انعته بأنه من أتباع تروتسكي.

ومن هو التروتسكاوي؟ هذه كلمة رهيبة - في إسبانيا في هذه اللحظة يمكن رميك في السجن وحبسك هناك بشكل غير محدد بلا محاكمة لمجرد الإشاعة بأنك تروتسكاوي - بدأ

الناس يتقاذفونها في إنكلترا وسنسمع الكثير منها لاحقاً. تستخدم كلمة "تروتسكاوي" أو "فاشي تروتسكاوي" عادة لتعني فاشي مقنع يتظاهر أنه ثوري متطرف لكي يشق القوى اليسارية، لكنها تستمد قوتها الغريبة من حقيقة أنها تعني ثلاثة أشياء منفصلة. يمكن أن تعني الشخص الذي يرغب في ثورة عالمية مثل تروتسكي، أو عضو من التنظيم الفعلي الذي يرأسه تروتسكي (الاستعمال الصحيح الوحيد للكلمة)، أو الفاشي المتنكر المذكور آنفاً. يمكن تصغير المعاني الثلاث وإدخالها ببعضها البعض عند الرغبة. المعنى الأول: قد يحمل أو لا يحمل المعنى الثاني. المعنى الثاني: يحمل معه المعنى الثالث بشكل ثابت تقريباً، ولهذا: لو سُمع أن إكس واي يتكلم بشكل مؤيد للثورة العالمية، فهو إذاً تروتسكاوي، وبالتالي فاشي. في إسبانيا وإلى حد ما في إنكلترا، أي شخص يعترف بالاشتراكية الثورية (أي، يعترف بالأشياء التي كان الحزب الشيوعي يعترف بها منذ سنوات قليلة) سيكون مشتبهاً بأنه تروتسكي يعمل لصالح فرانكو أو هتلر.

الاتهام من النوع الخبيث جداً، لأنه قد يكون صحيحاً في أية حالة مفترضة، إلا إذا صدف وكان المرء يعرف النقيض. قد يتنكر جاسوس فاشي كثائر. في إسبانيا كل شخص آراؤه على يسار أعضاء الحزب الشيوعي، يكتشف لاحقاً بأنه تروتسكي أو خائن على الأقل. في بداية الحرب كان البيوم، وهو حزب شيوعي من المعارضة، مشابه تقريباً لحزب العمال المستقل الإنكليزي، حزب مقبول وقدم وزيراً للحكومة الكاتالونية، لكنه لاحقاً طُرد من الحكومة، ثم اتهم بالتروتسكية؛ ثم قُمع ورمي في السجن كل عضو من أفراده استطاعت الشرطة الإمساك به.

منذ أشهر قليلة ماضية وُصف النقابيون الفوضويون بأنهم "يعملون بولاء" إلى جانب الشيوعيين، ثم أُخرج النقابيون الفوضويون من الحكومة؛ ثم ظهر أنهم لا يعملون بولاء، والآن هم في طريقهم ليكونوا خونة. بعد ذلك سيأتي دور الاشتراكيين اليساريين، فهذا كاباليرو الاشتراكي اليساري ورئيس الوزراء السابق ووثن الصحافة الشيوعية حتى مايو أيار ١٩٣٧ "هو في ظلام خارجي الآن وتروتسكاوي وعدو الشعب". وهكذا تستمر اللعبة. أما النهاية المنطقية، فهي نظام حكم يُقمع فيه كل حزب معارض وصحيفة،

وسيكون كل مخالف مهما كان شأنه في السجن. طبعاً هكذا نظام سيكون فاشية، لكنها لن تكون نفس الفاشية التي سيفرضها فرانكو، وستكون أفضل من فاشية فرانكو، لدرجة تستحق القتال من أجلها، لكنها تظل فاشية، وسوف تُسمى شيئاً مختلفاً، فقط لأنها تُدار بواسطة الشيوعيين والليبراليين.

هل يمكن الفوز بالحرب في الوقت الحالي؟ كان تأثير الشيوعية ضد الميولى الثورية، ولذلك نزع إلى إنتاج كفاءة عسكرية، أكبر بمعزل عن المساعدة الروسية. لو أنقذ الفوضويون الحكومة من أغسطس/ آب إلى أكتوبر/ تشرين أول ١٩٣٦ لأنقذها الشيوعيون من أكتوبر/ تشرين أول وما بعد، لكن في تنظيمهم للدفاع نجحوا في قتل الحماسة (داخل إسبانيا وليس خارجها) ولم يجعلوا التجنيد الإلزامي في الجيش ممكناً فقط وإنما ضرورياً أيضاً. من الهام أن التجنيد الطوعي توقف عملياً مبكراً منذ يناير/ كانون الثاني من هذا العام. يستطيع الجيش الثوري أن يربح بالحماسة أحياناً، لكن الجيش المجند الإلزامي يجب أن يربح بالأسلحة، ومن غير المحتمل أن ترجح كفة الحكومة في الأسلحة، إلا إذا تدخلت فرنسا، أو قررت ألمانيا وإيطاليا الهروب والنجاة بالمستعمرات الإسبانية، وترك فرانكو في وضع ميئوس منه. وفي المجمل يبدو أن الورطة هي الاحتمال الأكبر.

وهل الحكومة جادة فعلياً لتفوز؟ هي لا تعتزم أن تخسر، هذا مؤكد، لكن من جانب آخر، سيثير النصر الكامل والصريح وفرار فرانكو مذعوراً واندحار الألمان والطليان إلى البحر، مشاكل صعبة بعضها واضح جداً ولا يحتاج إلى الذكر. ليس هناك دليل حقيقي، ولا يستطيع المرء الحكم إلا بواسطة الأحداث، لكني أشك أن الحكومة تلعب من أجل تسوية تترك وضع الحرب قائماً جوهرياً. إن كل التنبؤات خاطئة، لذلك ستكون هذه خاطئة، لكني سأغامر وأقول إن الحرب التي قد تنتهي قريباً جداً أو تستمر لسنين، ستنتهي بإسبانيا مقسمة إما بحدودٍ فعلية أو إلى مناطق اقتصادية، وطبعاً في هكذا تسوية، يمكن لأي من الطرفين أو كليهما بالزعم بأنها نصر له.

كل ما قلته في هذه المقالة سيبدو مبتذلاً وعادياً في إسبانيا أو حتى في فرنسا، أما في إنكلترا، على الرغم من الاهتمام الشديد الذي أثارته الحرب الإسبانية، فلم يكن هناك سوى قلة قليلة

من الناس سمعوا بالصراع الهائل الدائر من خلف خطوط الحكومة. طبعاً هذا ليس حادثاً عرضياً، وإنما كانت هناك مؤامرة متعمدة (يمكنني تقديم أمثلة تفصيلية) لمنع فهم الوضع الإسباني، كما أن الناس الذي ينبغي بهم أن يعرفوا بشكل أفضل، باعوا أنفسهم للخداع على أساس أنك لو قلت الحقيقة حول إسبانيا، فسوف تُستخدم كدعاية فاشية.

من السهل رؤية ما يؤدي إليه هذا الجبن. لو قُدم للجمهور البريطاني تقرير ووصف صادقاً للحرب الإسبانية، لتوفرت له فرصة أن يعرف ما هي الفاشية، وكيف يمكن مقارعتها. وهكذا توطدت بقوة أكبر من ذي قبل رواية ذا نيوزكرونيكل للفاشية كنوع من المس الإجرامي خاص بالكولونيل بليمبز يئز في الخواء الاقتصادي، وهكذا اقتربنا خطوة من الحرب العظمى "ضد الفاشية" (قارن ١٩١٤ "ضد العسكرة") التي ستسمح لفاشية من النوع البريطاني أن تنزلق وتتسلط على أعناقنا في غضون أسبوعها الأول.

التفكير بالحرب الإسبانية ثانية (١٩٤٢)

١ - أولاً، وقبل كل شيء، الذكريات المادية: الأصوات والروائح والمظاهر الخارجية للأشياء.

الغريب أن أقوى ما أستطيع تذكره من الحرب الإسبانية بعد انتهائها، هو أسبوع ما سمي بالتدريب الذي تلقيناه قبل إرسالنا إلى جبهة القتال - ثكنات سلاح الفرسان الضخمة في برشلونة بزرائبها العاصفة وساحاتها المرصوفة بالحجارة، والبرد الجليدي لمضخة الماء التي نغتسل منها، والوجبات القذرة التي تجعلها أكواب النبيذ المعدنية مقبولة، ونساء الميليشيا بسراويلهن وهن يقطعن حطب الوقود، وجدول التفقد في الصباحات الباكرة؛ حيث يشكل اسمي الإنكليزي الممل فاصلاً وسط الأسماء الإسبانية المدوية، مانويل غونزاليس، بيدرو أغويلار، رامون فينيلوزا، روك باليستر، جيام دومينيش، سيباستيان فيلترون، رامون نوفو بوش. أسمّي هؤلاء الرجال بشكل خاص، لأنني أتذكر وجوههم كلهم، ويحتمل أنهم ماتوا كلهم ماعدا اثنين كانوا مجرد رعاع، ومن دون أي شك أصبحا عضوين كتائبيين صالحين في هذا الوقت، أما الاثنان اللذان عرفت بموتهما، كبيرهما كان سيبلغ الخامسة والعشرين وصغيرهما السادسة عشرة.

إحدى تجارب الحرب الأساسية، عدم قدرتك على الإفلات من الروائح المثيرة للاشمئزاز ذات المصدر البشري. إن المراحيض موضوع مبتذل في أدب الحرب، وكنت لن أذكره لو لم يفعل المرحاض في ثكناتنا فعله في ثقب أوهامي الخاصة عن الحرب الأهلية الإسبانية. إن الأنموذج اللاتيني من المراحيض الذي عليك أن تقرفص فيه، سيء جداً في أفضل أشكاله، لكن تلك التي أتكلم عنها مصنوعة من نوع من الحجارة المصقولة الملمعة الزلقة جداً، لذلك كل ما يمكنك عمله أن تبقى على قدميك، بالإضافة إلى أنها كانت مسدودة دائماً. الآن في ذاكرتي الكثير من الأشياء المقرِفة، لكن أعتقد أن تلك المراحيض هي التي أوضحت وأكدت لي الفكرة التي تتكرر غالباً: ها نحن جنود جيش ثوري ندافع عن الديمقراطية ضد الفاشية،

ونخوض حرباً لها هدف ما، وتفاصيل حياتنا قذرة ومهينة، كما لو كانت في سجن، عداك عن الحياة في جيش برجوازي. كثير من الأشياء عززت هذا الانطباع فيما بعد، كالضجر والجوع البهيمي لحياة الخنادق والمكائد الحقيرة حول فتات من الطعام، والشجارات الوضيعة النكدة التي انغمس فيها الناس الذين استنزفهم نقص النوم.

لم يتأثر الرعب الجوهري في حياتي العسكرية (كل من كان جندياً سيعرف ما أقصد بالرعب الجوهري لحياة الجيش) إلا قليلاً بطبيعة الحرب التي نخوضها، فقد كان الانضباط مثلاً هو نفسه أساساً في كل الجيوش، والأوامر يجب أن تطاع وتفرض عن طريق العقاب عند الضرورة، والعلاقة بين الضابط والجندي يجب أن تكون علاقة الأعلى بالأدنى. إن صورة الحرب المرسومة في كتب مثل **هدوء تام على الجبهة الغربية** صحيحة فعلياً. الرصاص يطعن والجثث تتعفن والرجال تحت النار يملؤهم الرعب القوي فيتبولون في سراويلهم. صحيح أن الخلفية الاجتماعية التي ينشأ منها أي جيش، تلون وتصبغ تدريبه وتكتيكه وكفاءته العامة، وكذلك الشعور بكونك على حق، يمكن أن يدعم المعنويات، لكن هذا يؤثر على السكان المدنيين أكثر من القوات. (ينسى الناس أن الجندي في أي مكان في خط الجبهة يكون عادة جائعاً جداً أو خائفاً جداً أو بردان، وقبل كل شيء متعب جداً ولا يقلقه الأصل السياسي للحرب أياً كان). إن قوانين الطبيعة لا تتوقف أو تتعطل من أجل جيش "أحمر"، أكثر مما تفعل من أجل جيش "أبيض"، فالقملة قملة والقنبلة قنبلة حتى لو كنت تحارب من أجل قضية عادلة.

لماذا تجدر الإشارة إلى شيء واضح جداً؟ لأن معظم المثقفين البريطانيين والأمريكيين كانوا غافلين بشكل جلي عنه آنذاك والآن. إن ذواكرنا قصيرة هذه الأيام، لكن لنعد قليلاً وننقب في ملفات النيوماسيز أو الديلي وركر ونلقي نظرة على الوحل الرومانسي المثير للحرب الذي كان يمينيونا يدلقونه في ذاك الوقت. كل العبارات القديمة الممجوجة! وقساوتها البليدة! ضبط النفس التي واجهت فيها لندن قصف مدريد! أنا لست منزعجاً من الدعائيين المضادين من اليمينيين من أمثال لون وغارفين، وإنما من الناس الذين ظلوا لمدة عشرين سنة يستهجنون ويسخرون من "مجد" الحرب ومن القصص والوحشية والوطنية وحتى من الشجاعة البدنية،

والذين خرجوا علينا الآن بكلام فارغ لو بدلنا فيه بضعة أسماء لأصبح ملائماً للديلي ميل في عام ١٩١٨. لو كان هناك شيء واحد تميل إليه الطبقة المثقفة البريطانية وتتمسك به، فهو الرواية المفضوحة للحرب، نظرية أن الحرب كلها جثث ومراحيض ولا تؤدي إلى أية نتيجة جيدة أبداً. حسناً، نفس الناس الذين كان يقهقهون في عام ١٩٣٣ إن قلت إنك ستقاتل من أجل بلادك في ظروف محددة ويتهمونك بفاشي - تروتسكي في عام ١٩٣٧ إن قلت إن الأخبار في النيوماسيز التي تتحدث عن الرجال الذين جرحوا مؤخراً كانوا يطالبون بصخب للعودة إلى القتال مبالغ بها. أما مثقفو اليسار فقد انحرفوا تماماً من "الحرب جحيم" إلى "الحرب مجيدة" من دون أي إحساس بالتنافر وبلا أي مرحلة فاصلة. وقام أكثرهم مؤخراً بانتقالات مساوية في العنف. هناك عدد كبير من الناس بالتأكيد يشكلون النواة المركزية لطبقة المثقفين استحسنوا إعلان تصريح "الملك والبلاد" في عام ١٩٣٥ وهتفوا من أجل "صف قوي وثابت ضد ألمانيا" في عام ١٩٣٧ وأيدوا اتفاقية الشعب في عام ١٩٤٠ ويطالبون بجبهة ثانية الآن.

إن التأرجحات غير العادية للرأي، التي تحدث في هذه الأيام، والعواطف التي تنهمر وتنقطع مثل صنبور مياه نتيجة للتنويم المغناطيسي الذي تقوم به الصحف والإذاعة، وفي وسط أفراد الطبقة المثقفة، يجب أن أقول إنها ناتجة عن المال والسلامة البدنية؛ ففي لحظة محددة ربما يكونون "مؤيدين للحرب" أو"معارضين للحرب"، لكن في كلتا الحالتين ليس لديهم صورة واقعية للحرب في عقولهم. حين تحمسوا للحرب الإسبانية، عرفوا طبعاً أن الناس كانوا يُقتلون، وأن يُقتل المرء أمر بغيض، لكنهم شعروا أن الحرب بالنسبة إلى جندي في جيش الجمهورية الإسبانية تجربة ليست مخزية بشكل ما. فالمراحيض تصدر رائحة نتنة أقل، والانضباط أقل إزعاجاً. عليك أن تلقي نظرة عجلى على النيوستيتمان لترى أنهم آمنوا بذلك؛ ويكتب هراء مماثل تماماً عن الجيش الأحمر الآن. أصبحنا متحضرين جداً لنفهم الواضح، لأن الحقيقة بسيطة. لكي تبقى على قيد الحياة، عليك أن تقاتل، ولكي تقاتل عليك أن تلوث نفسك. إن الحرب شر، وغالباً ما تكون أقل الشرين. هؤلاء الذين حملوا السيف يموتون بالسيف، وهؤلاء الذين لم يحملوا السيف يموتون بأمراض كريهة الرائحة. حقيقة إن مثل هذه

البلاهة تستحق الكتابة والتدوين، وتبين ما فعلته بنا سنوات رأسمالية أصحاب دخول السندات.

٢ - فيما يتعلق بما قلته آنفاً، حاشية عن الأعمال الوحشية

لديّ دليل مباشر قليل عن الأعمال الوحشية في الحرب الأهلية الإسبانية. عرفت أن بعضها ارتكبها الجمهوريون وأخرى أكثر منها (لاتزال مستمرة) ارتكبها الفاشيون. لكن ما انطبع في ذهني آنذاك وترك أثراً دائماً منذ ذلك الوقت، أن الأعمال الوحشية تصدق أو لا تصدق على دوافع ميول سياسية فقط. كل واحد يصدق أعمال العدو الوحشية، ولا يصدق تلك التي ارتكبها جانبه من دون الاهتمام أبداً بتفحص الدليل. مؤخراً أعددت جدولاً بالأعمال الوحشية خلال الفترة ما بين ١٩١٨ والوقت الحالي؛ فلم أجد سنة واحدة لم تحدث فيها أعمال وحشية في مكان أو آخر، ولم تكن هناك حالة واحدة صدق فيها اليسار واليمين نفس القصص في وقت واحد. والأغرب أنه يمكن أن ينقلب الوضع إلى نقيضه في أية لحظة وتصبح قصة الأمس المثبتة تماماً كذبة سخيفة، فقط لأن المشهد السياسي تبدل.

في الحرب الحالية نحن في الوضع الغريب أن "حملتنا الوحشية" انطلقت بشكل واسع قبل أن تبدأ الحرب وقام بأكثرها اليسار، الناس الذين يتباهون بأنفسهم في شكوكيتهم. في نفس الفترة اليمين، مروجو الأعمال الوحشية بين عام ١٩١٤ و١٩١٨ كانوا يحدقون بألمانيا النازية ويرفضون صراحة أن يروا أي شر فيها. ثم حالما اندلعت الحرب، كان مناصرو النازية في الأمس هم من يكرر قصص الرعب، بينما وجد المعادون للنازية أنفسهم فجأة يشككون بحقيقة وجود الجيستابو. ولم يكن هذا مجرد نتيجة للميثاق الروسي الألماني، وإنما لأن اليسار أعتقد خاطئاً قبل الحرب أن بريطانيا وألمانيا لن تتحاربا أبداً، ولذلك بإمكانه أن يكون معادياً لألمانيا ومعادياً لبريطانيا في الوقت نفسه، وهذا بسبب دعاية الحرب الرسمية أيضاً بنفاقها المثير للاشمئزاز وتعاليمها التي تنزع دائماً إلى جعل الناس المفكرين يتعاطفون مع العدو، وكان رد الفعل المناصر للألمان المبالغ فيه الذي تلا ذلك جزء من الثمن الذي دفعناه لقاء الكذب المنهجي في ١٩١٤ - ١٩١٧. خلال السنوات ١٩١٨ - ١٩٣٣ كانت صيحات الاستهجان في دوائر الجناح اليساري تقاطعك، إن حمّلتَ ألمانيا ولو جزءاً يسيراً من المسؤولية

عن الحرب. في كل اتهامات فيرساي، التي استمعتُ إليها خلال تلك الحرب، لا أظن أنني سمعت مرة السؤال "ماذا كان سيحدث لو ربحت ألمانيا؟"' ولم يذكر حتى، عداك عن مناقشته، وهكذا أيضاً مع الأعمال الوحشية. فالحقيقة تصبح كذبة حين تسمع عدوك يتفوه بها. مؤخراً لاحظت أن نفس الأشخاص الذين ابتلعوا أي وكل قصة رعب عن اليابانيين في نانكينغ في ١٩٣٧ رفضوا أن يصدقوا نفس القصص تماماً عن هونغ كونغ في ١٩٤٢. كان هناك ميل للشعور أن أعمال نانكينغ الوحشية أصبحت غير حقيقة عند استعادتها، لأن الحكومة البريطانية لفتت الانتباه إليها الآن.

لكن لسوء الحظ، فإن حقيقة الفظاعات، أسوأ بكثير من تلك التي كذبوا عنها وحولوها إلى دعاية. الحقيقة أن تلك الفظاعات تحدث. ولكونها تقدم كمبرر للشكوكية غالباً - بأن قصص الرعب نفسها تظهر في حرب تلو أخرى - يجعلها أرجح من القصص الحقيقية. من الواضح أنها أوهام واسعة الانتشار، والحرب توفر فرصة لوضعها قيد الممارسة، وهناك الجدل البسيط أيضاً حول القول الذي لم يعد رائجاً عن أن "البيض" يرتكبون فظاعات أكثر وأسوأ من "الحمر". ليس هناك أوهى شك حول القصة الطويلة عن الانتهاكات الفاشية خلال السنوات العشر الأخيرة في أوروبا، فحجم البينة هائل والحصة المحترمة منها تأتي من الصحافة والإذاعة الألمانية. هذه الأشياء حدثت فعلياً، وذلك هو الشيء الذي ينبغي الاستمرار في مراقبته. إنها حدثت حتى ولو قال لورد هاليفاكس إنها حدثت. الاغتصاب والذبح في المدن الصينية والتعذيب في زنازين الجيستابو والأساتذة الجامعيون والشيوخ اليهود الذين يرمون في المبولات ورمي اللاجئين بالرشاشات على طول الطرق الإسبانية - كلها حدثت ولم يظهر أي منها، لأن الديلي تلغراف اكتشفتها فجأة بعد مرور خمس سنوات على حدوثها.

٣ - ذكريتان اثنتان: الأولى لا تثبت أي شيء على وجه الخصوص، والثانية تعطي مقاربة معينة إلى جو الفترة الثورية:

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، خرجت ورجل آخر لنقنص الفاشيين في الخنادق خارج هويسكا. كان خطهم يبعد عن خطنا ثلاثمائة باردة، وهذا مدى لا تستطيع بنادقنا

القديمة التصويب عليه بدقة، لكن بالتسلل إلى بقعة أقرب في حوالي مائة ياردة عن الخنادق الفاشية، يمكنك، إن كنت محظوظاً، أن تطلق طلقة على أحد من خلال ثغرة في المتراس. لسوء الحظ كانت الأرض بيننا عبارة عن حقل بنجر مستوٍ بلا غطاء، باستثناء قلة من أقنية الري. وكان من الضروري الخروج خلال الظلام والعودة بعد الفجر قبل أن يصبح الضوء جيداً. لم يظهر أي فاشي هذه المرة. مكثنا طويلاً جداً وأمسك بنا الفجر. كنا في قناة للري، لكن خلفنا مائتي ياردة من الأرض المنبسطة لا غطاء فيها ولو لأرنب. كنا نقوي أنفسنا لنقوم بهجوم حين يكون هناك ضجيج وصوت صفارات في الخندق الفاشي. بعض من طائراتنا كانت تحوم فوقنا. في هذه اللحظة قفز رجل يحمل رسالة، كما يفترض لضابط، وخرج من الخندق وركض على قمة المتراس في مشهد كامل. كان شبه عارٍ ويرفع سرواله بيديه الاثنتين وهو يركض. أحجمت عن إطلاق النار عليه. صحيح أنا صياد رديء ومن غير المحمل أن أصيب رجلاً راكضاً على بعد مائة ياردة، وكنت أفكر بشكل أساسي أيضاً في العودة إلى خندقنا بينما كان اهتمام الفاشيين متركزاً على الطائرات؛ لكني لم أسدد عليه أيضاً جزئياً، بسبب ذلك التفصيل حول السروال. أتيت إلى هنا لأصوب السلاح ضد "الفاشين"، لكن رجلاً يرفع سرواله ليس "فاشياً"، ومن الواضح أنه كان مخلوقاً وزميلاً مثلي ولا أريد أن أطلق النار عليه.

ماذا يثبت هذا الحادث؟ ليس الكثير، لأنه نوع الشيء الذي يحدث دائماً في كل الحروب. الآخر مختلف. لا أفترض في روايته أنني أستطيع أن أجعله يؤثر فيك عندما تقرأه، لكن أسألك أن تصدق أنه أثر بي كحدث مميز للجو الأخلاقي في لحظة محددة من الزمن.

كان أحد المتطوعين الذين انضموا إلينا حين كنت في الثكنات صبياً ذا مظهر بري من الشوارع الخلفية لبرشلونة. كان رث الثياب وحافياً، وكان أيضاً أسمر جداً (أظن أنه من دم عربي) ويقوم بإيماءات عادة لا ترى أوروبياً يقوم بها؛ واحدة بشكل خاص - الذراع ممدود وراحة اليد شاقولية - كانت إيماءة خاصة بالهنود. في أحد الأيام سرقت من سريري رزمة من السيجار الذي كنا لازلنا نشتريه بسعر بخس في ذلك الوقت. بشكل أحمق أبلغت الضابط عن السرقة، فأتى أحد الأوغاد فوراً، كنت قد ذكرته مسبقاً، وقال كاذباً إن خمسة وعشرين بيزتا سرقت من سريره. لسبب ما قرر الضابط فوراً أن الصبي ذا الوجه الأسمر ينبغي أن يكون

اللص. كانوا قساة جداً بخصوص السرقة في الميليشيا، ونظرياً يمكن رمي الناس بالرصاص جراء السرقة. الولد البائس سمح لنفسه أن يقاد إلى غرفة الحرس لكي يفتش. ما أدهشني جداً أنه لم يحاول أن يؤكد براءته. في حتمية موقفه واستسلامه للقدر، يمكنك رؤية الفقر المدقع الذي تربى فيه. أمره الضابط أن يخلع ثيابه. خلع الصبي ثيابه بإذلال أرعبني، حتى بات عارياً وفتشت ثيابه. طبعاً لم يكن السيجار أو المال هناك، ففي الحقيقة هو لم يسرقها. أكثر ما يؤلم أنه لم يبدُ أقل خجلاً بعد أن ثبتت براءته. تلك الليلة أخذته إلى السينما، وأعطيته براندي وشوكولا. لكن ذلك كان مرعباً أيضاً - أقصد محاولة إزالة الأذى بالمال - لقد اعتقدت لبضع دقائق تقريباً أنه يجب أن يكون لصاً، وذلك لا يمكن إزالته.

حسناً، بعد أسابيع قليلة في الجبهة، اختلفتُ مع أحد الرجال في فصيلتي. في هذا الوقت كنت "كابو" عريفاً، وتحت إمرتي اثنا عشر رجلاً. كانت حرباً والبرد رهيب ومهمة الرئيس أن يبقي الحراس مستيقظين في محارسهم. في أحد الأيام رفض أحد الرجال فجأة الذهاب إلى محرس محدد، قيل عن حق إنه معرض لنيران العدو. كان مخلوقاً ضعيفاً، وأمسكت به وبدأت في جره نحو محرسه. هذا أثار مشاعر الآخرين ضدي، بالنسبة إلى الإسبان، أعتقد أنّ الكائن يستاء من الملامسة أكثر مما نفعل نحن. على الفور كنت مطوقاً بحلقة من الرجال الصارخين: "فاشي! فاشي! دع الرجل! هذا ليس جيشاً بورجوازياً. فاشي! إلخ إلخ". بأفضل ما استطعت في لغتي الإسبانية الرديئة، صرخت بهم أن الأوامر يجب أن تُطاع. وتطور الشجار إلى واحدة من تلك المناظرات الضخمة، بواسطتها سحق الانضباط بالتدريج في الجيوش الثورية. قال البعض إنني كنت مصيباً، وقال آخرون إنني كنت مخطئاً. لكن النقطة المهمة أن الوحيد الذي وقف في صفي وكان الأكثر حميمية من الجميع، هو الصبي ذو الوجه الأسمر. حالما رأى ما كان يحدث، وثب إلى داخل الحلقة، وبدأ يدافع عني بحماس. بإيماءته الهندية الجامحة الغريبة ظل يهتف "إنه أفضل عريف عندنا!" وبعد ذلك تقدم بطلب نقل، لينضم إلى فصيلتي.

لماذا أثر هذا الحادث في نفسي؟ لأنه من المستحيل في الظروف العادية أن تعود المشاعر الطيبة بين هذا الصبي وبيني، فالاتهام الضمني بالسرقة لم تخففه جهودي في التعويض وربما زادته سوءاً. إن أحد آثار الحياة المتحضرة، هي الحساسية المفرطة الهائلة التي جعلت كل

العواطف الأولية تبدو مفرقة نوعاً ما، فالكرم مؤلم كالبخل والعرفان بالجميل مكروه مثل نكرانه. لكن في إسبانيا في عام ١٩٣٦ لم نكن نعيش في زمن عادي. كان زمناً كانت فيه المشاعر السمحة والإيماءات أسهل فيه مما تكون عادة. أستطيع سرد عشرات الأمثلة المشابهة، ليست قابلة للنقل حقيقة، لكنها مرتبطة في ذهني مع جو خاص من ذلك الوقت: الثياب الرثة والملصقات الثورية الزاهية، والاستخدام الشامل لكلمة "رفيق"، والقصائد الشعرية الغنائية المعادية للفاشية المكتوبة على ورق مهلهل وتباع ببنس، وعبارات مثل "التضامن البروليتاري الأممي" التي كانت تتكرر بشكل مثير للشفقة من قبل رجال جهلة آمنوا بأنها تعني شيئاً. هل تقدر أن تشعر بود تجاه شخص وتناصره في شجار بعد أن تفتش بشكل شائن في حضوره من أجل ملكية يفترض أنك سرقتها منه؟ كلا لا تقدر؛ لكنك تقدر إن كنتما قد مررتما بتجربة واسعة عاطفياً. تلك واحدة من المنتجات الجانبية للثورة، لكن في هذه الحالة لم تكن سوى بدايات ثورة من الواضح أنها محكومة بالفشل.

٤ - إن الصراع من أجل السلطة بين أحزاب الجمهورية الإسبانية محزن وشيء ناءٍ، ليس لدي رغبة في إنعاشه في هذا التاريخ. أنا أذكره فقط لأقول: لا تصدق أي شيء أو أي شيء تقريباً مما تقرأ عن الشؤون الداخلية من جانب الحكومة، فكلها - أياً كان مصدرها - دعاية حزبية - أي أكاذيب. إن الحقيقة العريضة عن الحرب بسيطة جداً. رأت البورجوازية الإسبانية فرصتها في محق الحركة العمالية، واغتنمتها مدعومة من النازيين ومن القوى الرجعية في كل أنحاء العالم، ويشك إن كان سيثبت ويؤكد شيئاً أكثر من ذلك.

أتذكر قولي لآرثر كوستلر مرة إن "التاريخ توقف في عام ١٩٣٦" الذي رد عليه بإيماءة من رأسه في تفهم سريع. كنا نحن الاثنان نفكر في الديكتاتورية عموماً وبشكل أخص في الحرب الأهلية الإسبانية. في وقت مبكر من حياتي، لاحظت أنه ليس هناك حدث واحد نقل بشكل صحيح في أية صحيفة، لكن في إسبانيا رأيت للمرة الأولى الصحف تنقل أخباراً ليست لها أية علاقة بالوقائع، ولا حتى العلاقة المتضمنة في الكذبة العادية. رأيت معارك عظيمة؛ حيث لم يكن هناك أي قتال وصمت تام؛ حيث قتل مئات الرجال. رأيت جنوداً قاتلوا بشجاعة، اتهموا بالجبن والخيانة، وآخرين لم يروا رصاصة أطلقت، رُحب بهم كأبطال انتصارات وهمية، ورأيت صحفاً في لندن تبيع هذه الأكاذيب بالمفرق، ومثقفين متشوقين

ينون بنى فوقية عاطفية على هذه الأحداث التي لم تقع أبداً. رأيت في الحقيقة تاريخاً يُكتب، ليس بشروط ما حدث وإنما لما كان ينبغي أن يحدث وفقاً "لسياسات حزبية". لكن بطريقة ما، رغم كل هذا الشيء الرهيب، لم يكن مهماً ويعتبر قضايا ثانوية - أي الصراع حول السلطة بين الكومينترن وأحزاب الجناح اليساري الإسبانية ومساعي الحكومة الروسية لمنع الثورة في إسبانيا. لكن الصورة العريضة لقضايا الحرب التي قدمتها الحكومة الإسبانية للعالم لم تكن كاذبة. القضايا الرئيسية كانت ما قيل إنها كانت. لكن بالنسبة إلى الفاشيين ونصرائهم كيف لهم أن يقتربوا من حقيقة كتلك؟ كيف لهم أن يذكروا أهدافهم الحقيقية؟ لقد كانت روايتهم عن الحرب محض خيال، في ظروف لا يمكنها أن تكون غير ذلك.

كان خط الدعاية الوحيد المفتوح للنازيين والفاشيين أن يقدموا أنفسهم كوطنيين مسيحيين متحمسين ينقذون إسبانيا من ديكتاتورية روسية. تضمن هذا الزعم أن الحياة في حكومة إسبانيا كانت مذبحة طويلة واحدة فقط (راجع كاثوليك هيرالد أو ديلي ميل - لكن هذه كانت لعب أطفال مقارنة مع الصحافة الفاشية القارية) وشمل تضخيم التدخل الروسي بشكل هائل. من بين هذا الهرم من الأكاذيب التي لفقتها وراكمتها الصحافة الكاثوليكية والرجعية في كل أرجاء العالم، دعني أتناول نقطة واحدة - وجود جيش روسي في إسبانيا. كل أنصار ديفوت فرانكو صدقوا هذا، ووصلت تقديرات قوته إلى نصف مليون عسكري. الآن لم يكن هناك روس في إسبانيا، وربما كانت هناك حفنة من الطيارين والفنيين أي بضع مئات في أكثر الأحوال، لكن لم يكن هناك جيش. كان هناك آلاف من الأجانب الذين قاتلوا في إسبانيا، لا داعي لذكر ملايين الإسبان وكانوا شهود عيان على هذا، لكن لم يكن لشهادتهم أي أثر إطلاقاً على مروجي دعاية فرانكو الذين لم يطأ أحد منهم أرض إسبانيا الحكومية. رفض هؤلاء الناس معاً وتماماً الاعتراف بحقيقة التدخل الألماني والإيطالي، في الوقت الذي كانت فيه الصحافة الألمانية والإيطالية تتفاخر ببطولات "فيالقها". اخترت نقطة واحدة للذكر، لكن في الحقيقة كل الدعاية الفاشية عن الحرب كانت في هذا المستوى. هذا النوع من الأشياء يخيفني، لأنه يعطيني الشعور بأن مفهوم الحقيقة الموضوعية ذاته يتلاشى من العالم. في المجمل إن لتلك الأكاذيب أو الأكاذيب المشابهة فرص كي تمر وتدخل التاريخ. كيف سيكتب تاريخ الحرب الإسبانية؟ إن بقي فرانكو في السلطة، فإن الذين سيعينهم في المناصب سيكتبون

التاريخ (لألتزم بنقطتي المختارة) وسيصبح الجيش الروسي الذي لم يكن له وجود، حقيقة تاريخية يتعلمها طلاب المدارس لأجيال بعد ذلك. لكن أفترض أن الفاشية دحرت أخيراً، وعادت إلى إسبانيا حكومة ديمقراطية نوعاً ما في المستقبل القريب، فكيف سيكتب تاريخ الحرب؟ أي نوع من السجلات سيتركه فرانكو خلفه؟ أفترض أن السجلات التي حفظتها الحكومة أمكن استردادها، وحتى مع ذلك، كيف سيكتب تاريخ صحيح للحرب؟ لأن الحكومة كما نوهت سالفاً، تعاملت أيضاً بشكل واسع بالأكاذيب. من زاوية معادية للفاشية، يقدر المرء أن يكتب تاريخاً واسعاً للحرب، لكنه سيكون تاريخاً موالياً لا يعتمد عليه في أية نقطة ثانوية. لكن بالمجمل سيكتب نوع ما من التاريخ، وبعد أن يموت هؤلاء الذين يتذكرون الحرب فعلياً، سيكون مقبولاً عالمياً. وهكذا تصبح الكذبة حقيقة بالنسبة إلى كل الأهداف العملية.

أعرف أن الرائج اليوم هو القول إن كل التاريخ المدون عبارة عن أكاذيب على كل حال. أنا أرغب بتصديق أن التاريخ في جله غير دقيق ومتحيز، لكن ما هو فريد في عصرنا، هو التخلي عن الفكرة التي ترى أن التاريخ يمكن أن يكتب بشكل صادق. في الماضي كان الناس يتعمدون الكذب أو يلونون دون دراية ما يكتبون أو يقاومون وراء الحقيقة، وهم يعرفون جيداً أنهم يجب أن يرتكبوا أخطاء؛ لكنهم كانوا يؤمنون بأن "الوقائع" موجودة وقابلة للاكتشاف بشكل أو بآخر وبالممارسة يوجد هناك قدر كبير من الحقيقة دائماً يتفق عليه الجميع تقريباً. لو فتشت بتاريخ الحرب الأخيرة في الموسوعة البريطانية مثلاً، ستجد أن مقداراً محترماً من المادة مأخوذ من مصادر ألمانية. قد يختلف مؤرخ إنكليزي وآخر ألماني بعمق على أشياء كثيرة حتى في الأساسيات، لكن يظل هناك ذلك القدر من الحقيقة المحايدة التي لم يحتج أي منهما بجدية حولها على الآخر. إنه هذا الأساس المشترك من الاتفاق فقط، وتضمينه أن الكائنات البشرية كلها من جنس حيواني واحد، وأن نظام الحكم الشمولي يدمره. في الحقيقة إن النظرية النازية بشكل خاص تنكر حقيقة وجود مثل هذا الشيء، وليس هناك شيء كـ"علم" وإنما فقط "علم ألماني" و"علم يهودي" إلخ. الهدف الضمني لهذا الخط الفكري هو عالم كابوسي يسيطر فيه قائد أو زمرة حاكمة ليس على المستقبل فقط، وإنما على الماضي أيضاً. فلو قال القائد عن هذا الحدث المهم أو غيره "لم يحدث أبداً" حسناً فهو لم يحدث أبداً،

وإن قال إن اثنين واثنين يساويان خمسة - حسناً فإن اثنين واثنين يساويان خمسة. هذا المشهد يخيفني أكثر بكثير من القنابل - وبعد تجاربنا في العقود الأخيرة القليلة، فإن هذه إفادة ليست تافهة.

لكن هل ترويع إن المرء لنفسه برؤى من مستقبل استبدادي أمر طفولي أو مرضي؟ قبل شطب كتابة أن العالم الاستبدادي كابوس لا يمكن أن يتحقق، تذكروا أن عالم اليوم كان يبدو في عام ١٩٢٥ كابوساً لا يمكن أن يتحقق أبداً. هناك في الواقع حارسان اثنان ضد ذلك العالم الوهمي المتبدل الذي يمكن فيه للأسود أن يصبح أبيض غداً، ويمكن لطقس الأمس أن يتغير بمرسوم. الحارس الأول هو مهما أنكرت الحقيقة، ستظل موجودة كما هي خلف ظهرك، وبناء عليه لا تستطيع تدنيسها بطرق تتلف الكفاءة العسكرية. الحارس الآخر أنه طالما تبقى أجزاء من الأرض لم تهزم، ستظل التقاليد الليبرالية حية. دع الفاشية أو ربما حتى مجموعة من الفاشيات الكثيرة تهزم العالم بأكمله، ولن يظل لهذين الشرطين وجود. نحن في إنكلترا نقلل من خطر هذا النوع من الأشياء لأن تقاليدنا وأمننا الماضي أعطيانا اعتقاداً عاطفياً يرى أنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح، والشيء الذي نخشاه جداً لن يحدث أبداً في الحقيقة. بعد أن تربينا لمئات السنين على أدب ينتصر فيه الحق في الفصل الأخير دائماً، نحن نؤمن بشكل شبه غريزي أن الشر يهزم نفسه دائماً على المدى الطويل، ونزعة رفض حمل السلاح (السلامية) مثلاً تأسست بشكل كبير على هذا الاعتقاد. لا تقاوم الشر وسوف يدمر نفسه بطريقة ما. لكن لماذا يجب عليه ذلك؟ ما الدليل بأنه سيفعل ذلك؟ وأي مثال هناك عن انهيار دولة صناعية إذا لم تدحر من قوة عسكرية خارجية؟

تأمل للحظة إعادة الرق ثانية. من كان يتخيل قبل عشرين سنة أن الرق سيعود إلى أوروبا؟ حسناً لقد استرجع الرق رغم أنوفنا، وها هي معسكرات العمل القسري في كل أرجاء أوروبا وشمال أفريقيا، حيث يكدح البولونيون والروس واليهود والسجناء السياسيون من كل عرق في شق الطرق وتجفيف المستنقعات من أجل حصصهم الغذائية فقط، وهم مثال بسيط عن عبودية الرق. أقصى ما يمكن أن يقوله المرء إن شراء وبيع العبيد كأفراد لم يعد مسموحاً به. بطرق أخرى - تفكيك الأسر مثلاً والظروف التي ربما أسوأ مما كانت في مزارع القطن الأمريكية. ليس هناك أي مبرر للتفكير أن هذه الحالة من الأمور سوف تتغير، طالما ظل هناك

نظام شمولي استبدادي. نحن لا نفهم مضامينه التامة، لأننا بطريقتنا الباطنية نشعر أن نظام الحكم المؤسس على العبودية يجب أن ينهار. لكن يجدر بنا أن نقارن مدة بقاء إمبراطوريات العبيد القديمة مع تلك في أية دولة حديثة. لقد دامت الحضارات المؤسسة على الرق لفترات امتدت إلى أربعة آلاف عام.

إن التفصيل الذي يخيفني حين أفكر في العصور القديمة، هو أن هؤلاء المئات من ملايين العبيد الذين اتكأت على ظهورهم الحضارة جيلاً بعد جيل، لم يتركوا خلفهم سجلاً محفوظاً أياً كان نوعه. نحن لا نعرف أسماءهم حتى. في كل التاريخ الإغريقي والروماني كم هي أسماء العبيد المعروفة لديك؟ أستطيع أن أفكر في اثنين أو ربما ثلاثة: الأول سبارتاكوس والآخر إبكتيتيوس، وأيضاً في الغرفة الرومانية في المتحف البريطاني هناك مرطبان زجاجي نقش اسم صانعه على قاعدته، فيليكس فيسيت. لدي صورة ذهنية للمسكين فيليكس (شخص غال بشعر أحمر وطوق معدني حول عنقه) لكنه في الواقع ربما لم يكن عبداً؛ لهذا هناك عبدان اثنان فقط أعرف اسميهما بشكل واضح، وربما قلة من الناس يستطيعون تذكر أكثر. أما البقية منهم فقد فقدوا في صمت مطبق.

٥ - كانت الطبقة العاملة الإسبانية الجزء الأساسي من المقاومة ضد فرانكو وخصوصاً أعضاء النقابات في المدن. ومن المهم أن نتذكر أنه على المدى الطويل - تبقى الطبقة العاملة فقط أهم عدو موثوق للفاشية، وذلك ببساطة لأن الطبقة العاملة تقف وتصمد لتكسب أكثر من خلال إعادة بناء محترمة للمجتمع، ولا يمكن رشوتها بشكل دائم خلافاً للطبقات أو الفئات الأخرى.

هذا لا يعني إضفاء المثالية على الطبقة العاملة؛ ففي الصراع الطويل الذي تلا الثورة الروسية، من اندحر كان العمال اليدويون، ومن المستحيل ألا يشعر المرء بأن ذلك كان خطؤهم. مرة بعد أخرى وفي بلاد إثر بلاد، كانت حركات العمال المنظمة تسحق بعنف مكشوف غير قانوني، ورفاقهم من خارج البلاد الذين يربطهم معهم تضامن نظري، يتفرجون ببساطة من دون أن يفعلوا شيئاً. وتحت هذا سبب سري لخيانات كثيرة، رسخت حقيقة مفادها أن بين العمال البيض والعمال الملونين لا يوجد حتى التظاهر الكاذب بالتضامن. من يستطيع أن يؤمن بالبروليتاريا الأممية الواعية طبقياً بعد أحداث السنوات العشر الماضية؟

بالنسبة إلى الطبقة العاملة البريطانية بددت مذبحة رفاقهم في فيينا وبرلين ومدريد أو أي مكان آخر، أقل تشويقاً وأهمية من مباراة الأمس لكرة القدم، لكن هذا لا يبدل حقيقة أن الطبقة العاملة سوف تواصل نضالها ضد الفاشية بعد أن ينسحب الآخرون ويستسلموا. إحدى مزايا الغزو النازي لفرنسا كان الردات الصاعقة للطبقة المثقفة وضمنها المثقفون السياسيون من الجناح اليساري. المثقفون هم الناس الذين يصرخون بأعلى صوت ضد الفاشية، ومع ذلك ينهار قسم كبير منهم إلى انهزامية حين تأتي الفرصة، وهم متبصرون لدرجة يرون فيها الفرص ضدهم، ويمكن رشوتهم أيضاً - فمن الواضح أن النازيين اعتبروا أن رشوة المثقفين عمل يستحق العناء. لكن الأمر عكس ذلك مع الطبقة العاملة، فهم أجهل من يروا الخدعة التي انطلت عليهم، فقد بلعوا الوعود الفاشية بسهولة لكنهم عاجلاً أو آجلاً سيتنطعون للصراع مرة ثانية. يجب أن يفعلوا هكذا، لأنهم يكتشفون بأجسادهم دائماً أن الوعود الفاشية لا يمكن أن تنفذ، ولكي يفوزوا على الطبقة العاملة بشكل مستمر، يجب على الفاشيين أن يرفعوا المستوى المعيشي العام، وهذا ما يعجزون عنه أو لا يرغبونه ربما.

إن صراع الطبقة العاملة مثل نمو النبتة، فالنبتة عمياء وغبية، لكنها تعرف ما يكفي لمواصلة الدفع نحو الأعلى باتجاه الضوء، وتفعل هذا في وجه المثبطات التي لا نهاية لها. من أجل ماذا يقاتل العمال؟ ببساطة من أجل حياة محترمة يدركون أكثر فأكثر أنها ممكنة تقنياً الآن. إن وعيهم لهذا الهدف في مد وجزر. في إسبانيا لوهلة كان الناس يتصرفون بوعي ويتقدمون نحو هدف أرادوا الوصول إليه، وآمنوا بإمكانية الوصول، وهو المسؤول عن الشعور المبتهج الغريب الذي كان للحياة في إسبانيا الحكومة خلال ال أشهر الأولى من الحرب. لقد عرف عامة الناس بعظامهم أن الجمهورية صديقتهم وفرانكو عدوهم، وعرفوا أنهم في المسار الصحيح، لأنهم كانوا يقاتلون من أجل شيء كان العالم مدان لهم به، وكان قادراً على إعطائه لهم.

يجب أن يتذكر المرء هذا ليرى الحرب الإسبانية في منظورها الحقيقي. حين يفكر المرء بالوحشية والقذارة وعبث الحرب - وفي هذه الحالة الخاصة من المؤامرات وأعمال الاضطهاد والأكاذيب وسوء الفهم - هناك دائماً الإغراء للقول: "الطرف الأول سيء كالطرف الآخر، أنا حيادي". لكن في الممارسة لا يستطيع المرء أن يكون محايداً ولا يوجد شيء كهذا في حرب

لا يفرق فيها من يفوز بها. يمثل الطرف الأول بشكل أو بأخر التقدم، ويمثل الطرف الآخر الرجعية دائماً تقريباً. إن الكره الذي إثارته الجمهورية الإسبانية في المليونيريين والأدواق والكرادلة والمستهترين وكبار العسكريين وأمثالهم، يكفي ليبين كيف ستؤول إليه الأمور. لقد كانت حرباً طبقية في الجوهر، ولو تم الفوز بها لباتت قضية عامة الشعب أقوى، لكنها كانت خاسرة، ولفرك ساحبو الأسهم والحصص في كل أنحاء العالم أيديهم. تلك هي القضية الحقيقية وكل شيء سواها زبد على السطح.

٦ - حسمت نتيجة الحرب الإسبانية في لندن وباريس وروما وبرلين - وليس في إسبانيا على كل حال. بعد صيف ١٩٣٧ أدرك من له عينان ورأس أن الحكومة لا تستطيع الفوز بالحرب إلا إذا كان هناك تغيير عميق في التركيبة الدولية وفي قرار القتال إلى جانب نيجرين، وربما تأثر آخرون جزئياً بتوقع أن الحرب العالمية التي اندلعت فعلياً عام ١٩٣٩ ستحدث عام ١٩٣٨. إن الخلاف والانشقاق الذي ضخمته الدعاية من جانب الحكومة، لم يكن السبب الرئيسي للهزيمة. كانت ميليشيات الحكومة التي جمعت بسرعة سيئة التسليح وغير بارعة في رؤيتها العسكرية، لكنها كانت ستظل على ما هي عليه لو وجد اتفاق سياسي منذ البداية. مع اندلاع الحرب، لم يكن عامل المصنع الإسباني العادي يعرف كيف يطلق البندقية (لم يكن هناك تجنيد عام إجباري في إسبانيا) وكانت سلامية (رفض حمل السلاح) اليسار التقليدية عقبة كبيرة. لقد شكل آلاف الأجانب الذين خدموا في إسبانيا كتائب مشاة جيدة، لكن كانت هناك قلة قليلة من الخبراء بينهم، وكانت الفرضية التروتسكية تقول بأن الحرب يمكن الفوز بها إذا لم تخرب الثورة زيفاً ووهماً. إن تأميم المصانع وهدم الكنائس وإصدار بيانات ثورية سياسية، لم يجعل الجيوش أكثر كفاءة. لقد فاز الفاشيون، لأنهم كانوا الأقوى ولديهم أسلحة حديثة ليست لدى الآخرين، ولا تستطيع أي استراتيجية سياسية تعديل ذلك.

كان الشيء المربك جداً في الحرب الإسبانية سلوك القوى العظمى، فقد فاز فرانكو بالحرب بفضل الألمان والإيطاليين الذين كانت دوافعهم واضحة جداً، أما دوافع فرنسا وبريطانيا فكانت غير مفهومة بالمقارنة. في عام ١٩٣٦ كان من الواضح لكل شخص لو أن بريطانيا ساعدت الحكومة الإسبانية بسلاح حتى ولو ببضعة ملايين الجنيهات، لانهار فرانكو وتفككت الاستراتيجية الألمانية بشدة. في ذلك الوقت لم يكن المرء بحاجة ليكون مستبصراً

ليتكهن بأن الحرب بين بريطانيا وألمانيا كانت قادمة؛ حتى أن المرء العادي استطاع أن يتنبأ بقدومها في غضون سنة أو اثنتين، ومع ذلك بذلت الطبقة الحاكمة البريطانية أقصى جهدها وبأوضع وأجبن وأزيف طريقة كي تسلم إسبانيا لفرانكو والنازيين. لماذا؟ الجواب الواضح؛ لأنهم (الطبقة الحاكمة) كانوا مؤيدون للنازية، وكانوا كذلك من دون أي شك وحتى حين وصلت الأمور إلى المكاشفة الحاسمة، قد اختاروا أن يقفوا إلى جانب ألمانيا. لايزال غير مؤكد أية خطة نفذوها لدعم فرانكو وربما لم تكن لديهم أية خطة إطلاقاً. إذا كانت الطبقة الحاكمة في بريطانيا شريرة أم مجرد غبية، هو أحد أصعب الأسئلة في زمننا، وهو سؤال هام جداً في لحظات محددة. بالنسبة إلى الروس فقد كانت دوافعهم في الحرب الإسبانية مبهمة تماماً. هل تدخلوا في إسبانيا كما أعتقد القرنفليون لكي يدافعوا عن الديمقراطية ويمنعوا النازيين؟ أم هل تدخلوا كما ظل الكاثوليكيون يعتقدون لكي يعززوا الثورة في إسبانيا؟ إذاً لماذا تدخلوا بمستوى ضعيف جداً وتركوا إسبانيا تغرق؟ ولماذا فعلوا كل ما في قوتهم لسحق الحركات الثورية الإسبانية ودافعوا عن الملكية الخاصة، وسلموا السلطة للطبقة الوسطى لكونها ضد الطبقة العاملة؟ أم هل تدخلوا كما قال التروتسكيون ليمنعوا الثورة الإسبانية؟ إذاً لماذا لم يدعموا فرانكو؟ في الحقيقة تفسر أفعالهم بسهولة بالغة أن افتراض المرء أنهم كانوا يشتغلون على دوافع كثيرة متناقضة. أعتقد أننا في المستقبل سنصل إلى الشعور بأن سياسة ستالين الخارجية، بدلاً من أن تكون ذكية بشكل شيطاني كما زعم، كانت مجرد سياسة انتهازية وغبية، لكن في كل الأحوال لقد برهنت الحرب الإسبانية على أن النازيين عرفوا ما كانوا يفعلون وخصومهم لم يعرفوا. لقد جرت الحرب بمستوى فني متدنٍ، وكانت استراتيجيتها الرئيسية بسيطة جداً. الطرف الذي يملك السلاح سيفوز. أعطى النازيون والطليان الأسلحة لأصدقائهم الفاشيين الإسبان، أما الديمقراطيات الغربية والروس، فلم يعطوا أسلحة لهؤلاء الذين يفترض أنهم أصدقاؤهم، لهذا فنيت الجمهورية الإسبانية وهلكت وكسبت ما لم تخسره أية جمهورية.

هل كان تشجيع الإسبان للاستمرار في قتال من الصعب عليهم الفوز به كما فعلت من غير ريب كل الأجنحة اليسارية في البلدان الأخرى، صحيحاً أم غير صحيح، سؤال تصعب الإجابة عليه. أنا نفسي أعتقد أنه صحيح، لأنني أعتقد أنه حتى من وجهة نظر البقاء أن نقاتل

وتهزم أفضل من تستسلم بدون قتال، ومن غير الممكن تقييم الآثار على الاستراتيجية الكبرى للصراع ضد الفاشية بعد. لقد صمدت جيوش الجمهورية المهلهلة والعزلاء سنتين ونصف، وكان ذلك أطول بلا شك مما توقع أعداؤها. لكن إن كان ذلك قد خلع الجدول الفاشي وفككه أو إن كان من جانب آخر أجل الحرب الرئيسية فقط وأعطى النازيين وقتاً إضافياً ليعدوا التهم الحربة، فهذا غير مؤكد.

٧ - لم أفكر بالحرب الإسبانية أبداً من دون أن تخطر في ذهني ذكريتان اثنتان. الأولى من جناح المستشفى في ليردا، والأصوات الحزينة لجرحى رجال المليشيا وهم يغنون أغنية تنتهي باللازمة التالية -

أونا روزليسيون، لوشار هاست ال فين! (قرار، القتال حتى النهاية - المترجم).

حسناً، إنهم حاربوا حتى النهاية بشكل صحيح. في ال أشهر الثمانية عشرة الأخيرة من الحرب، كانت الجيوش الجمهورية تقاتل من دون سجائر والقليل جداً من الطعام. حتى حين غادرت إسبانيا في منتصف عام ١٩٣٧ كان اللحم والخبز نادرين والتبغ نادر جداً والحصول على القهوة والسكر غير ممكن.

الذكرى الأخرى لجندي ميليشيا إيطالي صافحني في غرفة الحرس في اليوم الذي انضممت فيه إلى الميليشيا. كتبت عن هذا الرجل في بداية كتابي عن الحرب الإسبانية [تقديراً لكاتالونيا] ولا أريد أن أكرر ما قلته هناك. حين أتذكر - أوه كم هي حية ونشطة هذه الذكرى! - بزته النظامية المهلهلة ووجهه البريء الحزين العنيف تبدو القضايا الجانبية المعقدة للحرب تتلاشى، وأرى بوضوح أنه لم يكن هناك أي شك في كل الأحوال حول من الذي كان على حق. بالرغم من سياسة السلطة والكذب الإعلامي، كانت القضية المركزية للحرب محاولة أناس للفوز بحياة كريمة عرفوا أنه حقهم بالولادة. من الصعب التفكير بغاية هذا الرجل بالذات المحتملة بدون أنواع كثيرة من المرارة. منذ أن قابلته في ثكنة لينين كان تروتسكياً أو فوضوياً ربما، وفي الظروف الغريبة لزمننا كان هؤلاء الناس يتعرضون للقتل، فإن لم يقتلهم الجيستابو يقتلهم جي بي يو (الشرطة السرية الروسية) عادة. لكن ذلك لا يؤثر على القضايا البعيدة. وجه هذا الرجل الذي رأيته لمدة دقيقة أو اثنتين فقط، ظل معي كنوع من مذكر بصري لما كانت من

أجله الحرب. إنه يرمز بالنسبة إلي إلى نخبة الطبقة العاملة الأوروبية التي يغير عليها رجال الأمن من كل البلدان، والناس الذين يملؤون القبور الجماعية في ميادين المعارك الإسبانية والملايين الكثيرة من الناس الذين يتعفنون في معسكرات العمل القسري الآن.

حين يفكر المرء بالناس الذين أيدوا ويؤيدون الفاشية، يقف مذهولاً من تنوعهم. يا لهم من عصبة! فكر ببرنامج يمكن أن يجمع بأي شكل ولو لوهلة هتلر وبيتان ومونتاغو نورمان وبافيليتش ووليم راندولف هيرست وسترايخر وبوشمان وإيزرا باوند وجوان مارش وكوكتو وثايسين والأب كوغلين ومفتي القدس وأرنولد لون وأنتونيسكو وشبينغلر وبيفرلي نيكولاس والليدي هيوستون وماريتيي، كلهم في نفس القارب! لكن مفتاح اللغز بسيط فعلاً. إنهم أناس لديهم شيء يخسرونه أو أشخاص يتوقون إلى مجتمع تراتبي، ويفزعون من مشهد عالم من بشر أحرار متساوين، وخلف كل الجلبة والصياح عن روسيا "الملحدة" و"مادية" الطبقة العاملة، يكمن قصد هؤلاء الناس في التشبث بأموالهم وامتيازاتهم، وبالمثل الحديث العقيم حول إعادة بناء اجتماعي غير مترافق مع "تغيير القلب" رغم ما يتضمن من حقيقة مجزوءة، فالورعون من البابا إلى متمرني اليوغا في كاليفورنيا بارعون في "التغيير من القلب" فهو مطمئن من وجهة نظرهم أكثر من تغيير في النظام الاقتصادي، وبيتان يعزو سقوط فرنسا إلى حب العوام للمتعة. ويمكن للمرء أن يرى هذا في منظوره الصحيح إن توقف وتساءل كم هي المتعة التي تحتويها حياة الفلاح الفرنسي العادي أو العامل مقارنة مع متعة بيتان، ويوبخ هؤلاء السياسين والقساوسة ورجال الأدب وأشباههم بوقاحة مقيتة، فرد الطبقة العاملة الاشتراكي على "ماديته!" علماً أن كل ما يطلبه هذا العامل هو ما يراه هؤلاء الآخرون الحد الأدنى الذي لا يمكن الاستغناء عنه، والذي بدونه لا يمكن للحياة البشرية أن تقوم أبداً. ما يكفي من الأكل والتحرر من رعب البطالة الملازم والمعرفة بأن أولادك سيحظون بفرصة عادلة والاستحمام مرة واحدة في الأسبوع وملابس كتانية نظيفة كثيرة بشكل معقول وسقف لا يرشح وساعات عمل قصيرة، تكفي لتترك فيك قليلاً من الطاقة حين ينتهي اليوم، فلا أحد من هؤلاء الذين يعظون ضد "المادية" يعتبر الحياة تحتمل بدون هذه الأشياء، وكم سهل تحقيق ذلك الحد الأدنى إن اخترنا أن نضعه هدفاً لنا لمدة عشرين سنة! لنرفع مستوى المعيشة لكل العالم، ولن يكون ذلك بالنسبة إلى بريطانيا تعهداً أكبر من

الحرب التي نخوضها الآن. لا أدعي ولا أعرف أن أدعي أن ذلك لن يحل أي شيء بحد ذاته. يجب أن يلغى الحرمان والعمل البهيمي، قبل أن تصبح معالجة المشاكل الحقيقية للإنسانية غير ممكنة. إن المشكلة الرئيسية في زمننا هي انحلال الاعتقاد في الخلود الشخصي الذي لا يمكن معالجته طالما الكائن البشري العادي إما أنه يكدح مثل ثور أو يرتعد خوفاً ورعباً من الشرطة السرية. كم هي محقة الطبقة العاملة في "ماديتها"! كم أفرادها محقون في إدراكهم أن البطن تأتي قبل الروح، ليس في ميزان القيم النبيلة، وإنما من ناحية الوقت! افهموا ذلك ويصبح الرعب الطويل الذي نقاسيه جلياً. كل الأفكار على الأرجح تجعل المرء يتردد - الأصوات الفاتنة لبيتان أو غاندي، والحقيقة التي لا مفر منها التي ترى أنك لكي تقاتل عليك أن تحط من قدرك وتهين نفسك، والموقف الأخلاقي الملتبس لبريطانيا بعباراتها الديمقراطية وإمبراطوريتها من الحمالين (الهنود)، والتطور المنحوس لروسيا السوفييتية والمسرحية الهزلية لسياسة الجناح اليساري - كل هذا يتلاشى ولا يرى المرء سوى صراع عامة الناس الذين ينهضون تدريجياً ضد أسياد الملكية وأفاكيهم المستاجرين ومصاصي المؤخرات. السؤال بسيط جداً. هل سيحب الناس أن يسمح لذلك الجندي الإيطالي أن يعيش حياة إنسانية كريمة كاملة قابلة للتحقق فنياً الآن، أم لا يحبون؟ هل سيدفع الرجل العادي إلى الوراء في الوحل أم لا؟ أنا نفسي أعتقد وربما على أسس غير كافية - أن الرجل العادي سيفوز بقتاله عاجلاً أو آجلاً، وأريد أن يكون ذلك عاجلاً وليس آجلاً - في وقت ما خلال المائة سنة القادمة مثلاً، وليس خلال العشرة آلاف سنة القادمة. تلك هي القضية الحقيقة للحرب الإسبانية والحرب الأخيرة وللحروب القادمة ربما.

لم أر رجل الميليشيا الإيطالي ثانية أبداً ولم أعرف اسمه أبداً. من المؤكد أنه مات. بعد سنتين تقريباً حين وضح أن الحرب كانت خاسرة، كتبت هذه الأبيات الشعرية في ذكراه:

صافحني الجندي الإيطالي

بجانب طاولة غرفة الحرس؛

اليد القوية واليد الرقيقة

اللتان راحتاهما استطاعتا فقط



أن تلتقيا داخل ضجيج البنادق

لكن أوه! أي سلام عرفته بعدئذ

في التحديق في وجهه الممزق

الأنقى من وجه أية امرأة!

لأن الكلمات الفاسدة التي جعلتني أتقيأ

لازالت في أذنيه مقدسة،

فقد ولد وهو يعرف ما تعلمته

أنا ببطء من الكتب.

لكن البنادق الغادرة روت حكايتها

ونحن صدقناها كلانا،

لكن قرميدتي الذهبية صنعت من ذهب - أوه!

من كان له أن يتخيل هذا؟

ليصطحبك الحظ الطيب أيها الجندي الإيطالي

لكن الحظ ليس للشجعان؛

ما الذي سيرده العالم لك؟

سيظل دائماً أقل مما أعطيت

بين الظل والشبح

بين الأبيض والأحمر

بين الرصاصة والكذبة
أين ستخبئ رأسك؟

لأنه أين مانويل غونزاليس،
وأين بيرو أغويلار،
وأين رامون فينيلوسا؟
دود الأرض يعرف أين يكونون.

اسمك ومآثرك نسيت
قبل أن تجف عظامك،
والكذبة التي ذبحتك طمرت
تحت كذبة أعمق؛

لكن الشيء الذي رأيته في وجهك
لا تستطيع قوة أن تطرده
ولا تستطيع أية قنبلة انفجرت
تحطيم الروح الشفافة.

شمال وجنوب

حين تسافر إلى الشمال الشرقي، لا تلاحظ عيناك اللتان ألفتا الجنوب أو الشرق، أي اختلاف كبير حتى تتجاوز برمنغهام. في كوفنتري وفينسبيري بارك أيضاً وبول رينغ في برمنغهام التي لا تختلف عن نورويتش ماركت، وبين كل مدن الأراضي الوسطى، تنتشر هناك حضارة الفيلات التي لا تتميز عن الجنوب. لا تبدأ بملاقاة قبح التصنيع قبل أن تبتعد أكثر نحو الشمال وتصل إلى مدن الفخار وتتجاوزها، ذلك القبح المخيف والآسر للنظر لدرجة يجبرك على قبوله.

إن كوم النفايات شيء شنيع في أفضل حالاته، لأنه بلا هدف أو وظيفة، وهو شيء مكوم على الأرض مثل تفريغ حاوية قمامة عملاقة. هناك مناظر طبيعية ريفية مرعبة في ضواحي مدن التعدين: جبال رمادية مثلمة تطوق أفقك تماماً، ووحل ورماد تحت أقدامك، وأسلاك فولاذية فوق رأسك تنتقل عليها أحواض الوحل ببطء لتعبر مسافات طويلة في قلب الريف. غالباً ما تكون أكوام النفايات مشتعلة، فترى في الليل أنهراً حمراء من النار تتعرج بهذا الدرب أو ذاك ولهباً كبريتياً أزرق يتحرك ببطء ويبدو دائماً على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنه يثب فجأة دائماً، فحتى حين يغور كوم النفايات كما يحصل أخيراً، لا ينمو عليه سوى عشب بني كريه ويحتفظ بسطحه الناتئ، وقد استخدم في أحد شوارع ويغان القذرة كملعب، لكنه بدا مثل بحر متلاطم الأمواج تجمد فجأة (حشوة الفراش) كما سموه محلياً. بعد قرون من الآن عندما يمر المحراث فوق الأماكن التي نُجّم فيها عن الفحم، ستظل مواقع أكوام النفايات مميزة من الطائرة.

أتذكر عصر يوم شتوي في ضواحي ويغان البغيضة. كل ما يحيط بك منظر قمري لأكوام النفايات، وإلى الشمال عبر الحواجز ترى مداخن المعامل وهي تنشر غيوم الدخان، كما لو كانت بين جبال من مخلفات البراكين. كان ممر القناة خليطاً من الجمر المطفأ والوحل المتجمد الذي قطعته آثار قباقيب لا تحصى وتمتد في كل المحيط وصولاً إلى أكوام النفايات البعيدة و-

الومضات - برك من المياه الراكدة تسربت إلى التجاويف التي سببها انخساف الحفر القديمة. كان الجو بارداً بشكل رهيب وغطى "الومضات" البرك جليد بلون بني مصفر، وتكمم رجال المراكب بأكياس والتحت البوابات المقفلة بالجليد. بدا عالماً طردت منه الحياة النباتية ليس فيه سوى الدخان والصلصال والوحل والمياه القذرة. لكن حتى ويغان تبدو جميلة مقارنة بشيفيلد. شيفيلد أعتقد أنني أستطيع أن أطلق عليها أبشع بلدة في العالم القديم: سكانها الذين أرادوا أن تتفوق، قدموا هذا الطلب من أجلها. يبلغ سكانها نصف مليون، وفيها عدد من الأبنية المقبولة أقل مما هو موجود في أية قرية إنكليزية في الشرق تعدادها خمسمائة شخص. والرائحة الكريهة! لو حدث في لحظات ولم تشم فيها رائحة الكبريت، فستشم رائحة الغاز بدلاً منها. حتى لون النهر الضحل الذي يجري في البلدة فهو أصفر ساطع بسبب مادة كيائية أو أخرى. توقفت مرة وأحصيت عدد مداخن المعامل التي استطعت أن أراها، فكانت ثلاث وثلاثين مدخنة، ولولا الظلام الذي شكله الدخان، لكان هناك عدد أكبر بكثير من ذلك. لقد احتفظت ذاكرتي بأحد تلك المناظر بشكل خاص. بقعة مخيفة من أرض خالية (بطريقة أو بأخرى، توجد هناك بقعة أرض خالية تصل إلى درجة من القذارة يستحيل مثيلها حتى في لندن) خلت من العشب ولوثت بالجرائد وقدور الطبخ القديمة. إلى اليمين صف معزول من البيوت بلونها الأحمر الغامق والتي اسودت من الدخان، وعلى اليسار منظر لمداخن المصانع الواحدة تلو الأخرى، والتي تلاشت في ضباب مسود مبهم، وورائي جسر سكة الحديد مصنوع من بقايا الأفران، وأمامي عبر بقعة الأرض الخالية بناء مكعب الشكل من الآجر الأحمر والأصفر بعلامة (توماس غروكوك، متعهد نقل العربات).

في الليل، حين لا يمكن رؤية الأشكال الشنيعة للبيوت ويغطي اللون الأسود كل شيء، تبدو مدينة مثل شيفيلد كنوع من الجلال المنحوس. أحياناً تضغط تيارات من الدخان الكبريتي الوردي وألسنة اللهب المتفرقة مثل مناشير دائرية نفسها، لتخرج من تحت أغطية مداخن صهر المعادن. من خلال أبواب معامل سبك المعادن المفتوحة ترى أفاعي مشتعلة من الحديد يحملها ذهاباً وإياباً صبية مضاؤون بلون أحمر، وتسمع صوت ضربات المطارق البخارية وأزيزها وصرخات الحديد تحت الضربة. مدن الفخار متساوية في القبح تقريباً بطريقة تافهة. بين صفوف البيوت المسودة الصغيرة وعلى استقامتها في جزء من الشارع،

هنالك مداخن قرميدية مخروطية مثل قناني خمر فرنسية عملاقة مدفونة في التراب تنفث دخانها في وجهك. ثم تواجه فجوات هائلة من الصلصال طول الواحدة منها مئات الأقدام، ولا يقل عمقها عن ذلك أيضاً مع أحواض صدئة صغيرة، تتسلق ببطء سلسلة سكة حديدية من جانب، وعلى الجانب الآخر عمال معلقون مثل جامعي الياقوت يحفرون بمعاولهم وجه الجرف. مررت بذلك الطريق في جو مثلج وكان الثلج أسود أيضاً. أفضل شيء يراه المرء في مدن الفخار هو صغر حجمها النسبي وتوقفها المفاجئ. على مسافة أقل من عشرة أميال، يمكنك أن تقف في ريف غير ملوث، تبدو من على تلال شبه جرداء بلدات الفخار مجرد لطخة بعيدة.

حين تفكر في قبح كهذا، يخامرك سؤالان؛ الأول: هل هذا محتوم؟ الثاني: هل هذا مهم؟

لا أعتقد أن في الصناعوية شيء متأصل وقبح لا يمكن تجنبه. المصانع وحتى معامل الغاز ليست ملزمة بطبيعتها بأن تكون قبيحة أكثر من القصر أو وجر الكلاب أو الكاتدرائية، فكل شيء يعتمد على التقليد المعماري للفترة الزمنية. البلدات الصناعية في الشمال قبيحة لأنها صدف وبنيت في زمن لم تعرف فيه الوسائل الحديثة للبناء الفولاذي ومخففات الدخان، وشغل جمع المال الناس وصرفهم عن الاهتمام بأي شيء آخر. استمرت بالقبح لأن الشماليين اعتادوا على ذلك النوع من الشيء ولم يلاحظوه. لو استنشق كثير من الناس في شيفيلد أو مانشستر الهواء على طول كورنيش كليفز، سيؤكدون أنهم لم يشموا أية رائحة فيه. لكن منذ الحرب اتجهت الصناعة للانتقال جنوباً، وبفعل هذا أصبحت أكثر وسامة. المصنع النموذجي لفترة ما بعد الحرب، ليس عبارة عن بناء ضخم كئيب أو فوضى مرعبة من السواد والمداخن المتجشئة وإنما بناء أبيض بهي من الإسمنت المسلح والفولاذ والزجاج محاط بمروج خضراء ومسابك أزهار الخزامى. انظر إلى المصانع التي تمر بها حين تسافر من لندن بسكة الحديد الغربية الكبرى؛ قد لا تكون إنجازات جمالية ناجحة، لكنها بالتأكيد ليست بقبح مصانع الغاز في شيفيلد. على أي حال يظل القبح أوضح شيء في التصنيع، وأي قادم جديد يحتج ضده. وأشك إن كان مهماً جداً. ربما من غير المرغوب للتصنيع أن يخفي نفسه بشيء آخر. كما لاحظ السيد ألدوس هاكسلي بصدق، ينبغي على المصنع الشيطاني المظلم أن يبدو مثل مصنع شيطاني مظلم وليس كمعبد آلهة غريبة وغامضة. علاوة على ذلك حتى في أسوأ لمدن الصناعية يمكن

أن يرى المرء الكثير مما هو ليس قبيحاً بالمعنى الجمالي الضيق. المدخنة التي تقذف الدخان أو الأحياء الفقيرة النتنة منفرة أساساً، لأن فيها أرواح بائسة وأطفال مرضى. انظر إليها من وجهة نظر جمالية بحتة، فربما تجدها ذات جاذبية رهيبة معينة. العادة أن كل ما هو غريب بشكل مفرط يسحرني في النهاية حتى وإن كنت أكرهه بقوة. ظلت مناظر بورما الطبيعية وغيرها ترعبني، كما لو كانت كابوساً، وتنتاب أفكاري، حتى أجبرت أن أكتب رواية عنها لأتخلص منها. (في كل الروايات التي عن الشرق، فإن المنظر الجميل هو الموضوع الحقيقي المهم). قد يكون من السهل استخراج نوع من الجمال كما فعل أرنولد بينيت من سواد المدن الصناعية، ويمكن للمرء أن يتخيل بودلير بسهولة مثلاً وهو يكتب قصيدة عن كوم مخلفات، لكن جمال وقبح الصناعوية قلما كان مهماً، ويكمن شره على عمق كبير، ولا يمكن استئصاله، وهذا بسبب وجود إغراءات دائمة للتفكير بأن الصناعوية غير ضارة طالما أنها نظيفة ومرتبة.

لكن عندما تذهب إلى الشمال الصناعي، تشعر بمعزل تام عن المنظر غير المألوف، وبأنك تدخل دولة غريبة. هذا جزئياً بسبب وجود اختلافات حقيقية معينة، لكن الأهم بسبب تناقض الشمال والجنوب الذي انصقل داخلنا منذ زمن طويل في الماضي. توجد في إنكلترا عبادة غريبة للشمال ونوع من الغطرسة الشمالية. الشخص الذي من يوركشاير حين يكون في الجنوب يحرص دائماً على أن يدعك تعرف بأنه يعتبرك شخصاً أدنى، ولو سألته لماذا، فسيعلل ذلك أنه لا توجد حياة حقيقية إلا في الشمال، وأن العمل الصناعي في الشمال هو العمل الحقيقي الوحيد وأن الشمال لا يقطنه إلا الناس الحقيقيون، وأن الجنوب ليس فيه سوى أصحاب الدخول وطفيلييهم. الشمالي لديه (العزم) وهو صلب وصارم ومقدام وطيب القلب وديمقراطي، أما الجنوبي فهو متكبر ومخنث وكسول - هي نظرية على أي حال. لهذا يذهب الجنوبي إلى الشمال للمرة الأولى بعقدة نقص غامضة لرجل متحضر يغامر وسط همجيين، بينما يأتي ابن يوركشاير إلى لندن كالاسكتلندي بروح البربري الخارج إلى النهب. هذه المشاعر نتيجة للتقاليد ولا تتأثر بالوقائع المرئية. كالإنكليزي الذي يبلغ طوله خمسة أقدام وأربع بوصات ومحيط صدره تسع وعشرون بوصة ويظن بأنه متفوق بدنياً على البلطيقي - كامرا (كامرا كونه داغو) وهكذا مع الشمالي والشرقي. أتذكر أن رجلاً صغير الحجم وشديد الهزال من يوركشاير والذي يهرب لو نبح عليه كلب صغير، أخبرني أنه شعر في الجنوب كغازٍ

متوحش. لكن الإعجاب تبناه أشخاص أكثرهم غير شماليين بالمولد. منذ سنة أو سنتين أخذني صديق لي تربى في الجنوب ويعيش الآن في الشمال بسيارته عبر سوفوك، ومررنا بقرية جميلة نوعاً ما. نظر باستهجان إلى البيوت الصغيرة وقال:

طبعاً أغلب القرى في يوركشاير بشعة، لكن أهلها رجال ممتازون، أما هنا فعلى العكس تماماً ترى قرى جميلة وأناساً فاسدين. كل الناس الذين في تلك البيوت تافهون تماماً.

لم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال إن كان قد عرف أحداً من تلك القرية، فأجاب لا، لكن بما أن هذا هو الشرق الإنكليزي فكل من فيه تافه. صديق آخر لي أيضاً جنوبي بالولادة لا يضيع أي فرصة لمدح الشمال وذم الجنوب. هذا مقتطف من إحدى رسائله لي:

أنا في كاليثيرو، لينز...أعتقد أن المياه الجارية جذابة أكثر في بلاد الجبال والمستنقعات من الجنوب المترهل والكسول. (ترنت الفضي المتمجرف) كما قال شكسبير؛ وأنا أقول الجنوبي الأشد تعجرفاً. (ترنت نهر في وسط إنكلترا - المترجم).

هذا مثال عن إعجاب الشماليين الشديد بأنفسهم. لم يصفك أنت أو أنا ولا حتى كل جنوبي أيضاً بالبدين والكسول، بل حتى الماء عندما يتجاوز شمال خط عرض معين لا يظل ذرتان من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، وإنما يصبح شيئاً أرفع على نحو غامض. إن أهمية هذا المقطع، لأن الكاتب رجل ذكي جداً وذو آراء تقدمية وليس لديه سوى احتقار القومية في شكلها العادي. ولو سلمنا بصحة هذا الافتراض: (بريطاني واحد أفضل من ثلاثة أجانب) لرفض ذلك برعب، لكن عندما يتعلق الأمر بالشمال مقابل الجنوب، فإنه على استعداد تام للتعميم. كل الامتيازات القومية وكل الادعاءات بالتفوق على الآخر بفضل اختلاف شكل الجمجمة أو اللهجة، هي زائفة تماماً لكنها مهمة طالما يعتقد بها الناس. لا يوجد شك حول قناعة الرجل الإنكليزي الفطرية بأن الذين يعيشون على جنوبه أدنى منزلة، حتى أن ذلك يتحكم بسياستنا الخارجية إلى حد ما، لذلك أعتقد أن الإشارة إلى زمن ظهور هذه الظاهرة وأسبابها يستحق العناء.

حين أصبحت القومية ديناً لأول مرة، وحين نظر الإنكليز إلى الخريطة ورأوا بأن جزيرتهم تقع في مكان عالٍ جداً في نصف الكرة الشمالي، استنبطوا نظرية ترضيهم، وتقول: كلما ابتعدت

في العيش شمالاً كلما زادت فضائلك. تبدأ عادة علوم التاريخ التي تعلمتها في الصغر بأغبى تعليل بأن الطقس البارد يجعل الناس نشيطين والطقس الحار يجعلهم كسالى، ولهذا انهزم الأسطول البحري الإسباني. هذا الهراء عن تفوق طاقة الإنكليز (فعلياً هم أكسل أمة في أوروبا) ظل سائداً مائة عام على الأقل. وكتبت مجلة ربعية في العام ١٨٢٧ بعنوان (أن يحكم عليك بالعمل لصالح بلادنا، أفضل لك من حياة مترفة بين الزيتون والعنب والرذائل) الزيتون والعنب والرذائل تلخص الموقف الإنكليزي العادي تجاه السلالات اللاتينية. في أساطير غارليل وكريسي وغيرهم بصور الشمالي (التيوتوني والنوردي لاحقاً) على أنه رجل جبار ضخم الجثة بشاربين أشقرين وأخلاق طاهرة، بينما الجنوبي ماكر وجبان وفاسق. هذه النظرية لم تستكمل نهايتها المنطقية التي ستؤدي إلى أن أروع شعب في العالم هم الأسكيمو، لكنها لم تشر إلى أن الشعوب التي تعيش في شمالنا تتفوق علينا. لهذا وسم جزئياً حب اسكتلندا والأشياء الاسكتلندية الشديد الحياة الإنكليزية بعمق خلال الخمسين سنة الماضية. لكن الصناعوية هي التي أعطت لتضاد الشمال والجنوب انحرافه الغريب. حتى وقت حديث نسبياً كان القسم الشمالي في إنكلترا متخلفاً وإقطاعياً، لهذا تركزت الصناعة في لندن وفي الجنوب الشرقي. في الحرب الأهلية مثلاً التي هي حرب بين المال والإقطاعية صراحة، كان الشمال والغرب مع الملك، والجنوب والشرق مع البرلمان، لكن مع زيادة استخدام الفحم عبرت الصناعة إلى الشمال وربت أنموذجاً جديداً من البشر هناك، رجل الأعمال الشمالي العصامي - السيد راونسويل والسيد باوندرباي عند ديكنز. رجل الأعمال الشمالي بفلسفته البغيضة (تقدم أو اخرج) كان المظهر المهيمن في القرن التاسع عشر ونوع من الكيان الاستبدادي الذي لا يزال يحكمنا. هذا هو الأنموذج الذي ثقفه أرنولد بينيت - الأنموذج الذي يبدأ بنصف كراون وينتهي بخمسين ألف جنيه، ومفخرته الرئيسية أنه ظل فلاحاً أكثر سذاجة بعد أن كسب نقوده. بتحليل حسنته الوحيدة يتبين أنه موهوب في جمع المال. نحن احترمناه رغم أنه قد يكون ضيق الأفق ومثيراً للقرف وجاهلاً وجشعاً وأخرق، لكن لديه (العزم) و(يتقدم) أي انه يعرف كيف يجمع المال.

هذا النوع من الانحراف هو مفارقة تاريخية صرفة في الوقت الحاضر، لأن رجل الأعمال الشمالي لم يعد ناجحاً وثرياً، لكن التقاليد لا تتلفها الحقائق، وظل تقليد عزم الشمالي موجوداً.

لا يزال هناك شعور غامض بأن الشمالي يتقدم أي يجمع المال والجنوبي يفشل. في باطن عقل كل يوركي أو اسكتلندي قادم إلى لندن صورة من نوع ديك وتينغتون الصبي الذي بدأ ببيع الصحف وانتهى عمدة للمدينة، وتلك حقيقة منتهى غروره واستهجانه. لكن يرتكب المرء خطأً جسيماً إذا تخيل أن هذا الشعور يشمل الطبقة العاملة. في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى يوركشاير منذ سنين، تخيلت أنني ذاهب إلى بلاد الفلاحين. اعتدت على اليوركي الذي يعيش في لندن بخطاباته التي لا تنتهي وافتخاره بلهجته اللاذعة (قطبة في وقتها تنجيك من تسع) كما نقول في الدوائر الغربية، وتوقعت أن أستقبل بفظاظة كبيرة، لكنني لم أجد ذلك بين عمال الفحم على الأقل. في الحقيقة لقد عاملني عمال يوركشاير ولانكشاير بلطف واحترام مربكين، ولو أن هناك شخصاً أشعر بأنني أدنى مرتبة منه، فسيكون عامل منجم الفحم. طبعاً لم يبد أي شخص أية علامة احتقار لي لأنني قادم من قسم مختلف من البلاد، وهذا له أهميته عندما يتذكر المرء أن التكبر الإقليمي الإنكليزي هو قومية مصغرة، ويثبت أن الافتخار بالمكان ليس صفة للطبقة العاملة.

رغم ذلك يوجد اختلاف حقيقي بين الشمال والجنوب، كما يوجد أثر من الحقيقة على الأقل بأن صورة جنوب إنكلترا، هي كشكل مكبر لمدينة برايتون التي بقطنها المتكئون على الأرائك الكسالى لأسباب مناخية وتميل الطبقة الطفيلية التي تسحب أرباح أسهمها إلى الاستقرار في الجنوب (برايتون مدينة اصطياف في جنوب شرق إنكلترا).

في لانكشاير مدينة القطن، يمكنك أن تمضي شهوراً من دون سماع لهجة (مثقفة) بينما في أي بلدة في الجنوب يندر أن ترمي قرميدة من دون أن تصيب ابنة أخ أسقف، وبناء على ذلك من دون طبقة أرستقراطية صغيرة تنظم المسار، فإن تبرجز الطبقة العاملة يتم ببطء رغم أنه يحدث في الشمال. فمثلاً كل اللهجات الشمالية تثابر بقوة، بينما انهارت لهجات الجنوب قبل زمن السينما ومحطة البي بي سي، لذلك تسمك لهجتك المتعلمة كأجنبي، أكثر من كونك من الطبقة الأرستقراطية الصغيرة، وهذه فائدة هائلة، لأنها تسهل عليك تواصلك مع الطبقة العاملة.

لكن هل من الممكن حقيقة أن تكون حميماً مع الطبقة العاملة؟ سأناقش ذلك لاحقاً؛ ولن أقول هنا سوى إنني لا أعتقد أن هذا ممكن. لكن بلا شك أن تلتقي بأفراد من الطبقة العاملة

بشروط مساوية تقريباً في الشمال أسهل من الجنوب. العيش في بيت عامل منجم وقبول أهله بك كفرد من العائلة، أسهل كثيراً من العيش مع عامل مزرعة في الأقاليم الجنوبية التي قد يكون ذلك فيها مستحيلاً. رأيت ما يكفي من أفراد الطبقة العاملة ليجنبني تصويرهم بالمثاليين، لكنني أعرف تماماً أنك ستتعلم الكثير لو استطعت الوصول إلى هناك. النقطة الجوهرية أن مفاهيم الطبقة الوسطى وميولها توضع على المحك بالتواصل مع الآخرين الذين هم ليسوا أفضل بالضرورة، لكنهم مختلفون بالتأكيد.

خذ مثلاً الموقف المختلف تجاه العائلة. تتماسك عائلة العامل معاً كعائلة الطبقة الوسطى، لكن العلاقة فيها أقل استبدادية بكثير؛ فالعامل لا يرزح تحت عبء هيبة العائلة القاتل الملتف حول عنقه كحجر الرحى، أما فرد طبقة الوسطى فيدمره تأثير الفقر تماماً، وعموماً هذا بسبب سلوك عائلته - بسبب علاقاته الكثيرة التي تضايقه وتزعجه ليلاً ونهاراً لفشله بتحقيق (التقدم) بالإضافة إلى الحقيقة بأن الطبقة العاملة تعرف كيف تتحد والطبقة الوسطى لا تعرف، قد يكون هذا بسبب مفاهيمها المختلفة للولاء العائلي. لا يمكن أن تجد نقابة فعالة من عمال الطبقة الوسطى، لأن زوجة كل واحد منهم تحث زوجها ليحل محل عامل مضرب أثناء الإضرابات والحصول على وظيفة زميله الآخر. صفة أخرى مقلقة في البداية من صفات الطبقة العاملة، خطابهم البسيط نحو كل من يعتبرونه نداً لهم. لو قدمت شيئاً لعامل لا يريده، فهو يقول لك بأنه لا يريده؛ أما فرد الطبقة الوسطى سيقبله كي يتجنب الإساءة. وخذ أيضاً موقف العامل من (التعليم) كم هو مختلف عن موقفنا وكم هو سليم! يكن العمال تبجيلاً غامضاً للتعلم من الآخرين في أكثر الأحيان، لكن حين يؤثر التعليم على حياتهم الخاصة يتحققون منه ويرفضونه بغريزة سليمة. في الوقت الذي كنت أرثي فيه صورة خيالية مستقبلية لصبية في الرابعة عشرة تخلفوا عن رفاقهم محتجين على دروسهم وبدؤوا بالعمل في وظائف كئيبة بدا لي مرعبا أن يقع قدر الوظيفة على صبي في الرابعة عشرة، وأنا أعرف طبعاً أنه ليس هناك صبي واحد في الألف من أولاد الطبقة العاملة لا يتوق إلى اليوم الذي يترك فيه المدرسة، فهو يريد أن يعمل عملاً حقيقياً وألا يضيع وقته في ترهات سخيفة كالتاريخ والجغرافيا. تعتبر الطبقة العاملة فكرة البقاء في المدرسة حتى يصبح الصبي بالغاً، خسيسة وغير رجولية. فكرة الصبي الكبير ابن الثامنة عشرة الذي يجب أن يجلب جنيهاً إلى البيت أسبوعياً ويعطيه لأهله،

الذهاب إلى المدارس بالزي الرسمي السخيف والتعرض للضرب بالعصا لعدم القيام بدروسه أيضاً! تخيل صبياً من العمال في الثامنة عشرة يسمح لنفسه بأن يضرب بعصا! هو رجل بينما الآخر لا يزال طفلاً. إيرنست بونتيفكس في *طريق كل البشر* لصاموئيل بتلر، بعد أن احتك بالحياة الواقعية وحصل على لمحات قليلة منها، نظر إلى تعليمه في المدرسة الخاصة والجامعة ووجده (فسوق موهن وسقيم). هناك الكثير من حياة الطبقة الوسطى الذي يبدو سقيماً وواهناً من وجهة نظر الطبقة العاملة.

تتنفس في بيت العامل - أنا لا أفكر في هذه اللحظة بالعاطل عن العمل، بل بالبيوت المزدهرة بالمقارنة - هواء إنساني مليء بالدفء والاحترام الذي لا تجده في أي مكان آخر. يجب أن أقول إن العامل اليدوي إن كان في عمل ثابت وينال أجراً جيداً - ولو كان في ازدياد دائم - تتوفر له فرصة أفضل من الرجل المثقف. ويبدو أن حياته المنزلية تأخذ شكلاً سليماً ولائقاً بشكل طبيعي. لقد اندهشت مرات كثيرة بالكمال السهل والمتميز والتناسق المثالي للشؤون الداخلية للطبقة العاملة في أفضل حالاتها، خصوصاً في أمسيات الشتاء بعد الشاي حين تتوهج النار في الموقد المفتوح وتتراقص ظلالها على الحاجز الحديدي، ويجلس الأب بأكمام قميصه في كرسيه الهزاز بجانب أحد أطراف الموقد وهو يقرأ نهائيات السباق، وتجلس الأم على الطرف الآخر مع معدات الحياكة، والأولاد سعداء بحلوى النعناع الرخيص، ويتراخى الكلب وهو يدفئ نفسه على ممسحة الأرجل - إنه مكان جيد لتكون فيه، شرط ألا تكون داخله فقط بل ومنه أيضاً كأمر بديهي.

يتكرر هذا المشهد في أغلب البيوت الإنكليزية، لكنه ليس بكثرة فترة ما قبل الحرب. تعتمد سعادته أساساً على مسألة وحيدة - إن كان الأب على رأس عمله. لكن لاحظ الصورة التي استدعيتها لعائلة فرد من الطبقة العاملة تجلس حول نار الفحم بعد وجبة سمك وبعد الشاي الثقيل وتنتمي إلى زمننا فقط ولا تنتمي إلى المستقبل ولا إلى الماضي. اقفز مائتي عام داخل المستقبل إلى المستقبل الطوباوي، وسيختلف المشهد تماماً ويصعب استمرار وجود أي شيء مما تخيلته هناك. في ذلك العصر عندما لن يظل أي عامل يدوي ويكون الكل (متعلماً) من غير المحتمل أن يظل الأب رجلاً خشناً بيدين كبيرتين ويحب الجلوس بأكمام قميص ويقول (آه وصلت الحرب إلى شارعنا) ولن يكون هناك نار فحم في الموقد بل شيء

ما من التدفئة المخفية، وسيكون الأثاث مصنوعاً من المطاط والزجاج والحديد، وإن ظلت أشياء مثل صحف المساء، فلن تجد فيها أخبار السباقات بالتأكيد، لأن القمار لن يبقى له أي معنى في عالم ليس فيه فقر، وسيختفي الحصان عن وجه الأرض وستقمع الكلاب أيضاً لأسباب صحية، ولن يكون هناك الكثير جداً من الأطفال، إن فعل المسيطرون على الولادات ما يريدون. لكن لو عدنا إلى العصور الوسطى فسنكون وسط عالم غريب مشابه من البيوت الصغيرة التي لا نوافذ لها ونار الحطب التي تدخن في وجهك لعدم وجود مدخنة، والخبز المتعفن بورجون، والقمل والإسقربوط وولادات الأطفال السنوية ووفياتهم، والقس الذي يرعبك بقصصه عن الجحيم.

ليست الغرابة في انتصارات الهندسة الحديثة والمذياع والفن السينمائي والخمسة آلاف رواية التي تنشر سنوياً، والحشود في اسكوت وايتون، ومباراة هارو، بل في ذكرى الشؤون الداخلية للطبقة العاملة أيضاً التي تذكرني بأن عصرنا لم يكن كله عصراً سيئاً للعيش، خصوصاً كما كنت أراه أحياناً في طفولتي قبل الحرب حين كانت إنكلترا مزدهرة.

في أعماق المنجم

إن حضارتنا، مع الاعتذار من تشيسترتون، ترتكز على الفحم أكثر مما يدرك المرء حتى يتوقف ويفكر فيها والآلات التي تبقينا أحياء، تعتمد كلها بشكل مباشر أو غير مباشر على الفحم. في كل حركة العالم الغربي، فإن عامل المنجم هو الثاني بالأهمية بعد المرء الذي يحرث التربة، وهو كالعمود الذي يحمل تقريباً كل شيء ليس مكسواً بالسخام. لهذا السبب، فإن العملية الفعلية التي يستخرج فيها الفحم، تستحق المشاهدة، إن توفرت الفرصة لذلك وتحملت المخاطرة.

عندما تنزل في منجم فحم، من المهم أن تحاول الحصول على منظر وجه الفحم أثناء عمل المعبئين، لكن هذا ليس سهلاً، لأن الزوار يسببون إزعاجاً وغير مرحب بهم عندما يكون المنجم يعمل. ولو ذهبت في أي وقت آخر، فإنك قد تخرج بانطباع خاطئ تماماً. فمثلاً يبدو المنجم هادئاً في يوم الأحد، لكن الوقت المناسب للذهاب إليه عندما تكون الآلات تهدر والهواء أسود من غبار الفحم، وعندما ترى ما يجب أن يفعله العمال. في تلك الأوقات يكون المكان مثل جهنم أو بأي مقياس مثل الصورة العقلية التي كونتها عن جهنم. أكثر الأشياء التي يتخيلها المرء في جهنم موجودة هناك - الحرارة والفوضى والظلام والهواء الفاسد، وأهم شيء الفراغ الضيق الذي لا يحتمل. كل شيء ما عدا النار. ليس هناك سوى أشعة مصابيح ديفي الواهنة والمشاعل الكهربائية التي نادراً ما تخترق غيوم غبار الفحم.

عندما تصل إلى هناك أخيراً - والوصول بحد ذاته مهمة مرهقة: سأشرح ذلك في لحظة - تزحف عبر آخر صف من دعامات الحفر، وترى مقابلك جداراً أسود براقا بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام. هذا هو وجه الفحم. فوقك سقف ناعم صنعته الصخور التي قُطع الفحم منها، ومن تحتك الصخر ثانية، لهذا فالدهليز الذي أنت فيه بارتفاع عرق الفحم نفسه الذي لا يتجاوز الياردة الواحدة. الانطباع الأول الذي يطغى على كل شيء لبرهة، هو الضجيج الصام للآذان والمرعب الصادر عن السير الناقل الذي يحمل الفحم إلى الخارج. لا يمكنك أن ترى إلى مسافة بعيدة، لأن ضباب غبار الفحم يعكس شعاع مصباحك ويرده، لكن يمكنك أن

ترى صف الرجال نصف العارين الجاثين على كلا جانبيك - واحد في كل أربع أو خمس ياردات - يشقون مجاريفهم تحت الفحم الساقط ويقذفونه بسرعة من فوق أكتافهم. إنهم يغذون فيه السير الناقل المطاطي المتحرك الذي يكون بعرض قدمين ويتبعهم على بعد ياردة أو اثنتين منهم. أسفل السير يجري نهر لامع من الفخم باستمرار. في المناجم الكبيرة يحمل هذا السير معه أطناناً كثيرة من الفحم في كل دقيقة، يحمله إلى مكان ما في الطرق الرئيسية؛ حيث يرمى في أحواض تصل حمولة واحدها إلى نصف طن، وتجر من ذلك المكان إلى أقفاص لترفع إلى الجو الخارجي.

يستحيل أن تراقب المعبئين وهم يعملون من دون أن تشعر بغصة من الحسد لصلابتهم. إن المهنة التي يقومون بها مرعبة ومهنة جابرة بمقاييس الشخص العادي. هم لا ينقلون كميات ضخمة جداً من الفحم فقط، بل يقومون بذلك في وضع يُضاعف فيه عملهم مرتين أو ثلاث. يجب أن يبقوا جاثين كل الوقت - لا يمكنهم النهوض والوقوف على أقدامهم من دون أن يصطدموا بالسقف - ويمكنك بسهولة أن ترى معنى هذا الجهد الهائل بتجريب ذلك. إن الجرف سهل نسبياً، لأنك تكون واقفاً فيه وتستطيع استخدام ركبتك وفخذك لحمل المجرفة، لكن عند الجثو يقع كل الجهد على ذراعك وعضلات بطنك، بالإضافة إلى الشروط الأخرى التي لا تجعل الأمر أسهل. هناك الحرارة - التي تتنوع، ففي بعض المناجم تكون خانقة - وغبار الفحم الذي يقتحم حلقك ومنخريك ويتراكم على جفنيك. أما الصليل الأبدي للسير الناقل في ذلك المكان المحصور، فيشبه صليل بندقية آلية. لكن المعبئون أخذوا على عاتقهم العمل وكأنهم مصنعين من الفولاذ. في الواقع يبدون وكأنهم تماثيل حديدية مطروقة - تحت غطاء غبار الفحم الناعم الملتصق بهم من رأسهم حتى أقدامهم. لا تدرك عظمة رجال المناجم إلا عندما تراهم في المنجم وهم عراة. أغلبهم صغار الحجم (الرجال الضخام غير مناسبين لهذه المهنة) لكن لكلهم تقريباً أجمل الأجسام: أكتاف عريضة تضيق لتتصل بخصور رفيعة مرنة وأرداف بارزة صغيرة وأفخاذ وترية من دون أي أونصة من الشحم في أي مكان. في المناجم الأشد حرارة يلبسون سروالاً تحتياً رقيقاً وقبقاباً ووسادات للركب، ولا يمكنك التمييز بالنظر إن كانوا صغاراً أم كبار فقد يكونون بأي عمر حتى الستين أو الخامسة والستين، لكن عندما يغطيهم اللون الأسود ويكونون عراة، يبدون متشابهين كلهم. لا أحد

يستطيع القيام بعملهم إن لم يكن جسمه كجسم شاب ومظهره ملائم للحراس، وإن مجرد بضعة أرطال زائدة على الخصر تجعل الانثناء مستحيلاً. لن تستطيع نسيان ذلك المشهد إن رأيته مرة - خطوط الانحناء والأشكال الجاثية والسخام الأسود الذي يغطي كل شيء وهم يشقون مجاريفهم الضخمة تحت الفحم بقوة هائلة وسرعة كبيرة، ويعملون سبع ساعات ونصف من دون أية استراحة نظرياً، لأنه لا يوجد انقطاع عن العمل، ولكنهم عملياً يخطفون ربع ساعة تقريباً أثناء الوردية يتناولون فيها الطعام الذي يحضرونه معهم والمكون عادة من قطعة ضخمة من الخبز وماء الشواء والشاي البارد. أول مرة كنت أراقب فيها المعبئين أثناء عملهم، وضعت يدي على شيء مروع لزج وسط الفحم. لقد كان مضغة تبغ، وكل المعبئين تقريباً يمضغون التبغ، وقيل إنه مفيد ضد العطش.

ربما عليك أن تنزل إلى مناجم كثيرة قبل أن تفهم العملية التي تجري من حولك هناك. هذا أولاً، لأن مجرد جهد الانتقال من مكان إلى آخر يجعل من الصعب ملاحظة أي شيء آخر ويخيب الآمال أحياناً، أو على الأقل ليس كما تتوقع. تدخل في القفص، وهو عبارة عن صندوق فولاذي بعرض حجرة الهاتف وأطول بمرتين أو ثلاث. يحمل الصندوق عشرة رجال، يحزمونهم مثل السمك في العلبة، ولا يستطيع الرجل الطويل الوقوف فيها بشكل مستقيم، ثم يغلق الباب الفولاذي عليك، ويقوم شخص في الأعلى بلفّ ناقل الحركة ليسقطك في الفراغ. يتنابك شعور بالمغص المؤقت المعتاد في بطنك وضجة انفجارية في أذنيك، لكن لا يتولد لديك إحساس كبير بالحركة حتى تقترب من القاع، عندما يتباطأ القفص فجأة لدرجة تتمنى فيها أنه سيصعد إلى الأعلى مرة أخرى. في وسط السباق قد تقارب سرعة القفص الستين ميلاً في الساعة وفي المناجم الأعمق يتجاوز ذلك. حين تصل وتحبو على القاع تكون على عمق أربع مائة ياردة تحت الأرض. هذا يعني حجم جبل فوقك؛ مئات الياردات من الصخر الأصم والعظام والوحوش المنقرضة والتربة التحتية وحجر الصوان وجذور الأشياء النامية والعشب الأخضر والأبقار التي ترعى فوقه - كل هذا معلق فوقك لا تدعمه سوى دعامات خشبية بسماكة ربلة ساقك. لكن بسبب السرعة التي ينزلك بها القفص والظلام الدامس الذي تسافر عبره، فإنك قلما تشعر بأنك على عمق أكبر من نفق سكة حديد بيكاديلي.

المدهش من الجانب الآخر، المسافات الأفقية الهائلة التي عليك قطعها تحت الأرض. قبل أن أنزل في منجم، تخيلت على نحو غامض بأن عامل المنجم يخطو من القفص ويصل إلى العمل على رف من الفحم على بعد بضع ياردات. لم أدرك أنه قبل أن يصل إلى العمل عليه أن يزحف في ممرات طويلة تعادل المسافة من لندن إلى أوكسفورد سيركوس. في البداية، طبعاً، يغور بئر مصعد المنجم في مكان ما قرب درزة (طبقة) الفحم؛ لكن حالما يتم حفر تلك الطبقة تأتي بعدها طبقات جديدة أخرى، وتصبح الحفريات أبعد وأبعد عن قاع الحفرة. إن كانت المسافة ميلاً من قاع الحفرة إلى وجه الفحم، فذلك هو المتوسط النموذجي المسافة، أما ثلاثة أميال فهو عادي جداً، وقيل إن بعض المناجم تتجاوز المسافة فيها الخمسة أميال. لكن تلك المسافات لا علاقة لها بالمسافة فوق الأرض، لأنه في الميل أو الثلاثة أميال قلما يوجد أي مكان خارج الطريق الرئيسي، ولا توجد أماكن كثيرة هناك يستطيع الرجل الوقوف فيها بقامة منتصبة.

لا تلاحظ تأثير هذا إلا بعد أن تقطع بضع مئات من الياردات حتى تبدأ بالانحناء بشكل خفيف وأنت تنزل في الدهليز ذي الإضاءة العائمة الذي بلغ عرضه ثمان أو عشر ياردات وارتفاعه خمس ياردات تقريباً، وجدرانه المبنية من ألواح من صخر الصلصال مثل الجدران الحجرية في ديربي شاير.

كل ياردة أو اثنتين هناك دعامات خشبية تحمل العوارض الخشبية الأفقية والعوارض الحديدية المثبتة، التوى بعضها بانحناءات غريبة الشكل يجب عليك تفاديها. من السيئ السير في الطريق الذي تحت قدميك - غبار كثيف أو قطع مثلمة من الصخر، وفي بعض المناجم هناك ماء بقذارة ساحة المزرعة. وهناك أيضاً مسار لأحواض الفحم مثل مصغر مسار سكة حديدية مع عوارض تبعد الواحدة عن الأخرى قدماً أو اثنين يصعب عليه المشي. كل شيء رمادي بسبب غبار الصلصال؛ وهناك رائحة حارة ومغبرة تجدها في كل المناجم. وترى آلات غريبة لن تعرف الغرض منها أبداً وحزمة من الأدوات معلقة معاً على أسلاك، وأحياناً تندفع الجرذان مبتعدة عن عمود المصابيح. وهي مألوفة إلى حد الدهشة وخصوصاً في المناجم التي فيها أو كان فيها خيول. وسيكون ممتعاً أن تعرف كيف وصلت هناك أولاً؛ ربما بالسقوط من بئر المصعد - لأنهم يقولون إن الجرذ يستطيع أن يسقط من أية مسافة من دون أن يتضرر، بفضل منطقة سطحه الواسعة نسبة إلى ثقله. تضغط نفسك بالجدار لتفسح

الطريق لصف الأحواض المترنحة ببطء باتجاه العمود ويسحبها سلك فولاذي متصل بدار من السطح. وتحبو عبر ستائر الخيش والأبواب الصوفية الثخينة التي عندما تفتح تسمح بدخول هبات قوية من الهواء الساخن البغيض. الأبواب جزء هام من نظام التهوية. الهواء المستنفذ يمتصه أحد الأعمدة بواسطة المراوح ويدخل الهواء الجديد من الآخر بنفسه. لكن لو ترك لحاله، سيأخذ الهواء طريقاً أقصر دورة تاركاً العمال الذين في الأماكن الأعمق دون تهوية؛ لهذا كل الطرق المختصرة يجب أن تفصل بحواجز. في البداية يبدو المشي وظهرك محني شيء هين، لكن لا تلبث تلك السهولة في التلاشي سريعاً. أنا معاق إلى حد ما بسبب طولي، وحين يكون ارتفاع السقف أربعة أقدام أو أقل يصبح المشي مهمة قاسية لا يقدر عليها سوى قزم أو طفل. ليس عليك أن تنحني للضعف فقط، بل يجب عليك أن تبقي رأسك مرفوعاً لترى الروافد والعوارض وتتفاداها عندما تأتـي. لذلك تصاب رقبتك بتشنج، لكنه لا يقارن بالألم في الذي تعانيه ساقاك وركبتاك. بعد نصف ميل يصبح الألم مبرحاً لا يطاق (وأنا لا أبالغ) وتبدأ بالتساؤل إن كنت ستصل إلى النهاية - بل الأسوأ التفكير في العودة - فتصبح خطواتك أبطأ وأبطأ، ثم تصل بعد مسافة مائتي ياردة إلى منطقة منخفضة على نحو استثنائي، يجب عليك أن تكون فيها بوضع القرفصاء، بعدها ينفتح السقف على ارتفاع غريب - منظر انحدار صخرة قديمة، من المحتمل - تظل ماشياً بقامة منتصبة مسافة عشرين ياردة فيغمرك الارتياح. لكن بعد هذا هناك مسافة مائة ياردة أخرى منخفضة، ثم سلسلة من الروافد الخشبية التي يجب أن تزحف تحتها. تنزل على أطرافك الأربعة، وحتى هذا يبدو مريحاً بعد مهمة القرفصاء، لكن عندما تصل إلى نهاية الروافد الخشبية وتحاول النهوض ثانية، تجد أن ركبتيك أضربتا عن العمل مؤقتاً وترفضان رفعك إلى الأعلى. تصيح: توقف، بصورة شائنة، وتقول بأنك تود أن تستريح لمدة دقيقة أو اثنتين. دليلك، وهو عامل منجم، يتعاطف معك ويعرف أن عضلاتك ليست كعضلاته. يقول لك مشجعا (لم يبق سوى أربعمائة ياردة أخرى)، وتشعر بأنه يقول أربعمائة ميل أخرى. لكنك بشكل أو بآخر تزحف حتى تصل وجه الفحم. تقطع ميلاً فيما يقارب الساعة؛ بينما يقطعها عامل المنجم في حوالي عشرين دقيقة. بعد الوصول هناك، يجب أن تنبطح على الفحم لعدة دقائق لتستجمع قوتك قبل أن تستطيع مراقبة سير العمل بأي نوع من الذكاء.

الإياب أسوأ من الذهاب، ليس لأنك متعب مسبقاً، بل لأن الرحلة إلى الممر الرأسي صاعدة قليلاً. وتمر عبر الأماكن المنخفضة بسرعة السلحفاة، ولا تستحي من الصياح طلباً للتوقف بسبب ركبتيك الخائرتين، اللتين لا تحملانك، حتى حمل المصباح يصبح مزعجاً، ويمكن أن تسقطه عندما تتعثر؛ لذلك إن كان من نوع ديفي ينطفئ. يصبح تحاشي الروافد الخشبية أكثر صعوبة وإجهاداً وأحياناً تنسى تجنبها. تحاول المشي ورأسك إلى الأسفل كما يفعل العمال، لكنك تخبط عمودك الفقري. حتى العمال يخبطون عمودهم الفقري كثيراً. في المناجم الحارة جداً يكون من الضروري التنقل شبه عار، لهذا فإن أغلب العمال لديهم ما يسمونه (نقر في أسفل ظهورهم) في كل فقرة من ظهورهم. عندما يكون المسار منحدراً يهيئ العمال قباقيبهم، التي تكون مجوفة من الأسفل على قضبان السكة وينزلقون. في المناجم التي فيها التنقل سيء جداً يحمل العمال كلهم عصياً طولها قدمان ونصف مجوفة تحت القبضة. في الأماكن العادية تقبض بيدك بأعلى العصا، وفي الأماكن المنخفضة تزلق يدك إلى التجويف. تعتبر العصي عوناً كبيراً، وتعتبر الخوذة الخشبية وهي اختراع حديث نسبياً مصادفة سعيدة. تبدو مثل الخوذ الإيطالية والفرنسية المعدنية، لكنها مصنوعة من لب وخفيفة وقوية جداً، لدرجة لو تعرضت لضربة عنيفة، فلن تشعر بها. عندما تعود وتصل إلى السطح أخيراً، تكون قد أمضيت ثلاث ساعات تحت الأرض وقطعت ميلين أنهكاك أكثر من قطع خمس وعشرين ميلاً مشياً فوق الأرض. وتظل ساقاك متيبستين أسبوعاً، ويصبح نزول الدرج مأثرة بطولية؛ إذ تشق طريقك بطريقة جانبية غريبة دون ثني الركب. يلاحظ أصدقاؤك العمال صعوبة المشي بالنسبة إليك ويمزحون. (ما رأيك بالعمل في الحفرة؟) حتى عامل المنجم عندما يعود إلى الحفرة بعد مرض مثلاً يعاني بشكل سيء خلال الأيام الأولى القليلة.

ربما أكون مبالغاً، لكن ليس هناك أحد هبط في حفرة قديمة الطراز - وأغلب حفر المناجم الإنكليزية كذلك - إلا وقال نفس الكلام. لكن ما أريد تأكيده هو هذا. الزحف المخيف ذهاباً وإياباً الذي هو بالنسبة إلى أي شخص عادي عمل يومي مجهد بحد ذاته، وهو ليس جزءاً من عمل العامل إطلاقاً، بل هو عمل إضافي مثل رحلة رجل المدينة في قطار الأنفاق. يقوم العامل بتلك الرحلة ذهاباً وإياباً وتعصره سبع ساعات ونصف من العمل الوحشي. لم أقطع أبداً أكثر من ميل واحد للوصول إلى وجه الفحم؛ لكنها ثلاثة أميال في العادة، وفي تلك الحالة أنا وأغلب

الناس من غير العمال لا يصلون إلى هناك أبداً. هذه هي النقطة التي ينساها الناس دائماً. عندما تفكر بالمنجم، يخطر لك العمق والحرارة والظلام والأشكال المسودة التي تعزق جدران الفحم؛ ولا تفكر بالضرورة بتلك الأميال من الزحف ذهاباً وإياباً. وهناك قضية الوقت أيضاً؛ إذ تبدو نوبة العمل المؤلفة من سبع ساعات ونصف غير طويلة، لكن يجب أن نضيف إليها ساعة من التنقل والأغلب ساعتين وأحياناً ثلاث ساعات. فنياً التنقل ليس عملاً ولا يتقاضى العامل أجراً عليه لكنه عمل لا يختلف عن عمله الآخر. من السهل القول بأن العمال لا يكترثون بذلك، لكن بالتأكيد ليس بالنسبة إلي وإليك. فهم متعودون على ذلك منذ الطفولة، ويملكون العضلات المتحجرة المناسبة ويستطيعون التنقل تحت الأرض برشاقة فظيعة. يضع العامل رأسه إلى الأسفل ويركض بخطوات طويلة متمايلة عبر أماكن أمشي فيها مترنحاً. تراهم يثبون في أماكن العمل على أطرافهم الأربعة حول دعامات الحفرة كالكلاب. لكن الاعتقاد بأنهم يستمتعون بذلك خطأ فادح. تحدثت في هذا الموضوع مع عشرات العمال، واعترفوا كلهم بأن التنقل عمل شاق؛ على أي حال عندما تسمعهم يتحدثون عن حفرة فيما بينهم، يكون التنقل أحد عناصر النقاش، ويقولون دائماً بأن النوبة تكون أسرع في الذهاب منها في الإياب، ويقولون أيضاً بأن الانتقال من المكان بعد يوم شاق، مزعج بشكل خاص. إنه جزء من عملهم وهم مهيئون له، لكنه بالتأكيد مجهود وربما يقارن بتسلق جبل صغير قبل وبعد يوم عمل.

بعد أن تنزل في حفرتين أو ثلاثة، تبدأ بإدراك العملية التي تجري تحت الأرض. (بالمناسبة يجب أن أقول بأنني لا أعرف أي شيء عن الجانب التقني للتعدين: أنا وصفتُ ما رأيته فقط). يتوضع الفحم في درز رقيقة بين طبقات ضخمة من الصخر، لذلك فإن استخراجه أساساً يكون مثل جرف الطبقة المركزية للجليد النابولي. في السابق كان العمال يحفرون بشكل مستقيم في الفحم بمخل وعتلة - وهي مهنة بطيئة جداً لأن الفحم عندما يكون متوضعاً في حالته العذرية، يكون قاسياً كالصخر. في الوقت الحاضر تقوم بذلك العمل أدوات قطع كهربائية، التي هي من حيث المبدأ عبارة عن منشار دوار قاس وقوي بشكل هائل، يدور أفقياً بدلاً من عمودياً، وله أسنان بطول بوصتين ونصف وسماكة بوصة، يمكنه التحرك إلى الأمام وإلى الخلف بنفسه، ويستطيع الرجال الذين يشغلونه تدويره بهذا الاتجاه أو ذاك. وقبل أن أنسى، يصدر هذا المنشار ضوضاء من أبغض الأصوات التي سمعتها في حياتي، ويبعث غيوماً

من غبار الفحم، تجعل من المستحيل أن ترى على بعد أكثر من قدمين أو ثلاثة، ومن المستحيل التنفس أيضاً. تنتقل الآلة على وجه الفحم وهي تقطع بقاعدته وتحفره بعمق خمسة أقدام أو خمسة أقدام ونصف؛ بعد هذا يصبح من السهل نسبياً استخراج الفحم حتى عمق الحفرة التي أحدثها المنشار. في الأماكن الصعبة يجب أن تحرر بالمتفجرات. يحفر رجل بمثقب كهربائي يشبه المثقب الذي يستخدم في إصلاح الطرق، لكنه أصغر حفراً على فواصل في الفحم ويدخل فيها المسحوق المتفجر ويسدها بالوحل ويلتجئ خلف زاوية قريبة في حال توفرها (المفروض أن يتراجع إلى مسافة خمس وعشرين ياردة) ويفجر الحشوة بالتيار الكهربائي. ليس الغرض من هذا إخراج الفحم بل تحريره. أحياناً تكون الحشوة قوية جداً فلا تسبب تحرر الفحم فقط، بل تهاوي السقف وسقوطه أيضاً. بعد القيام بالتفجير، يقلب المعبئون الفحم ويفتتونه ويجرفونه لوضعه على الحزام الناقل. يخرج أولاً على شكل جلاميد هائلة الحجم قد يزن أحدها عشرين طناً، ويقذفها الحزام الناقل إلى الأحواض التي ترحلها إلى الطريق الرئيسي، وتعلق بسلك فولاذي يدور دائماً ويسحبها إلى القفص. وهناك يتم رفعها. وعلى السطح يفرز الفحم بتمريره فوق مناخل ويغسل في حال الضرورة أيضاً. وبقدر الإمكان تستخدم القذارة - الصلصال لتعبيد الطرق السفلية. وكل ما يزيد يرسل إلى السطح ويفرغ هناك، ويشكل أكواماً ضخمة من القذارة مثل الجبال الرمادية البشعة وهي مشهد يميز مناطق الفحم. بعد أن يستخرج الفحم إلى العمق الذي أحدثته الآلة يكون وجه الفحم قد تقدم حوالي خمسة أقدام. توضع دعامات جديدة لتسند السقف المكشوف الجديد، وخلال النوبة التالية يفكك حزام النقل إلى قطع وينقل خمسة أقدام إلى الأمام ويعاد تجميعه. وبقدر ما تسمح به الظروف تتم العمليات الثلاث من الحفر والتفجير والاستخراج في ثلاث نوبات منفصلة، الحفر بعد الظهر والتفجير في الليل (يوجد قانون، لا يلتزم به دوماً، يحرم التفجير أثناء عمل العمال في الجوار) والتعبئة في النوبة الصباحية التي تستمر منذ السادسة صباحاً حتى الواحدة والنصف بعد الظهر.

حتى عندما تراقب عملية استخراج الفحم، فإنك تراقبه لفترة قصيرة، ولا تدرك ضخامة العمل الذي ينجزه المعبئون حتى تقوم ببعض الحسابات. في العادة كل رجل عليه أن يزيل حيزاً بسعة أربع أو خمس ياردات. تحفر الحفارة الفحم إلى عمق خمسة أقدام، لهذا إن كانت

درزة الفحم بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام، كل رجل عليه تقطيع وتفتيت وتعبئة كمية بين سبع ياردات مكعبة أو اثنتي عشرة من الفحم. هذا يعني بها أن الياردة المكعبة تزن ألفين وسبعمائة حجر أي أن كل رجل ينقل فحماً بمعدل طنين في الساعة تقريباً. ولقد جربت عمل المخل والمجرفة مسبقاً وأفهم ما يعني هذا. عندما أحفر خندقاً في حديقتي، لو نقلت طنين من التراب خلال فترة ما بعد الظهر، أشعر بأنني أستحق شايي. لكن التراب مادة قابلة للطرق مقارنة بالفحم ولست مجبراً على العمل وأنا جاثٍ وعلى عمق ألف قدم تحت الأرض في حرارة خانقة، وأبلع غبار الفحم في كل شهقة، ولست مجبراً على قطع ميل وظهري محني جداً قبل أن أبدأ. إن مهنة عامل المنجم تفوق قدراتي مثل العمل على أرجوحة طائرة للفوز بجائزة المواطن الكبير. أنا لست عاملاً عضلياً وأشكر الرب لأنني لن أكون كذلك أبداً، لكن هناك بعض أنواع العمل اليدوي التي أستطيع القيام بها إن اضطررت. بدرجة ما يمكن أن أكون كناس طرق أو بستانياً عاجزاً أو حتى عامل مزرعة من الدرجة العاشرة، لكن لم أتخيل أنني قد أصبح عامل منجم لا بالجهد ولا بالتمرين، وسيقتلني ذلك بعد بضعة أسابيع.

بمراقبة عمال المناجم وهم يعملون، تدرك مؤقتاً مدى اختلاف العالم الذي يعيشون فيه. في الأسفل حيث يحفر الفحم، عالم معزول قد تمضي حياتك كلها دون أن تسمع به. وربما أغلب الناس لا يفضلون السماع به. لكنه يظل بالتأكيد مكملاً ضرورياً لعالمنا العلوي.عملياً كل ما نفعله من الآيس كريم (البوظة) إلى عبور الأطلسي ومن خبز رغيف الخبز إلى كتابة الرواية يتضمن استخدام الفحم بشكل مباشر أو غير مباشر. كل فنون السلام تحتاج إلى الفحم، وإن اندلعت الحروب تصبح ضرورته أشد. في زمن الثورة يجب على عامل المنجم العمل باستمرار وألا يتوقف، لأن الثورة تحتاج للفحم بقدر ما تحتاجه الرجعية. مهما يحدث على السطح يجب أن يستمر الحفر والغرف دون توقف أو بأي ظرف دون توقف لأكثر من أسابيع قليلة في أفضل الأحوال. لكي يمشي هتلر بخطوة الوزة، ولكي يشجب البابا البلشفية، ويجتمع جمهور الكريكت في اللوردز، ويحك الشعراء ظهور بعضهم البعض، يجب أن يكون الفحم في متناول اليد. لكن بالإجمال نحن غير منتبهين إلى ذلك، وكلنا نعرف بأنه يجب أن يكون لدينا فحم، لكن نادراً أو مطلقاً ما نتذكر ماذا يتضمن الحصول على الفحم. أنا الآن أكتب مرتاحاً أمام نار فحم موقدي. إنه شهر نيسان، لكنني لازلت بحاجة إلى النار. مرة كل نصف شهر تأتي عربة الفحم

إلى الباب ويحمل رجال بسترات جلدية الفحم إلى داخل بيتي في أكياس مملوءة تفوح منها رائحة القطران، ويرمونها وهي تقعقع في قبو الفحم تحت الدرج. ومرات نادرة قليلة بذلت فيها مجهوداً عقلياً واضحاً ربطت به هذا الفحم بالجهد البعيد في المناجم؟ إنه مجرد فحم - شيء يجب أن أحصل عليه؛ مادة سوداء تصل بشكل غامض من اللامكان على وجه الخصوص مثل المنّ، باستثناء أنك تدفع ثمنه. ويمكنك بسهولة قيادة سيارتك في شمال إنكلترا ولا تتذكر أبداً أنه على عمق مئات الأقدام تحت الطريق الذي أنت عليه هناك عمال مناجم يغرفون الفحم. ومع ذلك وبمعنى آخر إنهم عمال المناجم الذين يدفعون سيارتك للمضي قدماً. عالمهم المضاء بالمصابيح هناك في الأسفل ضروري لعالم النهار العلوي كضرورة الجذر للزهرة.

كانت ظروف المناجم منذ زمن غير بعيد أسوأ مما هي عليه الآن. لا تزال هناك نساء عجائز عملن في شبابهن في المناجم والنير حول خصورهن والسلسلة المارة من بين أرجلهن، يزحفن على أطرافهن الأربعة ويسحبن أحواض الفحم. كن يواصلن العمل حتى وهن حوامل. وحتى في وقتنا الحالي لو لم ينتج الفحم دون نساء حوامل تجره إلى الأمام والخلف، لتركناهن يقمن بذلك بدلاً من حرمان أنفسنا منه كما أتصور. لكن طبعاً منن الأفضل أن ننسى في أغلب الأوقات أنهن كن يعملن ذلك. إنه ككل العمل اليدوي يحافظ على بقائنا أحياء ونحن غافلون عن وجوده. أكثر من أي شيء آخر، ربما يقف عامل المنجم كنموذج للعمال اليدويين، ليس لأن عمله كريه بشكل ضخم فقط، بل لأنه ضروري بشكل حيوي أيضاً وبعيد جداً عن خبرتنا، مخفي جداً لدرجة أننا قادرون على نسيانه كما ننسى الدم الذي في عروقنا. إن مراقبة عمال المناجم وهم يعملون طريقة مهينة وتثير الشك في نفسك مؤقتاً بمنزلتك كمفكر وكشخص أرفع منزلة عموماً. إنه يحمل إليك إلى باب بيتك على الأقل بينما أنت تراقب، ذلك لأن عمال المناجم يلفظون أحشائهم ليظل الأشخاص الأعلى مقاماً أعلى. أنا وأنت ومحرر *تايمز ليتريتشر* والشعراء ورئيس أساقفة كانتربيري والرفيق سين مؤلف كتاب *الماركسية للقصر* - كلنا ندين حقيقة بمدنية وحشمة حياتنا النسبية للكادحين المساكين تحت الأرض، الذين يغطيهم السواد حتى عيونهم وحلوقهم مترعة بغبار الفحم يشقون مجاريفهم إلى الأمام بأذرع وبطون فولاذية.

قتل فيل

في مولمين في بورما السفلى، كنت مكروهاً من قبل عدد كبير من الناس - المرة الوحيدة في حياتي التي كنت فيها مهماً كفاية ليحدث هذا لي. كنت ضابط شرطة في فرقة عسكرية فرعية في البلدة، وكان الشعور المعادي للأوروبيين فيها قاسياً ومريراً بطريقة غير هادفة وحقيرة. لا أحد لديه الشجاعة ليثير شغباً، لكن إذا مرت امرأة أوروبية في الأسواق لوحدها ربما يصب أحدهم على ثوبها عصير البيتل. كضابط شرطة كنت هدفاً واضحاً وكنت مغرياً كلما بدا فعل ذلك آمناً. عندما يعثرني ويوقعني بورمي فطن في ملعب كرة القدم ويكون الحكم (بورمي آخر) ينظر إلى الجهة الأخرى، كان الحشد يهتف بضحك شائن. حدث لي هذا أكثر من مرة. في النهاية كان للوجوه الصفراء الساخرة للشبان الذين أقابلهم في كل مكانٍ والإهانات التي يطلقونها خلفي حين أكون على مسافة آمنة، وقع سيء على أعصابي، وكان رجال الدين البوذيون الصغار أسوأ من الجميع، وهناك الآلاف الكثيرة منهم في البلدة، ولايبدو لأحدهم أي عمل سوى الوقوف في زوايا الشوارع والسخرية من الأوروبيين.

كل هذا كان مربكاً ومقلقاً، لأنني في ذلك الوقت عزمت وقررت أن الإمبريالية كانت شيئاً شريراً، وكلما أسرعت في استقالتي من وظيفتي كان أفضل. نظرياً - وبصورة سرية، طبعاً - كنت أؤيد البورميين وكنت ضد مضطهديهم تماماً، أي البريطانيين. بالنسبة إلى الوظيفة التي كنت أعمل بها، كرهتها بشكل أكبر مما أستطيع التعبير عنه بشكل واضح، ففي وظيفة مثل تلك ترى عمل الإمبراطورية القذر عن قرب: السجناء البائسون الرابضون في الأقفاص النتنة للسجون والوجوه الرمادية المروعة للمحكومين بمدد طويلة وأرداف الرجال المندبة الذين علقوا بالخيزران - كل هذا أحزنني بإحساس لا يطاق من الذنب، لكن لم أستطع أن أكوّن منه رأياً ووجهة نظر. كنت صغيراً وتعليمي رديء، وكنت مجبراً على أن أفكر بحل لمشاكلي في صمت مطبق فُرض على كل إنكليزي في الشرق، حتى إنني لم أكن أعرف أن الإمبراطورية البريطانية كانت تحتضر، ولم أعرف أيضاً أنها كانت

أفضل بكثير من الإمبراطوريات الأصغر عمراً التي ستحل محلها. كل ما عرفته أنني كنت عالقاً بين كره الإمبراطورية التي أخدمها وغضبي الشديد من الوحوش الصغيرة الشريرة التي حاولت أن تجعل من وظيفتي شيئاً مستحيلاً. بجزء من ذهني اعتبرت الحكم البريطاني طغياناً واستبداداً قوياً مثل شيء ثُبت بإحكام ضد إرادة الشعوب الخاضعة المغلوبة، وفي الجزء الآخر من ذهني ظننت أن أعظم فرح في العالم يكون في غرز حربة في أحشاء رجل دين بوذي. مشاعر كهذه نتاج جانبي للإمبريالية: اسأل أي موظف أنكلوهندي إن استطعت الإمساك به خارج واجبه.

في أحد الأيام حدث شيء كان منوراً بطريقة ملتوية. كان حدثاً صغيراً جداً بحد ذاته، لكنه أعطاني لمحة أفضل من التي كانت لدي من قبل عن الطبيعة الحقيقية للإمبريالية والدوافع الحقيقة التي تعمل من أجلها الحكومات الاستبدادية. في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، حدثني عبر الهاتف ضابط الشرطة المساعد في مخفر الشرطة في الطرف الآخر من البلدة، وقال إن فيلاً كان يتلف السوق، ورجاني أن أذهب وأفعل شيئاً ما. لم أعرف ما الذي يمكنني عمله، لكنني أردت أن أرى ما كان يحدث، فامتطيت حصاناً وانطلقت. أخذت بندقية من نوع وينشستر ٤٤ وهي أصغر بكثير من أن تقتل فيلاً، لكن ظننت أن الضجيج قد يفيد في تخويفه. أوقفني بورميون مختلفون على الطريق وأخبروني عن أعمال الفيل. لم يكن فيلاً برياً طبعاً وإنما كان فيلاً مروضاً أصابته لوثة جنون. كان مقيداً لكنه في الليلة السابقة نزع سلسلته وفرّ. إن الفيلة المروضة تكون على هذه الحالة دائماً حين تحين هجمة "المسك" (مادة تفرزها الفيلة حين يكون مستوى التستسترون فيها عالياً وتكون عدوانية جداً - المترجم) وكان سائقه وهو الشخص الوحيد الذي يستطيع تدبر أمره حين يكون في تلك الحالة، قد انطلق في مطاردته، لكنه أخذ الوجهة الخاطئة، وهو الآن على مسافة سير مدتها اثنتي عشرة ساعة، وفي الصباح عاد الفيل إلى الظهور في البلدة ثانية. السكان البورميون ليس لديهم أسلحة، وكانوا عاجزين تماماً على مواجهته. لقد دمر كوخ خيزران لأحدهم وقتل بقرة وغار على أكشاك فاكهة والتهم المخزون، كما قابل عربة القمامة التابعة للبلدية وقلب العربة رأساً على عقب، وأنزل عنفه بها بعد أن قفز منها سائقها وفر هارباً.

كان ضابط الشرطة المساعد وبعض الشرطة الهنود ينتظرونني في الحي الذي شوهد الفيل فيه. كان حياً فقيراً جداً وعبارة عن متاهة من أكواخ الخيزران الحقيرة المسقوفة بورق النخيل، تلتف من كل جهة من التل المنحدر. أتذكر أن الصباح كان غائماً ومتجهماً وفي بداية موسم الأمطار. بدأنا نستجوب الناس عن المكان الذي ذهب إليه الفيل، وكالعادة فشلنا في الحصول على أية معلومة محددة. تلك هي الحالة التي لا تتغير في الشرق، قصة تبدو واضحة دائماً بما يكفي من بعيد، لكن كلما اقتربت من مسرح الأحداث أكثر تصبح أكثر غموضاً. بعض الناس قالوا إن الفيل ذهب في اتجاه ما، وبعضهم الآخر قال إنه ذهب في اتجاه آخر، والبعض تظاهروا بعدم سماعهم بأي فيل حتى. حسمت أمري بأن القصة كلها كانت عبارة عن حزمة من الأكاذيب حين سمعنا صيحات على مسافة قريبة. كانت هناك صيحة مروعة عالية "ابتعد أيها الطفل! ابتعد هذه اللحظة!" وامرأة عجوز مع سوط في يدها استدارت حول كوخ لتطرد حشداً من الأطفال العراة بعيداً. تبعتها نسوة أكثر يتمطقن ويهتفن: من الواضح وجود شيء يجب ألا يراه الأطفال؟ استدرت حول الكوخ، ورأيت جسد رجل ميت منبطحاً في الوحل. كان هندياً، حمال دراڤي أسود، شبه عارٍ مات قبل دقائق قليلة كما أعتقد. قال الناس إن الفيل داهمه عند زاوية الكوخ فأمسكه بخرطومه ووضع قدمه على ظهره وطحنه على الأرض؟ كان هذا فصلاً ماطراً، وكان التراب طرياً، فحفر وجهه خندقاً بعمق قدم وبطول ياردتين. كان مستلقياً على بطنه وتصالبت ذراعاه والتوى رأسه بشدة على أحد أطرافه. كان وجهه مغطى وعيناه مفتوحتين وأسنانه مكشوفة تكشر بتعبير عن ألم مبرح لا يحتمل. (بالمناسبة لا تقولوا لي أبداً إن الميت يبدو مسالماً وهادئاً. أغلب الجثث التي رأيتها بدت شيطانية). احتكاك قدم الحيوان الضخم سلخ الجلد عن ظهره بدقة كما يسلخ الشخص جلد أرنب. حالما رأيت الرجل الميت، أرسلت حاجبي إلى بيت صديق في الجوار لاستعارة بندقية خاصة بالفيلة. أعدت الحصان قبل ذلك، لأني لم أرده أن يصاب بالجنون ويطيح بي على الأرض إن شم رائحة الفيل.

عاد الحاجب بعد بضع دقائق مع بندقية وخمسة خرطوشات، وفي غضون ذلك وصل بعض البورميين وأخبروني أن الفيل كان في حقول الأرز على بعد بضع مئات الياردات. حين

انطلقت إلى الأمام عملياً خرج سكان الحي كلهم من بيوتهم ولحقوا بي. لقد شاهدوا البندقية وكانوا يصيحون بهياج أنني سوف أردي الفيل. لم يبدوا اهتماماً كبيراً بالفيل حين كان يخرب بيوتهم، لكن الأمر اختلف حين عرفوا أنه سوف يُردى قتيلاً. كان شيئاً ممتعاً لهم كما كان بالنسبة إلى جمهرة من الإنكليز؛ بالإضافة إلى أنهم أرادوا اللحم. هذا أربكني بشكل غامض. لم تكن لدي نية في قتل الفيل - أرسلت بطلب البندقية لأدافع عن نفسي إن تطلب الأمر - والأمر يكون مقلقاً ومثيراً للأعصاب دائماً حين يتبعك جمع غفير من الناس. سرت وهبطت من التلة وأنا أبدو وأحس بأنني أحمق مع بندقية فوق كتفي وجيش متزايد من الناس دائماً يتدافع في أعقابي. في الأسفل حين تكون بعيداً عن الأكواخ تجد هناك طريقاً مرصوفاً بالحجارة، وبعده مستنقع بور من حقول الأرز بطول ألف ياردة لم يحرث بعد، لكنه مشبع بالماء من الهطولات المطرية الأولى ومنقط بأعشاب خشنة. كان الفيل واقفاً على بعد ثمان ياردات من الطريق وجانبه الأيسر نحونا. لم يكترث أبداً بالحشد الذي اقترب منه. كان يقلع حزماً من العشب ويضربها بركبتيه لينظفها ثم يحشوها في فمه.

توقفت على الطريق. حالما رأيت الفيل، عرفت بيقين تام أنني يجب ألا أطلق النار عليه. إطلاق النار على فيل عامل وقتله مسألة خطيرة - وتقارن بتدمير آلة ضخمة ونفيسة - ومن الواضح أن الأمر يجب ألا يتم إن كان تجنبه ممكناً. من تلك المسافة بدا الفيل الذي كان يأكل بهدوء أقل خطورة من بقرة. فكرت آنذاك وأفكر الآن إن هجمة - المسك - التي تعرض لها مرت مسبقاً؛ في تلك الحالة سوف يتجول في المكان دون أن يؤذي أحداً حتى يعود سائقه ويمسك به. بالإضافة إلى أني لم أرد بأي شكل أن أطلق النار عليه. قررت أن أراقبه لبرهة قصيرة لكي أتأكد أنه لن ينقلب إلى وحش ثانية، ثم أعود إلى البيت.

لكن في تلك اللحظة نظرت حولي إلى الحشد الذي لحق بي. كان حشداً ضخماً من ألفي شخص على الأقل وكانوا يتزايدون في كل دقيقة. لقد سد الطريق لمسافة طويلة من كلا الجانبين. نظرت إلى بحر من الوجوه الصفراء فوق الثياب الصارخة الألوان - وجوه كلها سعيدة وهائجة بهذا المتعة، كلهم متأكدون بأن الفيل سيردى قتيلاً بالرصاص. كانوا يراقبونني كما يراقبون مشعوذاً على وشك القيام بخدعة. لم يحبوني، لكن مع البندقية السحرية في يدي كنت

جديراً بالمشاهدة مؤقتا. وفجأة أدركت أنني يجب أن أردي الفيل أخيراً. توقع الناس مني ذلك وعلي أن أقوم به؛ شعرت برغبات الألفي شخص وهي تدفعني قدماً بشكل لا يقاوم. في تلك اللحظة، حين وقفت هناك مع البندقية بيدي، أدركت عقم وعبث سيادة الرجل الأبيض على الشرق. ها أنا رجل أبيض ببندقية أقف أمام حشد أعزل من السكان المحليين - ظاهرياً أنا الفاعل القيادي في هذا المكان؛ لكنني في الواقع لم أكن سوى دمية مضحكة تُدفع إلى الأمام والخلف بإرادة تلك الوجوه الصفراء التي في الخلف. لاحظت في هذه اللحظة أن الرجل الأبيض حين يتحول إلى طاغية، فإنه يدمر حريته الخاصة به. يصبح نوعاً من دمية مجوفة متكلفة، الشكل التقليدي للصاحب. لأن شرط حكمه أن يمضي حياته في محاولة صعق "السكان المحليين"، وهكذا في كل أزمة عليه أن يفعل ما يتوقعه "السكان المحليون" منه. إنه يرتدي قناعاً ووجهه ينمو ليلائمه. كان علي أن أردي الفيل. لقد ألزمت نفسي بفعل ذلك حين أرسلت بطلب البندقية. الصاحب يجب أن يتصرف كصاحب؛ عليه أن يُظهر التصميم ويعرف نيته ويفعل أشياء محددة. أن يأتي ويمشي الطريق كله وبيده بندقية مع ألفي شخص يمشون في أعقابه ثم يبتعد بوهن وبطء دون أن يفعل شيئاً - لا، هذا مستحيل. سيسخر مني الحشد. إن حياتي وحياة كل رجل أبيض في الشرق كانت صراعاً طويلاً بألا يكون أضحوكة.

لكنني لم أرد قتل الفيل. راقبته يضرب حزمة عشب بركبتيه بالطريقة الحنونة القلقة التي تملكها الفيلة. بدا لي أن قتله بإطلاق الرصاص عليه سيكون جريمة. في ذلك العمر لم أكن مفرط الحساسية فيما يخص قتل الحيوانات، لكنني لم أطلق النار على فيل أبداً، ولم أرد فعل ذلك أبداً. (بشكل أو آخر يبدو قتل حيوان ضخم شيء سيء) بالإضافة إلى ذلك كان يجب آخذ مالك الحيوان في الاعتبار. حياً، كان الفيل بقيمة مائة جنيه، وميتاً لن يساوي سوى قيمة نابيه، خمس جنيهات ربما. لكن علي التصرف بسرعة. التفت إلى بعض البورميين الخبراء الذين كانوا هناك حين وصلنا وسألتهم كيف تصرف الفيل. قالوا كلهم الشيء عينه: إنه لن يكترث بك لو تركته وشأنه، لكنه قد يهجم عليك إن اقتربت منه كثيراً جداً.

وضح تماماً لي ما ينبغي فعله. ينبغي علي أن اقترب منه لنقل على بعد خمس وعشرين ياردة وأختبر سلوكه. إن هجم أستطيع إطلاق النار عليه، وإن لم يكترث بي فمن الأسلم

أن أتركه حتى يعود سائقه، ولكن عرفت أيضاً أنني لن أفعل شيئاً كهذا. كنت رامياً سيئاً على البندقية وكانت الأرض موحلة وطرية يغوص فيها المرء في كل خطوة. إذا هجم الفيل وأخطأت في إصابته، ستكون فرصتي بقدر فرصة ضفدع تحت مدحلة بخارية. لكن حتى في ذلك الوقت لم أكن أفكر بنجاتي بشكل خاص، وإنما بالوجوه الصفراء المراقبة خلفي، فقط لأنني في تلك اللحظة والحشد يراقبني، لم أكن خائفاً في المعنى العادي مثلما لو أنني كنت لوحدي. يجب على الرجل الأبيض ألا يبدو خائفاً مرعوباً أمام "السكان المحليين"، وهكذا وعموماً هو لا يخاف. كانت الفكرة الوحيدة في ذهني لو فشل أي شيء في العملية سوف يراني الألف بورمي والفيل يطاردني ويمسك بي ويدوسني ويحولني إلى جثة مكشرة مثل الهندي الذي في أعلى التلة. وإذا حدث وذلك محتمل جداً سيضحك بعضهم. ذلك لن يحدث أبداً.

لم يكن هناك سوى خيار وحيد فقط. دفعت الخرطوش في داخل المخزن واستلقيت على الطريق لأسدد بشكل أفضل. هدأ الحشد أكثر، وصعدت تنهيدة منخفضة سعيدة عميقة من حلوق لا تحصى مثل أناس يرون ستارة المسرح ترتفع أخيرا. سينالون متعتهم الرخيصة أخيراً. كانت البندقية شيء ألماني جميل مع شعيرة تسديد. لم أكن أعرف آنذاك أنه عند إطلاق الرصاص على فيل يجب أن يطلق المرء الرصاص ليقطع قضيباً وهمياً يمتد من فتحة الأذن الأولى إلى الفتحة الأخرى. لهذا ينبغي علي بما أن الفيل كان واقفاً بشكل جانبي بالنسبة إلي، أن أسدد عليه بشكل مباشر ومستقيم إلى حفرة أذنه، لكني في الواقع سددت على بضع بوصات قبل هذا المكان معتقداً أن الدماغ سيكون أبعد باتجاه الأمام.

حين شددت على الزناد لم أسمع الدوي، ولم أشعر بالارتداد - المرء لا يشعر بذلك حين تذهب الطلقة إلى هدفها - لكني سمعت الزئير الشيطاني للمرح الذي تصاعد من الحشد. في الحال وفي وقت قصير جداً، كان على المرء أن يفكر حتى بالطلقة أن تصل إلى هناك، في التبدل الغريب والرهيب الذي طغى على الفيل. لم يتحرك ولم يسقط وإنما تبدل كل خط في جسده. بدا مصعوقاً ومنكمشاً وعجوزاً بشكل هائل، كما لو أن التأثير المرعب للطلقة قد شله دون أن يسقطه أرضاً. وأخيراً وبعد ما بدا وقتا طويلاً - ربما كان خمس

ثوان كما أظن - ارتخى وخر على ركبتيه بشكل ضعيف. سال اللعاب من فمه. شيخوخة شنيعة رسخت فوقه كما بدا. يمكن للمرء أن يتخيله بعمر ألف سنة. أطلقت النار مرة أخرى في نفس البقعة. في الطلقة الثانية لم يسقط، لكنه تسلق ببطء مفرط على قدميه ووقف منتصباً بوهن مع ساقين رخوتين ورأس متدلٍ. أطلقت للمرة الثالثة. وكانت تلك الطلقة التي قضت عليه. يمكنك أن ترى الألم وهو ينخع كل جسده ويضرب آخر بقية من القوة في ساقيه. لكن في سقوطه بدا ينهض للحظة لأن ساقيه الخلفيتين انهارتا تحته، فبدا يرتفع إلى الأعلى مثل صخرة ضخمة تسقط، وامتد خرطومه نحو السماء مثل شجرة. صرخ صرخة مدوية لأول وآخر مرة. ثم خر إلى الأسفل، بطنه نحوي مع ارتطام هز الأرض حتى في المكان الذي تمددت فيه.

نهضتُ. كان البورميون يتسابقون في الوحل وقد تجاوزوني. كان واضحاً أن الفيل لن ينهض ثانية أبداً لكنه لم يمت. كان يتنفس بشكل موزون مع لهاث متحشرج طويل، وكان ركامه الكبير جداً يرتفع ويسقط بشكل مؤلم. كان فمه مفتوحاً - استطعت أن أرى عميقاً جداً في كهوف رقبة قرنفلية باهتة. انتظرت وقتاً طويلاً لكي يموت، لكن تنفسه لم يضعف. أخيراً أطلقت عليه الطلقتين المتبقيتين في نفس البقعة التي اعتقدت أن قلبه يجب أن يكون فيها. تفجر الدم السميك خارجاً منه مثل مخمل أحمر لكنه لم يمت. لم يهتز جسده حين أصابته الطلقات، واستمر التنفس المشوه دون توقف. كان يحتضر ببطء شديد وبألم عظيم، لكن في عالم ما ناءٍ عني حيث لا يمكن أن تؤذيه حتى الطلقة أيضاً. شعرت أنني يجب أن أضع نهاية لذلك الضجيج البغيض. شيء مخيف أن ترى دابة كبيرة جداً مستلقية هناك عاجزة عن الحركة وعاجزة عن الموت ولا تستطيع القضاء عليها حتى. أرسلت بطلب بندقيتي الصغيرة وصببت طلقات واحدة وراء أخرى في داخل قلبه وبأسفل عنقه. بدت الطلقات بلا أي أثر. استمرت اللهثات المشوهة بثبات مثل دقات الساعة.

في النهاية لم أستطع تحمل ذلك فترة أطول فابتعدت. سمعت لاحقاً أنه لم يمت إلا بعد نصف ساعة. كان البورميون يجلبون السكاكين الطويلة وسلالاً قبل أن أغادر، وقيل لي إنهم جردوا الجسد تماماً تقريباً حتى العظام قبل العصر.

فيما بعد، طبعاً، كانت هناك نقاشات لانهاية لها حول إطلاق النار على الفيل وقتله. كان المالك مهتاجاً، لكنه كان مجرد هندي وليس بوسعه فعل أي شيء. بالإضافة إلى ذلك، قانونياً، أنا قمت بالفعل الصحيح، لأن الفيل المجنون يُقتل مثل الكلب المجنون إن فشل مالكه في السيطرة عليه. بين الأوربيين انقسم الرأي. قال الرجال المسنون إن ذلك كان عملاً صحيحاً، أما الصغار فقالوا إنه من الخزي اللعين إطلاق النار على فيل لأنه قتل حمالاً. وبعد ذلك كنت مسروراً لأن الحمال قد قُتل ووضعني ذلك في الجانب الصحيح قانونياً وأعطاني عذراً وافياً لإطلاق النار على الفيل وقتله. تساءلت كثيراً إن كان الآخرون قد فهموا أنني فعلت ذلك كي أتجنب الظهور بمظهر الأحمق.

المسمار

[ملاحظة: المسمار مكان يُحتجز فيه المتشردون مؤقتاً ويقدم لهم فيه الطعام]

كان ذلك في وقت متأخر من بعد الظهر وكنا تسعة وأربعين، ثمانية وأربعون رجلاً وامرأة واحدة، استلقينا على العشب الأخضر بانتظار فتح المسمار. لم نتحدث كثيراً لأننا كنا متعبين جداً، لقد انبطحنا منهكين فقط، مع سجائر محلية ناتئة من وجوهنا الحقيرة. فوق رؤوسنا أغصان شجرة كستناء غطتها براعم الزهور، وخلف ذلك غيوم كبيرة صوفية تطفو ساكنة تقريباً في سماء صافية. برمي فضلاتنا على العشب، ظهرنا رعاعاً قذرين. لقد دنسنا المنظر، بعلب السردين وأكياس الورق على الشاطئ.

كل حديث هناك دار حول الرائد الصعلوك لهذا المسمار. كان شيطاناً واتفق الجميع أنه نتري وطاغية وكلب مجعجع بذيء اللسان وغير متسامح، وحين يكون قريباً منك لا تستطيع القول إن روحك لك، فقد طرد الكثير من المسافرين مشياً في منتصف الليل لأنهم ردوا عليه. حين تأتي لكي تفتش، يُمسكك من الأعلى والأسفل ويهزك، وإن وجد معك بعض التبغ فالجحيم مصيرك، وإن دخلت بمال (وهذا مخالف للقانون) فليكن الرب في عونك.

كان معي ثمانية بنسات فنصحني القدماء "حباً بالمسيح أيها الرفيق، لا تأخذها معك. ستعاقب بسبعة أيام في المسمار بسببها!".

لهذا طمرت نقودي في حفرة تحت السياج وعلمت البقعة بكتلة من الصوان، ثم شرعنا في تهريب أعواد الثقاب والتبغ الخاص بنا، بسبب الحظر الذي فُرض على إدخال هذه الأشياء إلى كل المسامير تقريباً، والتي يفترض من المرء أن يسلمها عند البوابة. خبأناها في جواربنا، ما عدا الخمسة والعشرين بالمائة منا الذين ليس لديهم جوارب، فقد اضطروا إلى حملها في جزمهم أو تحت أصابع أقدامهم. حشونا كواحلنا بالمهربات، ولو رآنا أي أحد لتخيل تفشي إصابتنا بتضخم الأعضاء. لا يقوم بالتفتيش تحت الركبة أقسى الرواد المسؤولين عن دور المشردين، لكنه لم يكن قانوناً مدوناً، وفي النهاية لم يتم الإمساك إلا برجل واحد. إنه سكوتي، متشرد

ضئيل الحجم يكسوه الشعر، مع لهجة هجينة من لهجة كوكني بلندن وغلاسكو، فقد سقطت علبة أعقاب سجائره من جرابه في اللحظة الخطأ وصُودرت.

في السادسة، فتحت البوابة فدلفنا إلى الداخل. أدخل موظف عند البوابة أسماءنا وخصوصيات أخرى في السجل وأخذ منا صررنا وأبعدها. أرسلت المرأة إلى الإصلاحية، أما نحن وآخرون فأرسلنا إلى داخل المسار. كان مكاناً كئيباً وبارداً مبيضاً بالكلس، يتألف من حمام وغرفة معيشة وحوالي مائة زنزانة حجرية ضيقة. قابلنا رائد المسار البغيض عند الباب، وقادنا كالقطيع إلى الحمام لنُعرى ونُفتش. كان رجلاً عسكرياً فظاً في الأربعين من عمره، لم يمنح المتشردين تشريفات أكثر مما يمنح لخروف في بركة الغطس، دفعهم وأقحمهم بهذه الطريقة وتلك، وهو يصرخ بالشتائم والسباب في وجوههم. لكنه حين وصل إلي نظر إلي وقال:

"أنت سيد، أليس كذلك؟".

"أفترض هذا" قلت.

رماني بنظرة أخرى. "حسناً، ذلك الحظ السيئ اللعين أيها المدير" قال "ذلك الحظ السيئ اللعين، نعم". وبعد ذلك فكر بأن يعاملني بحنو وبنوع من الاحترام حتى.

كان ذلك الحمام منظراً مقرزاً. لقد كُشفت كل الأسرار غير اللائقة لثيابنا الداخلية، والسخام والشقوق والرقع وقطع الخيط التي قامت بدور الأزرار، والطبقات المتراكمة من الثياب الممزقة التي كان بعضها مجرد مجموعة من الثقوب تماسكت معاً بواسطة القذارة. أصبحت الغرفة مطبعة من التعري المتبخر، وكانت روائح تعرق المتشردين تتنافس مع رائحة الغائط النتنة المتأصلة في المسار. رفض بعض الرجال الاستحمام، وغسلوا خرق أصابعهم فقط، الخرق الملوثة الصغيرة التي يربطها المتشردون حول أقدامهم. لكل واحد منا ثلاث دقائق ليستحم. ست مناشف قذرة ملوثة للتنشيف فقط لنا كلنا.

بعد أن غسلنا ثيابنا، أخذت منا بعيداً، وألبسونا قمصان الأحداثية، أشياء قطنية رمادية اللون تشبه قمصان النوم تصل إلى وسط الفخذ. ثم أرسلنا إلى غرفة الطعام، حيث وضع العشاء على الطاولات. كانت وجبة المسار الثابتة التي لا تتغير، نفس الوجبة دائماً، إن كانت إفطاراً أو غداء أو عشاء – نصف رطل من الخبز، قطعة صغيرة من السمنة النباتية وباينت من المسمى شاياً. أمضينا خمس دقائق لبلع الطعام الرخيص الضار بالصحة. ثم أعطى رئيس

المسار ثلاث بطانيات قطنية لكل منا، وساقونا إلى زنزاناتنا للمبيت. أقفلت الأبواب من الخارج قبل الساعة السابعة مساء، لنظل محبوسين خلال الاثنتي عشرة ساعة القادمة.

طول كل زنزانة ثمانية أقدام وعرضها خمسة، وليس فيها أداة إضاءة ما عدا نافذة مسدودة عالية في الجدار وعين التجسس في الباب. ليس هناك بق الفراش، وكان لدينا هيكل سرير وفرشات من القش، وكلاهما رفاهية نادرة. في كثير من المسامير ينام المرء على رف خشبي، وفي البعض على الأرض الجرداء ومعطف ملفوف كمخدة. مع زنزانة لي وسرير كنت أطمع بليلة مريحة جداً. لكنني لم أنل ذلك، لأن هناك شيئاً خطأ دائماً في كل مسمار، إنه البرد. لقد بدأ شهر مايو أيار، وعلى شرف هذا الموسم - أضحية صغيرة لآلهة الربيع، ربما - قطعت السلطات البخار من الأنابيب الحارة. كانت البطانيات القطنية بلا فائدة تقريباً. يمضي المرء ليلته في التقلب من جانب إلى آخر ثم يغفو لمدة عشر دقائق، ويستيقظ وهو شبه متجمد في انتظار بزوغ الفجر.

كما يحدث في المسمار دائماً، أخيراً نجحت في النوم بشكل مريح حين حان موعد الاستيقاظ. جاء رئيس المسمار يتبختر بخطواته الثقيلة، فتح الأبواب وصرخ بنا أن ننهض. على الفور امتلأ الممر بأشكال مكسوة بقمصان رمادية قذرة تندفع إلى الحمام، إذ لم يكن سوى حوض غسيل واحد مملوء بالماء لنا في كل فترة الصباح، ومن يأتي أولاً ينال الخدمة. حين وصلت كان هناك عشرون متشرداً غسلوا وجوههم قبلي. ألقيت نظرة على الزبد الأسود الطافي فوق الماء، فقررت أن أظل متسخاً في اليوم كله.

هرعنا لارتداء ثيابنا، ثم ذهبنا إلى غرفة الطعام لنتناول إفطارنا. كان الخبز أسوأ من المعتاد، لأن المعتوه ذو العقل العسكري رئيس المسمار، قطعه إلى شرائح في الليلة السابقة، لهذا كان صلباً مثل البسكويت، لكننا سعدنا بالشاي بعد ليلة باردة قلقة. لا أعرف ما الذي يفعله المتشردون بدون الشاي، أو بالأحرى المادة التي يطلق عليها خطأً اسم الشاي. إنه غذاؤهم ودواؤهم وعلاجهم الشافي لكل الأضرار. بدون نصف الغلون الذي يشربونه منه في اليوم، أعتقد صادقاً أنهم لن يستطيعوا مواجهة بقائهم.

بعد الإفطار، كان علينا أن نتجرد من ثيابنا ثانية من أجل الفحص الطبي، وهو تدبير احترازي ضد الجدري قبل ثلاثة أرباع الساعة من وصول الطبيب. وكان لدى المرء متسع من الوقت للنظر حوله، ويرى أي نمط من الرجال كنا. كان منظراً تعليمياً. وقفنا نرتجف، عراة

حتى الخصر في صفين طويلين في الممر. الضوء الراشح، البارد المائل للزرقة أنارنا بوضوح لا يرحم. لا أحد يستطيع التخيل حتى يرى مثل هذا الشيء، فقد ظهرنا مثل كلاب هجينة منحطة مكرشة. رؤوس مكومة ووجوه مشعرة متغضنة وصدور غائرة وأقدام مسطحة وعضلات مرتخية متدلية - كل أنواع التشوه الخلقي والفساد البدني كانت هناك. كل شيء كان مترهلاً وباهت اللون، بما أن كل المتشردين كانوا تحت ضربة شمس مضللة. شكلان أو ثلاثة هناك في الذهن ويتعذر استئصالها. أولد دادي البالغ من العمر الرابعة والسبعين مع حزام فتقه وعينيه المحمرتين الدامعتين وأحشاء سمكة ميتة من الجوع مع لحية وخدين غائرين، وكان يبدو مثل جثة لازاروس في بعض الصور البدائية: أبله يتجول هنا وهناك يطلق قهقهات مبهمة وكان مسروراً باستحياء لأن سرواله كان ينزلق إلى الأسفل دائماً فيظل عارياً. لكن القليل منا أفضل من هؤلاء، إذ لم يكن هناك سوى عشرة رجال من ذوي البنية السليمة بيننا، وأعتقد أن نصفنا كان يجب أن يكونوا في المستشفى للعلاج.

كان هذا يوم أحد، ويجب أن نبقى في المسار حتى نهاية عطلة الأسبوع. حالما انتهى الطبيب من فحصنا، جمعونا كالقطيع وأعادونا إلى غرفة الطعام، وأغلق بابها علينا. كانت غرفة مبيضة بالكلس وأرضيتها حجرية، موحشة بشكل لا يوصف بأثاثها من موائد التوزيع والمقاعد الطويلة وبرائحتها كسجن. كانت النوافذ عالية جداً، لذلك لا يستطيع المرء النظر إلى الخارج، والزينة الوحيدة كانت مجموعة من القواعد المهددة بعقوبات رهيبة لأي لامبالٍ يسيء التصرف والسلوك. ازدحمت الغرفة بنا وتراصفنا فيها بشكل شديد، لذلك لا يستطيع المرء تحريك مرفقه بدون الاصطدام بأحد ودفعه. وفي الساعة الثامنة صباحاً ضجرنا من أسرنا مسبقاً. لم يكن هناك للحديث سوى إشاعات الطريق الصغيرة والمسامير الجيدة والرديئة والأقاليم المتصدقة وغير المتصدقة ومظالم رجال الشرطة وجيش الخلاص، ولا يستطيع المتشردون الفرار من هذه المواضيع إلا قليلاً، ولا يوجد لديهم شيء جدير يمكن تسميته بمحادثة، إذ لم يترك لهم التشوش الناتج عن جوع بطونهم أي تفكير في أرواحهم، وبات العالم كثيراً جداً بهم، فالوجبة التالية ليست مضمونة تماماً أبداً، ولهذا لا يستطيعون التفكير بأي شيء سوى الوجبة التالية.

مرت ساعتان ببطء شديد. جلس أولد دادي الذي خبله العمر ساكتاً، وظهره محني مثل قوس، وعيناه الملتهبتان تقطران الدموع ببطء، على أرض الغرفة. وكان جورج ذلك المتشرد العجوز القذر المشهور في عادته الغريبة بالنوم في قبعته، يتذمر حول مخزن رشاش فقده على

الطين. أما بيل المستجدي، الرجل ذو الجسم الأفضل بيننا كلنا، المختلس الهرقلي القوي الذي تفوح منه رائحة البيرة حتى بعد اثنتي عشرة ساعة في المسهار، فقد كان يحكي لنا حكايات عن الاختلاسات وبايتنات قدمت له في محلات الشرب، وعن كاهن بلغ عنه الشرطة فسجنته سبعة أيام. وغنى كل من ويليام وفريد، وهما صيادا سمك شابان من نورفوك، أغنية حزينة عن بيلا الحزينة التي خُدعت وماتت في الثلج. وتكلم الأبله بحماقة عن شخص متأنق وهمي، أعطاه مرة مائتين وسبعة وخمسين ليرة ذهبية. لهذا مر الوقت بحديث مزعج وفحش بليد. كان الجميع يدخنون ماعدا سكوتي الذي صودر تبغه، وكان بائسا في حالته بدون دخان، لذلك أعطيته واحدة من سجائري. دخنا بشكل مختلس وحذر وخبأنا سجائرنا مثل تلاميذ المدارس، حين سمعنا خطوات رائد ملجأ المتشردين، لأن التدخين الذي يتم التغاضي عنه كان محظوراً رسمياً.

قضى أغلب المتشردين عشر ساعات متوالية في هذه الغرفة الكئيبة، وبات من الصعب تخيل تحمل الساعة الحادية عشرة. وصلت إلى الاعتقاد أن الضجر أسوأ شرور المسهار على الإطلاق، وهو أسوأ من الجوع والمشقة، وأسوأ من الشعور الدائم بالخزي الاجتماعي حتى. جزء سخيف من الوحشية أن تحتجز إنساناً جاهلاً كل اليوم من دون أن يفعل شيئاً، فذلك مثل تكبيل كلب في برميل، فالحجز لا يتحمله الرجل المثقف الذي لديه سلوان داخل نفسه. إن المتشردين الذين كلهم من الأميين تقريباً يواجهون فقرهم بعقول عاجزة جوفاء. يثبتونهم على منصة غير مريحة لمدة عشر ساعات، ولا يعرفون أية وسيلة لإشغال أنفسهم، وإن حدث وفكروا، فانهم يتذمرون فقط من حظهم البائس وعن توقهم إلى العمل وهم لا يمتلكون القوة في أنفسهم كي يتحملوا رعب الكسل والتبطل، ولهذا بما أن الكثير جداً من حياتهم ينقضي من دون أن يفعلوا شيئاً، فإنهم يعانون من كروب السأم والضجر.

كنت محظوظا أكثر من الآخرين، لأن رائد مأوى المتشردين اختارني لأشهى مهمة في المسهار، مهمة المساعدة في مطبخ الإصلاحية. لم يكن هناك أي عمل يستلزم القيام به هناك في الحقيقة، واستطعت أن أهرب وأختبئ في كوخ يستخدم لتخزين البطاطا مع بعض فقراء الإصلاحية المعدمين الذين تواروا ليتفادوا صلاة خدمة الأحد الصباحية. كان هناك موقد مشتعل وصناديق تعليب مريحة للجلوس وأعداد سابقة من فاميلي هيرالد، وحتى نسخة من رافلز من مكتبة الإصلاحية. كانت فردوساً بعد المسهار.

أيضا، أخذت غدائي من مائدة الإصلاحية، وكانت واحدة من أكبر الوجبات التي تناولتها في حياتي كلها. المتشرد لا يرى مثل هذه الوجبة مرتين في السنة في المسهار أو خارجه. أخبرني الفقراء المدمنون أنهم دائماً يأكلون بنهم حتى نقطة الانفجار في أيام الآحاد ويظلون جياعاً في أيام الأسبوع الستة الأخرى. حين انتهت وجبة الطعام، جعلني الطباخ أغسل الطبق، وأخبرني أن أرمي الطعام المتبقي. كان الهدر مذهلاً صحون كبيرة جداً من لحم البقر وقدور كبيرة مملوءة بالفول والخضار أبعدت جانباً مثل النفاية، ثم لوثت بأوراق الشاي. ملأت خمسة صناديق زبالة طفحت بالطعام الجيد. وبينما كنت أفعل هذا، كان المشردون رفاقي يجلسون على بعد مائتي ياردة في المسهار ببطون نصف مملوءة بغداء المسهار المكون من الخبز والشاي الدائمين، وربما من حبتين باردتين من البطاطا لكل واحد على شرف يوم الأحد. تكشف أن الطعام كان يرمى بعيداً بسياسة متعمدة بدلاً من أن يُعطى للمتشردين.

غادرت مطبخ الإصلاحية في الساعة الثالثة، وعدت إلى المسهار. الضجر في تلك الغرفة المكتظة وغير المريحة أصبح لا يطاق الآن. حتى التدخين توقف، لأن دخان المتشرد ليس سوى أعقاب سجائر تُلتقط من الأرض، ومثل بهيمة ترعى يجوع إن كان بعيداً عن الرصيف - المرعى. لكي أملأ الوقت، تحدثت مع متشرد أرفع مقاماً، وهو نجار شاب ارتدى ياقة وربطة عنق، وكان على الطريق لافتقاره لعدة الأدوات كما قال. عزل نفسه قليلاً عن المتشردين الآخرين، واعتبر نفسه رجلاً متحرراً وغير رسمي ولديه ميول أدبية أيضاً، فكان يحمل رواية لسكوت في كل ترحاله. أخبرني أنه لم يدخل مسهاراً أبداً، إلى أن دفعه الجوع إلى هناك، وأن النوم تحت الحواجز وخلف الأكداس أفضل. كان يتسول على طول الشاطئ الجنوبي في النهار وينام في آلات الغسيل لمدة أسابيع في المرة الواحدة.

تحدثنا عن حياة التجوال. انتقد النظام الذي يجعل المتشرد يمضي أربع عشرة ساعة في اليوم في المسهار والساعات العشر الأخرى في المشي وتفادي رجال الأمن. تكلم عن حالته الخاصة - ستة أشهر على المساعدة الحكومية بسبب احتياجه لأدوات قيمتها ثلاثة باوندات. كان ذلك عتهاً كما قال.

ثم أخبرته بعد ذلك عن هدر الطعام في الإصلاحية، وعن رأيي في ذلك، فغير موقفه عندئذ على الفور. أدركت أنني أيقظت مستأجر منضدة الكنيسة النائم في كل حرفيّ إنكليزي،

ورأى في الحال مبررات لرمي الطعام وإتلافه بدلاً من إعطائه للمشردين، رغم أنه تم تجويعه مع البقية ولامني بقسوة وقال:

"يجب عليهم أن يفعلوها. إن جعلوا هذه الأماكن لطيفة جداً فستجد كل غثاء البلاد يندفعون أفواجاً إليها. لا يعد هؤلاء الغثاء سوى الطعام الرديء. هؤلاء المتشردون كسالى جداً ولا يريدون أن يعملوا. هذا هو الخطأ فيهم. أنت لا تريد تشجيع ذلك فيهم. إنهم غثاء".

قدمت حججاً لأثبت خطأه، لكنه لم ينصت إلي، وظل يكرر:

"أنت لا تريد أن تشفق على هؤلاء المتشردين - الغثاء، إنهم كذلك. لا تريد أن تحاكمهم بنفس المعايير التي تطبق على رجال مثلك ومثلي. إنهم غثاء مجرد غثاء".

من الممتع رؤية كيف عزل نفسه عن رفاقه المتشردين بمكر. أصبح متشرداً منذ ستة أشهر، لكنه في نظر الرب، بدأ يفترض ضمناً أنه ليس متشرداً. ربما كان جسده في المسمار، لكن روحه حلقت عالياً في أثير الطبقة الوسطى النقي.

كانت عقارب الساعة تدب ببطء موجع. مللنا حتى من الكلام، وكان الصوت الوحيد للتجديف والتثاؤب المرتد. يجبر المرء نفسه أن يشيح بصره عن ساعة الجدار لمدة بدت له دهراً، ويعود لينظر مرة أخرى ليرى أن العقارب لم تتقدم إلا ثلاث دقائق فقط. خثر الملل أرواحنا مثل شحم لحم ضأن بارد وأوجع عظامنا. وقفت العقارب على الرابعة، والعشاء لن يقدم قبل السادسة، ولم يعد هناك شيء لافت غير القمر الزائر.

وأخيراً دقت الساعة السادسة، ووصل رائد المتشردين ومساعده مع العشاء. تنشط المتشردون المتثائبون كالليوث في وقت الإطعام، لكن الوجبة كانت خيبة كئيبة، فالخبز الذي كان رديئاً جداً الصباح، بات الآن غير صالح للأكل حقيقة؛ كان قاسياً جداً، حتى أن أقوى فكين لا يتركان سوى أثر بسيط عليه، فظل الرجال الكبار في السن بدون عشاء تقريباً، ولم يستطع أي رجل إكمال حصته رغم جوعنا الشديد. حين انتهينا من العشاء، قُدمت لنا البطانيات على الفور، ودُفعنا بقوة للخروج والذهاب إلى الزنازين الجرداء الباردة على الفور.

ثلاث عشرة ساعة مرت. عند السابعة تم إيقاظنا وهرعنا مسرعين لنتنازع حول ماء الحمام ونلتهم حصتنا من الخبز والشاي. انتهى وقتنا في المسمار، لكننا لم ننجح في المغادرة حتى فحصنا الطبيب مرة أخرى، لأن السلطات كانت مرعوبة من الجدري وانتشاره وسط

المتشردين. لقد حجزنا الطبيب لمدة ساعتين في الانتظار، وكانت الساعة العاشرة تماماً حين نجونا من المسهار أخيراً وبتنا خارجه.

أخيراً حان وقت الذهاب، فأطلقونا في الباحة. يا للإشراق الذي بدت به الأشياء كلها! ويا للحلاوة التي هبت بها الريح بعد المسهار الكئيب ذو الرائحة الكريهة! سلم رائد الملجأ كل رجل حزمة من ممتلكاته المصادرة وكتلة ضخمة من الخبز والجبن من أجل وجبة الظهيرة، ثم انطلقنا في الطريق بعد ذلك مستعجلين للخروج من منظر المسهار وقواعده الصارمة. كان هذا الفاصل فترتنا في الحرية. بعد نهار وليلتين من الوقت الضائع، صار لدينا ثهان ساعات تقريباً لنباشر هواياتنا ونطوف الطرقات ذهاباً وإياباً بحثاً عن أعقاب السجائر ونتسول ونبحث عن عمل، وأيضاً لنقطع الأميال العشرة أو العشرين ربما إلى المسهار التالي، حيث تبدأ اللعبة مرة أخرى من جديد.

أخرجت بنساتي الثهانية من مخبئها، وأخذت الطريق مع نوبي وهو متشرد محترم حزين، حمل حذاء احتياطياً وزار كل مكاتب العمل. كان رفاقنا السابقون يتبعثرون شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً مثل البق في داخل فرشة. لم يظل سوى البلهاء فقط يتسكعون عند بوابات المسهار، حتى اضطر رئيس الملجأ إلى طردهم بعيداً.

انطلقنا أنا ونوبي إلى كرويدون. كان طريقاً هادئاً لم تمر به سيارات، وغطت الأزهار المتفتحة أشجار الكستناء مثل شموع عظيمة. كل شيء كان هادئاً جداً ويفوح برائحة نظيفة جداً. وكان من الصعب أن ندرك أننا قبل دقائق قليلة، كنا محشورين مع تلك العصبة من السجناء في رائحة مصرف مياه وصابون رائق. اختفى الآخرون كلهم؛ وبقينا الاثنان المتشردان الوحيدان على الطريق فقط.

ثم سمعت خطوة مستعجلة خلفي، وشعرت بنقرة خفيفة على ذراعي. إنه سكوتي الصغير الذي كان يركض لاهثاً خلفنا. سحب صندوقاً معدنياً صدئاً من جيبه. كست وجهه ابتسامة ودية مثل رجل يفي ويرد تعهداً.

"تفضلوا يا زملاء" قال بحرارة. "أنا مدين لكم ببعض أعقاب السجائر. أنتم أعطيتموني دخاناً في الأمس. أعطاني رئيس الملجأ المتشرد صندوق أعقاب سجائري حين خرجت هذا الصباح. دور طيب يستحق دوراً آخر - تفضلا".

ووضع أربعة أعقاب سجائر مبللة فاسدة وكريهة في يدي.

مقدمة للطبعة الأوكرانية
لرواية مزرعة الحيوان

يتوقع القراء مني أن أقول شيئاً عن نشوء مزرعة الحيوان، لكنني أود أن أقول شيئاً عن نفسي وتجاربي التي وصلت من خلالها إلى موقفي السياسي. لقد ولدت في الهند عام ١٩٠٣ لوالد كان موظفاً رسمياً في الإدارة الإنكليزية هناك، ولعائلة من عائلات الطبقة الوسطى التي تضم الجنود ورجال الدين والموظفين الحكوميين والمعلمين والمحامين والأطباء..إلخ. تعلمت في أيتون، أكثر المدارس الإنكليزية الخاصة تكلفة وتكبراً، والتي لم أصل إليها إلا من خلال منحة دراسية، فوالدي لم يكن يتحمل أقساط مدرسة من هذا النمط.

بعد أن أنهيت دراستي في أيتون بوقت قصير (لم أكمل العشرين من عمري) ذهبت إلى بورما، وانضممت إلى الشرطة الإمبراطورية الهندية، التي كانت شرطة مسلحة ونوعاً من الدرك شبيهة جداً بالحرس المدني الإسباني أو الحرس المتنقل في فرنسا. أمضيت في الخدمة خمس سنوات، لكنها لم تناسبني، وجعلتني اكره الإمبريالية، ولم تكن العلاقة بين الإنكليز والبورميين ودية رغم عدم وضوح المشاعر الوطنية في بورما آنذاك. استقلت من الخدمة عام ١٩٢٧ حين كنت في إجازة في إنكلترا، وقررت أن أصبح كاتباً. بين عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩ عشت في باريس، وكتبت قصصاً قصيرة وروايات لم ينشرها لي أحد (وأتلفتها كلها). في السنوات التي تلت ذلك، عشت على الكفاف، وعانيت من الجوع في مناسبات كثيرة، ولم أعش مما كسبته من كتابتي حتى عام ١٩٣٤ وبعد. في غضون ذلك، عشت شهوراً وسط الفقراء وأشباه المجرمين الذين كانوا يقطنون أسوأ وأفقر الأحياء، وتشردت في الشوارع كمتسول أو لص. في ذلك الوقت عاشرتهم بسبب عوزي للمال، لكني تأثرت كثيراً بطريقة عيشهم نفسها فيما بعد، كما أمضيت شهوراً كثيرة (بطريقة أكثر منهجية هذه المرة) أدرس ظروف عمال المناجم في شمال إنكلترا. لم أنظر إلى نفسي كاشتراكي إلى عام ١٩٣١. وفي الحقيقة، لم تكن لي آراء سياسية محددة بوضوح آنذاك. أصبحت من مناصري الاشتراكية، بسبب الاشمئزاز من الطريقة التي اضطهد وأهمل فيها الفقراء والعمال الصناعيين، أكثر من إعجابي النظري بالمجتمع المخطط.

في عام ١٩٣٦ تزوجت، وفي نفس الأسبوع اندلعت الحرب الأهلية في إسبانيا، فرغبنا أنا وزوجتي في الذهاب إلى إسبانيا والقتال دفاعاً عن الحكومة الإسبانية، وكنا جاهزين في غضون ستة أشهر حالما أنهيت الكتاب الذي كنت أكتبه. أمضيت في إسبانيا ستة أشهر على جبهة أراغون، إلى أن أصابني قناص فاشي بطلقة اخترقت عنقي في هويسكا. في المراحل الأولى من الحرب، لم يدرك الأجانب إجمالاً الصراعات الداخلية بين الأحزاب السياسية المختلفة المؤيدة للحكومة. بعد سلسلة من الحوادث، لم أنضم إلى الكتيبة الأممية كغيري من غالبية الأجانب، وإنما إلى ميليشيا البيوم - التروتسكيين الإسبان، لذلك في منتصف عام ١٩٣٧ حين فاز الشيوعيون بالسيطرة (أو السيطرة الجزئية) على الحكومة، وبدأوا بحبس التروتسكيين، وجدنا أنفسنا أنا وزوجتي بين الضحايا، وكنا محظوظين لخروجنا أحياء من إسبانيا، ولم يلق القبض علينا ولا مرة، لكن أعدم الكثير من أصدقائي، وسجن آخرون وقتاً طويلاً أو اختفوا ببساطة.

استمرت مطاردة الرجال في إسبانيا، وتزامنت مع حملات التطهير الكبرى في الاتحاد السوفييتي، وكانت مكملاً لها في إسبانيا، وكانت طبيعة الاتهامات واحدة كما في روسيا (التآمر مع الفاشيين). وفيما يتعلق بإسبانيا، فلدي كل الأسباب للقول إن الاتهامات كانت مزيفة. كانت تلك التجربة درساً موضوعياً قيماً: علمني كيف تستطيع دعاية النظام الشمولي السيطرة بسهولة على رأي الناس المتنورين في البلدان الديمقراطية. لقد رأينا أنا وزوجتي أشخاصاً أبرياء يرمون في السجون لمجرد الاشتباه باللاعقائدية. الأدهى عند عودتنا إلى إنكلترا، وجدنا عدداً هائلاً من المراقبين المطلعين جيداً والمدركين الذين كانوا يصدقون أكثر الروايات حماقة عن المؤامرة والخيانة والتخريب التي كانت تنقلها الصحافة من محاكمات موسكو، وأدركت أنا أيضاً أكثر من قبل التأثير السلبي للأسطورة السوفييتية على الحركة الاشتراكية الغربية. وهنا يجب علي أن أصف موقفي من النظام السوفييتي.

لم أزر روسيا قط، ومعرفتي بها مما تعلمته من قراءة الكتب والجرائد، وليس لدي رغبة التدخل في الشؤون الداخلية السوفييتية. ولو كان لي نفوذ، فلن أشجب ستالين ورفاقه بسبب أساليبهم الهمجية وغير الديمقراطية، فربما لم يكن بإمكانهم التصرف بطريقة أخرى تحت الظروف السائدة هناك، حتى لو توفرت أفضل النوايا. لكن، في المقابل، من المهم جداً لي ضرورة أن يرى الناس في أوروبا الغربية النظام السوفييتي على حقيقته. منذ ١٩٣٠ لم أر دليلاً واحداً ولو

كان صغيراً بأن الاتحاد السوفيتي كان يتقدم نحو شيء يمكن تسميته بشكل حقيقي بالاشتراكية، بل على العكس صعقتني علامات تحوله إلى مجتمع تراتبي، ليس للحكام فيه أي سبب في التخلي عن السلطة كغيرهم من الطبقات الحاكمة. إضافة إلى أن العمال والمثقفين في بلاد كإنكلترا، لم يدركوا أن الاتحاد السوفيتي اليوم يختلف تماماً عما كان عام ١٩١٧ وذلك جزئياً لأنهم لم يريدوا ذلك (فقد أرادوا أن يؤمنوا بوجود اشتراكية في مكان ما فعلياً) وجزئياً لأنهم لم يفهموا الشمولية إطلاقاً، بسبب اعتيادهم على حرية نسبية واعتدال في الحياة العامة.

لكن يجب أن يتذكر المرء أن إنكلترا ليست ديمقراطية تماماً، فهي بلاد رأسمالية أيضاً مع امتيازات طبقية عظيمة وفروق عظيمة في الثروة حتى الآن، رغم أن الحرب نزعت إلى المساواة بين الناس، لكنها مع ذلك، بلاد عاش الناس فيها معاً مئات السنين دون صراع أساسي، والقوانين فيها عادلة نسبياً، ويمكن تصديق الأخبار الرسمية والإحصائيات فيها، وأخيراً وليس أخراً هي بلاد تتبنى آراء الأقلية، ولا يشمل التعبير عنها أي خطر مميت. في جو كهذا، ليس لدى رجل الشارع أي فهم حقيقي لأشياء مثل معسكرات الاعتقال والترحيل الجماعي والاعتقال دون محاكمات والرقابة على الصحافة..إلخ. كل شيء يقرأه عن الاتحاد السوفيتي يترجم فوراً إلى المصطلحات الإنكليزية، ويقبل ببراءة بأكاذيب الدعاية الشمولية. حتى عام ١٩٣٩ وبعده أيضا، كانت غالبية الشعب الإنكليزي عاجزة عن تقييم الطبيعة الحقيقة للنظام النازي في ألمانيا، والآن مع النظام السوفيتي لا تزال إلى حد كبير تحت تأثير نفس الوهم، ما سبب ضرراً عظيماً للحركة الاشتراكية في إنكلترا، وكان له عقابيل خطيرة على السياسة الخارجية الإنكليزية. في الواقع، برأيي، لم يساهم شيء في إفساد الفكرة الأصيلة للاشتراكية بهذا القدر الكبير، كما فعل الاعتقاد بأن روسيا بلاد اشتراكية، وأن كل فعل لحكامها يجب أن يبرر إن لم يقلد. ولذلك اقتنعت في السنوات العشر الماضية بأن تدمير الأسطورة السوفييتية كان ضرورياً وجوهرياً، إن أردنا بعث الحركة الاشتراكية وإحياءها.

عند عودتي من إسبانيا، فكرت في كشف الأسطورة السوفييتية في قصة يمكن أن تكون مفهومة بسهولة من قبل أي واحد، وتترجم بسهولة إلى اللغات الأخرى، لكن التفاصيل الفعلية للقصة لم تخطر لي إلا في يوم (كنت أعيش آنذاك في قرية صغيرة) رأيت فيه صبياً صغيراً يقود عربة ضخمة يجرها حصان في ممر ضيق، وكان يجلده بالسوط، كلما حاول التراجع

والدوران، فخطر لي لو أن هذا الحيوان أصبح مدركاً لقوته، فلن تظل لنا عليه أي سلطة، وأن البشر يستغلون الحيوانات بنفس الطريقة التي يستغل فيها الأغنياء البروليتاريا.

لقد شرعت في تحليل نظرية ماركس من وجهة نظر الحيوانات. بالنسبة إليها (الحيوانات) من الواضح أن فكرة الصراع الطبقي بين البشر كانت محض وهم، فكلما كان استغلال الحيوانات ضرورياً، يتحد البشر كلهم ضدها: الصراع الحقيقي بين الحيوانات وبين البشر. من هذا المنطلق أصبح التوسع في القصة صعباً. لم أكتبها حتى عام ١٩٤٣ لأنني كنت منشغلاً دائماً بعمل آخر لم يترك لي الوقت لذلك. وفي النهاية ضمنتها بعض الأحداث مثل مؤتمر طهران الذي انعقد وأنا اكتب الرواية، لهذا ظلت الخطوط الرئيسية للقصة في ذهني لمدة ست سنوات قبل أن أكتبها فعلياً. لا أرغب في الحديث عن العمل، فإذا لم يتكلم هو عن نفسه، فهو فاشل؛ لكنني أود التأكيد على نقطتين: الأولى، أنه وبرغم المشاهد الكثيرة المأخوذة من التاريخ الفعلي للثورة الروسية، إلا أنها عولجت وعوملت بطريقة منهجية، وتم تغيير ترتيبها الزمني، وكان هذا ضرورياً لتناسق القصة. النقطة الثانية التي أغفلها أغلب النقاد، ربما لأنني لم أشدد عليها بالشكل الوافي. ربما هناك عدد كبير من قراء الكتاب ينهونه بالانطباع بوجود تسوية كاملة بين الخنازير والحيوانات، لكن قصدي لم يكن ذلك، على العكس فقد قصدت أن أنهيها بملاحظة مدوية من الخلاف، لأنني كتبتها بعد مؤتمر طهران الذي أعتقد الجميع أنه وطد أفضل العلاقات الممكنة بين الاتحاد السوفيتي والغرب، وأنا شخصياً لا أعتقد أن هذه العلاقات الطيبة ستدوم طويلاً، وقد بينت الأحداث أنني لم أذهب بعيداً في خطئي.

لا أعرف ماذا يجب أن أضيف أيضاً. إن اهتم أي واحد بالتفاصيل الشخصية، فسوف أضيف أنني أرمل ولي ابن عمره ثلاث سنوات، وأنني كاتب بالمهنة، ومنذ بداية الحرب أعمل كصحفي على الأغلب. أكثر الدوريات التي أساهم في الكتابة لها هي التريبيون الأسبوعية الاجتماعية السياسية التي تمثل الجناح اليساري من حزب العمل. ربما تنال كتبي التالية اهتمام القارئ العادي: أيام بورما (قصة عن بورما) وتحية إجلال إلى كاتالونيا (انبثقت من تجاربي في الحرب الأهلية الإسبانية) والمقالات النقدية (مقالات عن الأدب الإنكليزي الشعبي المعاصر التي هي من وجهة النظر الاجتماعية أكثر تثقيفية من وجهة النظر الأدبية.

السياسة في مواجهة الأدب:
دراسة لرحلات غاليفار

تتعرض الإنسانية إلى هجوم في رحلات غاليفار، وتُنتقد من ثلاث زوايا مختلفة، وتتبدل بشكل ما الشخصية الضمنية لغاليفار نفسه بالضرورة في صيرورة العمل. في القسم الأول هو رحالة أنموذجي من القرن الثامن عشر، جريء وعملي وغير رومانسي، يؤثر منظره البسيط ببراعة على القارئ بواسطة التفاصيل المتعلقة بالسيرة الذاتية في البداية وبعمره (فهو رجل في الأربعين من العمر ولديه طفلان حين يبدأ في مغامراته) وبقائمة الأشياء التي في جيوبه خصوصاً نظارته التي تبرز في مظاهر كثيرة. في القسم الثاني لديه نفس الشخصية بشكل عام، لكن في لحظات تتطلبها القصة أحياناً، لديه ميل إلى التطور إلى معتوه قادر على التباهي بـ"بلادنا النبيلة وخليلة الفنون والأسلحة ومهلكة فرنسا" إلخ إلخ، وفي الوقت نفسه إلى البوح بكل واقعة مخزية متاحة عن البلاد التي اعترف بحبها. في القسم الثالث: هو أشبه كثيراً لما كان عليه في القسم الأول رغم انطباع المرء بأنه ارتفع في السلم الاجتماعي؛ حيث كان يعاشر بشكل أساسي رجال الحاشية الملكية ورجال المعرفة. في القسم الرابع يتصور رعب السلالة البشرية غير الظاهر أو الذي لا يظهر إلا متقطعاً في الكتب السابقة، ويتحول إلى نوع من ناسك غير ديني، رغبته الوحيدة أن يعيش في بقعة مهجورة، يستطيع فيها تكريس نفسه للتأمل في طيبة الهوينيم. لقد فُرضت هذه التضاربات على سويفت بحقيقة أن غاليفار هناك ليوفر التباين بشكل أساسي، فمن الضروري عليه مثلاً أن يظهر عاقلاً ومنطقياً في القسم الأول وساذجاً بشكل متقطع على الأقل في القسم الثاني، لأن المناورة الجوهرية هي نفسها في كلا الكتابين، أي جعل الكائن البشري يبدو مضحكاً بتصويره كمخلوق يبلغ طوله ست بوصات. وحين لا يقوم غاليفار بدور الأضحوكة، يظل هناك نوع من الاستمرارية في شخصيته التي تظهر في دهائه خصوصاً ومراقبته للتفاصيل البدنية. هو إلى حد كبير نفس النوع من الشخص مع نفس الأسلوب النثري حين يقلب سفن بيلفوسكو، وحين يشق بطن الجرذ الهائل، وحين يبحر بعيداً على المحيط في زورقه الهش المصنوع من جلود بهائم الالياء أو

الياهو (جنس من البهائم). فضلاً على ذلك، من الصعب ألا تشعر أن غاليفار في لحظاته الأدهى هو سويفت. وهناك حدث واحد على الأقل يبدو فيه سويفت بنفس عن شكواه الخاصة ضد المجتمع المعاصر. سنظل نتذكر أنه حين احترق قصر الإمبراطور ليلبوت أطفأه غاليفار بالتبول عليه، وبدلاً من يُهنأ على حضور بداهته العقلية يجد أنه ارتكب جريمة كبرى في التبول في أفنية القصر. وقد أكد لي سراً أن الإمبراطورة تكن أشد المقت لما فعلته، وانتقلت إلى الجانب البعيد من البلاط، وقررت بشكل قطعي ألا تجري عملية إصلاح تلك الأبنية، لكي تستعملها، ولم تستطع الامتناع عن القسم بالثأر بحضور رئيس أصدقائها المؤتمنين.

يرى البروفيسور جي أم تريفيليان في كتابه (**إنكلترا في عهد الملكة آن**) أن من أسباب فشل سويفت في الحصول على مكانة رفيعة، يكمن في أن الملكة صُدمت أخلاقياً بـ **حكاية حوض استحمام** - الكراسة التي كتبها سويفت، وشعر أنه قدم خدمة عظيمة للتاج البريطاني، لأنه انتقد فيها المنشقين عن الكنيسة الأنجليكانية بقسوة، وانتقد الكاثوليكيين بشكل أقسى، بينما ترك الكنيسة الموطدة الرسمية دون مساس. في كافة الأحوال لا يمكن لأحد أن ينكر بأن رحلات غاليفار كتاب حقود وتشاؤمي أيضاً، وأنه في القسمين الأول والثالث خصوصاً انحدر إلى مشايعة سياسية من النوع الضيق، في أحوال كثيرة، امتزجت فيها الحقارة والشهامة والجمهورية والفاشية وحب العقل وفقدان حب الفضول. أما كره الجسم البشري الذي ترافق مع سويفت بشكل خاص، فهو لا يهيمن إلا في القسم الرابع. لكن هذا الهاجس الجديد، لم يحدث بشكل مفاجئ. يشعر المرء أن كل هذه المغامرات وهذه التبدلات في المزاج، يمكن أن تحدث للشخص نفسه، وأن العلاقة المتداخلة بين ولاءات سويفت السياسية ويأسه المطلق، واحدة من أكثر المزايا البارزة في الكتاب تشويقاً.

سياسياً، كان سويفت واحداً من هؤلاء الأشخاص الذين دفعوا إلى نوع من التورية (المحافظية) المشوهة بسبب حماقات الحزب التقدمي آنذاك. ظاهرياً إن القسم الأول من رحلات غاليفار عبارة عن هجاء للعظمة الإنسانية. ولو نظر المرء بتعمق أكبر لرأى أنه هجوم صريح على إنكلترا، على حزب الهويغ المسيطر وعلى الحرب مع فرنسا التي - أياً كانت دوافع الحلفاء الخبيثة فيها - فقد أنقذت أوروبا من أن تستبد بها سلطة رجعية واحدة. لم يكن سويفت ستيوارتياً ولا تورياً بتعبير أدق، وكان هدفه المعلن في الحرب معاهدة سلام عادلة،

وليس الهزيمة التامة لإنكلترا. لكن هناك أثراً من الكويسلينغية (الخيانة الوطنية) في موقفه الذي يبرز في نهاية القسم الأول ويتضارب قليلاً مع القصة المجازية الرمزية. إن فرار غاليفار من ليليبوت (إنكلترا) إلى بيلفوسكو (فرنسا) يُسقط الافتراض الخسيس والمتأصل الذي يرى أن طول الكائن البشري ست بوصات. ففي الوقت الذي تصرف أهل ليليبوت تجاه غاليفار بأقصى درجة من الغدر والخسة، تصرف معه أهل بيلفوسكو بطريقة كريمة ومستقيمة. وبالفعل هذا المقطع من الكتاب ينتهي بملاحظة تختلف في نغمتها عن الخيبات التي في كل الفصول السابقة. من الواضح أن عداء سويفت في المقام الأول موجه ضد إنكلترا. إنها "أهلك" (أي أبناء قومك) الذين يعتبرهم الملك بروب - دينغدانغ "السلالة الأشد فتكاً من الحشرات الطفيلية البغيضة الصغيرة التي تزحف على سطح الأرض التي عانت منها الطبيعة" والمقطع الطويل في النهاية الذي يشجب فيه الاستعمار والفتح الأجنبي، يستهدف إنكلترا بوضوح، رغم أن العكس معلن بشكل مفصل. يهاجم سويفت الهولنديين بنفس القسوة تقريباً في القسم الثالث، وهم حلفاء إنكلترا، وكانوا هدفاً لواحد من أكثر كتيباته شهرة. وهناك ما يشبه الملاحظة الشخصية في المقطع، حيث يسجل فيها غاليفار ارتياحه من أن البلدان المختلفة التي اكتشفها، لا يمكن أن تكون مستعمرات للتاج البريطاني:

في الحقيقة لا يبدو أن الهومينيم مستعدون جيداً للحرب، وهو علم أنهم غرباء عنه تماماً وخصوصاً ضد أسلحة الرسائل. لكن لو كنت وزيراً حكومياً، فلن أنصح بغزوهم، تخيل عشرين ألفاً منهم، يقتحمون جيشاً أوروبياً فيربكون صفوف الجند ويقلبون العربات ويهرسون وجوه المحاربين ويحولونها إلى مومياء برفسات رهيبة من حوافرهم الخلفية......

باعتبار أن سويفت لا يهدر الكلمات، فإن العبارات "يهرسون وجوه المحاربين ويحولونها إلى مومياء" ربما تشير إلى رغبة خفية، يرى فيها جيوش دوق مارلبورو التي لا تغلب تُعامل بطريقة مماثلة. وهناك لمسات مشابهة في مكان آخر، فحتى البلاد المذكورة في القسم الثالث التي "يتألف السواد الأكبر من الناس فيها من نمامين وشهود ومخبرين ومتهمين ومدعين وأدلة ومحلفين معاً مع مساعديهم الكثيرين ووسائلهم المتعلقة بالقضية، كلهم تحت العلم الرسمي وتحت الإدارة وعلى راتب وزراء الحكومة" تُسمى لانغدون والتي تكون جناساً مع إنغلاند ضمن حرف واحد. (بما أن الطبعات السابقة تحتوي أخطاء مطبعية، فربما كان المقصود أن يكون الجناس

كاملاً). إن نفور سويفت البدني من الإنسانية، حقيقي تماماً بالتأكيد، ويشعر المرء بأن فضح سويت لزيف العظمة الإنسانية ونقده الساخر العنيف للوردات والسياسيين وحاشية البلاط..إلخ، له وظيفة موضعية، ونابع من حقيقة أنه كان ينتمي إلى الحزب الخاسر. هو يشجب الظلم والاضطهاد، لكنه لا يقدم أي دليل عن حبه للديمقراطية. ورغم قدراته العظيمة والهائلة، فإن موقفه الضمني مماثل لموقف المحافظين المتذاكين الذين لا يحصون في زمننا - أناس مثل سير آلان هيربرت والبرفيسور جي أم يونغ ولورد اياتون ولجنة توري للإصلاح أو الخط الطويل من المدافعين الكاثوليكيين من دبليو انش مالوك وصاعداً: أناس تخصصوا في إطلاق دعابات متقنة على حساب كل ما هو "عصري" و"تقدمي" ويعتنقون الآراء الأكثر تطرفا دائماً لأنهم يعرفون أنهم عاجزون عن التأثير في سير الأحداث. أخيراً كراسة مثل **حجة لإثبات أن إلغاء المسيحية إلخ** مثلاً تشبه كثيراً "تيموثي شاي" فيه قليل من السخرية النظيفة من هيئة العقول أو من فضح الأب رونالد نوكس لأخطاء برتراند راسل. إن السهولة التي صُفح فيها عن سويفت من قبل مؤمنين ورعين أحياناً - في تجديفه في **حكاية حوض استحمام** - تُظهر بوضوح تام وهن المشاعر الدينية مقارنة بمثيلاتها السياسية.

مع ذلك القالب الرجعي لعقل سويفت، لا يكشف عن نفسه بشكل رئيسي في انتماءاته السياسية. إن الشيء المهم هو موقفه من العلم ومن الفضول العقلي والفكري عموماً. إن أكاديمية لاغادو الشهيرة التي وصفت في القسم الثالث من رحلات غاليفار، هي هجاء مبرر بلا شك لأغلب ما يسمى بالعلماء في عصر سويفت. هناك مغزى من وصف الناس الذين يعملون فيها بـ"عارضي الصور" أي أناس ليسوا منشغلين في بحث نزيه، وإنما مراقبة آلات توفر الجهد وتكسب المال، لكن لا توجد أية إشارة - في الحقيقة في الكتاب كله - إلى أن العلم الصرف جذب سويفت كنشاط جير بالاهتمام، بل هناك إشارات كثيرة إلى النقيض من ذلك. لقد تعرض النوع الأهم من العلماء للنقد واللوم في القسم الثاني، حين حاول "العلماء" الذين يرعاهم الملك بروبدينغدانغ تفسير قامة غاليفار الصغيرة:

بعد جدال طويل استنتجوا بالإجماع أنني **ريبليوم سكالكاث**، التي تترجم حرفياً طفرة طبيعية، قرار مقبول تماماً من قبل الفلسفة الأوروبية الحديثة، التي اخترع أساتذتها الذين ازدروا حيلة العلل الغامضة القديمة، التي حاول أتباع أرسطو عبثاً إخفاء جهلهم بواسطتها هذا الحل الرائع لكل المصاعب ولتقدم المعرفة الإنسانية الذي لا يُوصف.

لو أخذ المرء هذا الكلام لوحده، لافترض أن سويفت مجرد عدو للعلم الزائف، لكنه يخرج عن طريقه في عدد من الأماكن ليعلن صراحة عقم كل أنواع التعلم والفكر التي لا توجه نحو غاية عملية ما:

إن تعلم (أهالي بروبدينغدانغ) ناقص وفيه خلل كبير، ويتألف فقط من علم الأخلاق والتاريخ والشعر والرياضيات؛ حيث يُسمح لهم فيها التفوق. والأخير منها (الرياضيات) تُطبق برمتها على ما هو مفيد في الحياة، لتحسين الزراعة وكل الفنون الميكانيكية، وهذا تحظى بتقدير قليل بيننا. أما بالنسبة إلى الأفكار والكينونات والمجردات والخوارق، فلم أستطع أن أقحم أي مفهوم صغير منها في رؤوسهم.

إن الهيومنيم - كائنات سويفت المثالية - متخلفون حتى في المعنى الميكانيكي، فهم لا يعرفون شيئاً على المعادن، ولم يسمعوا بالقوارب قط، ولا يمارسون الزراعة (أُخبرنا بأن الشوفان الذي يعيشون عليه ينمو بصورة طبيعية) ولا يبدو أنهم اخترعوا المجلات[1] وليس لديهم أبجدية وليس لديهم فضول كبير نحو العالم المادي كما هو واضح، ولا يعتقدون بوجود أي بلاد مأهولة تتواجد إلى جانب بلادهم، ولكنهم يفهمون حركات الشمس والقمر وطبيعة الكسوف والخسوف "هذا هو أقصى تقدم في علم الفلك عندهم". لكن في المقابل، فإن فلاسفة الجزيرة الطائرة لابوتا منهمكون أيضاً على نحو مستمر في حسابات رياضية، لذلك قبل التكلم إليهم يحتاج المرء لجذب انتباههم بمغافلتهم بوضع مثانة على آذانهم. لقد فهرسوا عشرة آلاف نجم ثابت، وحسبوا مدد ثلاثة وتسعين مذنباً، واكتشفوا وجود قمرين للمريخ، وسبقوا الفلكيين الأوروبيين في ذلك - معلومات اعتبرها سويفت كلها سخيفة وعقيمة وبليدة. كما يتوقع المرء، فإن سويفت يعتقد أن مكانة العالم إن كانت لديه واحدة، فهي في المختبر، وأن المعرفة العلمية ليس لها أثر على المسائل السياسية:

لم أستطع أن أجد أي تفسير لميلهم القوي الذي لاحظته نحو الإخبار والسياسة، فهم يستفسرون بشكل دائم عن القضايا العامة ويبدون آراءهم في قضايا الدولة دائماً، ويفندون بانفعال

---

١ - لا يستطيع الهومينوم المشي بسبب الكبر، ووصفوا أنهم يحملون على زلاجات أو في نوع من المركبات تجر مثل الزلاجات ويفترض أنها بلا عجلات. (ملاحظة المؤلف).

كل جزء من رأي المشارك الآخر. لاحظت في الحقيقة نفس الميل وسط أغلب علماء الرياضيات الذين عرفتهم في أوروبا، رغم أنني لم أستطع أن أكتشف أدنى تشابه بين العلمين؛ إلا إذا افترض هؤلاء الناس أن أصغر دائرة فيها عدد من الدرجات، مثل أكبر دائرة، لذلك فإن تنظيم العالم وإدارته، لا يتطلب قدرات ومهارات أكثر من الإمساك بالكرة الجغرافية وتدويرها.

ألا يوجد أي شيء مألوف في تلك العبارة "لم أستطع أن أكتشف أدنى تشابه بين العلمين؟" فيها بالضبط سمة المدافعين الكاثوليكيين الذين يعترفون باندهاشهم حين ينطق عالم برأي في مثل هذه المسائل كوجود الرب أو خلود الروح مثلاً. إن العالم كما أُخبرونا، خبير في حقل محدد فقط: لماذا تكون لآرائه قيمة في مجال آخر؟ المعنى الضمني أن اللاهوت علم دقيق كعلم الكيمياء مثلاً وأن القس خبير أيضاً ويجب القبول باستنتاجاته في مواضيع معينة. وسويفت في الواقع يدعي بنفس الحق من أجل السياسي، لكنه يتفوق على سلفه حين لم يسمح للعالم - العالم "الصرف" أو المحقق الارتجالي - أن يكون شخصاً مفيداً في خطه الخاص. حتى لو لم يكتب سويفت القسم الثالث من رحلات غاليفار، لاستطاع المرء الاستنتاج من بقية الكتاب أنه مثل تولستوي ومثل بليك، يكره فكرة دراسة عمليات الطبيعة. الـ"سبب" الذي جعله يُعجب جداً في الهونيم لا يعني أساساً القدرة على استخلاص استنتاجات منطقية من وقائع مدركة وملحوظة، ورغم أنه لم يحدده أبداً إلا أنه ظهر في أكثر السياقات ليعني إما الحس السليم - أي القبول بالواضح واحتقار الحيل والمجردات - أو انعدام الشغف والخرافة. وعلى العموم هو يعتقد أننا نعرف كل ما نحتاج إلى معرفته مسبقاً، ولكننا نستخدم معرفتنا بشكل غير صحيح. فالطب مثلاً علم لا فائدة منه، لأننا إن عشنا بطريقة طبيعية أكثر، فلن تكون هناك أمراض. لكن سويفت ليس داعية للحياة البسيطة أو معجب بالهمجي النبيل فقط، وإنما يؤيد الحضارة وفنون الحضارة أيضاً، ولا يرى قيمة أنواع السلوك الجيدة والمحادثة الجيدة وحتى المعرفة من النوع الأدبي والتاريخي فقط، وإنما يرى أيضاً الحاجة إلى دراسة الزراعة والملاحة والهندسة المعمارية والزراعة التي يمكن تحسينها ببعض المزايا. لكن هدفه المبطن ثابت، مدنية غير فضولية - عالم عصره لكن أنظف قليلاً وأعقل قليلاً دون تغيير جذري أو بحث فضولي في الأشياء التي لا يمكن معرفتها، أكثر مما يرجوه المرء. كما أنه يجل الماضي بشكل لا يتوقعه المرء من أي واحد متحرر جداً من الأفكار الخاطئة المقبولة، ويوقر العصر الكلاسيكي القديم

بصورة خاصة، ويعتقد أن الإنسان الحديث قد انحدر بحدة وانحط خلال المائة سنة الأخيرة.[1]
في جزيرة السحرة، حيث يمكن استدعاء أرواح الموتى عند الرغبة:

رغبت لو يظهر شيوخ روما أمامي في حجرة واسعة، وممثلو برلمان حديث في حجرة مقابلة أخرى، لبدت الأولى مجلس أبطال وأنصاف الآلهة، والأخرى زمرة من الباعة الجوالين والنشالين وقطاع الطرق والمتنمرين.

رغم أن سويفت يستخدم هذا المقطع من القسم الثالث، كي يهاجم صدقية التاريخ المدون، إلا أن روحه الناقدة تهجره فور تعامله مع الإغريق والروم. هو يعلق على فساد روما الإمبريالية طبعاً، لكنه يكن إعجاباً عاطفياً غير مفسر لبعض من شخصيات العالم القديم البارزة:

دُهشت بتوقير عميق بمنظر بروتوس، واستطعت أن أكتشف بسهولة أكثر فضيلة مكتملة وأعظم جرأة وأثبت عقل وأصدق حب للوطن وإحسان عام للبشرية في كل قسمات محياه.... كان لي الشرف أن أتحدث كثيراً مع بروتوس، وعلمت أنه وأسلافه جونيوس وسقراط وايباميندونانداس وكاتو الأصغر والسير توماس مور كانوا معاً دائماً: فريقاً سداسياً لا تستطيع عصور العالم كلها أن تضيف لهم سابعاً.

سيُلاحظ أنه من بين الأشخاص الستة، ليس هناك سوى مسيحي واحد فقط. هذه نقطة هامة. إن أضاف المرء تشاؤمية سويفت وتوقيره للماضي ولامبالاته ورعبه من الجسد البشري، لوصل إلى موقف شائع بين الرجعيين المتدينين، أي أناس يدافعون عن نظام اجتماعي غير عادل في الزعم بأن هذا العالم لا يمكن تحسينه جوهرياً، وأن "العالم التالي" فقط هو المهم. لكن سويفت لا يبدي أي علامة عن امتلاكه لأي شعور ديني على الأقل بالمعنى العادي للكلمة، ولا يبدو أنه يؤمن بجدية في الحياة بعد الموت، وأن فكرته عن الطيبة مرتبطة بالنظام الجمهوري وحب الحرية والشجاعة و"الإحسان" (بمعنى الروح الجماعية) والعقل وصفات وثنية أخرى. هذا يذكر المرء بنزعة أخرى في سويفت غير منسجمة إطلاقاً مع عدم إيمانه بالتقدم وكرهه العام للإنسانية.

---

١ – التفسخ البدني الذي يدعي سويفت بملاحظته ربما كان واقعاً في ذلك العهد، وينسبه إلى مرض السيفلس (الزهري) الذي كان جديداً في أوروبا والذي ربما كان أخبث مما هو عليه الآن. الأشربة الكحولية المقطرة أيضاً كانت بدعة جديدة في القرن السابع عشر، وأدت إلى زيادة هائلة في الثمل. (ملاحظة المؤلف)

بداية، لدى سويفت لحظات يكون فيها "بنّاء" بل و"تقدمياً" حتى. يكون التضارب وعدم الانسجام أحياناً علامة على الحيوية في كتب اليوتوبيا، فسويفت يقحم بين الحين والآخر كلمة مديح في مقطع ينبغي أن يكون هجائياً صرفاً، وهكذا كأفكاره عن تربية الشباب نسبت إلى أهل ليليبوت الذين لديهم ولدى الهوينم الآراء نفسها حول هذا الموضوع. ويمتلك أهالي ليليبوت أيضاً مؤسسات اجتماعية وقانونية متنوعة (فمثلاً توجد هناك رواتب تقاعدية لكبار السن والناس يكافؤون على تقيدهم بالقانون ويعاقبون على انتهاكه) أحب سويفت أن يراها منتشرة بشكل كبير في بلاده. يتذكر سويفت هدفه الهجائي في وسط المقطع فيضيف "فيما يخص هذه والقوانين التالية، أرغب أن أُفهم بأنني أقصد المؤسسات الأصيلة وليس أشكال الفساد المخزي جداً الذي أسقطت طبيعة الإنسان المنحطة هؤلاء الناس فيه". لكن بما أن ليليبوت تمثل إنكلترا كما يُفترض بها، والقوانين التي يتكلم عنها لم يكن لها نظير أبداً في إنكلترا، فمن الواضح إذاً أن الباعث إلى توجيه تلميحات بناءة كان كثيراً جداً عليه. لكن مساهمة سويفت الكبرى في الفكر السياسي بالمعنى الضيق للكلمة، هي هجومه وخصوصاً في القسم الثالث، على ما يسمى اليوم بالنظام الشمولي، فقد كانت لديه بصيرة واضحة استثنائية لـ"لدولة الأمنية" بمطارداتها اللانهائية للهرطقات ومحاكمات الخيانة العظمى التي كرست كلها لتحييد السخط الشعبي بتبديله إلى هيستريا الحرب. ويجب أن يتذكر المرء أن سويفت هنا يستنتج الكل من الجزء الصغير تماماً، فالحكومات الضعيفة في عصره، لم تعطه أي توضيحات جاهزة مسبقاً. فمثلاً هناك البروفيسور في مدرسة العارضين السياسين الذي "أطلعني على ورقة كبيرة من التعليمات لاكتشاف المكائد والمؤامرات" والذي زعم أن المرء يستطيع اكتشاف أفكار الناس الخفية بتفحص برازهم:

لأن البشر غير جديين ومهتمين ومصممين حين يكونون في المرحاض، اكتشف البروفيسور من خلال تجارب مكررة: أنهم في مثل هذه الأوضاع حين فكر بالطريقة الأمثل لقتل الملك، كان لون غائطه يميل إلى اللون الأخضر، وكان مختلفا تماماً حين فكر في إثارة عصيان مسلح أو إحراق العاصمة.

قيل أن المحاكمات الحكومية الأخيرة هي التي أوحت لسويفت بالبروفيسور ونظريته، فقد وجدت بعض الرسائل في مرحاض أحد الأشخاص التي وضعت كدليل. بعد ذلك وبنفس الفصل، يبدو لنا أننا في وسط التطهيرات الروسية:

في مملكة تريبنيا التي يسميها السكان الأصليون لانغدون.... يتكون الجزء الأعظم من الناس بشكل ما من نمامين وشهود ومخبرين ومتهمين ومدعين وأدلة ومحلفين.... كان أول ما اتفقوا عليه وأقروه، من هم الأشخاص المشتبه بهم الذين يجب اتهامهم في مكيدة: ثم تؤخذ عناية فعالة لحماية رسائلهم وأوراقهم ووضع المالكين في الأصفاد. هذه الأوراق تسلم إلى هيئة الفنانين البارعة جداً في اكتشاف المعاني الغامضة للكلمات والمقاطع اللفظية والحروف...... إن فشلت هذه الوسيلة، فلديهم وسيلتان أكثر فعالية غيرها يسميها المتعلمون منهم (أكروستيكس) و(أناغرامز). في الوسيلة الأولى يستطيعون ترجمة كل الحروف الاستهلالية إلى معانٍ سياسية: وهكذا: حرف النون يرمز إلى مكيدة، وحرف الباء إلى فوج من الخيالة، وحرف اللام إلى أسطول في البحر. في الوسيلة الثانية يغيرون مواضع حروف الأبجدية في أي ورقة مشبوهة، وبذلك يستطيعون كشف أعمق نوايا الطرف المستاء. لذلك لو قلت في رسالة لصديق مثلاً إن أخونا توم أصيب بالبواسير، سيكتشف فاكّ الشيفرة البارع أن نفس الأحرف التي شكلت هذه الجملة، يمكن أن تحلل إلى الكلمات التالية: قاوم – المكيدة جُلبت إلى الوطن – البرج.

كما اخترع أساتذة آخرون في نفس المدرسة لغات مبسطة، وألفوا كتباً بالآلات، وعلموا تلامذتهم عن طريق نقش الدرس على رقاقة مدورة من البسكويت، وجعلوا تلاميذهم يبلعونها، وعزموا على إلغاء الفردانية تماماً، وذلك باستئصال جزء من دماغ شخص وزرعها في رأس شخص آخر. هناك شيء مألوف بشكل يثير الاستغراب في جو هذه الفصول مخلوط بخداع كبير، هناك إدراك أن أحد أهداف الحكم الشمولي الاستبدادي، ليس التأكد من أن الناس لا يفكرون بالأفكار الصحيحة فحسب، بل في جعلهم أقل وعياً. وبعد ذلك، يصف لنا سويفت القائد مرة أخرى الذي يجب أن يوجد عادة ليحكم قبيلة الياهو و"المفضل" الذي يعمل في البداية كفاعل أعمال قذرة، ثم لاحقاً ككبش الفداء الذي يناسب جيداً وبشكل لافت عصرنا. لكن أليس حرياً بنا أن نستنتج من كل هذا بأن سويفت كان أولاً وقبل كل شيء خصماً للاستبداد ونصيراً للفكر الحر؟ كلا: إن آراءه الخاصة بالقدر الذي يستطيع المرء إدراكها ليست ليبرالية بشكل واضح المعالم. لا شك أنه يكره اللوردات والملوك والجنرالات وسيدات الموضة والأوسمة والألقاب والمجاملات الفارغة عموماً، لكن يبدو أنه لم يحسن الظن بالعوام من الناس، ويعتبرهم أفضل من حكامهم، أو أن يؤيد ويدعم مساواة اجتماعية متزايدة أو يتحمس للمؤسسات النيابية التمثيلية. إن الهونيم منظمين في نظام طبقي طائفي ذي

طبيعة عنصرية: إن ألوان الخيول التي تقوم بالعمل العبودي الوضيع تختلف عن ألوان سادتها، وليس هناك تزواج وتناسل معهم، كما أن النظام التعليمي الذي أعجب به سويفت في ليليبوت يسلم جدلاً بامتيازات طبقية موروثة. فأطفال الطبقات الفقيرة لا يرتادون المدارس، لأن "مهمتهم كانت في حرث الأرض وفلاحتها..... ولذلك فإن تعليمهم قضية ذات أهمية قليلة بالنسبة إلى الشعب". ولا يبدو كذلك أنه كان مؤيداً قوياً لحرية الكلام والصحافة، رغم التسامح التي نعمت به كتاباته. يندهش ملك بروبدينغدانغ من كثرة الطوائف الدينية والسياسية وتنوعها في إنكلترا، ويعتبر أن هؤلاء الذين يعتنقون "آراء ضارة بالشعب" (في السياق هذا يعني الآراء المنشقة لا غير) لا يجبرون على تبديلها فقط، وإنما يجبرون على كتمها أيضاً: "بما أن فرض الأول من قبل أي حكومة استبداد وظلم، فإن عدم فرض الثاني بالقوة ضعف". هناك إشارة أدق إلى موقف سويفت الشخصي في الطريقة التي يغادر فيها غاليفار أرض الهونيم. على نحو متقطع على الأقل كان سويفت فوضوياً (أناركياً). والقسم الرابع من رحلات غاليفار، هو صورة عن مجتمع فوضوي لا يحكمه القانون بالمعنى العادي، وإنما بإملاءات "العقل" المقبولة طوعياً من قبل الجميع. تحض الجمعية العامة للهونيم سيد ومالك غاليفار على التخلص منه، ويمارس جيرانه ضغطاً عليه ليذعن. ويعطي مبررين. الأول أن وجود هذا الياهو غير العادي قد يزعزع بقية القبيلة، والآخر أن العلاقة الودية بين واحد من الهونيم وواحد من الياهو "ليست مقبولة للعقل أو الطبيعة أو شيء لم يسمعوا به قط". إن سيد غاليفار غير راغب في الإذعان إلى حد ما، لكن لا يمكن له أو لغيره تجاهل "الحض" (الهونيم كما أخبرنا لا يُجبر أبداً على فعل أي شيء وإنما يسمح (بتحذيره وحضه ونصحه)). وهذا يوضح جيداً جداً النزعة الاستبدادية التي تظهر في رؤية الفوضوي أو السلمي للمجتمع. في مجتمع ليس للقانون وجود فيه ولا للقسر نظرياً، يكون الناظم الوحيد للسلوك هو الرأي العام. لكن الرأي العام بسبب الإلحاح الهائل والحث على الامتثال والتطابق في حيوانات قطيعية أقل تسامحاً من أي نظام قانوني. حين تُحكم الكائنات البشرية بـ"أنت لن" يستطيع الفرد ممارسة مقدار محدد من الغرابة والاختلاف، أما حين يُحكمون بواسطة "الحب" أو "العقل" كما هو مفترض، يكون الفرد تحت ضغط مستمر لحمله على التصرف والتفكير بنفس الطريقة التي يتصرف بها أي شخص آخر. فالهونيم كما أُخبرنا يتفقون بالإجماع تقريباً على كل المواضيع. المسألة الوحيدة التي يناقشونها دائماً هي كيف يتعاملون مع

الياهو. غير ذلك ليس هناك أي مجال للخلاف بينهم، لأن الحقيقة دائماً إما أنها واضحة في حد ذاتها، أو أنها غير قابلة للاكتشاف وغير مهمة. ليس لديهم على ما يبدو كلمة بمعنى "رأي" في لغتهم، وفي محادثاتهم لا يوجد أي "فارق واختلاف في المشاعر والعواطف". هم وصلوا في الحقيقة إلى أعلى مرحلة من التنظيم الشمولي الاستبدادي، المرحلة التي يصبح فيها الامتثال والتطابق عاماً، لذلك ليس هناك حاجة لقوة الشرطة. يستحسن سويفت هذا النوع من الشيء، لأن الفضول والطيبة ليسا من بين مواهبه الكثيرة. لقد بدا له الاختلاف في الرأي مجرد ضلال دائماً. ويقول إن "العقل" عند الهونيم "ليس نقطة تحتمل الجدال كما عندنا؛ حيث يستطيع الناس التجادل بشكل مقبول ومعقول ظاهرياً في كلا جانبي المشكلة؛ لكنه يفاجئك باقتناع فوري لا تخالطه أو تشوهه أو تحجبه عاطفة أو مصلحة". بعبارة أخرى، نحن نعرف كل شيء مسبقاً، لهذا لماذا التسامح مع الآراء المنشقة؟ إن المجتمع الاستبدادي الشمولي للهونيم الذي لا يمكن أن تكون فيه حرية أو تطور، ناتج عن هذا بشكل طبيعي.

يصح لنا أن نعتبر سويفت ثائراً ومهاجماً للمؤسسات القديمة، إلا في مسائل ثانوية معينة فقط. ففي إصراره على وجوب تلقي النساء التعليم نفسه كالرجال مثلاً، لا يمكن تصنيفه بـ"اليساري". هو توري (محافظ) فوضوي، يزدري السلطة، لكنه لا يؤمن بالحرية ويحافظ على وجهة النظر الأرستقراطية، ورغم ذلك يرى بوضوح أن الأرستقراطية الموجودة منحطة وخسيسة. عندما يتفوه سويفت بإحدى خطبه اللاذعة التي يتميز بها ضد الأغنياء والمتنفذين، يجب على المرء ربما كما قلت آنفاً، أن يمحي شيئاً ما من أجل حقيقة أنه هو نفسه كان ينتمي إلى الحزب الأقل نجاحاً وكان محبطاً شخصياً. إن "المعارضة" لأسباب واضحة أكثر تطرفاً من "الحكم" دائماً.[1] لكن الشيء الأكثر جوهرية في سويفت، هو عجزه عن الاعتقاد بأن الحياة –

---

١ – في نهاية الكتاب، كعينات أنموذجية عن الحماقة البشرية والنزعة الشريرة، يسمي سويفت "محامياً بالنشال وعقيداً بالأحمق ولورداً بالمقامر وسياسياً بسيد العاهرات وطبيباً بالعلامة أو الأمارة والمدعي العام بالخائن وهلم جرا". يرى المرء هنا العنف غير المسؤول للعجز وتخلط القائمة معاً هؤلاء الذين ينتهكون قواعد التقاليد والأعراف وهؤلاء الذين يحافظون عليها. فمثلاً لو أنك أدنت عقيداً بشكل آلي، فعلى أي أساس تدين خائناً؟ أو مرة أخرى إن أردت أن تقمع النشالين، يجب أن يكون لديك قوانين، وبالتالي أن يكون لديك محامون بالضرورة. إن المقطع الختامي بأكمله الذي فيه الكره حقيقي وصادق جداً ومبرره المقدم غير وافٍ وغير ملائم، ليس مقنعاً بشكل ما. يشعر المرء أن الحقد الشخصي يفعل فعله. (ملاحظة المؤلف)

الحياة العادية على الأرض الصلبة وليس النسخة المعقلنة والمعطرة عنها - يمكن أن تُجعل جديرة بالعيش. طبعاً، ليس هناك شخص عاقل الآن يزعم بأن السعادة حالة عادية بين الكائنات البشرية البالغة؛ لكن ربما في الإمكان جعلها عادية. وهذه هي القضية التي يدور حولها كل الجدل السياسي الجاد حقيقة. يشترك سويفت في أشياء كثيرة - أكثر مما لوحظ - مع تولستوي، جاحد آخر في إمكانية السعادة. تجد لدى كلا الرجلين نفس وجهة النظر، تغطي المسحة الاستبدادية في عقله. في كليهما تجد نفس العداء للعلم، ونفس التململ من الخصوم، ونفس العجز عن رؤية أهمية أي قضية لا تهمهما شخصياً. وفي كلا الحالتين تجد نوعاً من الرعب من العملية الحقيقة والفعلية للحياة، لكنها في حالة تولستوي، وصلت متأخرة ومختلفة. لم تكن التعاسة الجنسية عند كلا الرجلين من نفس النوع، لكنهما كانا يشتركان بوجود اشمئزاز صادق اختلط بافتتان مرضي. كان تولستوي فاسقاً تم تقويمه وإصلاحه، وانتهى به المطاف إلى التبشير بالعزوبية التامة، لكنه واصل ممارسة النقيض في أواخر شيخوخته. أما سويفت فكان عاجزاً جنسياً كما يفترض، ولديه رعب مبالغ فيه من الروث الإنساني: كان يفكر فيه باستمرار أيضاً كما يظهر بجلاء في كل أعماله. من غير المحتمل لمثل هؤلاء الناس أن يستمتعوا ولو بقدر قليل من السعادة التي تحل على أغلب الكائنات البشرية، ولبواعث واضحة، فمن غير المحتمل أن يعترفوا بأن الحياة الأرضية قادرة على التحسن الكبير. إن لامبالاتهما، وبالتالي عدم تحملهما، ناتجان عن نفس المصدر.

سيكون لاشمئزاز سويفت وضغينته وتشاؤميته معنى على خلفية "العالم التالي"، لو أن هذا العالم كان مقدمة استهلالية له. بما أنه لم يظهر أنه يؤمن جديا بأي شيء من هذا، فمن الضروري تشييد فردوس يفترض أن يتواجد على سطح الأرض، لكنه مختلف تماماً عن أي شيء نعرفه، ويستأصل منه كل الذي يستهجنه من أكاذيب وحماقة وتغيير وحماس ومتعة وحب وقذارة. كائنه الأمثل الذي اختاره هو الحصان، لأنه حيوان غائطه ليس كريهاً. الهومينيم بهائم كئيبة - هذا مسلم به عموماً لذلك تلك النقطة لا تستحق الجهد. تستطيع عبقرية سويفت جعلهم معقولين، لكن قد يوجد عندها عدد قليل جداً من القراء لن تثير فيهم هذه البهائم أي شعور أبعد من الكره. وهذا ليس من خيلاء جريح من رؤية حيوانات تُفضل على البشر؛ لأن الهومينيم أكثر شبهاً بالكائنات البشرية من الياهو. ورعب غاليفار من الياهو واعترافه بأنهم

نفس النوع من المخلوقات مثله هو، يحتوي سخفاً منطقياً. هذا الرعب يواجهه فور رؤيته الأولى لهم. يقول "لم أر أبداً في كل رحلاتي حيواناً كريهاً كهذا، ولم أتخيل واحداً بغضته بشكل طبيعي بهذه القوة". لكن الياهو مثيرون للاشمئزاز مقارنة بمن؟ ليس مع الهونيم، لأن غاليفار لم ير الهونيم في هذا الوقت. لا يمكن أن يكون إلا مقارنة بنفسه أي مع الكائن البشري. لكنه يخبرنا لاحقاً أن الياهو كائنات بشرية، ويصبح المجتمع الإنساني لا يحتمل بالنسبة إلى غاليفار، لأن كل البشر يكونون ياهو. في تلك الحالة لماذا لم يتخيل اشمئزازه من البشرية في وقت أبكر؟ في الواقع يقال لنا إن الياهو مختلفون عن البشر بشكل غريب، ومع ذلك هم نفس الشيء. سويفت تجاوز نفسه في غضبه وهو يصرخ برفاقه من المخلوقات "أنتم أقذر مما أنتم عليه!" ومع ذلك من المستحيل أن تتعاطف كثيراً مع الياهو، وليس الهونيم غير جذابين لأنهم يضطهدون الياهو. إنهم غير جذابين لأن "العقل" الذي يحكمهم في الواقع هو رغبة في الموت. إنهم يخلون من الحب والصداقة والفضول والأسى و- باستثناء مشاعرهم تجاه الياهو الذين يشغلون في الواقع في مجتمعهم نفس المكان كما اليهود في ألمانيا النازية - الغضب والكره. "ليس لديهم أي حنان نحو مهورهم وفلاتهم، والعناية التي يأخذونها في تربيتهم تنشأ كلياً من إملاءات العقل. هم يثمنون ويقدرون "الصداقة" و"الإحسان"، لكنهما لا تقتصران على أشياء خاصة وإنما شاملة لكل السلالة. وهم يثمنون المحادثة أيضاً، لكن لا توجد اختلافات في الرأي في محادثاتهم و"لا يمر إلا المفيد والمعبر عنه بأقل الكلمات وأبلغها". يطبقون تحكماً صارماً في الولادات، فكل زوجين يخلفان طفلين ثم يمتنعان عن الجماع. وأبلغ زواجاتهم مرتبة لهم من قبل كبارهم على مبادئ تحسين النسل. ولغتهم لا تحتوي على كلمة "حب" بالمعنى الجنسي. حين يموت أحدهم يستمرون كما كانوا قبل ذلك بالضبط دون شعور بالحزن. سيتضح لاحقاً أن هدفهم هو أن يكونوا مثل جثة بأقصى ما يمكن طالما يحتفظون بحياة بدنية. صحيح أن واحدة أو اثنتين من صفاتهم المميزة لا تبدو "معقولة" تماماً في استخدامهم الخاص للكلمة. لهذا يضعون قيمة كبيرة ليس على القوة البدنية فقط وإنما على الرياضة أيضاً، وهم مخلصون للشعر. لكن هذه الاستثناءات قد تبدو أقل اعتباطية مما تبدو. يؤكد سويفت على قوة الهونيم البدنية، ليوضح أنهم لا يمكن أن يُغلبوا من قبل السلالة البشرية البغيضة، بينما تذوقهم للشعر ربما يلعب دوراً بين صفاتهم، لأن الشعر بدا لسويفت نقيضاً مباشراً للعلم من وجهة

نظره والأقل نفعاً من بين كل المهن. في القسم الثالث هو يسمي "التخيل والخيال والإبداع" قدرات مرغوبة كان علماء الرياضيات في لابوتان يفتقدونها تماماً (رغم حبهم للموسيقا). يجب أن يتذكر المرء أن سويفت على الرغم من أنه كان كاتباً ممتازاً للشعر الهزلي، إلا أن نوع الشعر الذي اعتقده نافعاً ربما كان الشعر التعليمي الوعظي. يقول عن شعر الهونيم:

يجب أن يسمح لهم بالتفوق على كل المخلوقات الفانية الأخرى؛ حيث لا يضاهيهم أحد في تشبيهاتهم الصائبة والدقيقة ووصفهم الدقيق والمضبوط في الحقيقة. كما أن أشعارهم تعج كثيراً بهذين الشيئين، وتتضمن عادة إما أفكاراً رفيعة عن الصداقة والإحسان، أو تمجيداً لهؤلاء الذين ظفروا في السباقات والتمارين البدنية الأخرى.

لكن للأسف حتى عبقرية سويفت لم تقدر أن تنتج عينة نستطيع بواسطتها أن نقيم شعر الهونيم، لكن يبدو كما لو أنه مادة فاترة (في مقاطع شعرية ملحمية مؤلفة من بيتين كما يفترض) وليس في صراع جدي مع مبادئ "العقل".

تشتهر السعادة بصعوبة وصفها، ونادراً ما تكون صور مجتمع عادل ومنظم بشكل جيد جذابة أو مقنعة. إن أغلب مبدعي اليوتوبيات "المفضلة" يهتمون بإظهار كيف يمكن للحياة أن تكون لو عاشها الناس بشكل أكمل. يؤيد سويفت رفضاً بسيطاً للحياة، ويدعي مبرراً ذلك أن العقل يتكون في إعاقة وإحباط غرائزك. إن الهونيم مخلوقات بلا تاريخ، يواصلون العيش في تعقل واقتصاد جيلاً بعد جيل، ويحافظون لشعبهم على نفس المستوى بالضبط، ويتفادون كل شغف وغضب، ولا يعانون من أي مرض، ويلاقون الموت بلامبالاة، ويدربون صغارهم على نفس المبادئ - وكل ذلك من أجل ماذا؟ لتستمر نفس العملية إلى الأبد. تغيب كل الأفكار التي ترى أن الحياة هنا والآن تستحق العيش أو يمكن جعلها تستحق ذلك، أو يجب أن يُضحى بها من أجل مستقبل جيد. عالم الهيومينيم الكئيب عن يوتوبيا جيدة بالقدر الذي استطاع سويفت رسمه، مع التسليم أنه لم يؤمن بـ "العالم الآخر" ولم يستطع أن يجد أي رضى وإشباع من نشاطات عادية محددة، لكنه لم يُشد كشيء مرغوب بحد ذاته في الحقيقة، وإنما كمبرر لهجوم آخر على الإنسانية. والهدف كالمعتاد، أن يحط من قدر الإنسان بتذكيره بأنه ضعيف وسخيف، وقبل كل ذلك نتن ورائحته كريهة، والحافز الأساسي على الأرجح نوع من الحسد، حسد الشبح للعيش وللإنسان الذي يعرف أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً من أجل الآخرين الذين -

يخشاهم جداً - ربما يكونون أسعد قليلاً منه. التعبير السياسي لمثل هذه النظرة، يجب أن تكون إما رجعية أو عدمية، لأن الشخص الذي يعتنقها سوف يريد أن يمنع المجتمع من التطور في اتجاه ما يمكن أن يكشف عن زيف تشاؤميته. ويمكن للمرء أن يفعل هذا، إما بنسف كل شيء وتحويله إلى فتات، أو بتفادي التغيير الاجتماعي. لقد نسف سويفت كل شيء وحوله إلى فتات أخيراً بالطريقة الوحيدة التي كانت معقولة وعملية قبل القنبلة الذرية - أي أنه جن - لكن كما حاولت إظهار أن أهدافه السياسية بالمجمل كانت أهدافاً رجعية.

ربما أبدو مما كتبته بأنني ضد سويفت، وأن هدفي أن أفنده وأن أقلل من شأنه حتى. بالمعنى السياسي والأخلاقي أنا ضده بالقدر الذي فهمت فيه هذا الرجل. لكن اللافت تماماً أنه واحد من الكتاب الذين أعجبت بهم دون أدنى تحفظ، وأن رحلات غاليفار بشكل خاص كتاب يستحيل أن أضجر منه. لقد قرأته أول مرة حين كنت في الثامنة من عمري - كان ينقصني يوم واحد عن الثامنة للدقة لأنني سرقت النسخة التي كانت ستقدم لي في اليوم التالي بمناسبة عيد ميلادي الثامن وقرأتها - وإنني بالتأكيد قرأتها أكثر من نصف دزينة من المرات على الأقل منذ ذلك الحين. إن سحره يبدو لا ينضب. ولو كان علي أن أرتب ستة كتب لتبقى محفوظة حين تخرب كل الكتب الأخرى، لكنت وضعت رحلات غاليفار بينها بالتأكيد، وهذا يطرح السؤال: ما هي العلاقة بين الاتفاق مع آراء الكاتب والاستمتاع بعمله؟

إن كان المرء قادراً على الانفصال الفكري، فإنه يستطيع أن يدرك قيمة في كاتب يختلف معه بعمق، لكن الاستمتاع مسألة مختلفة. بافتراض وجود شيء كفن جيد أو رديء، عندئذ يجب على الجودة أو الرداءة أن تكمن في العمل الفني نفسه - مستقلة ليس عن الملاحظ فقط وإنما مستقلة عن مزاج الملاحظ في الحقيقة. ليس صحيحاً أن تكون قصيدة ما جيدة في يوم الاثنين ورديئة في يوم الثلاثاء، لكن إن حكم المرء على قصيدة من خلال الإعجاب الذي تثيره في نفسه يمكن عندئذ أن يكون ذلك صحيحاً بالتأكيد، لأن الإعجاب أو الاستمتاع حالة ذاتية لا يمكن السيطرة عليها. فحتى الشخص الأكثر ثقافة، لا تكون لديه مشاعر جمالية مهما كانت في قدر كبير من حياته الواعية، كما أن القدرة على امتلاك مشاعر جمالية تتدمر بسهولة. حين تكون خائفاً أو جائعاً أو تعاني من ألم في الأسنان أو دوار البحر. الملك لير من وجهة نظرك ليس أفضل من بيتر بان. يمكنك أن تعرف الإحساس الفكري بالعمل الأفضل، لكن ذلك

مجرد واقعة تتذكرها: أنت لن تشعر بقيمة الملك لير حتى تعود إلى حالتك السوية العادية، والحكم الجمالي يمكن أن يكون فاسداً وكارثياً بنفس الوقت - كارثياً أكثر لأن السبب أقل من أن يُميز بسهولة - بسبب خلاف سياسي أو أخلاقي. إن أغضبك كتاب أو جرحك أو أرعبك، حينئذ لن تستمتع به مهما كانت قيمته. إن بدا لك كتاب ما أنه خبيث حقيقة وربما يؤثر على أناس آخرين في طريقة غير مرغوبة، إذاً أنت تنشئ نظرية جمالية تبين فيها أن هذا الكتاب يخلو من أية قيمة. يتألف النقد الأدبي المعاصر إلى حد كبير من هذا النوع من المراوغة والتنقل بين مجموعتين من المعايير ويمكن للعملية المعاكسة أن تحدث أيضاً: يستطيع الاستمتاع قهر الاستهجان والاستنكار حتى لو أدرك بشكل واضح أنه يستمتع بشيء ضار. إن سويفت الذي نظرته إلى العالم غير مقبولة بشكل غريب جداً ومع ذلك هو الكاتب المحبوب إلى أبعد حد، مثال جيد عن هذا. لماذا لا نعترض على تسميتنا بالياهو، رغم أننا مقتنعون بقوة بأننا لسنا من الياهو.

ليس كافياً أن نعطي الجواب المعتاد بأن سويفت كان مخطئاً طبعاً وفي الحقيقة مجنوناً، لكنه كان "كاتباً جيداً". صحيح أن النوعية الأدبية للكتاب يمكن إلى حد ما فصلها عن موضوعه الرئيسي. يتمتع بعض الناس بموهبة فطرية في استخدام الكلمات مثلما لدى بعض الناس "عين جيدة" في الألعاب بشكل طبيعي. إنها أساساً مسألة توقيت ومعرفة غريزية لحجم التأكيد المستخدم. كمثال في المتناول، انظر إلى المقطع الذي اقتبسته آنفاً الذي يبدأ "في مملكة تريبنيا المسماة من قبل السكان الأصليين لانغدون". فهو يستمد الكثير من قوته من الجملة الأخيرة: "وهذه هي طريقة صنع الجناس". هذه الجملة بالتحديد غير ضرورية، لأننا رأينا مسبقاً الجناس، ففككنا لغزه، لكن التكرار الجدي الساخر الذي يبدو المرء فيه أنه يسمع صوت سويفت يتفوه بالكلمات، يؤكد بلاهة النشاطات الموصوفة مثل ضربة المسمار الخفيفة الأخيرة. لكن ليس كل قوة نثر سويفت وبساطته ولا الجهد التخيلي الهائل الذي لم يخلق عالماً واحداً فقط، وإنما سلسلة من العوالم المستحيلة معقولة وقابلة للتصديق أكثر من غالبية كتب التاريخ - ولا أي من هذا سيمكننا من الاستمتاع بسويفت لو كانت نظرته إلى العالم جارحة ومروعة في الواقع. بالتأكيد إن ملايين الأشخاص في بلدان كثيرة من العالم قد استمتعوا برحلات غاليفار، في الوقت الذي رأوا وفهموا مضامينه المعادية للإنسانية: وحتى الطفل الذي يقبل

بالقسم الأول والثاني كقصة بسيطة، يتولد في نفسه إحساس بالسخافة ومجافاة العقل من التفكير في كائنات بشرية طول أحدها ست بوصات. التفسير يجب أن يكون أن وجهة نظر سويفت العالمية ليست زائفة في المجمل - أو ربما نكون أدق في القول - ليست زائفة دائماً. إن سويفت كاتب سقيم، فهو يظل في مزاج كئيب دائماً يكون متقطعاً لدى أغلب الناس، أو بالأحرى مثل شخص يعاني من اليرقان أو من مضاعفات الإنفلونزا، ويجب عليه أن يمتلك الطاقة لكتابة الكتب. لكن كلنا نعرف ذلك المزاج ويوجد شيء فينا يستجيب للتعبير عنه. خذ مثلاً واحداً من أكثر أعماله تميزاً غرفة ملابس السيدة: يمكن للمرء إضافة القصيدة القريبة منها **نزولاً عند طلب حورية صغيرة جميلة في السرير**. أيهما أصدق: وجهة النظر المعبر عنها في هاتين القصيدتين، أم وجهة النظر المُضمنة في عبارة بليك "الأنثى العارية شكل إنساني مقدس"؟ لا شك أن بليك أقرب إلى الحقيقة، ولكن من يستطيع ألا يحس بنوع من المتعة في رؤية ذلك الخداع والرقة الأنثوية التي تنفجر مرة واحدة؟ سويفت يزيف صورته عن العالم برفضه رؤية أي شيء في الحياة الإنسانية سوى القذارة والحماقة والشر، لكن الجزء الذي يزيله ويفصله عن الكل موجود، وهو شيء نعرف عنه كلنا بالرغم من إحجامنا عن ذكره. جزء من عقولنا - في الشخص السوي هو الجزء المهيمن - يعتقد أن الإنسان حيوان نبيل وأن الحياة جديرة بالعيش: لكن هناك أيضاً نوعاً من النفس الداخلية التي تقف مشدوهة على الأقل من رعب الوجود. في أغرب طريقة تترابط المتعة والاشمئزاز معاً. الجسد البشري جميل ولكنه منفر ومضحك أيضاً، وهذه حقيقة يمكن إثباتها في أية بركة للسباحة. الأعضاء الجنسية مواضيع شهوة وبغض أيضاً إلى حد كبير، لذلك تستخدم أسماؤها في لغات كثيرة إن لم يكن في كلها ككلمات سباب. اللحم لذيذ، لكن محل الجزار يجعل المرء يشعر بالقرف، وكل طعامنا في الحقيقة ينشأ أساساً من الروث والأجساد الميتة، الشيئان الاثنان من كل الأشياء الأخرى الأشد فظاعة بالنسبة إلينا. الطفل بعد أن يجتاز المرحلة الطفولية ويظل ينظر إلى العالم بعينين جديدتين يحركه الرعب بقدر ما يحركه التعجب - الرعب من المخاط والبصاق ومن براز الكلاب على الرصيف والضفدع الميت المملوء باليرقات ورائحة العرق الكريهة للكبار، وبشاعة الرجال الكبار في السن برؤوسهم الصلعاء وأنوفهم المنتفخة البصلية. في عزفه اللانهائي على المرض والقذارة والتشوه، لا يبتدع سويفت أي شي في الواقع وإنما يحذف شيئاً

ما فقط. سلوك إنساني، أيضاً، خصوصاً في السياسة كما يصفه هو، رغم احتوائه على عوامل أخرى أكثر أهمية يرفض الاعتراف بها. بقدر ما نستطيع أن نرى الرعب والألم كلاهما ضروريان لاستمرار الحياة على هذا الكوكب، ولذلك مباح للمتشائمين مثل سويفت أن يقول:"إن كان يجب على الرعب والألم أن يكونا معنا دائماً، فكيف يمكن للحياة أن تتحسن بشكل هام؟" إن موقفه متأثر بالموقف المسيحي ناقص الرشوة بـ"العالم الآخر" - الذي على الأرجح له سيطرة على عقول المؤمنين أقل من الاقتناع بأن العالم وادٍ من الدموع وأن القبر مكان للراحة. أنا متأكد بأنه موقف خاطئ، وواحد يمكن أن يكون له تأثيرات ضارة على سلوكنا،؛ لكن شيئاً فينا يستجيب له، كما يستجيب إلى الكلمات الكئيبة في مراسم الدفن والرائحة الحلوة للجثث في كنيسة ريفية.

لقد أثبت مراراً الناس الذين يعترفون بأهمية الموضوع الأساسي على الأقل، أن الكتاب لا يمكن أن يكون"جيداً" إن عبر عن وجهة نظر حياتية زائفة بشكل صريح، وأُخبرنا في عصرنا مثلاً أن أي كتاب له قيمة أدبية أصيلة سيكون "تقدمياً" في نزعته. هذا يتجاهل حقيقة وجود صراع مماثل محتدم بين التقدم والرجعية عبر التاريخ، وأن أفضل الكتب في أي عصر كتبت دائماً من وجهات نظر مختلفة كثيرة قد تكون إحداها أكثر زيفاً من الأخريات. بقدر ما يكون الكاتب داعية ومروجاً، يكثر سؤال المرء عنه إن كان يؤمن بصدق فيما يقوله وأن قوله ليس شيئاً سخيفاً متوهجاً. في العصر الحالي مثلاً، يمكن للمرء أن يتصور كتاباً جيداً كتبه كاثوليكي أو شيوعي أو فاشي أو سلمي أو فوضوي وربما ليبرالي تقليدي أو محافظ عادي، وفي المقابل لا يستطيع المرء أن يتصور كتاباً جيداً كتبه مستحضر أرواح أو واحد من البوشمان أو عضو في الكوكلكسكلان. وجهات النظر التي يعتنقها الكاتب يجب أن تكون منسجمة مع سلامة العقل بالمعنى الطبي ومع القدرة على التفكير المتواصل: أبعد من ذلك نطلب منه الموهبة التي ربما تكون اسماً آخر للاقتناع. لم يمتلك سويفت الحكمة العادية، لكنه امتلك كثافة رهيبة من الرؤية، قادرة على انتقاء حقيقة مخفية منفردة ثم تضخيمها وتشويهها. تحملية رحلات غاليفار واستمراره، تثبت أن النظرة إلى العالم التي تنجح في اختبار السلامة العقلية كافية لإنتاج عمل فني عظيم، إذا كانت قوة الإيمان وراءها.

الشعر والميكروفون

منذ سنة تقريباً انشغلت وآخرون في بث برامج أدبية إلى الهند، ومن بين الأشياء الأخرى التي بثثناها، كمية جيدة من الشعر لكتاب إنكليز معاصرين وشبه ومعاصرين، من أمثال إيليوت وهربرت ريد وأودين وسبندر وديلان توماس وهنري تريسي وأليكس كومفورت وروبرت بريدجز وإيدموند بلندين ودي إتش لورانس. كلما توفر لنا الوقت، كنا نبث قصيدة للشخص الذي كتبها. لماذا أُنشأت هذه البرامج الخاصة (الحركة الثقافية الصغيرة والنائية في الحرب الإذاعية) ليس هناك حاجة لتفسيره هنا، لكن يجب أن أضيف حقيقة أننا كنا نبث لجمهور هندي أملى علينا تقنيتنا إلى حد ما. النقطة الجوهرية أن بثنا الأدبي استهدف طلاب الجامعة الهنود، وهم جمهور صغير وعدائي ولا يقترب من أي شيء يمكن وصفه دعاية بريطانية. كان معروفاً مسبقاً بأننا لا نستطيع أن نأمل بأكثر من بضعة آلاف من المستمعين في أحسن الأحوال، وهذا يعطينا العذر لنكون بمستوى "ثقافي رفيع" أعلى مما هو ممكن على الهواء عموماً.

إن كنت تبث شعراً لأناس يعرفون لغتك لكنهم لا يشاركونك الخلفية الثقافية نفسها، فلا مفر لك من مقدار محدد من التعليق والشرح. وكانت الصيغة التي اتبعناها عادة، أن نبث ما يُفهم بأنه مجلة أدبية شهرية. كان أعضاء هيئة التحرير يجلسون في مكاتبهم كما يُفترض، يناقشون ما سيضعونه في العدد القادم. يقترح أحدهم قصيدة، ويقترح آخر قصيدة أخرى، ويدور هناك نقاش مقتضب، ثم تأتي القصيدة نفسها لتقرأ بأصوات مختلفة ويُفضل من قبل مؤلفها. هذه القصيدة تستدعي قصيدة أخرى بشكل طبيعي، وهكذا يتواصل البرنامج مع نصف دقيقة من النقاش بين أي مادتين عادة. بدا أن ستة أصوات لبرنامج مدته نصف ساعة هو العدد الأمثل. إن برنامج من هذا النوع كان بلا شكل نوعاً ما بالضرورة، لكن يمكن أن يُعطى مظهراً محدداً من الوحدة والانسجام بجعله يدور حول موضوع مركزي واحد. فمثلاً كُرّس عدد واحد من مجلتنا التخيلية لموضوع الحرب، وشمل قصيدتين للشاعر إيدوموند بلندين وقصيدة أودين "سبتمبر/ أيلول ١٩٤١" ومقتطفات من قصيدة طويلة للشاعر جي

إس فريزر "رسالة إلى آني ريدلر" وقصيدة بايرون "جزر الإغريق" ومقتطف من تي أي لورانس "ثورة في الصحراء". هذه المواد الست مع الحجج التي سبقتها وتلتها، غطت بشكل معقول المواقف المحتملة من الحرب. استغرقت القصائد ومقتطفات النثر حوالي عشرين دقيقة من البث، واستغرقت الحجج حوالي ثماني دقائق.

قد تبدو هذه الصيغة سخيفة ومهينة، لكن حسنتها أن عنصر التعليم المحض، موضوع الكتاب المدرسي الرئيسي، الذي يتعذر تجنبه إن كان المرء سيبث شعراً جاداً و"صعباً" أحياناً، يصبح أقل تنفيراً حين يظهر كنقاش غير رسمي. يستطيع هؤلاء المتكلمون المتنوعون الستة ظاهرياً أن يقولوا لبعضهم البعض ما يقولونه للجمهور في الحقيقة، وهذه المقاربة تعطي أيضاً سياقاً للقصيدة يفتقر إليه الشعر من وجهة نظر الرجل العادي. لكن هناك أساليب أخرى طبعاً. إحدى الطرق التي استخدمناها، أننا كنا نضع القصيدة في موسيقى، ونعلن أننا سنبث القصيدة الفلانية بعد بضع دقائق، ثم تُشغل الموسيقى لمدة دقيقة واحدة، ثم تتلاشى في القصيدة المختارة التي تلي الموسيقى، دون ذكر عنوانها أو ملاحظة حولها، ثم تخبو الموسيقى ثانية، وتشغل لدقيقة أخرى أو اثنتين - يستغرق الأمر برمته خمس دقائق. من الضروري اختيار الموسيقى المناسبة، لكن لا ضرورة للقول إن الغرض الحقيقي من الموسيقى هو عزل القصيدة عن بقية البرنامج. وبهذه الطريقة يمكنك تقديم قصيدة (سونيتا) لشكسبير مثلاً ضمن ثلاث دقائق من نشرة إخبارية من دون تنافر فاضح بالنسبة لمسمعي على الأقل.

هذه البرامج التي أتكلم عنها، ليس لها قيمة كبيرة بحد ذاتها، لكنني ذكرتها بسبب الأفكار التي تثيرها في نفسي وفي بعض النفوس الأخرى، حول إمكانيات الراديو كوسيلة لتبسيط الشعر وجعله مفهوماً على صعيد جماهيري. لقد فوجئت مبكراً بحقيقة أن بث قصيدة بواسطة الشخص الذي كتبها لا يؤثر على جمهور المستمعين فقط، وإنما على الشاعر نفسه أيضاً. يجب على المرء أن يتذكر أن ما تم فعله في طريقة بث الشعر في إنكلترا قليل جداً، وأن كثيراً من الناس الذين يكتبون الشعر لم يفكروا أبداً في قراءته بشكل جهري. إن وضع الشاعر أمام ميكرفون وخصوصاً إن حدث ذلك بشكل منتظم ومتكرر، فإنه يُجلبه إلى علاقة جديدة مع عمله الأدبي لم تكن ممكنة إلا في زمننا وبلادنا. من العادي في الأزمنة الحديثة - في المائتي سنة الأخيرة مثلاً - أن يصل الشعر إلى علاقة أقل وأقل بالموسيقى والكلمة المحكية. إنه بحاجة

للطبع لكي يبقى بأي شكل. لم يعد متوقعاً من الشاعر أن يعرف كيف يغني أو حتى كيف يلقي قصيدته أكثر مما هو متوقع من المهندس المعماري كيف يجصص سقفاً. توقفت كتابة الشعر الغنائي والبياني تقريباً، وأصبح العداء للشعر مسلما به من جانب الإنسان العادي في أي بلاد يستطيع كل من فيها القراءة. وحيثما وجد هذا الصدع، فإنه يميل إلى الاتساع دائماً، بسبب مفهوم الشعر على أنه شيء مطبوع أولاً وشيء لا تفهمه إلا الأقلية ويشجع على الغموض و"الذكاء". كم عدد الناس الذين لا يشعرون بشكل شبه غريزي بوجود مشكلة في أية قصيدة لا يفهم معناها من نظرة واحدة؟ من غير المحتمل كما يبدو أن تتوقف هذه الميول، إذا لم تصبح قراءة الشعر جهراً أمراً عادياً مرة أخرى، ويصعب أن نرى كيف يمكن إحداث هذا إلا من خلال الراديو كوسيط. لكن ينبغي ملاحظة الفائدة المميزة للراديو هنا، المتمثلة في قوته في انتقاء جمهور المستمعين الصحيح، والتخلص من رهبة خشبة المسرح وإرباكها.

إن جمهورك افتراضي في البث الإذاعي، لكنه جمهور الشخص الواحد. ربما يستمع الملايين للبث، لكن كل واحد منهم يصغي لوحده أو كفرد من جماعة صغيرة، ولدى كل واحد منهم (أو يجب ذلك) الشعور بأنك تتكلم إليه على انفراد. الأكثر من هذا، من المعقول أن تفترض أن جمهورك متعاطف أو مهتم على الأقل، لأن أي واحد يضجر يستطيع إطفاءك فوراً بتدوير مقبض. لكن ليس لهؤلاء المستمعين أية سلطة عليك رغم التسليم بتعاطفهم معك. وهنا تماماً يختلف البث الإذاعي عن الخطبة أو المحاضرة. على المنبر، كما يعرف كل من اعتاد على مخاطبة الجمهور، من المستحيل تقريباً ألا تأخذ نغمتك ونبرتك من الحضور، ويتضح دائماً في غضون بضع دقائق ما يستجيبون له وما لا يستجيبون له. وعملياً أنت مجبر تقريباً للتكلم لمصلحة من تعتبره أغبى شخص حاضر، وتداهن نفسك بواسطة الضجيج المعروف بـ "الشخصية". إن لم تفعل هكذا، تكون النتيجة دائماً جواً من الارتباك الفاتر؛ فهناك دائماً بعض من المستمعين الذين يصيبهم الضجر أو المعادين علناً الذين لا يستطيعون إزاحة أنفسهم بمجرد تدوير مقبض، وهي نفس الصعوبة أساساً في المسرح - حيث لا يمكن انتقاء الحضور - التي تجعل الحصول على عرض مسرحي محترم لشكسبير في إنكلترا أمراً مستحيلاً. على الهواء لا توجد هكذا أشياء. يشعر الشاعر بأنه يخاطب أناساً يعني لهم الشعر شيئاً، وحقيقة أن الشعراء الذين

اعتادوا على البث الإذاعي يستطيعون القراءة في الميكرفون ببراعة لا يرتقون إلى مستواها أمام مستمعين مرئيين قبالتهم. العنصر التخيلي الذي يدخل هنا لا يهم كثيراً. المهم أنه بتلك الطريقة الوحيدة الممكنة الآن، يتم إحضار الشاعر إلى وضع تبدو فيه قراءة الشعر جهراً شيئاً طبيعياً غير مربك، وتبادل عادي بين إنسان وآخر: هذا أيضاً يقوده إلى التفكير في عمله كشيء صحيح وتام، بدلاً من النظر إليه كأنموذج على الورق. وبهذا القدر الكبير تصبح المصالحة بين الشعر والإنسان العادي أقرب، وهي موجودة مسبقاً في نهاية جانب موجات الأثير التي يقف عندها الشاعر، أياً كان الذي يحدث على النهاية الأخرى.

لكن لا يمكن تجاهل ما يحدث في النهاية الأخرى والاستخفاف به. سيُنظر إليّ بأنني أتكلم كما لو كان موضوع الشعر كله مربكاً وبذيئاً تقريباً، وكما لو كان تبسيط الشعر ونشره جماهيرياً مناورة استراتيجية أساساً، مثل تمرير جرعة دواء في حلق طفل أو توطيد تسامح أقلية مضطهدة. لكن لسوء الحظ تلك هي الحالة أو ما يشبهها. ليس هناك أي شك بأن الشعر يقابل بشك وعدم تصديق أكثر من غيره من الفنون في حضارتنا، والفن الوحيد في الحقيقة الذي لا يرى الرجل العادي فيه أية قيمة. لم يبالغ أرنولد بينيت حين قال في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية كلمة شعر تشتت جمهوراً أسرع مما يفعله خرطوم إطفاء. وكما أشرت أن شرخ من هذا النوع يميل إلى التوسع لمجرد وجوده، فعداء الرجل العادي للشعر يزداد أكثر فأكثر، ويبدو الشاعر متغطرساً وغير مفهوم أكثر فأكثر، إلى أن يتم القبول بالطلاق بين الشعر والثقافة الشعبية كقانون من قوانين الطبيعة، لكنه في الحقيقة لا ينتمي إلا إلى زمننا الخاص بنا وإلى منطقة صغيرة نسبياً من الكرة الأرضية. نحن نعيش في عصر فيه الكائن البشري العادي في البلدان المتحضرة جداً أدنى جمالياً من أحط همجي. يُنظر إلى هذه الحالة من العلاقة على أنها عصية على العلاج بواسطة أي فعل واعٍ، ومن جانب آخر يُتوقع أن تصحح نفسها بنفسها طوعاً حالما يأخذ المجتمع شكلاً أنسب. باختلافات طفيفة، سيخبرك كل من الماركسي والفوضوي والمتدين وبعبارات فضفاضة، بأن هذا صحيح في بلا أدنى شك. القبح الذي نعيش في غماره له أسبابه الروحية والاقتصادية، ولا يجوز تفسيره بمجرد الانحراف عن العرف والتقاليد في موضع ما أو آخر. لكن هذا لا يعني أن التحسن ليس ممكناً ضمن هيكليتنا الحالية، ولا أن التحسن الجمالي ليس قسماً ضرورياً من الخلاص العام للمجتمع.

لذلك يجدر بنا التوقف للتساؤل إن كان بالإمكان حتى الآن إنقاذ الشعر من وضعه الخاص كأكثر فن من بين الفنون كرهاً، وأن نكسب له على الأقل نفس درجة التسامح الموجودة لدى الموسيقى. ولكن يجب على المرء أن يبدأ في السؤال بأية طريقة الشعر غير شعبي ومكروه وإلى أية درجة؟

في ظاهر الأمر، تبدو لاشعبية الشعر كما لو كانت تامة، لكن عند إعادة النظر يجب أن يُقيم الوضع بطريقة مميزة نوعاً ما. بداية لا يزال هناك مقدار كبير من الشعر الشعبي (قصائد بيوت الحضانة..إلخ) المعروفة والمقتبسة عموماً التي تشكل قسماً من خلفية ذهن كل واحد، وهناك حفنة من الأغاني العتيقة والأغاني الشعبية التي لم تفقد شعبيتها أبداً أيضاً، بالإضافة إلى ذلك هناك شعبية أو على الأقل تسامح مع الشعر "رديء الجيد" من النوع الوطني أو الوجداني عموماً. هذا يبدو غير متصل بالموضوع لو لم يكن للشعر "رديء الجيد" كل الصفات التي ظاهرياً تجعل الرجل العادي يكره الشعر الحقيقي. إنه شعر منظوم ومقفى ويقدم عواطف نبيلة ولغة غير عادية بدرجة ملحوظة. لهذا من البديهي تقريباً أن يكون الشعر الرديء أكثر "شاعرية" من الشعر الجيد، وهو حتى لو لم محبوباً بشدة، فإنه محتمل على الأقل. فمثلاً قبل أن أكتب هذا المقال كنت أستمع إلى اثنين من كوميديي البي بي سي يقومان بدورهما العادي قبل أخبار التاسعة. في الدقائق الثلاث الأخيرة أعلن أحدهما فجأة أنه "يريد أن يكون جاداً للحظة واحدة" واستمر في إلقاء قطعة من الهراء الوطني بعنوان "سيد إنكليزي عجوز حساس" تمجيداً لجلالة الملك. الآن ما هو رد فعل المستمعين على هذا الارتداد الفجائي إلى أسوأ نوع من الشعر الملحمي المقفى؟ لا يمكن أن يكون سلبياً بشكل صارخ جداً، أو سيكون هناك مجلد من الرسائل الناقمة التي تطالب البي بي سي بوقف عمل هذا النوع من الشيء. يجب على المرء أن يستنتج أن الجمهور الكبير ليس معادياً بقوة للكلام المنظوم رغم عدائه للشعر. أخيراً لو كُرهت القافية والوزن لنفسيهما، فلن تكون للأغاني أو القصائد الفكاهية القذرة أية شعبية. الشعر مكروه لأنه مترافق مع عدم الوضوح والتباهي الثقافي وشعور عام بأنه عطلة في يوم عمل. اسمه يخلق سلفاً نفس الانطباع السيئ لكلمة "الرب" أو قلادة كلب الخوري. إلى حد ما فإن تبسيط الشعر وجعله شعبياً مسألة تفكيك كبح مكتسب ومسألة جعل الناس يصغون بدلاً من النفور الآلي برفض آلي. لو أُمكننا تقديم الشعر الحقيقي

للجمهور الكبير بطريقة يبدو فيها عادياً، كقطعة الهراء التي سمعتها للتو التي بدت عادية كما يفترض، فسيُقهر قسم من التحامل ضده.

من الصعب التصديق بأن الشعر يستطيع دائماً أن يكون شعبوياً وجماهيرياً ثانية من دون محاولة مدروسة لتثقيف الذوق الشعبي، تتضمن استراتيجية وذريعة حتى. اقترح تي إس إيليوت مرة أن الشعر وخصوصاً الشعر المسرحي يمكن إعادته إلى وعي الناس العاديين من خلال صالات الموسيقى؛ وكان بوسعه أن يضيف التمثيل والمسرح الإيمائي الذي لم تستكشف إمكانياته الواسعة تماماً على ما يبدو. ربما كُتبت "سويني أغونيستس" وفي الذهن مثل هذه الفكرة، وسيمكن تخيلها في الواقع مثل وظيفة صالة الموسيقي، أو على الأقل مشهداً في عرض مسرحي منوع. لقد اقترحت الراديو كوسيط مشجع أكثر، وأشرت إلى حسناته التقنية من وجهة نظر الشاعر. السبب الذي يبدو فيه مثل هذا الاقتراح متعذراً حين سماعه لأول مرة، هو أن قلة من الناس قادرة على تخيل استخدام الراديو لبث أي شيء غير التوافه. يصغي الناس إلى المادة التي تقطر فعلياً من مكبرات صوت العالم، ويستنتجون أن الراديو لهذا الغرض، وليس لسبب آخر. في الحقيقة كلمة "لاسلكي" تستدعي صورة، إما لحكام مستبدين يهدرون، أو أصوات حلقية لطيفة تعلن أن ثلاث من طائراتنا فشلت في العودة. إن الشعر مثل (الميوزات – ربات الشعر الإغريقية) بسراويل مخططة. لكن رغم ذلك ينبغي ألا نخلط بين قدرات الآلة مع الفائدة التي وضعت من أجلها. البث في حالته هذه، ليس بسبب وجود شيء مبتذل موروث وسخيف ومضلل في جهاز الميكرفون وجهاز الإرسال، وإنما لأن البث الذي يحدث في كل أرجاء العالم الآن يخضع لسيطرة الحكومات أو الشركات الاحتكارية الكبرى المهتمة بصورة فاعلة في الحفاظ على الوضع القائم، وبالتالي منع الشخص العادي من أن يصبح ذكياً جداً. إن شيئاً من نفس النوع يحدث للسينما التي ظهرت لأول مرة كالراديو أثناء المرحلة الاحتكارية للرأسمالية، وتشغيلها مكلف بشكل خيالي. ونجد نفس النزعة في شتى أنواع الفنون. إن قنوات الإنتاج تحت سيطرة البيروقراطيين المتزايدة، الهادفين إلى تدمير الفنان وإخصائه على الأقل. هذه نظرة كئيبة إن لم تُخفف الاستبداد الجاري الآن والذي يجب أن يستمر بلا شك في كل بلدان العالم بعملية أخرى، ليس من السهل التنبؤ بها ولو لمدة قصيرة من خمس سنوات.

أي أن تلك الآلات البيروقراطية الهائلة التي نحن جزء منها، بدأت تعمل وتصدر صريراً بسبب حجمها ونموها المطرد. إن النزعة في الدولة الحديثة تمسح حرية العقل، ولكن بنفس الوقت كل دولة خصوصاً تحت ضغط الحرب، تجد نفسها بحاجة متزايدة إلى طبقة مثقفة تقوم بدور دعائي وترويجي لها. تحتاج الدولة الحديثة مثلاً إلى كتاب الكراريس وفناني الملصقات وإلى مصورين ومذيعين ومحاضرين ومنتجي أفلام وممثلين وملحني أغاني ورسامين ونحاتين عداك عن علماء النفس والاجتماع والكيمياء الحيوية والرياضيات وغيرها. بدأت الحكومة البريطانية الحرب الحالية بقصد صريح وعلني في إبعاد الطبقة المثقفة الأدبية عنها؛ لكنها بعد ثلاث سنوات من الحرب امتصت كل كاتب مهما كان تاريخه السياسي وآراؤه غير المرغوبة في وزاراتها المتعددة أو في البي بي سي، وحتى الذين دخلوا القوات المسلحة، يحتمل لهم أن يجدوا أنفسهم بعد مدة قصيرة في العلاقات العامة أو في وظيفة أدبية أساساً أخرى. لقد امتصت الحكومة كل هؤلاء الناس بلا رغبة كافية، لأنها وجدت نفسها عاجزة عن التقدم بدونهم. كان الهدف، من وجهة النظر الرسمية، وضع كل الدعاية والترويج في أيد "أمينة" مثل ا.ب. هربرت أو إيان هاي: لكن لعدم توفر ما يكفي من أمثالها، اضطرت إلى الانتفاع من الإنتلجنسيا الموجودة، وجرى تعديل نغمة الدعاية الرسمية ومضمونها إلى حد ما وفقاً لذلك.

لم يتخيل كل من اعتاد على كراريس الحكومة ومحاضرات المكتب العسكري للقضايا الراهنة والأفلام الوثائقية والنشرات الإذاعية الموجهة للبلدان المحتلة التي صدرت أثناء السنتين الماضيتين، أن حكامنا سيرعون هذا النوع من الشيء لو كان بإمكانهم تجنب ذلك. لكن كلما كبرت آلة الحكومة، زادت النهايات الرخوة والزوايا المنسية الموجودة فيها. هذا عزاء صغير ربما، لكنه ليس خسيساً، وهذا يعني أن الاستبداد البيروقراطي لا يمكن أن يكتمل أبداً في البلدان التي توجد فيها تقاليد ليبرالية قوية مسبقاً. سوف يسود أصحاب السراويل المخططة، لكن طالما هم مجبرون على الحفاظ على إنتلجنسيا، فستمتلك الإنتلجنسيا مقداراً محدداً من الاستقلال الذاتي. إن احتاجت الحكومات إلى أفلام وثائقية مثلاً، يجب أن توظف أشخاصاً مهتمين بشكل خاص في تقنية السينما، ويجب أن تسمح لهم بالحد الأدنى الضروري من الحرية، وبالتالي ستمتلك الأفلام التي كلها خطأ من وجهة

النظر البيروقراطية نزعة للظهور دائماً، وكذلك الأمر مع الرسم والتصوير وكتابة النص والتحقيق الصحفي والمحاضرات، وكل أنواع الفنون الأخرى وأشباه الفنون، التي تحتاجها الدولة الحديثة المعقدة.

تطبيق هذا على المذياع واضح. في الوقت الحاضر مكبر الصوت هو عدو الكاتب الإبداعي، لكن هذا قد لا يبقى بالضرورة صحيحاً حين تزداد جهورية الصوت ومجال البث.على الرغم من أن البي بي سي تنفذ برنامجاً إذاعياً واهناً مهتماً بالشعر المعاصر، إلا أن انتزاع خمس دقائق على الهواء مباشرة لبث قصيدة، أصعب من اثنتي عشرة ساعة تنشر فيها دعاية كاذبة وموسيقى معلبة ودعابات مبتذلة ونقاشات زائفة. لكن الأوضاع الحالية قد تتبدل في الطريقة التي نوهت بها، وإلى أن يأتي ذلك الوقت، ستصبح التجربة الجدية لبث الشعر والتجاهل التام للمؤثرات المعادية المتنوعة التي تمنع مثل هذا الشيء في الوقت الحاضر، ممكنة. أنا لا أدعي أنني متأكد من أن مثل تلك التجربة ستكون لها نتائج عظيمة. لقد خضع المذياع للبيروقراطية مبكراً جداً في سيرته، لذلك لم تؤخذ العلاقة بين البث الإذاعي والأدب في الاعتبار أبداً. ليس من المؤكد أن الميكرفون هو الأداة التي يمكن بواسطتها إرجاع الشعر إلى الناس العاديين، وليس مؤكداً أيضاً أن الشعر سيكسب حين يكون شيئاً محكياً أكثر من كونه مكتوباً، لكنني أحض على بقاء هذه الإمكانيات، وأن يدير الناس المهتمون بالأدب أذهانهم مرات أكثر إلى هذا الوسيط المحتقر كثيراً الذي ربما أخفت أصوات كل من البروفيسور جود والدكتور غويلز قدراته الخيرة.

حرية المنتزه

قبل بضعة أسابيع ألقى رجال الشرطة القبض على خمسة أشخاص كانوا يبيعون الجرائد خارج هايد بارك بتهمة العرقلة. حين أخذوا إلى القضاة، وجدوا أنهم مذنبين كلهم، وألزموا أربعة منهم بعدم البيع في المكان لستة أشهر، وحكموا على الآخر بغرامة مقدارها أربعين شلناً أو سجن شهر، ففضل أن يؤدي مدة حكمه.

كانت الجرائد التي يبيعها هؤلاء الأشخاص هي بيس نيوز وفوروورد وفريدوم بالإضافة إلى كتب أدبية أخرى من نفس العائلة. بيس نيوز هي لسان اتحاد عهد السلام، أما فريدوم (حتى حديثاً كانت تدعى مسجل أحداث الحرب) فكانت للفوضويين، وبالنسبة إلى فوروورد، فإن سياستها تتحدى التعريف، لكنها بأي مقياس يسارية عنيفة. القاضي، في تمرير العقوبة، أوضح أنه لم يتأثر بطبيعة الأدب الذي كان يباع؛ وإنما كان مهتماً بواقعة العرقلة فقط، وتلك الجريمة ارتكبت تقنياً.

هذا يثير نقاطاً هامة. بداية، ما هو موقف القانون من الموضوع؟ بقدر ما أستطيع اكتشافه، إن بيع الجرائد في الشوارع عرقلة تقنياً، لكن على أي حال لو فشلت في التحرك حين يأمرك رجال الشرطة بذلك سيكون من القانوني لأي رجل شرطة أن يعتقل أي بائع صحف لبيعه إيفنينغ نيوز. من الواضح أن هذا لم يحدث، لذلك فرض القانون بالقوة، يعتمد على حصافة وتقدير الشرطة.

وما هو الشيء الذي يجعل الشرطة تعتقل رجلاً دون غيره؟ مهما يكن الأمر مع القاضي، وجدت من الصعب الاعتقاد أن الشرطة في هذه الحالة لم تتأثر بأي اعتبارات سياسية. إنه أكثر من مصادفة بحتة أن تتنمر الشرطة على أشخاص يبيعون تلك الصحف فقط. لو أنهم اعتقلوا أحداً يبيع تروث أو ذا تيبليت أو سبيكتاتور أو حتى تشيرتش تايمز، لكان الاعتقاد في نزاهتهم أسهل.

الشرطة البريطانية ليست مثل الجندرمة أو الجيستابو، لكن لا أظن [مقتبسة] أن المرء يقدحهم بقول ذلك، في الماضي، كانوا ولا يزالون عدائيين لنشاطات الجناح اليساري،

وأظهروا عموماً ميلاً إلى الانحياز مع هؤلاء الذين اعتبروهم المدافعين عن الملكية الخاصة. إلى وقت حديث وكلمات "أحمر" و"غير قانوني" مترادفتين تقريباً، وكان بائع الديلي وركر دائماً مثلاً وليس بائع ديلي تلغراف مثلاً، هو الذي يُجبر على الانتقال والابتعاد ويتعرض للمضايقة عادة. من الواضح أن الأمر يمكن أن يكون نفسه تقريباً، في أي لحظة، تحت حكومة العمال.

شيء أريد أن أعرفه - شيء نسمع عنه القليل جداً - وهو ما هي التغيرات التي حدثت في الهيئة الإدارية حين يكون هناك تغيير في الحكومة؟ هل يستمر ضابط الشرطة الذي لديه فكرة غامضة عن "الاشتراكية" بأنها تعني شيئاً ضد القانون، بنفس الطريقة حين تكون الحكومة نفسها اشتراكية؟

حين تتولى السلطة حكومة عمالية، أتساءل ماذا يحدث لاسكوتلانديارد والفرع الخاص؟ للمخابرات العسكرية؟ لم يخبرنا أحد بذلك، لكن علامات وأعراض كالتي هناك، لا توحي بأي لخبطة واسعة جارية.

على كل حال، النقطة الأساسية في هذا الحدث المترابط، أن بائعي الصحف والكتيبات يجب ألا يعاقبوا أبداً. أية أقلية خاصة عُزلت - إن كانت من السلميين أو الشيوعيين أو الفوضويين أو شهود يهوه لفيلق المصلحين المسيحيين الذي صرح مؤخراً بأن هتلر هو يسوع المسيح - هي مسألة ثانوية. من الأهمية العرضية كان يجب اعتقال هؤلاء الناس فوراً. لا يسمح لك ببيع أعمال أدبية داخل هايد بارك، لكن منذ سنوات كثيرة من المعتاد لباعة الصحف أن يتمركزوا خارج البوابات ويوزعوا الأعمال الأدبية المتعلقة بالاجتماعات التي تعقد خارج البيوت على بعد مئات الياردات. لقد بيعت كل أنواع المنشورات هناك من دون أي تدخل.

يُبالغ دائماً بدرجة حرية الصحافة القائمة في هذه البلاد. تقنياً هناك حرية كبيرة، لكن الحقيقة أن القسم الأكبر من الصحافة الذي تملكه قلة قليلة من الناس، يشتغل إلى حد كبير بنفس طريقة رقابة الدولة. من جانب آخر، حرية الكلام حقيقية. على المنبر، أو في فراغات خارج البيوت محددة معترف بها مثل هايد بارك، يمكنك أن تقول أي شيء تقريباً، والأهم ربما، لا أحد يخشى من التعبير عن آرائه الحقيقية في الحانات وعلى قمم الحافلات وهلم جرا.

المغزى أن الحرية النسبية التي نتمتع بها تعتمد على الرأي العام. القانون ليس حصانة. الحكومات تصنع القوانين، لكن هل تنفذ أم لا وكيف تتصرف الشرطة، فذلك يعتمد على المزاج العام في البلاد. إذا اهتمت أعداد كبيرة من الناس في حرية الكلام، ستكون هناك حرية الكلام، حتى لو كان القانون يحظرها؛ إن كان الرأي العام بليداً، تُضطهد الأقليات المزعجة، حتى لو وجدت قوانين لحمايتها. الانحدار في الرغبة في الحرية الفردية لم يكن حاداً جداً كما تنبأت قبل ست سنوات، حين ابتدأت الحرب، لكن لازال هناك انحدار. الفكرة أن آراء محددة لا تحظى بفرصة الاستماع إليها تتزايد. عملة معطاة من قبل المثقفين الذين يخلطون القضية في عدم التمييز بين المعارضة الديمقراطية والعصيان المفتوح، وهذا ينعكس في لامبالاتنا المتنامية في الاستبداد والظلم في خارج البلاد. وحتى هؤلاء الذين يعلنون بأنهم يؤيدون حرية الرأي عموماً، يسقطون زعمهم حين يكون خصومهم الشخصيون هم من يعاني الاضطهاد.

أنا لا أوحي بأن اعتقال خمسة أشخاص بسبب بيعهم لصحف غير مؤذية كارثة رئيسية. حين ننظر إلى ما يحدث في العالم اليوم، لا يبدو حدث صغير جداً كهذا يستحق الصراخ. لكن، ليس عرضاً جيداً أن تحدث أشياء كهذه حين تنتهي الحرب تماماً، وسأشعر بسعادة أكبر لو أن هذه السلسلة الطويلة من الأحداث المتماثلة التي سبقتها، كانت قادرة على إثارة صخب شعبي صادق، وليس مجرد رفرفة لطيفة في أقسام صحافة الأقلية.

أفكار وخواطر حول غاندي

يجب الحكم على القديسين بالجرم دائماً حتى تثبت براءتهم، لكن المعايير التي يجب تطبيقها عليهم ليست واحدة طبعاً في كل الحالات. في حالة غاندي، فإن السؤال الذي يشعر المرء بالميل إلى طرحه: إلى أية درجة كان غاندي متأثراً بالغرور - بالشعور بنفسه كعجوز متواضع عار، يجلس على حصيرة الصلاة ويهز إمبراطوريات بقوته الروحية فقط - وإلى أي مدى وفق بين مبادئه الخاصة بإدخالها في السياسة، التي لا تنفصل عن القسر والخداع بطبيعتها؟ لإعطاء جواب محدد، على المرء أن يدرس أعمال غاندي وكتاباته بتفصيل كبير، لأن حياته كلها كانت نوعاً من رحلة حج، كل فعل فيها مهم وذو مغزى. لكن هذه السيرة الذاتية الجزئية التي انتهت في عشرينيات القرن العشرين، دليل قوي لصالحه، لأنها قبل كل شيء تغطي ما كان عليه أن يسميه القسم الضال في حياته، ويذّكر المرء أن في داخل القديس أو شبه القديس شخصاً داهية كبيراً وبارعاً، كان بمقدوره لو أنه اختار أن يحقق نجاحاً متألقاً كمحامٍ أو رجل إدارة أو حتى رجل أعمال.

في الوقت الذي ظهرت فيه سيرته الذاتية، أتذكر أنني قرأت فصولها الافتتاحية في صفحات سيئة الطباعة في بعض الصحف الهندية، وقد تركت انطباعاً جيداً علي، لم يتركه غاندي نفسه آنذاك. كانت الأشياء التي ترافقت معه - الثوب المصنوع محلياً، "القوى الروحية" والنباتية - غير جذابة، وبرنامجه القروسطي كان واضحاً أنه غير قابل للتطبيق في بلاد متخلفة وجائعة ومكتظة بفيض من السكان. كان من الواضح أن البريطانيين كانوا يستغلونه أو ظنوا بأنهم يستغلونه. للتكلم بدقة، كشخص قومي، كان عدواً، لكن بما أنه كان يحض نفسه على منع العنف في كل أزمة - وهذا من وجهة النظر البريطانية يعني منع أي عمل مؤثر أياً كان نوعه - فقد كان يعتبر "رجلنا" وجرى سراً الاعتراف بذلك بشكل ساخر، وكان لأصحاب المليارات الهنود نفس الموقف أيضاً الذين دعاهم غاندي إلى التوبة، وفضلوه طبعاً على الاشتراكيين والشيوعيين الذين لو توفرت الفرصة لهم لأخذوا منهم أموالهم. إلى أي

مدى يمكن التعويل على مثل هذه الحسابات على المدى الطويل، أمر مشكوك فيه؛ لأن غاندي نفسه قال "في النهاية يخدع الخداعون أنفسهم فقط"؛ لكن على كل الأحوال، فإن الرقة واللين اللتين عومل بهما تعودان جزئياً إلى الشعور بأنه كان مفيداً. لم يغضب المحافظون البريطانيون منه، إلا حين حول لاعنفه ضد محتل مختلف كما في عام ١٩٤٢.

لكنني رأيت أنه حتى المسؤولين البريطانيين الذين تكلموا عنه بمزيج اللهو والاستهجان، أحبوه وأعجبوا به بصدق، تقليداً للموضة، ولم يوحوا أبداً أنه كان فاسداً أو طموحاً بطريقة سوقية أو أنه فعل شيئاً بدافع الخوف أو الحقد. في الحكم على رجل مثل غاندي، يبدو أن الواحد يطبق معايير سامية غريزياً، لذلك مرت بعض فضائله من دون أن تلاحظ. مثلاً، واضح من سيرته الذاتية أن شجاعته البدنية الطبيعية كان بارزة تماماً: طريقة موته وتعليله اللاحق لهذا لأن أي رجل مشهور يمثل أية فضيلة لأبناء جلدته، يفترض أن ينال حماية مناسبة أكثر. مرة أخرى، يبدو أنه كان متحرراً تماماً من الشك الجنوني الذي قال عنه أي أم فورستر بصراحة في كتابه رحلة إلى الهند، أنه الرذيلة الهندية المحدقة باستمرار التي تشبه رذيلة الرياء البريطانية. لكن مما ل أشك فيه أنه كان ذكياً بما يكفي ليكتشف عدم الاستقامة، يبدو أنه كان يعتقد أن الناس الآخرين كانوا يتصرفون بإيمان خير، ولديهم طبيعة أفضل، من خلالها يمكن الاقتراب منهم وفهمهم. ورغم أنه انحدر من عائلة من الطبقة الوسطى، فقد بدأ حياته بطريقة غير سارة، وربما بمظهر بدني غير ملحوظ وبارز، لم يكن مصاباً بالحسد أو بشعور بالدونية. الشعور باللون حين صادفه في أسوأ أشكاله في جنوب أفريقيا، يبدو بأنه أدهشه. حتى حين كان يقاتل في حرب اللون، لم يفكر في الناس على أساس العرق أو المكانة. حاكم الإقليم، مليونير القطن، والحمال شبه الجائع والجندي البريطاني، النفر كلهم كانوا كائنات بشرية متساوية، ويجب معاملتها وفهمها بنفس الطريقة؟ ولوحظ أنه في أسوأ الظروف، كما في جنوب أفريقيا حين كان يجعل نفسه غير محبوب كبطل للجماعة الهندية، لم ينقصه أصدقاء أوروبيون.

السيرة الذاتية التي نشرت خلال فواصل قصيرة في سلسلة من الجرائد، لم تكن تحفة أدبية، لكنها الأكثر تأثيراً بسبب عادية مادتها. من الحسن التذكير أن غاندي بدأ بالطموحات العادية

لطالب هندي شاب، ولم يعتنق آراءه المتطرفة إلا بالتدريج، وهو كاره في بعض الحالات. كان هناك وقت ارتدى فيه قبعة عالية وأخذ دروساً في الرقص ودرس الفرنسية واللاتينية، وصعد إلى برج إيفل، وحاول تعلم العزف على الكهان حتى - كل هذا كان فكرة التمثل بالحضارة الأوروبية بأكمل صورة ممكنة. لم يكن من هؤلاء القديسين الذين اشتهروا بورعهم الاستثنائي من طفولتهم فصاعداً، ولم يكن أيضاً من النوع الآخر الذي هجر العالم وانغمس في الملذات الحسية. لقد اعترف تماماً بالآثام التي ارتكبها وهو شاب، لكن في الحقيقة لم يكن هناك الكثير ليعترف به. كواجهة للكتاب، هناك صورة لممتلكات غاندي في وقت موته. كل التجهيزات يمكن شراءها بخمسة جنيهات، وآثام غاندي، آثامه البدينة على الأقل، ستشكل نفس المظهر لو أنها وضعت في كومة واحدة. بضع سجائر ولقيمات من اللحم وبضعة قروش اختلسها من الخادمة وزيارتان للماخور(في كل مرة كان يرحل دون "أن يفعل شيئاً")، زلة فلتت بشق النفس مع صاحبة الفندق في بلايماوث، نوبة غضب واحدة - هذه هي كل المجموعة تقريباً. من طفولته تقريباً، كان لديه شعور عميق بالجدية، موقف أخلاقي أكثر مما هو ديني، لكن حتى أن بلغ الثلاثين تقريباً، لم يكن لديه إحساس بتوجه محدد وواضح. دخوله إلى ما يمكن وصفه بالحياة العامة كان عن طريق النباتية. تحت صفاته الأقل من عادية، يحس المرء دائماً برجال أعمال الطبقة الوسطى الصلبين الذين كانوا أجداده. يشعر المرء بذلك حتى بعد أن تخلى عن طموحه الشخصي، كان يمكن أن يكون محامياً نشيطاً واسع الحيلة ومنظماً سياسياً مجداً بارعاً في تخفيض النفقات ومدرب لجان داهية ومتابعاً لا يكل للاشتراكات. شخصيته كانت خليطاً غير عادي، لكن ليس فيها شيء تقريباً تضع إصبعك عليه وتقول إنه سيء. وأعتقد أن حتى ألد أعداء غاندي يعترفون أنه كان رجلاً ممتعاً وغير عادي، أثرى العالم بحياته. لكني لست متأكداً تماماً إن كان رجلاً محبوباً أيضاً أو أن تعاليمه نالت إعجاب الذين لم يتقبلوا المعتقدات الدينية التي تأسسوا عليها.

أصبحت الموضة في السنوات الأخيرة، الحديث عن غاندي، ليس كما لو أنه كان متعاطفاً مع الحركة اليسارية الغربية فقط، وإنما وكأنه جزء مكمل لها. فقد اعتبره الفوضويون والسلميون خصوصاً بأنه في صفهم، فلم يلاحظوا فيه سوى معارضته للمركزية وعنف الدولة، وتجاهلوا الميول الدنيوية والحياتية الأخرى وغير الإنسانية في مذهبه وتعاليمه. لكن

يجب أن يدرك المرء كما أعتقد أن تعاليم غاندي لا يمكن أن تتوافق مع الاعتقاد بأن الإنسان هو مقياس الأشياء كلها وأن مهمتنا أن نجعل من الحياة على هذه الأرض جديرة، الأرض الوحيدة التي نملكها. هذه التعاليم لا معنى لها، إلا بافتراض أن الرب موجود، وأن العالم المادي وهم علينا النجاة منه. من الجدير التفكير بمبادئ غاندي التي فرضها على نفسه - لكنه ربما لم يصر على أتباعه أن يطيعوا كل التفاصيل - التي اعتبرها أساسية ولا غنى عنها إن أراد المرء أن يخدم إما الرب أو الإنسانية. أول تلك المبادئ، عدم أكل اللحوم، وإن أمكن أي غذاء حيواني أيا كان شكله. (غاندي نفسه، من أجل صحته، أجبر على قبول الحليب، ولكنه نظر إلى ذلك كما يبدو بأنه ارتداد عن الطريق القويم). عدم السماح بالكحول والتبغ ولا التوابل أو البهارات حتى لو كانت من نوع الخضار، بما أن الغذاء يؤخذ ليس من أجل ذاته بل لكي يحفظ لنا قوتنا فقط. ثانياً، إن أمكن، رفض الجماع الجنسي. إن كان يجب حدوث الجماع الجنسي، فسيكون عندها من أجل غرض وحيد وهو إنجاب الأطفال، ويفترض أن يكون على فواصل طويلة. غاندي نفسه، في أواسط ثلاثينياته، أقسم البراهماشاريا، التي لا تعني التطهر الكامل وإنما استئصال الرغبة الجنسية. هذه الحالة، كما تبدو، صعب تحقيقها دون حمية خاصة وصوم متكرر. إحدى مخاطر شرب اللبن أنه قادر على إثارة الرغبة الجنسية. وأخيراً - هذه هي النقطة الرئيسية - للذين ينشدون الصلاح، يجب ألا تكون لهم صداقات حميمة وأحباء حصريون بأي شكل.

يقول غاندي أن الصداقات خطرة لأن "الأصدقاء يؤثرون على بعضهم البعض". ومن خلال الولاء لصديق يمكن أن يقاد المرء إلى مسلك لاشرعي. هذا صحيح ولا ريب فيه. إضافة إلى أنه يجب على المرء أن يحب الرب أو يحب الإنسانية جمعاء، فلن يستطيع إعطاء تحيزه وتفضيله لأي شخص فرد. هذا صحيح أيضاً، ويشير إلى النقطة التي يتوقف فيها التوفيق بين الموقف الإنساني والديني والتصالح بينهما. بالنسبة إلى الإنسان العادي، فالحب لا يعني شيئاً إن لم يعنِ حب شخص ما أكثر من الآخرين. السيرة الذاتية لغاندي تركت الأمر غير مؤكد إن كان غاندي قد تصرف بطريقة لم يراع فيها مشاعر زوجته وأطفاله، لكنه في كافة الأحوال من الواضح أنه في ثلاث مناسبات كان مستعداً وراغباً بأن يدع زوجته أو طفله يموت على إعطائهما الغذاء الحيواني الذي وصفه لهما الطبيب. من الصحيح أن الموت المنذر لم يحدث

فعلياً، وأن غاندي أيضاً كان يعطي دائماً المريض خيار البقاء حياً بثمن ارتكاب إثم، لكنه كان يحرم الغذاء الحيواني مهما كانت المخاطر، إن لم يكن القرار يعود للمريض نفسه. ويقول يجب أن يكون هناك حد أقصى لما نقوم به لكي نبقى أحياء، والحد الحسن في هذا الجانب على حساء الدجاج. هذه الموقف ربما يكون موقفاً نبيلاً، لكن بالمعنى الذي يصفه كل الناس كما أعتقد بغير الإنساني. جوهر الكائن الإنساني أن المرء لا يسعى إلى الكمال، وأن المرء يرغب أحياناً بارتكاب المعاصي من أجل الولاء، وأن المرء لا يدفع بالزهد إلى النقطة التي تجعل من العلاقة الودية أمراً مستحيلاً، وأن المرء مستعد في النهاية كي تهزمه الحياة وتحطمه، وهو ثمن محتوم لربط حب المرء نزولاً عند رغبة أفراد إنسانيين آخرين. لا شك بأن الكحول والتبغ وهلم جرا أشياء على القديس أن يجتنبها، لكن القداسة أيضاً شيء يجب على البشر اجتنابه. هناك حجة معاكسة واضحة لهذه، ولكن يجب أن يكون المرء حذراً في تبيانها. في هذا الزمن المصاب باليوغا، لقد تم التسليم بسرعة بأن "عدم الارتباط" ليس أفضل من القبول التام بالحياة الدنيوية فقط، وإنما لأن الإنسان العادي يرفضها لأنها صعبة جداً. بعبارة أخرى الإنسان العادي كان قديساً فاشلاً. كثير من الناس لا يرغبون بأن يكونوا قدسين، وأن البعض الذين استطاعوا أو طمحوا بالقداسة لم يشعروا قط بانجذاب كبير لأن يكونوا بشراً. وإن استطاع المرء إرجاعها لجذورها النفسية، سيجد المر باعتقادي أن الحافز الأساسي لـ"عدم الارتباط" رغبة للنجاة من ألم العيش، وقبل كل شيء من الحب الجنسي واللاجنسي الذي هو عمل شاق. لكن من الضروري هنا أن نناقش إن كانت المثل الدنيوية الأخرى أم المثل الإنسانية "أسمى". النقطة أنهما متنافرتان. على المرء أن يختار بين الرب والإنسان وكل "الراديكاليين" و"التقدميين"، من الليبراليين المعتدلين إلى أشد الفوضويين تطرفاً، اختاروا الإنسان في الواقع.

لكن يمكن فصل سلمية غاندي عن تعاليمه إلى درجة ما. لقد كان دافعها دينياً، لكنه ادعى بأنها تقنية حاسمة ووسيلة قادرة على إنتاج نتائج سياسية مرغوبة. لم يكن موقف غاندي كموقف أغلب السلميين. ساتياغراها، التي نشأت أولاً في جنوب أفريقيا، كانت نوعاً من حرب غير عنيفة، طريقة لدحر العدو دون إيذائه ودون الشعور بالكره أو إثارته. وشملت أشياء مثل العصيان المدني والإضرابات والاستلقاء على سكك الحديد لمنع القطارات من

الحركة، وتحمل شجب رجال الشرطة وقمعهم دون الفرار ودون الرد بالضرب وما شابه. عارض غاندي "المقاومة السلبية" بكونها ترجمة للساتياغراها التي تعني في الغوجاراتية "الحزم والثبات في الحقيقة". في أيامه الأولى خدم غاندي حامل نقالة في صف الإنكليز في حرب البوير، وأُعد ليقوم بنفس الدور في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨. حتى بعد أن تجنب العنف تماماً كان صادقاً حين رأى أنه من الضروري أن يصطف المرء في الحرب إلى طرف عادة. لم يركز خلال حياته السياسية كلها على الصراع من أجل استقلال قومي، لم يستطع أن يأخذ المسار الكاذب والعقيم في التظاهر أن كلا الطرفين مثل بعضهما تماماً في كل حرب ولن تشكل هوية الفائز أي فرق. كما لم يتخصص كما فعل أغلب السلميين الغربيين في تحاشي الأسئلة المربكة. فيما يتعلق بالحرب الأخيرة، سؤال كان على كل السلميين الإجابة عليه: "ماذا عن اليهود؟ هل أنت مستعد أن تراهم يبادون؟ إن كان الجواب لا، ماذا تقترح لإنقاذهم بدون اللجوء إلى الحرب؟" يجب علي أن أقول بأنني لم أسمع جواباً صادقاً لهذا السؤال من أي سلمي غربي، وإنما سمعت الكثير من التملص والمراوغة، عادة من "أنت من النموذج الآخر". لكن حدث أن سئل غاندي سؤالاً مشابهاً عام ١٩٣٨ وذلك الجواب مدون في كتاب السيد لويس فيشر غاندي وستالين. حسب ما جاء عن فيشر أن رأي غاندي كان: ينبغي على اليهود الألمان أن ينتحروا بشكل جماعي "ليوقظوا العالم والشعب الألماني كي ينتبه إلى العنف الذي يمارسه هتلر ضدهم". كان غاندي صادقاً مع نفسه. إن لم تكن مستعداً لانتزاع الحياة، عليك أن تتحضر لحياة ستضيع بطريقة أخرى. حين حرض على المقاومة غير العنيفة ضد الغزو الياباني عام ١٩٤٢ كان مستعداً للاعتراف بأن ذلك قد يكلف ملايين الضحايا.

في الوقت نفسه، هناك سبب للتفكير أن غاندي الذي ولد عام ١٨٦٩ لم يفهم طبيعة الشمولية ورأى كل شيء من خلال نضاله ضد الحكم البريطاني. النقطة الهامة هنا ليست أن البريطانيين تحملوه وصبروا عليه، لذلك استطاع أن يحقق شعبية. كما يرى من العبارة المقتبسة أعلاه، لقد آمن "في إيقاظ العالم"، إن توفرت الفرصة بأن يسمع العالم بما تفعله. من الصعب أن نرى أساليب غاندي تطبق في بلاد يختفي فيها خصوم النظام في منتصف الليل ولا يسمع عنهم بعد ذلك أبداً. بدون صحافة حرة وحق التجمع، يستحيل مناشدة الرأي العام الخارجي وتكوين حركة جماهيرية أو حتى التعريف والكشف عن أهدافك لأعدائك. هل هناك غاندي

في روسيا في هذه اللحظة؟ وإن كان هناك، ما الذي أنجزه؟ لا تستطيع الجماهير الروسية ممارسة العصيان المدني، إلا إذا حدث وخطرت الفكرة لهم كلهم بوقت واحد، وحتى لو حصل، فلن يكون هناك أي فرق وذلك بالحكم من خلال تاريخ المجاعة الأوكرانية. لكن لنسلم أن المقاومة غير العنيفة تستطيع أن تكون فعالة ضد حكومة المرء نفسها أو ضد سلطة محتلة: كيف يمكن للمرء أن يضعها موضع التطبيق على الصعيد الدولي؟ غاندي نفسه وفي تصريحات متناقضة عديدة حول الحرب الأخيرة، بين أنه شعر بصعوبة هذا. إن تطبيق السلامية على السياسة الخارجية إما أنه ينهي سلميتها أو تصبح مهدئة. إضافة الافتراض الذي خدم غاندي كثيراً في التعامل مع الأفراد بأن كل البشر ممكن الوصول إليهم تقريباً، ويستجيبون للإيماءة الكريمة، يثير شكوكاً جدية وكبيرة. فهو ليس صحيحاً بالضرورة مثلاً عند التعامل مع المجانين. بعدئذ يصبح السؤال: من العاقل؟ هل هتلر عاقل؟ وألا يمكن لحضارة كاملة أن تكون مجنونة بمقاييس شخص آخر؟ وبقدر ما يمكن قياس مشاعر أمم كاملة، هل هناك أي ارتباط ظاهر بين العمل الكريم والاستجابة الودية؟ هل العرفان بالجميل عامل في السياسة الدولية؟

هذه الأسئلة وأشباهها تحتاج إلى نقاش ونحتاجه بأسرع ما يمكن، في السنوات القليلة التي تبقت لنا وقبل أن يضغط شخص الزر وتبدأ الصواريخ بالتطاير. ومن المشكوك على ما يبدو بأن الحضارة تستطيع الصمود بوجه حرب رئيسية أخرى، وأن الخروج منها يكمن من خلال اللاعنف. ولغاندي الفضل بأنه كان سيعطي رأيه بصدق على الأسئلة التي أثرتها آنفاً، وربما هو ناقش هذه الأسئلة في مكان أو آخر في مقالاته الصحفية التي لا تعد. ويشعر المرء أن هناك الكثير الذي لم يفهمه غاندي، لكن ليس هناك شيء خاف من قوله أو التفكير فيه. أنا لم أستطع أن أكن الود الكبير لغاندي، لكني لست متأكداً أنه كمفكر سياسي كان مخطئاً في غالبه، ولا أعتقد أن حياته كانت فشلاً. من الغريب أنه حين اغتيل، كثيرون من أقرب المعجبين به هتفوا حزينين على أنه عاش طويلاً بما يكفي ليرى عمل حياته يخرب وينهار، لأن الهند كانت متورطة في حرب أهلية نُظر إليها دائماً على أنها إحدى المفرزات الجانبية لانتقال السلطة. لكن الشيء الذي أمضى غاندي حياته من أجله، لم يكن محاولة حل الصراع الهندوسي الإسلامي، فقد كان هدفه السياسي الأساسي الإنهاء السلمي للحكم البريطاني الذي تحقق أخيراً.

وكالعادة فإن الحقائق المتصلة بالموضع تتقاطع مع بعضها البعض. من جانب، خرج البريطانيون من الهند بدون قتال، حدث لم يتكهن به أحد قبل سنة من حدوثه؛ ومن جهة أخرى، من فعل ذلك حكومة عمالية وبالتأكيد لو كانت حكومة محافظين وخصوصاً واحدة يرأسها تشرشل لتصرفت بطريقة مختلفة. لكن لو لم يكن هناك رأي عام كبير متعاطف مع استقلال الهند في عام ١٩٤٥ ماذا سيكون مدى تأثير غاندي الشخصي على هذا؟ ولو أن، كما يمكن أن يحدث، بريطانيا والهند توصلتا إلى علاقة ودية محترمة، هل سيكون هذا جزئياً لأن غاندي طهر الجو السياسي في استمراره في نضاله بعناد وبلا كره؟ حتى أن المرء يفكر في طرح أسئلة تتعلق بمكانته. ربما يشعر المرء كما أشعر أنا بنوع من النفور الجمالي من غاندي، ويرفض إطلاق ادعاءات القداسة عليه (هو لم يدع ذلك أبداً بالمناسبة) وينبذ القداسة كنموذج ومثل أعلى، ولهذا يشعر أن أهداف غاندي الأساسية كانت غير إنسانية ورجعية: لكن بالنظر إليه كسياسي فقط ومقارنة بالشخصيات السياسية القيادية الأخرى لعصرنا، يا للرائحة النظيفة التي تركها وراءه!

أنتم والقنبلة الذرية

لم تثر القنبلة الذرية جدلاً كبيراً كما هو متوقع، باعتبارها قد تنسف عالمنا وتحوله إلى أشلاء في السنوات الخمس القادمة، فقد نشرت الصحف رسوماً بيانية هائلة لا تفيد الرجل العادي عن البروتونات والنيترونات..... لكنها لم تقل سوى القليل حول السؤال الملح الذي يهمنا كلنا: ما هو مدى صعوبة تصنيع مثل هذه الأشياء؟

مثل هذه المعلومات التي نمتلكها نحن الجمهور الكبير حول هذا الموضوع، أتت إلينا بطريق غير مباشر، من خلال قرار الرئيس ترومان بعدم إفشاء أسرار معينة وتسليمها للاتحاد السوفيتي. منذ عدة أشهر، حين لازالت القنبلة مجرد إشاعة، ساد اعتقاد واسع أن انشطار الذرة كان مجرد مشكلة للفيزيائيين، وأنهم حين يحلونها سيكون بمتناول أي شخص تقريباً سلاح مدمر جديد. (بأي لحظة كما جاء في الإشاعة قد ينسف مجذوب منعزل في مخبر الحضارة إلى فتات بسهولة إشعال ألعاب نارية).

إن كان هذا صحيحاً، فإن اتجاه التاريخ بكامله سوف يتبدل فجأة، وبشكل خطير، وسوف يتلاشى التمييز بين الدول العظمى والدول الصغرى، وسوف تضعف سلطة الدولة على الفرد بشكل عظيم. على كل حال، يظهر من ملاحظات الرئيس ترومان ومن تعليقات متنوعة حولها أن القنبلة باهظة التكلفة وتطلب تصنيعها جهداً صناعياً ضخماً، لذلك لا يقدر على تصنيعها سوى أربع دول في العالم. هذه نقطة ذات أهمية رئيسية، لأنها تعني أن اكتشاف القنبلة الذرية، بمعزل عن عكس التاريخ وقلبه، سوف يكثف الميول والنزعات التي ظهرت في العشرين سنة الماضية.

من المعروف أن تاريخ الحضارة هو بشكل رئيسي تاريخ أسلحة. فقد أشير مراراً وتكراراً إلى العلاقة بين اكتشاف البارود وإسقاط الإقطاعية بواسطة البورجوازية..... أعتقد أن القاعدة التالية ستكون صحيحة عموماً: العصور التي يكون فيها السلاح المسيطر مكلفاً أو صعباً تصنيعه، تميل إلى أن تكون عصور استبداد، وعندما يكون رخيصاً وبسيطاً يكون للناس

العادين فرصة وحظ. لذلك فإن الدبابات والسفن والطائرات أسلحة استبدادية بالأصل بينما الأقواس والبنادق المحلزنة والقديمة والرمانات اليدوية أسلحة ديمقراطية بالأساس. إن الأسلحة المعقدة تجعل القوي أقوى بينما البسيطة منها - طالما ليس هناك رد عليها - تعطي مخالب للضعيف.

عصر الديمقراطية والاستقلال الوطني العظيم كان عصر البنادق القديمة..... التي كانت سلاحاً فعالاً وبسيطاً يمكن تصنيعه في أي مكان. إنها مركب من صفات جعلت نجاح الثورتين الأمريكية والفرنسية ممكناً، وجعلت العصيان الشعبي قضية أكثر خطورة مما يمكن أن يكون في عصرنا. بعد البندقية الطويلة (موسكت) أتت البندقية التي تحشى من الخلف. كان هذا معقداً نسبياً، لكن ظل إنتاجها ممكناً في عشرات البلدان، وكانت رخيصة الثمن ويتم تهريبها بسهولة واقتصادية في الذخيرة. حتى الأمم المتخلفة جداً يمكنها الحصول على بنادق من مصدر أو آخر، هذا استطاع البوير والبلغار والإثيوبيون والمغاربة وحتى أهل التيبت - خوض حروب من أجل استقلالهم وكانت حروباً ناجحة أحياناً. لكن بعد ذلك كان كل تطور في التكنيك العسكري لصالح الدولة وضد الفرد ولصالح الدولة الصناعية وضد الدولة المتخلفة وباتت مراكز القوة أقل. سابقاً في عام ١٩٣٩ كان هناك خمس دول فقط قادرة أن تشن حرباً على نطاق واسع، والآن ليس هناك سوى ثلاث وربما اثنتين فقط. كان هذا الميل واضحاً منذ سنوات، وقد أشار إليه قلة من المراقبين قبل عام ١٩١٤ حتى. الشيء الأول الذي يمكن أن يعكسه ويقلبه هو اكتشاف سلاح - أو لوضعها في عبارة أوسع - طريقة قتال - لا تعتمد على تمركز هائل للمؤسسات الصناعية.

يستطيع المرء أن يستنتج من مظاهر متنوعة أن الروس لم يمتلكوا سر صنع القنبلة الذرية بعد؛ ومن جانب آخر، والرأي المتفق عليه بالإجماع أنهم سيمتلكونه خلال بضع سنوات كما يبدو، لذلك أمامنا مشهد لدولتين عملاقتين أو ثلاث تمتلك كل منها سلاح بمكنه مسح ملايين الناس في بضع ثوان، وسوف تقتسم هذه الدول العالم بينها. وهذا يعني كما يفترض حروباً أكبر وأكثر دموية وقد تكون نهاية فعلية لحضارة الآلة. لكن لو افترضنا - وهذا هو التطور الأرجح - أن الأمم الكبرى الناجية ستعقد اتفاقاً ضمنياً بألا تستعمل القنبلة الذرية

ضد بعضها البعض؟ ولو افترضنا أنها ستستعملها فقط أو تهدد بها الشعوب التي تعجز عن الرد والانتقام؟ في هذه الحالة سنعود إلى ما كنا عليه من قبل، والفارق الوحيد أن القوة ستتركز في أيدٍ أقل، وأن مستقبل الشعوب الخاضعة والطبقات المضطهدة سيظل بلا أمل وأكثر من قبل.

حين كتب جيمس بيرنهام كتاب الثورة الإدارية، بدا لكثير من الأمريكيين أن الألمان سيفوزون بالبر الرئيسي الأوراسي، بينما تظل اليابان سيدة شرق آسيا. وهذا كان خطأً تقديرياً، لكنه لا يؤثر على الحجة الأساسية، فقد ثبت أن الصورة الجغرافية التي رسمها بيرنهام للعالم صحيحة، ويتضح أكثر فأكثر أن سطح الأرض يوزع بين ثلاث إمبراطوريات كبرى، كل واحدة منها مكتفية بذاتها، ومقطوعة عن الاتصال بالعالم الخارجي، ومحكومة تحت قناع أو آخر من قبل أقلية منتخبة ذاتياً. وسوف تستمر المماحكة حول رسم الحدود بينها، وستستمر لسنين، وثالثة الدول العظمى - شرق آسيا التي تحكمها الصين - لاتزال احتمالاً أكثر منها حقيقة، لكن الانتقال العام واضحاً لا لبس فيه ويعجل بحدوثه كل اكتشاف علمي في السنوات الأخيرة.

قيل لنا إن الطائرات قد "ألغت الحدود"؛ لكن في الواقع منذ أن أصبحت الطائرات سلاحاً مهماً بات من الصعب اجتياز الحدود. وكان متوقعاً من الراديو أن يعزز التفاهم الدولي والتعاون، وثبت أنه وسيلة لعزل الأمم عن بعضها البعض، وربما تكمل القنبلة الذرية عملية سرقة الطبقات المستغلة والشعوب من كل قدرة على الثورة، وفي الوقت نفسه تضع مالكي القنبلة على أساس من المساواة العسكرية، ولعجز هذه الدول عن دحر بعضها بعض، فإنها على الأرجح ستستمر في حكم العالم بينها، ومن الصعب قلب هذا التوازن، إلا بتبدلات ديموغرافية بطيئة، لا يمكن التنبؤ بها.

لقد حذرنا إتش جي ويلز وغيره في السنوات الماضية، أن الإنسان مهدد بتدمير نفسه بأسلحته تاركاً النمل أو جنس سربي آخر يسيطر. كل من يرى المدن الألمانية المدمرة، يجد أن هذه الفكرة قابلة للتصور على الأقل. رغم ذلك، فعند النظر إلى العالم ككل، لعقود الكثيرة، نجد أن الانتقال لم يكن نحو الأناركية (المدينة الفاضلة) وإنما نحو إعادة فرض العبودية. قد لا

نكون متجهين إلى انهيار عام، وإنما إلى عهد راسخ بصورة كريهة مثل إمبراطوريات الرق القديمة. لقد نوقشت نظرية جيمس بيرنهام كثيراً، لكن قلة من الناس دققت في مضامينها الأيديولوجية - أي الرأي العالمي والمعتقدات والتركيب الاجتماعي التي قد تسود في دولة لا تقهر وفي حالة دائمة من "الحرب الباردة" مع جيرانها.

لو تبين أن القنبلة الذرية ستكون رخيصة مثل تصنيع دراجة أو ساعة منبه، فإنها قد تعيدنا إلى البربرية، لكنها من جانب آخر قد تعني نهاية السيادة الوطنية والدولة الأمنية شديدة التمركز. وإن كانت القنبلة نادرة ومكلفة وصعب تصنيعها كإنتاج بارجة حربية كما يبدو، فإنها على الأرجح ستضع نهاية للحروب الكبيرة، لمصلحة سلام غامض مطول لكنه "ليس بسلام".



كيف يموت الفقراء؟

في عام ١٩٢٩ أمضيت عدة أسابيع في مستشفى "سين"، في الحي الخامس عشر في باريس. قذف الموظفون بي عبر الدرجة الثالثة المعتادة، إلى منضدة الاستقبال؛ حيث بقيتُ أجيب على أسئلتهم لمدة نصف ساعة، قبل أن يسمحوا لي بالدخول. إن كنت قد ملأت استمارات في دولة لاتينية، ستعرف نوع الأسئلة التي أعنيها. منذ بضعة أيام مضت، لم أكن كفؤاً للتحويل من مقياس ريامور إلى الفهرنهايت، لكنني أعرف أن درجة حرارتي كانت حوالي ١٠٣. وفي نهاية المقابلة وجدت صعوبة في الوقوف على قدمي. كانت ورائي مجموعة صغيرة مذعنة من المرضى، الذين كانوا يحملون صرراً ملفوفة بمناديل ملونة، وينتظرون دورهم ليُسألوا.

بعد الاستجواب، جاء دور الحمام - وهو روتين إجباري لكل الوافدين الجدد على ما يبدو، كما في السجون أو الإصلاحيات. أخذوا ثيابي مني، وبعد أن جلست أرتعش من البرد في خمسة بوصات من الماء الدافئ، أُعطوني قميص نوم كتاني وعباءة زرقاء قصيرة صوفية ناعمة بدون خفين، إذ لم يكن لديهم أخفاف كبيرة تناسبني كما قالوا، وقادوني إلى الخارج في الهواء الطلق. كان هذا في ليلة من شهر فبراير/ شباط، وكنت أعاني من مرض ذات الرئة. كان الجناح الذي ذهبنا إليه على بعد ٢٠٠ باردة، ولكي تصل إليه، عليك أن تعبر الحدائق والأرض المحيطة ببناء المستشفى. تعثر شخص أمامي كان يحمل مصباحاً. كان الممر المرصوف بالحصى مكسواً بالصقيع تحت الأقدام، ولفت الريح قميص النوم حول ربلتي العاريتين. حين دخلنا إلى الجناح أحسست بشعور غريب من الألفة، لم أنجح في تحديده حتى وقت متأخر من الليل. كانت غرفة طويلة، إضاءتها سيئة تعج بأصوات مدمدمة مع ثلاثة صفوف من الأسرة قريبة من بعضها البعض بشكل مدهش، وهناك رائحة فاسدة برازية مائلة للحلاوة. استلقيت على السرير. قبالتي تقريباً هناك رجل صغير الجسم رملي الشعر مدور الكتفين، يجلس شبه عارٍ، بينما يقوم الطبيب وطالب معه بعملية جراحية ما غريبة له. في البداية أخرج الطبيب من حقيبته السوداء دزينة من كؤوس صغيرة

مثل كؤوس النبيذ، وأشعل الطالب عود ثقاب داخل كل كأس ليفرغه من الهواء، ثم أقحم الكأس ووضعه على ظهر الرجل وصدره، وسحب الخلاء قيحاً أصفر كثيراً جداً. بعد لحظات أدركت ما كانا يفعلان به. كان شيئاً يسمى الحجامة، وهي علاج يمكنك أن تقرأ عنه في الكتب الطبية القديمة، لكن حتى ذلك الوقت كانت لدي فكرة غامضة بأنه واحد من تلك الأشياء التي يجرونها للخيول.

ربما خفّض الهواء البارد في الخارج درجة حرارتي، وراقبت هذا العلاج البربري بتحيز وبمقدار محدد من التسلية أيضاً. في اللحظة التالية، جاء كل من الطبيب والطالب إلى سريري ورفعاني إلى الأعلى بوضع عمودي، وبدون التفوه بأي كلمة طبّقا مجموعة الكؤوس ذاتها علي من دون أن تعقم بأي شكل. لم تلق الاعتراضات القليلة التي تفوهت بها أية استجابة، كما لو أنني كنت حيواناً. تأثرت كثيراً بالطريقة اللاوديّة التي عاملني بها هذان الرجلان. لم أدخل جناحاً عاماً في مستشفى من قبل، وكانت تجربتي الأولى مع أطباء يعالجونك دون التحدث إليك وبلا شعور إنساني، ولا يبدون لك أقل اكتراث. وضعا ستة كؤوس في حالتي فقط، وبعد هذا خدشا البثور وطبقا الكؤوس مرة أخرى، فسحب كل كأس حوالي ملعقة حلوى من الدم ذي اللون الأسود. حين استلقيت مرة أخرى مذلولاً ومشمئزاً وخائفاً من الشيء الذي فعلاه بي، ظننت أنهما سيتركاني بحالي على الأقل. لكن كلا. لا شيء من ذلك، فقد كان هناك علاج آخر قادم كمادة الخردل، ويبدو أنه روتين مثل الحمام الساخن. جهزت ممرضتان قذرتان الكمادة مسبقاً وربطتاها بإحكام حول صدري بقوة مثل سترة ضيقة، فبدأ بعض الرجال الذين كانوا يتجولون في الجناح في قمصان وسراويل بالتجمع حول سريري، وعلى وجوههم تكشيرات شبه متعاطفة. وعلمت مؤخراً أن التفرج على مريض يضعون له كمادة الخردل، كان هواية مفضلة في الجناح. هذه الأشياء تطبق عادة لمدة ربع ساعة، وبالتأكيد هي مضحكة بشكل كافٍ إن لم تكن الشخص الذي يطبق عليه العلاج. أثناء الدقائق الخمس الأولى، كان الألم مبرحاً، لكنك تعتقد بأنك تستطيع تحمله. وخلال الدقائق الخمس الثانية يتبخر هذا الاعتقاد، لكن الكمادة مثبتة على الظهر، ولا تستطيع نزعها، وهذه هي اللحظة التي يستمتع بها المتفرجون كثيراً. خلال الدقائق الخمس الأخيرة لاحظت نوعاً من الخدر غير المتوقع. بعد أن أزالوا الكمادة عني، أقحموا وسادة مقاومة للماء فيها جليد تحت رأسي

وتركوني لوحدي. لم أنم، وبحدود معرفتي كانت هذه الليلة الوحيدة في حياتي - الليلة الوحيدة التي أقضيها في سرير - ولم أنم فيها ولو لدقيقة واحدة.

خلال ساعتي الأولى في مشفى سين، تعرضت لسلسلة مختلفة من العلاجات المتناقضة، لكن هذا تضليل وخداع. وعلى العموم أنت لا تحصل على أي علاج إطلاقاً سواء كان جيداً أم سيئاً، إلا إن كنت مريضاً في طريقة مشوقة وتثقيفية. في الخامسة صباحاً تقوم الممرضات بجولة يوقظن فيها المرضى، وينظرن إلى درجات حرارتهم، لكنهن لا يقمن بغسلهم. إن كنت بصحة جيدة تكفي أن تغسل نفسك، وإلا فعليك الاعتماد على لطف بعض المرضى المتجولين. وكانت العادة أن المرضى هم الذين يحملون قوارير الأسرة ونونية السرير المقيتة المسماة كسرولة. في الثامنة يصل الفطور المسمى على النمط العسكري بالحساء. وهو عبارة عن حساء خضار رقيق تطفو فوقه كتل دسمة من الخبز. في وقت لاحق من النهار يقوم الطبيب ذو اللحية المهيبة الطويلة السوداء بجولاته مع طبيب مقيم وفرقة من الطلاب في أعقابه، لكن يوجد في الجناح حوالي الستين شخصاً منا، ومن الواضح أن لديه أجنحة أخرى يزورها أيضاً. هناك أسرة كثيرة يتجاوزها يوماً بعد آخر، تتبعه منها صيحات توسل أحياناً. من جانب آخر، إن كان لديك مرض ما يرغب الطلاب في الاطلاع عليه، فإنك تنال الكثير من الاهتمام. أنا نفسي مع عينة رائعة استثنائية من الخشخشة القصبية يكون لدي، أحياناً، عدد كبير من الطلاب المصطفين في رتل ليسمعوا صدري. كان شعوراً غريباً جداً - غريب، أقصد، بسبب اهتمامهم المكثف بتعلم مهنتهم معاً مع نقص واضح لأي تفهم وإدراك أن المرضى كائنات إنسانية. من الغريب أن أروي ذلك، لكن أحياناً حين يتقدم أحد الطلاب ليأخذ دوره في معالجتك باليد، كان يرتعش فعلياً من الإثارة مثل صبي وضع يده أخيراً على قطعة ثمينة من آلة، ثم بعد ذلك الأذن تل تلو الأخرى لشبان وشابات من السود - تضغط على ظهرك وسباق متناوب من الأصابع الوقورة التي تنقر بطريقة خرقاء من دون أن تحصل منهم على كلمة أو حديث أو نظرة مباشرة في وجهك. مريض مجاني في قميص نوم موحد، إذاً أنت أولاً وقبل كل شيء عينة، شيء لم أمتعظ منه، لكنني لم أعتد عليه تماماً أبداً.

بعد بضعة أيام تحسنت صحتي، وسمحت لي في الجلوس معتدلاً ودراسة المرضى المحيطين بي. كان في الغرفة ذات الهواء الفاسد وأسرتها الضيقة المتقاربة كثيراً لدرجة

يمكنك فيها لمس يد جارك بسهولة، كل أنواع المرض ما عدا، كما أعتقد، الحالات المعدية الحادة. كان جاري الذي على يميني إسكافياً أحمر الشعر، لديه ساق أقصر من الأخرى، وكان يعلن موت أي مريض آخر (حدث هذا عدة مرات، وكان جاري الأول الذي يسمع بذلك دائماً) فيصفر لي هاتفاً "رقم ٤٣!" (أو أياً كان) ويقذف بذراعه فوق رأسه. هذا الرجل لم يكن متضرراً كثيراً، لكن في أغلب الأسرة الأخرى التي ضمن زاوية رؤيتي، كان يحدث بعض من مأساة قذرة أو بعض من الرعب السافر. في السرير الذي تحاذي نهايته نهاية سريري استلقى هناك حتى مات (أنا لم أره يموت - نقلوه إلى سرير آخر) رجل ضئيل كان يعاني من مرض لا أعرفه، لكنه شيء جعل جسده كله حساساً جداً لدرجة أن أية حركة من جانب إلى آخر وحتى ثقل ملاءات السرير أحياناً، تجعله يصرخ عالياً من الألم، لكن أسوأ عذاباته كان التبول، فقد كان يقوم به بصعوبة بالغة. كانت إحدى الممرضات تجلب له قنينة السرير، ثم تقف بعد ذلك بجانب سريره لوقت طويل كما يفعل ساسة الخيل مع الخيول كما يقال، ومع زعيق حاد بـ"أنا أنفلق" حتى. في السرير المجاور له، كان الرجل ذو الشعر الرملي الذي رأيته يعالج بالحجامة وكان يسعل مخاطاً مقلماً بالدم في كل الساعات. جاري الذي على يساري شاب طويل مترهل، كانوا يدخلون أنبوباً في ظهره دورياً ويسحبون منه كميات مذهلة من سائل مزبد من جزء ما في جسده. في السرير الذي يلي ذلك، يوجد محارب قديم من حرب ١٨٧٠ كان يحتضر، رجل عجوز وسيم مع لحية إمبراطورية بيضاء، تتجمع حول سريره في كل الساعات التي تسمح فيها الزيارات أربع نساء كبيرات في السن قريبات له، يرتدين الأسود، ويجلسن مثل الغربان تماماً. من الواضح أنهن يخططن من أجل ميراث هزيل. في السرير المقابل لسريري في الصف الأبعد، هناك رجل عجوز أصلع مع شاربين متدليين ووجه وجسد منفوخين كثيراً، كان يعاني من مرض ما يجعله يتبول بشكل متواصل تقريباً. انتصب إناء زجاجي ضخم بجانب سريره بشكل دائم. في أحد الأيام أتت زوجته وابنته لزيارته. أشرق وجه الرجل العجوز المنتفخ برؤيتهما بابتسامة حلوة مدهشة، وحين اقتربت ابنته وهي فتاة جميلة في العشرين من عمرها تقريباً، من سريره، رأيت يده تشق طريقها ببطء من تحت ملاءات السرير. تصورت أني أعرف مسبقاً الإيماءة التالية - الفتاة جاثية بجانب

السرير ويد الرجل العجوز المحتضر تستقر على رأسها ليباركها. لكن كلا لم يحدث هذا؛ لقد ناولها قارورة السرير، فأخذتها منه في الحال، وأفرغتها في الوعاء.

على بعد عشرة أسرّة مني كان الرقم ٥٧ - أعتقد أن ذاك هو رقمه - حالة تشمع كبدي. كل من في الجناح يعرفه من منظره، لأنه كان موضوع المحاضرة الطبية أحياناً. في محاضرتين بعد الظهر أسبوعياً يحاضر طبيب طويل رزين في الجناح في فرقة من الطلاب، وفي أكثر من مناسبة كانوا يأخذون العجوز رقم ٥٧ بعربة مدولبة إلى وسط الجناح؛ حيث يشمر الطبيب قميص نوم العجوز ويوسع بأصابعه نتوءاً ضخماً مترهلاً في بطن المريض - كبد المريض كما أعتقد - ويشرح برزانة أن هذا مرض يُعزى للإدمان على الكحول وأنه أكثر شيوعاً في البلدان التي تشرب الخمر. كالعادة هو لم يتكلم مع مريضه، ولم يمنّ عليه بابتسامة أو حتى إيماءة من أي نوع من العرفان بالجميل. كان يمسك بالجسد المخرب تحت يديه، وهو يتحدث برزانة وباستقامة، وأحياناً يعطيه دحرجة لطيفة إلى الأمام والخلف في وضع مماثل تماماً لامرأة تمسك بمرقاق العجين. ولم يهتم الرقم ٥٧ كذلك بهذا النوع من الشيء. من الواضح أنه كان نزيل مشافٍ قديم وعرض دائم في المحاضرات، وقيمة كبده تناقصت منذ زمن طويل إلى قنينة في أحد متاحف علم الأمراض. لم يكن مهتماً إطلاقاً بما يقال له، وكان يستلقي بعينيه البليدتين اللتين تحدقان بلا شيء، بينما يعرضه الطبيب مثل قطعة أثرية صينية عتيقة. كان رجلاً في حوالي الستين من عمره، تقلص وانكمش بشكل مذهل. اصفرّ وجهه الشاحب الجلدي وانكمش كالرق، حتى بدا بحجم وجه الدمية.

في صباح أحد الأيام أيقظني جاري الإسكافي بسحب وسادتي قبل أن تصل الممرضات. "رقم ٥٧!" - وقذف بذراعيه فوق رأسه. كان في الجناح ضوء يكفي للرؤية، فاستطعت أن أرى العجوز رقم ٥٧ ممدداً، وقد تكوم على جانبه ونتأ وجهه من فوق طرف السرير واتجه نحوي. مات في الصقيع أثناء الليل، ولم يعرف أحد متى. حين أتت الممرضات، تلقين خبر موته بلا مبالاة وتابعن عملهن. بعد وقت طويل ربما ساعة أو أكثر، دخلت ممرضتان تمشيان جنباً إلى جنب كالجنود مع صخب هائل للقباقيب، وربطتا الجثة بالملاءات، ولم تُنقل حتى وقت متأخر.

في هذه الأثناء في الضوء الأفضل، توفر لي الوقت لنظرة جيدة على رقم ٥٧. في الحقيقة استلقيت على جانبي لأنظر إليه. الغريب أنه كان أول أوروبي ميت أراه. رأيت رجالاً أمواتاً

من قبل، لكنهم كانوا من الآسيويين عادة الذين ماتوا ميتة عنيفة عادة. كانت عينا رقم ٥٧ مفتوحتين وفمه مفتوح أيضاً والتوى وجهه الصغير في تعبير من الألم المبرح. لقد أثر بي بياض وجهه أكثر من غيره. كان شاحباً سابقاً، لكنه بات الآن أدكن قليلاً من ملاءات الموت. حين تفرست بالوجه الصغير جداً الملتوي، خطر لي أن هذه القطعة المقززة من النفاية التي كانت تنتظر لتُنقل بعربة وتُكب على لوح في غرفة المشرحة، كانت مثالاً عن "الموت الطبيعي" الذي هو أحد الأشياء التي تتضرع وتبتهل من أجله في صلواتك. هذا هو ما ينتظرك بعد عشرين أو ثلاثين سنة من الآن: تلك هي الطريقة التي يموت فيها المحظوظون الذين يظلون أحياء ويطعنون في السن. يريد المرء أن يعيش طبعاً، وفي الحقيقة يبقى المرء حياً بفضل خوفه من الموت، لكنني أعتقد الآن كما اعتقدت سابقاً أن الأفضل للمرء أن يموت ميتة عنيفة بدلاً من أن يموت من الهرم. يتحدث الناس عن رعب الحرب، لكن أي سلاح اخترعه الإنسان اقترب في قسوته ووحشيته من بعض الأمراض الشائعة؟ إن الموت "الطبيعي" بالتعريف تقريباً، يعني شيئاً بطيئاً وكريهاً ومؤلماً، وحتى هذا يفرق كثيراً إن استطعت إنجازه في بيتك الخاص وليس في مؤسسة عامة. فهذا الهرم البائس المسكين الذي انطفأ مثل عقب شمعة، لم يكن مهماً ليسهر عليه أحد بجانب سرير احتضاره. لقد كان مجرد رقم ثم "جثة" لمباضع الطلاب وتلك العلنية الخسيسة للموت في هكذا مكان! في المستشفى سين حيث الأسرة متقاربة جداً وليس هناك ستائر. تخيل أنك ستموت مثل ذلك الرجل الصغير الحجم الذي كانت نهاية سريره بمحاذاة نهاية سريري، الشخص الذي كان يصرخ بصوت عال حين تلمسه ملاءات السرير! أعتقد أن آخر كلماته المسجلة كانت "أنا أبول". ربما الذين يحتضرون لا يقلقون أنفسهم بأشياء كهذه - هذا هو الجواب القياسي على الأقل - لكن المحتضرين أشخاص أسوياء في عقولهم في معظم الأوقات تقريباً حتى ضمن يوم أو حوالي ذلك من النهاية.

في الأجنحة العامة لأي مستشفى ترى رعباً لا يمكن أن تلقاه بين أناس يرتبون للموت في بيوتهم الخاصة، كأن أمراضاً معينة لا تهاجم إلا الناس من ذوي الدخول الأكثر تدنياً. لكن في الحقيقة أنت لن ترى في أي مستشفى إنكليزي بعضاً مما رأيته في المستشفى سين. مسألة موت الناس مثل حيوانات تنفق مثلاً دون وجود أحد يقف إلى جانبهم ويهتم بهم أو لا يلاحظ الموت نفسه حتى الصباح - هذا حدث أكثر من مرة. بالتأكيد لا يمكن أن ترى ذلك في

إنكلترا، والأندر من ذلك أن ترى جثة تركت على مرأى المرضى الآخرين. أتذكر مرة في مستشفى صغير في إنكلترا احتضر رجل بينما كنا نشرب الشاي، وعلى الرغم من أننا كنا ستة أشخاص في الجناح فقط، فقد رتبت الممرضات الأشياء ببراعة، لذلك مات الرجل وأزيحت جثته، ولم نسمع كلمة حتى انتهى الشاي. شيء نبخسه قيمته في إنكلترا، وهو أننا نتمتع بامتلاكنا أعداداً كبيرة من الممرضات المدربات جيداً والمنضبطات بشكل صارم. لا شك أن الممرضات الإنكليزيات غبيات بما يكفي - وربما يقرأن الحظوظ بأوراق الشاي ويلبسن شارات العلم البريطاني ويحتفظن بصور للملكة على رفوف مواقدهن، لكنهن على الأقل لن يتركنك تستلقي وأنت متسخ دون غسيل ومصاب بالإمساك على فراش غير مرتب بدافع الكسل المحض. لازال في ممرضات المستشفى سين أثر من السيدة غامب. ولقد رأيت مؤخراً في المشافي العسكرية في إسبانيا الجمهورية ممرضات جاهلات جداً تقريباً حتى لأخذ درجة الحرارة. لن ترى ذلك في إنكلترا أيضاً مثل القذارة الموجودة في مستشفى سين. فيما بعد، حين تحسنت صحتي لدرجة تكفي لأغسل نفسي في الحمام، اكتشفت وجود كيس ضخم معبأ هناك فيه كسرات الخبز والتوابل التي يرميها الجناح، وكان طلاء الجدران الداخلية يعج بالصراصير. حين استرددت ثيابي واسترجعت قوتي للوقوف، هربت من مستشفى سين قبل أن تنتهي مدتي ودون انتظار تسريحي الطبي. لم أهرب من المستشفى سين فقط، وإنما من كآبتها وعريها ورائحتها المثيرة للغثيان، وقبل كل شيء من شيء استثنائي في جوها العقلي يبرز في ذاكرتي بوضوح. لقد أُخذت إلى هناك لأنها كانت مستشفى تتبع للمنطقة الإدارية التابع لها، ولم أعلم إلا لاحقاً أنها تحمل سمعة شائنة. بعد سنة أو اثنتين من ذلك، أخذت المحتالة الشهيرة مدام هانود التي مرضت وهي في السجن الاحتياطي، إلى مستشفى سين، وبعد أيام قليلة نجحت في التملص من حراسها، وأخذت سيارة أجرة وعادت إلى السجن، وعللت ذلك أنها كانت مرتاحة أكثر في السجن. ليس لدي شك بأن مستشفى سين ليست المثال النموذجي عن المشافي الفرنسية آنذاك. لكن المرضى الذين كلهم من العمال تقريباً كانوا مستسلمين بشكل يثير الدهشة. كان بعضهم يجد الظروف مريحة تقريباً واثنان منهم على الأقل كانا متمارضين معدومين، وجدا هذا طريقة جيدة لقضاء الشتاء. الممرضات تواطأن معهما لأن المتمارضين يفيدون في القيام بمهام غريبة. لكن موقف الأغلبية كان: هذا مكان مقمل طبعاً

لكن ما الذي تتوقعه غير ذلك؟ لم يستغربوا أن تستيقظ في الساعة الخامسة ثم تنتظر ثلاث ساعات قبل بدء يومك بحساء رديء، أو أن يموت الناس دون أن يجدوا من يقف بجانب سريرهم، أو أن فرصتك في الحصول على عناية طبية تعتمد على لفت اهتمام الطبيب وهو يمر من جانبك. حسب تقاليدهم هذا هو حال المستشفيات. إن كنت مصاباً بمرض خطير وكنت فقيراً لا تستطيع أخذ العلاج في بيتك الخاص، عليك إذاً الدخول إلى المستشفى، وعليك أيضاً تحمل الإزعاج والمشقة كما تفعل في الجيش. لكن في رأس هذا أنا مهتم في إيجاد اعتقاد متبق في الحكايات القديمة التي خبت من الذاكرة تقريباً الآن في إنكلترا - مثلاً، قصص عن أطباء يقطعونك ويفتحون بطنك لمجرد الفضول أو الاعتقاد بأنه من المسلي أن يجروا لك عملية جراحية قبل أنت تدفن "تحت" بشكل لائق. هناك قصص كئيبة عن غرفة عمليات صغيرة كانت وراء الحمام مباشرة، وكانت تصدر من هذه الغرفة صرخات مرعبة كما قيل. لم أر ما يؤكد هذه القصص، ولا شك أنها كانت هراء، رغم أنني رأيت طالبين يقتلان صبياً في السادسة عشر من عمره أو كادا يقتلانه (بدأ يحتضر حين غادرت المستشفى، لكنه ربما شفي لاحقاً) بواسطة تجربة عبثية. حسناً في الذاكرة الحية كان الاعتقاد في لندن أن المرضى كانوا يُقتلون في بعض المشافي الكبيرة للحصول على جثث للتشريح. لم أسمع بتكرر هذه الحكاية في مستشفى سين، لكن أفترض أن بعض الرجال يصدقونها. تكمن غرابة هذا المستشفي ليس في الأنظمة والطريق فقط، وإنما في جوها الذي يعود إلى القرن التاسع عشر أيضاً.

أثناء السنوات الخمسين الماضية تقريباً حدث تبدل عظيم في العلاقة بين الطبيب والمريض. لو نظرت إلى أي نتاج أدبي قبل القسم الأخير من القرن التاسع عشر، ستجد أن المستشفى كانت تعتبر شعبياً شيئاً مثل السجن، بل هي سجن قديم الطراز وزنازين محصنة ومكان للقذارة والتعذيب والموت، وهي نوع من حجرة انتظار إلى القبر. لا يفكر أحد سوى المعدم والمعوز تقريباً في دخول مثل هذا المكان للعلاج، وفي القسم الأول من القرن السابق خصوصاً حين ازدادت جرأة العلوم الطبية أكثر من قبل دون تحقيق أي نجاح إضافي، كان الناس العاديون ينظرون إلى عمل التطبب برمته برعب وخشية أكثر من قبل، وأن الجراحة على وجه الخصوص ليست أكثر من شكل شنيع إلى حد غريب من السادية، واعتبر التشريح الذي لم يكن ممكناً إلا بمساعدة خاطفي الجثث، استحضاراً للأرواح. من القرن التاسع عشر، يمكن

جمع نتاج أدبي مرعب كبير متعلق بالأطباء والمشافي. فكر في المسكين العجوز جورج الثالث الذي كان في خرفه يصرخ طلباً للرحمة حين يرى جراحيه يقتربون منه لـ "فصد دمه حتى يغمي عليه"! وفكر في أحاديث بوب سوير وبينجامين ألين التي هي ليست حكايات هزلية بلا شك، أو في الكارثة والحرب والسلام أو ذلك الوصف الصادم لعملية بتر في السترة البيضاء؛ لميلفيل. حتى الأسماء التي أعطيت للأطباء في قصص القرن التاسع عشر الشرّاط والنقاش والنشار والدفان وهلم جرا واللقب الشامل "منشار العظام"، كانت مقيتة بقدر ما هي تهكمية. إن أفضل تعبير للعرف العدائي للجراحة، هو قصيدة تينيسون أطفال المستشفى، وهي أساساً وثيقة لفترة ما قبل البنج، لكنها كتبت في وقت متأخر في عام ١٨٨٠ كما يبدو. إضافة إلى ذلك فإن النظرة التي يدونها تينيسون في هذه القصيدة يقال عنها الكثير. حين تفكر كيف يجب أن تكون العملية الجراحية بدون مخدر وأي صيت رديء لها، من الصعب ألا ترتاب في دوافع الناس الذين يتولون أشياء كهذه، وأن هذه الأعمال المرعبة الدموية التي يتطلع إليها الطلاب بتشوق "منظر رائع إن أجراها الشرّاط!" كانت عديمة الجدوى تقريباً باعتراف الجميع: المريض الذي لا يموت بالصدمة يموت عادة بالغنغرينا (الموات أو الأكال) وهي نتيجة بديهية ومسلم بها. كل من عانى كثيراً من المرض أو استمع إلى حديث طلبة الطب، يعرف ماذا أقصد. لكن العقاقير المخدرة كانت نقطة تحول، والمطهرات نقطة أخرى. لا يوجد مكان في العالم الآن ترى فيه نوع المشهد الذي وصفه اكسيل مونثي في قصة سان ميشيل، حين كان الجراح الشرير ذو القبعة العالية ومعطف الفراك وقميصه المنشى الذي تلطخ صدره بالدم والصديد، يقطع المريض تلو الآخر بنفس السكين ويرمي الأعضاء المنفصلة في كوم بجانب الطاولة. إضافة إلى ذلك، فقد قضى الضمان الصحي الوطني على فكرة أن مريض الطبقة العاملة عالة ولا يستحق سوى القليل من الاهتمام. حتى وقت ما من هذا القرن كان من العادي أن تقتلع أسنان المرضى "المجانين" بدون مخدر في المشافي الكبيرة. هم لم يدفعوا، فلماذا نوفر لهم المخدر؟ - هذا هو الرأي والنظرة. هذا تبدل أيضاً.

مع ذلك، فكل مؤسسة ستحمل ذاكرة متبقية من ماضيها دائماً. الغرفة الثكنة لازالت مسكونة بأشباح كيلينغ، ومن الصعب أن تدخل إصلاحية للأحداث دون أن تذكرك بـ أوليفر تويست. بدأت المستشفيات كنوع من المعتقلات للمجذومين وأمثالهم ليموتوا فيها،

واستمرت كأماكن يتعلم فيها طلاب الطب مهنتهم بأبدان الفقراء. مازال بإمكانك أن تلمح مسحة باهتة من تاريخها في هندستها المعمارية المتميزة بالكآبة. سأبتعد عن التذمر من المعالجة التي تلقيتها في أي مستشفى إنكليزي، لكني أعرف أن الغريزة التي تحذر الناس في الابتعاد عن المشافي إن أمكن ذلك، هي فطرة سليمة وصحيحة وخصوصاً الأجنحة العامة فيها. مهما يكن الموقف القانوني، فمن المؤكد وغير القابل للشك أن سيطرتك على علاجك الخاص بك، ستكون أقل بكثير، ويكون يقينك أقل بكثير ألا تجرى عليك التجارب العبثية حين تكون مسألة "اقبل بالتعليمات أو اخرج". شيء عظيم أن تموت في سريرك الخاص بك، ومن الأفضل كذلك أن تموت وأنت منتعلاً حذاءك. مهما تكن الرأفة والكفاءة في أي مستشفى، فإن الموت فيها يكون تفصيلاً ثانوياً قاسياً وقذراً، شيء ربما أصغر من أن يروى، لكنه يترك ذكريات مؤلمة بشكل رهيب خلفه، ينشأ من العجلة والاكتظاظ ومن تجرد المكان من العواطف الإنسانية، المكان الذي يموت فيه الناس يومياً وسط أشخاص غرباء.

ربما مازال الفزع من المشافي باقياً بين الفقراء جداً، والذي لم يختف فينا كلنا إلا مؤخراً. إنه لطخة سوداء ليست بعيدة عن سطح أذهاننا. لقد قلت في البدء إنني حين دخلت إلى الجناح في المستشفى سين، كنت مدركاً لشعور غريب من الألفة. ذكرني المشهد طبعاً بمستشفيات القرن التاسع عشر ذات الروائح الكريهة التي يملأها الألم، والتي لم أرها أبداً ولكن لدي معرفة تقليدية بها. وهناك شيء، ربما الطبيب الذي يرتدي الأسود مع حقيبته السوداء المزرية أو ربما الرائحة المثيرة للغثيان فقط، لعبت دوراً في الكشف عن قصيدة تينسون من ذاكرتي الدفينة، أطفال المستشفى، التي لم أفكر بها منذ عشرين سنة. حين كنت طفلاً، حدث أن قرأتها لي ممرضة بصوت عال، ربما امتدت حياتها للوراء إلى العصر الذي كتب فيه تينسون القصيدة. كانت حالات الرعب والعذاب في المشافي القديمة ذكرى نشطة بالنسبة إليها. ارتعدنا فوق القصيدة معاً ثم نسيتها بعد ذلك على ما يبدو. حتى اسمها لم يكن يذكرني بأي شيء. لكن اللمحة الأولى من الغرفة المضاءة بشكل سيء والممتلئة بالدمدمة مع أسرتها القريبة جداً من بعضها البعض، أيقظت فجأة سلسلة أفكار تنتمي إليها. وفي الليلة التي تلت، وجدت نفسي أتذكر القصة كلها وجو القصيدة مع كثير من أبياتها كاملة.

الكاتب البروليتاري

حوار بين جورج أورويل وديزموند هوكنز

هوكنز: كنت أشكك دائماً بوجود أدب بروليتاري. سؤالي الأول ماذا يقصد الناس به؟ هل نتوقع منه أن يكون أدباً كتب خصيصاً للبروليتاريا ويقرأ من قبلها؟

أورويل: كلا. لا بالتأكيد. في تلك الحالة يكون الأدب البروليتاري بعضاً من صحف الصباح، لكن بإمكانك رؤية وجود منشورات مثل **الكتابة الجديدة ومسرح الوحدة**. للمصطلح معنى ما لكن لسوء الحظ اختلطت به أفكار مختلفة. يقصد الناس به أدباً تحظى فيه وجهة نظر الطبقات العاملة بفرصة الاستماع إليها، والتي يفترض بها أنها تختلف عن وجهة نظر الطبقات الغنية، كما اختلط ذلك بالدعاية الاشتراكية أيضاً. لا أظن أن الذين يرمون هذا التعبير هنا وهناك يقصدون به أدباً يكتبه البروليتاريون. كان دبليو إتش ديفيز من البروليتاريا، لكنه لم يوصف ككاتب بروليتاريا، ووصف بول بوتس كاتباً بروليتارياً، ولم يكن من البروليتاريا. سبب شكي في الفكرة هو أنني لا أعتقد أن بإمكان البروليتاري إبداع أدب مستقل، والبروليتاريا ليست الطبقة المسيطرة. أعتقد أن أدبها يجب أن يكون أدباً برجوازياً بنكهة مختلفة قليلاً. أخيراً ما يفترض أنه جديد هو الوضع القديم مقلوباً على رأسه. إن القصائد التي كتبت عن الحرب الأهلية الإسبانية مثلاً كانت نسخاً عن المادة التي كتبها روبرت بروك في عام ١٩١٤.

هوكنز: لكن أعتقد أن على المرء أن يعترف بجماعة الأدب البروليتاري وبتأثيرها، سواء كانت النظرية صحيحة أم لا. انظر إلى كتاب مثل جيمس هانلي أو جاك هيلتون لديهم جديد يقولونه، شيء لم يقله أي أحد من الطبقة الوسطى العادية. طبعاً هناك قدر هائل من النفاق حول الأدب البروليتاري بعد سنوات من هبوط الأسعار حين أصبحت جماعة بلومزبيري (مجموعة من الأدباء والفنانين أشهرهم برتراند راسل وفيرجينيا وولف – المترجم) ماركسية كلها وأصبحت الشيوعية موضة رائجة، لكن الشيء بدأ قبل ذلك. يجب أن أقول إنه بدأ قبل

الحرب الأخيرة حين التقى محرر إنكليش ريفيو بذي إتش لورانس، ورأى فيه بشير لطبقة جديدة وجدت تعبيراً لها في الأدب. في الحقيقة لقد طرق كتاب أبناء وعشاق للورانس مجالاً جديداً مسجلاً بذلك تجربة لم يعرفها عالم النشر من قبل، ومع ذلك شاركته الملايين من الناس فيها. السؤال هو لماذا لم تدون قبل ذلك؟ ولماذا لم تكن هناك كتب مثل أبناء وعشاق قبل ذلك؟

أورويل: أعتقد أن المسالة ببساطة تتعلق بالتعليم. على أي حال نال لورانس تعليماً لا يختلف عن تعليم الطبقة الوسطى، رغم أنه كان ابن عامل منجم، وكان خريجاً جامعياً كما تذكر. قبل تاريخ محدد، قبل التسعينات حين بدأ تطبيق مرسوم التعليم، فلة قليلة من البروليتاريا استطاعت أن تكتب: أقصد أن تكتب بتسهيلات كافية لتنتج كتاباً أو قصة، ومن جانب آخر لا يعرف الكتاب المحترفون شيئاً عن حياة البروليتاريا. يشعر المرء بهذا حتى مع كتاب راديكاليين حقيقيين مثل ديكنز. لم يكتب ديكنز عن الطبقة العاملة، وهو لا يعرفها كفاية. لقد ناصر الطبقة العاملة، لكنه كان يشعر باختلافه التام عنها، أكثر مما يحس به أي فرد عادي من الطبقة الوسطى في الزمن الحالي.

هوكنز: إذا كان ظهور البروليتاريا مكنها أخيراً من إنتاج كتب، ما يعني تطوراً جديداً في الأدب موضوعه جديد كلياً وكذلك نظرته إلى الحياة؟

أورويل: نعم إلا فيما يتعلق بأن تجربة كل الطبقات في المجتمع تميل لأن تتشابه أكثر فأكثر. أنا أؤكد أن الفروق الطبقية في بلد مثل إنكلترا ليست فروقاً حقيقية الآن، لذلك لا يمكن أن تستمر أطول من ذلك. قبل خمسين سنة أو حتى عشرين، كان عامل المصنع والحرفي الصغير كائنين مختلفين، لكنهما متشابهين جداً في الوقت الحالي، رغم عدم إدراكهما لهذا. يشاهدان نفس الأفلام ويستمعان لنفس الراديو ويلبسان ثياباً متشابهة جداً ويسكنان في بيوت متشابهة. ما كان يسمى بروليتاري أو ما قصده ماركس بالبروليتاري، غير موجود الآن إلا في الصناعات الثقيلة وعلى الأرض. لكن ليس هناك شك بأن هذه خطوة كبيرة حين تطبع حياة الطبقة العاملة على الورق وتنشر. أعتقد أنها فعلت شيئاً لإعادة الفن القصصي إلى الواقع، وأبعدته عن الهراء المبالغ في التمدن الذي كتبه غلاسورثي وأمثاله. أعتقد أن الكتاب الأول الذي فعل هذا: المحسنون ذوو السراويل المرقعة الذي يبدو لي دائماً كتاباً رائعاً رغم أنه

كتب بلا اهتمام كبير. لقد دوّن أشياء كانت تجارب يومية لكنها لم تلاحظ من قبل. مثل القول إنه لم يلاحظ أحد قط قبل عام ١٨٠٠ بعد الميلاد أن البحر كان أزرق. جاك لندن كان رائداً في نفس الخط أيضاً.

هوكنز:ماذا عن اللغة والتكنيك؟ يقول سيريل كونولي، وقد تتذكر ذلك، إن الإبداعات العظيمة في الأدب أنجزت في التكنيك وليس المحتوى، والمثال على ذلك جويس الذي ليس عنده جديد سوى تكنيكه. لكن بالتأكيد هؤلاء البروليتاريون الثوريون لم يبدوا أي اهتمام في التكنيك؟ إن البعض منهم اختلف في الأسلوب قليلاً عن الروائيين الذين يحثون السيدة الورعة على الأخلاق. لقد كانت ثورتهم في المضمون – أليس ذلك؟

أورويل: أعتقد أن ذلك صحيح إلى حد بعيد. في الحقيقة أصبحت اللغة الإنكليزية عامية أكثر مما كانت قبل عشرين سنة، وذلك أفضل، لكننا استعرنا من أميركا أكثر بكثير مما أخذناه من الطبقة العاملة الإنكليزية. إن أحد الأشياء التي تلفت الانتباه، هي أن الكتاب البروليتاريين أو ممن يوصفون كذلك محافظون جداً. يمكننا أن نستثني كتاب ليونيل بريتن جوع وحب. لكن لو تفحصت مجلداً من الكتابة الجديدة، لن تجد تجارب كثيرة.

هوكنز: إذاً نحن نعود إلى هذا. إن ما يسمى بأدب بروليتاري يتمثل في الموضوع. أعتقد أن السحر حول هؤلاء الكتاب هو الحرب الطبقية والأمل بمستقبل أفضل وصراع الطبقة العاملة ضد الظروف المعيشية البائسة.

أورويل: نعم، الأدب البروليتاري في جوهره أدب ثورة. لا يمكنه أن يكون غير ذلك.

هوكنز: وخصامي معه حول هيمنة الاهتمامات السياسية عليه دائماً. أعتقد أن السياسيين والأدباء لا ينجحون معاً. هدف السياسي محدود دائماً وجزئي وقصير الأمد ومبسط جداً. يجب أن يكون هكذا كي يكون لديه أمل في التحقق. كمبدأ للعمل لا يمكنه أن يتحمل التفكير ملياً في نواقصه وفي الفضائل المحتملة لخصومه. لا يمكنه أن يفكر طويلاً في محنة ومأساة السعي الإنساني. باختصار يجب عليه أن يستثني الأشياء النفيسة في الفن. هل توافق أن الأدب البروليتاري حين يصبح أدباً، يكفّ عن أن يكون بروليتارياً – بالمعنى السياسي؟ أم أنه حين يصبح دعاية يكفّ أن يكون أدباً؟

أورويل: أعتقد أن ذلك تبسيطاً مفرطاً. قلت وأقول دائماً إن كل فنان هو مروج دعائي. لا أقصد المروج الدعائي السياسي. لا يمكن أن يكون غير ذلك إن كان يتمتع بأية مصداقية أو موهبة. أغلب الدعاية السياسية عبارة عن قول الأكاذيب ليس فيما يتعلق بالوقائع، وإنما بالمشاعر نفسها أيضاً. لكن كل فنان دعائي بمعنى أنه يحاول بصورة مباشرة أو غير مباشرة أن يعرض رؤية للحياة تبدو مرغوبة له. أعتقد أننا اتفقنا كثيراً حول الرؤية الحياتية التي يحاول الأدب البروليتاري فرضها. كما قلت قبل قليل إن السحر وراءه هو الحرب الطبقية. ذلك شيء حقيقي. بأي شكل أنه شيء يؤمن الناس به. شيء يموت الناس من أجله ويكتبون عنه أيضاً. لقد ماتوا من أجله في إسبانيا. رأيي في الأدب البروليتاري أنه مهم ومفيد حتى الآن، لكن من غير المرجح أن يكون دائماً أو بداية لعصر أدبي جديد. لقد تأسس على الثورة ضد الرأسمالية، والرأسمالية تختفي الآن. في الدولة الاشتراكية لن يجد الكثير من أدبائنا اليساريين من أمثال إدوارد ابوورد وكريستوفر كوديل وآليك بروان وآرثر كلادر مارشال وغيرهم الذين تخصصوا في مهاجمة المجتمع الذي يعيشون فيه، ما يهاجمونه. لنرجع لحظة إلى الكتاب الذي ذكرته آنفاً كتاب ليونيل بريتين جوع وحب. لقد كان بارزاً، وأظن أنه ممثل للأدب البروليتاري. حسناً، إنه يدور حول شاب بروليتاري يتمنى لو أنه لم يكن بروليتارياً. يستمر الكتاب في ظروف لا تحتمل من حياة الطبقة العاملة. السطح الذي يرشح والمغسلة التي تصدر رائحة منتنة وكل الأشياء المشابهة الأخرى. لا يمكن تأسيس أدب على سقف يرشح ومغسلة تصدر عنها رائحة نتنة. لا يمكنه أن يدوم كتقليد أكثر من حصار طروادة. يمكنك أن ترى خلف هذا الكتاب والكثير غيره التاريخ الحقيقي للكاتب البروليتاري الآن. من خلال حدث ما وغالباً ما يكون الكاتب على منحة البطالة لمدة طويلة - شاب من الطبقة العاملة ينال فرصة في التعلم الذاتي ثم يبدأ بعدها بكتابة الكتب، وطبيعي أن يستفيد من تجاربه السابقة ومعاناته الفقر وثورته ضد النظام القائم وهلم جرا، لكنه لا يبدع أدباً مستقلاً في الحقيقة. هو يكتب بأسلوب برجوازي وبلهجة الطبقة الوسطى. إنه ببساطة الخروف الأسود (الضحية) في العائلة البرجوازية، يستخدم أساليب قديمة لأغراض مختلفة قليلاً. لا تسئ فهمي. أنا أقول لا بمكنه أن يكون كاتباً جيداً كغيره، لكن إن كان كذلك فليس لأنه رجل عامل، وإنما لأنه شخص موهوب وتعلم أن يكتب بشكل جيد. طالما البرجوازية هي الطبقة المسيطرة، فيجب

أن يكون الأدب برجوازياً، لكن لا أظنها ستظل كذلك طويلاً أو أي طبقة أخرى أيضاً. أعتقد أننا نمر بفترة لاطبقية، وما نسميه أدب بروليتاري، هو إحدى علامات التغيير. لكني لا أنكر ولو للحظة الخير الذي فعله - التأثير المنشط له في تمكين مثل وقيم تجربة الطبقة العاملة من الطبع والنشر.

هوكنز: وطبعاً كمكسب إيجابي. لقد ترك وراءه الكثير من الكتب الجيدة.

أورويل: أوه نعم، كتاب جاك لندن **الطريق** وجاك هيلتون **كاليبان يصرخ** وجيم فيلان **كتب السجن** وجورج غاريت **قصص البحر** وبرايفت ريتشارد **الجندي العجوز** صاحب وجيمس هانلي **أطفال غري** - لم نذكر سوى القليل فقط.

هوكنز: طوال هذا الوقت لم تقل شيئاً عن الأدب الذي تقرأه البروليتاريا - ليس الصحف الصباحية وإنما الأسبوعيات التي تباع بسنتين؟

أورويل: نعم يجب أن أقول إن الصحف الأسبوعية أكثر نموذجية. صحف مثل هوم شات أو اكستشينج اند مارت وكيج بيردز.

هوكنز: ولم تقل شيئاً عن الأدب الذي يأتي من الناس أنفسهم. خذ القصائد الغنائية حول نار الخيمة للرجال الذي شقوا سكة حديد الباسيفيك الكندي وأكواخ البحر. قصائد الزنوج مثل "ستاغولي" ولوحات الشوارع القديمة - خصوصاً التي عن الإعدامات، النوع الذي يفترض أنه ألهم كيلينغ في كتابه "داني دوفر" ونقوش الرثاء على الأضرحة والقصائد الفكاهية المؤلفة من خمسة أبيات والإعلانات المقفاة - التصقت بالشعر، تلك هي الأدب المميز للبروليتاريا أليس كذلك؟

أورويل: نعم وينبغي ألا ننسى الدعايات التي على البطاقات البريدية الملونة الهزلية وخصوصاً بطاقات دونالد ماكجيل. أنا متعلق بتلك على نحو خاص. أولاً والأهم الأغاني التي ألفها الجنود وغنوها لأنفسهم في الحرب الأخيرة، وأغاني الجيش الأخيرة لنداءات البوق والاستعراض العسكري - ذلك هو الشعر الحقيقي في زمننا، كالقصائد الغنائية في العصور الوسطى. من المحزن أنها غير قابلة للطبع دائماً.

هوكنز: لكن أخشى أننا انجرفنا إلى الأدب الشعبي، ويبدو لي أننا يجب أن نبقي الشيئين الاثنين متميزين عن بعضهما. أتصور مما قلته أن كلمة "بروليتاري" تكون بلا معنى إن فصلتها عن السياسة الثورية.

أورويل: نعم، مصطلح بروليتاري سياسي، لا ينتمي إلا إلى العصر الصناعي.

هوكنز: حسناً، أعتقد أننا متفقان تماماً على أن نظرية وجود أدب بروليتاري منفصل فاشلة. فعلى الرغم من كل الاختلاف الظاهر، فهو يندرج ضمن إطار ما تسميه بالكتابة البرجوازية.في اتفاق تام.

أورويل: أنا لا أقصد ببرجوازي وبرجوازية، الناس الذي يبيعون ويشترون فقط، وإنما أقصد كل الثقافة المهيمنة في عصرنا.

هوكنز: لو اتفقنا حول ذلك، يبقى علينا تقييم الدور والمساهمة التي قدمها ما يسمون بكتاب بروليتاريين، ولأنها مساهمة فمن السخف إهمال ذلك بحذف النظرية والتخلص منها.

أورويل: أعتقد بأنهم قدموا نوعين من المساهمة؛ الأول قدموا موضوعاً جديداً إلى حد ما دلّ كتاباً آخرين ليسوا من الطبقة العاملة، إلى النظر إلى أشياء كانت تحت أنوفهم ولم يلاحظوها من قبل؛ الثاني أدخلوا نغمة يكمن تسميها فجاجة وحيوية. كانوا صوتاً في الصالة منع الناس من أن يصبحوا مسرفين في التناغم والتمدن.

هوكنز: وهناك إسهام آخر أنت ذكرته آنفاً وهو اللغة. أكد تي إس ايليوت الأهمية الدائمة لاستجرار الكلمات المصاغة حديثاً إلى اللغة، وفي السنوات الأخيرة أتت هذه الكلمات الجديدة والعبارات من الطبقة العاملة بشكل أساسي. قد تكون من السينما أو الشارع أو عبر أية قناة، لكن الكاتب البروليتاري يستحق الفضل والشكر لإعطاء اللغة الإنكليزية الكثير من حيويتها ولونها.

أورويل: حسناً، طبعاً، السؤال إن كان لديها الكثير من اللون! لكن الشيء! لكن الشيء الذي نستطيع قوله عن النثر النموذجي في السنوات العشر الأخيرة، هو عدم احتوائه على الكثير من الزخارف والنعوت غير الضرورية. إنه بسيط. لكن هناك شك قليل إن كان هذا النوع من النثر الذي تطور بهذه الطريقة مناسباً للتعبير عن الأفكار المصقولة جداً لكنه ممتاز

لوصف الفعل، وهو ترياق جيد للنموذج المصقول بإفراط الذي اعتاد أن يكون الرائج - جيد جداً في طريقته طبعاً لكن ينزع إلى إضعاف اللغة برمتها.

هوكنز: حسناً لنختم - يبدو وكأن شعار الأدب البروليتاري قد حقق حشداً وتأييداً لعمل ما يستحق التملك، ومرتكزاً لكتاب الطبقة العاملة، سواء كانوا ثوريين أم لا في التكنيك أو في السياسة أو في الموضوع، لكن العبارة نفسها كمصطلح نقدي بلا فائدة عملياً.

أورويل: هناك فائدة معينة له كطابع لأدب مغاير ينتمي إلى فترة انتقال وتحول، لكن أتفق معك أنه لكي يكون هناك ما يمكن تسميته فعلياً بأدب بروليتاري، يجب أن تكون البروليتاريا الطبقة المسيطرة.

هوكنز: نعم، وبافتراض ذلك، يجب بالتأكيد أن تغير طبيعتها. وذلك يظل تاركاً السؤال الذي لامسناه للتو مفتوحاً - إلى أي مدى يمكن إدخال السياسة في الفن من دون أن تفسده؟

بثت في الخدمة الوطنية لمحطة البي بي سي في ٦ ديسمبر ١٩٤٠ ونشرت في ذا ليسنر في ١٩ ديسمبر ١٩٤٠.

مجلات الصبيان الأسبوعية
ورد فرانك ريتشاردز

لن تبتعد كثيراً في أي حي فقير في البلدات الكبيرة أبداً، من دون أن تصادف متجراً صغيراً لبيع الصحف. المظهر العام لهذه المحال نفسه دائماً: ملصقات قليلة للديلي ميل ونيوز إف ذا ورلد في الخارج، واجهة زجاجية صغيرة وضيقة مع قناني الحلويات ورزم من بليرز، وداخل مظلم تفوح منه رائحة كل أنواع الكحول، وأشرطة زينة من الأرض إلى السقف بصحف رخيصة، أغلبها مع رسوم أغلفة مثيرة في ثلاثة ألوان.

باستثناء الصحف النهارية والمسائية، مخزون هذه المحال نادراً ما يتطابق مع محلات بيع الصحف الكبيرة. خط مبيعاتها الرئيسي هو الأسبوعيات التي بپنسين، أما عدد وتنوع هذه الأسبوعيات فهو لا يصدق. لكل هواية وتسلية صحيفة على الأقل مكرسة لها من طيور الأقفاص والزخرفة بالنشر والنجارة والنحل والحمام الزاجل واستحضار الأرواح في البيت وجمع الطوابع البريدية والشطرنج وغيره. للبستنة وتربية الماشية هناك عشرون أسبوعية على الأقل، وهناك الصحف الرياضية وصحف الإذاعة وصحف رسوم الأطفال المزلية وصحف القصاصات المتنوعة مثل تيت - بيتس، ونطاق واسع من الصحف المكرسة للأفلام، والتي تستغل سيقان النساء، وصحف الحرف المتنوعة، وصحف قصص النساء (أوراكل، سيكريتس، بيغز بيبر، إلخ إلخ) وصحف التطريز - هذه كثيرة جداً لدرجة أن عرضها لوحدها يملأ واجهة محل كاملة - بالإضافة إلى سلسلة طويلة من "يانك ماغز" (قصص الملاكمة وقصص الأكشن وقصص قصيرة غريبة، إلخ) وهي نفايات محلات الكتب التي استوردت من أمريكا، وتباع بپنسين ونصف أو ثلاثة، والصحف الدورية التي تتظلل شيد زاف في قصص طويلة بأربع بنسات، الداين بوكسينغ نوفيلز وبويز ريفاييند لايبراري وذا سكولغيرلز اون لايبراري وكثير غيرها.

ربما محتويات هذه المحلات، هي العلامة المتاحة الأفضل عما تشعر به وتفكر فيه جماهير الشعب الإنكليزي حقيقة. بالتأكيد ليس هناك شيء كاشف في شكل وثائقي على الإطلاق،

فالروايات الأكثر رواجاً مثلاً، تروي الكثير، لكن الرواية تستهدف حصرياً أناساً مستوى دخلهم الأسبوعي فوق الأربعة جنيهات، أما الأفلام فعلى الأرجح دليل غير موثوق عن الذوق الشعبي، لأن صناعة الأفلام عملياً احتكار، ما يعني أنها غير مجبرة على دراسة جمهورها عن كثب إطلاقاً. الشيء عينه يطبق إلى حد ما على الصحف اليومية، وأغلبه على الراديو. لكنه لا ينطبق على الصحف الأسبوعية ذات التوزيع القليل والمواضيع المختصة. صحف مثل **ايكستشينج اند مارت أو كيج - بيردز أو أوراكل أو بريديكشن أو ماتريمونيال تايمز** يعتمد وجودها على طلب محدد، فإنها تعكس أذهان قرائها، بشكل لا تستطيع فعله صحف يومية وطنية كبرى مع توزيع بالملايين.

هنا أنا سأتعامل مع سلسلة واحدة فقط من الصحف، أسبوعيات الصبيان الرخيصة، والتي توصف بشكل خاطئ بـ"القصص المثيرة التي تباع ببنس". تندرج بشكل صارم في هذا النوع هنا حالياً عشر صحف، ذا جيم وماغنيت ومودرن بوي وتريومف وتشامبيون التي تملكها المطبعة المندمجة، وذا ويزارد وروفر وسكيبر وهوتسبر وادفنتشر المملوكة من قبل دي سي ثومبسون اند كو. أنا لا أعرف حجم توزيع هذه الصحف. المحررون وأصحاب الملك يرفضون تحديد أي رقم. وفي كل الأحوال حجم توزيع أي صحيفة تحمل قصصاً متسلسلة محكوم بالتذبذب بشكل واسع، لكن ليس هناك شك بأن للصحف العشرة جمهوراً كبيراً جداً. فهي تباع في كل مدينة في إنكلترا، وكل صبي يقرأ تقريباً يمر بطور قراءة واحدة أو أكثر منها. ذا جيم وماغنيت، وهما أقدم هذه الصحف، هما من أنموذج مختلف عن البقية وخسرتا بعضاً من شعبيتهما خلال السنوات القليلة الأخيرة بشكل واضح، فهناك عدد جيد من الصبيان الآن يعتبرونهما قديمتي الطراز و"بليدتين". مع ذلك أريد أن أناقشهما أولاً لأنهما ممتعتان نفسياً أكثر من الأخريات، ولأن مجرد بقاء مثل هاتين الصحيفتين في ثلاثينات القرن العشرين ظاهرة مدهشة.

ذا جيم وماغنيت هما صحيفتان أختان (صفات إحداهما تظهر في الأخرى كثيراً) وبدأتا منذ أكثر من ثلاثين سنة، وكانتا بنفس الوقت الصحف الرئيسية والهامة للصبيان مع تشامز وبي أو بي القديمة، وظلتا مهيمنتين إلى وقت قريب جداً. تحمل كل واحدة منهما أسبوعياً قصة مدرسية من خمسة عشر أو عشرين ألف كلمة، تامة بنفسها لكنها متصلة تقريباً بقصة الأسبوع الذي سبق. بالإضافة إلى قصتها المدرسية، تحمل ذا جيم قصة مغامرات متسلسلة

واحدة أو أكثر. باستثناء ذلك، فالصحيفتان متشابهتان جداً للدرجة يمكن التعامل معهما كواحدة، لكن ذا ماغنيت كانت دائماً الأفضل، وذلك ربما لأنها تمتلك ميزة ممتازة في الصبي البدين، بيلي بنتر.

إن فحوى القصص عن الحياة المدرسية، أما المدارس (غريفرايرز في ذا ماغنيت وسينت جيم في ذا جيم) فتمثلان المؤسستين القديمة جداً والحديثة من أنموذجي ايتون أو وينشستر. كل الشخصيات الرئيسية صبيان من الصف الرابع بأعمار الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، ويظهر صبيان أكبر أو أصغر في أدوار ثانوية جداً فقط مثل سيسكتون بليك ونيلسون لي، فهذان الصبيان يستمران أسبوعاً تلو آخر وسنة تلو أخرى من دون أن يكبرا أبداً. بين حين وآخر يصل صبي جديد أو تسقط شخصية ثانوية، لكن الشخصيات لم تتغير بأي معدل في الخمس وعشرين سنة الأخيرة إلا نادراً. كل الشخصيات الرئيسية في كلتا الصحيفتين - بوب تشيري وتوم ميري وهاري وارتون وجوني بول وبيلي بنتر والبقية غيرهم - كانوا في غريفرايرز أو سينت جيم من قبل الحرب الكبرى بوقت طويل، وهم بنفس العمر تماماً كما في الوقت الحاضر، ولديهم نفس المغامرات تقريباً، ويتحدثون بنفس اللهجة تماماً. ولم تظل الشخصيات فقط بلا تغيير وإنما جو ذا جيم وماغنيت كله من خلال تطبيق أسلوب متقن جزئياً، فقصص صحيفة ذا ماغنيت توقع باسم "فرانك ريتشاردز"، وقصص صحيفة ذا جيم باسم "مارتن كليفورد"، لكن السلسلة تستمر لمدة ثلاثين سنة، ولايمكن أن تكون عمل الشخص نفسه أسبوعياً، وبناء على هذا كانت تكتب بأسلوب يسهل تقليده - أسلوب غير عادي متكلف وتكراري، يختلف تماماً عن أي شيء آخر موجود في الأدب الإنكليزي. اقتباسان من ذا ماغنيت يكفيان لعملية الإيضاح:

تأوه!

اصمت، يا بنتر!

تأوه!

لم يكن الصمت في الحقيقة في خط بيلي بنتر، فهو لا يصمت بالرغم من الطلب المتكرر. في المناسبة البغيضة المقدمة، لم يكن البوم البدين من غريفرابرز ميالاً إلى الصمت، وهو لم يصمت! تأوه وتأوه واستمر في التأوه.

حتى التأوه لم يعبر تماماً عن مشاعر بنتر، فمشاعره لا يمكن التعبير عنها في الحقيقة.

كان هناك ستة منهم في المأزق! لم ينطق بأصوات الولولة والعويل من الستة إلا واحد منهم فقط، وكان ذلك الواحد ويليام جورج بنتر الذي تلفظ بما يكفي ويزيد عن كل الفريق.

وقف هاري وارتون وشركاه في مجموعة حانقة وقلقة، وتم إنزالهم إلى اليابسة وسوقهم إلى الشاطئ؛ حيث خدعوا وأطعموا وحكم عليهم بالهلاك! إلخ إلخ إلخ.

وهذا مقتطف من ذا جيم:

أيها المغفل!

أيها المضغة!

أوووووف!

أووفف!

جلس آرثر أغسطوس مشوش الذهن. أمسك منديله وضغطه على أنفه المصاب، أما توم ميري فجلس يلهث من أجل نسمة، نظرا إلى بعضهما.

"بحق جوبيتر! هذه مباراة، أيها الصبي العزيز!" صاح آرثر أغسطوس بصوت متقطع. "لقد رميت في أخدود، آه المياه! المتوحشون! الدخلاء المخيفون! يا للهول!" إلخ إلخ إلخ.

هذان مقطعان نموذجيان تماماً: ستجد مثلهما في كل فصل تقريباً من كل عدد، سواء كان اليوم أو منذ عشرين سنة. الشيء الأول الذي يلاحظه أي واحد، هو المقدار غير العادي من الحشو (المقطع الأول يحتوي على مائة وخمس وعشرين كلمة، التي يمكن ضغطها إلى ثلاثين تقريباً) المصمم على ما يبدو لإطالة القصة، لكنه عملياً يلعب دوره في خلق الجو، ولنفس السبب تكرر تعبيرات فكاهية متنوعة مرة تلو أخرى مثل "حنق واهتز وسكب الطعام وهلك" كما تتكرر على الدوام أوووف! غروو! ياروو! (صيحات ألم) وهكذا ها! ها! ها! التي تأخذ سطراً كاملاً لوحدها دائماً. لهذا أحياناً يتألف ربع عمود تقريباً من "ها! ها! ها!" ولم تتبدل اللغة العامية كذلك (اذهب واجلد الكوك...مثلاً يا لها من جلدة! أنت حمار فرابجوس) لهذا يستخدم الصبيان الآن لغة عامية باتت عتيقة منذ ثلاثين سنة على الأقل. بالإضافة إلى ذلك تصقل الألقاب المتنوعة في كل مناسبة ممكنة، ونُذكّر دائماً بأن هاري وارتون

وشركاه هم "المشاهير الخمسة" وبنتر دائماً "اليوم البدين" أو "بوم الصف الانتقالي" فيرمون - سميث دائماً المرح والصاخب في غريفرايرز، أما غوسي (المبجل آرثر أغسطوس دي اكري) فهو الأبرز في سينت جيم وهلم جرا. هناك محاولة دائمة لا تكل للحفاظ على سلامة الجو والتأكد من أن كل قارئ جديد يعرف فوراً كل شخصية ومن تكون. وفي النتيجة تحولت غريفرايرز وسينت جيم إلى عالم غير عادي بحد ذاتها، عالم لا يمكن أخذه على محمل الجد من قبل أي شخص فوق سن الخامسة عشرة، ولكنه بكل المعايير عالم لا يمكن نسيانه بسهولة. بنيت سلسلة من "الشخصيات" المقولبة في تقليد لأسلوب ديكنز بشكل ناجح جداً أحياناً، لهذا يجب أن يكون بيلي بنتر مثلاً واحداً من أشهر الشخصيات في القصص الإنكليزي؛ فهو بالنسبة إلى عدد الناس الذين يعرفونه، يحتل مرتبة مع سيكستون بليك وطرزان وشارلوك هولمز وحفنة من شخصيات ديكنز.

لا حاجة للقول بأن هذه القصص تختلف كثيراً جداً عن الحياة في مدرسة عامة حقيقية. إنها تحدث في دوائر من نماذج مختلفة، لكنها عموماً من أنموذج القصة الهزلية والصاخبة مع اهتمام مركز على مزاج خشن ونكات عملية وانتقادات لاذعة وجولات قتالية وضرب بعصي الخيزران وكرة قدم وكريكيت وطعام. قصة تتكرر باستمرار، وهي قصة صبي يتهم بجرم ما ارتكبه آخر، لكن يصعب على الرياضي كشف الحقيقة. الصبيان "الأخيار" هم "أخيار" في العرف المحتشم للرجل الإنكليزي - يواظبون على تدريب صعب ويغسلون خلف آذانهم ولا يضربون تحت الحزام أبداً إلخ إلخ، - وبالتباين هناك سلسلة من الصبيان "الأشرار" راك وكروك ولودر وآخرون الذين يتكون شرهم من المراهنات وتدخين السجائر وارتياد الحانات، وهؤلاء الصبيان دائماً على حافة الطرد، لكن بما أن طرد أي صبي فعلياً يعني تبديلاً في مجموع الشخصيات في القصة، لذلك لا يُمسك أي منهم في جرم خطير حقيقي. إن السرقة مثلاً نادراً ما تدخل كدافع، والجنس محرم تماماً، وخصوصا في الشكل الذي يظهر في المدارس العامة فعلياً. أحياناً تدخل الصبايا في القصة، ونادراً جداً ما يكون هناك ما يقارب الغزل المعتدل لكنه بروح الهزل الصرف. صبي وصبية يستمتعان برحلة على الدراجات الهوائية معاً - هذا كل ما تصل إليه، فالتقبيل مثلاً يعتبر "عاطفياً إلى حد مفرط" ويفترض أن الصبيان السيئين بلا جنس تماماً حتى. حين بدأت جيم وماغنيت، كانت هناك نية متعمدة في الابتعاد عن الجو الآثم الملوث بالجنس الذي تفشى

كثيراً جداً في أدب الأطفال الأقدم. في التسعينيات مثلاً كانت لصحيفة ذا بويز اوون بيب أعمدة مراسلة مملوءة بتحذيرات مرعبة ضد الاستمناء، وأثقلت كتب مثل شارع وينيفرد وأيام توم بروان في المدرسة بالمشاعر اللوطية من دون أن يدرك مؤلفوها ذلك بلا شك. في ذا جيم وماغنيت لم يتواجد الجنس كمشكلة، وكان الدين أيضاً من المحرمات. وخلال ثلاثين سنة من إصدار الجريدتين، لم تخطر كلمة "رب" ماعدا في "أطال الرب عمر الملك". ومن جانب آخر كان هناك دائماً "ضبط للنفس" قوي جداً، واعتبر شرب الكحول والتدخين عملاً شائناً حتى في سن الرشد ("مضلل" الكلمة المعتادة) لكنهما كانا بنفس الوقت شيئاً فاتناً بشكل لا يقاوم ونوعاً بديلاً عن الجنس. في جوهما الأخلاقي ذا جيم وماغنيت تتشابهان كثيراً مع حركة صبيان الكشافة التي بدأت بنفس الوقت.

كل هذا النوع من الأدب منتحل جزئياً، فسيكستون بليك مثلاً بدأ بشكل صريح تماماً كتقليد لشارلوك هولمز وظل يشبهه بقوة: له معالم صقر ويعيش في شارع بيكر ويدخن بشكل هائل ويلبس رداء حريرياً بيتياً حين يريد أن يفكر. ربما تدين كل من ذا جيم وماغنيت بشيء إلى كتّاب القصة المدرسية القديمة الذين ازدهروا حين بدأ غنباي هداث وديزموند كوك والبقية، لكنهما تدينان أكثر إلى نماذج القرن التاسع عشر. إن شبه - إن وجد - ركبي توم براون بمدرسة عامة حديثة مثل شبه غريفرايرز وسينت جيم بالمدارس الحقيقية، فمثلاً لا يوجد في كلا المدرستين مدرب رياضية والألعاب ليست إجبارية، ويُسمح للأولاد فيهما بلبس الثياب التي يحبون. لكن المصدر الرئيسي لهاتين الجريدتين هو كتاب ستوكي اند كو بدون شك الذي كان له تأثير هائل على أدب الصبيان، وهو واحد من تلك الكتب التي تملك نوعاً من السمعة التقليدية عند أناس لم يروا في حياتهم نسخة واحدة منه. ففي أكثر من مرة وجدت إشارة إلى ستوكي اند كو في صحف الصبيان الأسبوعية، وكُتبت كلمة ستوكي فيها"ستوركي" كما أخذنا من الكتاب اسم الممثل الهزلي الرئيسي بين مدرسي غريفرايرز، السيد براوت من ستوكي اند كو أيضاً بالإضافة إلى الكثير جداً من اللغة العامية مثل مرح ومسبب للدوار وتجار وفرابجوس..إلخ، التي كانت قديمة حتى حين بدأت ذا جيم وماغنيت. هناك مصادر أسبق أيضاً، فربما أخذ اسم "غريفرايرز" من ثاكري وغوسلينغ وبواب المدرسة في ذا ماغنيت يتحدث مقلداً لهجة ديكنز.

لكن مع كل هذا، صُورت "الفتنة" المزعومة للحياة في المدرسة العامة بكل ما تستحق. هناك الممتلكات الشخصية وغرفة الحجز وسجل التفقد، والبيوت المصنوعة من عيدان الكبريت وتدخين السجائر، والطالب المتقدم (العريف)، والشاي الدافئ حول موقد الدراسة..إلخ – وإشارة دائمة إلى "المدرسة القديمة" و"الحجارة الرمادية القديمة" (كلا المدرستين أسستا في بداية القرن السادس عشر) و"روح الفريق" عند "رجال غريفرايرز"، وكان الاتهام بالتكبر غير معيب أبداً. كل مدرسة لديها صبي أو اثنين بلقب تقتحم ألقابها وجه القارئ دائماً، وهناك صبيان آخرون يحملون أسماء عائلات أرستقراطية مشهورة، تالبوت ومانرز ولاوثر، ونُذكر دائماً بأن غوسي هو المبجل آرثر أي دياركي ابن اللورد ايستوود وأن بليك هو الوريث "لأطيان واسعة"، وأن هوري جامسيت سنج (الملقب انكي) هو صاحب الثروة والمكانة في بهانيبور، وأن والد فيرمون – سميث مليونير. حتى وقت متأخر ظلت الرسومات التوضيحية في كلا الصحيفتين تصور الصبيان في ملابس تقلد ملابس ايتون. في السنوات القليلة الأخيرة بدلت غريفراريز السترة الفضفاضة وبنطال الفلانيلة، لكن سينت جيمس تمسكت بسترة ايتون وتمسك غوسي بقبعته العالية. في مجلة المدرسة التي تظهر كل أسبوع كجزء من ماغنيت، يكتب هاري وارتون مقالاً يناقش فيه مصروف الجيب الذي يأخذه "الرفاق في الصف الانتقالي" ويكشف أن بعضهم يحصل على مبلغ كبير يصل إلى خمسة جنيهات في الأسبوع! هذا النوع تحريض متعمد تماماً لفنتازيا الثروة. وهنا تجدر الملاحظة كواقع غريب بأن القصة المدرسية شيء خاص بإنكلترا، وبالقدر الذي أعرفه هناك قصص مدرسية قليلة جداً جداً في اللغات الأجنبية، والسبب كما هو واضح، أن التعليم في إنكلترا هو مسألة مكانة بشكل رئيسي. إن الخط الفاصل الواضح بين البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملة، أن الأولى تدفع من أجل تعليمها وضمن الطبقة البورجوازية هناك فجوة أخرى يتعذر تجسيرها بين المدرسة "العامة" والمدرسة "الخاصة". من الواضح تماماً وجود عشرات الآلاف من الناس الذين يرون في أي تفصيل من الحياة في مدرسة "ممتازة" شيئاً مثيراً ورومانتيكياً. حدث أن كانوا خارج ذلك العالم الخفي بساحاته المربعة وبيوته الملونة، لكنهم يشتاقون إليه ويحلمون به في يقظتهم، ويعيشون فيه عقلياً لساعات طويلة في المرة الواحدة. السؤال هو من هم هؤلاء الناس؟ من يقرأ ذا جيم وماغنيت؟

من الواضح أن المرء لن يكون متأكداً من هذا النوع من الشيء. كل ما أستطيع قوله من خلال رصدي هو أن الصبيان المرجح أن يذهبوا إلى المدارس العامة يقرأون عادة ذا جيم وماغنيت، لكنهم عادة يتوقفون عن قراءتها دائماً حين يبلغون سن الثانية عشرة، أو ربما يستمرون لسنة أخرى بقوة العادة، لكنهم في ذلك العمر يتوقفون عن أخذها بجدية. من جانب آخر يواصل الصبيان في المدارس الخاصة الرخيصة جداً والمدارس التي صممت للناس الذين لا يستطيعون تحمل تكلفة المدارس العامة ويعتبرون مدارس المجلس "وضيعة"، قراءة ذا جيم وماغنيت لعدة سنوات أطول. منذ بضع سنوات كنت معلماً في اثنتين من هذه المدارس، واكتشفت أن الصبيان عملياً لا يقرأون ذا جيم وماغنيت فقط، وإنما يأخذونها بشكل جدي حتى حين بلغوا الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر. هؤلاء الصبيان كانوا أبناء أصحاب الحوانيت وموظفي المكاتب والتجار الصغار والمهنيين، ومن الواضح أنهم الطبقة التي تستهدفها ذا جيم وماغنيت. لكنهما تقرآن من قبل صبيان الطبقة العاملة أيضاً وتُباعان عموماً في أفقر أحياء البلدات الكبيرة، وأعرف أنهما تُقرآن من قبل صبيان يتوقع المرء أنهم منيعون من "فتنة" المدارس العمومية. فمثلاً رأيت عامل منجم صغير، صبي عمل لسنة أو سنتين تحت الأرض يقرأ ذا جيم بتشوق. ومؤخراً قدمت كمية من الصحف الإنكليزية لجنود بريطانيين من الفيلق الأجنبي الفرنسي في شمال أفريقيا؛ فاختاروا منها ذا جيم وماغنيت أولاً. كلا الصحيفتان تُقرآن من قبل الصبايا، ويكشف قسم أصدقاء المراسلة في ذا جيم، أنها تُقرأ في كل ركن من الإمبراطورية البريطانية من قبل الأستراليين والكنديين واليهود والفلسطينيين والمالاويين والعرب وصينيي المضائق..إلخ إلخ. يتوقع المحررون من قرائهم أن تكون أعمارهم حوالي الرابعة عشرة، وتشير الإعلانات تقريباً (الشوكولا بالحليب والطوابع البريدية والمسدسات المائية ومعالجة احمرار الوجه وخدع السحر ومسحوق الحكة وفاين فون رينغ الذي يدخل إبرة في يد صديقك..إلخ) إلى نفس العمر، وهناك الإعلانات الأميرالية أيضاً التي تخاطب الشباب بين السابعة عشرة والثانية والعشرين، وليس هناك شك بأن هذه الصحف تُقرأ من قبل البالغين أيضاً، فمن المألوف تماماً للناس أن يكتبوا إلى هيئة التحرير ويقولون إنهم قرأوا كل عدد من ذا جيم وماغنيت في الثلاثين سنة الماضية. هنا رسالة مثلاً من سيدة في سليزبيري:

أستطيع القول عن قصص هاري وارتون وشركاه الممتازة من غريفرايرز، بأنها لم تخفق في الوصول إلى المستوى الرفيع أبداً، وهي بلا شك من أجمل القصص في نوعها في السوق اليوم، وهذا يعني الكثير، فهي تضعكم وجهاً لوجه مع نيتشر. أنا أخذت ذا ماغنيت منذ البداية، وتابعت مغامرات هاري وارتون وشركاه باهتمام جذل. ليس لدي أبناء ذكور، ولكن عندي ابنتان تطلبان بإلحاح دائم أن تكونا أول من يقرأ الصحيفة الرائعة القيمة، وزوجي أيضاً كان قارئاً وفياً للماغنيت إلى أن سُلب منا فجأة.

يجدر بنا الحصول على بعض النسخ من صحيفتي ذا جيم وماغنيت، خصوصاً ذا جيم لنلقي نظرة على عمود المراسلة. المدهش حقيقة هو الاهتمام المركز في متابعة أدق تفاصيل الحياة وأصغرها في غريفريرز وسينت جيم. هنا مثلاً، بعض الأسئلة التي أرسلها القراء:

"ما هو عمر ديك رويلانس؟ كم عمر سينت جيم؟ هل يمكنكم إعطائي قائمة بالقوقعة ودراساتهم، كم كلفت نظارة داركي الوحيدة العدسة؟ كيف يستقيم الأمر بأن يكون القوقعة رفاق مثل كروك ويكون رفاق محترمون مثلك في الصف الرابع فقط؟ ما هي واجبات كابتن الصف الرابع الرئيسية؟ (من فتاة)، أين توجد سينت جيم؟ هل يمكنك أن تخبرني كيف أصل إلى هناك لأنني أحب أن أرى العمارة؟ هل أنتم صبيان (مزيفون) تماماً كما أظنكم؟".

من الواضح أن الكثير من الصبيان والفتيات الذين يكتبون هذه الرسائل، يعيشون في حياة خيالية تماماً. أحياناً يكتب صبي مثلاً معطياً عمره وطوله وقياس صدره وعضلة الذراع، ويسأل عن العضو من القوقعة أو الصف الرابع الأكثر شبها به، كما أن المطالبة بقائمة بالدراسات على رحلة القوقعة مع تقرير دقيق عن كل واحد يعيش فيها مألوف وعادي جداً. يبذل المحررون كل ما في وسعهم طبعاً للحفاظ على الوهم، ففي ذا جيم يكتب جاك بلاك كما يفترض أجوبة الرسائل، وفي ذا ماغنيت تُخصص صفحتان دائماً لمجلة المدرسة (ذا غريفرايرز هيرالد) التي يحررها هاري وارتون. وهناك صفحة أخرى تكتب فيها شخصية أخرى كل أسبوع. تجري القصص في دورات وتظل شخصيتان أو ثلاثة في الطليعة لعدة أسابيع متواصلة في الدورة الواحدة. أولاً تكون هناك سلسلة من قصص المغامرات المرحة تصور المشهورين الخمسة وبيلي بنتر؛ ثم تأتي سلسلة من قصص تدور حول هوية مزيفة مع وبيلي (ساحر المكياج ميك آب) في دور النجم؛ ثم دفقة من قصص أكثر جدية فيها فيرنون -

سميث يرتعش على حافة الطرد. وهنا يأتي المرء إلى السر الحقيقي للجيم والماغنيت والسبب الأرجح الذي يجعل الناس يستمرون في قراءتها، بالرغم من قدمهما الواضح وبطلانهما.

إن السبب هو الشخصيات التي صنفت بعناية لتعطي كل أنموذج من القراء شخصية يستطيع التماثل والتطابق معها. أغلب صحف الصبيان تهدف إلى فعل هذا، ولهذا هناك المساعد الصبي (تينكر لسيكستون بليك ونيبر لنيلسون لي..إلخ) الذي يرافق المستكشف عادة أو البوليس السري أو أياً كان في كل مغامراته. لكن في هذه الحالات هناك صبي واحد ونفس النموذج من الصبيان على الأكثر عادة. في ذا جيم وماغنيت هناك أنموذج لكل شخص تقريباً. هناك الصبي الرياضي الشجاع العادي (توم ميري وجاك بلاك وفرانك ناغينت) ونسخة أكثر فظاظة قليلاً من هذا الأنموذج (بوب تشيري) ونسخة أكثر أناقة وأرستقراطية (تاليوت ومانرز) ونسخة أهدأ وأكثر جدية (هاري وارتون) ونسخة متبلدة قوية وجسورة (جوني بول). ثم هناك أنموذج الصبي الجريء والمتهور (فيرنون - سميث) والصبي الذكي والمجتهد بشكل واضح (مارك لينلي وديك بينفولد) والصبي الغريب الأطوار غير البارع في الألعاب لكن لديه موهبة خاصة (سكينر ويبلي)، وهناك صبي المنحة الدراسية (توم ريدوينغ) وهو شخصية مهمة في هذا الصنف من القصص، لأنه يمكّن الصبيان المتحدرين من بيوت فقيرة من تخيل أنفسهم في جو المدارس العامة. وبالإضافة إلى ذلك هناك الأسترالي والإيرلندي وصبيان ويلز ومانكس ويوركشاير ولانكشاير، واللعب على الشعور الوطني المحلي. لكن دقة تصوير الشخصيات أعمق من هذا. لو درس المرء أعمدة المراسلة، لوجد أنه لا توجد شخصية في ذا جيم وماغنيت لا يتطابق معها قارئ أو آخر غيره ماعدا الشخصيات الهزلية الواضحة كوكر وبيلي بنتر وفيشر تي فيش (الصبي الأمريكي مختطف الأموال) والأساتذة طبعاً. إن بنتر إبداع حقيقي رغم أنه يدين في أصله بشيء إلى الولد البدين بيكويك. بنطاله الضيق الذي يرتطم به حذاؤه وخيزرانته دائماً ودهائه في البحث عن الطعام، وحوالته البريدية التي لم تظهر أبداً، جعلته مشهوراً في كل مكان رفرف فيه العلم البريطاني، ولكنه لم يكن موضوعاً لأحلام اليقظة، ومن جانب آخر هناك شخصية ممتعة أخرى، غوسي (المحترم آرثر أي دياركي) نالت إعجاباً أكثر بشكل واضح. مثل كل شيء آخر في ذا جيم والماغنيت، كان غوسي قديماً ومهجوراً قبل ثلاثين سنة على الأقل، فقد كان (نات - عقدة) بداية

عشرينات القرن العشرين أو حتى "هراس" التسعينات ("بحق جوبيتر أيها الصبي الغالي! ويلي أنا ملزم بأن أجلدك جلداً مخيفاً") والأبله صاحب النظارة أحادية العدسة الذي نجح في حقول مونز ولو غاتو. تنجح شعبيته الواضحة في إظهار جاذبية التكبر المتجذرة عميقاً عند هذا الأنموذج من الناس. إن الشعب الإنكليزي مغرم إلى حد الإفراط بالحمار الذي يحمل لقباً (قارن اللورد بيتر ويمسي) الذي يظهر شخصاً محظوظاً ومؤثراً في لحظة الضرورة. هذه رسالة من فتيات معجبات بغوسي:

أظنكم قسوتم كثيراً على غوسي. أتساءل إن كان مازال في الوجود، بعد الطريقة التي عاملتموه بها. إنه بطلي. هل تعرف أني أكتب الشعر الغنائي؟ ما رأيك بهذه - على أنغام "غودي غودي"؟

سوف أحصل على قناع الغاز وأنضم إلى القوة الجوية الملكية.
لأنني متنبه لكل تلك القنابل التي أسقطتها علي
سوف أحفر خندقاً لي
داخل سياج الحديقة؛
سوف أسدّ نوافذي بالقصدير
كي لا يدخل منها الغاز المسيل للدموع
سوف أنصب مدفعي تماماً عند الحاجز الحجري على الطريق
مع ملاحظة لأدولف هتلر: "يرجى عدم الإزعاج!"
وإذا لم أسقط بأيد نازية أبداً
فذلك كاف لي
سأحصل على قناعي الغازي وأنضم إلى سلاح الجو الملكي.
ملاحظة - هل تنسجم وتتواصل بشكل جيد مع الفتيات؟

اقتبست هذا كاملاً لأن تاريخه يعود إلى عام ١٩٣٩ وهو مشوق، لكونه أول ذكر لهتلر في ذا جيم ربما. في ذا جيم هناك بطولة الولد البدين أيضاً. فاتي وابن ثقل كموازن ومعادل

ضد بنتر. فيرمون - سميث الصاخب غير المهذب في صف المنقولين شخصية بايرونية، ولكونه على شفير الطرد دائماً شيء محبب أيضاً. وحتى بعض الأوغاد أيضاً لديهم أتباع فلودر مثلاً، "البغيض في الصف السادس" وغد لكنه رفيع الثقافة أيضاً وميال إلى قول أشياء ساخرة عن كرة القدم وروح الفريق. يراه صبيان صف المنقولين وغداً بسبب هذا، لكن أنموذجاً معيناً من الصبيان يتماثلون معه. حتى راكي وغروكي وشركاه ينالون إعجاب صبيان صغار يعتقدون أن تدخين السجائر عمل شرير وشيطاني. (سؤال منكرر في عمود المراسلة: ما هي ماركة السجائر التي يدخنها راكي؟).

إن سياسة ذا جيم وماغنيت سياسة محافظة طبعاً، لكن بأسلوب قبل حرب ١٩١٤ تماماً ومن دون أي أثر فاشي. في الحقيقة لديها فرضيتان سياسيتان اثنتان: الأولى لا شيء سيتغير أبداً، والثانية الأجانب مثيرون للسخرية. في ذا جيم ١٩٣٩ الفرنسيون ظلوا (فروغيز) ضفادع والإيطاليون (داغوز) كلاب. موسو المدرس الفرنسي في غريفرايرز، هو فروغ، الشخصية الهزلية الورقية المعتادة مع لحية مدببة وسروال حزامه معلق بالكتفين..إلخ. انكي الصبي الهندي رغم أنه راجا (أمير هندي) ولديه جاذبية التكبر هو البابو (السيد الهندوسي) الهزلي في تقاليد ذا بنتش. ("الشجار ليس الحيلة المناسبة يا بوب المحترم" قال انكي. "دع الكلاب تبتهج في النباح والعض، لكن الجواب العليل هو القاذف المعطوب الذي يصل إلى طير في الأجمة كما يقول المثل الإنكليزي") فيشر تي فيش هو يانكي المرحلة القديمة ("حسناً، أنا أظن"..إلخ) الذي يعود تاريخه إلى فترة من الحسد الأنغلوأميريكي. وإن لونغ الصبي الصيني (الذي تلاشى مؤخراً لا شك لأن بعض قراء ذا ماغنيت من مضايق الصين) هو صيني المسرحيات الإيمائية في القرن التاسع عشر مع قبعة مثل الطبق وضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسه بلغة إنكليزية بسيطة. الافتراض منذ البداية دائماً أن الأجانب ليسوا هزليين فقط ويجب أن يوضعوا هناك لنسخر منهم، وإنما يمكن أن يصنفوا بنفس الطريقة التي نصنف بها الحشرات أيضاً. لهذا السبب كل صحف الصبيان وليس ذا جيم وماغنيت فقط، تصور الصيني بشكل ثابت مع ضفيرة في مؤخرة رأسه. إنها الشيء الذي تميزه به مثل لحية الفرنسي واورغ الإيطالي الأسطواني. في صحف من هذا النوع يحدث أحياناً حين يكون مشهد القصة في بلاد أجنبية أن يُبذل جهداً لوصف السكان المحليين ككائنات بشرية فردية، لكن كقاعدة يفترض أن يكون الأجانب من أي عرق متشابهين ويطابقون بشكل أو بأخر النماذج التالية تماماً:

الفرنسي: سريع الهياج. له لحية ويومئ بيديه أثناء الكلام بشكل جامح.
الإسباني والمكسيكي..إلخ: فاسد وغدار
العربي والأفغاني..إلخ: فاسد وغدار
الصيني: فاسد وغدار وله ضفيرة في مؤخرة رأسه.
الإيطالي: سريع الهياج. يعزف على أورغ يدوي أو يحمل خنجراً صغيراً
السويدي والدانمركي..إلخ: طيب القلب وغبي
الزنجي: هزلي ووفي جداً.

تدخل الطبقات العاملة في ذا جيم وماغنيت كشخصيات هزلية أو أشباه أجلاف (بياعو معلومات السباق..إلخ). أما بالنسبة إلى الاحتكاك الطبقي والحركة النقابية والإضرابات وهبوط الأسعار والبطالة والفاشية والحرب الأهلية، فلم تُذكر. في مكان ما أو آخر في إصدارات الثلاثين سنة قد تجد كلمة "اشتراكية"، لكن عليك أن تبحث عنها طويلاً. إن كانت هناك إشارة إلى الثورة الروسية في أي مكان، فإنها تكون غير مباشرة في كلمة "بولشي" (تعني شخصاً ذا عادات عنيفة غير مقبولة). بدأت كلمتا هتلر والنازيين بالظهور للتو في نوع الإشارة التي اقتبستها آنفاً. أزمة حرب أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨ كان لها أثر كافٍ لإنتاج قصة ينتهز فيها السيد فيرمون - سميث المليونير والد الصبي المرح الفظ الهلع العام، ويشتري بيوتاً ريفية لكي يبيعها إلى "الفارين من الأزمة". كان الاهتمام الذي وصلت إليه ذا جيم وماغنيت قريباً من الاهتمام الأوروبي، إلى أن بدأت الحرب فعلياً. هذا لا يعني أن هاتين الصحيفتين غير وطنيتين - على العكس تماماً! خلال الحرب العظمى كانت ذا جيم وماغنيت من أكثر الصحف ثباتاً وابتهاجاً في وطنيتها في إنكلترا. ففي كل أسبوع تقريباً يمسك الصبيان بجاسوس أو معارض مدفوع إلى الجيش، وخلال فترة إخضاع الطعام لنظام الحصص كانت عبارة "تناول خبزاً أقل" تطبع بأحرف كبيرة على كل صفحة. لكن وطنيتهما لا علاقة لها بأي شكل بسياسة القوى والحرب "الأيديولوجية". إنها أشبه بالولاء العائلي. وفي الحقيقية تعطي المرء مفتاحاً لفهم موقف الناس العاديين وخصوصاً الكتلة الضخمة التي لم تتأثر من الطبقة الوسطى والشريحة الأغنى من الطبقة العاملة. هؤلاء الناس وطنيون إلى نخاع العظم، لكنهم لا يشعرون أن ما

يحدث في البلدان الأجنبية شيء يهمهم أو يخصهم. حين تكون إنكلترا في خطر يتجمعون ويتسابقون للدفاع عنها كأمر بديهي، لكن في الأوقات الفاصلة هم غير مهتمين.

أخيراً، إنكلترا دائماً في السليم، وإنكلترا دائماً تفوز، لهذا لماذا القلق؟ إنه موقف اهتز أثناء العشرين سنة الماضية، لكن ليس بالعمق المتصور أحياناً. الفشل في فهمه هو أحد الأسباب التي كانت وراء عدم قدرة الأحزاب اليسارية على إنتاج سياسة خارجية مقبولة.

لذلك إن العالم العقلي للجيم والماغنيت شيء كالتالي:

ليس هناك فرق بين العام ١٩١٠ - والعام ١٩٤٠. أنت في غريفرايرز صبي مورد الخدين في الرابعة عشرة في ثياب أنيقة ممتازة فصلت على قياسك، تجلس تشرب الشاي في مكتبك في فصل المطرودين، بعد لعبة كرة قدم مثيرة، تم الفوز فيها بواسطة هدف غريب في نصف الدقيقة الأخيرة. هناك نار دافئة في المكتب، والريح في الخارج تصفر. عناقيد اللبلاب تلتف بكثافة حول الحجارة الرمادية القديمة. الملك على عرشه والجنيه يساوي جنيه. في أوروبا الأجانب المثيرون للسخرية يثرثرون، لكن السفن الحربية المقيتة للأسطول البريطاني ترسل أبخرتها عالياً في القنال الإنكليزي، وفي المخافر الأمامية للإمبراطورية الرجال الإنكليز بالنظارة أحادية العدسة يحتجزون الزنوج ويمنعون خطرهم. فاز اللورد موليفرار بخمسة أخرى، ومتعنا أنفسنا في حفلة شاي ضخمة من النقانق والسردين والكعك غير المحلى واللحم المحفوظ والمربى والكعك المحلى. بعد الشاي سنجلس حول نار المكتب نضحك من بيلي بنتر ونناقش الفريق من أجل مباريات الأسبوع القادم ضد روك - وود. كل شيء آمن ومتواصل ولا ريب فيه. كل شيء سيظل نفسه إلى الأبد. ذلك هو الجو تقريباً.

لكن الآن أنتقل من الجيم وماغنيت إلى الصحف الأحدث التي ظهرت منذ الحرب العظمى. الشيء الهام الحقيقي أن نقاط تشابهها مع ذا جيم وماغنيت أكثر من نقاط الاختلاف. لكن من الأفضل دراسة الاختلافات أولاً:

هناك ثمان من الصحف الأحدث هذه، ذا موديرن بوي وتريومف وتشامبيون وويزارد وروفر وسكيبر وهتسبر وادفنتشر. كلها ظهرت منذ الحرب، باستثناء ذا موديرن بويل التي يقل عمر أحدها عن الخمس سنوات. صحيفتان ينبغي أن تذكرا هنا رغم أنهما ليستا من نفس

صنف البقية تماماً هما ذا ديتكتيف ويكلي وذا ثريلر، كلاهما مملوكتين من قبل المطبعة المندمجة. ذا ديتكتيف ويكلي استولت على سيكستون بليك. كلا الصحيفتين يقبلان بمقدار محدد من الاهتمام بالجنس في قصصهما وتُقرآن من قبل الصبيان؛ إلا أنهما لا تستهدفانهم حصرياً. كل الأخريات صحف صبيان صرفة وبسيطة وتُدرس على السواء معاً. وليس هناك فرق ملحوظ بين منشورات تومسون والمطبعة المندمجة.

حالما ينظر المرء إلى هذه الصحف، يرى تفوقها التقني على ذا جيم وماغنيت. بداية، لديها أفضلية كبيرة بأنها لا تُكتب من قبل شخص واحد. بدلاً من القصة الطويلة الكاملة، يتألف العدد من الويزارد أو الهوتسبير من نصف دزينة أو أكثر من المسلسلات التي لا يستمر أحدها إلى الأبد، وفي النتيجة يكون هناك تنوع أكبر وحشو أقل، وليس هناك أي شيء من تنميط وفكاهة ذا جيم وماغنيت. انظر إلى هذين المقطعين مثلاً:

تأوه بيلي بنتر

مر ربع ساعة من الساعتين التي احتجز فيهما بنتر من أجل حصص إضافية في اللغة الفرنسية.

في ربع ساعة لا يوجد سوى خمسة عشر دقيقة فقط! لكن كل واحدة من هذه الدقائق بدت لبنتر طويلة بشكل مبالغ فيه. بدت تلك الدقائق تزحف مثل حلزونات منهكة.

ناظراً إلى ساعة الجدار في غرفة الصف رقم ١٠ البومة السمينة، لم تصدق أن الخمسة عشر دقيقة الوحيدة مرت. بدت أكثر من خمسة عشر ساعة إن لم تكن خمسة عشر يوماً!

الرفاق الآخرون كانوا في درس لغة فرنسي إضافي مثل بنتر. لم يكترثوا على العكس من بنتر.

(ذا ماغنيت)

بعد تسلق رهيب، حفر مماسك ليديه في الجليد الأملس في كل خطوة من الطريق الصاعد. كان الرقيب لايونهارت لوغان يتشبث مثل ذبابة بشرية على واجهة جرف جليدي أملس وغدار مثل لوح عملاق من الزجاج.

عاصفة ثلجية في أوج ضراوتها كانت تضرب بجسده وتدفع الثلج المعمي في وجهه، وتسعى إلى تمزيق أصابعه وإرخائها من مسكاتها، لتقذف به ويموت على الجلاميد المثلمة الواقعة بسفح الجرف بالأسفل على بعد مائة قدم.

ربض وسط تلك الجلاميد أحد عشر صياداً حقيراً بذلوا أقصى جهدهم ليردوا بالرصاص لايونهارت ورفيقه جيم روجرز - إلى أن محت العاصفة المتسلقين عن النظر.(ذا ويزارد).

المقطع الثاني يحملك إلى مسافة ما في القصة، بينما يأخذ الأول مائة كلمة ليخبرك أن بنتر في صف الحجز، فضلاً، بعدم التركيز على القصص المدرسية (من حيث العدد تهيمن القصص المدرسية في كل هذه الصحف ما عدا ذا ثريلر وذا ديتيكتيف ويكلي) هناك فرص لكل من ذا ويزارد وهتسبير أكبر بكثير من اللجوء إلى الإثارة. بمجرد النظر إلى رسومات هذه الصحف التي أمامي على الطاولة، هذه بعض الأشياء التي أراها. في واحدة منها هناك راعي بقر معلق من أصابع قدمه بجناح طائرة في الجو، ويطلق النار على طائرة أخرى بمسدسه. وفي صحيفة أخرى صيني يسبح لإنقاذ نفسه في مصرف صحي، وسرب من جرذان نهمة جائعة يسبح خلفه. وفي صحيفة ثالثة مهندس يشعل عوداً من الديناميت بينما روبوت حديدي يبحث عنه ويتلمسه بمخالبه. في صحيفة رابعة هناك رجل في بدلة طيار يقاتل بيديه العاريتين ضد جرذ أكبر من الحمار. وفي صحيفة خامسة رجل عارٍ تقريباً بمظهر عضلي مروع يمسك بأسد من ذيله ويقذف به إلى مسافة ثلاثين ياردة من فوق جدار الحلبة مع كلمات "إليك أسدك المزهر!" من الواضح أنه لا توجد أية قصة مدرسية يمكنها منافسة هذا النوع من الشيء. ومن وقت إلى آخر ربما يحترق بناء المدرسة أو يتحول الأستاذ الفرنسي إلى رئيس عصابة دولية من الفوضويين، لكن بشكل عام يتركز الاهتمام على الكريكت والمنافسات المدرسية والدعابات العملية..إلخ. ليس هناك متسع كبير للقنابل أو أشعة الموت أو المدافع النصف آلية أو الطائرات أو خيول السهول الأمريكية أو الأخطبوطات أو اللحى الرمادية أو قطاع الطرق.

إن تفحص عدد كبير من هذه الصحف، يبين أن الموضوع المفضل لها باستثناء القصص المدرسية، هو الغرب المتوحش والشمال المتجمد والفيلق الأجنبي والجريمة (دائماً من وجهة نظر المحقق السري) والحرب العظمى (سلاح الجو أو الاستخبارات وليس المشاة) وفكرة طرزان بأشكال متنوعة وكرة القدم الاحترافية، واستكشاف المناطق الاستوائية والقصص التاريخية الرومانسية (روبن هود والفرسان وحليقو الرؤوس رواندهيدز..إلخ) والاختراعات العلمية. في كل الأحوال لايزال الغرب المتوحش في الصدارة كخلفية، لكن يبدو أن الهنود الحمر خبوا وتلاشوا. إن الموضوع الجديد الوحيد حقيقة، هو الموضوع العلمي: أشعة الموت

والمريخيون والرجال غير المرئين والروبوتات والمروحيات والصواريخ العابرة للكواكب: هنا وهناك توجد إشاعات نائية من العلاج النفسي والغدد الصم. بينما تستمد ذا جيم وماغنيت مواضيعها من ديكنز وكيبلينغ وتدين كل من ذا وزارد وتشامبيون ومودرين بوي..إلخ إلى اتش جي ويلز الذي يعتبر أب "قصص الخيال العلمي" أكثر من ميلها إلى جول فيرن. من الطبيعي أن يُستغل المظهر المريخي الفاتن للعلم أكثر من غيره، لكن صحيفة أو اثنتان فقط فيها تضمنتا مقالات عن مواضيع علمية بالإضافة إلى كميات من الأخبار التثقيفية الصغيرة (أمثلة: "شجرة كاوري في كوينزلاند في أستراليا عمرها أكثر من ١٢ ألف سنة؛ تحدث خمسون ألف عاصفة رعدية تقريباً في كل يوم؛ يكلف ١٠٠٠ متر مكعب من غاز الهليوم جنيهاً واحداً؛ هناك أكثر من ٥٠٠ نوع من العناكب في بريطانيا العظمى؛ إطفائيو لندن يستخدمون ١٤ مليون غالون من الماء سنوياً، إلخ إلخ). هناك تقدم ملحوظ في الفضول الفكري بالمجمل وتلبية رغبات القراء وميولهم. عملياً ذا جيم وماغنيت وصحف ما بعد الحرب، تُقرأ من نفس الجمهور تقريباً، لكن العمر العقلي المستهدف ارتفع كما يبدو سنة أو سنتين - تحسنٌ ترافق مع التحسن في التعليم الابتدائي منذ عام ١٩٠٩.

الشيء الآخر الذي ظهر في صحف الصبيان التي صدرت بعد الحرب لكنه لم يبلغ المدى الذي توقعه المرء، هو عبادة التنمر والإعجاب الشديد بالعنف.

إذا قارن المرء ذا جيم وماغنيت مع صحيفة حديثة حقيقية، فإن الشيء الذي يلفت انتباهه على الفور هو غياب عنصر القائد. لا توجد شخصية مركزية مسيطرة وبدلاً منها هناك خمسة عشر أو عشرين شخصية كلها على قدم المساواة تقريباً، تستطيع نماذج مختلفة من القراء التماثل والتطابق معها. في الصحف الأحدث تختلف الحالة عادة. فبدلاً من التماثل مع تلميذ مدرسة أو بعمره تقريباً، يوجه قارئ ذا سكيبر أو هتسبير..إلخ للتعاطف مع جي - مان عميل فيدرالي أو مع عضو في فيلق أجنبي أو مع طرزان مختلف أو مع طيار بطل أو جاسوس كبير أو مستكشف أو ملاكم محترف - في كل الأحوال مع شخصية واحدة كلية القوة تسيطر على كل واحد حولها وأسلوبها المعتاد في حل أية مشكلة لكمة على الفك. هذه الشخصية معدة كرجل خارق وكقوة بدنية، لأنها شكل القوة الذي يستطيع الصبيان فهمه بأفضل شكل ويكون عادة نوعاً من الغوريلا البشرية. وفي القصص التي من أنموذج قصص طرزان، هو عملاق في

الحقيقة بطول ثمانية أو عشرة أقدام أحياناً. بنفس الوقت مشاهد العنف في كل هذه القصص تقريباً غير مؤذية بشكل لافت وغير مقنعة. هناك اختلاف كبير في الأسلوب بين أكثر الصحف الإنكليزية وحشية وبين اليانك ماغز الرخيصة والفايت ستوريز وأكشن ستوريز..إلخ (ليست صحف حصرية للصبيان ولكنها صحف تُقرأ من قبل الصبيان). في اليانك ماغز تجد أن الشهوة إلى الدم والتصوير المجمد للدم حقيقة وأسلوب القتال في القفز على الحصى مكتوب بلغة رطنة غريبة أتقنها إلى درجة الكمال أناس تربوا على العنف بشكل لانهائي. صحيفة مثل فايت ستوريز مثلاً يفترض أن تكون جاذبيتها قليلة جداً ماعدا للساديين والماسوشيين. يمكنك أن ترى رقة الحضارة الإنكليزية النسبية من خلال الطريقة غير الاحترافية التي توصف بها ملاكمة الجوائز في أسبوعيات الأطفال. ليس هناك مفردات تخصصية. انظر إلى هذه المقتطفات اثنان إنكليزيان واثنان أمريكيان.

حين رن الجرس، كان الرجلان يتنفسان بصعوبة، وعلى صدر كل منهما علامات حمراء كبيرة. كان ذقن بيل ينزف ولديه جرح فوق عينه اليمنى.

انهارا في زاويتهما من الإنهاك، وحين رن الجرس ثانية نهضا بسرعة ورشاقة وهجما على بعضهما البعض مثل النمور. (روفر)

دخل ماشياً متبلد الحواس وضربني بيمينية كالهراوة على وجهي. انبجس الدم ونكصت على كعبي، لكني اندفعت وأطلقت يمناي تحت القلب. يمينية أخرى اصطدمت كلها بفم بين المهروس، بصق شظايا سن وضربني بيسارية استقرت على جسدي كالأداة التي يدرسون بها الحنطة.(فايت ستوري)

من المدهش أن نراقب النمر الأسود وهو يعمل. عضلاته تموجت وانزلقت تحت جلده الأسمر. كان هناك كل القوة والتناسق لسنور عملاق في سرعته ورشاقته وانقضاضه الرهيب.

وجه وابلاً من الضربات مع سرعة مربكة بالنسبة إلى رفيق ضخم. في لحظة كان بين يصد بقفازيه بأفضل ما استطاع. بين كان معلماً مدافعاً سابقاً. لديه انتصارات كثيرة رائعة خلفه. لكن يمينية نيغرو ويساريته حطمته من خلال فتحات نادراً ما يستطيع أي ملاكم إيجادها. (ويزارد)

ضربات عنيفة حزمت الكرة الحديدية الضارية لملوك الغابة انهارت تحت الفأس الذي قذف في أجساد الشخصين الضخمين وهما يتبادلان اللكمات. (فايت ستوريز)

لاحظ كم تبدو المقتطفات الأمريكية أكثر اطلاعاً. لقد كُتبت لأنصار حلبة الملاكمة المتحمسين وليس لغيرهم. يجب التأكيد أيضاً أن صحف الصبيان الإنكليزية محتشمة بناء على مستوى منظومتها الأخلاقية، فالجريمة والخداع لم يرتقيا إلى حد الإعجاب، وليس هناك وجود لكلبية وفساد قصص قطاع الطرق الأمريكية. يبين المبيع الضخم ليانك ماغز في إنكلترا وجود طلب لذلك النوع من الشيء، لكن قلة قليلة من الكتاب الإنكليز تقدر على إنتاجه. حين أصبح كره هتلر عاطفة أساسية في أميركا كان من الممتع رؤية السرعة المفاجئة التي كيّف بها محررو اليانك ماغز "معاداة الفاشية" وحولوها إلى أغراض إباحية.. إحدى المجلات التي أمامي كرست لقصة طويلة كاملة "حين يأتي الجحيم إلى أميركا" التي يحاول فيها عملاء ديكتاتور أوروبي متعطش للدماء غزو الولايات المتحدة الأمريكية واحتلالها بأشعة الموت والطائرات غير المرئية. هناك إغراء وانجذاب أوضح نحو السادية، المناظر التي يربط فيها النازيون القنابل بمؤخرات النساء ويقذفونهن من ارتفاعات عالية ليراقبوهن وهن ينتفخن ويتحولن إلى مزق في الجو، ومناظر أخرى يربطون فيها فتيات عاريات معاً من شعورهن وينخسوهن بسكاكين ليرقصن..إلخ. يعلق رئيس التحرير برزانة على كل هذا ويستخدمه ذريعة لتضييق القيود على المهاجرين. على صفحة أخرى من نفس الصحيفة: "حياة فرقة كورال هوتشا. تكشف كل الأسرار الحميمة والتسالي الساحرة لفتيات برودوي هوتشا الشهيرات". "لم يحذف أي شيء". الثمن ١٠ سنت."كيف تحب" ١٠ سنت. "فرينش فوتو رينغ" ٢٥ سنت. "نوديز الداعرة تتحول". من خارج الزجاج ترى فتاة جميلة بثياب بسيطة، لكن دورها، وانظر عبر الزجاج وأوه! يا له من اختلاف! طقم من ٣ تحويلات ٢٥سنت الخ الخ. لا يوجد شيء كهذا إطلاقاً في أية صحيفة إنكليزية يمكن أن تُقرأ من قبل الصبيان. لكن عملية الأمركة مستمرة رغم ذلك. إن المثل الأعلى الأمريكي، "الذكر العدواني القوي" أو "الفتى الصلب" أو الغوريلا (السفاح) الذي يصحح كل شيء بضرب كل واحد على فكه، يظهر في غالبية صحف الصبيان. الآن في أحد المسلسلات في سكيبرز يُصور المثل الأعلى بشكل مشؤوم وهو يلوح بعصا مطاطية.

إن تطور الوزارد وهتسبير..إلخ في مواجهة صحف الصبيان السابق، اقتصر على هذا: أسلوب أفضل واهتمام علمي أكبر وسفك دم أكثر وعبادة قادة أكثر. لكن أخيراً إن الشيء الأهم واللافت هو العوز إلى التطور.

بداية ليس هناك تطور سياسي أياً كان شكله. عالم سكيبر وتشامبيون لايزال عالم ماغنت وجيم قبل عام ١٩١٤. قصص الغرب المتوحش مثلاً مع خشخشة القطيع وقانون لينش وأدوات أخرى تنتمي إلى الثمانينات، هي شيء مهجور وقديم بشكل غريب. اللافت تماماً في صحف من هذا الأنموذج ومن المسلم به دائماً أن المغامرات تحدث فقط في أطراف الكرة الأرضية وفي الغابات الاستوائية والبراري القطبية والصحاري الأفريقية والمروج الغربية وفي أوكار الأفيون الصينية - في كل مكان في الحقيقة ماعدا الأماكن التي تحدث فيها الأشياء حقيقة. ذلك اعتقاد يعود تاريخه إلى ثلاثين أو أربعين سنة خلت، حين كانت عملية اكتشاف القارات الجديدة مستمرة. في الوقت الحاضر طبعاً إن أردت المغامرة، فإن المكان الذي ستبحث عنه سيكون في أوروبا. لكن بمعزل عن الجانب التصويري للحرب العظمى، إن التاريخ المعاصر مستثنى بدقة وعناية. وباستثناء الأميركيين الذين كانوا مثار سخرية في السابق وأصبحوا محط إعجاب الآن، ظل الأجانب نفس الشخصيات المثيرة للسخرية التي كانوا عليها دائماً. إن ظهرت شخصية صينية فإنها تظل الشرير مهرب الأفيون ذا الضفيرة في مؤخرة رأسه الذي ابتدعه الكاتب ساكس رومر؛ ليس هناك أية إشارة إلى الأشياء التي حدثت في الصين منذ عام ١٩١٢ ولا إشارة إلى الحرب التي لاتزال مشتعلة هناك مثلاً. إن ظهر إسباني، فإنه يظل يُدعى "داغو" أو "المشحم" الذي يلف السجائر ويطعن الناس في ظهورهم؛ وعدم الإشارة إلى الأشياء التي حدثت في إسبانيا. هتلر والنازيون لم يظهروا بعد أو ظهروا بالكاد لتوهم، وسيكون هناك الكثير عنهم بعد برهة قصيرة، لكن من زاوية وطنية صارمة (بريطانيا ضد ألمانيا) مع إخفاء المغزى الحقيقي للصراع بأقصى ما يمكن. بالنسبة إلى الثورة الروسية من الصعب إيجاد أية إشارة إليها في أي من هذه الصحف، وحين تُذكر روسيا، إن حدث وذكرت، فستكون نتفة معلومة عادة (مثال: "هناك ٢٩ ألف شخص تجاوزوا المائة سنة في اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية") وأية إشارة إلى الثورة الروسية، ستكون غير مباشرة ومضللة وباطلة منذ عشرين سنة. في إحدى القصص في الروفر مثلاً، هناك شخص لديه دب مروض، وبما أنه دب روسي

فقد لقب بتروتسكي - من الواضح أنه صدى لفترة ١٩١٧ - ٢٣ وليس لخلافات حديثة. الساعة توقفت في ١٩١٠. بريطانيا تسيطر على الأمواج، ولم يسمع أحد بحالات هبوط الأسعار وأصوات القنابل أو الديكتاتوريات وأعمال التطهير ومعسكرات الاعتقال.

ومن المنظور الاجتماعي ليس هناك أي تقدم. التكبر أقل صراحة نوعاً ما، مما هو في ذا جيم وماغنيت - ذلك أقصى ما يستطيع المرء قوله. بداية لقد تم حذف القصص المدرسية بالتأكيد التي تعتمد على جاذبية التكبر دائماً. كل صحيفة من صحف الصبيان تتضمن قصة مدرسية على الأقل. وهذه القصص تفوق بالعدد قصص الغرب المتوحش. لم تقلد تلك الصحف حياة الفنتازيا المفصلة التي في الجيم والماغنيت، وهناك تأكيد على المغامرة الدخيلة والعرضية، لكن الجو الاجتماعي (الحجارة الرمادية) ظل نفسه تقريباً. حين يجري التعريف بمدرسة في بداية القصة تستعمل نفس الكلمات بالضبط "كانت مدرسة ممتازة جداً". بين الفينة والأخرى تظهر قصة موجهة ضد التكبر ظاهرياً. يتكرر ظهور صبي المنحة الدراسية باعتدال (قارن توم ريدوينغ في الماغنيت) وهو الموضوع الجوهري ويُقدم أحياناً بهذا الشكل: هناك تنافس كبير بين مدرستين، واحدة تعتبر نفسها أكثر امتيازاً من الأخرى، وهناك قتال ودعابات عملية ومباريات بكرة القدم..إلخ التي تنتهي دائماً بهزيمة المتكبرين. إن ألقى المرء نظرة سريعة وسطحية على بعض من هذه القصص، قد يتخيل أن الروح الديمقراطية دبت في أسبوعيات الصبيان، لكنه حين ينظر عن كثب، سيرى أن هذه القصص ليست سوى انعكاس لمشاعر الغيرة المرة الموجودة داخل طبقة الياقات البيضاء. إن الوظيفة الحقيقية لها هو السماح للصبي الذي يذهب إلى مدرسة خاصة رخيصة (ليس مدرسة مجلس) أن يشعر بأن مدرسته بعين الرب ممتازة مثل وينشستر أو ايتون. إن عاطفة الولاء للمدرسة (نحن أفضل من الرفاق الذين في آخر الطريق) غير المعروفة تقريباً بالنسبة إلى الطبقة العاملة الحقيقية لاتزال مستمرة. وبما أن هذه القصص تُكتب بأيدٍ مختلفة كثيرة، فإنها تختلف بدرجة كبيرة في أسلوبها طبعاً. بعضها متحرر تماماً من التكبر، وفي قصص أخرى يُستغل المال والأصل الكريم بوقاحة أكبر مما في ذا جيم والماغنيت. (لقد صادفت في واحدة من تلك الصحف أغلبية فعلية من الصبيان الذي أشير إليهم بالألقاب).

حيث تظهر شخصيات الطبقة العاملة، تكون عادة إما شخصيات هزلية (دعابات عن المتشردين والمجرمين..إلخ) أو ملاكمو جوائز وبهلوانيون ورعاة بقر أو لاعبو كرة قدم محترفون

أو جنود في فيالق أجنبية - بعبارة أخرى، مغامرون. ليس هناك مواجهة للحقائق المتعلقة بحياة الطبقة العاملة أو في الحقيقة لحياة العمل مهما كان نوعه. في حالة عرضية قليلة جداً قد يصادف المرء وصفاً واقعياً لعمل في منجم مثلاً، لكنه في كل الاحتمالات يكون عبارة عن خلفية لمغامرة مثيرة فقط، وفي كافة الأحوال من غير المحتمل أن تكون الشخصية المحورية عامل منجم. دائماً الصبي الذي يقرأ هذه الصحف - في تسع حالات من عشرة - صبي من النوع الذي سيمضي حياته في العمل في متجر أو مصنع أو في وظيفة ثانوية في مكتب - ويُقاد ليتماثل ويتطابق مع الناس الذين في مركز السلطة والسيطرة، وقبل كل شيء مع الناس الذين لم يتجشموا أبداً عناء نقص المال. إن شخصية اللورد بيتر ويمسي الأبله ظاهرياً والذي يتشدق ويرتدي نظارة بعدسة واحدة لكنه دائماً في المقدمة في لحظات الخطر تتكرر المرة تلو الأخرى. (هذه الشخصية مفضلة جداً في قصص الخدمة السرية للاستخبارات) وكالمعتاد الشخصيات البطولية يجب أن تتحدث بلهجة البي بي سي؛ ربما تتحدث السكوتلندية أو الإيرلندية أو الأمريكية، لكن لم يسمح لأحد في دور النجم أبداً أن يسقط حرف الايتش. هنا يجدر مقارنة الجو الاجتماعي لأسبوعيات الصبيان مع أسبوعيات النساء الأوراكل والفاميلي ستار وبيغز بيبر..إلخ.

صحف النساء تستهدف جمهوراً أكبر عمراً، وتُقرأ من أغلب الفتيات اللواتي يعملن لكسب العيش، وبالتالي هي سطحية أكثر منها حقيقية. فمن المسلم به مثلاً أن كل واحد تقريباً يجب أن يعيش في بلدة كبيرة يعمل بوظيفة بليدة مملة تقريباً. الجنس هو الموضوع الرئيسي وبعيد عن التابو. الميزة الخاصة في القصص القصيرة الكاملة بهذه الصحف هي من نوع "أتى الفجر" عموماً: البطلة تنجو بشق النفس من خسارة "رجلها" على يد منافسة ماكرة أو "الرجل" يخسر وظيفته ويضطر إلى تأجيل الزواج، لكنه يحصل على وظيفة أفضل في الحال. فنتازيا استبدال طفل بآخر منذ الولادة (فتاة تتربى في بيت فقير هي حقيقة ابنة والدين ثريين) شيء مفضل آخر. من أين تأتي الإثارة في الحلقات المتسلسلة عادة؟ إنها تنشأ من نوع من الجريمة العائلية مثل تعدد الزوجات والتزوير أو القتل أحياناً؛ إذ ليس هناك وجود للمريخيين أو الأشعة المميتة أو عصابات الفوضويين الدولية. هذه الصحف في كل الأحوال تستهدف المصداقية ولديها رابط مع الحياة الحقيقية في أعمدة المراسلة حيث تناقش مشاكل حقيقية. عمود نصائح روبي أم إيريس في الأوراكل مثلاً، معقول جداً ومكتوب بشكل جيد. ومع ذلك عالم الأوراكل

ويبغز بيبر عالم وهي محض. نفس الفنتازيا في كل العصور؛ التظاهر بأنك أثرى مما أنت عليه. الانطباع الرئيسي الذي تولده كل قصة تقريباً في هذه الصحف في نفس المرء هو "التهذيب" البغيض الغامر. ظاهرياً الشخصيات من الطبقة العاملة، لكن عاداتها في داخل البيوت وثيابها ونظرتها وقبل كل شيء خطابها، من الطبقة الوسطى برمته. كل الشخصيات تعيش ببضع جنيهات فوق دخلها في الأسبوع ولا حاجة للقول إن ذلك هو الانطباع المنشود بالضبط، والفكرة هي إعطاء فتاة المعمل الضجرة أو الأم المرهقة لخمسة أطفال الحلم بحياة تتخيل فيها نفسها ليس كدوقة (ذلك التقليد زال وبطل) ولكن كزوجة مدير بنك مثلاً. لم يكن رسم مستوى حياتي بخمسة أو ستة جنيهات في الأسبوع هو المستوى المثالي فقط، وإنما الاعتقاد الضمني أن هذا هو الشكل الذي تعيش به الطبقة العاملة فعلاً. لم تواجه الحقائق الأساسية. لقد اعترف مثلاً أن الناس يخسرون وظائفهم أحياناً لكن تزول الغيوم السوداء بعد ذلك، ويحصلون على وظائف أفضل بدلاً منها، وليس هناك ذكر للبطالة كشيء دائم ومحتوم أو للإعانة التي تقدمها الحكومة للعاطلين عن العمل أو أي ذكر للحركة النقابية أيضاً، وليست هناك أية إشارة في أي مكان على وجود خلل في النظام كنظام، وإنما هناك مصائب فردية فقط يسببها شخص شرير، ويمكن تصحيحها في كل الأحوال في الفصل الأخير. فدائماً تزول الغيوم السوداء، وصاحب العمل الحنون يرفع أجور ألفريد، وهناك وظائف لكل شخص ماعدا السكيرين. لايزال عالم ويزارد وذا جيم نفسه باستثناء استبدال البنادق الآلية بزهور البرتقال.

إن وجهة النظر المغروسة في كل هذه الصحف، هي وجهة نظر عضو غبي بشكل استثنائي من عصبة الأسطول في عام ١٩١٠. نعم يمكن قول هذا، لكن ما أهمية ذلك؟ وماذا تتوقع غير ذلك؟

طبعاً لا أحد في قواه العقلية يريد أن يحول المجلات الرخيصة جداً إلى روايات واقعية أو كراسات اشتراكية؛ فقصة المغامرات يجب أن تكون بطبيعتها بعيدة عن الحياة الحقيقية، لكن كما حاولت أن أوضح أن وهم وزيف ذا ويزارد وذا جيم ليس ساذجاً كما يبدو الأمر، فهاتان الصحيفتان تتواجدان بسبب طلب خصوصي، لأن الصبيان في أعمار محددة يجدون من الضروري لهم أن يقرؤوا عن المريخيين والأشعة المميتة والدببة الرمادية وعصابات قطاع الطرق، فيحصلون على ما يبحثون عنه، لكنهم يحصلون عليه ملفوفاً بالأوهام التي يعتقد

أصحاب العمل المستقبليون أنها مناسبة لهم. إلى أي مدى يستمد الناس أفكارهم من الأدب القصصي أمر قابل للجدل، وأنا شخصياً أعتقد أن معظم الناس يتأثرون بالروايات والأفلام وهلم جرا أكثر ما يعترفون به. وبناء على وجهة النظر هذه، فإن أسوأ الأعمال الأدبية هي الأكثر أهمية، لأنها هي التي تقرأ عادة في وقت مبكر من حياة المرء. ومن المحتمل أن كثيراً من الناس الذين يعتبرون أنفسهم رفيعي الثقافة وتقدميين يحملون في الواقع خلال حياتهم خلفية خيالية اكتسبوها في طفولتهم من سابر وايان هاي مثلاً. وإن كان الأمر كذلك، فإن أسبوعيات الصبيان الرخيصة ذات أهمية قصوى. هذا هو الهراء الذي يُقرأ بين أعمار الثانية عشرة والثامنة عشرة من قبل نسبة كبيرة جداً وربما من غالبية الصبيان الإنكليز، ويشمل الكثيرين الذين لن يقرأوا أي شيء آخر غير الصحف، وبذلك يتشربون بمجموعة من المعتقدات التي تُعتبر عتيقة وبالية بشكل ميئوس في المكتب المركزي لحزب المحافظين، لهذا من الأفضل لأن العملية تتم بشكل غير مباشر، أن تضخ فيهم القناعة بأن المشاكل الرئيسية لزمننا ليس لها وجود، وليس هناك خلل مع الرأسمالية الليبرالية، وأن الأجانب رسوم هزلية تافهة، وأن الإمبراطورية البريطانية نوع من كونسيرن خيري سيدوم للأبد. عند التفكير بمالكي هذه الصحف من الصعب التصديق بأن هذا ليس متعمداً. من الصحف الاثنتي عشرة التي ناقشتها (اثنتا عشر تشمل ثريلير وديتكتيف ويكلي) سبعة تعود ملكيتها لشركة الطباعة المدمجة التي هي من أكبر اتحادات الطباعة في العالم، وتسيطر على أكثر من مائة صحيفة مختلفة، لذلك ذا جيم وماغنيت مرتبطتان بشدة مع الديلي تلغراف والفايننشال تايمز.هذا بحد ذاته يثير ما يكفي من الشكوك حتى لو لم يكن واضحاً، أن القصص في أسبوعيات الصبيان قد دُققت وفُحصت سياسياً. لهذا فإن شعرت بالحاجة إلى حياة وهم تسافر فيها إلى المريخ وتقاتل الأسود بيديك المجردتين (وأي صبي لا يحب ذلك؟) فإنك لا تنالها إلا بتسليم نفسك عقلياً إلى أناس مثل اللورد كامروز. لأنه ليس هناك تنافس، فخلال كل هذا الدفق من الصحف، فإن الاختلافات لا تذكر، وفي هذا المستوى لا يوجد غيرها. هذا يثير السؤال، لماذا لا يوجد شيء كصحيفة يسارية للصبيان؟

فكرة كهذه تجعلني أشعر بالاشمئزاز قليلاً من النظرة الأولى. من السهل جداً تخيل الشكل الذي ستكون عليه صحيفة يسارية للصبيان إن وجدت. أتذكر في عام ١٩٢٠ أو ١٩٢١ أن

شخصاً متفائلاً كان يقدم كراسات الدعاية الشيوعية لمجموعة من صبيان المدارس، وكان الكراس الذي أعطي لي من نوع سؤال وجواب:

سؤال: هل يستطيع صبي شيوعي أن يكون صبي كشافة يا رفيق؟

جواب: كلا يا رفيق.



سؤال: لماذا يا رفيق؟

جواب: لأن صبي الكشافة يا رفيق يجب أن يحيي العلم البريطاني، وهو رمز الاستبداد والظلم..إلخ إلخ.

أفترض الآن أن أحداً أطلق جريدة يسارية تستهدف الصبيان من عمر الثانية عشرة أو الرابعة عشرة. أنا لا أقول إن كل محتوياتها ستكون مثل المقطع الذي اقتبسته آنفاً، لكن هل يشك أحد بأنها ستكون شيئاً مثله؟ بالتأكيد هكذا جريدة ستكون إما من تأييد وتشجيع كئيب أو تحت تأثير شيوعي وتُكرس لتملق روسيا السوفييتية، وفي كلا الحالتين لن ينظر إليها أي صبي سوي. بمعزل عن الأدب الرفيع، كل الصحافة اليسارية الموجودة عبارة عن كراسة دعاية سياسية طويلة. إن الصحيفة الاشتراكية في إنكلترا التي يمكن أن تعمر أسبوعاً واحداً بجدارتها كصحيفة هي الديلي هيرالد: وكم من الاشتراكية في الديلي هيرالد؟ لذلك في هذه اللحظة إن وجود جريدة ذات ميل يساري وبنفس الوقت يحتمل أن تجذب الصبيان العاديين في سنين مراهقتهم، شيء أبعد من الرجاء.

لكن هذا لا يعني أن هذا مستحيل. ليس هناك سبب واضح لأن تكون كل قصة مغامرات مخلوطة بالضرورة بالتكبر وبالوطنية القذرة. لأن القصص في هتسبر ومودرين بوي ليست كراسات دعائية للمحافظين؛ وإنما مجرد قصص مغامرات مع تحيز للمحافظين! ومن السهل تخيل العملية معكوسة، فمثلاً من الممكن تخيل صحيفة مثيرة ونشطة مثل هتسبر، لكن بموضوع رئيسي و"أيديولوجيا" أحدث. ومحتمل أيضاً (رغم أنه يثير صعوبات أخرى) تخيل صحيفة نسائية بنفس المستوى الأدبي لصحيفة أوراكل، تعالج نفس النوع من القصص تقريباً وتهتم أكثر بوقائع حياة الطبقة العاملة بنفس الوقت. مثل هذه الأشياء تم فعلها سابقاً لكن ليس في إنكلترا. في السنين الأخيرة من الملكية الإسبانية كان هناك نتاج كبير في إسبانيا من

الروايات اليسارية القصيرة، بعضها من أصل فوضوي واضح، لكن لسوء الحظ أنا لم أر مغزاها الاجتماعي في الوقت الذي ظهرت فيه وضيعت المجموعة التي كانت لدي، لكن لا شك أن الحصول على نسخ منها لايزال سهل المنال. في الشكل والأسلوب كانت القصص مشابهة للقصص الإنكليزية التي تباع بأربع بنسات، ماعدا أن إلهامها وتحفيزها "يساري"، فمثلاً لو صورت قصة مطاردة الشرطة للفوضويين عبر الجبال، فستكون من وجهة نظر الفوضوي وليس الشرطة ومثال أقرب للتناول هو الفيلم السوفيتي تشابايف الذي عرض عدة مرات في لندن. فنياً بمستوى الزمن الذي صنع فيه تشابابيف هو من الطراز الأول، لكنه عقلياً غير بعيد جداً عن هوليوود رغم خلفيته الروسية غير المألوفة. الشيء الوحيد الذي يرفعه ويميزه عن الفيلم العادي هو التمثيل اللافت للممثل الذي أخذ دور الضابط الأبيض (البدين) - أداء بدا مثل قطعة ملهمة من تقييد الرأي وإلا فإن الجو مألوف. كل الأدوات العادية هنا - قتال بطولي ضد المصاعب المحتملة ونجاة في اللحظة الأخيرة وإطلاق نار من فوق خيول تعدو، وعلاقة حب وفاصل كوميدي. إن الفيلم في الحقيقة عادي جداً باستثناء أن ميله يساري. في أفلام هوليوود عن الحرب الأهلية الروسية يكون البيض ملائكة والحمر شياطين، أما في النسخة الروسية يكون الحمر ملائكة والبيض شياطين، وتلك كذبة أيضاً، لكنها كذبة أقل ضرراً وخبثا من الأخرى عند التفحص الطويل.

هذه مشكلات صعبة عدة تقدم نفسها؛ طبيعتها العامة واضحة جداً، ولا أريد مناقشتها، ولكن سأشير فقط إلى حقيقة أن الأدب الشعبي التخيلي في إنكلترا ميدان أعتقد الجناح اليساري أنه لن يبدأ بالدخول أبداً. كل الفن القصصي من الروايات في المكتبات الواسعة ونزولاً يخضع للرقابة التي تخدم مصالح الطبقة الحاكمة. وقصص الصبيان خصوصاً، إن الكلام المليء بالأحداث المثيرة الذي يلتهمه كل صبي في وقت أو آخر تقريباً مخضل بأسوأ أوهام عام ١٩١٠. هذه الحقيقة ليست مهمة فقط لو أعتقد المرء أن ما يقرأه في الطفولة لا يترك أي أثر وراءه. من الواضح أن اللورد كامروز وزملاءه لا يعتقدون بشيء من هذا النوع، وأخيراً ينبغي للورد كامروز أن يعرف.

فن دونالد ماكجيل

من لا يعرف "المجلات الهزلية" في واجهات محلات القرطاسية الرخيصة، والبطاقات البريدية التي تباع ببنس أو اثنين، مع تتاليها اللانهائي من سيدات بدينات في ثياب سباحة ضيقة وصورهن الفجة والألوان التي لا تحتمل، وخصوصاً الأثر الذي بلون بيضة عصفور السياج وبحمرة مكتب البريد؟

ينبغي أن يكون السؤال بلاغياً، لكن الحقيقة الغريبة أن كثيراً من الناس يجهلون بوجود هذه الأشياء، أو بالأحرى لديهم فكرة غامضة بأنها أشياء لا توجد إلا على شاطئ البحر مثل مغنٍ زنجي أو صخرة النعناع. فعلياً هي تباع في كل مكان - يمكن شراءها من أي مكان في وولروث تقريباً مثلاً - هي تُنتج بشكل واضح بأعداد ضخمة وتظهر سلاسل جديدة منها باستمرار، ويجب ألا يخطئ المرء بينها وبين نماذج متنوعة أخرى من البطاقات البريدية المزينة، كالبطاقات العاطفية مثلاً التي تتعامل مع الجراء والقطط الصغيرة، أو البطاقات الويندية أو البطاقات دون - الإباحية التي تستغل علاقات الأطفال الغرامية. هي نوع فني بذاتها متخصصة في الفكاهة "الدنيئة" جداً من أنموذج الحماة ومنديل الأطفال وحذاء رجل الأمن وشكل مميز عن كل الأنواع الأخرى بعدم امتلاكها لأي طموحات فنية. عشرات من دور النشر تصدرها، رغم أن الأشخاص الذين يرسمونها، لا يبدون كثيرين في وقت واحد.

أرفقت خصيصاً مع اسم دونالد ماكجيل، ليس لأنه الأخصب إنتاجاً فقط والأفضل بكثير من فناني البطاقات البريدية المعاصرين، وإنما لأنه الأكثر تمثيلاً والأحسن في المهنة أيضاً. من يكون دونالد ماكجيل، أنا لا أعرف. هو اسم تجاري كما يبدو، ليس لأن سلسلة واحدة من البطاقات البريدية على الأقل صدرت بعنوان "رسومات دونالد ماكجي الهزلية"، وإنما أيضاً لأنه شخص حقيقي بلاشك، ويملك أسلوباً في الرسم يمكن تمييزه من لمحة واحدة. أي واحد يتفحص بطاقاته البريدية في الجملة، يلاحظ أن الكثير منها ليست حقيرة كرسوم، لكن

الادعاء بأنها تملك أية قيمة جمالية مباشرة هو مجرد رأي هواة. إن البطاقة البريدية الهزلية هي صورة توضيحية لدعابة "دعابة دنيئة" بشكل ثابت تصمد أو تسقط حسب مقدرتها على إثارة الضحك وليس لها اهتمام "أيديولوجي" أبعد من ذلك. إن ماكجيل ذكي ويتمتع بلمسة رسام كاريكاتير حقيقي في رسم الوجوه، لكن القيمة المميزة لبطاقاته البريدية أنها أنموذجية تماماً. إنها تمثل معيار البطاقة البريدية الهزلية. إنها تمثل بالضبط ومن دون أي تقليد ما كانت عليه البطاقات البريدية في أي وقت من الأربعين سنة الأخيرة، والتي منها يمكن استنتاج معنى هذا النوع الفني كله وهدفه.

احصل على دزينة من هذه الأشياء، ويفضل أن تكون من بطاقات ماكجيل - فلو انتقيت وعزلت من الكومة البطاقات التي تبدو الأكثر إثارة للضحك والتي ستجد أن معظمها من ماكجيل - ثم انشرها على طاولة. ما الذي ستراه؟

انطباعك الأول أنها سوقية مفرطة. هذا بمعزل تام عن الفحش الموجود دائماً وبمعزل عن بشاعة الألوان. فيها خسة مطلقة من الجو العقلي البارز ليس في طبيعة الدعابات فحسب، وإنما في الصفة الغريبة الصارخة البارزة للرسوم. إن التصاميم مثل تصاميم الأطفال مليئة بخطوط ثقيلة ومساحات فارغة، وفيها كل الأشكال وكل إيماءة ووضع قبيح بشكل متعمد، والوجوه مكشرة وبلهاء. أما النسوة فرسمن بشكل ساخر غير سوي بمؤخرات مثل نساء الهوتينتوت (شعب غير متحضر يعيش في جنوب أفريقيا - المترجم). أما انطباعك الثاني فهو ألفة غير معروفة. بماذا تذكرك هذه الأشياء؟ لماذا هي بهذا الشكل؟ في المقام الأول طبعاً إنها تذكرك بالبطاقات البريدية المختلفة التي ربما حدقت بها في طفولتك. لكن الأكثر من هذا، أن الذي تنظر إليه حقيقة هو شيء تقليدي كالمأساة الإغريقية ونوع من عالم المؤخرات المصفوعة والحموات الهزيلات الخفي الذي هو جزء من الوعي الأوروبي الغربي. تلك الدعابات ليست مبتذلة بالضرورة، لو أخذنها واحدة تلو الأخرى وليست البذاءة محظورة لها، والبطاقات البريدية تكرر نفسها مرات أقل مما تفعل أعمدة الدعابة في المجلات المحترمة، لكن موضوعها الأساسي ونوع الدعابة التي تستهدفه لا يتغير أبداً. إن القلة منها ظريف وذكي بصدق، تلك التي في أسلوب ماكس ميلر. أمثلة:

"أحب رؤية الفتيات المجربات ملجأ ووطناً".

"لكني أنا لست مجربة!"

"أنت لست وطناً وملجأ بعد!"

"منذ سنين وأنا أصارع للحصول على معطف من الفرو. كيف حصلت على معطفك؟"

"توقفت عن الصراع"

"القاضي: أنت تراوغ يا سيد. هل نمت أم لم تنم مع هذه المرأة؟"

"شريك الزنا: ولا لحظة يا مولاي!"

على كل حال هي ليست ذكية بشكل عام، ولكن هزلية ويجب إن يقال عن بطاقات ماكجيل بالخصوص إن الرسم جيد غالباً ومضحك أكثر بكثير من الدعابة التي تحته. من الواضح أن الميزة البارزة للبطاقات الهزلية هي فحشها، ويجب أن أناقش ذلك بشكل كامل لاحقاً، لكن سأعطي هنا تحليلاً قاسياً لموضوعها الرئيسي المعتاد مع ملاحظات مفسرة حين تكون هناك حاجة إليها:

الجنس - أكثر من نصف الدعابات أو ربما ثلاثة أرباعها هي دعابات جنسية، تتدرج من الدعابات غير المؤذية إلى تلك التي لا تصلح للنشر أبداً. المفضل الأول ربما الطفل غير الشرعي. عناوين نموذجية: "هل تستطيع تبديل هذه الحلي الصغيرة الجالبة للحظ الجيد بقنينة إرضاع طفل؟" "هي لم تدعني إلى حفلة التعميد، لهذا لن أذهب إلى حفلة الزفاف". تضاف إليه المتزوجات حديثاً والعوانس والتماثيل العارية والنساء في ثياب السباحة. كل هذه مضحكة بطبيعة الحال ويكفي مجرد ذكرها لإثارة الضحك. لم تستغل دعابة الخيانة الزوجية إلا نادراً وليس هناك أية إشارة إلى الشذوذ الجنسي.

أعراف الدعابة الجنسية:

(١) الزواج يفيد النساء فقط. كل رجل يخطط ويحيك الخطط للإغواء، وكل امرأة تحيك الخطط للزواج. ليس هناك امرأة واحدة ظلت غير متزوجة بطيب خاطرها.

(٢) الفتنة الجنسية تتلاشى في عمر الخامسة والعشرين. الأشخاص الوسيمون والنضرون الذين تجاوزوا شبابهم الأول لم يُصوروا أبداً. الزوجان العاشقان في شهر

العسل يظهران ثانية كزوجة ذات طلة متجهمة وزوج مشوه بشاربين وأنف محمر ولم يُسمح بمرحلة وسطى.

الحياة البيتية - تلي الجنس، الزوج الذي تسيطر عليه زوجته هو المزحة المفضلة. العنوان النموذجي:"هل أخذوا "صورة شعاعية لفك زوجتك في المستشفى؟ - كلا، أخذوا صورة سينمائية بدلاً من ذلك".

الأعراف:

(١) لا يوجد شيء اسمه زواج سعيد.

(٢) ليس هناك رجل غلب امرأة في خلاف أبداً. السكر - والامتناع عن السكر مضحكان بطبيعة الحال.

دعابات المرحاض - ليس هناك عدد كبير من هذه. قدور حجر النوم مضحكة بطبيعة الحال وكذلك المراحيض العامة. بطاقة بريدية نموذجية بعنوان "صديق وقت الضيق"، تُظهر قبعة رجل تطير عن رأسه وتختفي تحت درج سلم مرحاض السيدات.

تكبر الطبقة العاملة المتداخلة وعجرفتها - الكثير من هذه البطاقات البريدية يوحي أنها تستهدف الفئة الأغنى من الطبقة العاملة وفقراء الطبقة الوسطى. هناك دعابات تدور حول إساءة استعمال الألفاظ والأمية وسلوك ساكني الأحياء الفقيرة الفظ، وهنا بطاقات بريدية لا تحصى تُظهر عجائز متسخات بالوحل من أنموذج الخدامة النهارية يتبادلن شتائم "لا تليق بالسيدات". جواب بارع أنموذجي يظهر سرعة البداهة: "أتمنى لو أنك كنت تمثالاً وأنا حمامة!" أنتج عدد محدد من البطاقات منذ الحرب تعالج التفوط من وجهة نظر معادية للمتفوط. هناك الدعابات المألوفة عن المشردين والمتسولين والمجرمين، وتظهر الخادمة المضحكة بشكل متكرر بعض الشيء، ويظهر أيضاً العامل غير البارع المضحك والملاح..إلخ؛ لكن ليس هناك دعابات عن النقابات. التكلم بشكل عام أن كل واحد بدخل فوق أو تحت الخمس جنيهات في الأسبوع بكثير يعتبر مثيراً للضحك. "الشخص البارز والممتاز والأنيق" شخص هزلي بشكل آلي مثل ساكن الأحياء الفقيرة.

الشخصيات الشائعة والمألوفة - الأجانب قلما يظهرون أو لا يظهرون أبداً. الدعابة المحلية الرئيسية هو الاسكتلندي الذي لا ينضب تقريباً. المحامي محتال دائماً ورجل الدين أبله وهلع ويقول الشيء الخطأ دائماً. "العقدة" أو "الهراس" لازال يظهر كما في زمن إدوارد تقريباً في ثياب سهرة عتيقة الزي وقبعة أوبرا أو حتى طماق كاحل وخيزرانة بعقدة. من الباقين المنادية بحق المرأة في الاقتراع، وهي واحدة من الدعابة الكبيرة لفترة ما قبل ١٩١٤ وقيمة جداً يعز التخلي عنها. لقد عادت إلى الظهور مرة أخرى من دون أي تغيير في مظهرها البدني كمحاضرة تطالب بحقوق النساء ومساواتهن مع الرجال أو متعصبة بخصوص الامتناع عن شرب الخمر. إن الميزة البارزة في السنوات القليلة الأخيرة هي الفحش التام في البطاقات البريدية المعادية لليهود، اختفت "النكتة اليهودية" البغيضة أكثر من "النكتة الاسكتلندية" فجأة بعد ظهور هتلر بقليل.

السياسة - أي حدث معاصر أو طائفة دينية أو نشاط لديه إمكانيات هزلية كـ"الحب الحر" والنسوية - نظرية المساواة بين الجنسين و(التحذير من الغارات الجوية - المترجم) والتعري مثلاً يجد طريقه بسرعة إلى صورة البطاقات البريدية، لكن جوها العام قديم الطراز بشكل زائد. النظرة السياسية الضمنية راديكالية مناسبة لعام ١٩٠٠ تقريباً. في أوقات عادية هي ليست وطنية فقط، بل تؤيد السخرية من الوطنية بنكات عن "أطال الله عمر الملك" وعلم الاتحاد.. إلخ. لم يعكس الوضع الأوروبي نفسه فيها حتى وقت ما في عام ١٩٣٩ وأول مرة فعل هذا في نكات التحذير من الغارات الجوية، وحتى في هذا التاريخ كانت البطاقات البريدية التي تطرقت إلى الحرب قليلة جداً ماعدا دعابات التحذير من الغارات الجوية (امرأة بدينة تعلق في مدخل ملجأ أندرسون: يهمل القيمون واجبهم بينما تتعرى امرأة شابة عند النافذة التي نسيت أن تطليها باللون الأسود، إلخ إلخ) عدد قليل يعبر عن عواطف معادية لهتلر ليس من النوع الحاقد. واحدة، ليست من ماكجيل، تظهر هتلر بالمؤخرة المتضخمة المعتادة، ينحني إلى الأسفل ليلتقط زهرة. عنوان "ماذا ستفعلون يا رفاق السكن؟" هذا تحليق عال عن الوطنية بالقدر الذي تستطيع بلوغه أي بطاقة بريدية. على خلاف الجرائد الأسبوعية التافهة الرخيصة، فإن البطاقات

البريدية ليست نتاج أية شركة احتكارية كبرى، ومن الواضح أنها لا تعتبر مهمة أبداً في تشكيل الرأي العام، ليست هناك علامات لأي محاولات في تلك البطاقات في الحث على رأي مقبول للطبقة الحاكمة.

هنا يعود المرء إلى الميزة الهامة البارزة للبطاقات البريدية - فحشها. بهذا كل واحد يتذكرها وهو مركزي أيضاً لغرضها، لكن ليس بطريقة واضحة مباشرة.

المرأة ذات العجيزة الناتئة دافع متواتر ومهيمن تقريباً في البطاقات البريدية، ففي نصفها ربما أو أكثر من النصف حتى حين لا يتعلق هدف النكتة بالجنس، يظهر نفس شكل الأنثى، شخصية ريانة "شهوانية" مع ثوب ملتصق بها بشكل ضيق مثل جلد آخر ومع أثداء أو أرداف أكد عليها زيادة وبشكل فاضح ومبالغ به كيفما قلبتها. لا يمكن أن يكون هناك شك بأن هذه الصور رفعت الغطاء عن كبت واسع الانتشار جداً وطبيعي في بلاد نساؤها في صغرهن يملن إلى أن يكن نحيلات إلى درجة الهزال. لكن بنفس الوقت بطاقات ماكجيل - وهذا ينسحب على كل البطاقات البريدية الأخرى في هذا النوع - ليس المراد منها أن تكون فناً إباحياً، وإنما شيء ألطف وأكثر حشمة كملاحظة هجائية ساخرة من الفن الإباحي. إن أشكال الهوتينتوت للنساء كاريكاتيرات لمثال الرجل الإنكليزي السري الأعلى وليست صوراً له. حين يتفحص المرء بطاقات ماكجيل البريدية عن قرب أكثر يلاحظ أن نوع فكاهتها ليس له أي معنى إلا بعلاقته مع النظام الأخلاقي الصارم نوعاً ما. ففي صحف مثل ايسكواير أو لا في باريسيان تكون الخلفية المتخيلة للنكات الاتصال الجنسي غير الشرعي والانهيار التام لكل المعايير، نجد أن خلفية بطاقات ماكجيل هي الزواج. إن النكات البارزة الأربع، العري والأطفال والزنا والعوانس والأزواج المتزوجون حديثاً، لا تبدو مضحكة في مجتمع فاجر بشكل حقيقي أو حتى "رفيع الثقافة وذي تجارب". البطاقات التي تتعامل مع الأزواج الذين في شهر العسل تملك دائماً قلة اللباقة الحماسية لأعراس القرى التي لاتزال تعتبر مضحكة إلى حد صارخ عندما تخيط أجراساً بسرير العرس. في واحدة مثلاً، عريس شاب يظهر خارجاً من الفراش في الصباح الذي تلى ليلة الزفاف ويقول: "أول صباح في بيتنا الصغير الخاص بنا، يا حبيبتي! سأذهب وأحضر اللبن والجريدة وأحضر لك كوباً من

الشاي". الصورة المدرجة صورة لعتبة الباب الخارجي الأمامية وعليها أربع صحف وأربع قناني من الحليب. هذا فحش إن أحببت لكنه ليس فسقاً. مضمونها - وهذا المضمون فقط الذي تتجنبه ايسكواير أو نيويوركر بأي ثمن - إن الزواج شيء مثير بعمق ومهم وأكبر حدث في حياة الكائن البشري العادي.

وهكذا أيضاً مع النكات عن الزوجات المنكدات والحماوات المستبدات. هي تدل ضمناً على الأقل على مجتمع مستقر، الزواج فيه أبدي ولا فكاك منه، والولاء العائلي يُعتبر من المسلمات. ويرتبط بهذا شيء لاحظته قبل ذلك، ألا وهو حقيقية عدم وجود أو من النادر وجود صور لأشخاص جذابين تجاوزوا فترة شبابهم الأول. هناك الزوجان اللذان "يتغازلان" والزوجان اللذان في منتصف العمر بعلاقتهما المتقلبة في الحب والكره ولا شيء بينهما. إن العلاقة علاقة الحب المحرمة، لكن المحتشمة تقريباً التي هي النكتة المألوفة والشائعة في الصحف الفرنسية الهزلية، ليست موضوع البطاقات البريدية. وهذا يعكس على المستوى الهزلي وجهة نظر الطبقة العاملة، التي تعتبر من الطبيعي والبديهي أن تنتهي فترة الشباب والمغامرة - في الواقع الحياة الفردية - بالزواج. وهذه إحدى الاختلافات الطبقية الحقيقية - مقارنة بالامتيازات الطبقية التي لاتزال موجودة في إنكلترا بأن أفراد الطبقات العاملة يهرمون في عمر مبكر جداً. هم لا يعيشون حياة أقصر طالما تجاوزوا طفولتهم أحياء، ولن يفقدوا نشاطهم البدني بوقت مبكر أكثر ولكنهم يفقدون مظهرهم الشبابي بصورة مبكرة جداً. هذه الحقيقة ترى وتلاحظ في كل مكان لكن يمكن التأكد منها بسهولة بمراقبة واحد من المجموعات العمرية الأعلى وهو ينضم إلى الخدمة العسكرية؛ إن منظر أفراد الطبقة الوسطى والعليا في المتوسط، أصغر بعشر سنوات من الآخرين. من المألوف نسب هذا إلى الحياة الأصعب التي تُجبر الطبقات العاملة على عيشها، لكن يُشك بوجود فرق كهذا مسؤول عن ذلك. الحقيقة الأرجح هي أن الطبقات العاملة تصل إلى منتصف العمر بوقت أبكر، لأنها تقبل به بوقت أبكر، لأنه لتبدو شاباً بعد الثلاثين مثلاً هو إلى حد كبير مسألة رغبة لتفعل هذا. هذا التعميم أقل صحة مع العمال من ذوي الأجور الأفضل وخصوصاً هؤلاء الذين يعيشون في بيوت المجلس البلدي وشقق التوفير العمالية، لكنه صحيح كفاية حتى بينهم ليشير إلى

اختلاف في وجهة النظر. وفي هذا كالعادة هم تقليديون ومنسجمون مع الماضي المسيحي أكثر من النساء الثريات اللواتي يحاولن البقاء شابات وهن في الأربعين بواسطة الاهتزازات البدنية ومستحضرات التجميل وتجنب الحمل. إن الحافز للتشبث بالشباب بأي ثمن ومحاولة الحفاظ على الجاذبية الجنسية ورؤية منتصف العمر، بأنه مستقبل لنفسك وليس أطفالك شيء ذو أصل حديث وطد نفسه أخيراً بشكل مقلقل، وقد يختفي ثانية حين تهبط مستويات العيش ويرتفع معدل الولادات عندنا. إن عبارة "الشباب متاع لا يدوم" تعبر عن الموقف التقليدي العادي. إنها هذه الحكمة القديمة جداً التي يعكسها ماكجيل وزملاؤه من دون قصد بلا شك، حين لم يسمحوا لأية مرحلة انتقالية بين زوجي شهر العسل وهذين الشخصين اللذين فقدا كل فتنة وسحر فيهما، الأم والأب.

قلت إن نصف بطاقات ماكجيل على الأقل دعابات جنسية ونسبة عشرة بالمائة ربما فحش أكثر من أي شيء آخر يطبع في إنكلترا. وتعرض بائعو الصحف لمحاكمات قضائية أحياناً بسبب بيعها، وسيكون هناك محاكمات أكثر إن لم تحمَ البطاقات الأكثر تحرراً بواسطة المعنى المزدوج بشكل دائم. يكفي مثال واحد ليبين كيف يتم هذا. في إحدى البطاقات، بعنوان "لم يصدقوها" امرأة شابة مقيدة اليدين توضح شيئاً طوله قدمين تقريباً لزوجين مندهشين من معارفها. خلفها على الجدار سمكة متخمة في صندوق زجاجي، وبجانب ذلك صورة لرياضي عارٍ تقريباً. من الواضح أنها لا تشير إلى السمكة، لكن لا يمكن إثبات هذا. الآن من غير المؤكد أن توجد أية جريدة في إنكلترا تنشر دعابة من هذا النوع، وبالتأكيد لا توجد جريدة تفعل ذلك بشكل اعتيادي. هناك كمية ضخمة من الفن الإباحي من الصنف المعتدل وصحف توضيحية لا تعد تتاجر بسيقان النساء، لكن ليس هناك أدب شعبي متخصص في المظهر الهزلي "السوقي" للجنس. من الجانب الآخر إن دعابات مثل دعابات ماكجيل هي التغيير الصغير العادي لمرحلة الملاهي وصالات الموسيقى، وما يُسمع من المذياع أيضاً في أوقات يكون فيها الرقيب ينود برأسه من النعاس. إن الهوة بين ما يمكن أن يقال وما يمكن أن ينشر، واسعة بشكل استثنائي في إنكلترا. إن الملاحظات والإيماءات على خشبة المسرح التي لا يعترض عليها أحد إلا نادراً، تثير احتجاجاً شعبياً عنيفاً إن جرت أية محاولة لإعادة إنتاجها

على الورق. (قارن هنر ماكس ميلر على المنصة مع عموده الأسبوعي في الصنداي ديسباتش). إن البطاقات البريدية الهزلية الاستثناء الوحيد فقط لهذه القاعدة والناقل الوحيد الذي يفكر بنشر المزاح "الدنيء" حقيقة. فقط في البطاقات البريدية وعلى منصة حفلات المنوعات، يمكن استغلال أنموذج نكات العجيزة البارزة للخارج والكلب وعمود النور وحفاظ الطفل بشكل حر. مع التذكير أن المرء يرى الوظيفة التي تنجزها هذه البطاقات البريدية بطريقتها المتواضعة.

ما تقوم به تلك البطاقات البريدية، هو أنها تعطي تعبيراً لنظرة سانكو بانزا للحياة وللموقف من الحياة الذي لخصته الآنسة ريبيكا ويست مرة بـ"استخراج أكبر قدر ممكن من المتعة من مؤخرات ضخمة في مطابخ الأقبية". مركب دون كيشوت وسانشو بانزا الذي هو أقدم ثنائية من الجسد والروح في الفن القصصي طبعاً، يتكرر كثيراً في أدب السنوات الأربعمائة الأخيرة أكثر مما يمكن تفسيره كمحاكاة فقط، ويظهر مرة أخرى وأخرى في أشكال متنوعة لانهاية لها، بوفارد وبوشيه، جيفز ووستر، بلوم وديدالوس، هولمز وواتسون (الشكل هولمز - واتسون نوع بارع بشكل استثنائي لأن الصفات البدنية المعتادة للشريكين نُقلتا من واحد إلى آخر). من الواضح أنه يتطابق مع شيء متبق في حضارتنا، ليس بمعنى أن تلك الشخصية يجب أن توجد في حالة "نقية" في الحياة الحقيقية، وإنما بمعنى أن المبدأين الاثنين، الحماقة النبيلة والحكمة الرديئة، يتواجدان جنباً إلى جنب في كل كائن بشري تقريباً. لو نظرت في عقلك، فأيهما أنت، دون كيشوت أم سانشو بانزا؟ بالتأكيد أنت الاثنان تقريباً. هناك جزء أول منك يتمنى أن يكون بطلاً أو قديساً، ولكن الجزء الآخر منك عبارة عن رجل صغير بدين يرى بوضوح أفضليات البقاء حياً بكامل جلده. إنه نفسك غير الرسمية وصوت البطن التي تحتج ضد الروح، وهو الذي تتجه ميوله وولعه نحو الأمان والأسرة الناعمة وعدم العمل وقدور البيرة والنساء ذوات الأشكال "الشهوانية"، وهو من يخرق مواقفك الرائعة ويحثك للسعي وراء الرقم واحد وتكون غير مخلص لزوجتك وتتهرب من سداد ديونك وهلم جرا. إن سمحت لنفسك للتأثر به أم لا، فهذه مسألة مختلفة. لكن من الكذب الصريح القول إنه ليس جزءاً منك مثل كذبة القول بأن دون كيشوت ليس جزءاً منك، لكن كل ما قيل وكتب يتألف من الكذبة الأولى أو الأخرى وعادة الأولى.

لكنه واحد من الشخصيات الشائعة والمألوفة في الأدب، بالرغم من أشكاله المتغيرة. أما في الحياة الحقيقية وفي الطريقة التي رُتب بها المجتمع خصوصاً، لم تلق وجهة نظره آذاناً صاغية أبداً. هناك مؤامرة عالمية دائمة للتظاهر بأنه غير موجود أو أنه ليس مهماً على الأقل. لم يكن هناك متسع كافٍ في المنظومات القانونية والأخلاقية أو الأنظمة الدينية للنظرة الساخرة من الحياة. أي شيء هزلي مفسد وكل نكتة في النهاية فطيرة كستارد، والسبب أن القسم الكبير من النكات يتركز على الفحش، هو ببساطة أن كل المجتمعات يجب أن تصر على معيار رفيع للأخلاق الجنسية كثمن للبقاء. إن النكتة القذرة طبعاً ليست هجوماً خطيراً على الفضيلة، وإنما نوع من التمرد العقلي ورغبة لحظية في أن تكون الأشياء مختلفة، وهكذا أيضاً مع كل النكات التي تركز دائماً حول الجبن والكسل والخداع والكذب أو سجية ما أخرى لا يستطيع المجتمع تحمل نتائج تشجيعها. على المجتمع دائماً أن يطلب من الكائنات البشرية أكثر قليلاً من الذي يناله عملياً. عليه أن يطالب بانضباط لا عيب فيه وتضحية بالذات، وعليه أن يتوقع من رعاياه أن يعملوا بجد ويدفعوا ضرائبهم ويكونوا مخلصين لزوجاتهم، ويجب عليه أن يفترض أن الرجال يعتقدون أن الموت في ساحة الحرب عمل مجيد، وأن النساء يرغبن ويردن أن يرهقن أنفسهن بحمل الأطفال. إن كل ما يمكن أن يسميه المرء بالأدب الرسمي، مؤسس على مثل هذه الافتراضات. أنا لم أقرأ أبداً بلاغات الجنرالات قبل المعركة، وخطابات الفوهررات ورؤساء الوزراء وأغاني المدارس العامة التضامنية والأحزاب السياسية اليسارية والأناشيد الوطنية وكراسات الاعتدال وضبط النفس والمنشورات البابوية والعظات التي ضد القمار ومنع الحمل، من دون أن أتصور أنني أسمع في الخلفية جوقة من الأصوات الدالة على الكره من الملايين من عامة الناس الذين لا تجذبهم أو تغريهم هذه العواطف. لكن العواطف السامية تفوز في النهاية دائماً، والقادة الذين يقدمون الدم والكدح والدموع والعرق دائماً يحصلون من أتباعهم أكثر من هؤلاء الذين يوفرون الأمان والوقت الجيد. حين تصل الأمور إلى مرحلة الشدة (القرصة) تكون الكائنات البشرية كائنات بطولية، فالنساء يواجهن المخاض وفرشاة الفرك والتنظيف، والثوار يعظون على نواجذهم ويغلقون أفواههم في غرف التعذيب، والبوارج تطلق النار من مدافعها وهي تغرق

وتغمر المياه أرضياتها. إنه العنصر الآخر في الإنسان فقط، العنصر الزاني والكسول والجبان والمتهرب من دفع الديون الذي داخلنا الذي لا يمكن أن يُقمع تماماً أبداً ويحتاج أن نستمع إليه أحياناً.

البطاقات البريدية الهزلية هي أسلوب تعبير واحد عن وجهة نظره، وجهة نظر متواضعة وأقل أهمية من قاعات الموسيقا، لكنها تظل جديرة بالاهتمام. من الطبيعي في المجتمع الذي لايزال مسيحياً في جوهره أن يكون التركيز على النكات الجنسية؛ وفي المجتمع الاستبدادي، إن كان لديه أية حرية تعبير، سوف يكون التركيز على الأرجح على الكسل أو الجبن، وفي كافة الأحوال على غير البطولي بشكل أو بآخر. أنا لن أعمل على شجبها بحجة أنها سوقية وقبيحة. فذلك بالضبط المقصود أن تكونه. إن كل معناها وفضيلتها في دونيتها غير المفتداة، ليس بمعنى الفحش بل دونية وجهة النظر في كل اتجاه أياً كان كما أن أدنى أثر للتأثيرات "الأسمى" سوف يدمرها تماماً. هي تمثل رأي عين الحشرة للحياة وعالم صالات الموسيقى حيث الزواج نكتة قذرة أو كارثة هزلية، والإيجار متأخر دائماً والثياب فوق الصنبور دائماً، والمحامي محتال دائماً، والاسكوتلندي بخيل دائماً، وحيث الأزواج الجدد يجعلون من أنفسهم سخرية على الأسرة الشنيعة في بيوت الإيجار في الشاطئ، وحيث الأزواج الثملون بأنوفهم المحمرة يعودون مترنحين إلى البيت في الساعة الرابعة صباحاً، ليجدوا الزوجات في ثياب النوم الكتانية في انتظارهم خلف الباب الأمامي ومذكي النار في أيديهن. وجود البطاقات حقيقة وواقع، وكون الناس يريدونها شيء مهم في دلالاته، وهي نوع من المرح الصاخب وتمرد ليس مؤذياً للفضيلة مثل صالات الموسيقى، وتعبر كذلك عن ميل واحد في العقل البشري، لكنه ميل موجود دائماً وسيجد لنفسه مخرجاً دائماً مثل الماء. بالمجمل وعلى العموم إن الكائنات البشرية تريد أن تكون خيرة، لكن ليست خيرة جداً وليست تماماً طول الوقت. لأن:

هناك إنسان مستقيم يهلك في صلاحه وتقواه، وهناك إنسان شرير يطيل حياته في شروره.
لا تكن صالحاً ومستقيماً بإفراط، ولا تجعل نفسك عاقلاً بإفراط ؛ لماذا يجب أن تدمر نفسك؟
لا تكن شريراً جداً ولا تكن أحمق: لماذا يجب أن تموت قبل أوانك؟

في الماضي استطاع مزاج البطاقة البريدية الدخول في التيار المركزي للأدب والتلفظ بدعابات لم تختلف عن ماكجيل إلا بالكاد بسهولة بين جرائم القتل في مسرحيات شكسبير. هذا لم يعد ممكناً الآن، وقد تضاءل صنف كامل من الفكاهة كان متمماً ومكملاً لأدبنا حتى عام ١٨٠٠ تقريباً إلى هذه البطاقات البريدية المرسومة بشكل سيء التي تعيش وتحظى بالكاد ببقاء ووجود شرعي في واجهات محلات القرطاسية الرخيصة. إن الزاوية من القلب البشري التي تعبر عنها، يمكن أن تظهر نفسها بسهولة بأشكال أسوأ، وأنا مع كل من يأسف على رؤيتها وهي تتلاشى.

من هم مجرمو الحرب؟

ظاهرياً كان انهيار موسوليني قصة من الميلودراما الفيكتورية مباشرة. أخيراً وبعد طول انتظار انتصرت الاستقامة والعدالة وهزم الرجل الشرير، وعادت مطاحن الرب للعمل، لكن عند التفكير ملياً، فإنها حكاية أخلاقية أبسط وأرفع. بداية ما هي الجريمة - إن وجدت - التي ارتكبها موسوليني؟ في سياسية القوة ليس هناك جرائم لعدم وجود قوانين، ومن جانب آخر هل هناك أي ميزة بارزة في نظام موسوليني الداخلي يستطيع أحد من الذين سيجلسون للحكم عليه الاعتراض عليها بشكل جدي؟ لأنه كما يبين مؤلف هذا الكتاب (محاكمة موسوليني بقلم كاسيوس) بوفرة - وهذا في الحقيقة الغرض الرئيسي للكتاب - ليس هناك عمل نذل ارتكبه موسوليني بين ١٩٢٢ و١٩٤٠ لم يمجده نفس الأشخاص الذين تعهدوا بجلبه إلى المحاكمة.

محاكمة موسيليني بقلم كاسيوس

يتخيل كاسيوس، لأغراض قصته الرمزية، موسوليني متهماً أمام محكمة بريطانية مع محام عام كمدعٍ. قائمة التهم مؤثرة والوقائع الرئيسية - من جريمة قتل ماتيوتي إلى غزو اليونان ومن تدمير التعاونيات الفلاحية إلى قصف أديس أبابا - تهم لا يمكن نكرانها، واعترف بكل شيء من معسكرات اعتقال ومعاهدات معطلة وهراوات مطاطية وزيت الخروع. السؤال المزعج الوحيد كيف يمكن لشيء كان جديراً بالثناء حين جرى فعله - منذ عشر سنوات مثلاً - أن يصبح فجأة مستحقا للشجب الآن. سمح لموسوليني أن يستدعي شهوداً من الأموات والأحياء على السواء ليبين بكلماتهم المطبوعة أن القادة البريطانيين المسؤولين عن الرأي البريطاني شجعوه في كل ما فعل منذ البداية. مثلاً هذا اللورد روثرمير في عام ١٩٢٨:

كان (موسوليني) في بلاده الترياق لكل سم مميت، وبالنسبة إلى بقية أوروبا كان مقوياً وأنجز خيراً لا يحصى. أستطيع القول بارتياح صرف إنني سأكون الرجل الأول في منصب ذي تأثير شعبي يضع إنجازات موسوليني الباهرة في مكانها الصحيح...... إنه الشخصية البارزة الأعظم في عصرنا.

هذا ونستون تشرشل في عام ١٩٢٧:

لو كنت إيطاليا، فسأكون بالتأكيد معك بإخلاص وحماس في صراعك المظفر ضد الميول البهيمية والعواطف اللينينية... (إيطاليا) قدمت الترياق الضروري للسم الروسي. بعد الآن لن تكون هناك أمة عظيمة غير مزودة بوسائل حيوية وحاسمة من الحماية ضد نمو البلشفية السرطاني.

هذا اللورد موتيستون في عام ١٩٣٥:

أنا لا أعارض (القتال الإيطالي في إثيوبيا). أردت أن أبدد الوهم السخيف بأن التعاطف مع الخاسر والضحية شيء من التهذيب.... أنا قلت إن إرسال أسلحة أو التواطؤ لإرسالها إلى هؤلاء الإثيوبيين الوحشيين القساة شيء شرير، ولازلت أرفض أن تُعطى للآخرين الذين يلعبون دوراً مشرفاً.

هذا السيد دوف كوبر في عام ١٩٣٨:

بخصوص الحدث الإثيوبي، خير الكلام ما قل ودل، حين يتصالح أصدقاء قدماء بعد عراك، فإن مناقشة الأسباب الأصلية للعراك تشكل خطراً عليهم.

هذا السيد وارد برايس، من الديلي ميل، في عام ١٩٣٢:

يتحدث الناس الجاهلون والمتحاملون عن الشؤون الإيطالية كما لو كانت تلك الأمة تابعة لحكم استبدادي تحاول الإطاحة به برغبتها. مع ذلك الرثاء المريض للأقليات المتعصبة وهو القاعدة مع قطاعات محددة مطلعة بشكل منقوص من الرأي العام البريطاني، هذه البلاد أغمضت عيونها طويلاً عن العمل الرائع الذي يؤديه ذلك النظام الفاشي. أنا سمعت موسوليني مرات كثيرة نفسه يعبر عن عرفانه بالجميل نحو الديلي ميل، لأنها الصحيفة البريطانية الأولى التي وضعت أهدافه دون تحيز أمام العالم.

وهكذا وهلم جرا. هوري وسايمون وهاليفاكس ونيفيلي تشامبرلاين وأوستن تشامبرلاين وهور - بيليشا واميري واللورد لويد وآخرون غيرهم دخلوا إلى قفص الشهود وهم مستعدون للشهادة إن كان موسوليني قد سحق النقابات العمالية الإيطالية، ولم يتدخل في إسبانيا، وصب غاز الخروع على الإثيوبيين، ورمى العرب من الطائرات، وإن بنى أسطولاً بحرياً لاستخدامه ضد بريطانيا، وإن كانت الحكومة البريطانية وناطقها الرسمي يؤيدانه في السراء والضراء. أظهروا لنا السيدة (اوستن) تشامبرلاين وهي تصافح موسوليني في عام

١٩٢٤ وتشامبرلاين وهاليفاكس في وليمة معه يشربان نخب "إمبراطور إثيوبيا في عام ١٩٣٩ واللورد لوي يداهن النظام الفاشي في كراسة رسمية إلى عام ١٩٤٠. الانطباع الصرف الذي تركه هذا الجزء من المحاكمة بوضوح تام أن موسوليني غير مذنب، ولم تظهر قضية حقيقية ضده إلا لاحقاً، حين قدم الإثيوبيون والمعادون للفاشية من الإسبان والإيطاليين أدلتهم.

الكتاب كتاب خيالي، لكن هذا الاستنتاج حقيقي، ومن غير المحتمل أن يقدم التوريين البريطانيين موسوليني للمحاكمة، ولا يمكنهم اتهامه بشيء إلا إعلانه الحرب في عام ١٩٤٠. إن حدثت "محاكمة لمجرمي الحرب" والتي يحلم بعض الناس في الاستمتاع بها، فإنها لا يمكن أن تحدث إلا بعد ثورة في بلدان التحالف، لكن فكرة إيجاد كباش فداء وإلقاء اللوم على أفراد أو أحزاب أو أمم عن الكوارث التي حدثت لنا، ستثير سلسلة من الأفكار الأخرى التي سيكون بعضها محبطاً ومقلقاً.

إن تاريخ العلاقات البريطانية مع موسوليني، يوضح الضعف البنيوي للدولة الرأسمالية. بالتسليم بأن سياسة القوة ليست أخلاقية، فإن محاولة شراء إيطاليا وإخراجها من دول المحور - وهذه الفكرة تبطن السياسة البريطانية منذ عام ١٩٣٤ فصاعداً - كانت نقلة استراتيجية، لكنها نقلة لم يقدر بولدوين وتشامبرلاين والبقية منهم على تنفيذها، ولا يمكن أن تتم إلا عندما تكون قوياً ولا يجرؤ موسوليني على الاصطفاف إلى جانب هتلر.

كان هذا مستحيلاً لأن اقتصاداً يحكمه حافز الفائدة، ليس كفؤاً لإعادة التسلح بالمقياس الحديث. ولم تبدأ بريطانيا بالتسلح إلا حين كانت ألمانيا في كالياس. قبل ذلك، جرى في الواقع التصويت والموافقة على مبالغ مالية كبيرة للتسلح، لكنها انزلقت بشكل مسالم إلى جيوب حاملي الأسهم، ولم تظهر الأسلحة. وبسبب انعدام النية في تقليص امتيازاتهم الخاصة، كان من المحتم على الطبقة الإنكليزية الحاكمة أن تنفذ كل سياسة بشكل متردد وتتعامى عن الخطر القادم. لكن الانهيار الأخلاقي الذي تضمنه هذا كان شيئاً جديداً في السياسة البريطانية. ففي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان الساسة البريطانيون منافقين، لكنه نفاق تضمن نظاماً أخلاقياً. لكن الشيء الجديد أن يهلل أعضاء التوري في البرلمان لأخبار قصفت الطائرات الإيطالية للسفن البريطانية، أو أن يساعد أعضاء مجلس اللوردات في حملة تشهير منظمة ضد أطفال الباسك الذين جلبوا إلى هنا كلاجئين.

حين يفكر المرء بأكاذيب وخيانات تلك السنوات، والاستسلام الكلبي لحليف بعد الآخر والتفاؤلية البلهاء لصحافة التوري، ورفض التصديق الصريح بأن الديكتاتوريين عزموا على الحرب وحتى حين صرخوا بها من سطوح البيوت، فإن عجز الطبقة الثرية عن رؤية أي خطأ في معسكرات الاعتقال والجيتوهات والمجازر والحروب غير المعلنة، يجبر المرء على الشعور بأن التهور الأخلاقي لعب دوره بالإضافة إلى الحماقة. قبل عام ١٩٣٧ تقريباً لم يكن التشكيك بطبيعة الأنظمة الفاشية ممكنا. لكن أسياد الملكية قرروا أن الفاشية في صفهم وهم راغبون في بلع أنكر الشرور طالما ظلت ملكياتهم آمنة، وفي طريقتهم الخرقاء كانوا يلعبون لعبة ميكيافيلي في "الواقعية السياسية" بأن "كل ما يرقي ويدعم قضية الحزب صحيح" - الحزب في هذه الحالة طبعاً حزب المحافظين.

كل هذا يورده "كاسيوس"، لكنه يتهرب من نتيجته الطبيعية. في كل كتابه يشير ضمناً بأن التوريين فقط غير أخلاقيين، ومع ذلك تظل هناك إنكلترا أخرى فيقول "هذه الإنكلترا الأخرى مقت الفاشية من اليوم الذي ولدت فيه.... هذه كانت إنكلترا اليسار، إنكلترا حزب العمال". هذا صحيح لكنه جزء فقط من الحقيقية. لقد كان السلوك الفعلي لليسار مشرفاً أكثر من نظرياته، فقد قاتل ضد الفاشية، لكن ممثليه المفكرين دخلوا بعمق كخصومهم في عالم شر "الواقعية" وسياسة القوة.

إن "الواقعية" (كانت تدعى الخداع) جزء من الجو السياسي لزمننا، وهي علامة ضعف في موقف كاسيوس الذي يستطيع المرء تجميع كتاب مشابه لكتابه تماماً بعنوان محاكمة ونستون تشرشل أو محاكمة شيانغ كاي - شيك أو حتى محاكمة رامسي ماكدونالد. في كل حالة ستجد أن قادة اليسار يناقضون أنفسهم بالشكل الضخم الذي اقتبسه كاسيوس تقريباً، لأن اليسار كان راغباً في التعامي بدرجة كبيرة والقبول ببعض الحلفاء المريبين جداً أيضاً. نحن نضحك الآن عند سماع التوريون يشتمون موسوليني في حين كانوا يداهنونه قبل خمس سنوات، ومن كان يتكهن أن يكون ونستون تشرشل فاتن الديلي وركر بعد عشر سنوات من الإضراب العام؟ في السنوات من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩، حين بدا كل حليف ضد الفاشية مقبولاً تقريباً، وجد اليساريون أنفسهم يمدحون مصطفى كمال، ثم بعد ذلك طوروا عرض خدمات لكارول من رومانيا.

لكن يمكن غفران ذلك كله أكثر من موقف اليسار من نظام الحكم الروسي الذي يشبه بوضوح موقف التوريين من الفاشية. كان هناك نفس الميل لمغفرة أي شيء تقريباً "لأنهم في

صفنا". من الجيد التكلم عن ليدي تشامبرلاين وهي في صورة تصافح موسوليني، والصورة الأحدث لستالين وريبنتروب وهما يتصافحان. عموماً كان دفاع مثقفو اليسار عن الاتفاقية الروسية الألمانية "واقعية" مثل سياسة تشامبرلاين المهدئة وبنفس النتائج. إن كان هناك طريق للخروج من الزريبة الأخلاقية التي نعيش فيها فربما تكون الخطوة الأولى نحوها أن نفهم أن "الواقعية" لن تفيد، وأن الاستسلام وبيع الأصدقاء والجلوس وفرك الأيدي وهم يُدمرون ويبادون، ليست الكلمة الأخيرة في الحكمة السياسة.

هذه الحقيقة يمكن إثباتها في أية مدينة بين كارديف وستالينغراد، لكن الناس الذين يرونها ليسوا كثيرين. إن مهمة كاتب الكراريس في الوقت الراهن، أن يهاجم اليمين ولا يداهن اليسار، لأن اليسار كان قانعاً جداً وراضياً عن نفسه، ولأنه الآن في نفس المكان الذي كان فيه.

موسوليني في كتاب كاسيوس يدخل القفص بنفسه بعد استدعاء شهوده ويلتزم بعقيدته الميكيافيلية: القوة هي الحق، فاي فيكتيس! (والويل للمغلوب – المترجم) ولم يُجرم إلا بجرم وحيد مهم وهو جرم الفشل ويعترف أن لخصومه الحق في قتله – لكنه ليس لهم الحق في لومه كما أصر. كان تصرفهم مشابهاً لتصرفه وإداناتهم الأخلاقية كلها رياء. وبعد ذلك أتى الشهود الثلاث الآخرون الإثيوبي والإسباني والإيطالي الذين كانوا على مستوى مختلف أخلاقياً، لأنهم لم يهادنوا الفاشية أبداً أو يتورطوا في سياسة القوة، وطالب الثلاثة بعقوبة الإعدام.

هل كانوا سيطالبون بها في الحياة الحقيقية؟ هل يمكن لشيء كهذا أن يحدث قط؟ من غير المحتمل حتى لو أمسك الناس الذين لهم حق حقيقي في محاكمة موسوليني، بموسوليني بأيديهم. التورويون طبعاً، رغم أنهم سيتفادون الاستجواب الحقيقي في أسباب الحرب الأصلية، إلا أنهم لن يأسفوا ويفوتوا فرصة إلقاء كل اللوم على بضعة أفراد من ذوي السمعة السيئة من أمثال موسوليني وهتلر. بهذه الطريقة تصبح مناورة درلان – بادوغوليو أسهل. موسوليني كبش فداء جيد، لكنه عموماً سيكون كبشاً خطراً في الأسر. والآن ماذا عن الناس العاديين؟ هل سيقتلون طواغيتهم بدم بارد بأشكال قانونية إن توفرت لهم الفرصة؟

صحيح أن وجود إعدامات كهذه في التاريخ قليلة جداً. في نهاية الحرب الأخيرة فاز اقتراع واحد جزئياً حول شعار "اشنقوا القيصر"، ولكن لو جرت مثل هكذا محاولة، فقد يثور

ضمير الأمة. حين يوضع الطغاة للموت، يجب أن يكون ذلك بواسطة رعاياهم، لأن الذين تعاقبهم سلطة أجنبية مثل نابليون، يتحولون ببساطة إلى شهداء وأساطير.

ليس المهم جعل أفراد العصابات السياسية هؤلاء يعانون ويتعذبون، بل جعلهم يكذبون أنفسهم. لحسن الحظ أنهم يفعلون هذا في حالات مختلفة إلى درجة مدهشة، فأسياد الحرب في دروعهم اللماعة ورسل الفضائل الحربية لا يميلون إلى الموت، وهم يقاتلون حين تحين الفرصة. يغص التاريخ بحوادث فرار شائنة لعظماء ومشاهير، فقد استسلم نابليون للإنكليز ليحصل على حماية من البروسيين، وهربت الإمبراطورة يوجيني في عربة جميلة مع طبيب أسنان، ولجأ لوديمدورف إلى مشهد مثير للسخرية، وهو واحد من أجلف الأباطرة الرومان، حين حاول أن ينجو من الاغتيال بحبس نفسه في المرحاض، وهرب أحد القادة الفاشيين من إسبانيا بإعداد رائع عبر مجرور خلال الأيام الأولى من الحرب الأهلية الإسبانية.

يتمنى المرء لموسوليني مخرجاً كهذا، ولو ترك لنفسه لربما قام بذلك وربما هتلر أيضاً. قيل عن هتلر إنه حين يأتي وقته لن يطير أو يستسلم، بل سيموت بطريقة أوبريتية ما، بالانتحار على الأقل. لكن ذلك كان حين كان هتلر ناجحاً لكن خلال السنة الأخيرة، ومنذ أن بدأت الأشياء تسوء بات من الصعب الشعور أنه سيتصرف بكرامة أو شجاعة. ينهي كاسيوس كتابه مع إيجاز القاضي، ويترك الحكم مفتوحاً وتشجيع قرائه على أخذ القرار. حسناً لو ترك الأمر لي، فلن يكون حكمي على هتلر وموسوليني عقوبة الإعدام، إلا إن حدث بطريقة مستعجلة وغير مبهرجة. لو أحب الألمان والطليان تقديمهما إلى محكمة عسكرية عاجلة ومن ثم تنفذ زمرة من الجند حكم الإعدام رمياً بالرصاص، فليكن لهم ذلك، أو الأفضل من ذلك دع الاثنين يهربان بملء حقيبة كبيرة من الضمانات، ويستوطنان مثل الأشخاص المضجرين المفوضين في فندق سويسري، لكن لا لتحويلهم إلى شهداء أو إلى مهنة القديسة هيلانة وأهم شيء لا للمحاكمة الزائفة المهيبة لمجرمي الحرب مع كل الأبهة الفارغة لطقوس القانون البطيئة والوحشية الذي بعد مرور فترة من الوقت، لديه طريقة غريبة في تركيز ضوء عاطفي حالم على المتهم وتحويل الوغد إلى بطل.

نشرت لأول مرة: التريبيون - لندن - ٢٢ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٤٣.

مستقبل ألمانيا مخرب

باستمرار التقدم في عمق ألمانيا، وانكشاف التخريب المتزايد الذي تحدثه طائرات الحلفاء القاذفة، هناك ثلاث تعليقات يجد كل مراقب للوضع تقريباً نفسه يدلي بها. الأول: الناس في الوطن ليس لديهم أية فكرة عن هذا. الثاني: استمرارهم في القتال معجزة. والثالث: فكر فقط ببناء هذا كله مرة أخرى!

صحيح تماماً أن مدى وقوة مهاجمة ألمانيا بالغارات الجوية لم يُدرك حتى الآن في هذه البلاد، كما بُخس إسهامها في تعطيل المقاومة الألمانية وتدميرها. من الصعب إضفاء الواقعية على تقارير الحرب الجوية، ويُغفر لرجل الشارع إن تخيل أن ما تفعله بألمانيا خلال السنوات الأربع الماضية هو نفس نوع الشيء الذي فعله الألمان بنا عام ١٩٤٠.

لكن في هذا الخطأ الذي يفترض أن يكون شائعاً أكثر في الولايات المتحدة، خطر كامن والاعتراضات الكثيرة ضد القصف العشوائي التي أطلقها السلميون والإنسانيون لم تفعل إلا في التشويش على القضية.

إن القصف بشكل ليس غير إنساني. إن الحرب نفسها غير إنسانية، والطائرة القاذفة التي تستخدم لشل الصناعة والنقل هي سلاح متمدن نسبياً. إن الحرب "العادية" أو "الشرعية" مهلكة تماماً، وبالمثل للأشياء غير الحية ولحياة البشر بشكل هائل جداً.

فضلاً على ذلك، إن قصف القنابل يقتل مقطعاً عرضياً اعتباطياً من السكان، بينما الرجال الذين يُقتلون في المعركة هم بالضبط الذين لا يستطيع المجتمع تحمل فقدانهم والتعويض عنهم. لم يهن على الشعب في بريطانيا قصف المدنيين، وبلا أدنى شك سيكون مستعداً للإشفاق على الألمان حالما يدحرهم بشكل واضح، لكن الذي لم يفهمه بعد - بفضل مناعته النسبية الخاصة به - التدمير المرعب للحرب الحديثة والفترة الطويلة من الإفقار التي تلوح الآن بوجه العالم ككل.

أن تمشي في المدن الألمانية المخربة، هو أن تشعر بشك فعلي في استمرارية الحضارة، لأن المرء يجب أن يتذكر بأن ما يتعرض للقصف ليس ألمانيا فقط. نفس الخراب يمتد بأي حال في بقع كبيرة على طول الطريق من بروكسل إلى ستالينغراد، أما في المناطق التي تشهد قتالاً أرضياً، يكون الدمار فيها أكثر شمولاً حتى. لم يبق في ٣٠٠ ميل تقريباً بين المارن والراين جسر أو معبر لم يُفجّر.

حتى في إنكلترا نحن ندرك أننا نحتاج إلى ثلاثة ملايين منزل، وأن فرصة الحصول عليها ضمن فترة محسوبة من الوقت هزيلة نوعاً ما، لكن كم منزلاً ستحتاج ألمانيا أو بولونيا أو الاتحاد السوفيتي أو إيطاليا؟ حين يفكر المرء بالمهمة الهائلة لإعادة بناء مئات المدن الأوروبية، يدرك أن فترة طويلة يجب أن تنقضي قبل أن نستطيع توطيد مستويات المعيشة في عام ١٩٣٩ ثانية حتى.

نحن لا نعرف المدى الكامل للضرر الذي أصاب ألمانيا، لكن بالحكم من المناطق التي دحرت وتم اجتياحها حتى الآن، من الصعب الوثوق في قدرة الألمان على دفع أي نوع من التعويضات سواء كانت على شكل بضائع أم عمل. إن إعادة إسكان الشعب الألماني في بيوت وتهيئة المصانع المدمرة للعمل والحفاظ على الزراعة الألمانية من الانهيار بعد أن يتم تحرير العمال الأجانب، سوف يستهلك كل الجهد الذي يحتمل من الألمان التخلص منه.

لو – كما جرى التخطيط له – رُحل الملايين منهم من أجل عمل إعادة البناء، فسيكون شفاء ألمانيا الأبطأ. بعد الحرب الأخيرة أُدرك الناس أخيراً استحالة إحراز تعويضات مالية كبيرة، لكن الإدراك بأن إفقار أي بلاد سوف يؤثر بشكل سلبي على العالم كله، كان أقل عموماً. ليس هناك أية فائدة من تحويل ألمانيا إلى حي ريفي فقير.

الانتقام مر

كلما أقرأ كلمات مثل "محاكمات مجرمي الحرب" و"معاقبة مجرمي الحرب" وما شابه، تعود إلى ذهني ذكرى شيء رأيته في معسكر لأسرى الحرب في جنوب ألمانيا، في وقت سابق من هذه السنة.

كنت ومراسل صحفي آخر في جولة في المعسكر أخذنا فيها يهودي من فيينا تجند في فرع للجيش الأمريكي يتعامل مع استجواب الأسرى. كان نشيطاً أشقر الشعر ووسيماً في الخامسة والعشرين من عمره، ولديه معرفة سياسية أكبر بكثير من الضابط الأمريكي العادي، لذلك كانت رفقته مبهجة. كان المعسكر على أرض مطار. وبعد أن تجولنا حول الزنازين، قادنا دليلنا إلى حظيرة طائرات فيها أسرى متعددين من صنف مختلف عن الآخرين، لقد كانوا "محجوبين".

في أحد أطراف الحظيرة، كان هناك حوالي اثني عشر رجلاً استلقوا في صف على الأرض الإسمنتية، جرى عزلهم عن بقية الأسرى كما شرح لي ضباط الاس اس، وكان بينهم رجل في ثياب مدنية قذرة استلقى نائماً كما يبدو وذراعه على وجهه. له قدمان غريبتان مشوهتان بشكل مرعب. كانت الاثنتان متناسقتين ولكنهما ضربتا وحولتا إلى شكل كروي، ما جعلهما تبدوان أشبه بحوافر حصان منهما بأي شيء بشري. حين اقتربنا من المجموعة، بدأ اليهودي الصغير يتوتر، وفي حالة من الإثارة.

"ذاك هو الخنزير الحقيقي!" قال وفجأة اندفع إليه بحذائه العسكري الثقيل ووجه ركلة رهيبة مباشرة على نتوء في إحدى قدميه المشوهتين، وصرخ حين استيقظ الرجل من النوم فجأة: "انهض أيها الخنزير!" ثم كرر شيئاً من نفس النوع بالألمانية، فتسلق الرجل على قدميه ووقف منتصباً بشكل أخرق. بدا اليهودي حانقاً، وبنفس النغمة – وفي الحقيقة كان يرقص للأعلى والأسفل وهو يخبرنا بتاريخ الأسير. كان "نازياً" حقيقياً: هكذا أشار رقمه الحزبي، وعضواً منذ الأيام الأولى، وتسلم منصباً مماثلاً لجنرال في الفرع السياسي للاس اس، ومن

المؤكد أنه متهم بإشرافه على معسكرات الاعتقال، وترأس أعمال التعذيب والشنق. باختصار كان يمثل كل شيء كنا نقاتل ضده خلال السنوات الخمس الماضية.

في تلك الأثناء كنت أدرس مظهره الخارجي، وبمعزل عن الطلة الحقيرة الجائعة وغير الحليقة التي يظهر بها الأسير الجديد عموماً، كان أنموذجاً مقرفاً لكنه لم يبدُ وحشياً أو مخيفاً بأي شكل: مجرد عصابي ومفكر بطريقة وضيعة. تشوهت عيناه الباهتتان المراوغتان بنظارة قوية. كان يمكن أن يكون قساً مجرداً من سلطته أو ممثلاً دمره شرب الكحول أو وسيطاً روحانياً. لقد رأيت أناساً يشبهونه كثيراً في بيوت الإيجار العمومية في لندن وفي غرفة المطالعة في المتحف البريطاني أيضاً.

من الواضح تماماً أنه كان مضطرباً ويشك بسلامة عقله في الحقيقة، لكنه في تلك اللحظة بدا في عقله السليم بشكل يكفي لأن يرتعب من تعرضه لرفسة أخرى. رغم كل ما أخبرني به اليهودي عن تاريخ هذا الأسير الذي قد يكون صحيحاً وعلى الأرجح كان صحيحاً! فقد تضاءل هذا المعذب النازي الذي كان في خيال المرء والشكل الرهيب الذي قاتل ضده سنوات كثيرة، إلى بائس هزيل حاجته الواضحة لم تكن العقوبة بل نوعاً من العلاج النفسي.

لقد كانت هناك أعمال إذلال إضافية لاحقاً، فقد أمر ضابط آخر من الاس اس مفتول العضلات أن يتعرى للخصر ويظهر رقم زمرته الدموية الموشوم تحت ذراعه، وأجبر ضابط آخر أن يشرح لنا كيف كذب أنه لم يكن عضواً في الاس اس، وحاول أن يمرر نفسه كجندي عادي من الجيش الألماني. تساءلت إن كان اليهودي يحصل على أي نشوة حقيقية من سلطته الوليدة الجديدة التي كان يمارسها، واستنتجت أنه لم يكن يستمتع بها في الواقع، وكان مثل رجل في ماخور أو صبي يدخن سيجاره الأول أو سائح يتسكع حول صالة لوحات فنية، يقول لنفسه إنه مستمتع، ويتصرف كما خطط أن يتصرف في الأيام التي كان بائساً فيها.

من المنافي للعقل أن تلوم أي يهودي ألماني أو نمساوي على انتقامه وتحامله ضد النازيين. يعلم الله أي إساءات على هذا الرجل بالذات مسحها؛ من المحتمل جداً أن عائلته قتلت كلها وأخيراً حتى ركلة فاسقة لأسير شيء صغير جداً مقارنة بالإساءات والاعتداءات التي ارتكبها نظام هتلر. لكن هذا المشهد وغيره الكثير مما رأيته في ألمانيا، أوضح لي أن فكرة الانتقام

والعقاب حلم صبياني. في صريح العبارة ليس هناك شيء اسمه الانتقام. الانتقام هو فعل تريد ارتكابه حين تكون عاجزاً: حالما يزول الشعور بالعجز، تتبخر الرغبة في الانتقام أيضاً.

من لم يطر من الفرح في عام ١٩٤٠ بفكرة ركل وإذلال ضباط الاس اس؟ لكن حين يصبح الشيء ممكناً، يصبح مثيراً للشفقة والاشمئزاز. قيل إن جثة موسوليني عرضت للعموم وأشهرت امرأة مسنة مسدساً ورمتها بخمس طلقات وهي تهتف "هذه من أجل أبنائي الخمسة!" إنها قصة لفقتها الصحف، لكنها يمكن أن تكون صحيحة. أتساءل كم هو الارتياح والرضى الذي نالته من تلك الطلقات الخمس التي حلمت بها سنيناً قبل إطلاقها بشرط أن يكون موسوليني جثة عندما تقدر الاقتراب الكافي لتطلق النار عليه.

يتحمل الجمهور الكبير في هذه البلاد المسؤولية الكبرى التي عن تسوية السلام البشعة التي فرضت على ألمانيا، بالتساوي مع فشلنا بأن نرى مقدماً أن عقاب العدو لا يجلب أي إرضاء ولا يشبع حاجة. نحن قبلنا بجرائم مثل طرد كل الألمان من شرق بروسيا – جرائم لم نستطع منعها في بعض الحالات، لكن كان الاحتجاج عليها ممكناً على الأقل - لكن لأن الألمان أغضبونا وأرعبونا، كنا متأكدين أننا لن نشفق عليهم حين يخسرون، ونستمر في تلك السياسات أو نسمح للآخرين في الاستمرار فيها لمصلحتنا بسبب شعورنا الغامض أننا بعد أن شرعنا في معاقبة ألمانيا، يجب أن نتقدم ونفعل ذلك. في الواقع هناك كره شديد قليل لألمانيا باق في هذه البلاد وأقل مما تتوقع أن تجده في جيش احتلال حتى. فقط الأقلية من الساديين، الذين حصلوا على "وحشيتهم" من مصدر أو آخر يشعرون بمتعة عارمة في "مطاردة" مجرمي الحرب وبائعي الأوطان. لو سألت الرجل العادي ما هي الجرائم التي يجب أن ينهم بها غورينغ وريبنتروب والبقية في محاكمتهم، فلن يستطيع أن يقول لك. بطريقة أو بأخرى عقاب هؤلاء المسوخ لم يعد جذاباً حين أصبح ممكناً: في الحقيقة بمجرد أن أصبحوا تحت القفل والمفتاح، لم يظلوا مسوخاً تقريباً.

لسوء الحظ، هناك حاجة دائماً تقريباً لحدث ملموس قبل أن يستطيع المرء اكتشاف الحالة الحقيقة لمشاعره. هذه ذكرى أخرى من ألمانيا. بعد بضع ساعات من استيلاء الجيش الفرنسي على شتوتغارت، دخلنا أنا وصحفي بلجيكي البلدة التي كانت لاتزال في حالة من الفوضى.

كان البلجيكي يبث خلال فترة الحرب لمحطة البي بي سي - الخدمة الأوروبية ومثل كل الفرنسيين والبلجيك كان له موقف تجاه "البوشي" أقسى بكثير مما لدى الإنكليزي أو الأميركي. نسفت الجسور الرئيسية في البلدة واضطررنا إلى الدخول من جسر صغير للمشاة دافع عنه الألمان بمحاولات مجنونة كما هو واضح. عند أسفل الدرج هناك جندي ألماني ميت استلقى منبطحاً على ظهره. كان وجهه أصفر شمعياً، وعلى صدره وضع أحدهم باقة من الليلاك الذي كان مزهراً في كل مكان.

أشاح البلجيكي بوجهه جانباً. حين كنا فوق الجسر أسرّ لي قائلاً أن هذه المرة هي الأولى التي يرى فيها رجلاً ميتاً. أعتقد أنه في الخامسة والثلاثين من العمر، وكان له أربع سنوات يقوم بدعاية حربية على الراديو. بعد هذا بعدة أيام كان موقفه مختلفاً تماماً عما كان عليه في السابق. نظر بازدراء إلى المدينة التي دمرتها القنابل والإذلال الذي كابده الألمان، حتى أنه تدخل في إحدى المناسبات ليمنع عملاً قليلاً من النهب خصوصاً. حين غادر أعطى بقية القهوة التي جلبناها معنا للجنود الألمان الأسرى الذين كنا مسؤولين عن إيوائهم. قبل أسبوع من ذلك، كان سيصدم بفكرة إعطاء قهوة إلى "بوشي". لكن مشاعره مرت بتغيير بمنظر مقتل هذا المسكين بجانب الجسر كما أخبرني: لقد وضح له فوراً معنى الحرب. ومع ذلك، لو حدث ودخلنا البلدة من طريق آخر، لربما نجا من معاناة رؤية جثة واحدة من العشرين مليون جثة التي أنتجتها الحرب.

عدم الاهتمام بالزنوج
وأخذهم بعين الاعتبار

في السنوات العشر الماضية، نُظر إلى كل من تكهن بالاصطفاف السياسي الحاضر كمجنون، ومع ذلك يفترض بالوضع الحالي - ليس بالتفصيل طبعاً وإنما في الخطوط الأساسية - أنه كان قابلاً للتكهن في العصر الذهبي قبل هتلر، ويجب حدوث الشيء عينه حالما يتهدد الأمن البريطاني بشكل خطر.

إن سياسات الجناح اليساري في البلدان المزدهرة، وقبل كل شيء في البلدان الإمبريالية، احتيال دائماً، فليس من الممكن وجود إعادة بناء حقيقية لا تؤدي على الأقل إلى هبوط في مستوى الحياة الإنكليزية، وهي طريقة أخرى للقول إن أغلبية سياسيي اليسار ومروجيه أناس يكسبون رزقهم بالمطالبة بشيء لا يريدونه حقيقة. هم ثوار يشتعلون حماسة طالما كل شيء يجري على ما يرام، لكن أية حاجة ملحة حقيقية تكشف على الفور أنهم دجالون. إن التهديد واحد سواء كان "لقناة السويس" أو "معادة الفاشية" أو "الدفاع عن المصالح البريطانية" وأكتشف أنها متطابقة.

سيبدو الإيحاء ضحلاً وغير منصف أيضاً بأنه ليس هناك شيء فيما يسمى الآن "معاداة الفاشية" سوى قلق للأسهم المالية البريطانية، لكن الفواحش السياسية في السنتين الماضيتين ونوع التهريج البشع الذي يقفز فيه كل واحد بشكل ثابت عبر الخشبة بأنف مزيف - المزازون يصيحون من أجل جيش أكبر والشيوعيون يلوحون بالعلم البريطاني، وونستون تشرشل يتظاهر كديمقراطي - حقيقة وواقع لم يكن ممكناً بدون هذا الوعي الآثم بأننا كلنا في نفس القارب. أجبرت الطبقة الحاكمة البريطانية على الوضع العدائي لهتلر رغماً عن إرادتها. لايزال ممكناً أنهم سيجدون طريقة للخروج منه، لكنهم يتسلحون في توقع واضح للحرب، وبالتأكيد تقريباً سيقاتلون حين تصل إلى النقطة التي سيكون البديل فيها أن يتخلوا عن بعض من ملكيتهم بدلاً من، كما هو اليوم، ملكية شعب آخر. وفي الوقت الفاصل تندفع ما يسمى

بالمعارضة بقوة وسرعة قدماً بدلاً من محاولة إيقاف الانجراف إلى الحرب، وتمهد الأرض وتحبط أي انتقاد ممكن. يستطيع المرء أن يكتشف أن الشعب الإنكليزي لازال معادياً بشكل متطرف لفكرة الحرب وإن أصبح الشعب متصالحاً، فإن المسؤول عن ذلك ليس "العسكريين" وإنما "المعادين للعسكريين" في الخمس سنوات الأخيرة، فحزب العمال يواصل ذر الرماد ضد التجنيد الإلزامي وبنفس الوقت تجعل دعايته الخاصة أي صراع ضد التجنيد الإلزامي مستحيلاً، وبنادق برن الآلية تنهمر من المصانع، وكتب بعناوين مثل **دبابات في الحرب التالية والغاز في الحرب التالية**..إلخ تنهمر من الصحافة، ومحاربو نيو ستيتمان يموهون طبيعة العملية بواسطة عبارات مثل "كتلة السلام" و"جبهة السلام" و"الجبهة الديمقراطية"، وعموماً بالتظاهر بأن العالم قطيع خراف وماعز، قطع وفصل بشكل أنيق بواسطة الرواد القوميين.

في هذا الصدد، يجدر النظر إلى كتاب السيد (كليرانس ك) ستريت الذي نوقش كثيراً، **الاتحاد الآن**. السيد ستريت، مثل أنصار "كتلة السلام" يريد من الديمقراطيين أن يشكلوا عصبة ضد الديكتاتوريات، لكن كتابه بارز لسببين. أولاً هو يذهب إلى أبعد من الآخرين، ويقدم خطة بناءة حتى لو كانت مروعة. ثانياً رغم أسلوبه الأمريكي الساذج القديم من القرن التاسع عشر، فإن لديه جوهرياً طرح عقلي مقبول. اشمأز من فكرة الحرب بصدق، ولم ينحدر إلى الرياء بالتظاهر بأن أي بلاد يمكن أن تجلب إلى الفلك البريطاني تصبح بلاداً ديمقراطية فوراً. لذلك يعرض كتابه نوعاً من الاختبار ترى فيه نظرية الغنم والماعز بأوضح صورة لها، وإن لم تستطع القبول بذلك الشكل، فإنك بالتأكيد لن تقبله بالشكل الذي قدمه نادي الكتاب اليساري.

باختصار، إن ما يقترحه السيد ستريت هو أن الأمم الديمقراطية التي بدأت بخمس عشرة يسميها، يجب أن تشكل نفسها في اتحاد طوعي - ليس عصبة أو تحالفاً وإنما اتحاد مماثل للولايات المتحدة مع حكومة مشتركة ونقد مشترك وتجارة داخلية حرة كاملة. الدول الخمس عشرة الأولى هي طبعاً الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا العظمى والديمقراطيات الأوروبية الأصغر من دون أن يشمل تشيكوسلوفاكيا التي لازالت قائمة حين كتب الكتاب.

في وقت لاحق الدول الأخرى يمكن قبولها بالاتحاد إذا "أثبتت أنها جديرة". منذ البداية وحتى النهاية يفهم ضمناً أن دول السلام والرخاء الموجودة داخل الاتحاد، ستكون محسودة جداً، لذلك فإن أية دولة أخرى سوف تتوق للانضمام إليها.

والجدير بالملاحظة أن هذا المخطط ليس وهمياً جداً كما يبدو. طبعاً هو لن يحدث، فأي شيء يؤيده رجال الأدب حسنو النية لا يحدث. هناك مصاعب معينة لم يناقشها السيد ستريت، لكنها من نوع الأشياء التي يمكن أن تحدث. إن جغرافية الولايات المتحدة والديمقراطيات الأوروبية الغربية أقرب لتكون اتحاداً مثلاً من الإمبراطورية البريطانية، فأغلب تجارتها مع بعضها البعض، ولديها ضمن أراضيها كل ما تحتاجه، والسيد ستريت محق ربما في زعمه أن قوتها الموحدة ستكون عظيمة جداً لدرجة تجعل من أي هجوم عليها متعذر حتى لو انضمت جمهوريات الاتحاد السوفيتي إلى ألمانيا. لماذا إذاً يرى المرء من نظرة أن مخططه فيه شيء خطأ؟ ما الذي تفوح الرائحة فيه - لأنها تفوح طبعاً؟

ما تفوح رائحته هو الرياء والرضا الذاتي طبعاً. السيد ستريت نفسه ليس مرائيا، لكن رؤيته محدودة. انظر ثانية إلى قائمة أغنامه وماعزه. لا حاجة لإجفال الماعز(ألمانيا وإيطاليا واليابان) إنها ماعز بما يكفي وبطون بيلليز في ذلك. لكن انظر إلى الأغنام! ربما الولايات المتحدة ستنجح في الامتحان إن لم ينظر المرء إليها عن قرب شديد. لكن ماذا عن فرنسا؟ ماذا عن إنكلترا؟ ماذا حتى عن بلجيكا وهولندا؟ مثل كل واحد من مدرسته الفكرية كوم السيد ستريت ببرود الإمبراطوريتين الضخمتين البريطانية والفرنسية - في الجوهر لا شيء سوى آليات لاستغلال العمل الملون الرخيص - تحت رئاسة الديمقراطيات!

هناك إشارات هنا وهناك في الكتاب، ولكن ليس غالباً إلى "البلدان التابعة" للدول الديمقراطية. "البلدان التابعة" تعني الأعراق التابعة. علل أنها ستظل بلدانا تابعة وستكون مواردها صندوقاً مشتركاً لدول الاتحاد، ولن يكون لسكانها الملونين حق الاقتراع في شؤون الاتحاد. وباستثناء ما تورده جداول الإحصاء، لن يخمن المرء أبداً للحظة كم عدد الكائنات البشرية المتورطة في ذلك. فالهند مثلاً التي تحتوي على سكان أكثر من سكان كل "الديمقراطيات الخمس عشرة" معا، وقدّ نالت صفحة ونصف في كتاب السيد ستريت،

وذلك لمجرد تعليل أن الهند ليست لائقة بعد لحكم نفسها بنفسها. ولهذا يستمر الوضع الحالي. وهنا يبدأ المرء يرى ما سيحدث فعلياً إن طبق مخطط السيد ستريت. ستتلقى الإمبراطوريتان البريطانية والفرنسية قوات أمن جديدة من الستمائة مليون من الكائنات البشرية المحرومين من حق الاقتراع، وستكون القوة الضخمة للولايات المتحدة وراء سرقة الهند وأفريقيا. يخرج السيد ستريت القطط من الحقائب، لكن كل العبارات من أمثال "كتلة السلام" و"جبهة السلام"..إلخ تحتوي بعضاً من هذا التضمين، كلها تدل ضمناً على تضييق البنية الموجودة. إن العبارة التي لم تقال هي دائماً "عدم أخذ الزنوج بالاعتبار" إذ كيف سنشكل "موقفاً ثابتاً" ضد هتلر إن كنا نضعف أنفسنا في الوطن في وقت واحد؟ بعبارة أخرى كيف سنحارب الفاشية إلا بمساندة وتقوية عدالة أوسع بكثير؟

لأنها طبعاً أوسع، ونحن ننسى دائماً أن الحجم الضخم الساحق للبروليتاريا البريطانية لا يعيش في بريطانيا وإنما في آسيا وأفريقيا. ليست قوة هتلر مثلاً من تجعل بنساً في الساعة أجراً صناعياً عادياً، فهذا عادي تماماً في الهند، ونحن نبذل جهوداً عظيمة لنبقيه هكذا. يحصل المرء على بعض فكرة عن العلاقة الحقيقية بين إنكلترا والهند حين يجد أن الدخل السنوي للشخص الواحد في إنكلترا فوق ثمانين جنيهاً، وفي الهند سبع جنيهات تقريباً. من الشائع تماماً أن تكون ساق العامل الهندي أرفع من ذراع الرجل الإنكليزي. وليس هناك شيء عرقي في هذا وإنما بسبب التجويع الصرف، لأن كل الأفراد البدناء من كل الأعراق هم من بنية جسدية عادية. هذا هو النظام الذي نعيشه والذي يجب أن نشجبه حين يبدو عدم وجود خطر في تغييره. مؤخراً طبعاً أصبح واجب "معادي الفاشية الجيد" الأول أن يكذب بخصوصها ويساعد في الحفاظ على بقائها.

أي استقرار حقيقي من أوهى قيمة، يمكن أن يكون على طول هذه الخطوط؟ ما المعنى الذي سيكون هناك حتى لو نجح في إسقاط نظام هتلر وترسيخ شيء أكبر بكثير وبنفس السوء بطريقة مختلفة؟

لكن ظاهرياً لانعدام أي موقف حقيقي هذا سيكون هدفنا. لن توضع أفكار السيد ستريت الإبداعية قيد التنفيذ، ولكن شيئاً كمقترحات "كتلة السلام" ربما يفعل ذلك. لاتزال

الحكومتان البريطانية والروسية تتماحكان وتؤجلان وتتلفظان بتهديدات مكتومة لتبديل الأطراف التي تنحاز إليها، لكن الظروف سوف تجبرهما معاً. وماذا عند ذلك الحين؟ لا شك أن التحالف سيعيق الحرب لسنة أو اثنتين، وبعدها ستبحث حركة هتلر عن بقعة ضعيفة أو لحظة غير محمية، وعندها ستكون حركتنا تسليح أكثر وعسكرة أكثر ودعاية أكثر - عقلية ميالة للحرب أكثر - وهلم جرا، وبسرعة متزايدة.

ليس مؤكداً أن الاستعداد المطول للحرب أفضل أخلاقياً من الحرب نفسها، وهناك أسباب مساوية للاعتقاد أنه ربما يكون أسوأ، وربما ننحدر بعد سنتين أو ثلاثة فقط دون مقاومة إلى نوع محلي من نمسا - فاشية وربما يظهر بعد سنة أو اثنتين شيء كرد فعل ضد هذا لم نسمع به أبداً في إنكلترا - حكة فاشية حقيقية تجمع في صفوفها نفس الأشخاص الذين ينبغي بهم أن يعارضوها، وذلك لأنها ستملك الشجاعة لتتكلم بوضوح.

تصعب الرؤية أبعد من ذلك. إن الانزلاق المنحدر يحدث، لأن كل القادة الاشتراكيين تقريباً معارضون لجلالته حين تصل الأمور إلى القرصنة، ولا أحد يعرف كيف سيعبئ حشمة الشعب الإنكليزي التي يلقاها المرء في كل مكان حين يتكلم مع كائنات بشرية وليس من قراءة الصحف. لن ينقذنا على الأرجح سوى انبثاق حزب جماهيري حقيقي خلال السنتين القادمتين تكون تعهداته الأولى رفض الحرب وتصحيح الظلم الإمبريالي، لكن إن وجد هكذا حزب في الوقت الحاضر، فهو مجرد إمكانية وبضع بذور صغيرة جداً ملقاة هنا وهناك في تربة عطشى.

نشرت للمرة الأولى ادلفي تموز ١٩٣٩.

هكذا كانت المباهج

بعد أن وصلت إلى كروسيت بفترة قصيرة (ليس على الفور وإنما بعد أسبوع أو اثنين، حين بدا لي أنني تعودت على روتين الحياة المدرسية) بدأت أبلل سريري. أنا الآن في عمر الثامنة، لذلك كان هذا ارتداداً إلى عادة يفترض أنني بتّ كبيراً عليها قبل أربع سنوات على الأقل.

في الوقت الحاضر، أعتقد أن تبليل الفراش في هكذا ظروف، يعتبر أمراً مسلماً به. إنه رد فعل طبيعي للأطفال الذين ينقلون من بيوتهم إلى مكان غريب. لكن في تلك الأيام، نظر إلى الأمر كجريمة مثيرة للاشمئزاز ارتكبها الطفل متعمداً، والعلاج المناسب لها كان الضرب. بالنسبة إلي أنا لم أحتج ليخبرني أحد بأنها جريمة. صليت الليلة تلو الأخرى بحماس لم أحرزه في صلواتي قط (أرجوك يا ربي لا تدعني أبلل فراشي! لكن هذا لم يحدث فرقاً كبيراً، فقد كان الشيء يحدث في بعض الليالي ولا يحدث في بعضها الآخر، فالأمر لم يكن خياراً أو واعياً، يمكن القول بدقة بأن المرء لا يفعل العمل: يستيقظ في الصباح ليجد ملاءات السرير مشبعة بالبلل.

بعد الجريمة الثانية أو الثالثة أنذرت بالضرب في المرة التالية، لكنني تلقيت الإنذار بطريقة ملتوية غريبة. في بعد ظهر أحد الأيام، حين كنا ننصرف من طابور الشاي، كانت السيدة سيمبسون زوجة مدير المدرسة تجلس على رأس إحدى الطاولات، تثرثر مع سيدة لا أعرف عنها شيئاً، سوى أنها كانت في زيارة مسائية إلى المدرسة، وكانت شخصاً مرعباً وذات مظهر ذكوري، ترتدي بذلة ركوب خيل أو شيء بدا لي بذلة ركوب خيل. وبينما كنت أغادر الغرفة، نادتني السيدة سيمبسون، وطلبت من أن أعود كما لو أنها ستقدمني للضيفة.

كانت السيدة سيمبسون تلقب ببينغو، وسوف أكنيها بهذا الاسم، لأنني لا أتذكر لها اسماً آخر. (لكن كانت تخاطب رسمياً بـ"مام" التي ربما كانت نسخة لـ"مدام" يستخدمها صبيان المدرسة مع زوجات أرباب بيوت الطلاب). كانت امرأة ذات بنية قوية قصيرة وممتلئة مع خدين أحمرين صلبين وجبهة مستوية عالية، ولها حاجبان ناتئان

وعينان مريبتان توضعتا عميقاً. لكنها كانت تتملق بود زائف في قسم كبير من وقتها، فتلاطف المرء بلغة عامية مسترجلة (عجل، أيها الرجل المتمرس! وهلم جرا) وتستخدم الاسم المسيحي للمرء حتى، وكانت عيناها لا تفقدان نظرتها الاتهامية الملتهبة أبداً، وكان النظر في وجهها دون شعور بالذنب صعباً حتى في اللحظات التي لا يكون فيها المرء مذنباً بأي شيء بعينه.

"هذا هو الولد الصغير،" قالت بينغو، وأشارت إلي وهي تخاطب السيدة الغريبة "الذي يبلل فراشه كل ليلة. هل تعرف ماذا سأفعل بك إن بللت فراشك مرة أخرى؟" أضافت، وهي تلتفت إلي. "سأجعل طلبة الصف السادس يضربونك".

تظاهرت السيدة الغريبة بصدمة لا توصف وهتفت "أعتقد أن الأمر هكذا!". وهنا حدثت واحدة من حالات سوء الفهم الطائشة المجنونة التي كانت جزءاً من التجربة اليومية للطفولة. كان الصف السادس مجموعة من صبيان أكبر منا عمراً، ويتفقون على أن لهم "شخصية" ويمكنوهم من ضرب الصبيان الأصغر. لم أكن أعلم بوجودهم، وسمعت الكلمة على أنها السيدة فورم بدلاً من الصف السادس. فهمتها كإشارة للسيدة الغريبة - ظننت أن اسمها كان السيدة فورم. كان اسماً بعيد الاحتمال، لكن ليس لدى الطفل محاكمة عقلية في مثل هذه المسائل، لذلك تخيلت أنها هي التي ستُعيّن لضربي. ولم أستغرب أن تُحول هذه الوظيفة إلى ضيفة عرضية لا علاقة لها بالمدرسة إطلاقاً، وافترضت أن السيدة فورم انضباطية قاسية تستمتع بضرب الناس (مظهرها يوحي بذلك بشكل ما) وانتابتني رؤية مفزعة فورية بأنها أتت في عدة ركوب كاملة ومسلحة بسوط صيد من أجل المناسبة. وأستطيع أن أحس إلى هذا اليوم بنفسي وأنا أكاد أن أفقد الوعي من الخزي، حين وقفت كصبي صغير جداً مدور الوجه في سروال قطني قصير أمام المرأتين الاثنتين. لم أستطع التكلم، وشعرت أنني سأموت لو ضربتني السيدة فورم، لكن الشعور المسيطر لم يكن الخوف أو الامتعاض حتى، كان الخزي، لأن شخصاً آخر، وهي امرأة، تم إخباره بجريمتي المقززة.

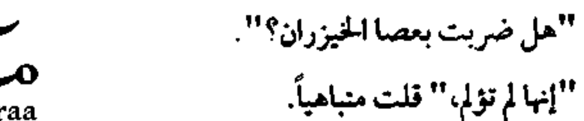
بعد وقت قصير، نسيت كيف عرفت أخيراً أن من سيضربني ليست السيدة فورم، ولا أتذكر إن كنت في تلك الليلة بالذات قد بللت فراشي مرة أخرى، لكن في أي حال بللته مرة

أخرى بعد وقت قريب جداً. أوه اليأس والشعور بالظلم القاسي. فبعد كل صلواتي وتصميمي أجد نفسي فوراً مستيقظاً بين الملاءات الرطبة مرة أخرى! ليس هناك أية فرصة لإخفاء ما اقترفته. القيّمة الشرسة التي تشبه التمثال دافني وصلت إلى المهجع خصيصاً لتفتش سريري. شدت الأغطية إلى الخلف، ثم ابتعدت، وبدت الكلمات المرعبة تتدحرج منها مثل جلجلة الرعد:

"قدم شكوى على نفسك لمدير المدرسة بعد الإفطار!".

لا أعرف كم مرة سمعت تلك العبارة أثناء سنواتي الأولى في كروسغيت، وكانت مرات نادرة جداً لم تكن تعني لي الضرب والعقاب. كان للكلمات صوت منذر في مسمعي دائماً مثل طبول كتومة أو لكلمات النطق بعقوبة الإعدام.

حين وصلت لأبلغ عن نفسي، كانت بينغو تفعل شيئاً ما عند الطاولة الطويلة اللماعة في غرفة الانتظار التي قبل المكتب. تفحصتني بعينيها المربكتين حين مررت بها، وكان السيد سيميسون الملقب بسيم ينتظر في المكتب. كان سيم رجلاً انحنت كتفاه إلى الأمام، ويبدو أحمق بشكل غريب، مشيته بطيئة، ووجهه لحيم مثل وجه طفل نما بشكل مفرط، قادر على الدعابة الجيدة. كان يعرف طبعاً لماذا أرسلت إليه، فأخرج مسبقاً سوط ركوب له قبضة عظمية من الخزانة، لكن التبليغ عن نفسك بأن تعلن عن جريمتك بشفتيك كان جزءاً من العقاب. حين قلت قولي، تلا علي محاضرة قصيرة لكنها طنانة، ثم أمسك بي من مؤخرة عنقي وفتلني إلى أعلى، وبدأ بضربي بسوط الركوب. كانت لديه عادة إكمال محاضرته وهو يجلدك، وأتذكر الكلمات "أيها الصبي القذر" التي كانت تتناغم مع الضربات. لم يكن الضرب موجعاً (ربما لأنها كانت المرة الأولى فلم يضربني بقسوة شديدة) وخرجت ماشياً، وكنت أشعر أنني بحال أفضل بكثير. الحقيقة أن العقاب لم يكن موجعاً، وكان نوعاً من النصر، وأزال جزئياً خجلي من تبليل الفراش. كنت غافلاً حتى عن التظاهر بالتكشير، فبعض الصبيان الصغار كانوا يتلكؤون في الممر خارج باب بهو الانتظار.


"هل ضربت بعصا الخيزران؟".

"إنها لم تؤلم،" قلت متباهياً.



سمعت بينغو كل شيء، وعلى الفور أتى صوتها صارخاً خلفي:

"تعال إلى هنا! تعال فوراً! ما ذاك الذي قلته؟".

"قلت إنه لم يؤلم" قلت متلعثماً.

"كيف تجرؤ على قول شيء كهذا؟ هل تظن أن قول ذلك شيء مناسب؟ ادخل وبلغ عن نفسك مرة أخرى!".

هذه المرة ضربني بجدية حقيقية، واستمر مدة من الوقت، لدرجة أرعبني وأدهشني حوالي خمس دقائق، انتهت بكسر السوط. لقد طارت القبضة العظمية في الغرفة.

"انظر إلى ما جعلتني أفعل!" قال يحنق وهو يحمل السوط المكسور.

سقطت في كرسي أنشقُّ بوهن. أتذكر أن هذه هي المرة الوحيدة في كل طفولتي التي أضعفني فيها الضرب وأنزل دموعي، والغريب جداً أنني لم أكن أبكي من الألم، فالعقاب الثاني لم يكن موجعاً أكثر من سابقة بكثير إذ يبدو أن الخوف والخزي خدراني. كنت أبكي جزئياً لأنني شعرت أن هذا كان متوقعاً مني وجزئياً من التوبة الصادقة، ولكن جزئياً أيضاً بسبب حزن خاص بالطفولة ليس من السهل نقله والتعبير عنه: إحساس بالوحدة المقفرة والعجز الناتج عن حبسي ليس في عالم عدائي فقط، وإنما في عالم من الأخيار والأشرار، كان الالتزام بقوانينه بالنسبة إلي غير ممكن فعلياً.

عرفت أن تبليل السرير كان (أ) شريراً و(ب) خارج سيطرتي. فقد كنت مدركاً للحقيقة الثانية ولم أشك بالحقيقة الأولى، لذلك كان من الممكن أن ترتكب إثماً دون أن تعرف أنك ارتكبته أو الرغبة بأن ترتكبه أو أن تكون قادراً على تجنبه. الإثم ليس بالضرورة شيئاً أنت فعلته: قد يكون شيئاً حدث لك. لا أريد أن أدعي بأن هذه الفكرة ومضت في ذهني كبدعة كاملة في هذا اللحظة تحت ضربات خيزرانة سيم. يفترض أن لدي لمحات منها قبل أن أغادر البيت حتى، لأن طفولتي لم تكن سعيدة بالمجمل. لكن في كافة الأحوال هذا كان درساً عظيماً ثابتاً من طفولتي: أنا كنت في عالم، من المستحيل له أن يكون جيداً لي، وكان الضرب المضاعف نقطة تحول، لأنه أوضح لي لأول مرة قساوة البيئة التي رميت فيها، فقد كانت الحياة بغيضة أكثر، وكنت شريراً أكثر مما تخيلت. في كل الأحوال حين جلست على حافة الكرسي في

مكتب سيم ولم أكن أمتلك الثقة للوقوف. عندما انقض عليّ، تملكتني قناعة بالإثم والضعف، لا أتذكر أنني شعرت بها من قبل.

على العموم، فإن ذكريات المرء عن أية فترة يجب بالضرورة أن تضعف حالما يبتعد عنها. يتعلم المرء حقائق جديدة بشكل مستمر، ويجب على القديمة أن تسقط لتخلي المجال للجديدة. في العشرين من عمري كنت قادراً على أن أكتب تاريخ أيام الدراسة بدقة باتت مستحيلة الآن. لكن يمكن أيضاً أن يحدث أن ذكريات المرء تصبح أكثر حدة بعد انقضاء مدة طويلة من الزمن، لأن المرء ينظر إلى الماضي بعينين جديدتين، ويستطيع العزل ويلاحظ حقائق موجودة مسبقاً غير متمايزة وسط ذكريات كثيرة أخرى. شيئان أتذكرهما بمعنى ما، لكنهما لم يستأثرا بانتباهي كشيئين غريبين أو مثيرين إلا مؤخراً. الذكرى الأولى: أن العقوبة الثانية بدت لي عادلة ومنطقية. أن تنال عقوبة أولى ثم تنال واحدة أخرى أشد وأقسى فوقها لكونك أحمق، وتظهر أن العقوبة الأولى لم تؤلم - ذلك كان طبيعياً تماماً. الآلهة غيورة، وحين يكون لديك حظ طيب، عليك أن تتكتم عليه. الذكرى الأخرى هي أنني قبلت سوط الركوب المكسور كجريمتي الخاصة بي. لا أزال أذكر مشاعري حين رأيت القبضة ملقاة على السجادة - الشعور بارتكاب شيء غير مهذب وأخرق. هذا القبول بالذنب كمن في ذاكرتي غير ملحوظ لمدة عشرين أو ثلاثين سنة.

أكثرت حول حادثة تبليل الفراش، لكن هناك شيئاً آخر بعد يجب أن يعلق عليه، وهو أنني لم أبلل فراشي ثانية مرة أخرى - فعلتها مرة أخرى على الأقل، ونلت عقوبة أخرى ثم توقفت المشكلة. لهذا ربما نجح هذا العلاج البربري، لكن بثمن باهظ من دون شك.

لقد كان كل هذا منذ عشرين سنة أو أكثر. السؤال هو: هل يمر طفل المدرسة بهذه التجربة في وقتنا الحالي؟

الجواب الصادق الوحيد باعتقادي هو أننا لا نعرف بيقين. طبعاً من الواضح أن موقف الزمن الحالي نحو التعليم أكثر إنسانية ومنطقية بشكل هائل مما كان في الماضي، فالغطرسة التي كانت جزءاً مكملاً في تعليمي، ستكون شيئاً غير وراد اليوم، لأن المجتمع الذي كان يغذيها مات. أتذكر محادثة وقعت منذ سنة كما يجب قبل أن أترك كروسغيت، أن ولداً روسياً، ضخماً وأشقر الشعر وأكبر مني بسنة، سألني:

"كم يكسب والدك من المال في السنة؟".

أخبرته ما ظننته، وأضفت مئات قليلة ليبدو أكبر، فاخرج الصبي الروسي الأنيق في عاداته قلم رصاص ودفتراً صغيراً وأجرى حساباً.

"والدي يملك من المال مائتي ضعف مما تملكون" أعلن بنوع من الاحتقار الساخر.

كان ذلك في عام ١٩١٥. أتساءل ماذا حدث لذلك المال بعد سنتين؟ ولا أزال أتساءل أيضاً هل تحصل مثل هذه المحادثات في المدارس التمهيدية الآن؟

من الواضح أن هناك تغيراً واسعاً في وجهات النظر ونمواً عاماً وتطوراً لفكرة "للتنوير" حتى وسط أفراد الطبقة الوسطى العاديين، فقد تلاشى الإيمان الديني بشكل واسع مثل،اً وسحب خلفه أنواعاً كثيرة من الهراء. وأتخيل أن قلة قليلة جداً من الناس تقول لطفل إن مارستَ العادة السرية سينتهي بك المطاف في ملجأ للمجانين. كما أن عقوبة الضرب أيضاً فقدت مصداقيتها وحرمت أيضاً في مدارس كثيرة، وكذلك لم يعد ينظر إلى التغذية الناقصة للأطفال على أنها عمل عادي ويستحق الثناء، وليس هناك أحد الآن يعطي تلاميذه طعاماً أقل مما هو ضروري لهم، أو يعلمهم أن النهوض من وجبة جائعاً مثلما عندما جلست لتناوله أمر صحي. إن الوضع الإجمالي للأطفال تحسن جزئياً، لأنهم باتوا أقل عدداً، ولانتشار المعرفة النفسية رغم قلتها، جعل من الصعب على الآباء والأمهات والمعلمين الانغماس في ضلالهم تحت اسم الانضباط. ها هي حالة غير معروفة لي شخصياً، لكنها معروفة لشخص أضمن صدقه، وحدثت خلال الزمن الذي عشته أنا. فتاة صغيرة ابنة رجل دين استمرت في تبليل فراشها حتى عمر يفترض أنها كبرت فيه على ذلك. لكي تُعاقب عن هذا الفعل البغيض جداً أخذها والدها إلى حفلة كبيرة في حديقة، وهناك قدمها لكل الجماعة كفتاة صغيرة تبلل فراشها: ليؤكد شرها صبغ وجهها باللون الأسود مسبقاً. لا أقول إن بينغو وسيم قد فعلا شيئاً كهذا، لكن أشك إن كان ذلك قد أدهشهم كثيراً. أخيراً إن الأشياء تتبدل، ومع ذلك تظل!

السؤال ليس أن الصبيان مازالوا يتزينون بياقات ايتون في أيام الآحاد أم ل،ا أو القول إن الأطفال الرضع يستخرجون من تحت أشجار عنب الثعلب. هذا النوع من الشيء

انتهى باعتراف الجميع. السؤال الحقيقي هو إن لازال من العادي لطالب المدرسة أن يعيش لسنوات وسط أهوال غير منطقية وحالات من سوء الفهم المجنون. وهنا يكون المرء في مواجهة الصعوبة الكبيرة لمعرفة ما يشعر به الطفل ويفكر فيه. إن الطفل الذي يبدو سعيداً بشكل معقول ربما يعاني فعلياً من رعب لم يكشف عنه أو لم يستطيع فعل ذلك. إنه يعيش في عالم غريب تحت الماء لا يمكننا اختراقه إلا بالتذكر أو العرافة. أحد المفاتيح الأساسية هو أننا كنا أطفالاً سابقاً، ولكن يبدو الكثيرون من الناس أنهم نسوا جو طفولتهم الخاصة بهم تماماً تقريباً. فكر مثلاً في العذابات غير الضرورية التي يسببها الناس بإعادة طفل إلى المدرسة في ثياب من النموذج الخاطئ، ورفضهم أن يروا هذا أمراً هاماً! يفصح الطفل عن احتجاجه ضد أشياء كهذه أحياناً، لكن في أوقات كثيرة يكون موقفه موقف إخفاء فقط. ألا تكشف عن مشاعرك الحقيقية لشخص بالغ، يبدو أمراً غريزياً في عمر السابعة أو الثامنة فصاعداً. حتى عاطفة الحب التي يشعر بها المرء تجاه طفل والرغبة في حمايته أو تدليله، هي سبب لسوء الفهم. يستطيع المرء أن يحب الطفل أكثر مما يحب شخصاً بالغاً، لكن من الطيش الافتراض أن يبادله الطفل نفس الشعور مقابل ذلك. بتذكر طفولتي الخاصة بي بعد أن انتهت سنوات الرضاعة، لا أعتقد أنني شعرت بحب لأي شخص ناضج باستثناء أمي، وحتى هي لم أكن واثقاً من ذلك - أعني أن الخجل جعلني أكتم أغلب مشاعري الحقيقية عنها. الحب، عاطفة الحب العفوي المفرط، كانت شيئاً لم أشعر به إلا نحو الناس الصغار في السن، أما الناس الكبار في السن - وأتذكر أن "كبار" بالنسبة إلى الطفل تعني فوق الثلاثين أو حتى الخامسة والعشرين - الذين يشعر المرء نحوهم بالتوقير أو الاحترام أو الإعجاب أو الندم، فقد كنت مفصولاً عنهم بستار من الخوف والخجل المزوج بنفور مادي. يميل الناس جداً إلى نسيان انكماش الطفل البدني ونفوره من الشخص البالغ. إن حجم الأشخاص البالغين الضخم وأجسادهم القاسية الغليظة وجلودهم الخشنة المجعدة وجفونهم الرخوة الكبيرة وأسنانهم المصفرة وروائح ثيابهم العفنة والبيرة والتعرق والتبغ التي تنطلق منهم فوراً! جزء من قبح البالغين بعيني الطفل. إن الطفل ينظر إلى الأعلى عادة، والوجوه التي تبدو جميلة حين يُنظر إليها من الأسفل قليلة جداً، بالإضافة إلى ذلك، لدى الطفل لكون نظره

سلبياً معايير عالية متعذرة في مسألة الجلد والأسنان وملامح الوجه، لكن العقبة الأكبر هي فكرة الطفل الخاطئة عن العمر. لا يستطيع الطفل تصور حياة بعد الثلاثين، وفي حكمه على أعمار الناس يرتكب أخطاء غريبة، فهو يرى الشخص الذي في الخامسة والعشرين في الأربعين من عمره، ويرى الشخص الذي في الأربعين في الخامسة والستين وهكذا. لهذا حين وقعت في حب ايلسي اعتبرتها ناضجة وبالغة، وحين قابلتها ثانية وكنت في الثالثة عشرة من عمري وهي في الثالثة والعشرين كما أعتقد، بدت لي امرأة في منتصف عمرها تجاوزت ريعان شبابها تقريباً. كما أن الطفل يعتبر الكبر في السن كارثة فاحشة لن تحدث له أبداً لسبب ما. كل الذين تجاوزوا الثلاثين أشخاص غريبون كئيبون يثيرون هياجاً حول أشياء لا أهمية لها، ويبقون أحياء دون أن يكون لديهم أي شيء يعيشون من أجله بنظر الطفل. فقط حياة الطفل هي الحياة الحقيقية. إن المعلم يتخيل نفسه محبوباً وموضع ثقة من قبل صبيانه، لكنهم في الحقيقة يلمزونه بالألقاب ويسخرون منه من وراء ظهره. إن البالغ الذي لا يبدو خطيراً، يبدو سخيفاً دائماً بالنسبة إليهم.

أبني هذا التعميم على ما أستطيع تذكره من وجهة نظر طفولتي. رغم غدر الذاكرة، فإنها تبدو لي الوسيلة الرئيسية التي نملكها في اكتشاف كيفية عمل عقل الطفل. فقط بإعادة بناء ذكرياتنا الخاصة بنا، نستطيع أن نعرف كم رؤية الطفل للعالم مشوهة وبشكل لا يصدق. تأمل هذا مثلاً. كيف ستبدو لي كروسغيت الآن إن استطعت الرجوع بعمري الحالي ورأيتها كما كانت عليه في عام ١٩١٥؟ ماذا يجب أن يكون رأيي ببينغو وسيم، هذان المسخان القويان البغيضان؟ يجب أن أراهما زوجين من الناس ضحلين سخيفين وتافهين تواقين إلى تسلق السلم الاجتماعي الذي يراه أي شخص عاقل بأنه على وشك الانهيار. لن أخاف منهما أكثر من خوفي من زغبة (حيوان شبيه بالسنجاب). إضافة إلى ذلك، لقد رأيتهما في تلك الأيام عجوزين جداً لكني أتخيل - رغم أنني لست متأكداً - أنهما أصغر عمراً مني الآن، وكيف سيظهر جوني هال بيديه الشبيهتين بيدي حداد ووجهه الأحمر الساخر؟ مجرد صبي صغير وضيع يمكن تمييزه بالكاد من المئات من غيره من الصبيان الصغار الوضيعين. توجد مجموعتا الحقائق الاثنتان في ذهني جنباً إلى جنب لأنهما صدف وحدث أن كانتا ذكرياتي. لكن من الصعب جداً علي أن أرى بعيني طفل آخر إلا

بجهد من المخيلة التي ربما تضللني تماماً. إن الطفل والراشد يعيشان في عوالم مختلفة، وإن كان الأمر هكذا، فلا نستطيع التأكد من أن المدرسة، المدرسة الداخلية في أي حال، لم تعد للكثيرين من الأطفال تلك التجربة المفزعة التي عاشوها. احذف الرب واللاتينية والخيزرانة والفروق الطبقية والمحرمات الجنسية والخوف والكره والتكبر ويظل سوء الفهم كله هناك، وسوف ترى أن مشكلتي الرئيسية كانت انعداماً واضحاً وتاماً لأي إحساس بالتناسب والأرجحية، وهذا قادني إلى قبول إساءات وتصديق سخافات وعذابات على أشياء ليست ذات أهمية في الحقيقة. لا يكفي القول إنني كنت "سخيفاً" و"ينبغي أن أعرف أكثر". عد إلى طفولتك وفكر بالهراء الذي كنت تصدقه والتفاهات التي جعلتك تعاني. طبعاً حالتي لها اختلافاتها الفردية، لكنها كانت تجربة أولاد آخرين لا يحصون. ضعف الطفل هو أنه يبدأ كصفحة بيضاء خالية، فهو لا يفهم ولا يرتاب في المجتمع الذي يعيش فيه، وبسبب سذاجته التي يعمل عليها الناس الآخرون، يلوثونه بشعوره بالدونية والفزع من انتهاك قوانين غامضة بغيضة. إن كل ما حدث لي في كروسغيت ربما حدث في أكثر المدارس "تنويراً" لكن بأشكال ألطف، لكنني متأكد جداً من شيء واحد: أن المدارس الداخلية أسوأ من المدارس النهارية. إن فرصة الطفل أفضل حين يكون بيته ملجأ بمتناول يده، وأعتقد أن أغلاط الطبقتين العليا والوسطى المميزة، سببها جزئياً العادة العامة التي تمارس حتى مؤخراً بشكل عام، في إرسال الأطفال بعيداً عن بيوتهم وهم بعمر التاسعة أو الثامنة أو السابعة حتى.

أنا لم أعد إلى كروسغيت أبداً، ولم أفكر بشكل حقيقي في أيامي المدرسية إلا في العقد الأخير، رغم أن ذكرياتها كانت تراودني بشكل قوي. وأعتقد أنني لو زرت المكان مرة أخرى في الوقت الحاضر، فسيكون أثره ضئيلاً علي إن ظل موجوداً. وإذا دخلت وشممت رائحة الغبار والحبر في حجرة الدرس الكبيرة والرائحة الراتنجية لمكان العبادة والرائحة الراكدة لحمام السباحة والرائحة الباردة الكريهة للمراحيض، أعتقد أنني لن أشعر إلا بما يشعره المرء بشكل ثابت في زيارته لأي مشهد من طفولته: يا للصغر الذي كبر فيه كل شيء ويا لفظاعة التلف في نفسي!

مراكش

حين مرت الجثة، غادر الذباب طاولة المطعم في غيمة، واندفع وراءها، لكنه عاد بعد دقائق قليلة.

سلك حشد قليل من النادبين - كلهم رجال وصبيان ولا نساء - طريقهم عبر السوق بين أكوام من الرمان وسيارات الأجرة والجمال، يتنحبون بترتيلة قصيرة يكررونها مرة تلو أخرى. ما كان يجذب الذباب في الحقيقة هو أن الجثة هنا لا توضع في تابوت أبداً، وإنما تلف في خرق وتحمل على نعش خشبي قاسٍ على أكتاف أربعة من الأصدقاء. حين يصل الأصدقاء إلى أرض الدفن يحفرون بالفأس حفرة مستطيلة بعمق قدم أو اثنين، ويسقطون الجسد فيها، ويرمون فوقه قليلاً من التراب المتكتل الجاف الذي يشبه القرميد المكسر، ويتركونه بدون شاهدة أو اسم أو علامة تعريف من أي نوع. فأرض الدفن مجرد قفر هائل من الأرض المرتفعة، مثل مبنى مهجور. وبعد شهر أو اثنين، لا يستطيع المرء التأكد من المكان الذي دفن قريبه فيه.

حين تمشي عبر بلدة كهذه - تعداد سكانها مائتي ألف، عشرون ألفاً منهم لا يملكون حرفياً شيئاً سوى الثياب الممزقة التي يقفون فيها - حين ترى الناس كيف يعيشون والأكثر كيف يموتون بسهولة، لا تصدق نفسك بأنك تمشي وسط كائنات بشرية إلا بصعوبة. كل الإمبراطوريات الاستعمارية في الواقع بُنيت على تلك الحقيقة. الناس لهم وجوه سمراء - وهناك الكثير جداً منهم! هل هم حقيقة مثلك من نفس اللحم والدم؟ هل يملكون أسماء حتى؟ أم هل هم مجرد نوع من المادة السمراء غير المميزة وأفراد مثل النحل والحشرات المرجانية تقريباً؟ ينبعثون من الأرض، يتعبون ويجوعون لعدد قليل من السنين، ثم يغورون في أكوام مجهولة في المقبرة دون أن يلاحظ أنهم ماتوا ورحلوا. حتى القبور نفسها تذوي داخل التربة بعدة فترة قصيرة. أحياناً تخرج لتتمشى وتلاحظ وأنت تشق طريقك عبر الكمثرى الشائك مطبات تحت قدميك، وتعرف من خلال تناسق المطبات أنك كنت تمشي فوق هياكل عظمية.

كنت أطعم غزالاً في حديقة عامة.

الغزلان هي الحيوانات الوحيدة تقريباً التي تبدو جيدة للأكل وهي لا تزال حية، ومن الصعب النظر إلى أجزائها الخلفية من دون التفكير في صلصة النعناع في الواقع. يبدو أن الغزال الذي أطعمته كان يعرف أن هذه الفكرة كانت في ذهني، ومن الواضح أنه لم يكن يحبني، رغم أنه كان يأخذ قطعة الخبز التي أمدها إليه. كان يقضم الخبز بسرعة، ثم يُخفض رأسه، ويحاول نطحي، ثم يأخذ قضمة أخرى ثم ينطح ثانية. ربما كانت فكرته أنه لو استطاع أن يبعدني، ستبقى قطعة الخبز معلقة في الهواء.

عامل عربي يعمل على الطريق المجاور أنزل حذاءه الثقيل وانسل نحونا. نقل نظره من الغزال إلى الخبز ومن الخبز إلى الغزال بنوع من الاندهاش التام، كما لو انه لم ير شيئاً كهذا من قبل. وأخيراً قال باستحياء بالفرنسية:

"بإمكاني أكل بعضٍ من ذاك الخبز".

مزقت قطعة، وخزنها شاكراً في مكان سري تحت أسماله. الرجل موظف في البلدية.

حين تدخل في الأحياء اليهودية، فإنك تجمع فكرة عن حال الغيتوهات في العصور الوسطى. تحت القوانين المغربية، لم يكن يسُمح لليهود بتملك الأراضي إلا في مناطق محصورة محددة. وبعد قرون من هذا النوع من المعاملة، لم يعد يقلقهم الاكتظاظ، فالكثير من الشوارع لا يتجاوز عرضها الستة أقدام، والبيوت بلا نوافذ تماماً، والأطفال بعيونهم المقرحة يتجمعون في كل مكان بأعداد لا تصدق مثل أسراب من الذباب، وفي وسط الشارع يوجد عادة نهر صغير من البول يجري.

في السوق توجد عائلات ضخمة من اليهود، يلبسون ثياباً سوداء طويلة وقبعات سوداء صغيرة، ويعملون في أكشاك مظلمة يملؤها الذباب مثل الكهوف. نجار يجلس مقرفصاً عند مخرطة خشب من قبل التاريخ، يدير أرجل الكرسي بسرعة الضوء، ويشغل المخرطة بقوس بيده اليمنى ويوجه الإزميل بقدمه اليسرى. وبسبب الجلوس في هذا الوضع طيلة حياته، التوت رجله وتشوهت، وبجانبه حفيده في السادسة من عمره، وقد بدأ مسبقاً في الأجزاء الأبسط من العمل.

كنت أمر في أكشاك النحاسين، حين لاحظ شخص ما أنني كنت أشعل سيجارة، فاندفع على الفور من الثقوب المظلمة المحيطة عدد كبير من اليهود بشكل محموم أكثرهم أجداد كبار في السن بلحى رمادية منسابة يطالبون بسيجارة. حتى إن رجلاً أعمى في مكان ما خلف أحد الأكشاك، سمع إشاعة السجائر، فجاء يحبو متلمساً الهواء بيده. في حوالي دقيقة استهلكت علبة السجائر كلها. لا أحد من هؤلاء الأشخاص يعمل أقل من اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وكل واحد منهم ينظر إلى السيجارة كما لو كانت ترفاً مستحيلاً تقريباً.

بما أن اليهود يعيشون في جاليات مستقلة مكتفية ذاتياً، فهم يتبعون نفس المهن مثل العرب ماعدا مهنة الزراعة. باعة فاكهة وخزافون وصاغة فضة وحدادون وجزارون وعمال جلود وخياطون وسقاة وشحاذون وحمالون - أي طريق تنظر فيه لا تجد سوى اليهود. وفي الواقع هنالك ثلاثة عشر ألفاً منهم يعيشون في حيز من بضعة أكرات من الأرض. لا يوجد هنا قاتل كهتلر، لكن ربما هو في طريقه. لا تسمع الإشاعات المعتادة الشريرة عن اليهود من العرب فقط، بل ومن الأوروبيين الأكثر فقراً أيضاً.

"نعم، يا شيخي، هم انتزعوا وظيفتي مني وأعطوها ليهودي. اليهود! إنهم الحكام الحقيقيون لهذه البلاد كما تعرف. لقد حازوا على المال كله، فهم يسيطرون على البنوك والتمويل - كل شيء".

"لكن أليس حقيقة أن اليهودي العادي شغيل يعمل ببنس في الساعة تقريباً؟" قلت.

"آه، ذلك مجرد مظهر فقط! كلهم مرابون في الحقيقة. اليهود ماكرون".

في الطريقة نفسها تماماً كانت النساء العجائز يُحرقن بتهمة السحر قبل مائتي سنة، حين لم يستطعن ممارسة ما يكفي من السحر لنيل وجبة طعام واحدة تشبعهن.

كل الناس الذي يعملون بأيديهم غير مرئيين جزئياً، وكلما كان عملهم الذي يشتغلونه هاماً كانوا ظهورهم أقل. لكن البشرة البيضاء تظل بارزة بوضوح دائماً. في شمال أوروبا حين ترى عاملاً يحرث الحقل تخصه بنظرة ثانية، أما في البلدان الحارة في أي مكان جنوب جبل طارق أو شرق السويس، فالفرص أنك لن تراهم حتى. لقد لاحظت هذا مراراً. في المشهد الطبيعي الاستوائي ترى العين كل شيء ماعدا الكائنات البشرية. ترى التربة الجافة وشجرة

الكمثرى الشائكة وشجرة النخل والجبل البعيد، لكنها دائماً لا ترى الفلاح وهو يعزق في قطعة أرضه، فهو بنفس لون التراب، والنظر إليه ليس فيه أي نوع من المتعة.

لهذا السبب فقط تُستحسن البلدان الجائعة في آسيا وإفريقيا كمنتجعات سياحية. لا أحد يفكر في تسيير رحلات رخيصة إلى المناطق المنكوبة، لكن في الأماكن التي فيها بشرة البشر سمراء لا يلاحظ الفقر هناك ببساطة. ما الذي تعنيه المغرب بالنسبة إلى الفرنسي؟ بيارة برتقال أو وظيفة حكومية. أو للإنكليزي؟ جمال وقلاع وأشجار نخيل وفيالق أجنبية وأطباق نحاسية وقطاع طرق. يمكن أن يعيش المرء هنا لسنوات ولا يلاحظ أن الحياة بالنسبة إلى تسعة أعشار الناس صراع لانهائي قاصم للظهر لانتزاع القليل من الطعام من تربة متآكلة.

غالبية المغرب أرض مقفرة، لدرجة لا يستطيع حيوان بري أكبر من الأرنب العيش فيها. مناطق هائلة كانت تغطيها الغابات في الماضي، تحولت إلى مناطق قاحلة بلا أشجار، وصارت التربة مثل القرميد المكسر تماماً. رغم ذلك كمية جيدة منها تُحرث بجهد مرعب. كل شيء يتم عمله يدوياً. صفوف طويلة من النسوة اثنتين مثل حرف إس مقلوب يعملن ببطء في الحقول، يحصدن الأعشاب الشائكة بأيديهن. أما الفلاح فيجمع البرسيم من أجل علف الماشية، يقتلعه سويقة سويقة بدلاً من حصده لكي يوفر بوصة أو اثنتين من كل سويقة. المحراث شيء خشبي بائس وهزيل جداً لدرجة يمكن حمله على الظهر، ومزود من الأسفل برزة حديدة قاسية تحرك التربة بعمق أربع بوصات تقريباً. هذا يتناسب مع ما تفعله قوة الحيوان. العادة أن الفلاحة تتم على بقرة وحمار يربطان إلى نير واحد معاً. حماران لن تكون القوة كافية، لكن بقرتان يكلف علفهما الكثير. لا يملك الفلاحون مسحاة لتسوية التربة، هم يحرثون التربة عدة مرات متكررة في اتجاهات مختلفة فقط، وأخيراً تتكون فيها أخاديد وعرة. وبعد ذلك يجري تشكيل الحقل كله بالمجاريف إلى قطع مستطيلة لحفظ الماء. باستثناء يوم أو اثنين من العواصف المطرية النادرة ليس هناك ما يكفي من الماء. على طول حواف الحقول حفرت قنوات بعمق ثلاثين قدم أو أربعين للوصول إلى أصغر المجاري المائية الهزيلة التي تجري عبر التربة التحتية.

في كل يوم بعد الظهر تعبر مجموعة من العجائز الطريق الذي يقع خارج بيتي، تحمل كل واحدة منهن حملاً من حطب الوقود. كلهن حنطهن كبر السن والشمس وأحجامهن بالغة الصغر. يبدو لي أن الحالة العامة في المجتمعات البدائية للنساء أنهن ينكمشن إلى حجم

الأطفال حين يتجاوزن سناً معينة. في أحد الأيام تجاوزتني خلوقة هرمة لا يبلغ طولها أربعة أقدام وهي تحبو تحت حمل هائل من الحطب. أوقفتها، ووضعت قطعة نقدية من فئة خمسة سو (أكثر من فارذينغ بقليل) في يدها. ردت بعويل وصيحة كانت عرفانا بالجميل جزئياً وبالاندهاش رئيسياً. حين أبديت أقل الاهتمام بها، فأنا انتهكت قانون الطبيعة من وجهة نظرها، لأنها قبلت بوضعها كامرأة عجوز أي كدابة للحمولة. حين تسافر العائلة، من المعتاد تماماً أن ترى الأب وأبناءه الذكور البالغين يركبون الحمير، وامرأة عجوز تلحق بهم مشياً على الأقدام وتحمل الأمتعة.

لكن الغريب حول هؤلاء الناس، هو اختفاؤهم عن الأعين. لعدة أسابيع في نفس الوقت من اليوم دائماً تمر مجموعة من النسوة العجائز بجانب البيت وهن يعرجن بحطبهن، ولو لم يسجلن أنفسهن في مقالتي، لما استطعت أن أقول إنني رأيتهن في الحقيقة. كان الحطب يمر - تلك كانت الطريقة التي رأيته فيها. إلى اليوم الذي صدف وكنت أتمشى خلفهن، فلفتت الحركة الغريبة لحمل الحطب التي ترتفع وتهبط انتباهي إلى كائن بشري تحته. حينها للمرة الأولى لاحظت الأجساد المسكينة التي بلون التراب، أجساد تقلصت إلى عظام وجلد، انثنت تحت حمولة ساحقة. أعتقد أنني لم أتجاوز الخمس عشرة دقيقة على التراب المغربي، حتى لاحظت الحمولة المفرطة التي يضعونها على الحمير، فأغاظني ذلك. ليس هناك خلاف أن الحمير تعامل بصورة لعينة. إن الحمار المغربي ليس أكبر من كلب القديس برنارد، ويحمل حمولة يعتبرها الجيش البريطاني كثيرة جداً على بغل كبير، وفي أغلب الأحيان لا يُنزع سرجه عن ظهره لأسابيع متوالية. لكن المثير للشفقة بشكل خاص أنه المخلوق الأكثر طوعاً على الأرض الذي يتبع صاحبه مثل الكلب ولا يحتاج لجاماً ولا رسناً. بعد عشر سنوات من العمل المخلص، يسقط ميتاً فجأة، عندئذ يتكرم عليه صاحبه ويرميه في خندق لتمزق كلاب القرية أمعاءه قبل أن تبرد جثته.

هذا النوع من الأشياء يجعل الدم يغلي، بينما محنة البشر إجمالاً لا تحرك ساكناً. أنا لا أعلق، وإنما أشير إلى واقع فقط. الناس أصحاب البشرة السمراء شبه محجوبين. أي واحد يمكنه أن يتأسف على الحمار بظهره المتقرح، لكن هذا يعود عموماً إلى نوع من المصادفة، حتى إن لاحظ أحد المرأة المسنة تحت حملها من عيدان الحطب.

حين تطير اللقالق باتجاه الشمال، كان الزنوج يزحفون باتجاه الجنوب - طابور طويل مغبر وكتيبة مشاة وبطاريات مدفعية، ومن ثم كتيبة مشاة أخرى، يصل عددهم كلهم إلى أربعة أو خمسة آلاف يتلوون على الطريق بأحذية طويلة الساق ثقيلة وقعقعة عجلات حديدية.

كانوا من السنغاليين، أشد الزنوج سواداً في أفريقيا، سود جداً لدرجة من الصعب أحياناً أن ترى في أي مكان من رقابهم يبدأ شعر رؤوسهم. أجسامهم الممتازة كانت مخبأة في أزياء كاكية رسمية نظامية جاهزة ورخيصة، انهرست أقدامهم في أحذية بدت مثل قوالب من الخشب وكل قبعة قصديرية بدت أصغر بقياسين. كان الجو حاراً جداً والرجال مشوا مسافة طويلة. ناخوا تحت ثقل صررهم، وكانت وجوههم السوداء الحساسة على نحو غريب تتلألأ بالعرق. حين مروا التفت شاب زنجي صغير جداً وطويل ونظر إلي. لكن النظرة التي رماني بها ليست النظرة التي يمكن أن تتوقعها على الأقل. ليست عدائية وليست ازدرائية وليست وقحة وليست فضولية. كانت نظرة اندهاش خجولة، وهي في الحقيقة نظرة احترام عميق. رأيت كيف كانت. هذا الصبي البائس الذي هو مواطن فرنسي، ولذلك سحب من الغابة لينظف الأرض ويصاب بالسفلس في مدن الحاميات العسكرية، وفي الواقع لديه مشاعر توقير أمام البشرة البيضاء، فقد علموه أن العرق الأبيض هم سادته ولا يزال يصدق ذلك.

لكن توجد فكرة واحدة يفكر فيها كل رجل أبيض (وفي هذا السياق لا تستحق بنسين إن دعا نفسه اشتراكياً) حين يرى جيشاً من السود يمر ماشياً به. "كم من الوقت نستطيع المضي في خداع هؤلاء الناس؟ كم من الوقت حتى يديرون بنادقهم إلى الجهة الأخرى؟".

كان ذلك غريباً فعلاً. كل رجل أبيض هناك لديه هذه الفكرة مخزنة ومخبأة في مكان ما في ذهنه. أنا لدي، وكذلك المتفرجون الآخرون، والضباط الذين على خيولهم المتعرقة والقادة الذين يسيرون في الصفوف. كان نوعاً من السر الذي نعرفه كلنا، وليس من الذكاء كشفه؛ فقط الزنوج لا يعرفونه. وفي الحقيقة كان مثل مراقبة قطيع من الأنعام تقريباً لترى طابوراً طويلاً بطول ميل أو اثنين من الرجال المسلحين يتدفقون بهدوء في الطريق، بينما اندفعت طيور بيضاء كبيرة فوقهم في الاتجاه المعاكس تلمع مثل قصاصات من الورق.

ما هو العلم؟

في عدد الأسبوع الماضي من التريبيون، هناك رسالة مثيرة للاهتمام من السيد جي. ستيوارت كوك، يقول فيها إن أفضل طريقة لتفادي خطر "الهرمية العلمية" هو النظر إليها إن كل عضو من الجمهور العام مثقف علمياً بأقصى ما يمكن، ويجب بنفس الوقت إخراج العلماء من عزلتهم وتشجيعهم على المشاركة بدور أكبر في السياسة والإدارة.

كتصريح عام، أعتقد أن أكثرنا يتفق مع هذا، لكني لاحظت أن السيد كوك كالعادة لم يعرف العلم، ودلل ضمناً وبشكل عابر أنه يعني علوماً معينة دقيقة يمكن إجراء تجاربها تحت ظروف مخبرية، ولهذا يميل تعليم البالغين إلى إهمال الدراسات العلمية لصالح المواضيع الأدبية والاقتصادية والاجتماعية". فعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع، لم يعتبرا فرعين من العلوم كما يتضح. المغزى ذو أهمية عظمى. لأن كلمة علم في الوقت الحاضر تستخدم بمعنيين على الأقل، ومسألة التعليم العلمي برمتها تحجبها النزعة الراهنة في المراوغة من معنى إلى آخر.

يُفهم العلم عموماً كمعنى إما (ألف) العلوم الدقيقة كالكيمياء والفيزياء..إلخ، أو (باء) طريقة في التفكير تحرز نتائج مثبتة باستنتاجات منطقية من واقع ملحوظ.

لو سألت عالماً أو في الحقيقة أي شخص متعلم تقريباً "ما هو العلم؟" ستحصل على الأرجح على جواب مقارب لـ(باء). لكن في الحياة اليومية، في الكتابة والكلام، حين يقول الناس "علم" يقصدون (ألف). العلم يعني شيئاً يحدث في مختبر: الكلمة نفسها تستدعي صورة لرسوم بيانية وأنابيب اختبار وموازين وحراقات بنزين ومجاهر. عالم الأحياء وعالم الفلك وربما العالم النفسي أو عالم الرياضيات، يوصفون بـ "رجل علم": لا أحد يفكر بتطبيق هذا المصطلح على رجل دولة أو شاعر أو صحفي أو حتى فيلسوف. وهؤلاء الذين يخبروننا أن الصغار يجب أن يتثقفوا علمياً، يقصدون، بشكل ثابت، أنهم يجب أن يعلموا أكثر عن النشاط الإشعاعي أو النجوم أو علم وظائف الأعضاء أو أجسادهم بدلاً من أن يجبروا على تعلم التفكير بدقة أكبر.

هذا التشوش في المعنى، الذي هو متعمد جزئياً، فيه خطر عظيم. ضمن المطالبة بتعليم علمي أكثر الزعم أنه لو كان المرء مدرباً علمياً ستكون مقاربته لكل المواضيع ذكية أكثر من المرء الذي لم يتلق هذا التدريب. آراء العالم السياسية كما يفترض، آراؤه حول القضايا الاجتماعية والأخلاق والفلسفة وحتى الفنون، ستكون نافعة أكثر من آراء الرجل العادي ليمان. لكن 'العالم'، كما رأينا للتو، يعني عملياً المختص في واحد من العلوم الدقيقة. يتبع ذلك أن الكيميائي أو الفيزيائي از ساتش، أذكى سياسياً من الشاعر أو المحامي، از ساتش. وفي الواقع، هناك الملايين من الناس يعتقدون بهذا.

لكن هل صحيح حقيقة أن 'العالم'،بالمعنى الضيق، من المحتمل أن يقارب المشاكل غير العلمية بطريقة موضوعية أكثر من الناس الآخرين؟ لنأخذ اختباراً بسيطاً واحداً – القدرة على الصمود بوجه القومية. غالباً ما يقال على نحو غير دقيق إن 'العلم دولي'، لكن عملياً العمال العلميون في كل البلدان يصطفون خلف حكوماتهم مع شكوك أقل من تلك التي يشعر بها الكتاب والفنانون. التجمع العلمي الألماني كله، لم يبد أية مقاومة لهتلر. هتلر ربما دمر آفاق العلم الألماني البعيدة، لكن تظل وفرة من الرجال الموهوبين للقيام بالبحث الضروري على أشياء كهذه مثل النفط التركيبي والطائرات النفاثة والقذائف الصاروخية والقنبلة الذرية. بدونهم آلة الحرب الألمانية لم تكن تبنى أبداً.

من جانب آخر، ماذا حدث للأدب الألماني حين وصل النازيون إلى السلطة؟ أعتقد أنه لم تنشر قوائم كاملة، لكن أتخيل أن عدد العلماء الألمان – بمعزل عن اليهود، الذين نفوا أنفسهم طوعاً أو اضطهدهم نظام الحكم، كان أصغر بكثير من عدد الكتاب والصحفيين. الأكثر نحساً من هذا، أن عدداً من العلماء الألمان قبلوا بلا اعتراض برهابة 'العلم العنصري'. يمكنك أن تجد بعض البيانات التي وضعوا فيها أسماءهم في كتاب البروفيسور برادي روح وبنية الفاشية الألمانية. لكن بأشكال مختلفة قليلاً، الصورة نفسها في كل مكان. في إنكلترا نسبة واسعة من علمائنا البارزين قبلوا ببنية المجتمع الرأسمالي، كما نستطيع أن نرى من الحرية النسبية التي أعطوا فيها رتب الفروسية والبارونية والنبالة. منذ تينيسون، ليس هناك كاتب إنكليزي يستحق القراءة – قد يقوم

المرء باستثناء وحيد للسير ماكس بيربوهم - وهب لقباً. وهؤلاء العلماء الإنكليز الذين لم يقبلوا بالوضع القائم شيوعيون في الأغلب، مما يعني أنه كيفما كانت شكوكهم العقلية في سياسة عملهم، فقد كانوا مستعدين ليكونوا ضعيفي التمييز ومضللين حتى في مواضيع محددة. الحقيقة أن مجرد تدريب في علم دقيق واحد أو أكثر حتى لو اتحد مع مواهب رفيعة جداً، ليس ضمانة لموقف إنساني شكاك. فيزيائيو نصف دزينة من الأمم الكبرى الذين يعملون كلهم بشكل محموم وسري في القنبلة الذرية، دليل على هذا.

لكن هل هذا كله يعني أن الجمهور العام يجب ألا يكون مثقفاً علمياً؟ على العكس! كل ما يعنيه أن التعليم العلمي للجماهير سيدر القليل من النفع، وربما الكثير من الضرر بالأدب والتاريخ. تأثيره المحتمل على الكائن البشري العادي سيكون تضييق مدى أفكاره وجعله أكثر من قبل مزدرياً لهكذا معرفة كالتي لا يمتلكها: وردود أفعاله السياسية ربما تكون إلى حد ما أقل ذكاء من ردود أفعال فلاحٍ ريفي أمي، احتفظ بالقليل من الذكريات التاريخية وبإحساس جمالي صحيح بشكل معتدل.

من الواضح أن التعليم العلمي يجب أن يعني زرع عادة العقل المنطقية والشكاكة والتجريبية. ينبغي أن يعني اكتساب منهج - منهج يمكن أن يستخدم على أية مشكلة يقابلها المرء - وليس مجرد تكديس الكثير من الوقائع. صغها بهذه الكلمات وسيوافق المدافع عن التعليم العلمي عادة. اضغطه أكثر، اسأله أن يخصص، وبطريقة ما ثبت أن التعليم العلمي يعني انتباهاً أكثر إلى العلوم، بعبارة أخرى، حقائق أكثر. فكرة أن العلم يعني طريقة في النظر إلى العالم، وليس مجرد كيان من المعرفة، عملياً تلاقي مقاومة قوية. أظن أن الغيرة المهنية الصرفة جزء من سبب هذا. لأن العلم مجرد منهج أو موقف، لذلك أي أحد عملياته الفكرية منطقية بشكل واف، يمكن أن يوصف بالعالم - ماذا عندها سيحدث للهيبة والمكانة الضخمة التي يتمتع بها الكيميائي والفيزيائي..إلخ وزعمه بأنه أعقل من بقيتنا بطريقة ما.

قبل مائة عام وصف تشارلز كينغزلي العلم كـ "إصدار روائح كريهة في مختبر". منذ سنة أو اثنتين أخبرني كيميائي صناعي شاب بلطف أنه 'لا يستطيع أن يرى الفائدة من

الشعر[٥]. لذلك يتأرجح البندول إلى الأمام والخلف، لكن لا يبدو لي أن أحد الموقفين أفضل من الآخر. في اللحظة الراهنة يتطور العلم ويتحسن، ولذلك نحن نسمع بشكل صحيح تماماً الطلب من الجماهير أن تُثقف علمياً، لكننا لا نسمع كما ينبغي الطلب المضاد بأن على العلماء أنفسهم أن يستفيدوا بالقليل من التعليم. قبل كتابة هذه المقالة مباشرة، رأيت في مجلة أمريكية خبراً يفيد بأن عدداً من الفيزيائيين البريطانيين والأمريكيين رفضوا من البداية إجراء أبحاث على القنبلة الذرية، لأنهم كانوا يعرفون جيداً الاستخدام الذي ستُصنع من أجله. هنا لدينا مجموعة من الرجال العقلاء في وسط عالم من المجانين. ولعدم نشر أي أسماء سيكون تخميناً آمناً لو قلت إنهم كلهم كانوا أشخاصاً لديهم نوع من خلفية ثقافية عامة وبعض الاطلاع على التاريخ أو الأدب أو الفنون - باختصار أناس لم تكن اهتماماتهم علمية صرفة، بالمعنى الراهن للكلمة.

الروح الرياضية

بعد أن انتهت الزيارة القصيرة لفريق دينامو لكرة القدم؛ بات من الممكن القول علناً ما قاله الكثير من الناس المفكرين سراً قبل أن يصل الدينامو، بأن الرياضة سبب لا يخفق للعداوة، وإن كان لمثل هذه الزيارة أي أثر على الإطلاق على العلاقات الأنغلوسوفيتية، فهو ليس سوى زيادتها سوءاً عما كانت عليه من قبل.

حتى الصحف لم تقدر أن تخفي أن اثنتين من المباريات الأربعة على الأقل، أدتا إلى شعور سيء. قال لي شخص حضر مباراة الأرسنال: تبادل لاعب بريطاني وآخر روسي اللكمات، وأطلقت الحشود صيحات استهجان ضد الحكم. كما أخبرني شخص آخر عن مباراة غلاسكو: كانت فوضى وشغب منذ البداية. ومن ثم كان هناك جدل، نموذجي في عصرنا القومجي، حول تكوين فريق الأرسنال. هل هو حقيقة فريق كل إنكلترا كما ادعى الروس، أم أنه مجرد فريق فئة كما ادعى البريطانيون؟ وهل أنهى الدينامو جولته فجأة كي يتجنب اللعب مع فريق إنكلترا كلها؟ كالعادة أجاب كل شخص على هذه الأسئلة حسب ميوله السياسية. ليس كل واحد تماماً. فقد لاحظت باهتمام، كمثال عن الانفعالات الشريرة التي تثيرها رياضة كرة القدم، أن المراسل الرياضي للنيوزكرونيكلز المعادية للروس أخذ خطاً معادياً للروس، وأصر أن الأرسنال لم يكن فريق إنكلترا كلها. لا شك أن الجدل سيظل يتردد لسنوات في هوامش كتب التاريخ. وفي الوقت الحالي إن النتيجة لجولة الدينامو، إن كانت له أي واحدة، خلق عداوة جديدة في كلا الجانبين.

وكيف لها أن تكون غير ذلك؟ أنا أنذهل دائماً حين أسمع الناس يقولون إن الرياضة تخلق شعوراً ودياً بين الأمم، ولو استطاع عوام الناس في العالم الالتقاء مع بعضهم البعض في كرة القدم أو الكريكت، فلن يكون لديهم أي ميل لمواجهة بعضهم في ميادين القتال. حتى لو لم يعرف المرء من الأمثلة الملموسة (الألعاب الأولمبية عام ١٩٣٦ مثلاً) بأن المنافسات الرياضية العالمية تؤدي إلى عربدة مفرطة من الكره، فإنه يستطيع استنتاجها من المبادئ العامة.

إن كل الرياضات التي تمارس في هذه الأيام تقريباً ألعاب تنافسية. أنت تلعب لتربح، واللعبة لا يكون لها سوى قليل من المعنى، إلا إذا بذلت أقصى جهدك للفوز. إن اللعب من أجل المتعة والتمرين ممكن على عشب القرية، حيث تختار الأطراف دون توريط أي شعور بالوطنية المحلية، لكن بمجرد ظهور مسألة المقام والاعتبار وشعورك أنت ووحدة ما أكبر بأنكم ستصابون بالخزي إن خسرتم، تُثار أقوى الغرائز التنافسية همجية. كل من لعب حتى ولو في مباراة كرة قدم مدرسية يعرف هذا. أما في المستوى العالمي، فالرياضة حرب مقلدة بشكل صريح. لكن الشيء الهام ليس سلوك اللاعبين، وإنما موقف المتفرجين ومن خلف المتفرجين من الأمم الذين يهيجون ويغضبون حول هذه المسابقات السخيفة، ويعتقدون جدياً - لفترات قصيرة على الأقل - أن الجري والوثب وركل الكرة هي اختبارات للفضيلة القومية.

حتى لعبة الكريكت المتروية التي تتطلب رشاقة أكثر من القوة، يمكنها التسبب بالكثير من العداوة، كما رأينا في الجدل حول بودي - لاين بولينغ وحول التكتيك القاسي للفريق الأسترالي الذي زار إنكلترا في عام ١٩٢١ وكذلك كرة القدم، اللعبة التي يتضرر كل واحد منها والتي لكل أمة طريقتها الخاصة في اللعب الجائر بنظر الأجانب، أسوأ بكثير، أما الأسوأ من الكل فهي الملاكمة. فالقتال بين ملاكم أبيض وملاكم ملون أمام جمهور مختلط، واحد من أرهب المناظر في العالم، كما أن جمهور الملاكمة مثير للقرف دائماً، وسلوك النسوة بشكل خاص، لذلك لا يسمح لهن الجيش، كما أعتقد، بحضور مسابقاتها. على أي حال قبل سنتين أو ثلاث، حين أقام الحرس الوطني والقوات النظامية دوري للملاكمة، وُضعت لحراسة باب الصالة مع أوامر تمنع إدخال النساء.

إن الهاجس بالرياضة سيء بما يكفي في إنكلترا، لكن العواطف الأعنف تثار حتى في البلدان الناشئة؛ حيث يعتبر كلٌّ من لعب الألعاب والقومية تطورين حديثين فيها. في بلدان مثل الهند أو بورما، من الضروري في مباريات كرة القدم أن يكون هناك حزام من رجال الأمن لمنع الجماهير من اجتياح أرض الملعب. في بورما رأيت مشجعي أحد الطرفين يخترقون صفوف رجال الأمن ويعيقون حارس مرمى الطرف المعارض في لحظة حرجة. أول مباراة

كرة قدم كبيرة لعبت في إسبانيا منذ حوالي خمس عشرة سنة، أدت إلى شغب تعذر ضبطه. حالما تثار مشاعر التنافس القوية تتلاشى فكرة لعب اللعبة حسب القوانين دائماً. الناس يريدون رؤية طرفاً في القمة والطرف الآخر في حالة خزي، وينسون أن النصر الذي اكتسب بواسطة الغش أو تدخل الجمهور لا معنى له. حتى حين لا يتدخل المتفرجون بدنياً، يحاولون التأثير على اللعبة بتشجيع طرفهم الخاص بهم و"مضايقة" اللاعبين المعارضين بصيحات الاستهجان والإهانات. الرياضة الجدية لا علاقة لها باللعب القانوني والمشروع. إنها مرتبطة بالكره والغيرة والتبجح وبتجاهل كل القوانين وبمتعة سادية في مشاهدة العنف: بعبارة أخرى إنها حرب من دون إطلاق النار.

بدلاً من الهراء عن التنافس الصحي النظيف في ملعب كرة القدم والدور الكبير الذي لعبته الألعاب الأولمبية في جمع الأمم معاً، من الأفيد أن نتساءل كيف ولماذا أثيرت العبادة الحديثة للرياضة. أغلب الألعاب التي نلعبها في الوقت الحالي ذات منشأ قديم جداً، لكن اللعبة الرياضية لم تؤخذ على محمل جدي بين الأزمنة الرومانية والقرن التاسع عشر على ما يبدو. حتى في المدارس الإنكليزية العامة (الحكومية) لم تبدأ عبادة الألعاب حتى الجزء الأخير من القرن. لقد نظر الدكتور أرنولد الذي يعتبر عادة مؤسس المدارس العامة الحديثة، إلى الألعاب على أنها مضيعة للوقت. لقد تحولت الألعاب في إنكلترا والولايات المتحدة بشكل رئيسي إلى نشاط تمويلي كبير، قادر على جذب جماهير واسعة، وإثارة العواطف الهمجية، وانتشرت العدوى من بلاد إلى أخرى. إن أعنف الرياضات التنافسية هي كرة القدم والملاكمة، وهما اللتان انتشرتا بشكل واسع. ليس هناك شك كبير بأن الشيء برمته مرتبط بظهور الشعور القومي – أي مع العادة الحديثة المجنونة في انتساب المرء إلى وحدات سلطة واسعة والتعاطف معها ورؤية كل شيء من منظور المكانة التنافسية. أيضاً ستزدهر الألعاب المنظمة على الأرجح في المجتمعات المدينية حيث يعيش الكائن البشري العادي حياة جلوس أو حياة ضيق، ليس للعمل الإبداعي فرص كثيرة فيها. في المجتمع الريفي يعمل الصبي أو الشاب، ويصرف كمية كبيرة من طاقته الفائضة بالمشي والسباحة والتراشق بالثلج وتسلق الأشجار وامتطاء الخيل وبرياضات متنوعة تشمل الوحشية تجاه الحيوانات مثل صيد السمك وقتال الديكة وصيد

الجرذان. في البلدات الكبيرة يجب على المرء أن ينغمس في مجموعة من النشاطات إن أراد متنفساً لقوته البدنية أو لدوافعه السادية. أخذت الألعاب على محمل الجد في لندن ونيويورك، وأخذت في روما وبيزنطا جدياً: في العصور الوسطى كانت تلعب، وربما لعبت بوحشية بدنية أكبر، لكنها لم تكن مختلطة بالآراء السياسية، ولم تكن سبباً لمجموعة من الضغائن.

إن أردت أن تضيف إلى رصيد العداوة الكبير الموجود في العالم في هذه اللحظة، يمكن فعل ذلك بشكل أفضل بسلسلة من مباريات كرة القدم بين اليهود والعرب، وبين الألمان والتشيك، والهنود والبريطانيين، والروس والبولونيين، والإيطاليين والبوغسلافيين، كل مباراة ستشاهد من قبل جمهور متنوع مؤلف من ١٠٠ ألف متفرج. أنا لا أوحي طبعاً إلى أن الرياضة واحدة من الأسباب الرئيسية للتنافس الدولي؛ الرياضة الشعبية الواسعة بنفسها كما أعتقد مجرد أثر آخر للأسباب التي أوجدت القومية. لكنك تزيد الأمر سوء بإرسال فريق من أحد عشر رجلاً بوصفهم أحد عشر بطلاً قومياً لخوض معركة ضد فريق منافس آخر، وتسمح للشعور من كلا الجانبين بأن الأمة التي ستُهزم سوف "تفقد هيبتها".

كلي أمل ألا نتبع زيارة الدينامو بإرسال فريق بريطاني إلى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الاشتراكية. إن كان يجب فعل ذلك، فدعونا نرسل فريقاً من الدرجة الثانية، تكون هزيمته مؤكدة ولا يمكن الزعم أنه يمثل بريطانيا ككل. هناك أسباب اضطراب كافية مسبقاً، ولسنا في حاجة إلى زيادتها بتشجيع الشبان على رفس قصبات أرجل بعضهم، وسط صرخات المتفرجين الحانقين.

كأس من الشاي اللذيذ

لو بحثت عن كلمة 'شاي' في أول كتاب عن الطبخ في متناول يدك، ربما لن تجد له ذكراً أو تجد بضعة أسطر من التعليمات الأولية التي لا تعطي حكماً عن أهم النقاط الكثيرة.

هذا غريب، ليس لأن الشاي واحد من الدعامات الرئيسية للحضارة في هذه البلاد وإيرلندا أيضاً وأستراليا ونيوزيلندا، وإنما لأن أفضل طريقة لإعداد الشاي هي موضوع جدل عنيف.

حين أتفحص وصفتي لإعداد فنجان من الشاي المثالي، أجد ما لا يقل عن إحدى عشر نقطة بارزة. واحدة أو اثنتان منها تنال موافقة عامة، لكن أربعاً على الأقل موضع خلاف حاد. هذه هي قواعدي الإحدى عشرة، وأعتبر كل واحدة منها ذهبية:

بادئ ذي بدء يجب على المرء أن يستخدم شاياً هندياً أو سيلانياً. الشاي الصيني له فضائل لا يجب ازدراؤها في هذه الأيام - فهو اقتصادي ويستطيع المرء أن يشربه بدون حليب - لكن ليس فيه تنبيهاً كثيراً. لا يشعر المرء بذكاء وشجاعة وتفاؤلاً أكثر بعد شربه. أي شخص استخدم عبارة "كأس من الشاي اللذيذ" المطمئنة، فإنه يقصد بشكل ثابت الشاي الهندي. ثانياً، يجب أن يحضر الشاي بكميات صغيرة - أي في إبريق شاي، لأن الشاي من وعاء ضخم لا طعم له دائماً، وشاي الجيش المعد في قدر له طعم شحم وماء الكلس. يجب أن يكون إبريق الشاي مصنوعاً في الصين أو من الخزف. أباريق الشاي الفضية أو أواني الشاي البريطانية تنتج شاياً أدنى درجة، والأباريق المصقولة المطلية، هي أسوأ، والغريب جداً أن إبريق الشاي المصنوع من القصدير (النادر في هذه الأيام) ليس سيئاً جداً. ثالثاً، يجب أن يسخن الإبريق مقدماً. وطريقة وضعه على الحاجز الحديدي أفضل من الطريقة المعتادة بشطفه بالماء الساخن. رابعاً، يجب أن يكون الشاي قوياً. بالنسبة إلى إبريق يتسع لربع غالون، إن كنت ستملأه للحافة تقريباً يحتاج إلى ستة ملاعق شاي مترعة. في زمن الحصص الغذائية هذه فكرة لا يمكن تحقيقها في كل يوم من أيام الأسبوع، لكن أنا أؤيد أن فنجاناً واحداً من الشاي القوي، أفضل

من عشرين فنجاناً من الشاي الضعيف. كل عشاق الشاي لا يحبون شايهم قوياً فقط، وإنما يحبونه أن يكون أقوى قليلاً مع كل سنة تمر - حقيقة معترف بها في الحصة الغذائية الإضافية التي تعطى للمتقاعدين المسنين.

خامساً، يجب أن يُوضع الشاي في الإبريق مباشرة. بدون مصافٍ أو أكياس قطنية رقيقة أو أي أداة أخرى لحبس الشاي. في بعض البلدان تُزود أباريق الشاي بسلال متدلية صغيرة تحت الصنبور لتمسك بأوراق الشاي الشاردة التي يُعتقد أنها مضرة. في الواقع يستطيع المرء بلع أوراق الشاي بكميات ضخمة من دون أن يكون لذلك نتائج مرضية. وإن لم يكن الشاي طليقاً في الإبريق، فإنه لن ينقع بشكل لائق أبداً. سادساً، يجب على المرء أن يأخذ إبريق الشاي إلى الغلاية وليس العكس. يجب أن يكون الماء يغلي فعلاً في لحظة الاصطدام، ما يعني أنه يجب على المرء أن يبقي الإبريق على اللهب حين يصب الشاي منه. بعض الناس يضيفون أن المرء يجب ألا يستخدم للغلي سوى الماء الذي أحضر حديثاً، لكني لم ألحظ أبداً أن ذلك يشكل فرقاً. سابعاً، بعد صنع الشاي يجب أن يُحرك، أو يُهز الإبريق هزة قوية أفضل، وبعد ذلك يسمح للأوراق أن تستقر. ثامناً، يجب أن يشرب في فنجان جيد من فناجين الفطور - أي، النموذج الأسطواني من الفناجين وليس النموذج المسطح القليل العمق. فنجان الفطور يحتفظ بالحرارة أكثر، أما النوع الآخر يكون الشاي شبه بارد فيه دائماً - قبل أن يباشر المرء في شربه. تاسعاً، يجب صب قشدة الحليب والتخلص منها قبل استخدامها في الشاي. الحليب ذو القشدة الزائدة يُعطي الشاي مذاقاً بائساً غير صحي. عاشراً، يجب وضع الشاي في الفنجان أولاً. هذه النقطة الأكثر إثارة للخلاف والجدل؛ في الحقيقة في كل عائلة في بريطانيا هناك مدرستان من الفكر حول الموضوع. مدرسة الحليب أولاً تستطيع تقديم حجج قوية، لكني أؤيد أن حجتي قاطعة لا تدحض، وهي أننا بوضع الشاي أولاً وتحريكه عند صبه، نستطيع تعديل وتنظيم كمية الحليب، لكن إن فعلنا العكس، نكون عرضة لأن نضع كمية كبيرة جداً من الحليب.

أخيراً يجب أن يُشرب الشاي بدون سكر إن لم يكن المرء يشربه بالطريقة الروسية. أعرف جيداً أنني في أقلية هنا. لكن، كيف بمكنك نعت نفسك كعاشق حقيقي للشاي إن كنت

ستدمر نكهة شايك بوضع السكر فيه؟ وبالتساوي من المعقول أن تضع بعض الفلفل أو الملح فيه. كُتب على الشاي أن يكون مراً، كما كُتب على البيرة أن تكون مرة. إن حليته بالسكر، فأنت لن تتذوق شاياً وإنما تتذوق السكر؛ يمكنك إعداد شراب مشابه بتذويب السكر في ماء ساخن.

سيرد بعض الناس أنهم لا يحبون الشاي بحد ذاته، وأنهم يشربونه فقط ليحصلوا على الدفء والتنبيه، وأنهم يحتاجون إلى السكر ليتخلصوا من طعمه. لهؤلاء الناس المضللين أقول جربوا شرب الشاي بدون سكر لمدة نصف شهر مثلاً، والأرجح أنكم لن تريدوا أن تفسدوا شايكم بتحليته بالسكر مرة أخرى.

هذه ليست النقاط الخلافية الوحيدة ذات الصلة بشرب الشاي فقط، ولكنها كافية لتبين مدى الرهافة والسمو الذي أصبحت عليه العملية برمتها. هناك أيضاً الآداب والتشريفات الاجتماعية الغامضة التي تطوق إبريق الشاي (لماذا يعتبر شرب الشاي من طبق الفنجان شيئاً سوقياً مثلاً؟) ويمكن كتابة الكثير عن الاستخدامات الجانبية لأوراق الشاي كقراءة الطالع والتكهن بوصول الزوار وإطعام الأرانب وعلاج الحروق وتنظيف السجاد. هذه التفاصيل جديرة بالاهتمام مثل تسخين إبريق الشاي، واستخدام الماء الذي يغلي فعلياً لكي نتأكد من انتزاع أكواب الشاي الجيدة القوية العشرين التي ينبغي أن تمثلها حصة المرء من هاتين الأونستين المعالجتين بشكل مناسب.



القمر تحت الماء

ايفتنغ ستاندارد، ٩ شباط فبراير ١٩٤٦.

لا تبعد حانتي المفضلة **القمر تحت الماء** سوى دقيقتين عن موقف الحافلة، لكنها في شارع جانبي، لم يجد الأشخاص المشاكسون وحفلات السكر طريقهم إليها أبداً حتى في أمسيات أيام السبوت. يتألف زبائنها رغم ضخامتهم من 'مواظبين' يشغلون نفس المقاعد كل مساء، يذهبون للتحدث وللجعة على السواء. لو سألت لماذا تفضل حانة بعينها، سيبدو من الطبيعي وضع الجعة أولاً، لكن الشيء الذي يجذبني أكثر في **القمر تحت الماء** ما يسميه الناس بـ'الجو'.

بداية، هندستها المعمارية وتجهيزاتها فيكتورية بحتة. ليس فيها طاولات مغطى سطحها العلوي بالزجاج أو بأشكال البؤس الحديثة الأخرى، ومن جانب آخر ليس هناك وجود لعوارض السقف الخشبية المزيفة أو زوايا المواقد المنعزلة، أو الألواح البلاستيكية المتنكرة كالسنديان والمنحوتات الخشبية المحبحبة، والمرايا المزخرفة خلف البار، والمواقد الحديدية الصلبة والسقف المزخرف الملطخ باللون الأصفر الغامق من دخان التبغ، ورأس الثور المتخم فوق رف الموقد - كل شيء يملك قبح المريح والصلب للقرن التاسع عشر.

في الشتاء، هناك نار جيدة تحترق في اثنين من البارات على الأقل، والتصميم الفيكتوري للمكان يعطي المرء وفرة من السعة. هناك بار عام وبار بهو وبار للسيدات وزجاجة وإبريق لهؤلاء الخجلين جداً من شراء بيرة العشاء جهاراً، ودور علوي وغرفة طعام.

تجري الألعاب في البار العام فقط، لهذا يمكنك التنقل في البارات الأخرى باستمرار من دون أن تضطر إلى المراوغة لتحاشي الأسهم الطائرة.

في **القمر تحت الماء** الجو هادئ تماماً من أجل الحديث. الحانة ليس فيها راديو أو بيانو وحتى في مساء عيد الميلاد ومثله من مناسبات الغناء الذي يحدث فيها من النوع المحتشم.

النادلات يعرفن أغلب الزبائن بالاسم، ويهتممن بشكل شخصي بكل واحد منهم. كلهن في وسط أعمارهن - اثنتان منهن صبغتا شعرهما بظلال مدهشة - وتخاطبن كل واحد بـ'عزيزي'، بغض النظر عن عمره أو جنسه. 'عزيزي' وليس 'ساحري': في الحانات التي تخاطبك ساقياته بـ'ساحري' جوها فاسق وغير مقبول دائماً.

خلافاً للحانات، تبيع القمر تحت الماء التبغ والسجائر أيضاً، وتبيع كذلك الأسبرين والطوابع وتسمح لك باستعمال الهاتف.

لا يمكنك الحصول على وجبة عشاء في القمر تحت الماء، لكن هناك دائماً طاولة للوجبات الخفيفة، تحصل فيها على شطائر نقانق الكبد وبلح البحر (علامة مميزة للحانة) والجبن والمخلل وبسكويت كبير فيه بذور الكراوي التي لا توجد إلا في الحانات كما يبدو.

في الطابق العلوي ولستة أيام في الأسبوع، يمكنك تناول وجبة غداء جيدة صلبة - مثلاً، قطعة من اللحم ونوعان من الخضار ولفة من المربى المسلوق - مقابل ثلاثة شلنات.

المتعة المميزة لهذه الوجبة، أنك تستطيع شرب جعة قوية معها. أشك إن كانت ١٠ بالمائة من حانات لندن تقدم الجعة القوية الداكنة، لكن القمر تحت الماء واحدة منهن. إنها نوع غير مسكر وله قشدة من الجعة القوية، وتكون أحسن في القدور القصديرية.

هم متفردون بأواني الشرب في القمر تحت الماء، ولم يخطئوا أبداً ويقدموا باينت من الجعة في قدح بلا قبضة مثلاً. عدا عن الأباريق الزجاجية والقصديرية، لديهم بعض الأباريق السائغة من الخزف الوردي الفراولي التي قلما تراها الآن في لندن. لقد بطلت الأباريق الخزفية منذ ثلاثين سنة تقريباً، لأن أغلب الناس يحبون أن يكون شرابهم شفافاً، لكن برأيي طعم البيرة من إبريق خزفي أفضل.

المفاجأة الكبرى للقمر تحت الماء هي حديقتها. تجتاز ممراً ضيقاً يقودك من البهو، لتجد نفسك في حديقة كبيرة نوعاً ما مع أشجار الدلب، تحتها طاولات خضراء مع مقاعد حديدية حولها. في إحدى أطراف الحديقة هناك مراجيح وأنبوب منحدر للأطفال.

في مساءات الصيف تقام حفلات عائلية، تجلس تحت أشجار الدلب تتناول الجعة أو شراب عصير التفاح على أنغام صيحات مبتهجة لأطفال يهبطون في الأنبوب المائل. عربات لأطفال مع الأطفال الأصغر عمراً يُركنون قرب البوابة.

فضائل القمر تحت الماء كثيرة، أعتقد أن حديقتها أفضل ميزاتها، لأنها تسمح لكل العائلات بالذهاب إلى هناك بدلاً من اضطرار الأم إلى البقاء في البيت وتحمل إزعاج الطفل بينما يخرج الأب لوحده.

رغم عدم السماح بتواجد الأطفال إلا في الحديقة فقط، إلا أنهم يحبون التسرب إلى داخل الحانة وإحضار الشراب لوالديهم حتى. أعتقد أن هذا ضد القانون، لكنه قانون جدير بأن يخرق بسبب الهراء المتزمت في إقصاء الأطفال والنساء بدرجة ما من الحانات، وبهذا تُحول هذه الأماكن إلى مجرد دكاكين سكر، بدلاً من أماكن للتجمعات العائلية، وهو ما يجب أن تكون عليه.

القمر تحت الماء، هي الشكل المثالي للحانة بالنسبة إلي - في كافة المقاييس في منطقة لندن. (المواصفات التي يتوقع المرء أن يجدها في حانة ريفية مختلفة قليلاً).

لكن الآن حان الوقت لكشف شيء ربما خمنه القارئ الفطن والمتحرر من الوهم مسبقاً. ليس هناك وجود لمكان مثل القمر تحت الماء. هذا يعني ربما هناك حانة بهذا الاسم، لكنني لا أعرفها ولا أعرف حتى أية حانة بتلك التركيبة من الصفات. أعرف حانات فيها الجعة جيدة، لكنك لا تستطيع تناول وجبة طعام فيها، وأخرى يمكنك تناول وجبة طعام، لكنها صاخبة ومكتظة، وغيرها هادئة لكن الجعة فيها مرة. بالنسبة إلى الحدائق بارتجال أتذكر ثلاث حانات فقط في لندن فيها حدائق.

لكن للإنصاف أعرف بضع حانات تصل إلى مستوى القمر تحت الماء تقريباً. لقد ذكرت آنفاً عشر صفات للحانة المثالية، وأعرف إحدى الحانات فيها ثمان صفات، لكن لا توجد فيها جعة قوية داكنة أو أباريق خزفية.

وإن كان أي أحد يعرف حانة تقدم الجعة القوية الداكنة وفيها مواقد مفتوحة ووجبات طعام رخيصة وحديقة ونادلات حنونات وبلا راديو، يسرني السماع بها، حتى لو كان اسمها غير شعري مثل الأسد الأحمر أو أسلحة الخطوط الحديدية.

ذكريات مكتبة

حين عملت في مكتبة للكتب المستعملة - لو لم أعمل في واحدة لتصورتها بهذه السهولة فردوساً يتصفح فيه السادة المحترمون المتقدمون في العمر دائماً أغلفة المخطوطات الجلدية - كان الشيء الذي أدهشني بشكل أساسي ندرة الناس المولعين بشكل حقيقي بالكتب. يوجد في مكتبتنا مخزون ممتع على نحو استثنائي، لكنني أشك إن كان عشرة بالمائة من زبائننا يعرفون الكتاب الجيد من الرديء. كان المتكبرون الذين يبحثون عن الطبعة الأولى أكثر شيوعاً من عشاق الأدب، والطلاب الشرقيون الذين يساومون على الكتيبات المدرسية الرخيصة أكثر شيوعاً منهم، لكن النساء ذوات الرغبات المبهمة الباحثات عن هدايا الميلاد لأبناء أخوتهن وأخواتهن كن الأكثر شيوعاً من الجميع.

الكثير من الأشخاص الذين جاؤوا إلينا من النوع الذي يكون إزعاجاً في أي مكان، وفي المكتبة لديهم فرص مميزة. هناك مثلاً السيدة العجوز المحبوبة التي "تريد كتاباً لمعتل (طلب شائع جداً) والسيدة العجوز المحبوبة الأخرى التي قرأت ذلك الكتاب الجميل في ١٨٧٩ وتتساءل إن كانت تستطيع إيجاد نسخة منه، ولسوء الحظ هي لا تتذكر العنوان أو اسم المؤلف أو موضوع الكتاب، لكنها تتذكر جيداً أن غلافه أحمر. لكن بمعزل عن هؤلاء، هناك نموذجان مشهوران من الأشخاص البغيضين الذين يترددون كثيراً إلى كل مكتبات الكتب المستخدمة. النموذج الأول الشخص الفاسد الذي تفوح منه رائحة كسر الخبز القديمة، والذي يأتي كل يوم وعدة مرات في اليوم أحياناً ويحاول أن يبيعك كتباً لا قيمة لها. أما النموذج الآخر، فهو الشخص الذي يطلب كميات كبيرة من الكتب التي ليس لديه أقل نية لدفع ثمنها. في مكتبتنا لا نبيع شيئاً بالدين، لكننا نضع الكتب جانباً أو نطلبها في حالة الضرورة لأشخاص رتبوا ليأخذوها لاحقاً. نصف الأشخاص الذين كانوا يطلبون كتباً منا لم يعودوا أبداً، وكان ذلك يحيرني في البداية. ما الذي يجعلهم يفعلون ذلك؟ كانوا يدخلون ويطلبون كتباً نادرة وثمينة، ويحملوننا على التعهد مراراً أن نحجزها لهم، ومن ثم

يغيبون ولا يرجعون أبداً. لكن كثيراً منهم طبعاً كانوا من المصابين بجنون العظمة بشكل واضح. كانوا يتحدثون عن أنفسهم بطريقة تتكلف العظمة، ويروون أحذق القصص ليعللوا كيف حدث وخرجوا من البيت دون نقود - قصص في حالات كثيرة أنا متأكد أنهم صدقوها. في مدينة مثل لندن، يوجد هناك وفرة من المجانين غير المثبتين تماماً يمشون في الشوارع وينجذبون إلى المكتبات، لأن المكتبة أحد الأمكنة القليلة التي تستطيع أن تتسكع فيها لوقت طويل دون إنفاق أي مال. في النهاية يستطيع المرء معرفة هؤلاء الأشخاص من نظرة واحدة، لأن كل حديثهم الكثير فيه شيء باطل ولا معنى له. في أحوال كثيرة حين كنا نتعامل مع أشخاص مصابين بجنون العظمة، كنا نضع الكتب جانباً التي يطلبونها ثم نعيدها إلى الرفوف في اللحظة التي يرحلون فيها. لا أحد منهم كما لاحظت، حاول أن يأخذ الكتب من دون أن يدفع ثمنها أبداً؛ فقد كان يكتفي بالطلب - وهذا يعطيهم الوهم أنهم كانوا ينفقون نقوداً حقيقية كما أفترض.

مثل أغلب المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة، لدينا خطوط إضافية أخرى. كنا نبيع الآلات الكاتبة مثلاً والطوابع أيضاً أقصد الطوابع المستعملة. جامعو الطوابع أشخاص غريبون صامتون من سلالة شبيهة بالسمك ومن كل الأعمار، لكنهم من جنس الذكور فقط؛ النساء على ما يبدو، فشلن برؤية السحر المميز للصق قطع صغيرة من الورق الملون في ألبومات. كنا نبيع أيضاً خرائط نجوم رخيصة لقراءة الطالع، جمعها شخص زعمَ أنه تنبأ بزلازل اليابان. كانت في مغلفات ملصقة، لم أفتح أي واحد منها بنفسي أبداً، لكن الناس الذين اشتروها كانوا يعودون دائماً تقريباً ويخبروننا كم كانت "صحيحة" خرائطهم. (لا شك أن أية خريطة نجمية لقراءة الطالع تبدو صحيحة إن أخبرتك بأنك جذاب جداً للجنس الآخر وأسوأ نواقصك هو الكرم). لقد ربحنا الكثير من كتب الأطفال بشكل رئيسي "الكتب الراكدة". كتب حديثة للأطفال، أشياء رهيبة تماماً خصوصاً حين تراها بالجملة. شخصياً كنت سأعطي طفلاً نسخة من بيترنيوس الحكم بدلاً من بيتر بان، لكن حتى باري يبدو رجولياً ومفيداً مقارنة مع بعض من مقلديه اللاحقين. في موعد عيد الميلاد نمضي عشرة أيام محمومة نتصارع فيها مع بطاقات عيد الميلاد والتقاويم الممل بيعها، لكنها

رابحة طيلة فترة الموسم. كانت تمتعني رؤية الكلبية الوحشية التي تُستغل فيها العاطفة المسيحية. كان مروجو السلع من شركات بطاقات أعياد الميلاد يأتون بكاتلوجاتهم مبكرين منذ يونيو حزيران، وقد التصقت عبارة من إحدى فواتيرهم في ذاكرتي: دزينتان من يسوع الرضيع مع الأرانب.

لكن الخط الجانبي الرئيسي كان مكتبة الإعارة - مكتبة "بنسان من دون وديعة" وفيها خمسمائة أو ستمائة مجلد كلها من القصص. كم يحب لصوص الكتب تلك المكتبات! إنها الجريمة الأسهل في العالم أن تستعير كتاباً من إحدى المكتبات ببنسين، ثم تزيل عنه اللصاقة وتبيعه في مكتبة أخرى بشلن. مع ذلك يجد بائعو الكتب عموماً أنه من المجزي لهم أن يتحملوا عدداً محدداً من الكتب المسروقة (كنا نفقد دزينة تقريباً كل أسبوع) بدلاً من إرعاب الزبائن بطلب وديعة.

تقع مكتبتنا على الحد الفاصل بين هامبستيد وكامدون تاون بالضبط، ويتردد علينا كل النماذج من البارونات إلى محصلي الحافلات. ربما كان المشتركون في مكتبتنا مقطعاً جيداً مرضياً من جمهور لندن القارئ. لذلك من الجدير بالملاحظة أن من كل المؤلفين في مكتبتنا هل كان من المؤلفين المفضلين بريستلي؟ همنغواي؟ وال بول؟ ودهاوس؟ كلا لقد كانوا ابثل أم ديل أولاً، ثم ورويك ديبينغ ثانياً، وجيفري فارنول ثالثاً. تُقرأ روايات ديل من قبل النساء فقط طبعاً، نساء من كل الأنواع والأعمار وليس كما يتوقع المرء مجرد عوانس كئيبات وزوجات بائعي التبغ البدينات. ليس صحيحا أن الرجال لا يقرأون الروايات، لكنهم يتجنبون فروعاً كاملة من القصص. الكلام عما يمكن تسميته بالرواية المتوسطة العادية والرديئة الجيدة مثل أعمال غلاسورثي، والأعمال الخفيفة التي هي معيار للرواية الإنكليزية - يبدو أنه غير موجود إلا لدى النساء فقط، أما الرجال فيقرأون إما الروايات التي يمكن احترامها أو القصص البوليسية، لكن استهلاكهم للقصص البوليسية هائل ومروع. كل واحد من أربعة مشتركين حسب معرفتي يقرأ أربع أو خمس قصص بوليسية كل أسبوع لأكثر من سنة واحدة، بالإضافة إلى قصص أخرى يحصل عليها من مكتبة أخرى. ما أدهشني بشكل رئيسي أنه لم يقرأ أبداً نفس الكتاب مرتين. من الواضح أن مجمل ذلك

السيل الجارف المخيف من القمامة (الصفحات التي تُقرأ كل سنة تغطي ثلاثة أرباع أكر من الأرض كما حسبتها) كانت تخزن في ذاكرته إلى الأبد. لم يكن يهتم بالعناوين أو أسماء المؤلفين، لكنه يستطيع أن يقول بمجرد النظر إلى كتاب إن كان قد امتلكه مسبقاً. في مكتبة الإعارة ترى أذواق الناس الحقيقة وليس الأذواق الزائفة. والشيء الذي يلفت نظرك كيف خرج الروائيون الإنكليز"الكلاسيكيون" من دائرة التفضيل والاستحسان. من العبث الصريح وضع ديكنز وثاكري وجين أوستن وترولوب..إلخ في قائمة الإعارة العادية؛ فلا أحد يستعير كتبهم. الناس بمجرد النظر إلى رواية من القرن التاسع عشر يقولون "أوه، لكن تلك قديمة!" وينفر بعيداً فوراً. مع ذلك كان سهلاً دائماً بيع أعمال ديكنز كما هو سهل دائماً بيع أعمال شكسبير. ديكنز أحد المؤلفين الذين يعزم الناس على قراءتهم دائماً وهو معروف على نطاق واسع في مجال الكتب المستعملة مثل الكتاب المقدس. الناس يعرفون من السمع من الآخرين أن بيل سايكس كان لصاً، وأن السيد ميكاوبر له رأس أصلع، كما يعرفون من السمع من آخرين أن موسيس وُجد في سلة من البردي ورأى اللورد "الأعضاء الخلفية". الشيء الآخر اللافت جداً تزايد لاشعبية الكتب الأمريكية. وشيء آخر - أن الناشرين كانوا منزعجين من هذا في السنتين أو الثلاث هذه - لاشعبية القصص القصيرة. يقول الشخص الذي يسأل أمين المكتبة ليساعده على اختيار كتاب له دائماً تقريباً "أنا لا أريد قصصا قصيرة" أو "أنا لا أرغب في قصص صغيرة" كما كان يصيغها زبون ألماني. لو سألته لماذا يعلل ذلك أحياناً بالقول إن الاعتياد على طاقم جديد من الشخصيات في كل قصة متعب جداً؛ وأنه يحب أن "يدخل" في رواية لا تتطلب تفكيراً أكثر بعد الفصل الأول. لكنني أعتقد أن اللوم الأكبر هنا يقع على الكتاب أكثر من القراء. إن أغلب القصص القصيرة الإنكليزية والأمريكية الحديثة لا حياة فيها ولا قيمة تماماً بشكل أكثر من أغلب الروايات. إن القصص القصيرة هي قصص لها شعبية كافية، انظر إلى دي اتش لورانس، تجد أن قصصه القصيرة مشهورة ولها شعبية مثل رواياته.

هل أنا راغب بأن أكون بائع كتب كمهنة؟ في المجمل - رغم اللطف الذي يبديه صاحب العمل لي وبعض الأيام السعيدة التي قضيتها في المكتبة - كلا.

بتوفر المكان الجيد والمقدار المناسب من رأس المال، ينبغي على كل شخص متعلم أن يكون قادراً على جني رزق مضمون صغير من مكتبة. إن لم يشتغل الشخص في كتب "نادرة" وهي مهنة تعلمها ليس صعباً وتبدأ بميزة كبيرة جداً، إذا كنت تعرف أي شيء بما في داخل الكتب. (أغلب باعة الكتب لا يفعلون. يمكنك تقييمهم بإلقاء نظرة سريعة على الصحف التجارية التي يعلنون فيها عن حاجاتهم. إذا لم تر إعلاناً لكتاب بوزويل **الانحدار والسقوط**، فكن متأكداً بأنك سترى واحداً لكتاب تي إس ايليوت **المطحنة على الجدول**) كما أنها مهنة إنسانية أيضاً يصعب تحويلها إلى مهنة مبتذلة أكثر من نقطة محددة. اتحادات الشركات لا تستطيع أبداً أن تخرج بائع الكتب المستقل الصغير من الوجود بالقوة كما أُزيح البقال وبائع الحليب. لكن ساعات العمل طويلة جداً - كنت مستخدماً بدوام جزئي، لكن صاحب العمل يعمل سبعين ساعة أسبوعياً عدا عن بعثات دائمة إلى الخارج تمتد لساعات من أجل شراء الكتب - وهي حياة غير صحية. كقاعدة المكتبة باردة بشكل مرعب في الشتاء، لأنك إن دفأتها كثيراً سيغطي الضباب والغشاوة واجهات المكتبة، وبائع الكتب يعيش على الواجهات، والكتب تقذف غباراً أكثر وأخطر من أي صنف آخر من الأشياء التي اخترعت إلى الآن، وقمة الكتاب هي المكان الذي تفضل أي ذبابة زرقاء الموت فيها.

لكن السبب الحقيقي لماذا ألا أحب أن أكون في تجارة الكتب طيلة حياتي، لأنني فقدت حبي للكتب فيها. يجبر بائع الكتب على الكذب حول الكتب وذلك يسبب له نفوراً منها، والأسوأ من ذلك حقيقة أنه دائماً ينفض عنها الغبار وينقلها ذهاباً وإياباً. كان هناك زمن أحببت فيه الكتب حقيقة - أحببت منظر ورائحة وملمس الكتب، أقصد إن كانت قديمة في عمر الخمسين سنة أو أكثر على الأقل. لا شيء يسرني أكثر من تأمين صفقة رابحة في شراء عمل واحد من بين الكثير لقاء شلن في مزاد ريفي. هناك نكهة مميزة حول الكتب البالية غير المتوقعة التي تنتقيها في ذلك النوع من المجموعات: شعراء القرن الثامن عشر الثانويين ومجلات الإعلانات القديمة ومجلدات غريبة لروايات منسية، وأعداد متواصلة من مجلات السيدات في فترة الستينات. للقراءة العرضية - في حمامك مثلاً أو في وقت متأخر من الليل حين تكون متعبا جداً للذهاب إلى السرير أو في ربع الساعة الزائد قبل الغداء -

لاشيء يضاهي عدداً سابقاً من صحيفة الفتيات الخاصة. لكن حين ذهبت للعمل في المكتبة توقفت عن شراء الكتب. حين تراها بالجملة خمسة آلاف أو عشرة في المرة الواحدة، تكون الكتب مملة ومقززة للنفس حتى. في الوقت الحالي أشتري كتاباً بين الفينة والأخرى فقط، إن كان كتاباً أريد أن أقرأه ولا أستطيع استعارته ولا اشتري أبداً الكتب البالية. لم تعد تجذبني رائحة الورق الفاسد، فهي تترافق في ذهني مع الزبائن المصابين بجنون العظمة والذباب الأزرق الميت.

بقع متعة

منذ عدة شهور، قصصت بعض فقرات من مجلة لماعة كتبتها صحفية أنثى، تصف فيها منتجع المتعة في المستقبل. لقد أمضيت بعض الوقت مؤخراً في هونولولو؛ حيث لا تبدو صعوبات الحرب بارزة جداً. لكن "ربان طائرة النقل... أخبرني أنه مع كل القدرة الابتكارية والإبداعية التي تراكمت في هذه الحرب، من المؤسف أن أحداً لم يكتشف كيف يمكن للإنسان المتعطش للحياة دائماً والذي يعاني من الضجر، أن يسترخي ويستريح ويلعب البوكر ويشرب ويعاشر دفعة واحدة وعلى مدار الساعة، ويخرج بشعور جيد ونضر، ويكون جاهزاً للمهمة مرة أخرى". ذكّرها هذا بمقاول قابلته مؤخراً، كان يخطط لـ "بقعة متعة يعتقد أنها ستشتهر وتغدو شعبية غداً، كما فعلت سباقات الكلاب وقاعات الرقص في الأمس". وُصف حلم ذلك المقاول ببعض من التفصيل:

صوّر مخططه فسحة تغطي بضعة أكرات تحت سلسلة من الأسقف المنزلقة، لأن الطقس البريطاني غير جدير بالثقة، وفسحة مركزية امتدت فوقها أرضية رقص ضخمة مصنوعة من البلاستيك الشفاف، يمكن إنارتها من الأسفل. حولها تجمعت فسح وظيفية أخرى في مستويات مختلفة. مشارب ومطاعم، وشرفات تطل على مناظر مرتفعة لأسطح المدينة، ونسخ مطابقة في المستوى الأرضي. صف من حارات لعبة القناني الخشبية. بحيرتان زرقاوان: واحدة تحرك دورياً بالأمواج للسباحين الأقوياء، وأخرى بركة هادئة سلسلة وصيفية لمستحمي التسلية واللهو. مصابيح بضوء الشمس فوق البركتين، تحاكي أوج الصيف في الأيام التي لا تفتح فيها الأسقف، لتكشف عن الشمس الحارة في سماء صاحية. صفوف من الأسرة، يستطيع الناس الذين يلبسون النظارات الشمسية وسراويل السباحة الاستلقاء عليها، والشروع في التعرض للشمس، أو يعمقون اسمراراً موجوداً تحت مصباح أشعة شمسية.

الموسيقى ترشح عبر مئات من المشابك المتصلة بمسرح توزيع مركزي، حيث تعزف فرق رقص أو أوركسترا سيمفونية، أو يمكن التقاط برامج الراديو وتضخيمها وبثها. في الخارج، موقفان للسيارات يتسع كل واحد إلى ١٠٠٠ سيارة، واحد مجاني، والآخر سبنما في الهواء

الطلق، يشاهدها الناس وهم في سياراتهم، سيارات تصطف في أرتال لتتحرك عبر أبواب دوارة. والفيلم يعرض على شاشة عملاقة بمواجهة صف السيارات المجتمعة. خدم ذكور بزي رسمي يتفحصون السيارات، ويقدمون مساعدة مجانية وماء، ويبيعون البنزين والزيت. فتيات في سراويل فضفاضة من الساتين الأبيض، يأخذن طلبات المأكولات والمشروبات للمقصف ويحضرنها على أطباق.

كلما سمع المرء بعبارات مثل "بقعة متعة" و"منتجع متعة" و"مدينة متعة"، من الصعب ألا يتذكر الأبيات الافتتاحية لقصيدة كولريدج "قبلة خان".

في زانداو أصدرت قبلة خان مرسوماً ملكياً لقبة متعة: حيث يجري النهر المقدس ألف عبر كهوف لا حد لها بالنسبة إلى الإنسان، وأدنى من أي بحر مظلم. عشرة أميال من الأرض الخصبة تحيط بها أسوار وأبراج من الخارج: وهناك جنان تتألق فيها جداول متموجة وتزهر فيها أشجار كثيرة تحمل عبق البخور، وهناك غابات قديمة كالتلال، تلف بقعاً مشمسة من الخضرة.

لكن يتضح أن كولريدج فهمها بشكل خاطئ تماماً. هو يطلق ملاحظة زائفة بذلك الحديث عن الأنهار "المقدسة" و"الكهوف" التي لا قرار لها. في أيدي المقاول المذكور آنفاً سيكون مشروع قبلة خان شيئاً مختلفاً تماماً. الكهوف الكبيرة المكيفة بالهواء والمضاءة بمهارة، والتي دفن داخلها الصخري الأصلي تحت طبقات من البلاستيك الملون بشكل أنيق، ستتحول إلى سلسلة من كهوف الشاي على النموذج المغربي أو القوقازي أو الهاواياني. ألف، النهر المقدس سوف يحجز بسد لصنع برك سباحة مدفأة اصطناعياً، بينما ينار البحر المظلم بأضواء كهربائية وردية من الأسفل، وسوف يطوف المرء فوقه في جندولات فينيسية حقيقية كل واحدة منها مزودة بجهاز راديو خاص به. الغابات و"بقع الخضرة" التي أشار إليها كولريدج، سوف تزال لتفسح الطريق لملاعب تنس مغطاة بسقوف زجاجية ومنصة للجوقة الموسيقية وحلبة للتزلج، وربما ملعب للتنس. باختصار، سيكون هناك كل شيء يتمناه الإنسان "المتعطش للحياة".

أنا لا أشك أن التخطيط يجري الآن في كل أرجاء العالم لمئات من منتجعات المتعة، مشابهة لتلك التي وصفت أعلاه، وربما يجري تشييدها حتى. من غير المحتمل أن يُنظر إليها بأنها ستكون أحداثاً عالمية منجزة – لكنها تمثل بأمانة كافية فكرة الرجل العصري عن المتعة. شيء من هذا النوع تم تحقيقه مسبقاً جزئياً في قاعات الرقص الرائعة، وفي قصور السينما والفنادق

والمطاعم وبواخر الترف. في رحلة بحرية أو في لايونز كورنر هاوس، ينال المرء مسبقاً أكثر من لمحة عن هذا الفردوس المستقبلي. تحليله وصفاته الرئيسية المميزة هي التالية:

١ - إن المرء ليس وحيداً أبداً.

٢ - لا يساعد المرء نفسه أبداً.

٣ - لا يرى المرء ضمن مشهد من حياة نباتية برية أو أشياء طبيعية من أي نوع.

٤ - ينظم الضوء والحرارة بشكل اصطناعي دائماً.

٥ - لا يكون المرء خارج صوت الموسيقى أبداً.

الموسيقى، وإن أمكن، يجب أن تكون نفس الموسيقى لكل شخص - المكون الأهم. وظيفتها منع التفكير والمحادثة وطرد الصوت الطبيعي كأغاني الطيور أو صفير الريح مثلاً الذي قد يدخل عنوة. الراديو استخدم عمداً مسبقاً لهذا الغرض، من قبل أناس لا يعدون. في بيوت إنكليزية كثيرة، لا يُطفأ الراديو حرفياً، رغم التلاعب به من حين إلى آخر، ليؤكدوا أن الموسيقى الخفيفة هي الوحيدة التي ترشح منه. أعرف أناساً يتركون الراديو مشتغلاً خلال كل الوجبات، وبنفس الوقت يتحدثون بصوت عالٍ جداً لكي يطغى على الموسيقى. يتم هذا بغرض محدد. الموسيقى تمنع المحادثة من أن تكون جدية أو حتى مترابطة منطقياً، بينما ثرثرة الأصوات تمنع المرء من الاستماع بانتباه إلى الموسيقى، وبهذا تمنع هجوم ذلك الشيء المفزع، التفكير. لأن الموسيقى الخفيفة يجب ألا تزول أبداً./ الموسيقى يجب أن تظل تعزف دائماً،/ كي لا نرى أين نحن،/ نائهون في غابة مسحورة،/ الأطفال يخافون الظلام / الذين لم يكونوا أبداً سعداء أو سليمين.

من الصعب ألا تشعر بأن الهدف غير المقصود في أغلب منتجعات المتعة الحديثة، هو عودة إلى الرحم. فهناك أيضاً لم يكن المرء وحيداً أبداً، ولم ير ضوء النهار ودرجة الحرارة المنظمة، والمرء غير مجبر على القلق حول العمل أو الغذاء، وأفكار المرء إن كانت هناك، تُغرق بخفقان متواتر مستمر.

حين ينظر المرء إلى تصور كولريدج المختلف لـ"قبة المتعة"، يرى أنها تدور جزئياً حول البساتين، وجزئياً حول الكهوف والأنهار والغابات والجبال مع "صدوع رومانتيكية عميقة"؛ باختصار حول ما يسمى بالطبيعة. لكن فكرة الإعجاب بالطبيعة في مجملها والشعور بنوع من

الرهبة الدينية في حضرة الأنهار الجليدية والصحاري والشلالات، مرتبط بالإحساس بضآلة الإنسان وضعفه ضد قدرة الكون. القمر جميل جزئياً، لأننا لا نستطيع الوصول إليه (بحر كاذب مثير للإعجاب)، لأن المرء لا يستطيع أن يطمئن أبداً من عبوره بأمان. حتى المتعة التي يأخذها المرء في زهرة - وهذا صحيح حتى لعالم النبات الذي يعرف كل ما يجب معرفته هناك عن الزهرة - يعتمد على الإحساس بالغموض جزئياً. لكن في الوقت الحالي، تزداد سلطة الإنسان على الطبيعة بشكل مضطرد. بمساعدة القنبلة الذرية، يمكننا تحريك الجبال حرفياً: نستطيع حتى، كما قيل، أن نغير مناخ الأرض بإذابة جليد القبتين القطبيتين وريّ الصحارى. لذلك أليس هناك شيء وجداني وغامض في تفضيل شدو الطيور على موسيقى التأرجح، وفي الرغبة بترك بقع قليلة من الأرض البور هنا وهناك، بدلاً من تغطية كل سطح الأرض بشبكة من الطرق السريعة (أوتوبان) التي يغمرها ضوء شمس اصطناعي؟

السؤال يطرح فقط لأن الإنسان لم يبذل أية محاولة لاستكشاف نفسه في استكشافه للكون المادي. إن الكثير مما يندرج ضمن إطار ما يعرف باسم المتعة، هو مجرد محاولة لتدمير الوعي. لو بدأ المرء في السؤال ما هو الإنسان؟ ما هي احتياجاته؟ كيف يستطيع التعبير عن نفسه بأفضل شكل؟ لاكتشف المرء أنه مجرد تملك القدرة على تجنب العمل والعيش من المولد حتى الممات على ضوء كهربائي وأنغام الموسيقى المعلبة، ليس مبرراً لفعل هذا. يحتاج المرء إلى الدفء والمجتمع ووقت الفراغ والراحة والأمان: ويحتاج أيضاً إلى العزلة والعمل الإبداعي والإحساس بالتعجب والدهشة. لو أدرك هذا، لاستطاع استخدام منتجات العلم والصناعة بشكل انتقائي مطبقاً نفس الاختبار دائماً: هل هذا يزيد من آدميتي أم يقللها؟ ولتعلم أن السعادة الأسمى لا تكمن في الاسترخاء والراحة ولعب البوكر وشرب الخمور وممارسة الجنس في وقت واحد. والرعب الغريزي الذي يحسه كل الأشخاص الحساسين نحو المكننة المتقدمة للحياة، لن يرى مجرد لفظة عاطفية مهجورة، وإنما كشيء مبرر تماماً. لن يبقى الكائن البشري إنساناً إلا بالحفاظ على بقع واسعة من البساطة في الحياة، أما الميل والنزوع إلى الكثير من الاختراعات الحديثة وخصوصاً الفيلم والراديو والطائرة - هي لإضعاف وعيه وتبليد فضوله، وبشكل عام لدفعه بشكل أقرب إلى الحيوانات.

كتب مقابل السجائر

قبل ستين كان لي صديق، محرر صحيفة، كان يراقب الحرائق مع بعض من عمال المصنع الذين بدأوا بالحديث عن صحيفته التي يقرأها أغلبهم ويستحسنوها. وحين سألهم عن رأيهم بالقسم الأدبي، كان الجواب الذي حصل عليه: أنت لا تتخيل أننا نقرأ هذا الهراء، أليس كذلك؟ لماذا تتحدثون نصف الوقت عن كتب كلفتها اثنا عشر شلناً ونصف! فتيان مثلنا لا يمكنهم صرف اثني عشر شلناً ونصف على كتاب. وقال: "هؤلاء رجال لا يفكرون في صرف جنيهات كثيرة من أجل نزهة يوم إلى بلاكبول".

الفكرة بأن شراء الكتب أو حتى قراءتها، هواية مكلفة وأبعد من منال الشخص العادي واسعة الانتشار لدرجة تحتاج إلى بعض الفحص المفصل. ماذا تكلف القراءة بالضبط بحساب بنس في الساعة، صعب تقديره، لكني بدأت بقائمة جرد لكتبي، وأضفت إليها السعر الإجمالي. بعد الإقرار بنفقات أخرى منوعة، يمكنني أن أقدم تخميناً جيداً لإنفاقي خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة.

الكتب التي أحصيتها وقدرت ثمنها، هي الكتب التي أملكها هنا في شقتي. لدي عدد مماثل تقريباً مخزن في مكان آخر، لذلك سأضاعف الرقم النهائي، لكي أصل إلى المقدار الكامل. لم أحسب الزوائد كالنسخ التجريبية والمجلدات المشوهة والطبعات الرخيصة ذات الأغلفة الورقية والكراريس أو المجلات، إلا إن كانت مجمعة على شكل كتاب. لم أحص أبداً أنواع الكتب المستعملة المدرسية القديمة وهلم جرا - التي تكدست في قاع الخزانة. لقد أحصيت تلك الكتب التي اقتنيتها طوعاً، والتي أنوي الاحتفاظ بها. في هذا الصنف، وجدت بأنه لدي ٤٤٢ كتاباً، حصلت عليها بالطرق التالية:

اشتريت ٢٥١ كتاباً (أغلبها مستخدمة) - أُعطيت لي أو اشتريتها ببطاقات شراء كتب ٣٣. نسخ مراجعات ونسخ مجانية ١٤٣ .استعارة مؤقتة ٥. - المجموع العام ٤٤٢.

أما بالنسبة إلى طريقة التسعير. تلك الكتب التي أدرجتها كانت بسعرها الكامل بأدق صورة استطعت تحديدها. أدرجت أيضاً الكتب التي أعطيت لي بسعرها الكامل، وتلك التي

استعرتها مؤقتاً أو استعرتها واحتفظت بها. هذا لأن إعطاء الكتب واستعارة الكتب وسرقة الكتب سويت أيضاً. أملك كتباً لا تخصني بشكل صريح وصارم، لكن الكثير من الناس الآخرين لديهم كتب لي: لهذا، فالكتب التي لم أدفع ثمنها، يمكن اعتبارها موازنة للأخرى التي دفعت ثمنها، لكنها لم تعد في حوزتي. من جانب آخر، أدرجت نسخ مراجعات ونسخاً مجانية بنصف الثمن. ذلك ما كنت سأدفعه تقريباً ثمناً لها كنسخ مستعملة، وهي في الغالب الكتب التي كنت سأشتريها نسخاً مستعملة لو حدث ذلك. بالنسبة إلى الأسعار التي وضعتها، اعتمدت أحياناً على الحدس، لكن أرقامي ليست بعيدة. كانت الكلفات على الشكل التالي:

(شراء:٣٦ جنيهاً و٩ شلنات؛ هدايا ١٠جنيهات و١٠ شلنات، نسخ مراجعات إلخ ٢٥ جنياً و١٢ شلناً؛ مستعارة لم ترجع ٤ جنيهات و١٧ شلناً؛ استعارة مؤقتة ٣ جنيهات و١٠ شلنات؛ رفوف ٢ جنيه؛ المجموع الإجمالي ٨٢ جنيهاً و١٨ شلناً).

بإضافة كميات الكتب الأخرى التي أملكها في مكان آخر، يبدو أنني أمتلك ٩٠٠ كتاب تقريباً بكلفة تقريبية تقدر بـ ١٥٦ جنيهاً. هذا ما كدسته في خمسة عشر عاماً – فعلياً أكثر بما أن بعض من هذه الكتب يعود تاريخها إلى طفولتي: لكن لنقل خمسة عشر عاماً. هذا يعني ١١ جنيهاً في السنة، لكن هناك نفقات أخرى يجب إضافتها لكي أقدر نفقات قراءتي الكاملة. أكبرها سيكون للصحف والدوريات، وأعتقد أن ٨ جنيهات في السنة رقم معقول. ثمانية جنيهات في السنة تغطي صحيفتين يوميتين وصحيفة مسائية وصحيفتين من صحف الأحد ومراجعة أسبوعية أو مجلتين شهريتين. هذا يرفع الرقم إلى ١٩ جنيهاً، لكن للوصول إلى الرقم الإجمالي الكلي، يجب على المرء أن يخمن. من الواضح أن المرء ينفق المال على كتب من دون أن يحوز على شيء يتباهى به لقاءها. هناك اشتراكات المكتبات، وهناك أيضاً الكتب من طبعات بنغوان الرخيصة وغيرها التي يشتريها المرء ثم يضيعها أو يرميها. لكن على أساس أرقامي يبدو أن ٦ جنيهات تكون كافية لنفقات من هذا النوع. لهذا، فإن نفقات القراءة الإجمالية في الخمس عشرة سنة الماضية، وصلت إلى حدود ٢٥ جنيهاً تقريباً في السنة الواحدة.

إن مبلغ خمسة وعشرين جنيهاً سنوياً يبدو كبيراً إلى أن تقيسه مع أنواع أخرى من النفقات. إنه يعني تسعة شلنات و٩ بنسات في الأسبوع تقريباً. المساوي لـ ٨٣ سيجارة (بليارز): حتى

قبل الحرب كان يمكن شراء ٢٠٠ سيجارة بأقل من ذلك المبلغ. بالأسعار الحالية، أنا أنفق على التبغ أكثر مما أنفقه على الكتب بكثير. أنا أدخن ست أونسات من التبغ أسبوعياً بنصف كراون للأونسة أي ٤٢ جنيهاً في السنة. حتى قبل الحرب، حين كان نفس التبغ يكلف ٨ بنسات للأونسة، كنت أنفق أكثر من عشرة جنيهات عليه في السنة: وإذا أضفت عليه بمعدل باينت واحد من البيرة يومياً بقيمة نصف شلن، تكلفني هاتان المادتان ما يقارب ٢٠ جنيهاً في السنة. هذا ليس فوق المعدل الوطني بكثير. في عام ١٩٣٨ أنفق الفرد من سكان هذه البلاد ١٠ جنيهات على الكحول والتبغ سنوياً: لكن ٢٠ بالمائة منهم يحسمون لأنهم من الأطفال دون الخامسة عشرة و٤٠ بالمائة من النساء، لهذا فإن المدخن وشارب الكحول المتوسط ينفق أكثر من عشرة جنيهات بكثير. في عام ١٩٤٤ كان الإنفاق السنوي للفرد الواحد على هاتين المادتين لا يقل عن ٢٣ جنيهاً. نترك النساء والأطفال كما فعلنا آنفاً، ويصبح ما ينفقه الفرد ٤٠ جنيهاً. بمعدل أربعين جنيهاً في السنة يمكن شراء علبة سجائر ودباينز يومياً ونصف باينت من المشروب المعتدل ستة مرات في الأسبوع - حصة ليست كبيرة. طبعاً، الآن تضخمت الأسعار كلها بما فيها أسعار الكتب: لكن يظهر أن كلفة القراءة حتى لو اشتريت الكتب بدلاً من استعارتها، واشتريت عدداً معتدلاً من الدوريات، فلن يصل ذلك إلى أكثر من الكلفة الموحدة للدخان والشراب.

من الصعب تأسيس وتوطيد أية علاقة بين أسعار الكتب والقيمة التي ينالها المرء منها. الكتب تشمل الروايات والشعر والكتب المدرسية والمراجع والبحوث الاجتماعية والكثير غيرها، ولا يتطابق الطول والسعر مع بعضهما، خصوصاً إن كان المرء معتاداً على شراء الكتب المستعملة. يمكنك إنفاق عشرة شلنات على قصيدة من ٥٠٠ بيت، ويمكن إنفاق نصف شلن على معجم ترجع إليه في أوقات عرضية لمدة عشرين سنة. هناك كتب يقرأها المرء مرة تلو أخرى، كتب تصبح جزءاً من أثاث المرء الذهني، وتبدل موقفه من الحياة برمتها، كتب يغرق المرء فيها دون أن يكمل قراءتها أبداً، كتب يقرأها المرء في جلسة واحدة وينساها بعد أسبوع: والتكلفة بمقياس النقود، قد تكون نفسها في كل الحالات. لكن إذا نظر المرء إلى القراءة على أنها مجرد هواية مثل الذهاب إلى السينما، عندئذ يمكنه أن يجري تقديراً متفاوتاً لما تكلفه. إن لم تقرأ سوى الروايات "الخفيفة" واشتريت كل كتاب قرأته، ستنفق حصة قدرها ثمانية شلنات

كثمن لكتاب واحد وأربع ساعات من الوقت في قراءته - شلنان للساعة. هذا ما يعادل تقريباً كلفة الجلوس في واحد من المقاعد الأغلى في السينما. إذا ركزت على كتب أكثر جدية، واشتريت كل ما تقرأ، تكون نفقاتك نفسها تقريباً. ستكلف الكتب أكثر، لكن قراءتها تحتاج إلى وقت أطول. في كلتا الحالتين تظل تمتلك الكتب بعد أن تقرأها، وتظل قابلة للبيع بثلث سعر شرائها. لو اشتريت كتباً مستعملة فقط، تكون نفقات قراءتك أقل بكثير طبعاً: ربما نصف شلن في الساعة يكون تقديراً عادلاً. ومن جانب آخر، إن لم تشتر الكتب وإنما استعرتها فقط من مكتبة إعارة، ستكلفك القراءة نصف بنس في الساعة: إن استعرتها من مكتبة عامة، لا تكلفك أي شيء تقريباً.

لقد قلت ما يكفي بأن القراءة واحدة من أرخص الهوايات: بعد الاستماع إلى المذياع ربما هي الأرخص. في الوقت الحالي، ما هو المبلغ السنوي الذي يصرفه الشعب البريطاني على الكتب؟ لا أستطيع كشف أي رقم، لكنها موجودة من دون شك. لكني أعرف أنه قبل الحرب، كانت هذه البلاد تطبع سنوياً حوالي ١٥ ألف كتاب، ويشمل الطبعات المعادة والكتب المدرسية. لو بيع من كل كتاب ١٠ آلاف نسخة مع إهمال الكتب المدرسية، يكون هذا تقديراً عالياً - الشخص المتوسط سيشتري بشكل مباشر أو غير مباشر ثلاثة كتب فقط في السنة. تبلغ كلفة الكتب الثلاث جنيهاً واحدا أو حتى أقل من ذلك.

هذه الأرقام تخمينية، ويهمني كما ينبغي لو أن أحداً صححها لي. لكن إن كان تخميني قريباً من الصحيح، فلن يكون تدويناً مشرفاً لبلاد تبلغ نسبة المتعلمين فيها ١٠٠ بالمائة تقريباً، والإنسان العادي فيها ينفق على السجائر أكثر مما يصرف الفلاح الهندي على كل معيشته. إن ظل استهلاكنا للكتب متدنياً كما هو عليه، دعونا نعترف على الأقل أن القراءة هواية أقل إثارة من الذهاب إلى المقهى أو السينما أو الحانة، وليس لأن الكتب المشتراة والمعارة على السواء غالية ومكلفة جداً.

كلمة طيبة
بحق راعي أبرشية براي

منذ بضع سنوات أخذني صديق إلى كنيسة بيركشاير الصغيرة، التي كان راعي أبرشية براي الشهير يشغل المنصب فيها. (في الحقيقة هي تبعد بضعة أميال عن براي، لكن ربما كانت مهنة القس ومهنة راعي الأبرشية التابعة للكنيسة واحدة). في فناء الكنيسة انتصبت شجرة طقوس رائعة (فصيلة من الصنوبريات) التي زرعها راعي أبرشية براي نفسه، ولا أحد سواه حسب ما جاء في ملاحظة مكتوبة عند جذعها، وهذا لفت انتباهي آنذاك كشيء غريب أن يترك رجل مثله مثل ذلك الأثر الطيب خلفه.

لا يمكن وصف راعي أبرشية براي كشخصية باهرة، رغم أنه مجهز جيداً ليكون كاتباً بارزاً في صحيفة التايمز. ومع ذلك، وبعد مرور هذا الوقت، كل ما بقي منه أغنية هزلية وشجرة جميلة رأتها عيون الأجيال واحداً بعد الآخر. وبالتأكيد رجحت وعوضت عن الآثار السيئة التي نتجت عن خيانته السياسية لوطنه.

إن ثيباو آخر ملك لبورما، أبعد ما يكون عن وصفه بالرجل الطيب، فقد كان سكيراً ولديه خمسمائة زوجة – يبدو أنه احتفظ بهن للعرض أساساً، وحين وصل إلى العرش، كان عمله الأول قطع رؤوس سبعين أو ثمانين من أخوته، لكنه قدم للذرية صفقة جيدة بزرع شوارع ماندالي القذرة بأشجار التمر الهندي التي كانت تلقي ظلاً مبهجاً، إلى أن حرقتها القنابل اليابانية الحارقة عام ١٩٤٢.

يبدو أن الشاعر جيمس شيرلي عمم بتصرف كبير حين قال "إن الأعمال المشروعة والصحيحة فقط التي تصدر رائحة حلوة وتزهر في ترابها". أحياناً تصبح الأفعال الجائرة عملاً جيداً ومتقناً بعد مرور فترة من الوقت. حين رأيت شجرة راعي أبرشية براي، ذكرتني بشيء ما. وبعد ذلك حصلت على كتاب فيه مختارات شعرية لجون أوبري، فأعدت قراءة قصيدة رعوية يفترض أنها كُتبت في وقت ما في القرن السابع عشر، بقلم امرأة تدعى السيدة أوفراول.

كانت السيدة أوفراول زوجة كاهن كبير عميد، وكانت تخونه بشكل واسع، وعلى ذمة أوبري هي "لم تستطع أن ترفض أي واحد إلا نادراً" وكان لها "أجمل عينين عُرفتا، لكنها فاسقة رائعة". القصيدة بعنوان ("الراعي العاشق") عن شخص يدعى السير جون سيلبي، وتبدأ كالتالي:

على الأرض يستلقي الراعي العاشق

رزيناً جداً ومحتشماً

تواقاً لومسته ثانية

مع رأسه على رابية استند

وذراعاه متوضعتان على خصره

وكل ذلك بسبب خسارته

هاي نوني نوني، نو

حلوة كانت ولطيفة

كالحب الذي قيد العاشق إلى الأبد

لن ينعم رجل أبداً

بمثل هذا الحب اللذيذ مرة أخرى.

أطلق ألف امرأة في صف

أنا أحرم أن أي عرض

يكون مثلها أبداً

هاي نوني نوني نو.

وتتابع القصيدة عبر ستة أبيات أخرى، وتأخذ اللازمة هاي نوني نوني نو معنى فاحشاً بجلاء، لكنها تنتهي بستانزا (مقطع شعري) رائعة:

لكل من وطيء السهل مرة

مهما حدث لها من مصائب

لا تلوموا الراعي العاشق

لماذا؟ لأنها كانت عدوة نفسها

وأعطت نفسها للهلاك

لكونها صريحة جداً في

هاي نوني نوني نو

لم تكن السيدة أوفراول شخصية أنموذجية أكثر من راعي أبرشية براي، لكنها كانت جذابة أكثر. في النهاية كل ما بقي منها قصيدة لاتزال تعطي المتعة لكثير من الناس، رغم أنها لسبب ما لم تدخل في المقتطفات الأدبية المختارة. العذاب الذي سببته والتعاسة والعبث في حياتها الخاصة الذي يفترض أن ينتهي، تحول إلى نوع من أريج باقٍ مثل رائحة نبتة التبغ في مساء صيفي.

لكن لنعد إلى الأشجار. إن غرس شجرة، خصوصاً واحدة من الأشجار المعمرة القاسية، هبة تستطيع أن تقدمها لذرية بدون تكلفة وعناء تقريباً. وإذا تجذرت الشجرة، فسوف تعمر أكثر بكثير من الأثر المنظور لأي من الأعمال الأخرى سواء كانت خيرة أم شريرة. قبل سنة أو اثنتين من الآن، كتبت بضع فقرات في التريبيون عن بعض من الزهور المتعرشة الرخيصة بنصف شلن من وولويرث، كنت زرعتها قبل الحرب، وجلب لي هذا رسالة ناقمة من قارئ قال إن الزهور برجوازية، لكني أعتقد أن نصف شلني قد صرف بطريقة أفضل من أن يذهب على السكائر، أو حتى على واحدة من كراريس البحث الفابية الرائعة.

مؤخراً أمضيت يوماً في كوخ كنت أعيش فيه، ولاحظت بدهشة وسرور - لأكون دقيقاً شعرت بأنني قمت بعمل جيد بشكل لاشعوري - تقدم الأشياء التي زرعتها قبل عشر سنوات تقريباً، وأظن أن تسجيل تكلفة بعضها جدير بالتدوين، لأبين فقط ماذا تستطيع فعله بشلنات قليلة إن استثمرتها في شيء ينمو.

أولاً، كانت هناك الوردتان المتعرشتان من وولويرث وثلاثة من زهور النرجس بسعر نصف شلن للواحدة. ثم تلت ذلك شجرتان من الزهور كانتا قسماً من مجموعة في حديقة دار حضانة. تألفت المجموعة من ستة من أشجار الفاكهة، وثلاث شجيرات من الزهور،

وشجيرتان من عنب الثعلب، وكلها بعشرة شلنات. ماتت واحدة من أشجار الفاكهة وواحدة من شجيرات الزهور، لكن البقية أزهرت كلها. العدد الإجمالي خمس أشجار فاكهة وسبع زهور واثنان عنب الثعلب، كلها باثني عشر شلناً ونصف. هذه النبتات لا تتطلب عملاً كثيراً، ولم أصرف شيئاً عليها فوق المبلغ الأصلي. لم تتلق أي سماد، ماعدا ما كنت أجمعه بسطل أحياناً حين يقف أحد خيول المزرعة خارج البوابة.

في تسع سنوات يفترض بشجيرات الورد السبعة أن تعطي ما يزيد عن مائة أو مائة وخمسين شهراً من الإزهار. أشجار الفاكهة التي كانت مجرد شجيرات صغيرة حين غرستها، نمت بسرعة وبشكل جيد جداً. الأسبوع الماضي كانت شجرة خوخ كتلة من البراعم، وبدت شجرة التفاح واعدة وتنمو بشكل رائع. إن شجرة تفاح كوكس أورانج بيبين التي اعتبرت الضعيفة في العائلة أصلاً والتي لم تكن مشمولة في صفقة الجملة لو كانت نبتة جيدة، نمت وأصبحت شجرة قوية وعليها الكثير من أغصان الفاكهة. أصر على القول إن زرع شجرة كوكس عملاً خيرياً لأن هذه الأشجار لا تثمر بسرعة، ولم أتوقع لها أن تدوم طويلاً هناك. لم أحصل على تفاحة واحدة منها، لكن يبدو أن أحداً آخر سينال تفاحاً كثيراً منها. من ثمارهم ستعرفونهم، وشجرة أورانج كوكس بيبين معروفة بفاكهتها الجيدة. أنا لم أغرسها بقصد مدرك لفعل شيء جيد لأحد ما، ولكني رأيت أن صفقة الجملة رخيصة، وثبت الأشياء في داخل الأرض بدون الكثير من الإعداد.

الشيء الذي أندم عليه وسأحاول علاجه يوماً ما، هو أنني لم أغرس شجرة جوز واحدة في حياتي. لا أحد يغرسها اليوم – حين ترى شجرة جوز فهي شجرة قديمة بشكل دائم تقريباً. إن زرعت شجرة جوز، فأنت تزرعها لأحفادك، ومن يهتم بأحفاده البتة؟ وكذلك لا أحد يزرع السفرجل أو التوت أو شجرة الورد. لكن هذه أشجار حدائق لا تتوقع أن تغرسها، إلا إذا كنت تملك رقعة من الأرض لك ملكك. من جانب آخر في أية قطعة ضخمة من الأرض البور يصدف أن تكون ماشياً عبرها، يمكنك أن تعمل شيئاً لعلاج المذبحة المرعبة للأشجار وخصوصاً أشجار السنديان والبلوط والدردار والمران التي حدثت خلال سني الحرب.

يمكن لشجرة التفاح أن تعيش مائة عام تقريباً، لذلك شجرة كوكس التي غرستها في عام ١٩٣٦ ربما تظل تحمل ثماراً حتى القرن الواحد والعشرين، وشجرة سنديان أو المران قد تعيش لمئات السنين وتكون متعة لآلاف أو عشرات آلاف الأشخاص قبل أن تتحول إلى حطب أخيراً. أنا لا أقول إن المرء يستطيع التحرر من كل التزاماته تجاه المجتمع بواسطة خطة لإعادة التشجير الشخصي، لكن يمكن ألا تكون فكرة رديئة لو أنك كلما ارتكبت عملاً عدائياً للمجتمع، سجلت ملاحظة في مفكرتك، وفي الموسم الملائم زرعت جوزة بلوط في الأرض.

وحتى لو وصلت إلى سن الرشد في واحد وعشرين منها، فستكون قد فعلت الكثير من الضرر في حياتك كلها، ومع ذلك يمكنك أن تموت كمحسن شعبي مثل راعي أبرشية براي بعد كل شيء.

ساعتهم الأجمل والأصفى،
بقلم ونستون اس تشرشل

يصعب على رجل الدولة الذي لايزال له مستقبل سياسي، الكشف عن كل ما يعرفه: وفي مهنة يكون فيها طفلاً رضيعاً في الخمسين من عمره ومتوسط العمر في الخامسة والسبعين، من الطبيعي أن أي شخص لم يلحق به العار فعلياً أن يشعر أنه لازال لديه مستقبل. كتاب مثل مذكرات كيانو سيانو مثلاً، لم يكن ينشر لو أن مؤلفه بقي في وضع جيد. لكن من المناسب لونستون تشرشل أن يقول إن الذكريات السياسية التي ينشرها من حين إلى آخر، كانت فوق المعدل بكثير دائماً في صراحتها ونوعيتها الأدبية. تشرشل من بين أشياء أخرى، صحفي ولديه إحساس حقيقي بالأدب إن لم يكن مميزاً جداً، ولديه أيضاً عقل قلق باحث ومتسائل يهتم بالوقائع الملموسة وفي تحليل الدوافع التي تشمل دافعه الخاصة به أحياناً. على العموم كتابات تشرشل هي كتابات لكائن بشري عادي أكثر منها لشخصية عامة. يحتوي كتابه الحالي طبعاً على مقاطع لها مظهر الفرار من خطاب انتخابي، ولكنه يظهر أيضاً رغبة طوعية كبيرة للاعتراف بالأخطاء.

هذا المجلد، الثاني في السلسلة، يغطي الفترة بين بداية الهجوم الألماني على فرنسا ونهاية عام ١٩٤٠. لذلك أحداثه الرئيسية، انهيار فرنسا والهجمات الجوية على بريطانيا، وازدياد تورط الولايات المتحدة في الحرب، وتسارع حرب الغواصات، وبداية الصراع الطويل في شمال أفريقيا.

الكتاب موثق بشكل مكثف وكبير، مع مقتطفات من خطابات أو رسائل في كل خطوة. وعلى الرغم من هذا، فإنه يؤدي إلى قدر كبير من التكرار، لكنه يُمكّن من المقارنة بين ما قيل في ذلك الوقت وما حدث فعلياً. كما يعترف هو بنفسه، قلل تشرشل من قيمة نتيجة التغييرات الأخيرة وأثرها في تكنيك الحرب، لكنه تفاعل بسرعة حين اندلعت العاصفة في عام ١٩٤٠. تمثل إنجازه الكبير بأنه أدرك في ذاك الوقت أن فرنسا ستُهزم وأن بريطانيا لن تُهزم، رغم كل

المظاهر، وهذا الحكم الأخير لم يكن مبيناً على مجرد النزعة القتالية، وإنما على تفحص عاقل للوضع. كانت الطريقة الوحيدة التي تمكن ألمانيا من الفوز بالحرب بسرعة، هي إلحاق الهزيمة بالجزر البريطانية. ولكي يدحروا الجزر البريطانية، يجب أن يصلوا إليها، مما يعني السيطرة على القنال والتحكم بها. لذلك رفض تشرشل بشكل ثابت الرمي بكل القوى الجوية البريطانية في معركة فرنسا. كان قراراً مؤلماً ومزعجاً، وسبب الكثير من المرارة في ذاك الوقت، وربما أضعف موقع رينود ضد الانهزاميين في الحكومة الفرنسية، لكنه كان قراراً صحيحاً من الناحية الاستراتيجية. حُفظت الأسراب الخمسة والعشرون التي لا يمكن الاستغناء عنها في بريطانيا وهُزم الغزو المهدد. قبل انتهاء السنة، تراجع الخطر الذي يهدد بشكل كاف نقل المدافع والدبابات والرجال من بريطانيا إلى الجبهة المصرية، لكن ظل بمقدور الألمان هزيمة بريطانيا بالغواصات أو بالقصف كما تخيلوا، لكن ذلك يستغرق سنيناً كثيرة. وفي غضون ذلك كان مؤكداً أن الحرب ستمتد وتنتشر.

عرف تشرشل طبعاً أن الولايات المتحدة ستدخل الحرب عاجلاً أو آجلاً، لم يتوقع، لكنه في هذه المرحلة كما يبدو أن يصل جيش أمريكي مؤلف من ملايين الرجال إلى أوروبا أخيراً. لقد تنبأ حتى في عام ١٩٤٠ أن الألمان ربما يهاجمون روسيا، وحسب بشكل صحيح أن فرانكو لن يدخل الحرب إلى جانب المحور، مهما كانت وعوده التي أطلقها. ورأى أيضاً أهمية تسليح اليهود الفلسطينيين وإثارة تمرد وعصيان في إثيوبيا. حين ضلت أحكامه وأخطأت، كان ذلك بشكل أساسي بسبب كرهه غير المميز والأعمى "للبلشفية" والميل الناتج في تجاهل الفروق السياسية، فقد كشف حين قال: إنه حين أرسل السير ستانفورد كريبس كسفير إلى موسكو، لم يدرك أن الشيوعيين يكرهون الاشتراكيين أكثر مما يكرهون المحافظين. لم يدرك أي توري بريطاني هذه الحقيقة البسيطة، إلا بعد مجيء الحكومة العمالية في عام ١٩٤٥ والفشل في فعل ذلك مسؤول جزئياً عن السياسة البريطانية في الحرب الأهلية الإسبانية. إن موقف تشرشل من موسوليني رغم أنه لم يؤثر على مسار الأحداث على الأرجح، كان مؤسساً على تقدير وحساب خاطئ. في الماضي أعجب به واعتبره "حصناً ضد البلشفية"، وانتسب إلى المدرسة التي صدقت أنها تستطيع سحب إيطاليا وإخراجها من المحور بواسطة الرشى، وقال أيضاً إنه لم يتشاجر مع موسيليني أبداً حول قضية كقضية إثيوبيا.

حين دخلت إيطاليا الحرب، لم يعبر تشرشل عن صدمته بقوة، ولو أدرك التوريون البريطانيون قبل عشر سنوات أن الفاشية ليست نسخة أخرى من المحافظين وأنها بطبيعتها ستكون معادية لبريطانيا، لكان الوضع أفضل بكثير.

يدور واحد من أمتع الفصول في كتابه "ساعتهم الأجمل والأصفى" حول تبديل المدمرات الأمريكية بقواعد عسكرية في جزر الهند الغربية البريطانية. وتشكل الرسائل التي تبادلها تشرشل وروزفلت نوعاً من التعليق على السياسة الديمقراطية. عرف روزفلت أن من مصلحة أمريكا أن تمتلك بريطانيا المدمرات، وعرف تشرشل أيضاً أن امتلاك الولايات المتحدة للقواعد لن يكون خسارة لبريطانيا، وإنما على العكس من ذلك. مع ذلك وبمعزل عن الصعوبات القانونية والدستورية، كان من المستحيل تسليم السفن بدون مساومة. كان على روزفلت - الذي كانت الانتخابات أمامه وعينه على الانعزاليين - التظاهر بأنه يخوض مساومة صعبة، وكان عليه أيضاً أن يطالب بتعهد بألا يُسلم الأسطول البريطاني تحت أي ظرف كان للألمان. طبعاً كان فرض هذا الشرط خالياً من المعنى. إذ من المؤكد أن تشرشل لن يسلم الأسطول البريطاني: لكن من جانب آخر، إن نجح الألمان في اجتياح بريطانيا، سينصبون حكومة دمى لن يكون تشرشل مسؤولاً عن أفعالها، لذلك كان عاجزاً عن إعطاء تعهد قوي وثابت كما طلب منه واستطالت المساومة والصفقة بسبب ذلك. كان الحل السريع، تعهد وضمان من الشعب البريطاني كله وبالأخص أطقم السفن. لكن الغريب جداً كان تحاشي تشرشل من نشر الوقائع للعموم، فمن الخطر الكبير أن يكشف كم كانت بريطانيا قريبة من الهزيمة - ربما هذه كانت المناسبة الوحيدة التي قلل فيها من تقديره للمعنويات الشعبية.

ينتهي الكتاب في شتاء عام ١٩٤٠ المظلم حين عوضت انتصارات غير متوقعة في الصحراء مع حمولات كبيرة من الأسرى الطليان عن قصف لندن وإغراق السفن المتزايد في البحر. حين يقرأ المرء، يتنقل الفكر ذهاباً وإياباً بشكل لا يمكن تجنبه:

"إلى أي مدى كان تشرشل حراً في الكلام؟" إن الأهمية الرئيسية للمذكرات، محكومة بأن تأتي لاحقاً، حين يخبرنا تشرشل (إن قرر أن يخبرنا) ماذا حدث فعلياً في طهران ويالطا، وإن

كانت السياسات التي تم تبنيها هناك، كانت تلك التي استحسنها ووافق عليها، أم أنها كانت السياسات التي فرضها عليه روزفلت بالقوة. لكن بأي حال، فإن نغمة هذا المجلد والمجلد السابق توحي أنه سيخبرنا من الحقيقة أكثر مما كشف عنه حتى الآن، حين يأتي الوقت المناسب.

إن كان عام ١٩٤٠ الساعة الأجمل لأي أحد آخر أم لا، فمن المؤكد أنه كان لتشرشل. مهما اختلف معه المرء ومهما كان سعيداً وشاكراً لأنه وحزبه لم يفوزا بالانتخابات عام ١٩٤٥ يجب على المرء أن يعجب به، ليس في شجاعته فقط وإنما في الإسهاب المؤكد واللطف الذي ظهر من مذكرات رسمية من هذا النموذج الأقل شخصنة بكثير من كتاب حياتي المبكرة. رفض الشعب البريطاني عموماً سياساته، لكنه كان يكن له الحب دائماً كما يمكن للمرء أن يراه من نغمة القصص التي تدور حوله والتي رويت خلال جل حياته. كانت هذه القصص مشكوكاً في صحتها غالباً، ولم تكن مطبوعة أحياناً، لكن حقيقة تداولها له أهمية ومغزى. في زمن إخلاء دونكيرك مثلاً، حين أدلى تشرشل بخطابه القتالي، سرت إشاعات أن ما قاله عند تسجيل الخطاب للإذاعة كان "سوف نقاتل على الشواطئ وسوف نقاتل في الشوارع.... و..و.....هذا كل ما تُرك لنا". لكن طبعاً، المراقب العامل في البي بي سي الممسك، ضغط على المفتاح بإبهامه في اللحظة المناسبة. قد يفترض المرء أن هذه القصة غير حقيقية، لكن في ذلك الوقت شعر الناس بأنها ينبغي أن تكون صحيحة. كانت تقديراً مناسباً من الناس العاديين إلى الرجل العجوز الصلب والهزلي الذي لم يقبلوا به قائداً في وقت السلم، لكنهم شعروا أنه هو من يمثلهم بالذات في وقت الكارثة.

كتبت في ٩ أبريل/ نيسان ١٩٤٩؛ نيوليدر (نيويورك)،١٤ مايو/ أيار ١٩٤٩.

سياسة التجويع

تلقيت حزمة أوراق أدبية من لجنة "أنقذوا أوروبا الآن" منذ بضعة أيام، التي حاولت - بلا تشجيع كبير من الحكومة أو مساعدة من الصحافة - أن تزيد تزويد أوروبا بالغذاء. اقتبست سلسلة تصريحات من مصادر رسمية سأعود إليها بعد قليل، تبين منها أننا أغنياء باعتدال، وأن الولايات المتحدة تستمتع في عربدة من التخمة، بينما الجزء الأكبر من أوروبا يسقط في مجاعة بهيمية. في عدد الأوبزيرفر الصادر ١٣ يناير، قرأت مقالة موقعة لقائد القوى الجوية الماريشال السير فيليب جوبرت يعبر عن الرأي المناقض:

في هذا الشتاء السابع من الحرب (يكتب السير فيليب) يبدو مظهر الشعب البريطاني لواحد عائد من وراء البحار مأساوياً، فالكآبة تبدو على وجوه الناس وينقصهم النشاط ولا تراهم يضحكون إلا نادراً. ترى الأطفال شاحبين وبدينين، لكن بنيتهم غير سليمة، فهم مرضى مقارنة مع أطفال الدانمارك المتوردة وجناتهم، والذين لديهم كل اللحم والدهن الذي يحتاجونه مع وفرة من الفاكهة في أوانها.

إن المعنى الرئيسي لرسالته، أننا بحاجة إلى كميات أكثر اللحوم والدهون والبيض أي الكثير من الغذاء الخاضع لنظام الحصص - ونشويات أقل. تبين الأرقام الرسمية في الحقيقة أننا أفضل صحة مما كنا عليه قبل أن تنقل الحرب انطباعاً خادعاً: أولاً - هذه حجة غريبة تماماً لأن الصحة والتغذية باعتراف الجميع كانتا في طريق سيئ قبل الحرب، لهذا إن التحسن الحالي لا شيء ليكتب عنه؛ ثانياً إن الهبوط في معدل الوفيات لا يعني سوى "مدة أطول في البقاء" ويجب ألا "نخلط بين البقاء والحياة". إذا لم نستطع أن نحصل على "الحيوية والنشاط والقوة" التي يتضمنها اللحم والدهن وقصب السكر، فلن نستطيع تقديم المجهود المحتاج لواجب إعادة البناء. ينهي السير فيليب مقالته:

بالنسبة إلى هؤلاء الذين سيقللون حصصنا الحالية ليعطوا أكثر للألمان، يفترض أن هناك الكثيرين الذين سيردون عليهم: "أتمنى أن يكبر أطفالي ويتربوا في الحرية والود تجاه الناس

عاجلاً، ويجب أن يتمتعوا بطاقة تامة أكثر من الألمان الذين قد يستخدمون قوتهم لشن حرب أخرى في جيل آخر".

يتبين أنه يفترض (أ) أن أي تصدير أكثر للغذاء يعني نقصاً في الحصص هنا، و(ب) أن المطلوب إرسال الغذاء إلى ألمانيا فقط. وفي الحقيقة هذا هو شكل المشروع كما سمعه الجمهور الكبير، رغم أن هؤلاء المسؤولين أكدوا منذ البداية أنهم لا يطالبون إلا بتنازل طوعي عن مواد غذائية معينة من قطاعات سكانية لن تتضرر من هذا، ولم يطلبوها من أجل فائدة ألمانيا فقط.

هذه بعض الحقائق من أحدث نشرة أصدرتها لجنة "أنقذوا أوروبا الآن". في بودابست في شهر تشرين ثاني/ نوفمبر: لقد أغلقت الصيدليات أبوابها بسبب نقص الموارد، ولا يوجد في المستشفيات نوافذ أو وقود أو أدوية تخدير. لقد أحصي عدد الأطفال المشردين بـ ٣٠٠٠٠ طفل ومنهم من نظموا أنفسهم في عصابات إجرامية. في ديسمبر/ كانون أول قال "مراقبون مستقلون" سيموت مليون شخص من الجوع في هنغاريا هذا الشتاء، إذا لم تجلب مؤن غذائية بسرعة. في فيينا (نوفمبر) "يتكون طعام الجراحين في المستشفيات من القهوة غير المحلاة وحساء رقيق وخبز، يعني أقل من ٥٠٠ كالوري كلها". وصرح وزير الخارجية النمساوي في ديسمبر أن المناطق السكنية المزدحمة في شرق النمسا مهددة "ببؤس لا حدود له والأوبئة والجريمة والانحدار البدني والأخلاقي". في نوفمبر/تشرين الثاني ناشد وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا كلاً من بريطانية والولايات المتحدة كي ترسلا السمن واللحم لإنقاذ ٧٠٠٠٠٠ "طفل يعانون من سوء التغذية و٥٠٪ منهم مصابون بالسل الرئوي مسبقاً". في ألمانيا أطفال منطقة السار "يموتون ببطء من الجوع". في المنطقة البريطانية، قال الفيلد مارشال مونتغمري إنه "سيعتمد كلياً على المستوردات من القمح إن كان سيحافظ على معدلات الحصة الغذائية الحالية للشعب الألماني التي تتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ كالوري". هذا كان في نوفمبر تشرين ثاني. في الوقت نفسه، خطب الجنرال آيزنهاور من المنطقة الفرنسية وقال "إن الحصة العادية ١١٠٠ كالوري باليوم للمستهلك المتوسط، ولم تلبَّ بشكل دائم وثابت" وهلم جرا. خلال ذلك الوقت يتراوح معدل استهلاكنا بين ٢٨٠٠ إلى ٢٩٠٠ كالوري باليوم، وكانت أغلب الأرقام الحديثة عن الوفيات بسبب مرض السل، ووفيات الأمهات في الولادات، ووفيات الأطفال من كل الأعمار حتى الخامسة هي الأدنى

التي سجلت في أي وقت. بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ارتفع كثيراً استهلاك الزبدة، وألغت توزيع اللحم بالحصص. قدر وزير الزراعة أن "رفع نظام الحصص الغذائية، سيجعل اللحم متوفراً للمدنيين بمعدل ١٦٥ باونداً سنوياً - كان الإمداد قبل الحرب حوالي ١٢٥ باونداً".

حتى لو كانت هذه الأرقام لا تنقل فكرة كافية، فمن لم ير صور الأطفال الهياكل العظمية في اليونان وأماكن أخرى - أطفال لم يفكر أحد بتطبيق مصطلح فيليب جويبرت "شحميون، بدينون"؟ مع ذلك هناك مقاومة كبيرة بلا شك لفكرة إرسال غذاء أكثر إلى أوروبا. تسعى لجنة "أنقذوا أوروبا الآن" الآن إلى أهداف محدودة، فقد اقترحت أن يضحي هؤلاء الذين يميلون إلى التضحية بنقاطهم أو بعض من نقاطهم، وأن تقدم الحكومة الطعام المستغنى عنه إلى المناطق التي ضربها الجوع. (حين خضع الطعام لنظام الحصص في بريطانيا، كانت السلع الأساسية توزع "بقسائم" أما سلع الرفاهية والفاكهة المعلبة واللحم المعلب، فتوزع بنظام "النقاط"). ثُبطت هذه الخطة رسمياً ولاقت قبولاً بارداً أيضاً من أشخاص كثيرين. كان الأشخاص الذين في موقع يمكنهم من ترويج الخطة للشعب، خائفين منها صراحة، وسُمح لعوام الناس أن يتخيلوا أن الاقتراح يعني أخذ الطعام من ربات البيوت البريطانيات لإعطائه إلى مجرمي الحرب الألمان. في الحقيقة كل الطريقة التي نوقشت بها المسألة، توضح الكذب الغريب الذي أصاب كل قضية سياسية في الوقت الحالي. هناك شيئان يجعلان اليسار الرسمي حزب العمال أو الشيوعيين يخافان من أية خطة تعني إرسال غذاء إضافي إلى ألمانيا. الشيء الأول، هو الخوف من ردة فعل الطبقة العاملة؛ حيث قيل إن الطبقات العاملة تستاء حتى من الترتيب الطوعي الذي يعني أن الناس في الجماعات ذات الدخول الأعلى الذين يشترون الطعام غير الخاضع للحصص ويأكلون بعضاً من لحمهم في المطاعم، يجب أن يتخلوا عن الفائض لديهم. كان الخوف من أن تجيب المرأة المتوسطة الواقفة في طابور السمك: "إن كان هناك أي طعام يمكن توفيره فعلاً، دعونا نأكله، أو لماذا لا تعطوه لعمال مناجم الفحم؟". لا أعرف إن كان هذا هو رد الفعل لو شرحت القضايا بشكل وافٍ. أشك أن بعض الناس الذين جادلوا هكذا، أن الفكرة القذرة التي في أذهانهم كانت كالتالي: إن ضحينا بكميات كافية من الطعام تشكل فرقاً، فهذا لن يعني التخلي عن النقاط فقط وإنما تقليص حصة

المطاعم. عملياً، أياً كانت نية نظام الحصص الخاص بنا غير ديمقراطي بالكامل، وكل الشجار الدائر حول موضوع تصدير الطعام، يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة، وأعتقد أن ذلك جزء من مبرر عدم مناقشة هذه المسألة بشكل وافٍ في الصحافة.

إن الغذاء سلاح سياسي أو يعتبر كسلاح سياسي. إن أشد المناطق جوعاً، إما في المنطقة الروسية، أو في الأجزاء الأوروبية المقسومة بين الاتحاد السوفيتي والحلفاء الغربيين. يرى أناس كثيرون أننا لو أرسلنا المزيد من الطعام إلى هنغاريا مثلاً، سيزداد النفوذ الأمريكي والبريطاني: بينما إن تركنا الهنغاريين يجوعون وأطعمهم الروس، فالاحتمال الأكبر أنهم سيتطلعون إلى الاتحاد السوفيتي. لذلك كل هؤلاء المحبون جداً للروس ضد إرسال الطعام، لأنهم يرونه طريقة لإضعاف المقام والهيبة الروسية. لا أحد كان صادقاً بما يكفي ليعترف بهكذا دوافع، لكن ما عليك إلا أن تتفحص قوائم الذين أيدوا والذين لم يؤيدوا حملة "أنقذوا أوروبا الآن" لترى حقيقة الأمور. حماقة كل هذه الحسابات تكمن في افتراض أنك تستطيع الحصول على نتائج جيدة من المجاعة دائماً. مهما تكن التسوية السياسية النهائية في أوروبا، فإنها ستكون أسوأ إن سبقتها سنين من الجوع والبؤس واللصوصية والجهل. نصحنا المارشال الجوي جوبيرت أن نطعم أنفسنا بدلاً من إطعام الأطفال الألمان الذين سيقاتلون ضدنا بعد جيل من الآن. هذه هي النظرة "الواقعية". في ١٩١٨ "النظرة الواقعية" كانت تفضل الإبقاء على الحصار بعد الهدنة. حافظنا على الحصار والأطفال الذين جوعناهم هم الشباب الذين يقصفوننا الآن في ١٩٤٠. ربما لا أحد يستطيع أن يتنبأ تماماً بتلك النتيجة، لكن الناس الطيبين استطاعوا التنبؤ بأن نتائج تجويع ألمانيا بشكل داعر وحيواني والسلام الانتقامي، سيكون شراً، وكذلك أيضاً مع رفع حصصنا الخاصة بنا كما سيحدث بعد وقت قصير، بينما تخيم المجاعة على أوروبا. لكن إذا قررنا أن نفعل هذا، دعوا القضايا تناقش بصراحة على الأقل، ودعوا صور الأطفال الجائعين تنشر علناً في الصحافة، لكي يدرك أهل هذه البلاد ماذا يفعلون.

التريبيون

١٨ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٦



تدرجية مأساوية

هناك نظرية لم تكتمل صياغتها بدقة، ولم تعط اسماً بعد، لكنها قبلت على نطاق واسع، ويؤتى بها كلما كان من الضروري تبرير عمل ما يتعارض مع حشمة الإنسان العادي ولياقته. يمكن تسميتها إلى أن يجدوا لها اسما أفضل، نظرية التدرجية المأساوية. حسب هذه النظرية، لم يُنجز ولن يُنجز أي شيء بدون سفك دماء وأكاذيب وخيانة وظلم. ومن جانب آخر، لا يمكن توقع أي تغيير كبير ومهم نحو الأفضل ينتج عن أعظم الاضطرابات وأشدها. إن التاريخ يستمر ويتقدم بالكوارث والمصائب، وبالضرورة سيكون كل عصر لاحق سيئاً كسابقه تقريباً. يجب على المرء ألا يعترض ضد أعمال التطهير العرقي والترحيل القسري وقوات الشرطة السرية وهلم جرا، لأن هذه هي الأثمان التي يجب أن تدفع من أجل التقدم: لكن من الجانب الآخر سترى "الطبيعة البشرية" دائماً أن التقدم بطيء أو غير مدرك بالحواس حتى. إن اعترضت على الديكتاتورية، فأنت رجعي، وإن توقعت نتائج جيدة من الديكتاتورية، فأنت عاطفي جداً.

في الوقت الحالي، تستخدم هذه النظرية كثيراً جداً لتبرير نظام حكم ستالين في جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية. ومن الواضح أنها يمكن أن تستخدم وسوف تستخدم، بسبب الظروف الملائمة لتبرير أشكال أخرى من الأنظمة الشمولية. لقد تقوت نتيجة فشل الثورة الروسية - إن الثورة الروسية فشلت في إنجاز الآمال التي أيقظتها قبل خمس وعشرين سنة. وباسم الاشتراكية، ارتكب نظام الحكم الروسي كل الجرائم تقريباً التي يمكن تخيلها، وفي الوقت نفسه ابتعد في تطوره عن الاشتراكية، إلا إذا أعاد المرء تعريف تلك الكلمة بعبارات لن يقبلها أي واحد من اشتراكيي ١٩١٧. لا يوجد أمام هؤلاء الذين يقبلون بهذه الممارسات، سوى مسارين اثنين مفتوحين. المسار الأول، إن رفض الاعتراف بالنظرية الشمولية برمتها كما فعلت قلة من المثقفين الإنكليز، كانت لديهم الشجاعة على ذلك. المسار الثاني، الانكفاء والعودة إلى التدرجية المأساوية. إن الصيغة الموظفة عادة: "لا تستطيع صنع عجة من دون أن

تكسر البيض". وإذا أجبت بنعم "فأين العجة؟" تكون الإجابة المحتملة: "أوه، حسناً، لا يمكن أن تتوقع لكل شيء أن يحدث في لحظة واحدة".

هذا الجدال يدفعك بشكل طبيعي نحو الماضي، إلى التاريخ الذي صُمم ليظهر أن كل تقدم تم إنجازه على حساب جرائم وحشية، ومن المستحيل إنجازه بطريقة أخرى. المثال المستخدم عادة هو إطاحة البرجوازية بالإقطاعية الذي يفترض به أن ينذر بإطاحة الاشتراكية بالرأسمالية في عصرنا. لقد نوقش بأن الرأسمالية كانت قوة تقدمية قديماً، ولذلك كانت جرائمها مبررة أو غير مهمة على الأقل. في عدد حديث لنيوستيتمان، نرى السيد كينغسلي مارتن يؤنب آرثر كوستلر فيها لعدم امتلاكه "نظرة تاريخية" حقيقية، حين قارن ستالين مع هنري الثامن، واعترف بأن ستالين قام بأفعال مروعة، لكنه بالمجمل خدم قضية "التقدم"، وبضع ملايين من "التصفيات" يجب ألا تسمح بحجب هذه الحقيقة. وبالمثل كانت شخصية هنري الثامن قد خلفت الكثير من المرغوب، لكنه أخيراً مكن الرأسمالية من الظهور، ولذلك بالمجمل يمكن اعتباره صديقاً للإنسانية.

الآن لا يملك هنري الثامن شبهاً قوياً جداً بستالين، أما كرومويل فيوفر شبهاً أفضل. لكن السيد مارتن منح هنري الثامن الأهمية المعطاة له. إلى أين سيؤدي هذا الجدال؟ هنري الثامن مكن الرأسمالية من الظهور، وهذا أدى إلى فظائع الثورة الصناعية، ومن ثم إلى دورة من الحروب الهائلة، كادت نتائجها أن تدمر الحضارة كلها. لهذا بمعاينة سير العملية عن قرب، بمكننا صياغة الموضوع كالآتي: "كل شيء يجب أن يُغفر لهنري الثامن، لأنه في النهاية هو من مكننا من تمزيق أنفسنا بالقنابل الذرية"، ونُقاد إلى سخافات مماثلة حين نجعل من ستالين المسؤول عن حالتنا الحالية، والمستقبل الذي يبدو أنه في انتظارنا. وفي الوقت نفسه، نصر أننا يجب أن ندعم سياساته.

أنا أعتقد أن دوافع المثقفين الإنكليز الذين أيدوا الديكتاتورية الروسية، كانت مختلفة عن تلك التي يعترفون بها في العلن، لكن من المنطقي الصفح عن الاستبداد والقتل الوحشي إن افترض المرء أن التقدم محتوم. لو اعتبرنا أن كل عصر أفضل من سابقة أمراً بديهياً، فسوف تكون كل جريمة أو حماقة تدفع بالعملية التاريخية إلى الأمام عملاً مبرراً. يُغفر للمرء تقريباً إن تصور أن تقدماً من النوع الملموس والمقاس، كان يحدث في الفترة الواقعة بين ١٧٥٠

و١٩٣٠. مؤخراً أصبح هذا أصعب فأصعب بالنسبة إلى نظرية التدرجية المأسوية. جريمة تتلو جريمة، وطبقة حاكمة تُستبدل بطبقة حاكمة أخرى، وبرج بابل يرتفع ويسقط، لكن يجب على المرء ألا يقاوم هذه العملية المستمرة - في الواقع يجب عليه أن يكون مستعداً للتصفيق واستحسان النذالة التي تحدث - لأن هذا هو التقدم بطريقة باطنية في نظر الرب أو ربما في نظر ماركس أيضاً. إن البديل سيكون (أ) أن تقف وتفكر إلى أي مدى يكون التاريخ حتمياً ومقدراً مسبقا؟ (ب) وما هو المقصود بالتقدم؟ عند هذه النقطة يجب على المرء أن يستدعي العالم الروحاني (اليوغي) كي يصحح المفوض (القوميسار).

في مقاله الذي نوقش كثيراً، أعتقد بشكل عام أن كوستلر انتقد وهجم بشدة على الروحاني. فعلياً إن سلم المرء أن الروحاني والمفوض على طرفين متعاكسين من كفة الميزان، فإن كوستلر أقرب نوعاً ما إلى المفوض. هو يؤمن بالحرب والعنف (إذا لزم) والحكومات وبالتالي في الانتقالات والتسويات التي لا يمكن فصلها عن الحكومات. لقد أيد الحرب والجبهة الشعبية قبلها، كما قاتل ضد الفاشية منذ ظهورها بأقصى قدراته، وكان عضواً في الحزب الشيوعي لسنوات كثيرة. إن الفصل الطويل في كتابه الذي انتقد فيه الاتحاد السوفيتي أبطله وأفسد ولاءه المتبقي لحزبه القديم وميله الناتج عنه إلى تأريخ كل التطورات السيئة منذ ظهور ستالين: ينبغي على المرء في اعتقادي أن يعترف بأن بذور الشر كانت منذ البداية، وأن الأشياء لم تكن ستختلف بشكل جوهري لو بقي لينين أو تروتسكي في رأس الحكم. إن كوستلر أقل من يستطيع الادعاء بأننا نستطيع أن نصحح كل شيء بالتفرج على سررنا في كاليفورنيا، ولا يستطيع أن يزعم أيضاً كما يفعل المفكرون المتدينون، أن "التغيير في القلوب" يجب أن يأتي قبل أي تحسين سياسي حقيقي. لأقتبس كلماته: لن يستطيع القديسون أو الثوريون إنقاذنا، وإنما المركب الناتج عن كليهما. لا أعرف إن كنا قادرين على إنجاز ذلك أم لا. لكن إن كانت الإجابات سلبية، فليس هناك أمل كما يبدو في منع هلاك الحضارة الأوروبية، إما بواسطة الحرب المطلقة التي سيؤججها ورثة الحروب، أو بغزو بيزنطي - خلال العقود القليلة القادمة. هذا يعني أن "تغيير القلوب" يجب أن يحدث، لكنه لن يحدث إلا إن أثمر بفعل في كل خطوة. من جانب آخر لا يستطيع أي يتغير في تركيبة المجتمع لوحده أن يحدث تحسناً حقيقياً. كانت الاشتراكية تعرف بـ "ملكية مشتركة لوسائل الإنتاج"، لكنها

الآن لا تعني أكثر من سيطرة مركزية، وأنها تمهد الطريق لشكل جديد من الأوليغاركية (حكم القلة). السيطرة المركزية شرط مسبق وضروري للاشتراكية، لكن لا ينتج عنها اشتراكية أكثر مما ستنتجه الآلة التي أكتب عليها لوحدها من هذا المقال الذي أكتبه. عبر التاريخ أدت الثورات الواحدة تلو أخرى، رغم أنها حققت بعض الارتياح المؤقت عادة كالذي يحصل عليه المريض من التقلب في السرير، إلى تغيير السادة فقط، وذلك لأنها لم تبذل جهداً جدياً لاستئصال غريزة السلطة: ولو بذل هذا الجهد لاقتصر على القديسين وحدهم ولاعبي اليوغا الذين أنقذوا أرواحهم على حساب تجاهل المجتمع. في أي حال لقد اختلط في عقول الثوار النشيطين والأشخاص الذين "يصلون إلى هناك" توقهم إلى مجتمع عادل دائماً مع نيتهم في ضمان السلطة لأنفسهم. يقول كوستلر "إننا يجب أن نتعلم تكنيك التأمل مرة أخرى الذي يظل المصدر الوحيد لتوجيه العضلات الأخلاقية؛ حيث تفشل معايير المنفعة الاجتماعية". يقصد كوستلر بـ"التأمل" "الإرادة التي لا تريد" وإخضاع الرغبة للسلطة. قادنا ويقودنا الرجال العمليون إلى حافة الهاوية، ويحثنا المثقفون الذين قبلوا بسياسة القوة التي قتلت فينا الإحساس الأخلاقي ومن بعده الإحساس بالواقع، ويحرضوننا على السير قدماً دون أن نبدل الوجهة. يصر كوستلر أن التاريخ ليس لحظات محتومة ومقدرة سلفاً أبداً، وإنما هناك نقاط انعطاف تكون الإنسانية فيها حرة لتختار الطريق الأفضل أو الأسوأ. إحدى نقاط الانعطاف (التي لم تظهر حين كتب الكتاب) هي القنبلة الذرية. إما أن نتخلى عنها، أو أنها ستدمرنا. لكن التخلي عنها جهد أخلاقي وجهد سياسي. يدعو كوستلر إلى "أخوة جديدة في مناخ روحي جديد، قادتها مربوطون بقسم الفقر بأن يشاركوا ويعيشوا حياة الجماهير، وهم ممنوعون بواسطة قوانين الأخوة من إحراز سلطة غير مقيدة". يضيف: "إن كان هذا يبدو طوباوياً، فالاشتراكية طوباوية". ربما ليست طوباوية حتى - وقد يكون اسمها بالذات في الذاكرة بعد جيلين - إذا لم نستطع النجاة من حماقة "الواقعية". لكن ذلك لن يحدث بدون تغيير في القلب الفردي. إلى ذلك المدى وليس أبعد، فإن رجل اليوغا محق بوصفه ضد المفوض.

رسالة لندن إلى بارتيزان ريفيو
٣ يناير ١٩٤١

إن البارتيزان ريفيو أكثر المجلات الأميركية اليسارية نفوذاً، بدأت بنادي جون ريد الشيوعي في نيويورك في ١٩٣٤. توقف النشر في أغلب عام ١٩٣٧ واستأنف في نهاية تلك السنة، وأصبحت أكثر أدبية، وسياسياً أكثر تروتسكية في تعاطفها. يحررها وليام فيليبس وفيليب راف منذ ١٩٣٣.

من هذا التاريخ حتى صيف ١٩٤٦ كان جورج أورويل يكتب بانتظام رسالة لبارتيزان ريفيو.

أعزائي المحررين

أكتب هذه الرسالة رداً على رسالتكم بالذات، ومن الأفضل أن أبدأ باقتباس مما قلتموه، لكي أوضح الأسئلة التي سأحاول الرد عليها. هناك أشياء لا تذكرها الأخبار، مثل ما الذي يحدث تحت السطح في السياسة؟ ما هو المزاج العام إن كان هناك شيء كهذا وسط الكتاب والفنانين؟ ما هي التحولات التي حدثت في حياتهم واهتمامهم؟

حسنا بالنسبة إلى الوضع السياسي: أعتقد أنه يصح القول إننا الآن وسط نتائج وعقابيل لن تشكل فرقاً كبيراً وحاسماً. أصاب الرعب الرجعيين الذين يقرأون التايمز في الصيف، لكنهم يقون موقفهم الآن بشق النفس ضد الأزمة الجديدة التي قد تحدث في الربيع. لقد وجد في الصيف وضع يرقى إلى مستوى الوضع الثوري في إنكلترا، لكن لم يغتنمه أحد. بعد عشرين سنة من الاقتيات على السكر والماء، أدركت الأمة فجأة ماهية حكامها، وكان هناك استعداد واسع لتغييرات اقتصادية واجتماعية كاسحة مترافقة مع تصميم مطلق على منع الغزو. الآن أعتقد أن الفرصة موجودة لعزل طبقة أصحاب الأموال وحشد جماهير الأمة خلف سياسة تجمع بين مقاومة هتلر والقضاء على الامتياز الطبقي.

ملاحظة كليمنت غرينبيرغ في هورايزون، بأن الطبقة العاملة هي الطبقة الوحيدة في إنكلترا العازمة جدياً على دحر هتلر، تبدو لي غير صحيحة أبداً. إن القسم الأعظم من

الطبقة الوسطى معادٍ لهتلر مثل الطبقة العاملة، وربما معنوياته أكثر موثوقية. حين ينظر الشيوعيون إلى المشهد الإنكليزي من الخارج خصوصاً، لا يدركون أن وطنية الطبقات الوسطى شيء يمكن الاستفادة منه. سيحول الناس الذين يقفون باستعداد ويقولون "أطال الرب عمر الملك" ولاءهم لنظام اشتراكي إن لاقوا معاملة فيه الحد الأدنى من اللباقة. على كل حال، في الصيف لم يرد أحد الفرصة، فقد سمح قادة العمل (باستثناء بيفن) لأنفسهم أن يكونوا قططاً أليفة لدى الحكومة، وحين فشل حدوث الغزو وكانت الغارات أقل رعبا مما توقعه الجميع انحسر المزاج الثوري. في الوقت الحاضر، يقوم اليمين بهجوم مضاد. دخول مارغيسون في مجلس الوزراء أقرب بديل ممكن لتشامبرلاين ونبشه من قبره. نوقش انتصار وافيل في مصر. الحملة على البحر الأبيض المتوسط لم تنته بعد، لكن الأحداث بينت بسرعة أن وقوف المحافظين ضد اليسار، كان محقاً، ويتوقع منهم أن يغتنموا ذلك. من غير المستبعد أن تحظر صحيفة أو اثنتان من الصحف اليسارية قريباً. قيل إن صحيفة ديلي ووركر بحث أمرها في مجلس الوزراء، لكن هذه الدورة في النواس غير مهمة جداً، إلا إذا صدقها الشخص كما لم أفعل أنا، وأشك أن يصدقها الكثير من الناس الذين أعمارهم دون الخمسين، أن إنكلترا تستطيع الفوز بالحرب دون أن تمر بثورة وتعود مباشرة إلى الحالة السوية في ما قبل ١٩٣٩ ومع ثلاثة ملايين عاطل عن العمل..إلخ..إلخ.

لكن في الوقت الحالي، لا توجد أية سياسة مؤثرة بين كونك وطنياً بأسلوب وطريقة "الملك والبلاد" وكونك مؤيداً لهتلر. إن وصلت موجة أخرى من المشاعر المعادية للرأسمالية، لا يمكنها إلا أن تصب في الانهزامية. وهناك إشارة صغيرة، في الوقت نفسه، عن هذا في إنكلترا، لكن الروح المعنوية أسوأ ربما في البلدات الصناعية من أي مكان آخر. في لندن، بعد أربعة أشهر من القصف الذي لم يتوقف، الروح المعنوية أفضل بكثير مما كانت عليه قبل سنة حين كانت الحرب راكدة.

الناس الوحيدون الانهزاميون بشكل علني، هم أتباع موسلي والشيوعيون والسلاميون (رافضو الحرب). مازال الشيوعيون يمتلكون موطئ قدم في المصانع وربما

منصة في وقت ما وعودة بإثارة الشكاوى والمظالم حول ساعات العمل..إلخ، لكنهم يواجهون صعوبة في جعل أتباعهم يقبلون سياسة واضحة مؤيدة لهتلر، وسيجبرون على السكوت خلال الأيام العصيبة في الصيف، كما أن تأثيرهم الجمهور العام صفر، كما يراه المرء في أصوات الانتخابات الفرعية، وانكسرت القبضة القوية التي كانت لهم في الصحافة في السنوات ١٩٣٥ - ١٩٣٩ تماماً. أما أتباع موسلي من ذوي القمصان السوداء، فلم يعد لهم وجود كمنظمة شرعية، لكنهم ربما يستحقون أن يؤخذوا بجدية أكثر من الشيوعيين، حتى ولو بسبب كون دعايتهم مقبولة أكثر للجنود والبحارة والطيارين على الأقل. لم تفز أية منظمة يسارية أبداً بموطئ قدم في القوات المسلحة. حاول الفاشيون طبعاً أن يلقوا بلوم الحرب والمشقة التي سببتها الغارات الجوية على اليهود، وخلال أسوأ قصف لإيست ايند، نجحوا في إثارة تذمر عدائي للسامية، لكنه ضعيف. لقد كان التطور الأكثر إمتاعاً للجبهة المعادية للحرب، هو تفسير الحركة السلمية بأفكار فاشية خصوصاً معاداة السامية. بعد موت ديك شيبارد، يبدو أن السلمية البريطانية عانت سقوطاً أخلاقياً؛ فلم تصدر أية إيماءة مهمة ولا حتى شهداء كثيرين وفقط خمسة عشر بالمائة من أعضاء بيس بليدج يونيون نشيطين الآن. لكن الكثير من السلميين الناجين الآن ينسجون خطاً من الخطاب، لا يتميز عن خطاب البلاكشيرتز (أوقفوا هذه الحرب اليهودية..إلخ) كما أن العضوية الفعلية لبيس بليدج يونين (اتحاد ضمان السلام) والبريتش يونيون (اتحاد للفاشيين البريطانيين بقيادة السير أوزوالد موسلي) متطابقتان إلى درجة ما. كل المنظمات المناصرة لهتلر لا يصل عدد أعضائها إلى ١٥٠ ألفاً، ومن غير المحتمل أن ينجزوا الكثير في محاولاتهم، لكنهم قد يلعبون دوراً مهماً في وقت ما، حين تفكر حكومة على شاكلة حكومة بيتان بالاستسلام. هناك مبرر ما للاعتقاد بأن هتلر لا يريد لمنظمة موسلي أن تصبح قوية جداً. اللورد هاوهاو، أكثر المذيعين الألمان باللغة الإنكليزية تأثيراً، كان عضو في الحزب النازي المنشق بشكل مؤكد مثل جويس وعدواً لدوداً وشخصياً لموسلي.

أنت تسأل عن الحياة الفكرية في إنكلترا والتيارات المتنوعة في العالم الأدبي. أعتقد أن العوامل المسيطرة هي التالية:

أ – التدمير التام للعقيدة اليسارية المعادية للفاشية في السنوات الخمس الأخيرة، بسبب المعاهدة الروسية الألمانية.

ب – حقيقة أن أغلب الناس اللائقين بدنياً دون الخامسة والثلاثين في الجيش.

ج – ازدياد في استهلاك الكتب بسبب الضجر من الحرب مع رفض الناشرين المخاطرة بالأموال على كتّاب غير معروفين.

د – القصف الذي أصبح الآن أكثر وأشد ضرراً مما تتخيل.

دفعت المعاهدة الروسية الألمانية بالستالينيين وشبه الستالينيين إلى موقف مؤيد لهتلر، لكنها أنهت لعبة "أخبرتك هكذا" التي ظل يلعبها الكتاب اليساريون لمدة خمس سنوات. إن معاداة الفاشية، كما فسرت من قبل النيوكونيكلز والنيو ستيتمان ونادي الكتاب اليسار، اعتمدت على الاعتقاد – وأعتقد على الأمل شبه المقصود أيضاً – بأنه ليس هناك أية حكومة بريطانية ستواجه هتلر وتتحداه. حين ذهبت حكومة تشامبرلاين للحرب، أخرجت الريح من أشرعة الجناح اليساري بتفعيل السياسة التي كانوا هم يطالبون بها. في الأيام القليلة التي سبقت إعلان الحرب، كانت مراقبة سلوك أفراد الجبهة الشعبية التقليديين مسلية جداً للذين كانوا يهتفون بكآبة "ستكون ميونخ أخرى"، رغم أنه كان من الواضح قبل أشهر في الواقع أن الحرب كانت حتمية. هؤلاء الناس كانوا في الحقيقة يأملون في ميونيخ أخرى تسمح لهم الاستمرار بدور كاساندرا، من دون أن يُجبروا على مواجهة حقائق الحرب الحديثة. كنت في ورطة كبيرة مؤخراً، حين نشرت أن هؤلاء الذين كانوا ألد أعداء الفاشية أثناء الفترة بين ١٩٣٥ و١٩٣٩ كانوا أكبر الانهزاميين الآن. رغم ذلك، أعتقد أن هذا صحيح بشكل واسع، ولا يقتصر على الستالينيين فقط. إنها حقيقة، أنه حالما بدأت الحرب، فإن كل النيران تلاشت من "معاداة الفاشية" التقليدية. كل الهراء حول الأعمال الوحشية الفاشية واتهامات تشامبرلاين..إلخ، التي كان من المستحيل لها أن تبتعد عن أية مجلة ثقافية في زمن السلم، انتهى فجأة وثار هرج ومرج أكبر وسط مثقفي الجناح اليساري حول اعتقال اللاجئين الألمان أكثر من أي شيء فعله العدو. شعر مثقفو الجناح اليساري أثناء الحرب الإسبانية أن هذه الحرب حربهم، وأنهم يؤثرون في أحداثها إلى حد ما. بالدرجة التي توقعوا فيها حدوث الحرب ضد

ألمانيا، تخيلوا كذلك أنها ستكون نسخة موسعة من الحرب في إسبانيا، حرب يسارية يمكن للشعراء والروائيين أن يكونوا شخصيات مهمة فيها. طبعاً هي ليست من هذا النوع. إنها حرب حديثة مرهقة يخوضها بشكل رئيسي خبراء تقنيون (طيارون..إلخ) وتُدار من قبل أناس وطنيين في رؤاهم، ولكنهم رجعيون تماماً في موقفهم. في الوقت الراهن، ليس هناك أي عمل للمفكرين والمثقفين فيها. من البداية سارت الحكومة على مبدأ "إبعاد الحمر عنها"، ولم يُسمح للرجال الذين عُرف أنهم حاربوا في إسبانيا في الانضمام إلى الجيش إلا بعد الكارثة في فرنسا. وبالتالي النشاط الرئيسي وسط كتاب الجناح اليساري، كان نوعاً من النقد التافه الذي تحول إلى نوع من الرعب حين فازت إنكلترا بالنصر، لأن هذا يدحض تنبؤاتهم دائماً. في الصيف كان مثقفو الجناح اليساري انهزاميين تماماً أكثر مما سمحوا في إظهاره بالنشر. في الوقت الذي بدت فيه إنكلترا على وشك الاجتياح والتعرض للغزو، أراد كاتب يساري مشهور أن يثبط فكرة المقاومة الجماهيرية على أساس أن الألمان سيتصرفون بشكل متساهل أكثر إذا لم يتعرضوا لمعارضة ومقاومة. كان هناك تحرك حثيث مع عين على الاحتلال النازي القادم لجعل الفرع الخاص من اسكوتلانديارد يتلف الإضبارات السياسية التي يحتفظ بها لأغلبنا بلا شك. كل هذا كان في تناقض صارخ مع موقف الناس العوام الذين إما أنهم لم يعوا حقيقة أن إنكلترا في خطر، أو كانوا مصممين على المقاومة إلى آخر خندق. لكن عدد محدد من الكتاب والمحاضرين الذين قاتلوا في إسبانيا وأبرزهم توم وينترينغهام، فعلوا الكثير لاستئصال مد الانهزامية وإيقافه.

أنا شخصياً أعتبر القضاء على فترة مزاج المتاجرة بالحرب للجبهة الشعبية ودعايتها الكاذبة وجوها المرعب من الأرثوذكسية شيئاً جيداً، لكنه ترك نوعاً من الفجوة. لا أحد يعرف بماذا يفكر، ولم يبدأ أي شيء. من الصعب جداً تخيل ظهور أية "مدرسة" أدبية جديدة في الوقت الذي وجد فيه الكتاب الصغار عالمهم مثقوباً، والكتاب الأصغر منهم عمراً، إما في الجيش أو أبعدوا عن النشر بسبب نقص الورق. إضافة إلى تنقل الأساسات الاقتصادية للأدب وتبدلها، إن المجلة الأدبية الثقافية التي تعتمد جوهرياً على الناس المترفين الذين تربوا في ثقافة الأقلية، أصبحت أقل وأقل احتمالاً. هورايزن نسخة حديثة مدقرطة عن هذا (قارن نغمتها العامة مع

الكرايتريون قبل عشر سنوات) وحتى هورايزن تستمر لكن بصعوبة. من جانب آخر تزداد القراءة الشعبية، وأخذ مستوى الصحافة الشعبية الثقافي قفزة هائلة نحو الأعلى منذ اندلاع الحرب. لكن نادراً ما تظهر كتب جيدة. لا تزال الروايات تنشر بأعداد كبيرة، لكنها من التوافه التي لا تصدق. فقط الأموات فكرياً قادرون على الجلوس وكتابة روايات بينما يستمر هذا الكابوس. الظروف التي مكنت جويس ولورانس من كتابة أفضل أعمالهما أثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ لم تعد موجودة (الشعور بأن العالم الحالي سيعود إلى رشده ثانية). هناك شك بخصوص استمرار الحضارة التي ظلت حية بصعوبة لأربعمائة سنة. وفي الوقت الراهن هناك غارات جوية جعلت استمرار الحياة الفكرية صعباً جداً. لا أقصد بسبب الخطر المادي. صحيح أن كل واحد في لندن في هذا الوقت نجا من الموت بعناية إلهية مرة على الأقل، لكن الإصابات الفعلية قليلة جداً، وحتى الأضرار رغم ضخامتها اقتصرت على مدينة لندن وأزقة إيست ايند الفقيرة. لكن الخلل في وسائل النقل والاتصالات..إلخ، يسبب مضايقات لا نهاية لها. يصرف المرء نصف وقته للحصول على كيس فحم بسبب انقطاع الكهرباء، أو لوصل المكالمات الهاتفية على سلك انطفأ، أو في التجوال بحثاً عن حافلة في هذا الشتاء البارد والماطر البائس. إن الحياة الليلية في لندن توقفت تقريباً، ليس بسبب القصف، وإنما بسبب الشظايا الكثيرة جداً التي جعلت الخروج من البيت بعد الغروب أمراً خطراً. فدور السينما تغلق أبوابها باكراً، والمسارح توقفت كلياً ماعدا عدد قليل من الحفلات النهارية. وحدها الحانات فقط باتت أكثر من المعتاد، رغم ارتفاع أسعار البيرة الآن. في الليالي التي تكون فيها الغارات الجوية سيئة وصخب المدافع الصام للآذان، يصبح العمل صعباً. إنه وقت يصعب فيه الاستقرار على أي شيء، فحتى كتابة مقال جريدة سخيف يأخذ ضعف الوقت العادي.

أتساءل حتى فيما قلته، إن كنت ضخمت خطورة الغارات الجوية؟ يجدر أن أذكر أن أسوأ فترة للغارات حدثت حين لم يكن سوى ١٥٪ من سكان لندن ينامون في الملاجئ. يضاف إلى العدد هؤلاء الذين دمر بيوتهم القصف، لكن عددهم يقل باستمرار بفضل الذين يتقسون ويتعودون على القصف. بعد كل ما قيل وفعل، إن انطباع المرء الرئيسي بلادة الناس العاديين والوعي الغامض المنتشر بشكل واسع بأن الأشياء لن تعود كما كانت ثانية مع النزعة الحياتية في العودة إلى النموذج المألوف. في سبتمبر/ أيلول في اليوم

الذي هجم فيه الألمان وأحرقوا أرصفة السفن، أعتقد أن عدداً قليلاً جداً من الناس الذين شاهدوا تلك الحرائق الهائلة، لم يشعروا أن الذي حصل كان نهاية لحقبة. يشعر المرء أن تلك التغيرات الهائلة التي مر بها مجتمعنا، كانت ستحدث فوراً. لكن المذهل أن الأشياء عادت إلى وضعها العادي. سأنهي ببضع اقتباسات من مفكرتي، وأحاول أن أعطي فكرة عن الجو:

الطائرات تعود وتعود كل بضع دقائق. الأمر مثل أية دولة شرقية حين تعتقد بأنك قتلت آخر بعوضة داخل شبكتك، وفي كل مرة تطفئ فيها الضوء تبدأ واحدة أخرى بالأزيز فوراً... الهياج الناتج عن مجرد مرور القذيفة في الهواء مذهل. يهتز البيت كله وتقعقع الأشياء التي على الطاولة. لماذا تغرق الأضواء الكهربائية حين تمر قذيفة عن قرب، لا أحد يعرف... يوم أمس كان شارع أكسفورد من طريق أكسفورد إلى قوس الرخام خالياً تماماً من السيارات، ولم يكن فيه سوى عدد قليل من المشاة، في الوقت الذي كانت فيه شمس بعد الظهر تسطع مباشرة على طريق السيارات الفارغ، وتتألق على شظايا لا تحصى من الزجاج المكسور. خارج جون لويس كومة من موديلات عرض الألبسة البلاستيكية الوردية الحمراء. والحقيقية يمكن أن يخطئ بها المرء من مسافة قليلة ويحسبها كوماً من الجثث. مثل المشهد في برشلونة تماماً باستثناء القديسين المصنوعين من الجبس الذين جُلبوا من الكنائس المنتهكة... المظاهر مألوفة في هذا الوقت: أكوام من الزجاج مجمعة بشكل أنيق، ركام من الحجارة وشظايا من حجر الصوان، رائحة لتسرب الغاز، زمر من المتفرجين ينتظرون عند النطاق الذي تضربه الشرطة حيث توجد القنابل التي لم تنفجر..... أناس يصعب وصفهم يتجولون في المكان بعد أن تم إجلاؤهم من بيوتهم بسبب القنابل ذات التأثير المؤجل. أمس أوقفتني فتاتان في الشارع، أنيقتان جداً في مظهريهما ماعدا وجهيهما المتسخين بالتراب: "من فضلك أيها السيد، هل يمكنك أن تخبرنا أين نحن؟".... ومن ناحية أخرى هناك أيضاً مساحات هائلة من لندن عادية تقريباً وكل واحد فيها سعيد تماماً في النهار، ولا يبدو عليهم أبداً أنهم يفكرون بالليلة التالية، مثل حيوانات عاجزة عن التنبؤ بالمستقبل، طالما لديها القليل جداً من الطعام ومكان تحت الشمس.

رسالة إلى البارتيزان ريفيو
١٥ أبريل/ نيسان ١٩٤١

أعزائي المحررين

كما رأيتم التاريخ المكتوب بالأعلى، لم تصلني رسالتكم إلا بعد شهر من إرسالها، لهذا لن تحصلوا على رد مني قبل ٢٠ أبريل. أتوقع أنها ستصلكم قبل يونيو. سأحاول أن أجيب على أسئلتكم باختصار، لكني يجب أن أرجع إلى المساحة المخصصة إن أجبت على كل الأسئلة بشكل كامل، لهذا سأركز على الأسئلة التي أعرف عنها أكثر. لم تذكروا أي شيء في رسالتي السابقة إن كان الرقيب قد قص شيئاً منها، لهذا أفترض أنني أستطيع التكلم بحرية.

١ - ما هو مستوى الصحافة الشعبية ونغمتها هذه الأيام؟ كم مقدار المعلومات الحقيقية عن الحرب التي تظهر؟ إلى أي مدى تنشر أخبار الإضرابات العمالية والاضطرابات؟ ماذا يدور في نقاشات البرلمان؟ إلى أية درجة تهيمن نغمة الدعاية؟ هل هذه الدعاية أغلبها معادية للهون ومفرطة في الوطنية الشوفينية، أم أنها معادية أكثر للفاشية؟ ماذا عن دور الإذاعة؟ والسينما؟

تحسنت نغمة الصحافة الشعبية بفضل الإدراك خلال السنة الماضية. وهذا بارز بشكل ملحوظ في الديلي ميرور والسنداي بيكتوريال (صحيفتان حجم ورقهما صغير توزعان بشكل واسع أغلب قرائهما من الجيش) وصحف بيفربروك الديلي إكسبريس والسنداي إكسبريس والإيفيننغ ستاندارد. باستثناء الديلي ميل وبعض صحف الأحد التي كانت القسم الأقل ثقافة، فقد أصبحت كل الصحف جادة سياسياً، ولكنها حافظت على تركيبتها "المثيرة" والعناوين الصارخة..إلخ، وباتت كلها تنشر مقالات كانت تعتبر مستحيلة قبل سنتين فوق رؤوس القراء. أما صحيفتا الميرور والستاندارد، فهما يساريتان بشكل واضح. إن صحيفة الستاندارد هي الأقل أهمية بين صحف بيفربروك الثلاثة، وقد صرف النظر عنها وتركها بوضوح لصحفيين صغار من الجناح اليساري، وسمح لهم قول ما يحبون بشرط ألا يهاجموا

المدير مباشرة. كل الصحافة الآن يسارية تقريباً مقارنة بما كانت عليه قبل دونكيرك - حتى التايمز تدمدم عن الحاجة إلى تملك ممركز ومساواة اجتماعية أكبر - ولكي تجد أي تعبير مباشر للآراء الرجعية، رجعية بالمعنى قبل الفاشي القديم، عليك الآن أن تذهب إلى أسبوعيات وشهريات مغمورة أغلبها صحف كاثوليكية. هناك عنصر من غسول العين (الكلام المضلل) في كل هذا، لكنه عائد جزئياً إلى حقيقة أن الهبوط التجاري في السلع الاستهلاكية سلب الكثير من سلطة المعلنين على سياسة هيئة التحرير. وهذا سيفلس الصحف، وسيجبر الدولة على تولي الأمر، لكن في الفترة الفاصلة فإن السيطرة على الصحف للصحفيين بدلاً من المعلنين.

بالنسبة إلى دقة الأخبار وصحتها، أعتقد أن هذه هي الحرب الأصدق التي جرت في الأزمنة الحديثة. طبعاً المرء لا يرى صحف العدو إلا نادراً، لكن في صحفنا لا يوجد شيء بالتأكيد مقارنة مع الأكاذيب المخيفة التي تقال من الجانبين في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ أو في الحرب الأهلية الإسبانية. أعتقد أن الإذاعة خصوصاً في البلدان التي لا يمنع فيها الإصغاء للإذاعات الأجنبية، تجعل الكذب الواسع النطاق أصعب وأصعب. الألمان الآن أغرقوا البحرية البريطانية مرات كثيرة في بياناتهم المنشورة، لكنهم على العكس لم يكذبوا كثيراً بخصوص الأحداث الرئيسية. حين تسوء الأمور تكذب حكومتنا بطريقة غبية، فتمنع الأخبار، وتكون متشائمة بشكل غامض، لكنها عموماً كانت تخرج بالحقيقة خلال بضعة أيام. لقد عرفت من مسؤولين جيدين أن تقارير المعارك الجوية..إلخ التي تصدرها وزارة الجوية، صادقة جوهرياً، لكنها متحيزة بشكل مؤيد طبعاً. بالنسبة إلى الجيشين المتحاربين لا أستطيع الكلام. أشك إن كانت الاضطرابات العمالية تُنقل تماماً، وعلى الأرجح لا يمكن التكتم وإخماد أخبار إضراب واسع النطاق، لكن أعتقد بوجود ميل قوي للسكوت والتهدئة بخصوص الاحتكاك العمالي، وأيضاً الاستياء الذي سببه الإيواء والإجلاء وبدلات فصل الجنود عن زوجاتهم..إلخ. نقاشات البرلمان ربما لا تشوه وتحرف في الصحافة، لكن في برلمان مملوء بالرؤوس الميتة، أصبحت النقاشات أقل إمتاعاً، وليس هناك سوى أربعة صحف تعطيها أهمية الآن.

تدخل الدعاية في حياتنا أكثر مما فعلته قبل سنة، لكن ليس بشكل فاضح، والمغالاة بالوطنية وكره الهون بلا ريب لا شيء قياساً بما كان في ١٩١٤ - ١٩١٨ لكنه يزداد. أعتقد أن رأي الأغلبية سيكون: نحن نقاتل الشعب الألماني وليس النازيين فقط. كراسة فانسيتارت الكارهة للألمان، **سجل أسود**، بيعت مثل الكعك الحار. من التافه الادعاء بأن هذا شيء خاص بالبورجوازية، فقد كانت هناك تجليات قبيحة جداً منها وسط الناس العاديين، لكن مع استمرار الحرب مازال الكره قليلاً بشكل لافت حتى الآن في هذه البلاد، كما أن "العداء للفاشية" من النوع الذي كان موضة شائعة أثناء فترة الجبهة الشعبية، ليس قوياً حتى الآن، ولم يصب الشعب الإنكليزي بذلك، ومعنوياته الحربية تعتمد على وطنية قديمة الطراز، وعلى رفضه أن يحكمه الأجانب، وعلى عدم إدراكه حين يكون في وضع خطر.

أعتقد أن البي بي سي، بالرغم من غباوة دعاياتها الأجنبية وأصوات مذيعيها التي لا تحتمل، صادقة جداً، وتعتبر عموماً هنا أكثر موثوقية من الصحافة. أما السينما فتبدو وكأنها لم تتأثر بالحرب، أي في التكنيك وفي الموضوع الرئيسي، وتستمر بنفس الهراء الحلو، وحين تلامس السياسة، تكون متخلفة بسنين عن الصحافة الشعبية وبعقود من الزمن خلف الكتاب العادي.

٢ - هل صدرت هناك أية كتابة جادة؟ هل هناك أي أدب معادٍ للحرب مثل باربوسي..إلخ في الحرب الأخيرة؟ نسمع هنا عن وجود نزعة وميل نحو المدرسة الرومانسية والهروبية في الكتابة البريطانية الراهنة. هل هذا صحيح؟

بقدر معرفتي، لم يكتب أي شيء ذو أهمية ماعدا بشكل شظايا، مفكرات ومخطوطات قصيرة مثلاً. كانت أفضل الروايات التي قرأتها أثناء السنة الفائتة، إما أمريكية أو ترجمات من كتب أجنبية كتبت قبل عدة سنين. هناك نتاج كبير من الأدب المعادي للحرب، لكن من نوع النظرة الواحدة غير المسؤول. لا يوجد شيء مطابق لخصائص كتب الحرب في ١٩١٤ - ١٩١٨ تلك الكتب التي في طرقها المختلفة اعتمدت على إيمان بوحدة الحضارة الأوروبية، وعموماً على إيمان في تضامن الطبقة العاملة الدولي. هذا لم يعد موجوداً الآن - قتلته الفاشية، ولم يعد أحد يصدق بأن العمال يستطيعون إيقاف الحرب إن رفضوا القتال من كلا الطرفين

وفي وقت واحد. أن تكون معادياً للحرب فعالاً في إنكلترا الآن، هو أن تكون مؤيداً لهتلر. وقلة من الناس لديها الشجاعة الفكرية لتكون هكذا بإخلاص. أنا لا أفهم لماذا لم تُكتب كتب جيدة من المنظور المؤيد لهتلر، لكن لم يظهر شيء حتى الآن.

لا أرى أي ميل للفرارية في الأدب الراهن، لكن أعتقد إن نتج الآن أي عمل رئيسي، فسيكون هروبياً أو غير موضوعي في أي حال. استنتج هذا من البحث في عقلي أنا. لو استطعت توفير الوقت والسلام والهدوء العقلي لكتابة رواية الآن،لرغبت أن أكتب عن الماضي، فترة ما قبل ١٩١٤ التي تندرج تحت عنوان "الهروبية".

٣ - كيف هي معنويات الجيش النظامي؟ هل هناك نزعة نحو ديمقراطية أكثر؟ هل يمكن القول إنه جيش بريطاني في المقام الأول، أو جيش معادٍ للفاشية - مثل الجيش الموالي في إسبانيا؟

أعتقد أن المعنويات في الجيش جيدة جداً بالمعنى القتالي، لكن هناك سخطاً كبيراً حول بدلات حصص الانفصال وحول الامتياز الطبقي في مسألة الترقيات، وأن الجنود في إنكلترا ضجروا بشكل رهيب من التبطل الطويل والمخيمات الكئيبة القذرة التي يمضون الشتاء فيها، بينما عائلاتهم تُقصف في البلدات الكبيرة، وغباوة النظام العسكري الذي صُمم لمرتزقة أميين والذي يطبق الآن على مجندين متعلمين ومثقفين. مازال الجيش جيشاً "غير سياسي" في المقام الأول. والآن هناك دروس نظامية في التعليم السياسي تخضع لتغييرات محلية اعتماداً على قائد الوحدة، ويبدو وجود قدر جيد من حرية النقاش. بالنسبة إلى "نزعة" "نحو الديمقراطية" يجب أن أقول إنها أقل مما كانت عليه قبل سنة، لكن لو عاد المرء خمس سنوات إلى الوراء، فسيرى أن التقدم هائل. في الخدمة الفعلية الضباط الآن يلبسون تقريباً نفس اللباس الموحد كما الرجال (بزة الحرب) وبعضهم يرتديها في الخدمة الداخلية عادة، كما بطلت تحية الضباط في الشارع أيضاً. يجب أن يجتاز المجندون المسحوبون الجدد المراتب والترقيات حسب الكفاءة نظرياً، لكن هذا الادعاء الرسمي مؤسس على أن الجيش ديمقراطي بالكامل، يجب ألا يؤخذ بمحمل الجد الآن. لايزال نظام وهيكلية الضباط الرسميين هناك، ويميل الوافدون الجدد أن يرقوا على أسس اجتماعية مع أخذ الجدارة السياسية بعين الاعتبار. لكن هذا كله سوف يتبدل

إن استمرت الحرب. ستكون الحاجة إلى الرجال القادرين كبيرة جداً. وبما أن الاختلاف بين الطبقة الوسطى والطبقة العاملة ذات الأجر الأفضل صغير جداً الآن، ستبقى الرتب العسكرية الدنيا على أساس طبقي. إن الكوارث التي بانتظارنا الآن، ربما تدفع عملية الديمقراطية قدماً، كما فعلت كارثة فلاندرز قبل سنة.

٤ - قرأنا مقالة مشوقة في عدد حديث من التريبيون عن الحرس الوطني. هل يمكنك إعطائنا فكرة عن الوضع الحالي لهذه الحركة؟ هل لايزال وينترينغهام القوة المحركة خلفها؟ هل هو جيش للطبقة الوسطى أم للطبقة العاملة في غالبه؟ إلى أي مدى هو ديمقراطي الآن؟

الحرس الوطني كيان ضد الفاشية موجود في إنكلترا الآن، وفي الوقت نفسه ظاهرة مدهشة، فهو نوع من جيش شعبي ضباطه من البليمبس. أغلب الجنود من الطبقة العاملة مع توابل قوية من الطبقة الوسطى، لكن عملياً كل القيادات بيد الكهول الأثرياء الذين أكثرهم غير أكفاء بشكل واضح. الحرس الوطني قوة بدوام جزئي، وفي البداية نُظم بشكل واعٍ ومقصود في اعتقادي بطريقة لن يتوفر فيها الوقت الإضافي لأفراد الطبقة العاملة لتسلم أي مركز فوق رتبة الرقيب. مؤخراً أتخمت المناصب العليا بالجنرالات المتقاعدين وأدميرالات البحر والألقاب الفارغة من كل الأنواع. أعمار رؤساء مجموعات الجنود بين الخامسة والثلاثين والخمسين أو دون العشرين. ضباط من آمر سرية (نقيب) فصاعداً أكبر عمراً من المعدل بكثير، وأحياناً بعمر السبعين. بسبب هذه التركيبة، يمكنك تخيل الصراع المستعر بين طبقة البليمبس الحاكمة التي تريد جيش مشاة استعراضي من نموذج ما قبل ١٩١٤ وبين الجنود الذين يريدون أنموذجاً أكثر ديمقراطية متخصصاً في حرب العصابات وأسلحتها. النزاع لم يكن سياسياً بشكل صريح، لكنه تحول إلى صراع على نقاط فنية تنظيمية وقواعد الانضباط والتكتيك، وكلها طبعاً لها مضامين سياسية مفهومة بشكل شبه واعٍ من كلا الطرفين. وزارة الحرب كانت منفتحة ومفيدة بوضوح، لكنني أعتقد أنه يصح القول إن الرتب العليا في الحرس الوطني قاتلت بثبات ضد النظرة الواقعية للحرب وأن كل التجريب والمحاولات في التدريب الجدي كانت نتيجة الحث والدفع من الأسفل. لازال وينترينغهام وبعض من مرافقيه في مدرسة الحرس الوطني للتدريب (بدأت بشكل غير رسمي بواسطة

أسبوعية البكتشربوست وبعدئذ تولتها وزارة الحرب) لكن مدرسة جيش الشعب للفكر التابعة لونترينغهام، فقدت ثقلها خلال الأشهر الستة الماضية ولونترينغهام تأثير عظيم، باعتبار أن آلاف الرجال من كل أصقاع البلاد تدربوا على يديه في دورات التدريب مدة الواحدة منها ثلاثة أيام. إن الحرس الوطني الآن أشبه بالجيش النظامي أو بالأحرى بالجيش المحلي قبل الحرب منه حين بدا أنه ديمقراطي وضد الفاشية أكثر مما يرغب بعض قادته، كما انتشرت إشاعات مرات كثيرة بأن الحكومة انزعجت منه وفكرت في تسريحه، لكن لم يكن أي تحرك في هذا الاتجاه. نقطة هامة جداً، ضرورية تقنياً لقوة من هذا النوع، لكن لا يمكن إحرازها إلا بعد صراع، وهي أن يحتفظ الرجال ببنادقهم وأن يتخلصوا من التحية العسكرية عند الانصراف من الصف. ليس هناك احتكاكات كثيرة على الرغم من الطبيعة الطبقية للقيادة المفهومة جداً. ضمن الرتب الدنيا الروح ديمقراطية جداً ورفاقية، مع غياب التكبر والارتباك الطبقي. وهذا لم يكن متخيلاً قبل عشر سنين. أتكلم عن تجربة بما أنني أخدم في منطقة سكنية مختلطة يسير فيها عمال المصانع والرجال الأغنياء في الصفوف معاً. عموماً الموقف السياسي للرجال موقف وطني من الطراز القديم، ممزوج بكره غامض للنازية، لكنه صادق. اليهود كثيرون في وحدات لندن. بشكل عام أعتقد الخطر الموجود الذي يهدد الحرس الوطني أن يتحول إلى ميليشيا رجعية من الطبقة الوسطى، لكن هذا غير محتمل الآن.

٥ – ما مدى عدائية رجعية الشركات الكبيرة ووضوحها (ليس قمصان موسلي السوداء وإنما القوى الأصلب والأخطر للرأسمال الكبير)؟ أنت ذكرت انتقالاً سياسياً إلى اليمين في حكومة تشرشل في الأشهر الأخيرة. هل هذا يعني أن قوى رجال الأعمال المنظمة عادت وتسلقت السرج؟

لا أعرف ما يحدث وراء الكواليس، ولا أستطيع الإجابة إلا بشكل عام جداً: الرأسمالية المتساهلة ميتة في إنكلترا، ولا تستطيع أن تحيا، إلا إذا انتهت الحرب خلال الأشهر القليلة القادمة. الملكية المركزية والاقتصاد المخطط آتيان حتماً. القضية كلها هي من سيحكم. الانتقال اليميني الأخير، يعني أننا خضعنا لسيطرة الأثرياء والأرستقراطيين وليس للناس العاديين. هم سيستخدمون سلطتهم للحفاظ على تركيبة الحكومة على أساس طبقي، ويتلاعبون

بالضرائب وتقنين المؤن لمصلحتهم، ويتفادون استراتيجية الحرب الثورية، لكن لا عودة إلى الرأسمالية من النوع المشوش القديم. الانتقال في الأشهر الستة الماضية، لا يعني أكثر من حرية اقتصادية أو فوائد لرجل الأعمال الفرد - على العكس تماماً، لكنه لا يعني أيضاً أنك لن تحصل على وظيفة مهمة إذا لم تكن واحداً من المدارس الصحيحة - لقد قدمت مبرراتي للاعتقاد أن هذا الميل سيتبدل، لكنه كان الميل منذ الخريف الماضي.

٦ - هل تريد أن تقول إن بيفن وموريسون لازالا يقودان دعم الطبقة العاملة البريطانية؟ أليس هناك أي سياسي آخر من حزب العمال نال أبعاداً جديدة في مجريات الحرب - يغتصب ما يملكه هذان الاثنان؟ هل مازالت حركة مدراء المتاجر تكبر وتزداد؟

أنا لا أعرف إلا القليل جداً عن القضايا الصناعية. يجدر أن أقول إن بيفن يقود تأييد الطبقة العاملة، أما موريسون فعلى الأرجح لا. هناك شعور واسع أن حزب العمال ككل تنازل عن حقه ببساطة. الرجل الآخر من حزب العمال الذي زادت شهرته هو كريبس. إن أجبر تشرشل على الرحيل، فان كريبس وبيفن على رأس الرجال المحتملين للعضوية مع تفضيل واضح لبيفن.

٧ - كيف تعلل ما يبدو لنا هنا الحفاظ على مقدار لافت من الديمقراطية والحريات المدنية أثناء الحرب؟ أهو ضغط العمال؟ أو التقاليد البريطانية؟ أو ضعف الطبقات العليا؟

إن عبارة "التقاليد البريطانية" عبارة غامضة، لكني أعتقد أنها الإجابة الأقرب. أفترض أنني سأبدو كأني سأعطي نفسي إعلاناً مجانياً، ولكني في الحقيقة أريد أن ألفت الانتباه إلى كتاب حديث لي، **الأسد ووحيد القرن** (أعتقد أن نسخاً منه وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية)؟ أشرت فيه إلى أن في إنكلترا يوجد شعور محدد من الولاء العائلي الذي يتقاطع مع النظام الطبقي (وأخشى أيضاً أنه يسهل للنظام الطبقي بقاءه حياً) ويكبح نمو الكره السياسي. أعتقد أنه كان يمكن أن تكون هناك حرب أهلية في إنكلترا، لكني لم أقابل قط أي شخص إنكليزي قادر على تخيل شيء كهذا. في الوقت نفسه، يجب على المرء ألا يبالغ في تقدير مقدار الحرية الفكرية الموجودة هنا. الوضع في إنكلترا: هناك احترام عظيم لحرية الكلام وقدر قليل جداً من حرية الصحافة. خلال السنين العشرين الماضية جرى تدخل مباشر أو غير مباشر

بحرية الصحافة من دون أن يثير ولو بصيص احتجاج شعبي. الثقافة في هذه البلاد ضئيلة، وهناك شعور بأن الكلمة المطبوعة غير مهمة كثيراً، وأن الكتاب وأمثالهم يستحقون الكثير من العطف. ومن جانب آخر أن الجو الذي لا تجرؤ فيه على التحدث بالسياسة خوفاً من أن يسمعك الجستابو، شيء لا يمكن تصوره في إنكلترا، وأية محاولة لإنتاجه ستكسر ليس بالمقاومة الواعية وإنما بعجز الناس العاديين على إدراك المطلوب منهم. مع الطبقة العاملة بشكل خاص التذمر عادي جداً، لذلك لا يريد أفرادها أن يعرفوا متى يتذمرون. حين يمكن استخدام البطالة كوسيلة ضغط يخشى الرجال غالباً من التعبير عن آراء "حمراء" قد تنتقل إلى المراقب أو المدير، لكنهم نادراً ما يقلقون أن يسمعهم شرطي. أعتقد الآن بوجود منظمة للتجسس السياسي في المصانع والحانات..إلخ، وطبعاً في الجيش، لكن أشك إن كان بمقدورها أكثر من تقديم التقارير عن حالة الرأي العام وأحياناً تضحي بفرد ما يُعتبر خطيراً. مرر قانون غبي في وقت ما في الماضي، يعتبر قول أي شيء "يحتمل أن يسبب الذعر والجزع" جريمة يعاقب عليها القانون (أو كلمات). كانت هناك مقاضاة تحته، لكنه عملياً قانون ميت، وربما غالبية الناس لا يدرون بوجوده، ونادراً ما تدخل حانة أو عربة قطار دون أن تسمعه يخترق تقنياً. فمن الواضح أن المرء لا يستطيع نقاش الحرب بجدية دون الإدلاء بتصريحات قد تسبب الذعر. ربما في وقت ما سوف يمرر قانون يمنع الناس من الاستماع إلى محطات الإذاعات الأجنبية، لكنه لن يكون منفذاً بالقوة أبداً. الطبقة الحاكمة البريطانية تؤمن بالديمقراطية والحرية المدنية في أضيق وأكذب طريقة. وفي أي حال تؤمن برسالة القانون وتلتزم به أحياناً حين لا يكون لمصلحتها، ولا تبدي أية علامة عن تطوير عقلية فاشية أصيلة. إن الحرية من كل نوع يجب أن تنحدر بوضوح نتيجة الحرب، لكن بسبب التركيبة الحالية للمجتمع والجو الاجتماعي، توجد هناك نقطة لا يستطيع الانحدار تجاوزها. قد تصبح إنكلترا فاشية من الخارج أو نتيجة ثورة داخلية ما، لكن الطبقة الحاكمة القديمة لا تستطيع في رأيي إنتاج نظام حكم شمولي لوحدها. ليس لسبب آخر سوى أنها غبية جداً. لقد كانت عاجزة على إدراك الشيء الأول والمهم حول طبيعة الفاشية، لهذا نحن في وسط هذه الفوضى.

٨ – من هنا يبدو كما لو أن هناك تقدماً سريعاً جداً نحو اقتصاد حربي شمولي في الأشهر القليلة الماضية – نظام تقنين الطعام وإخضاعه للحصص الذي انتشر بشكل أوسع، وتجنيد

بيفن الإجباري لطبقات محددة من العمال، وتوسيع سيطرة الحكومة على التجارة. هل هذا الانطباع صحيح؟ هل الإيقاع يزداد سرعة أم يقل؟ كيف يشعر رجل الشارع حول فعالية الجهد الحربي؟ إلى أي حد يشعر في حياته اليومية بأثر هذه الإجراءات؟

نعم، الشيء يحدث بسرعة كبيرة مسبقاً، وسيتسارع بشكل هائل في الأشهر القادمة. في القريب العاجل، سنكون كلنا في الزي الموحد، أو نعمل في عمل إجباري، وربما نأكل بشكل متساو ومشاعي. لا أظن أن هذا سيقابل بمعارضة كبيرة، طالما يصيب كل الطبقات بالتساوي. الأغنياء سيصرخون، طبعاً - في الوقت الحاضر هم يتهربون من الضرائب بشكل ظاهر، ونظام الحصص نادراً ما يؤثر بهم - لكنهم سيجبرون على الانصياع إن كانت الورطة شديدة فعلاً. أنا لا أعتقد أن الإنسان العادي يهتم البتة إن تحول الاقتصاد إلى اقتصاد شمولي. الناس كأصحاب المعامل الصغيرة والمزارعين والحانوتيين يقبلون في انتقالهم من رأسماليين صغار إلى موظفين عند الدولة بدون اعتراض، بشرط أن يبقى مصدر رزقهم محمياً. الناس في إنكلترا يكرهون فكرة الجستابو، وهناك الكثير من المعارضة التي كان بعضها ناجحاً ضد التجسس على المنشقين السياسيين واضطهادهم، لكن لا أعتقد أن الحرية الاقتصادية فقدت جاذبيتها الكبيرة. الانتقال إلى الاقتصاد المركز، لا يبدو أنه سيغير أسلوب حياة الناس تقريباً مثلما فعل نقل السكان من أماكنهم إلى أخرى، وخلط الطبقات مع بعضها البعض نتيجة التجنيد الإجباري والقصف. لكن هذا ربما يكون أقل حقيقة في الشمال الصناعي؛ حيث كل الناس هناك يعملون أكثر في ظروف متعبة أكثر والبطالة انتهت عملياً. لا أستطيع أن أتنبأ برد الفعل حين نبدأ بمعاناة الجوع المتوقع في الأشهر القليلة التالية. بمعزل عن القصف والعمل الإضافي الشاق المفروض على فئات معينة من العمال، لا يستطيع المرء القول بصدق إن هذه الحرب سببت صعوبات أكبر حتى الآن. مازال لدى لناس من الطعام أكثر مما لدى الشعوب الأوروبية في زمن السلم.

٩ - ما هي أهداف الحرب التي اتفقت عليها حركة اليسار والعمال الآن؟ كم أنت متفائل بهذه الأهداف التي نفذت؟ كم هو مقدار الضغط الآن على الحكومة لكي تعلن عن أهداف الحرب الاشتراكية؟ هل يبدو هناك أي اختلاف راديكالي بين أعضاء العمال والتوري في

حكومة تشرشل حول قضية أهداف الحرب وحول سياسة تجاه أوروبا وألمانيا إن حدث النصر؟ كم هي واضحة ودقيقة خطط "إعادة بناء المجتمع" في إنكلترا بعد الحرب؟

ليس لدى الجريدة متسعاً للإجابة على هذا السؤال بشكل صحيح ولائق، لكن أعتقد أنه يمكنك أن تعتبر أن حزب العمال الآن ليس لديه سياسة مستقلة حقيقية عن الحكومة. بعض الناس يعتقدون أن اليسار المحافظ (ايدين وربما تشرشل) من المحتمل أن يتبنوا سياسة اشتراكية أكثر من حزب العمال. هناك مناشدات مستمرة للحكومة كي تعلن عن أهدافها من الحرب، لكنها تأتي من أفراد، وليست العمل الرسمي لحزب العمال. ليست هناك أي علامة عن امتلاك الحكومة خطة تفصيلية أو عامة حتى لفترة ما بعد الحرب. إن الشعور بأن "الأشياء بعد الحرب ستكون مختلفة" واسع الانتشار، وأن إنكلترا قد تكون أسوأ من الماضي طبعاً، لكن العودة إلى إنكلترا تشامبرلاين لا يمكن تصوره حتى لو كان ممكناً تقنياً.

١٠ - هل تود القول إن الجماهير، الطبقة العاملة والطبقة الوسطى، يقفون بحماس أكثر أو أقل خلف الحكومة الحالية، مما فعلوا في مايو/ أيار ١٩٤٠؟ هل هم وراء جهود الحرب بشكل عام؟

بالقدر الذي تريده الحكومة أقل حماساً لكن ليس بدرجة كبيرة جداً. لقد أتت هذه الحكومة مع درجة من التأييد الشعبي، وهذا أمر غير معتاد تماماً. خيبت توقعات الناس في سياستها الداخلية لكن ليس بالشكل الفادح الذي تفعله الحكومات عادة. ستتضاءل شعبية تشرشل الشخصية نوعاً ما، لكن مازال له أتباع أكثر من أي رئيس وزراء في العشرين سنة الأخيرة. بالنسبة إلى الحرب لا أعتقد أنه سيكون هناك الكثير من التغيير والاختلاف. لقد مل الناس وضجروا، لكن لا يتوقع المرء شيئاً. لا يستطيع المرء التكلم عن يقين عن هذا إلى ما بعد الأزمة القادمة، التي ستكون ذات طبيعة مختلفة - أقل وضوحاً ربما وأصعب تحملاً من تلك التي حدثت في السنة الماضية.

أرجو أنني قد أجبت على أسئلتكم بهذا. أخشى أنها كانت أطول مما سمحتم لي بقليل. كل شي حسن هنا، حسن بعض الشيء. تعرضنا لقصف عنيف ليلة أمس، واشتعلت حرائق ضخمة في المكان، وصخب المدافع منعنا من نوم نصف الليلة. لكن لا يهم، كانت الضربات

على المسارح والمتاجر الأنيقة، وهذا الصباح يوم ربيعي جميل وأشجار اللوز أزهرت وسعاة البريد وعربات الحليب يتجولون ذهاباً وإياباً كالعادة. وفي زاوية الشارع امرأتان بدينتان تتبادلان القيل والقال بجانب عمود صندوق البريد. لكم كلكم كل التوفيق.

ملحق في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤١.

كانت الأحداث الرئيسية منذ أن كتبت لكم في ١٥ أبريل/ نيسان الهزائم البريطانية في ليبيا واليونان، والوضع العام في الشرق الأوسط ازداد سوءاً، وفي العراق ثورة، وستالين يستعد للدخول في شراكة مع هتلر، ودارلان يستعد للسماح بدخول القوات الألمانية إلى سوريا. هناك أيضاً خلال اليومين الأخيرين وصول غريب لهيس، الذي سبب الكثير من التسلية والتخمين، لكن التعليق على الحدث مبكر جداً.

السؤال المهم إن كان المنعطف الذي أخذته الحرب، سيؤدي إلى نمو أكثر في العاطفة الديمقراطية كما حدث السنة الماضية. أخشى أن على المرء أن يقول إن الفرص ضدنا. كان السبب الذي جعل لحملة دونكيرك وانهيار فرنسا أثراً في الرأي العام، وفعل الكثير هو القرب الشديد لهذه الأشياء حدثت. كان هناك تهديد مباشر وفوري بالغزو، وهناك الجنود العائدون إلى الوطن بمئات الآلاف الذين أخبروا عائلاتهم كيف تعرضوا للخذلان. هذه المرة الشيء يحدث بعيد جداً في بلدان لا يعرفها الإنسان العادي أو يهتم بأي شيء عنها - العامل البريطاني العادي ليس لديه أوهى فكرة أن قناة السويس لها أية علاقة بمستوى معيشته الخاص - ولو كان لدى الجنود الذين طردوا من اليونان حكايات يروونها، لفعلوا ذلك في مصر وفلسطين. أيضاً لم يتوقع أحد أن تكون حملة اليونان إلا كارثة. قبل أن يصدر الإعلان بوقت طويل، كان معروفاً أنه لنا قوات في اليونان، ولم أجد أي أحد من أي نوع كان يؤمن بنجاح الحملة. ومن جانب آخر، شعر كل واحد تقريباً أن من واجبنا أن نتدخل. لقد أدرك بشكل عام أننا لن نستطيع قتال الألمان في القارة الأوروبية حتى يكون لدينا جيش حديث، لكن بنفس الوقت "نحن لا نستطيع أن نخذل اليونانيين". الشعب البريطاني لم يتلوث بعبادة السلطة، ولا يشعر بعقم هذا النوع من الإيحاء كما شعر شعب القارة. في النقاش البرلماني حول الحملة الإغريقية، كان الهجوم على الحكومة بقيادة المنبوذين الحسودين مثل لويد جورج، وبدلاً من أن يكون

نقاشاً لائقاً، حُرّف النقاش إلى مطلب اقتراع ثقة استحقته الحكومة عموماً لعدم وجود حكومة بديلة في الوقت الحالي. الارتدادات التي ربما تحدث في أستراليا قد تفعل شيئاً نحو دقرطة إدارة الحرب. بدأ الناس هنا يقولون إن الدفعة نحو اليسار التالية يجب أن تأتي من أمريكا. أقترح مثلاً أن يضع روزفلت شرطاً لمساعدة أكبر، وهو أن تفعل الحكومة البريطانية شيئاً بخصوص الهند. أنتم أقدر مني على الحكم إن كان هذا محتملاً.

الغارات الجوية مستمرة. بالنسبة إلى الناس العاديين، هذا هو القسم المهم من الحرب. وفي الواقع هي الحرب، لكن بلادة حسهم مثيرة للدهشة. كانت هناك معلومات جانبية عن العقل الشعبي ربما لم يأت ذكرها في الصحافة الأمريكية والتي ربما تهمكم، في انتخابات فرعية حديثة في بيرمنغهام. منشق محافظ سمى نفسه "مرشح الأخذ بالثأر" رشح ضد مرشح الحكومة. ادعاؤه أننا يجب أن نركز على قصف المدنيين الألمان للانتقام لما حدث ويحدث هنا. كانون ستيوارت موريس أحد القياديين المشهورين في اتحاد التعهد بالسلام (بيس بليدج يونيون) رشح في لائحة السلاميين. كانت الشعارات الشخصية للمرشحين الثلاثة "اقصفوا برلين" و"أوقفوا الحرب" و"ادعموا تشرشل". حصل رجل الحكومة على ١٥ ألف صوت، وحصل الاثنان الآخران على ألف وخمسمائة صوت لكل منهما. الاقتراع ضعيف ربما، لكن مع اعتبار الأوقات التي نعيش فيها، أعتقد أن هذه الأرقام مشجعة.

جورج أورويل

بارتيزان ريفيو

يوليو/أغسطس ١٩٤١

رسالة لندن إلى بارتيزان ريفيو
١٧ أغسطس ١٩٤١

أعزائي هيئة التحرير

طلبتم مني أن أبعث برسالة أخرى، ولكنكم تركتم لي الحرية في اختيار ما سأكتب عنه، وأضفتم أن قراءكم ربما يهتمون لسماع المزيد عن الحرس الوطني. سأعطي بعض الملاحظات عن الحرس الوطني بقدر ما لدي من فسحة من الكتابة، لكني أعتقد أن موضوعي الأساسي يجب أن يكون عن دخول جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية في الحرب. فقد خيمت على كل شيء في الأسابيع السبعة الأخيرة، وأعتقد أنه من الممكن الآن إجراء نوع من التحليل الأولي لحالة الرأي العام البريطاني.

التحالف الأنغلوسوفييتي

اللافت جداً حول التحالف الأنغلوسوفييتي، فشله في التسبب بأي انقسام في البلاد أو أي صدى سياسي جدي من أي نوع. صحيح أن غزو هتلر للاتحاد السوفييتي فاجأ وأدهش الجميع هنا، فلو تم التحالف في عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ - كما كان ممكناً له أن يحدث - بعد الجدالات الطويلة والمريرة مع أعضاء الجبهة الشعبية الذين يصرخون من جانب وصحافة التروي التي تشارك روسيا الحمراء في كل ما تستحق من الجانب الآخر، لكانت هناك أزمة سياسية من الطراز الأول، وربما انتخابات عامة، وبالتأكيد نمو حزب مؤيد للنازية علناً في البرلمان والجيش..إلخ. لكن قبل حزيران يونيو ١٩٤١ بدا ستالين شيطاناً صغيراً مقارنة بهتلر، ولم يصدق المؤيدون للفاشية أنفسهم، وحدث الهجوم بشكل مفاجئ. لذلك لم يكن هناك وقت لمناقشة منافع ومضار تحالف روسي. أظهر التحول الجديد للحرب حقيقة واحدة، بأن هناك أعداداً كبيرة من الشعب الإنكليزي الذين ليس لديهم أي رد فعل خاص تجاه روسيا السوفييتية، فهي مجرد بلاد غامضة مثل الصين أو المكسيك، قامت فيها ثورة في الماضي ونسيت طبيعتها. لقد تم تجاوز كل الجدالات الشائنة حول أعمال التطهير والخطط الخماسية ومجاعة

أوكرانيا من قبل قارئ الصحف العادي ببساطة. لكن بالنسبة إلى البقية الذين لديهم أثر محدد من تأييد الروس أو عدائهم، فقد انقسموا إلى عدة كتل واضحة أهمها التالية:

الأغنياء: إن البرجوازيين معادون للروس شخصياً، ولا يمكنهم أن يكونوا غير ذلك. وجود عدد كبير من بلاشفة الردهات الأثرياء، لم يبدل هذا الواقع، لأن هؤلاء الناس ينتمون بشكل ثابت إلى الجيل الثالث من طبقة أصحاب الدخول من الأرض. هؤلاء الذين من الطبقة الرأسمالية سينظرون إلى تدمير هتلر للاتحاد السوفييتي بمشاعر مختلطة في أفضل الأحوال، لكن من الخطأ الافتراض بأنهم يخططون لخيانة مباشرة أو يُحتمل للقلة القادرة على فعل هذا أن تفوز بالسيطرة على الدولة. إن استمرارية تشرشل في المنصب ضمانة ضد ذلك.

الطبقة العاملة: الأعضاء الأذكياء في الطبقة العاملة البريطانية كلهم يؤيدون الروس بشكل معتدل وغامض. الصدمة التي سببتها الحرب الروسية ضد فنلندا، كانت حقيقية تماماً، لكنها اعتبرت حدثاً غير مهم في ذلك الوقت بالنسبة الحرب الرئيسية، ونسيت تماماً، لكن ربما من الخطأ التخيل أن اشتراك روسيا في الحرب بحد ذاته سيحفز الطبقة العاملة البريطانية على بذل جهود وتضحيات أعظم. بقدر ما كانت إضرابات ومشاحنات السنتين الماضيين بسبب الأعمال الاستفزازية المتعمدة التي قام بها الشيوعيون، فإنها ستتوقف وتنتهي طبعاً، لكن يُشك إن كان الشيوعيون يقدرون على أكثر من تمجيد الشكاوي المشروعة وتضخيم. ستظل الشكاوي هناك، ولن تشكل رسائل البرافدا الأخوية أي فرق في مشاعر عامل الميناء الذي يفرغ حمولة السفن أثناء الغارة الجوية، أو عامل الذخيرة الذي يفوته آخر قطار يقله إلى البيت. من المحتمل أن يظهر ولاء الطبقة العاملة تجاه روسيا بشكل كالتالي، إذا أبدت الحكومة علامة بأنها ستخذل الروس، هل ستأخذ الطبقة العاملة خطوات لفرض سياسة أكثر فاعلية عليها؟ في تلك اللحظة أعتقد سيُكتشف أن هناك نوعاً من الولاء للاتحاد السوفييتي مازال موجوداً، ويجب أن يكون موجوداً طالما أن روسيا هي البلاد الوحيدة التي تتظاهر بأنها دولة للعمال، لكن هذا الولاء لم يعد قوة. وحقيقة أن هتلر يتجرأ على شن حرب عليها، إثبات على هذا بحد ذاته. منذ خمسة عشر عاماً كانت حرب كهذه مستحيلة في أي بلاد ماعدا اليابان، لأن الثقة بأن الجنود العاديين سيستخدمون أسلحتهم ضد وطن الأسلاف الاشتراكي، لم تعد ممكنة. لكن هذا النوع من الولاء ضيعته أنانية السياسة الروسية القومية تدريجياً. إن الوطنية من الطراز

القديم أقوى بكثير الآن من أية أهمية أو أية فكرة عن وطن الأسلاف الاشتراكي. وهذه الحقيقة ستنعكس في استراتيجية الحرب أيضاً.

الشيوعيون: ليس هناك حاجة كي أخبركم عن تنقلات السياسة الشيوعية الرسمية خلال السنتين الماضيتين، ولكني لست متأكداً إن كانت عقلية الإنتلجنسيا الشيوعية في الولايات المتحدة مشابهة للتي عندنا هنا. في إنكلترا، الشيوعيون الذين يمكن احترامهم هم عمال المصانع، لكنهم ليسوا كثيرين، ولأنهم بالضبط عمال مهرة عادة ورفاق مخلصين، فلا يمكنهم أن يظلوا مخلصين تماماً دائماً لسياسة الحزب. بين سبتمبر/ أيلول ١٩٣٥ ويونيو/ حزيران ١٩٤١ لم يقوموا بأية محاولة واضحة في تخريب إنتاج الأسلحة، على الرغم من منطق السياسة الشيوعية المطالب بهذا. أما شيوعيو الطبقة الوسطى، فهم حالة مختلفة على أي حال، ويشملون أغلب قادة الحزب الرسميين وغير الرسميين، ومعهم يجب تكديس القسم الأعظم من الإنتلجنسيا الأدبية الشابة وخصوصاً في الجامعات. كما أشرت في مكان آخر، تبلغ "شيوعية" هؤلاء الناس حد القومية وعبادة القائد في أكثر أشكالها سوقية المحولة إلى الاتحاد السوفييتي. إن أهميتهم في هذه اللحظة أنهم مع دخول روسيا في الحرب، ربما يستردون التأثير الذي حققوه في الصحافة بين عام ١٩٣٥ و١٩٣٩ وخسروه خلال السنتين الأخيرتين. إن صحيفة ذا كرونيكلز الثانية بالأهمية بعد الديلي ميل في الصحف اليسارية اليومية (بتوزيع حوالي مليون وأربعمائة نسخة) منشغلة مسبقاً بتلميع الرجال الذين كانت تشجبهم كخونة منذ قليل. ما يسمى بالميثاق الشعبي الذي يقوده دي ان بريت (عضو برلمان زعم الشيوعيون أنه عضو سري في حزبهم) لايزال موجوداً، لكنه عكس سياسته فجأة. إذا سمح للشيوعيين بنفس النوع من العلنية التي حصلوا عليها في عام ١٩٣٨ فإنهم سيزرعون بذور الشقاق عن قصد أو دون قصد بين بريطانيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية. هم لا يتوقون إلى تدمير هتلر وإعادة الاستقرار لأوروبا، وإنما يريدون نصراً عسكرياً سوقياً لوطن الأسلاف المتبنى، وسيبذلون أقصى جهودهم لتحقير الرأي العام هنا بتحويل أقصى قدر ممكن من هيبة ومقام الحرب لروسيا، ورمي الشكوك حول وفاء بريطانيا الطيب. خطر هذا النوع من الشيء يجب ألا تُقلل أهميته. الروس أنفسهم ربما يفهمون كيف ستتطور الأوضاع ويتصرفون بناء على ذلك. إن كانت

هناك حرب طويلة في انتظارنا، فليس من مصلحتهم أن يكون استياء وسخط في هذه البلاد. لكن بقدر ما يستطيع الشيوعيون الحصول على فرصة لقول آراءهم وسماعها، يجب اعتبارهم إحدى القوى التي تعمل ضد الوحدة الأنغلوروسية.

الكاثوليك:هناك كما يفترض مليونا كاثوليكي في هذه البلاد، معظمهم من العمال الفقراء الإيرلنديين. هم يصوتون لحزب العمال، ويقومون بدور ضغط خامد على سياسة حزب العمال لكنهم ليسوا تماماً تحت إبهام كهنتهم ليكونوا فاشيين في تعاطفهم. إن أهمية كاثوليكيي الطبقتين الوسطى والعليا أنهم كثيرون جداً في وزارة الخارجية والخدمة القنصلية، ولهم قدر كبير من التأثير على الصحافة، لكنه أقل مما كان في السابق. الكاثوليكيون "المولدون" من عائلات كاثوليكية قديمة، أقل تأييداً للبابا وأكثر وطنية عادة من المثقفين المهتدين (رونالد نوكس وأرنولد لون..إلخ) الذين لهم نفس العقلية التي لدى الشيوعيين البريطانيين بعد إجراء التعديلات اللازمة. أعتقد أنني لا أحتاج إلى أن أعيد وأذكر نشاطاتهم المؤيدة للفاشية في الماضي. منذ اندلاع الحرب لم يتجرأوا أن يؤيدوا هتلر علناً، لكنهم وجهوا دعايتهم مباشرة لكيل المديح لبيتان وفرانكو. مؤسس حركة سيف روح القدس الكاردينال هينسلي (الديمقراطية الكاثوليكية) يبدو معادياً للنازية بصدق وفقاً لمعاييره، لكنه لا يمثل سوى قطاع من الرأي الكاثوليكي. بمجرد أن غزا هتلر جمهوريات الاتحاد السوفيتي، حتى أعلنت الصحافة الكاثوليكية ضرورة اغتنام المهلة والراحة التي وفرها ذلك لنا، لكن "لا تحالف مع روسيا". من الملاحظ أن الصحافة الكاثوليكية أصبحت أشد عدائية للروس حين بدا أن الروس يقاومون بشكل ناجح. كل من درس الأدب الكاثوليكي في السنوات العشر الأخيرة، لا يشك بأن القسم الأعظم من الهيئة الكهنوتية والإنتلجنسيا ستصطف مع ألمانيا ضد روسيا، لو توفرت أقل فرصة لذلك. كرههم لروسيا سام فعلاً، ويكفي لإثارة اشمئزاز شخص يعادي الستالينية مثلي، لكن دعايتهم تقليدية (فظاعات بلشفية، تأميم النساء..إلخ) ولا تترك أثراً كبيراً على أفراد الطبقة العاملة. حين تستقر الحملة الروسية بشكل أو بآخر، أقصد حين يكون هتلر في موسكو أو يبدي الروس علامات عن غزوهم لأوروبا، سيخرجون إلى العلن، ويقفون إلى جانب هتلر، وسيكونون بالتأكيد في المقدمة إن قُدمت تسوية سلمية بشروط مقبولة. لو أقيمت أية حكومة مشابهة لحكومة بيتان هنا، فإنها ستعتمد كثيراً على الكاثوليك.

هم الأعداء الواعون والأذكياء الوحيدون في الحقيقة إن وصلت الديمقراطية إلى إنكلترا، ومن الخطأ الاستخفاف بهم. هناك الكثير من أجل تيارات الرأي المتنوعة. بدأت هذه الرسالة منذ أيام مضت، ومنذ ذلك الوقت والشعور بأننا لم نفعل ما يكفي لمساعدة الروس تقوى بشكل ملحوظ. العمل الغريب المفضل الآن هو أننا نعطي روسيا "كل معونة غير حربية". حتى صحافة بيفربروك تردد هذا. بما أن روسيا دخلت الحرب، فهناك برودة في المشاعر تجاه الولايات المتحدة الأمريكية. سبب إعلان تشرشل - روزفلت الكثير من الخيبة في اعتقادي. إلى أي مدى ذهب تشرشل، كان سراً رسمياً، لكن يبدو أنه معروف على نطاق واسع، وأغلب الناس يتوقعون أن تدخل أميركا الحرب أو تحتل بعض النقاط الاستراتيجية على الأطلسي على الأقل. يقول الناس الآن إن الروس يقاتلون، والأميركيون يتكلمون. وبدأ القول المتداول العام الماضي يتكرر "التعاطف للصين والنفط لليابان".

الحرس الوطني: أنشئت هذه القوة المعروفة بمتطوعي الحرس المحلي في الربيع الماضي، استجابة لنداء أنتوني ايدن في الراديو، بعد نجاح قوات المظليين الألمانية في هولندا، وحصلت على ربع مليون متطوع في الأربع والعشرين ساعة الأولى، ووصل العدد الآن بين مليون ونصف ومليونين، وتذبذب في السنة الماضية، لكن مع ميل للزيادة. وباستثناء نواة صغيرة من الضباط الإداريين ومدربي ان سي أو انضموا إليهم من الجيش النظامي، هم بالكامل من الذين يعملون بدوام جزئي وبدون مرتب. عدا عن التدريب، فإن الحرس الوطني يريح الجيش من الدوريات الروتينية وحراسة الأبنية..إلخ، ويقوم بمقدار معين من عمل التدبيرات الوقائية ضد الغارات الجوية.

يتنوع مقدار الوقت الذي يخصصه الأعضاء العاديين من أجل الوطني بين خمس وخمس وعشرين ساعة أسبوعياً. وبما أن الشيء برمته تطوعي، فليس هناك طريقة لفرض الحضور، لكن الذين يغيبون بشكل متكرر، يُطلب منهم الاستقالة والعضوية غير النشطة التي لا تزيد على العشرة بالمائة. في حالة الغزو، سيتبنى الحرس الوطني نفس الأساس الانضباطي للجيش النظامي، وسيدفع للأعضاء أجراً مقابل خدماتهم، وكل الجنود سيستلمون نفس المبلغ. في البداية كان الحرس الوطني قوة غير متجانسة وبنيوياً أشبه بالميليشيات الإسبانية، لكنه شكل تدريجياً على شاكلة الجيش النظامي، وكل الفرق العادية جرى ضمها إلى أفواج تنتمي إلى

المجالس المحلية. لكن المصانع والسكك الحديدية والمكاتب الحكومية لها وحداتها المنعزلة الخاصة المسؤولة عن الدفاع عن أبنيتها وأراضيها فقط.

إن الفكرة الاستراتيجية للدفاع الوطني، هي الدفاع الثابت في العمق أي من الشاطئ إلى الشاطئ الآخر من إنكلترا. والفكرة التكتيكية ليست دحر الغازي، وإنما إعاقته حتى تصل القوات النظامية، إذ ليس المراد من الحرس الوطني المناورة بأعداد كبيرة وعلى مناطق واسعة، وعملياً قد لا يستطيع العمل في وحدات أكبر من السرية، وليس هناك فرقة تستطيع التقدم أو التراجع إلى أبعد من بضعة أميال. القصد أن أي غازٍ يجتاز أي قسم من البلاد، سيواجه دائماً زمراً صغيرة لا تحصى من الأعداء من خلفه وأمامه إلى أن يصل إلى الشاطئ البحري. بالنسبة إلى الطرق التي تتم فيها المقاومة بأفضل أشكالها، فقد تنوعت النظريات، ولكنها ناتجة عن مراقبة الحملات المختلفة في الخارج. في البداية كان القصد مجرد التعامل مع رجال المظلات، لكن الأحداث في فرنسا والبلدان المنخفضة سببت خوفاً مبالغاً فيه من الطابور الخامس، ولدى السلطات فكرة جلية لتحويل الحرس الوطني إلى نوع من قوة شرطية إضافية، لكن هذه الفكرة عقيمة، لأن الرجال الذين انضموا لم يريدوا إلا محاربة الألمان (في يونيو/ حزيران كان الغزو متوقعاً مباشرة) وفي الظروف المشوشة للوقت، كان عليهم تنظيم أنفسهم. بعد أن وزعت عليهم أسلحة كافية وزياً عسكري، لكي يبدو رجال الحرس الوطني مثل الجنود، كانت هناك رغبة في تحويلهم إلى مشاة عاديين من أنموذج ما قبل الحرب الخاطفة الكاسحة. وبعد نجاح الألمان في إيصال فرقهم العسكرية المدرعة عبر البحر إلى ليبيا، انتقل التشديد إلى القتال ضد الدروع. بعد ذلك بقليل، بينت خسارة كريت ماذا يمكن أن يعمل بالمظليين والقوات المحمولة جواً، وتم إعداد التكتيكات للتعامل معها. أخيراً أدى القتال بطريقة حرب العصابات الروسية خلف الخطوط الألمانية، إلى تجديد التأكيد على حرب العصابات والتخريب. كل هذه النزعات المتتالية انعكست في الأدب الغزير الرسمي وغير الرسمي الذي نشأ وتطور مسبقاً حول الحرس الوطني.

يعتبر الحرس الوطني الآن قوة خطيرة قادرة على مقاومة قوية لفترة قصيرة في أي حال، فلا يستطيع أي غازٍ الانتقال لأكثر من بضعة أميال عبر الريف المفتوح، أو أكثر من بضع مئات من الياردات في البلدات الكبيرة، من دون أن يجد عقدة من الرجال المسلحين. يمكن الاعتماد

على المعنويات بشكل مطلق وأكيد، لكن الرغبة في ارتكاب أعمال تخريب ومواصلة القتال في أراضي محتلة نظرياً يتنوع حسب الآراء السياسية للوحدات العسكرية المختلفة. هناك صعوبات جمة وجلية في طريقة إبقاء هذه القوة في الميدان لأكثر من أسبوع أو اثنين في الوقت الواحد. وإن كان هناك قتال مطول في إنكلترا، فقد يندمج الحرس الوطني في الجيش النظامي بالتدريج ويفقد طابعه التطوعي المحلي. إن الصعوبة الأكبر هي في التزويد بضباط. رغم عدم وجود تمييز طبقي ولو نظرياً، يقود الحرس الوطني عملياً ضباط على أساس طبقي بشكل أكبر من الحالة في الجيش النظامي، وليس من السهل أيضاً كيف يمكن تحاشي هذا حتى لو كانت الرغبة موجودة. في أي جيش يميل الأشخاص من الطبقتين الوسطى والعليا إلى الحصول على مواقع القيادة - حدث هذا في الميليشيات الإسبانية الأولى، وحدث في الحرب الأهلية الروسية - وفي القوة التي تعتمد على وقت فراغ أفرادها، لا يستطيع الشغيل العادي أن يجد وقتاً للقيام بروتين قائد الفصيلة أو السرية الإداري. أيضاً لا تقدم الحكومة مساعدات مالية لقائد الفصيلة سوى مكافأة رمزية حين يكون الرجال في العمل طوال الليل ومؤن السلاح والبذلات الرسمية. لا يستطيع المرء التآمر على جنود من دون اكتساب نفقات صغيرة ثابتة، ومبلغ خمسين جنيهاً سنوياً هو الحد الأدنى الذي يصرفه أي ضابط مفوض على وحدته. هذا يعني عملياً أن كل المناصب القيادية تقريباً بيد الكولونيلات المتقاعدين أو الأشخاص الذين لديهم دخول خاصة، وفي أفضل الأحوال رجال الأعمال الأثرياء ونسبة محترمة من الضباط من كبار السن الذين شاركوا في حرب ١٩١٤ بالإضافة إلى الحروب التي تلتها. في حالة القتال المطول، قد يكون من الضروري التخلص من عدد كبير من الضباط يصل إلى النصف. يعرف الجنود العاديون كيف تستقيم الأمور، وسيبتكرون طريقة ما لانتخاب ضباطهم إن تطلبت الحاجة. لقد نوقش انتخاب الضباط بين الرتب الدنيا أحياناً، لكن لم يطبق إلا في بعض وحدات المصانع، كما أعتقد.

لم يعد طاقم الحرس الوطني وكادره نفس الهيئة التي كانت في البداية. الرجال الذين اندفعوا أفواجاً في الصفوف في الأيام القليلة الأولى، كان أغلبهم من الرجال الذين حاربوا في الحرب الأخيرة، وكانوا كباراً جداً على هذه الحرب. الأسلحة التي وزعت ذهبت إلى أيدي الناس المعادين للفاشية تقريباً، لكنهم غير مثقفين سياسياً. الخميرة الوحيدة هي قلة من عمال

المصانع الواعين طبقياً وحفنة من الرجال الذي حاربوا في الحرب الأهلية الإسبانية. اليسار كالعادة فشل في أن يرى فرصته - كان بإمكان حزب العمل أن يجعل الحرس الوطني منظمته الخاصة به لو تصرف بقوة في الأيام القليلة الأولى - وفي دوائر اليسار كان الرائج وصف الحرس الوطني كمنظمة فاشية. فيما بعد حين وُزعت الأسلحة كانت الفكرة أن من الجيد امتلاك بعضها، فبدأوا في الدخول. ووجد عدد معين من مثقفي اليسار طريقهم إلى داخل صفوف الجيش. لم يكن ممكناً أبداً الحصول على دفق كبير من حزب العمل، ولكن أغلب المجندين الراغبين كانوا دائماً الناس الذين كان مثالهم الأعلى تشرشل. القوة التثقيفية الرئيسية ضمن الحركة كانت مدرسة التدريب التي أنشأها توم وينترنغهام وهوغ سلاتر وآخرون وخصوصاً في الأشهر القليلة الأولى قبل أن تتولى وزارة الحرب قيادتهم. كانت تعاليمهم عسكرية صرفة، لكن مع الإصرار على طرق حرب العصابات التي فيها مضامين ثورية، كانت مفهومة تماماً من قبل الكثيرين من الرجال الذين كانوا يصغون إليها. الحزب الشيوعي منع أعضاءه منذ البداية من الانضمام إلى الحرس الوطني، وشن حملة شعواء من القذف ضد وينترينغهام وشركاه. خلال الأشهر الأخيرة، جرد التجنيد العسكري الإجباري تقريباً الحرس الوطني من الرجال الذين بين العشرين والأربعين من العمر، لكن في الوقت نفسه كان هناك دفق من صبيان الطبقة العاملة من أعمار السابعة عشرة. أغلبهم غير مسيسين تماماً في مواقفهم. وحين سئلوا عن سبب انضمامهم، قالوا إنهم يريدون الحصول على بعض التدريب العسكري ضد الزمن حين يستعدون للخدمة العسكرية الإلزامية بعد ثلاث سنوات. هذا يعكس حقيقة أن الكثيرين من الشعب الإنكليزي لا يستطيعون الآن أن يتخيلوا وقتاً لا تكون فيه حرب. وهناك أيضاً عدد لا بأس به من الأجانب في الحرس الوطني. في فترة الهلع في السنة الماضية تم إقصاؤهم بشكل صارم. إحدى وظائفي الأولى كانت أن ألف على تهدئة وإرضاء الأعضاء المحتملين الذين رفضوا لأنهم لم يكونوا من أصل بريطاني من جهة الأب والأم كليهما. أحد الرجال رفض لأن أمه أو أباه كان أجنبياً ولم يجنس حتى عام ١٩٠٢. الآن أسقطت هذه الأفكار. وفي وحدات لندن، هناك روس وتشيك وبولونيون وزنوج وأمريكان، لكن لا ألمان أو طليان. لن أقسم إن الموقف السائد في الحرس الوطني أكثر "يسارية" من العام الماضي. إنه يعكس الموقف العام للبلاد الذي تحول إلى هذا الشكل وذلك في غضون السنة

الماضية مثل باب على مفصلاته. لكن النقاشات السياسية التي يسمعها المرء في المطاعم المتنقلة وغرف الحرس الوطني، أكثر ذكاء مما كانت، كما كان لانتفاضة المشاعر وسط الشباب من كل الطبقات الذين أجبروا الآن على علاقة حميمة لوقت طويل، فائدة جمة.

يستطيع المرء رؤية مستقبل الحرس الوطني إلى نقطة ما. حتى لو تبين عدم وجود غزو، فلن يُحل قبل نهاية الحرب وربما إلى ما بعدها، وسيلعب دوراً مهماً إن كانت هناك أية محاولة من نوع سلام بيتان أو في أي اقتتال داخلي بعد الحرب. إنه يمارس تأثيراً سياسياً قليلاً على الجيش النظامي وسيمارس تأثيراً أكبر تحت ظروف خدمة نشطة. لقد شُكل في البداية، لأن إنكلترا بلاد محافظة؛ حيث يمكن الاعتماد على انصياع الناس العاديين للقانون، لكنه بمجرد أن أصبح كياناً وفر عاملاً سياسياً لم يوجد قط في بريطانيا من قبل. ربع مليون عامل بريطاني يملكون بنادق في غرف نومهم الآن، ولا يرغبون في التخلي عنها أبداً. إن الإمكانيات المتضمنة في ذلك لا تحتاج إلى إشارة.

أرى أنني كتبت أكثر مما نويت. بدأت في كتابة الرسالة في ١٧ أغسطس/ آب وأنهيتها في الـ ٢٥ منه. لقد زحف الروس والبريطانيون إلى داخل إيران، وهذا أفرح الجميع. استمتعنا بصيف جيل نوعاً ما، وحصل الناس على بعض من أشعة الشمس في عظامهم لتساعدهم خلال الشتاء. لم نتعرض لندن لغارة جوية حقيقية منذ أربعة أشهر تقريباً. أجزاء من إيست ايند فارغة ومهدمة تماماً، والمدينة كتلة من الخراب، لكن كنيسة القديس بول لم تمس وتقف بارزة مثل صخرة هائلة. أما الأجزاء التي تعرضت لقصف أقل من لندن، فقد نُظفت تماماً لدرجة لن تعرف أنها تضررت أبداً. حين أقف على سطح هذه الكتلة العالية من الشقق التي أسكن فيها وأنظر حولي، لا أرى أي أضرار قصف في أي مكان ماعدا بضع كنائس انفصلت أبراجها من الوسط مما جعلها تبدو مثل سحالٍ فقدت ذيولها. لا يوجد عجز حقيقي في الطعام، لكن نقص الأطعمة المركزة (لحم، لحم الخنزير المقدد، والجبن، والبيض) يسبب نقص تغذية خطير وسط العمال الذين يبذلون جهداً كبيراً كعمال المناجم الذين يضطرون إلى تناول وجبة منتصف النهار بعيداً عن البيت. هناك ندرة مزمنة في السجائر وعجز محلي في البيرة. بعض بائعي التبغ يعتبرون أن مقدار التبغ المدخن بلغت نسبة أربعين في المائة منذ الحرب. الأجور لا تتماشى مع الأسعار، لكن من جانب آخر، ليس هناك بطالة. وبالرغم من أن الأجر

الفردي أقل مما كان عليه، إلا أن دخل العائلة أعلى. الثياب خضعت لنظام التقنين الصارم، لكن الحشود في الشوارع ليست رثة بشكل ملحوظ بعد. أتساءل كثيراً كم أتلفنا كلنا تحت تأثير الحر وكم حجم الصدمة التي سيشعر بها المرء إن استطاع أن يرى لندن التي كانت قبل ثلاث سنوات جنباً إلى جنب مع لندن الآن. لكنها كانت عملية حدثت بالتدريج ولم نلاحظ أي تغير. لا أستطيع أن أتخيل سماء لندن بدون ستار المناطيد، ويجب أن أشعر بالأسف إن رأيتها تذهب.

آرثر كوستلر الذي ربما تعرفون عمله، هو جندي في الرواد، وفرانز بوركيناو مؤلف الحلبة الإسبانية والشيوعي الأممي، الذي رحل قسراً إلى استراليا أثناء هلع السنة الماضية، عاد إلى إنكلترا، ولويس ماكنيس ووليام ايمبسون يعملان للبي بي سي، وديلان توماس في الجيش، وآرثر كلادر - مارشال أصبح ضابطاً، وعاد توم وينترينغهام مرة أخرى كمدرس في الحرس الوطني بعد أن استقال فترة. في الوقت الحالي اعترف الروس بمقتل ٧٠٠ ألف شخص، والجيوش تتجمع في ستالينغراد من نفس الطرق التي سلكتها قبل اثنين وعشرين سنة. لم أتوقع أبداً أنني سأعيش لأقول "حظاً طيباً" للرفيق ستالين، لكنني سأفعل.

المخلص لكم - جورج أورويل

ملاحظة: يجب أن أضيف كلمة عن تلك "الرسالة" المروعة من الروائي الروسي أليكسي تولستوي للكتاب البريطانيين، مع القصص الوحشية القديمة التي نُقب عنها واستخرجت من ١٩١٤ وظهرت في عدد سبتمبر/ أيلول من صحيفة ذا هورايزن. تلك هي صورة الحرب وطبيعتها التي تخيفني أكثر من الغارات الجوية. لكن أتمنى من شعب في الولايات المتحدة الأمريكية ألا يتصور أن الشعب هنا يأخذ هذا الهراء على محمل الجد، فكل الذين أعرفهم يضحكون حين يسمعون الكلام القديم حول ربط الألمان بقيود إلى مدافعهم الرشاشة.

بارتيزان ريفيو

نوفمبر/ تشرين ثاني - كانون أول ١٩٤١

رسالة لندن
إلى البارتيزان ريفيو ١٩٤١

أعزائي المحررين،

لا يحدث شيء سياسي في إنكلترا في هذه اللحظة. وبما أننا أمام حرب استنزاف طويلة بانتظارنا، فإن المعنويات العالية بالغة الأهمية فيها. أريد أن أستغل معظم الرسالة في مناقشة تيارات فكرية راهنة تتحرك ذهاباً وإياباً تحت السطح. قد تعني بعض النزعات القليل في الوقت الحالي، لكنها تخبرنا شيئاً عن التطورات الممكنة المستقبلية.

نحن نقاتل ضد من؟

بدأ هذا السؤال الذي يجب أن يجد إجابة له عاجلاً أم آجلاً، يقلق الجمهور الكبير لبعض الوقت من عام ١٩٤١ بعد كراريس فانيسيتارت وإطلاق صحيفة يومية ألمانية للاجئين (داي زيتونغ، يسارية معتدلة توزيعها ٦٠ ألف نسخة). ترى فرضية فانيستاريت أن كل الألمان شريرين، وليس النازيين فقط. لا حاجة لي أن أخبركم كيف انقض البليمبز بمرح كبير عليها، كوسيلة للهروب من فكرة أننا نقاتل ضد الفاشية. لكن مؤخراً أخذ خط "الألماني الطيب الوحيد هو الألماني الميت" الشكل الأكثر شؤماً حملة جديدة ضد اللاجئين. ارتكب الملكيون النمساويون خطأ بحق الأجنحة اليسارية الألمانية التي اتهموها بتأييد الألمان سراً، وهذا أبهج البليمبز الذين يحاولون دائماً خداع عدويهما الاثنين ألمانيا والاشتراكية في الوقت نفسه. تم الوصول إلى الهدف، حين بات كل من يصف نفسه عدواً للفاشية مشتبهاً به بتهمة مؤيد للألمان. لكن السؤال أكثر تعقيداً، بسبب حقيقة أن البليمبز لديهم قدر محدد من الصواب إلى جانبهم. فانيساريت على الرغم من أنه يكتب على نحو رديء، إلا أنه رجل قادر، ولديه تجربة أكثر من أغلب خصومه، وأصر على حقيقتين اثنتين بذلت النخبة أقصى قدرتها للتعتيم عليهما. الأولى أن الفلسفة النازية ليست جديدة، وإنما مجرد استمرار للرابطة الألمانية؛ والحقيقة الأخرى أن بريطانيا لا تستطيع أن تمتلك سياسة

أوروبية من دون أن تمتلك جيشاً. النخبة (الورديون) لا تستطيع الاعتراف بأن الجماهير الألمانية تقف خلف هتلر، أكثر مما يستطيع البليمبز الاعتراف أن طبقتهم يجب أن تُزاح من السلطة، إن كان علينا أن نكسب الحرب. احتدم النزاع لأربعة أشهر أو أكثر في أعمدة المراسلة في صحف كثيرة، وإحدى الصحف حافظت على استمراره كوسيلة لاصطياد اللاجئين و"الحمر" عموماً. لكن لم يبث أحد أي نظريات عنصرية عن ألمانيا، وهذا تقدم عظيم على الدعاية الحربية عام ١٩١٤ - ١٩١٨.

لا يبدو أن العمال العاديين يكرهون الألمان أو أنهم يميزون بين الألمان والنازيين. كان هناك في كل الأماكن مشاعر عنيفة معادية للألمان في وقت الغارات الجوية السيئة، لكنها خمدت. مصطلح "هون" لم يدرج ويشيع وسط أفراد الطبقات العاملة هذه المرة، وقد لقبوا الألمان بـ "جيري" التي ربما لها معنى فاحش غير حاد، لكنه ليس معادياً. ووقع اللوم على هتلر من أجل كل شيء، وبشكل أكثر من القيصر خلال الحرب الأخيرة. واعتدنا أن نسمع بعد الغارة الجوية الناس يقولون "هو كان فوق مرة أخرى ليلة أمس"، طبعاً المقصود بهو هتلر. ولقبوا الإيطاليين عموماً بالعيون المعصوبة، وهي أقل عدوانية من كلمة ووبس، ولا يوجد شعور شعبي ضدهم أياً كان ولا ضد اليابانيين أيضاً. وبالحكم من خلال الصور في الصحف، فإن فتيات الأرض جاهزات لمواعدة الأسرى العاملين في المزارع. أما بالنسبة إلى الأمم الأصغر التي يفترض أنها كانت في حالة حرب معنا، فلا أحد يتذكر أسماءها حتى. النسوة اللواتي كن مشغولات في حياكة الجوارب للفنلنديين في السنة الماضية، منشغلات الآن في حياكتها للروس، لكن ليس هناك مشاعر سيئة. الانطباع الرئيسي الذي يستمده المرء من كل هذه الفوضى في الآراء، أن عدم وجود هدف إيجابي للحرب أو حتى أي صورة عقلية محددة للعدو، لا يشكل أهمية بالنسبة إلى الناس المتفقين في رفضهم أن يحكمهم الأجانب.

حلفاؤنا

مهما يمكن أن يحدث بين المسؤولين الكبار، فقد كان للتحالف الروسي أثر في زيادة المشاعر المؤيدة للروس. من المستحيل مناقشة الحرب مع الطبقة العاملة وأفراد الطبقة الوسطى من

دون أن تشعر بهذا. لكن الحماس الذي يشعر به الناس العاديون نحو روسيا، ليس مقروناً مع أوهى اهتمام في النظام السياسي الروسي. كل الذي حدث أن روسيا باتت محترمة. راية هائلة للمطرقة والمنجل ترفرف يومياً فوق سيلفريدج أكبر متجر في لندن. لم يسبب الشيوعيون الكثير من الاحتكاك كما توقعت. كانوا لبقين في ملصقاتهم وبياناتهم العامة، وذهبوا إلى أبعاد غير مسبوقة بتأييد تشرشل، ولا يبدو أنهم كسبوا في النفوذ السياسي، رغم أنهم كسبوا في الإعداد نتيجة التحالف الروسي. المدهش أن الناس العاديين لم يدركوا وجود أي رابط بين موسكو والحزب الشيوعي، أو حتى أن السياسة الشيوعية تبدلت كنتيجة لدخول روسيا في الحرب. كل واحد مسرور أن الألمان فشلوا في الاستيلاء على موسكو، لكن لا أحد يرى في هذا أي مبرر للانتباه إلى ما يمكن أن يقوله بالم دوت وشركاه. عملياً هذا الموقف معقول ومحسوس، لكن في صميمه يكمن نقص عميق من الاهتمام بعلم السياسة النظري. لم يرفع الحظر عن الديلي ووركر، فبعد أن حظرت مباشرة، ظهرت ثانية كجريدة مصنع طبعت بصورة غير شرعية، وتم التغاضي عنها، والآن تباع في الشوارع من دون تدخل، تحت عنوان البريتش ووركر، لكنها لم تعد جريدة يومية، وفقدت جلّ توزيعها. في أقسام الصحافة الأهم، لم يسترد الشيوعيون تأثيرهم.

ليس هناك زيادة مماثلة في الشعور المؤيد لأمريكا - إن حدث شيء فهو العكس. صحيح أن دخول اليابان وأمريكا في حرب كان متوقعاً من الجميع، أما الغزو الألماني لروسيا، فقد جاء مفاجئاً. لقد سبب تحالفنا الجديد بوضوح قدراً هائلاً من الشعور المعادي لأمريكا وسط الطبقة الوسطى العادية ضئيلة الثقافة. إن المشاعر الإنكليزية الثقافية نحو الأمريكان معقدة، لكن يمكن تحديدها بدقة. في الطبقة الوسطى، الناس غير المعادين للأمريكان هم أنموذج التقنيون المنخفضة رتبتهم الطبقية الاجتماعية (مثل مهندسي الراديو) والمثقفين الصغار. إلى عام ١٩٣٠ كان كل الناس "المثقفين" تقريباً يشمئزون من الولايات المتحدة الأمريكية التي اعتبرت مُفسدة إنكلترا وأوروبا. إن زوال هذا الموقف متصل ربما بسقوط اللغتين اللاتينية والإغريقية من موقعها المهيمن كمواد دراسية. ليس لدى المثقفين الأصغر عمراً أي اعتراض على اللغة الأمريكية، ويميلون إلى يكون لهم موقف مازوشي نحو الولايات المتحدة الأمريكية

التي يعتقدون أنها أغنى وأقوى من بريطانيا. طبعاً هذا هو بالضبط الذي يهيج الغيرة في نفس المواطن العادي من الطبقة الوسطى. أعرف أناساً يطفئون الراديو آلياً حالما يأتي أي خبر أمريكي، بينما يحظى أتفه فيلم بريطاني بدعم الطبقة الوسطى لأنه "راحة كبيرة للابتعاد عن تلك الأصوات الأمريكية". يُعتقد أن الأمريكيين متبجحون وسيئو السلوك وعبدة مال ومتهمون بالتآمر ليرثوا الإمبراطورية البريطانية. هناك غيرة تجارية أيضاً، وهي قوية في المهن التي ضربتها اتفاقية الإعارة والتأجير (اتفاقية تعير فيها أمريكا المدمرات والسفن لبريطانيا، مقابل استخدام الأولى للقواعد العسكرية للثانية - المترجم). موقف الطبقة العاملة مختلف تماماً. أفراد الطبقة العاملة الإنكليزية يكرهون الأمريكان دائماً حين يكونوا على تماس مباشر معهم، لكنه ليس لديهم عداء ثقافياً مسبقاً لهم. في البلدات الكبيرة يتأمركون أكثر فأكثر في كلامهم بتأثير أفلام السينما.

من غير المؤكد إن كان الرهاب من الأجانب في إنكلترا كسره حضور أعداد كبيرة من الأجانب أم لا. أعتقد أنه فعل، لكن عدداً وافراً من الناس يختلفون معي. ليس هناك شك بأن شك الطبقة العاملة بالأجانب في صيف ١٩٤٠ مكّن من اعتقال اللاجئين. تكلمت مع عدد لا يحصى من الناس آنذاك، ولم أجد أحداً باستثناء المثقفين اليساريين، من رأى خطأ في ذلك. لاحق البليمبس اللاجئين، لأن أغلبهم كانوا من الاشتراكيين، وكان خط الطبقة العاملة "ماذا يريدون من مجيئهم إلى هنا؟" يكمن تحت هذا أثر من فترة أسبق، امتعاض ضد هؤلاء الأجانب الذين كانوا يأخذون وظائف الإنكليز كما تصوروا. في السنوات التي سبقت الحرب كانت معارضة النقابات العمالية هي التي منعت التدفق الكبير للاجئين اليهود الألمان. أصبحت المشاعر الحديثة أكثر ودية، لأنه لم يعد هناك اندفاع على الوظائف جزئياً، وجزئياً برأيي أيضاً يعود إلى الاتصالات الشخصية. القوات الأجنبية التي سكنت هنا بأعداد كبيرة، يبدو أنها تآلفت جيداً مع السكان، فقد حقق البولونيون بشكل خاص نجاحاً كبيراً مع الفتيات. من جانب آخر هناك مقدار معين من العداء للسامية. يصادف المرء دائماً جيوباً منها، عنيفة جداً وواضحة لدرجة مزعجة. يُفترض أن اليهود يتهربون من الخدمة العسكرية، وأنهم أسوأ المذنبين في السوق السوداء..إلخ. وقد سمعت هذا النوع من الحديث حتى من أهالي

الريف الذين ربما لم يروا يهودياً قط في حياتهم، لكن لا أحد يريد أن يفعل أي شيء لليهود فعلياً، ولا يبدو أن فكرة أن اليهود مسؤولين عن الحرب قد راجت وانتشرت وسط الجمهور الكبير، رغم محاولات الراديو الألماني.

الانهزامية والدعاية الألمانية

استرضاء من نوع تشامبرلاين لم "يمت"، كما تؤكد لنا الصحف باستمرار، وهو كامن في الأسفل. لكن هناك مدرسة أخرى من انهزامية الجناح اليميني التي يمكن دراستها بشكل مناسب في صحيفة ذا ترث الأسبوعية. لصحيفة ترث تاريخ غريب وتأثير واضح. في السابق كانت صحيفة واقعية غير سياسية متخصصة بشكل أنيق من تقليب القذارة (كشف خداع براءات الأدوية..إلخ) وقوبلت كأمر طبيعي في كل نادٍ ومطعم عسكري في كل أرجاء أوروبا. حسب معرفتي لا يزال توزيعها نفسه، لكن مؤخراً أخذت خطاً سياسياً واقتصادياً واضحاً، وأصبحت معقلاً لأسوأ نوع من تورية (رجعية) الجناح اليمني. السير ابرنست بن مثلاً، يكتب فيها أسبوعياً. هي ليست معادية للعمال، وإنما معادية لتشرشل بطريقة حذرة ومعادية للروس والأكثر وضوحاً معادية للأمريكان. إنها تعارض تبادل القواعد البحرية مقابل المدمرات الأمريكية. أما المعارضون الآخرون، فكانوا أصحاب القمصان السود والشيوعيين. الاستراتيجية التي تدافع عنها، تجنب التحالفات المربكة والابتعاد عن أوروبا والتركيز على الدفاع عن النفس في البحر والجو. المنطق الواضح لهذا، هو عقد تسوية سلمية في أقرب فرصة ممكنة. كمية الإعلانات للبنوك وشركات التامين التي تحتويها الجريدة، تبين جيداً أنها من تلك الأحياء. وكشفت استجوابات في البرلمان مؤخراً، أن ملكيتها تعود إلى آلة حزب المحافظين جزئياً.

انهزاميو الجناح اليساري مختلفون تماماً وأكثر تشويقاً. واحد أو اثنان من الأحزاب السياسية الثانوية (الفوضويون البريطانيون الذين دونوا الغزو الألماني لروسيا بكراسة رهيبة وبارعة معادية للسوفيت بعنوان حقيقة روسيا) يتبعان خطاً مضمونه "انهزامي ثوري". حزب العمال المستقل الأول يبشر بما يرقى إلى المقترحات العشرة التي ذكرتها في البارتيزان ريفيو، لكن في شروط غامضة جداً، ولم توضح أبداً إن كان يؤيد الحرب أم لا.

لكن التطور المشوق فعلاً هو التطابق المتزايد بين الفاشية والسلامية، كلاهما تطابقاً بدرجة ما مع تطرفية "اليسار". موقف الشباب أهم من موقف ورديي النيوستيتمان الذين تاجروا بالحرب بين ١٩٣٥ و١٩٣٩ ثم كشروا حين اشتعلت الحرب. حسب معرفتي، فإن القسم الأعظم من إنتلجنسيا الشباب ضد الحرب، ولكن هذا لم يوقفهم من الخدمة في القوات المسلحة طبعاً - ولا يؤمنون بأي "حصن للديمقراطية" ويميلون إلى تفضيل ألمانيا على بريطانيا، ولم يشعروا بالرعب من الفاشية الذي نشعر به نحن الأكبر سناً. دخول روسيا الحرب، لم يبدل هذا. تجد الظاهرة الأغرب من الناس الذين بدأوا في شجب العنف وانتهوا بتعظيم هتلر والدفاع عنه. حافز عداء السامية قوي جداً رغم التلطيف المعتاد في النشر. لكن السلاميين الإنكليز الذين لديهم الشجاعة الفكرية والثقافية ليتأملوا عميقاً بأفكارهم، ليسوا كثيرين. وبما أنه لا يوجد جواب حقيقي لاتهام السلامية بأنها مؤيدة للفاشية موضوعياً، فكل الأدب السلامي شرعي، أقصد متخصص في تجنب القضايا المربكة. لنأخذ مثالاً واحداً، أثناء الفترة الأولى من الحرب، قبلت الصحيفة الشهرية السلامية أدلفي التي يحررها ميدلتون موري ظاهرياً، بالادعاء الألماني بأن ألمانيا دولة "اشتراكية" تحارب ضد بريطانيا "البلوتوقراطية - حكومة الأثرياء"، وساوت تقريباً بين ألمانيا وروسيا. غزو هتلر لروسيا تفّه هذا الخط الفكري. وفي الإصدارات الخمسة أو الستة التي تلت ذلك، أنجزت أدلفي العمل البطولي المدهش في عدم ذكر الحرب الروسية الألمانية. تورطت أدلفي مرة أو مرتين في مضايقة اليهود بطريقة معتدلة، وصحيفة بيس نيوز التي يحررها الآن ميدلتون موري أيضاً تتبع التقليد القديم في معارضة الحرب لأسباب مختلفة ومتنافرة، في لحظة لأن العنف شرير، وفي أخرى لأن السلام "سيحافظ على الإمبراطورية البريطانية" إلخ.

منذ سنوات كان هناك ميل إلى الفاشيين والمصلحين الرائجين للكتابة في نفس الصحف، وانضم إليهم السلاميون في الفترة الأخيرة. أمامي نسخة من صحيفة معادية للحرب الآن، تحتوي على مساهمات منها لدوق بيدفورد والكساندر كمفورت وجوليان سايمونز ورف روس ويليمسن. الكساندر كمفورت سلامي "بحت" من مدرسة الخد الآخر. دوق بدفورد

واحد من الداعمين الأساسيين لحركة دوغلاس كريدت منذ سنين، وهو أيضاً أنجليكاني ورع وسلمي أو شبه سلمي واحد كبار ملاكي الأراضي. في الأشهر الأولى من الحرب (بعدئذ ماركيز تافيستوك) ذهب إلى دوبلن بمبادرة منه، وأحرز، أو حاول ذلك، شروط مسودة سلام من السفارة الألمانية، ومؤخراً نشر كراريس تلحّ على استحالة الفوز بالحرب، وتصف هتلر بأنه رجل أسيء فهمه، ولم يختبر إيمانه ووفاءه قط. هيغ روس ويليامسن اختلط بالحركة الفاشية لبعض الوقت، لكن في القسم المنشق منها التي ينتمي إليها وليام جويس ("لورد هاو - هاو"). قبل الحرب تماماً شكل مع آخرين حزباً فاشياً جديداً سمى نفسه حزب الشعب، وكان دوق بدفورد عضواً فيه. لم يحقق حزب الشعب أي شيء. وفي الفترة الأولى من الحرب، كرس ويليامسن نفسه لمحاولة إحداث لقاء بين الشيوعيين وأتباع موسلي. ترون هنا مثالاً لما أعنيه بالتطابق بين الفاشية والسلمية.

ما هو مشوق، هو أن كل مقطع من الآراء المعادية للحرب، لديه مقطع من دعاية راديو ألمانيا كأنه ينتسب إليها. منذ اندلاع الحرب، لم يفلح الألمان إلا نادراً في توجيه دعاية مباشرة في إنكلترا، إلا من خلال الراديو. أفضل برامجهم الإذاعية المشهورة، في الواقع البرامج الوحيدة التي يمكن القول عنها إنها نالت الاستماع إلى أي مدى مهم برامج وليام جويس. لا شك أن هناك كذباً مفرطاً غالباً، لكنه أنموذج مسؤول تقريباً من البث، موجه جيداً ويعطي إخباراً أكثر من كونه دعاية مباشرة. بالإضافة إلى ذلك، يحتفظ الألمان بأربع محطات زائفة، "الحرية" تعمل وتبث في القارة، لكنها تدعي أنها تفعل ذلك في إنكلترا بصورة غير شرعية. أفضلها وأشهرها محطة البث البريطانية الجديدة التي أعلن عنها أصحاب القمصان السود بواسطة الصور التي على ظهرها مادة لاصقة في بداية الحرب. إن الخط العام لهذه الإذاعات "أخبار لا تخضع للرقابة" أو "ما تخفيه الحكومة عنك". تؤثر بطريقة حسنة الاطلاع ومتشائمة لشخص من داخل الداخل، وتتبنى أرقاماً هائلة عن خسائر السفن والشحن..إلخ، وتحث على طرد تشرشل، وتتحدث بقلق عن "الخطر الشيوعي" وتعادي الأمريكان. اللهجة المعادية للأمريكان أقوى من برامج جويس. الأمريكان يخدعوننا باتفاق الإعارة والإيجار، ويمتصون الإمبراطورية بالتدريج..إلخ. إن

الأكثر إمتاعاً من محطة ذا نيو بريتش، هي محطة ذا ووركرز تشالينج. هذه المحطة تنتهج خطاً من الأحاديث الثورية الملتهبة تحت عناوين مثل "اطردوا تشرشل" يوجهها رجل عامل بريطاني أصلي، يستخدم الكثير من الكلمات التي لا تطبع. نحن يجب أن نطيح بالحكومة الرأسمالية الفاسدة التي تبيعنا للعدو، وننصّب حكومة اشتراكية تأتي لإنقاذ رفاقنا الأبطال من الجيش الأحمر وتمنحنا نصراً على الفاشية. (هذه المحطة لا تتردد في التحدث عن "خطر النازية" وفظائع الجستابو المرعبة..إلخ). إن محطة الووركرز تشالينج ليست انهزامية بشكل صريح، وخطها الدائم هو أن الأوان قد فات، وأن الجيش الأحمر انتهى، لكن ربما نقدر أن ننقذ أنفسنا إن استطعنا فقط أن "نطيح بالرأسمالية"، وهذا يجب أن يكون من خلال الإضرابات والتمرد والعصيان والتخريب في مصانع التسليح، وهلم جرا. محطتا "الحرية" المتبقيتان، هما كريستشان بيس موفمنت حركة السلام المسيحي (سلامية)، وراديو كاليدونيا (قومية اسكوتلندية).

ترون كيف أن كل نغمة من الدعاية الألمانية، توافق وتطابق زمرة موجودة أو محتملة. محطتا لورد هاو - هاو والنيو بريتش تستهدفان الطبقة الوسطى المعادية للأمريكان، بشكل عام الناس الذين يقرأون صحيفة ذا تروث والمصالح التجارية التي عانت وتضررت من الحرب. محطة الووركرز تشالينج تستهدف الشيوعيين واليساريين المتطرفين عموماً. الكريستيان بيس موفمنت تستهدف البي بي يو (بيس بليج يونيون). لكن لا أريد أن أعطي الانطباع بأن للدعاية الألمانية تأثيراً كبيراً في هذه اللحظة، فقد كانت فشلاً تاماً تقريباً وخصوصاً أثناء الأشهر الثمانية عشرة الأخيرة. أوحت أشياء متنوعة حدثت، بأن الألمان لم يستطيعوا الاطلاع جيداً على الأحوال الداخلية في إنكلترا منذ اندلاع الحرب، وفشل الكثير من دعايتهم حتى لو نالت الاستماع بسبب أخطاء نفسية بسيطة يستطيع كل من لديه معرفة حقيقية بإنكلترا تصحيحها. لكن النزعات المتنوعة للمشاعر الانهزامية موجودة هناك، وقد تكبر في وقت ما. في بعض ما قلته آنفاً قد أبدو أنني ذكرت أناساً وزمراً لا أهمية لهم ولا يستحقون الذكر، لكن في هذا التهريج الملطخ بالدم الذي نعيش فيه، لا يعرف المرء أبداً أي فرد غامض أو نظرية شبه معتوهة قد

لا تصبح مهمة. يبدو أنني ألاحظ نزعة عند المثقفين وخصوصاً الصغار منهم، أنهم تصالحوا مع الفاشية، وهذا شيء يجب الانتباه إليه. بات المثقف البائع لوطنه ظاهرة في السنتين الأخيرتين. سابقاً كنا نعتقد أن الفاشية مرعبة كأمر بديهي، وليس لأي شخص مفكر وعاقل أية علاقة بها، وأيضاً أن الفاشيين دائماً يمحون الإنتلجنسيا حين تتوفر لهم الفرصة، لكن كلا الافتراضين غير صحيح. كما استطعنا أن نرى مما حدث في فرنسا، فقد وجد كل من فيشي والألمان من السهل جداً الحفاظ على الواجهة الكاذبة "للثقافة الفرنسية" في البقاء. كان الكثير من المفكرين مستعدين للذهاب إلى هناك، وكان الألمان جاهزين تماماً للاستفادة منهم حتى حين كانوا من "الفاسدين المنحطين". في هذه اللحظة دريو لا روشيه يحرر نوفيل ريفيو فرانسيز (المجلة الفرنسية الجديدة) وباوند يجأر ضد اليهود في راديو روما، وسيلين ينال التكريم في معرض في باريس أو على الأقل كتبه. كل هذه تندرج تحت عنوان كلتربولشفيسموس (الثقافة البلشفية) لكنها أوراق مفيدة للعب ضد الإنتلجنسيا في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وإذا وصل الألمان إلى إنكلترا، فستحدث أشياء مماثلة، ويمكنني أن أفكر بقائمة أولية من أسماء الناس الذين سيذهبون إلى هناك.

ليست هناك أخبار كثيرة هنا. كل شيء هادئ على الجبهة الأدبية. النقص في الورق يُفضل ظهور الكتب القصيرة، وربما ذلك أفضل، وربما يعيد القصة القصيرة الطويلة التي لم تلق تعاملاً عادلاً في إنكلترا.

أخبرتكم بالخطأ في رسالة سابقة أن ديلان توماس كان في الجيش. إنه غير لائق بدنياً ويقوم بمهام لمحطة البي بي سي ووزارة الإعلام، وكذلك كل من كان كاتباً تقريباً وأغلبنا تحولنا إلى سكان أصليين.

وضع الطعام أفضل من قبل. لدينا الحلويات في عيد الميلاد، لكنها كانت أبهت من المعتاد. وضع التبغ صحيح نفسه، لكن عيدان الثقاب قليلة جداً. هم يضيفون الماء إلى البيرة مرة أخرى للمرة الثالثة منذ إعادة التسلح. الطلاء باللون الأسود خف تدريجياً بغياب الغارات الجوية. لا يزال هناك أناس ينامون في محطات السكك الحديدية، لكنهم

حفنة فقط في كل محطة. أقبية البيوت المدمرة بنيت بالقرميد وحولت إلى خزانات مياه في حال الحريق، وتبدو مثل حمامات رومانية، وتعطي الخرائب منظراً بومبياً أكثر من قبل. أثناء أسوأ الغارات، وضعت مخططات ضخمة لتسوية قطع قاحلة من الأرض، لتكون ملاعب باستخدام الأنقاض التي خلفتها القنابل كطبقة تحتية، لكن كل هذا توقف في منتصفه، إذ لم تعد هناك أنقاض وبقايا.

جورج أورويل

الأزمة البريطانية
رسالة إلى بارتيزان ريفيو ١٩٤٢

أعزائي المحررين

كتبت لكم أن بعض الأمور بدأت تسير في مسار خاطئ في الشرق الأقصى، ولم يحدث شيء سياسي. أنا متأكد الآن أننا على شفا أزمة سياسية توقعنها على مدار السنتين الماضيتين. إن الوضع معقد جداً، وأتوقع حدوث الكثير الذي سيزيف تكهناتي، لكنني سأقوم بأفضل تحليل أستطيعه. الحقيقة الأساسية أن كل الناس ضجروا وباتوا جاهزين لسياسة راديكالية كما كانوا في زمن دونكيرك، مع الاختلاف بأنهم يملكون قائداً كامناً أو يظنون كذلك في ستافورد كريبس. لا أقصد أن أعداداً كبيرة من الناس تطالب بقوة بتقديم الاشتراكية، وإنما أغلب الأمة تريد أشياء معينة، لا يمكن الحصول عليها في ظل الاقتصاد الرأسمالي، وهي مستعدة وراضية بدفع أي ثمن للحصول عليها. يبدو لي أن عدداً قليلاً من الناس يشعرون بالحاجة إلى تأميم الصناعة، لكن الجميع باستثناء قلة مستفيدة، يقبلون بالتأميم بلا تردد، لو أخبروهم بشكل رسمي وموثوق، أنهم لن يمتلكوا إنتاجاً حربياً فعالاً إلا بذلك. الحقيقة أن الاشتراكية ليست صيحة سباق، كما أن الغثيان واسع الانتشار من الأحزاب السياسية القديمة، واحد من مزايا هذا الزمن. إذاً ماذا سيفعل الناس؟ يجب أن أقول إن الناس يريدون مساواة اجتماعية أكبر واجتثاثاً نهائياً للقيادة السياسية، واستراتيجية حربية عدوانية، وتحالفاً أوثق مع جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، لكن يجب أن أنبه إلى خلفية هذه الرغبات، قبل محاولة التنبؤ بالتطور السياسي المحتمل الآن.

المساواة الاجتماعية

أوضحت الحرب للشعب الإنكليزي طبيعته الطبقية بطريقة حادة بطريقتين: الطريقة الأولى؛ الحقيقة التي لا تقبل الخطأ بأن كل السلطة الحقيقية تعتمد على الامتياز الطبقي. لن تحصل على وظائف محددة، إن لم تكن خريج مدرسة صحيحة، وإن فشلت وطردت،

سيتولى الوظيفة شخص آخر من المدارس الصحيحة. وهكذا تستمر العملية التي تجري من دون أن تلاحظ حينما تكون الأشياء في حالة ازدهار، لكنها تصبح واضحة جداً في أوقات الكارثة. الطريقة الثانية؛ هناك صعوبات الحرب التي خففت على كل واحد دخله أكثر من ٢٠٠٠ جنيه سنوياً. لا أريد أن أضجركم بالتفاصيل حول الطريقة التي كان يجري فيها التهرب من تقنين الطعام، لكن يجب أن تدركوا أنه بينما كان على الناس العاديين أن يعيشوا على حمية مزعجة ومملة ويستغنوا عن الرفاهيات التي اعتادوا عليها، لم يعانِ الأغنياء من شح كل شيء، باستثناء الخمور والفواكه والسكر. لا يمكنك ألا تتأثر بحصص الطعام من دون أن تخرق القانون. فقد كانت هناك سوق سوداء منتعشة، وهناك بيع غير قانوني للبنزين، وتملص منتشر وملحوظ من الضريبة. هذا لا يستمر من دون أن يلاحظ، لكن لم يحدث شيء إلى الآن، لعدم وجود إرادة للهجوم عليها حين تتطابق السلطة والمال تقريباً. سأعطي مثالاً واحداً: وزارة الغذاء توشك أن تقلل "أغذية الترف" بتقليص المبلغ الذي يمكن صرفه على وجبة في فندق أو مطعم، فقوبل هذا بمعارضة شديدة في الأماكن العليا، وقبل أن يمرر القانون، تمّ ابتداع طرق للتخلص منه، وتمت مناقشته بلا قناع في الصحف.

هناك توترات أخرى أحدثتها الحرب، ولكنها أقل وضوحاً من الغيرة التي سببتها السوق السوداء، أو استياء الجنود من أقنعة الغاز بأوامر من مجموعة حمقى من الضباط ومن توتر آخر من الامتعاض المتزايد من قبل القوات المسلحة، التي بُخس راتبها مقارنة بالأجر العالي الذي يأخذه عمال الذخيرة. لو جرى التعامل مع هذا برفع مرتبات الجنود إلى مستوى عمال الذخيرة، لكانت النتيجة إما التضخم، أو تحول العمال من الإنتاج الحربي إلى البضائع الاستهلاكية. إن العلاج الحقيقي الوحيد هو تقليص أجور العمال المدنيين أيضاً، الذي لا يمكن جعله مقبولاً إلا بواسطة أشد التخفيضات في كل الدخول، باختصار "شيوعية الحرب". بالإضافة إلى الصراع الطبقي بمعناه العادي هناك مشاعر من الغيرة عند البرجوازية أعمق مما يدركه الأجانب. إن كنت تتحدث بلهجة البي بي سي، يمكنك الحصول على وظائف لا يستطيع البروليتاري الحصول عليها، ولكن من المستحيل عليك أن تتجاوز نقطة محددة، إذا لم تكن تنتمي إلى القشرة العليا اجتماعياً. يشعر

الرجال القادرون في كل مكان أنهم يُبعدون من قبل بلهاء عاجزين من العائلات الريفية. يرتبط مع هذا الشعور المحطم الذي لدينا في بريطانيا في العشرين سنة الأخيرة، بأنه لو كنت ذكياً، فستنظر إليك القشرة العليا بعين الريبة، وستبعدك عن أية وظيفة مهمة حقاً. أثناء سنوات رأس المال الاستثماري أنتجنا حكماً رجعياً احتكر السلطة الرسمية والعسكرية ولديه كره غريزي للذكاء. هذا مهم ربما في إنكلترا أكثر منه في بلاد "جديدة" كالولايات المتحدة مثلاً: إنه يعني أن ضعفنا العسكري يتجاوز الضعف الموروث للدولة الرأسمالية. حين نجد موهوباً في إنكلترا في مركز مؤثر فعلاً، فهذا لأنه حدث وولد لعائلة أرستقراطية، الأمثلة: تشرشل وكريبس وماونتباتون، لكنهم رغم ذلك لا يصلون إلى هناك إلا في أوقات الكوارث، حين لا يريد الآخرون تحمل المسؤولية. باستثناء الأرستقراطيين، لا يستطيع الأشخاص المصنفون أذكياء وضع أيديهم على رافعات السلطة الحقيقية ويعرفون ذلك. طبعاً يظهر الأفراد الأذكياء في الطبقة العليا، لكن القضية طبقية أساساً: الطبقة الوسطى ضد الطبقة العليا.

القيادة السياسية

إن التقرير الذي صدر عن العلاقات العامة في مارس وأبريل بأن زمام السلطة لا يزال في يد تشرشل بقوة، هو تقرير خاطئ. إن مركز تشرشل مهزوز جداً. كان هذا صحيحاً حتى سقوط سنغافورة، حين كانت جماهير الشعب تحب تشرشل وتكره حكومته في الوقت نفسه، لكن في الأشهر الأخيرة انخفضت شعبيته كثيراً. بالإضافة إلى ذلك، هناك حزب التوري الذي يقف ضده (كان حزب التوري يكره تشرشل دائماً رغم أنه... لفترة طويلة) وبيفربروك الذي يلعب لعبة لم أفهمها تماماً، ولكن يفترض أن هدفها تقديم نفسه للسلطة. لن أعطي تشرشل أكثر من أشهر أخرى في السلطة، لكن بمن سيستبدل! فهذا غير واضح، ربما كريبس أو بيفربروك أو أحد آخر مثل السير جون أندرسون.

السبب أن كل من يعادي النازية منذ سقوط فرنسا وبعد، لم ير أحداً آخر غيره معروف جيداً ويقدر على استلام السلطة، ويمكن الوثوق من أنه لن يستسلم في الوقت نفسه. من العبث القول إنه كان ينبغي تنصيب حكومة اشتراكية في عام ١٩٤٠ لأن الأساس

الجماهيري كان موجوداً لكن القيادة السياسية لم تتوفر. لم تكن لدى حزب العمال الشجاعة، وانهزم الورديون، والشيوعيون كانوا يؤيدون النازية فعلياً، وعلى أي حال لم يكن في اليسار رجل واحد له سمعة حقيقية على مستوى الأمة. في الأشهر التي تلت، كان المطلوب هو العناد الذي لدى تشرشل الكثير منه. لكن الوضع تبدل الآن. إن الوضع الاستراتيجي أفضل بكثير مما كان عليه في العام ١٩٤٠ لكن أغلب الناس لا يؤمنون بهذا، فقد اشمأزوا من الهزائم التي أدركوا أن بعضها لم يكن ضرورياً، وتحرروا بالتدريج من الوهم، وأدركوا أن تشرشل لم يفعل شيئاً رغم خطاباته، فقد ظلت العصابة القديمة في السلطة. لأول مرة منذ أن وصل تشرشل إلى السلطة، بدأت الحكومة تخسر الانتخابات الفرعية. من الخمسة الأخيرة خسرت ثلاثة، وفي الاثنتين التي خسرتها واحدة أمام مرشح معارض كان معادياً للحرب (حزب العمال المستقل) والآخر من الانهزاميين. في كل هذه الانتخابات كان الإقبال على الاقتراع منخفضاً جداً، فقد وصل في إحدى الحالات إلى ٢٤٪ (وأغلب اقتراعات الحرب كانت منخفضة، لكن يجب على المرء أن يلغي شيئاً بسبب الانتقال الكبير للسكان). هناك فقدان واضح في الإيمان بالأحزاب القديمة، بالإضافة إلى عامل جديد، تمثل في حضور كريبس الذي يتمتع الآن بسمعة شخصية هامة. في اللحظة التي فيها الأمور سيئة جداً عاد من روسيا بوهج من التمجيد غير المستحق. في هذا الوقت نسي الناس الظروف التي اندلعت فيها الحرب الروسية الألمانية، وصدقوا كريبس بأنه جلب روسيا لتكون إلى جانبنا وفي صفنا. لكنه كان يعتمد على تاريخه السياسي السابق، وأنه لم يبع آراءه السياسية أبداً. هناك مبرر وجيه للاعتقاد أنه في تلك اللحظة، ومع عدم امتلاكه لآلة حزبية تحت تصرفه، لم يدرك ويتحقق من قوة مركزه الشخصي. ولو أنه خاطب الجمهور مباشرة عبر القنوات المفتوحة، لربما استطاع فرض سياسة أكثر راديكالية على الحكومة بخصوص تسوية كريمة مع الهند. وبدلاً من ذلك، ارتكب خطأً آخر في الدخول في الحكومة، وخطأً آخر يساويه في الذهاب إلى الهند، من أجل غرض كان متأكداً أنه سيُقابل بالرفض. لا أستطيع أن أنشر القليل الذي أعرفه عن التاريخ الداخلي لمفاوضات كريبس - نهرو، وعلى كل حال القصة أعقد من أن تكتب في رسالة بهذا الحجم. السؤال المهم إلى أي حد أفقد هذا الفشل مصداقية كريبس. الناس

المهتمون جداً بإلغاء المفاوضات، كانوا العصبة المؤيدة للنازيين في حزب المؤتمر الهندي والجناح اليميني البريطاني من التوريين. خطاب هاليفاكس الذي ألقاه في نيويورك في ذلك الوقت، فُهم هنا على أنه محاولة للدوس على أصابع الكثيرين من الهنود. وبهذا بات لقاء كريبس ونهرو صعباً جداً. تجري محاولة مشابهة من الطرف المعاكس في هذه اللحظة. النتيجة النهائية، أن سمعة كريبس قد تضررت في هذه البلاد وليس في الهند - إن تضررت - فذلك بسبب دخوله في الحكومة، وليس في فشله في دلهي.

لا أستطيع أن أدلي برأي جدير إن كان كريبس هو الرجل الذي يؤمن به الجمهور الكبير أم لا. إنه رجل نشيط غير مستقر سياسياً، ويتفق الذين يعرفونه على شيء واحد فقط، بأنه شريف وصادق. يستند موقعه على إيمان الشعب به، لأن ماكينة الحزب ضده تقريباً، ويريد التوريون ومؤيدوهم المؤقتون استخدامه ضد تشرشل وبيفربروك، ويعتقدون أنهم يستطيعون تحويله إلى قط أليف آخر مثل آتكي. يميل بعض من عمال المصانع إلى الشك به، فقد وصلتني إحدى التعليقات: إنه يشبه موسلي كثيراً جداً، ويكرهه الشيوعيون لأنه متهم بعدائه لستالين، ويبدو أن بيفربروك أسس للهجوم على كريبس، وتستغل صحفه ملاحظاته المعادية لستالين في الماضي. ألاحظ أن الألمان من خلال إذاعاتهم، يرغبون في رؤية كريبس في السلطة، إن تخلصوا من تشرشل بهذا الثمن، وربما يعتقدون أن التوريين سيخلعون كريبس عاجلاً بما أنه لا يعتمد على ماكينة حزبية، ويفسحون المجال للسير جون أندرسون أو لورد لندنديري أو آخر مثلهما. لا أستطيع القول حتى الآن بشكل مؤكد إن كريبس مجرد شخصية من الصنف الثاني علق عليها الجمهور آماله وعبارة عن فقاعة سببها السخط الشعبي، لكن على أي حال، فإن الطريقة التي يتحدث بها الناس عنه حين عاد من موسكو، مهمة بدلالاتها.

استراتيجية الحرب

هناك حديث لا نهاية له عن جبهة ثانية؛ فقد انقسم المؤيدون والمعارضون حسب توجهاتهم الحزبية. الكثير مما قيل جاهل جداً، لكن حتى الناس الذين لديهم القليل من المعرفة العسكرية، يرون أننا خسرنا في الأشهر القليلة الماضية بأعمال دفاعية عقيمة قوة لو

جمعت في مكان واحد واستخدمت هجومياً، لأنجزنا بها الكثير. الرأي العام متقدم على ما رأي من يسمون بالخبراء في قضايا الاستراتيجية الكبرى وفي التكتيك والأسلحة أحياناً. أنا شخصياً لا أعرف إن كانت الجبهة الثانية فكرة عملية، لأنني لا أعرف الوقائع حول وضع الشحن البحري. الدليل الوحيد الذي لدي أن وضع الغذاء لم يتبدل خلال السنة الماضية. يبدو أن السياسة الرسمية لا تحبذ فكرة الجبهة الثانية، لكن قد يكون ذلك مجرد خداع عسكري. أكدت صحف اليمين كثيراً على أهمية قصفنا الجوي لألمانيا، واقترحت إمكانية إنزال مليون جندي على طول الشاطئ الأوروبي بواسطة غارات مستمرة للفدائيين. إن الأخير هراء، لأن الفدائيون لا يستطيعون فعل الكثير حين تقصر الليالي، وبعد تجاربنا قلة من الناس هنا تعتقد أن القصف يمكن أن يحل شيئاً. على العموم الجمهور الكبير ذو عقلية هجومية ويسر، ويبتهج حين تظهر الحكومة انتهاكاً للقانون الدولي. وهناك أمثلة: إيران وسوريا ومدغشقر، تأخذ الحرب على محمل الجد. لا تطرح فكرة الهجوم على إسبانيا أو المغرب الإسبانية إلا نادراً (وهي المنطقة الملائمة والمشجعة من أجل فتح جبهة ثانية برأيي). لقد اتفق كل المراقبين على أن الجنود والكثير من الضباط الصغار ضجروا وانزعجوا إلى أبعد حد، لكن الحالة ليست مماثلة في البحرية وسلاح الجو الملكي، ومن السهل الحصول على مجندين للفيالق الخطرة مثل المغاوير وقوات المظلات. مؤخراً ظهرت كراريس مجهولة المصدر، تهاجم حكم البليمب وتلميع الأزرار..إلخ، وتُباع بشكل هائل. وهذا الخط تنهجه الديلي ميرور أيضاً، التي تعتبر مجلة الجنود المفضلة التي منعت تقريباً منذ بضعة أسابيع بسبب انتقادها القيادة العليا. من جانب آخر، تلاشت الكراريس التي تظهر عادة في الحروب سابقاً، وتتحدث عن مشاق الحياة العسكرية. ربما المهم والعرضي الآن، هي القصة المنتشرة الآن بشكل واسع، بأن السبب الحقيقي الذي جعل السلطة العليا تستمر بموقفها ضد تبني الطائرات القاذفة، لأن تصنيعها رخيص ولا تمثل ربحاً كثيراً. لا أعرف شيئاً حول حقيقة هذه القصة، لكنني ذكرتها لأن الكثير من الناس يصدقونها. فُسر خطاب تشرشل قبل بضعة أيام، الذي أشار فيه إلى استخدام الألمان المحتمل للغاز السام، على أنه إنذار ببدء حرب الغاز قريباً. تعليق معتاد: "أتمنى أن نستعمله نحن أولاً". يبدو لي أن الناس باتوا أقسى وأعنف في

مواقفهم، على الرغم من السخط العام وخلو الحرب من أي أهداف إيجابية. من الصعب تقدير حجم ومدى تأثر رجل الشارع العادي واهتمامه بكارثة سنغافورة. يبدو لي أن الطبقة العاملة متأثرة أكثر بفرار السفن الحربية الألمانية من بريست ونجاتها. يرى الرأي العام أن ألمانيا العدو الحقيقي، وفشلت كل الجهود الصحفية لإثارة الكره ضد الأعمال الوحشية اليابانية. فكرتي أن الناس سيستمرون في القتال، طالما ظلت ألمانيا في الميدان، لكن إن هُزمت ألمانيا، فلن يستمروا في الحرب ضد اليابان، إلا أن كان هناك هدف مبرر وحقيقي ومفهوم للحرب.

التحالف الروسي

أشرت في رسائل سابقة إلى الازدياد الكبير للشعور المؤيد للروس، لكن من الصعب معرفة عمقه. قال لي أحد التروتسكيين مؤخراً إنه يعتقد أن الروس بمقاومتهم الناجحة استعادوا كل الرصيد الذي خسروه بسبب معاهدة هتلر - ستالين والحرب الفنلندية. لكني لا أعتقد هذا؛ كل ما حدث أن الاتحاد السوفييتي كسب الكثير من المعجبين الذين لم يكن يمتلكهم سابقاً، لكن الكثير من مناصريه السابقين السذج أصبحوا أبعد نظراً وحكمة. يلاحظ المرء فجوة بين ما يقال علانية وبين ما يقال سراً. في العلن لا أحد يقول كلمة ضد الاتحاد السوفييتي، لكن في السر وعلى المستوى الشخصي وباستثناء الستالينيين "الخائبين والمحبطين" الذين يلتقيهم المرء باستمرار، ألاحظ موقفاً شكوكياً أكبر وسط الناس المفكرين. ويرى المرء هذا في الأحاديث عن الجبهة الثانية خصوصاً. إن الموقف الرسمي للموردين هو التالي: إن فتحنا جبهة ثانية، سيقر الروس بالجميل، ويصبحون رفاقنا إلى النهاية. في الواقع والحقيقة، إن فتح جبهة ثانية من دون اتفاق مسبق، سيعطي الروس الفرصة لعقد اتفاق سلام منفصل؛ لو استطعنا إبعاد الألمان عن أراضيهم، فما هو السبب الذي يدعوهم لمواصلة القتال؟ نظرية أخرى تفضلها صحف الجناح اليساري، وهي أنه كلما قاتلنا أكثر، سيكون رأينا وصوتنا أقوى في تسوية ما بعد الحرب. هذا وهم أيضاً؛ هؤلاء الذين يملون معاهدات السلام، هم هؤلاء الذين يظلون الأقوى، ما يعني عادة هؤلاء الذين ينجحون في تجنب الاشتراك في القتال (كالولايات المتحدة الأمريكية في

الحرب الأخيرة مثلاً). إن الأفكار والاعتبارات من هذا النوع نادراً ما تُنشر في الصحافة، لكنها مقبولة جداً بشكل شخصي وسري. أعتقد أن الناس لم ينسوا تماماً المعاهدة الروسية الألمانية، وأن الخوف من خيانة أخرى يفسر رغبتهم في تحالف أمتن. لكن هناك تأييداً عاطفياً كبيراً لروسيا مؤسس على الجهل، يلعبه كل أنواع المحتالين المعادين للاشتراكية علناً، لكنهم يرون أن الجيش الأحمر خط شعبي. يجب أن أعود إلى بعض الإشارات المحبِطة التي قمت بها في رسائل سابقة عن صحافة بيفربروك. بعد أن أعطى الحرية للصحفيين الذي يعملون عنده لمدة سنة أو أكثر وقام بعضهم بعمل جيد في تنوير الجمهور الكبير، عاد بيفربروك ثانية وهز السوط وجهز فريقه للعمل على مهاجمة تشرشل، وبشكل مباشر أكثر على كريبس. هو في وقت واحد يثرثر ضد إخضاع الوقود والبنزين لنظام الحصص (التقنين) وضد قيود أخرى على الرأسمالية الخاصة، ويقف كستاليني أكثر من الستالينيين. أغلب صحافة الجناح اليميني تتبنى الخط الحذر جداً في مدح "الشعب الروسي العظيم" (تطابقات تاريخية مع نابليون..إلخ) وتستمر في الوقت نفسه بالصمت حول طبيعة نظام الحكم الروسي. كلمة "الأممي" باتت تبث على الراديو أخيراً، وخطاب مولتوف عن الأعمال الوحشية الألمانية صدر ككتاب أبيض، لكن نزولاً عند رغبة شخص ما (لا أعرف إن كان ستالين أم الملك) حذفت الأسلحة الملكية من الغلاف. عموماً الناس يريدون الاستبشار بروسيا خيراً، رغم أنهم مازالوا معادين للشيوعية بشكل مبهم، وسوف يرحبون بإعلان مشترك عن أهداف الحرب وتعاون وثيق في الاستراتيجية. أعتقد أن الكثيرين من الناس يدركون أن تحالفاً قوياً مع روسيا أمر صعب، طالما ظل طاقم ميونيخ في السلطة، وأدرك عدد أقل بكثير منهم أن التقاعس السياسي النسبي للولايات المتحدة يمثل صعوبة أخرى.

ثورة أم كارثة

حسناً، هذا هو الوضع كما أراه. يبدو لي أننا عدنا إلى "الوضع الثوري" الذي وُجد ولم يُستغل بعد دونكيرك. من ذلك الوقت حتى عهد قريب جداً تتحرك أفكار المرء بالضرورة في سلسلة متعاقبة كالتالي:

لا نستطيع الفوز بالحرب مع بنيتنا الاجتماعية والاقتصادية الحالية.

البنية لن تتبدل، إذا لم يكن هناك نمو سريع في الوعي الشعبي.

الشيء الوحيد الذي يعزز هذا النمو، هو الكوارث العسكرية.

كارثة إضافية أخرى، وسنخسر الحرب.

في هذه الظروف، كل ما يقدر المرء على فعله أن "يؤيد الحرب"، وذلك يشمل تأييد تشرشل ويأمل انها كوم رايت اون ذا نايت، أي أن مجرد ضرورات الحرب والانجراف الحتمي نحو اقتصاد ممركز ومستوى معيشة أكثر مساواة، سوف تجبر نظام الحكم تدريجياً على الانتقال إلى اليسار، وتسمح بطرد ليفر آوت أسوأ الرجعيين. لا أحد عاقلاً يفترض أن الطبقات الحاكمة ستشرع بنفسها نسفها من الوجود، لكنها يمكن حشرها في موقع يكون استمرارها في السلطة فيه في مصلحة النازي بشكل واضح. في تلك الحالة غالبية الأمة ستنقلب ضدها، ويكون من الممكن التخلص منها بلا عنف أو بقليل منه. قبل شطب هذا كاستراتيجية "إصلاحي" يائس، يجدر التذكير بأن إنكلترا ضمن مدى بندقية القارة. الروح الانهزامية الثورية أو أي شيء يقاربها عمل أحمق وهراء في وضعنا الجغرافي. إن حدث خلل خطير في القوات المسلحة لمدة أسبوع واحد، سيكون النازيون هنا، وبعدها يتوقف الحديث عن الثورة أيضاً.

على نطاق ضيق حدثت أشياء كما تكهنت. يستطيع المرء أخيراً أن يميز حدود عالم الحرب الثورية. بريطانيا أجبرت على الدخول في تحالف مع روسيا والصين، وعلى إعادة ملك الحبشة، وعقد معاهدات كريمة ومنصفة مع بلدان الشرق الأوسط، وبسبب أشياء أخرى منها الحاجة إلى زيادة قوة جوية ضخمة، حدث خرق خطير في النظام الطبقي. الهزائم في الشرق الأقصى ذهبت بعيداً في قتل المفهوم القديم للإمبريالية، ولكن كانت هناك فجوة في السلم لم نتغلب عليها أبداً، والتي ربما كان التغلب عليها مستحيلاً في الوقت الذي لم يتواجد فيه حزب ثوري ولا قيادة يسارية قادرة. هذا قد يتبدل أو لا يتبدل بظهور كريبس. من المؤكد في اعتقادي، أنه سوف يظهر حزب سياسي جديد بالضرورة، إن كان هناك أي تغيير، وقد يسرع هذا في إفلاس الأحزاب القديمة. قد يفقد كريبس

بريقه بسرعة كبيرة، إن لم يخرج من الحكومة. لكن في الوقت الحالي وفي موقعه المعزول الغريب، هو الرجل المحتمل الأكبر لأية حكومة جديدة تتبلور. إن فشل، لينقذنا الرب من البدائل الأخرى المحتملة لتشرشل.

أفترض كالعادة أنني أطلت كثيراً. هناك تغيير كثير في حياتنا اليومية هنا. الأمة تستمر في الخبز الأسمر منذ بضعة أسابيع. حصة البنزين الأساسية تتوقف الشهر التالي، ما يعني نظرياً انتهاء قيادة السيارات الخاصة. ضرائب الرفاهية الجديدة مرعبة. علبة السجائر الآن بعشر شلنات، ويكلف الباينت الواحد من أرخص نوع من البيرة عشرة بنسات (أربع ١٩٣٦). الكل يعملون لفترات أطول وساعات أطول. بين الحين والآخر وعلى فواصل مدتها أسابيع، يخرج المرء رأسه فوق الماء لدقيقة، ويلاحظ باندهاش أن الأرض مازالت تدور حول الشمس. لاحظت في أحد الأيام الزعفران في الحدائق، وفي يوم آخر تفتح أشجار الأجاص، وفي آخر غيره الزعرور البري. يبدو أن المرء يلمح بشكل غامض هذه الأشياء من خلال غشاوة أخبار الحرب.

المخلص لكم دائماً

جورج أورويل



رسالة لندن إلى بارتيزان ريفيو
٢٩ أغسطس/آب ١٩٤٢ لندن، إنكلترا

أعزائي المحررين

أكتب هذه الرسالة في لحظة، من شبه المؤكد أن تغمرها الأحداث وتتجاوزها. نحن لانزال في نفس الحالة من الأزمة المجمدة، كما كنا منذ ثلاثة أشهر مضت. لايزال كريبس في المنصب بشكل محير، وقد فقد رصيده وسمعته بالتدريج مع اليسار، لكن مازال الكثيرون يعتقدون أنه ينتظر لحظته المناسبة ليترك الحكومة ويعلن عن سياسة ثورية. هكذا تطور كالذي حدث، هو توجه رجعي بالتأكيد. لاحظت بالإضافة إلى أناس كثيرين، زيادة واسعة في البليمبية (الرجعية) ونشاطاً ضد إعطاء الحرب لوناً معادياً للفاشية وتساقطاً عاماً للراديكالية المزيفة في السنتين الأخيرتين. قضية الهند نزعت الأقنعة عن وجوه كثيرة، ومنهم اللورد روثرمير. هذا يبدو انتهاكاً للمبدأ الذي يرى أن نظام حكم ينتقل إلى اليسار في لحظات الكارثة، والعكس صحيح، لأنه من الصعب على المرء أن يصف الأشهر الستة الأخيرة بالانتصار. لكن يبدو أن هناك شيئاً أو آخر جعل البليمبس يشعرون بثقة أكبر في أنفسهم.

هناك بضع أحداث سياسية ثانوية نسجلها. جماعة سيروا إلى الأمام التابعة للسير ريتشارد أكلاند الراديكالية المعتدلة (نوع من الاشتراكية المسيحية) اندمجت مع لجنة بريستلي ١٩٤١ الأقل راديكالية، وسمت هذه الحركة السياسية نفسها بالكومونويلث[1] وأعتقد أن

---

١ - لجنة ١٩٤١ تأسست في بداية ١٩٤١ من قبل مجموعة من المعلقين على الشؤون العامة اليساريين والسياسيين والوجهاء. جيه بي بريستلي، الروائي الذي جعله بثه الإذاعي في ١٩٤٠ شخصية وطنية، كان رئيس النقاشات، لكن أورويل يردد سوء فهم شعبي حين يسميها "لجنة بريستلي". هدفها كان الضغط على حكومة الائتلاف من خلال الإعلام المنشور وجماعات الضغط لصالح تغييرات اقتصادية وسياسية يسارية فورية. انشقاق داخل اللجنة أدى إلى انحلالها، وما بقي منها ظهر مع جماعة أكلاند "سيروا إلى الأمام" في يوليو/ تموز ١٩٤٢ لتشكيل حزب سياسي، كومنويلث.

الاندماج حدث ضد رغبة أكلاند، وانضموا الآن إلى الدياغوجي النافع توم وينترينغهام، لكن لا أعتقد أن هؤلاء الناس يؤخذون على محمل الجد، رغم أنهم فازوا بمقعد في الانتخابات الفرعية. دخلت التروتسكية الأخبار أخيراً بسبب الدعوة القضائية التي رفعت ضد الجريدة الأسبوعية سوشاليست ابيل، وأعتقد أنها مازالت تصدر رغم خطر المنع، ونجحتُ في الحصول على نسخة منها - نفس المادة المعتادة، لكنها ليست جريدة سيئة، ويصل عدد المجموعة المسؤولة عنها إلى خمسمائة. صحافة روثمير نشطة وفعالة خصوصاً في مطاردة التروتسكين. السنداي ديسباتش تشجب وتنتقد التروتسكية لنفس الأسباب التي يستخدمها الشيوعيون. السنداي ديسباتش واحدة من أسوأ صحف البواليع (جرائم وسيقان فتيات الكورس وعلم الاتحاد (إنكلترا واسكتلندا وايرلندا)) وتنتمي إلى الصحافة التي تفوقت على كل الآخرين قبل الحرب في تملق الفاشية والسجود لها، وظلت تصف هتلر حتى وقت متأخر في الأشهر الأولى من ١٩٣٩ بـ"الجنتلمان العظيم". ألغي الحظر عن الديلي وركر، وعادت إلى الظهور في ٧ سبتمبر/ أيلول، وهذا كان النتيجة الضرورية لرفع الحظر عن الصحافة الشيوعية في الهند. يهتم الأدب الشيوعي الآن أساساً في الحض على فتح جبهة ثانية، وقد صدرت كراريس أيضاً تهاجم كل أعضاء البرلمان من أي حزب يصوت ضد الحكومة. لا تختلف الكراريس المعادية للتروتسكية الصادرة الآن نادراً، عن تلك التي كانت في فترة الحرب الأهلية الإسبانية، لكنها تجاوزتها كثيراً في الكذب. حققت القضية الهندية بعض الحركة هنا، لكن أقل مما يتوقعه المرء، لأن الصحف الكبيرة تآمرت لتشويه الحقائق، والمثقفون الهنود في هذه البلاد يخرجون عن نهجهم ليخاصموا الناس المحتمل أن يساعدوهم. جدل وخلاف فانسيتارت يدوي في الكتب والكراريس وأعمدة المراسلة والمجلات النقدية الشهرية. المرشحون "المستقلون"، بعضهم دجالون بشكل صريح، يطوفون البلاد ويخوضون انتخابات فرعية وتشوب بعضهم مسحة من الفاشية، لكن ليس هناك علامة لظهور أية حركة فاشية.مكتبة .. سُر مَن قرأ

السير ريتشارد أكلاند ١٩٠٦ - أصبح عضو برلمان ليبرالي في ١٩٣٥. عند اندلاع الحرب أعلن اعتناقه للاشتراكية، كما فضل تسميتها الملكية العمومية المشتركة. بعد نشر كتابه الناجح **قتالنا**، وكتاب **بيان رسمي لرجل عادي**، شكل حركة صغيرة سماها "السير إلى الأمام".

كانت سياسات كومنويلث سياسات الاشتراكية الطوباوية، لكن أكلاند تحاشى العبارات الماركسية التقليدية، وأصر على أن أساس الثورة الاشتراكية، يجب أن يكون أخلاقياً وليس اقتصادياً. دعم كومنويلث الحرب بالإضافة إلى حزب العمال المستقل المعادي للحرب، وشكل المعارضة المنظمة الوحيدة للهدنة السياسية وحكومة تشرشل، كحزب فاز في الانتخابات الفرعية خلال الحرب، لكنه اخفق بشكل كارثي في انتخابات ١٩٤٥ العامة، حين خسر أكثر مرشحيه الثلاثة والعشرين بما فيهم أكلاند أماكنهم لصالح المعارضة العمالية. بعد ذلك انضم أكلاند ومعظم قادته إلى حزب العمال، واختفى الكومنويلث (الذي مازال موجوداً) من البرواز السياسي.

هذه كل الآراء السياسية التي تبدو لي. وكان في بالي منذ وقت مضى أنكم ربما تهتمون بالتغيرات الاجتماعية الثانوية التي حدثت في هذه البلاد، التي يمكن أن يطلق المرء عليها تسمية النتائج الآلية للحرب.

لقد تم التحكم بأسعار كل الأشياء، ما أدى إلى وجود سوق سوداء لأطعمة الترف. وكان الضرر المعنوي الناتج عن ذلك أقل من الاستغلال الصفيق الذي حدث في المرة السابقة. النقطة الممتعة والمهمة إن كانت القيود التي وضعت على الغذاء ستؤثر على الصحة العامة وإلى أية جهة ستبدل النظام الغذائي الوطني. عدد محدد من الناس من ذوي الدخول الثابتة الصغيرة - كالمتقاعدين من كبار السن مثلاً - في عسر مالي شديد، والحسومات التي تدفع لزوجات الجنود تافهة جداً، لكن القدرة الشرائية للطبقة العاملة ككل ازدادت. رأيي أن الناس في المتوسط يتغذون بشكل أفضل مما كانوا، والزيادة في مرض السل الذي له عدد من الأسباب، لكن سببه في بعض الحالات يعود إلى سوء التغذية بالتأكيد. على الرغم من صعوبة التأكد بدون معيار للمقارنة، إلا أنني أشعر أن ملامح الناس في لندن ومظهرهم أفضل مما كانت، وهم أكثر نشاطاً وفعالية. وبات المرء يرى عدداً أقل من الناس البدينين جداً. حتى قبل الحرب وحتى عندما كانت الأجور عالية جداً، كان الشعب الإنكليزي الشغيل يعيش على أسوأ نظام غذائي ضار يمكن تخيله، وأعادهم تقنين الطعام بالضرورة إلى غذاء أبسط. من الغريب أن نعلم مثلاً أن استهلاك الحليب بحصة من ثلاث بينتات للشخص البالغ، قد زاد

فعلياً منذ الحرب. كان الهبوط كبيراً وملموساً في استهلاك السكر والشاي. قبل الحرب عدد كبير من الناس كانوا يأكلون باوندات كثيرة من السكر أسبوعياً. أونستان من الشاي حصة بائسة بالمعايير الإنكليزية، لكن خففتها حقيقة أن الأولاد الصغار لا يشربون كل حصتهم المخصصة لهم من الشاي. إن إبريق الشاي الذي يغلي باستمرار، كان واحداً من أسس الحياة الإنكليزية في فترة الإعانة الحكومية، وأنا نفسي أفتقد الشاي، على الرغم من أنني لا أشك أننا أفضل بدونه. كما يعتبر الخبز المصنوع من دقيق القمح تحسناً أيضاً، لكن الناس الشغيلة لا يحبونه عادة.

تميل الحرب والتخلي عن المستوردات الناتجة عنها، إلى تحويلنا إلى النظام الغذائي الطبيعي لهذه الجزر المكون من دقيق الشوفان وسمك الرنجة والحليب والخضراوات الخضراء والتفاح، وهو غذاء صحي حتى لو كان مملاً. أنا لست متأكداً كم نتتج من طعامنا، لكن أعتقد ٦٠ أو ٧٠ بالمائة. لقد تم حرث ستة ملايين أكر إضافية في إنكلترا منذ الحرب، وتسعة ملايين في بريطانيا العظمى ككل. بعد الحرب ستصبح إنكلترا بلاداً زراعية بالضرورة، لأن أسواقاً كثيرة ستختفي مهما كانت نتيجة الحرب، بسبب التصنيع في الهند وأستراليا..إلخ. في تلك الحالة يجب أن نعود إلى نظام غذائي مشابه لنظام أجدادنا، وربما لم تكن سنوات الحرب إجراء وتحضيراً سيئاً. حقيقةَ أنّ مئات الآلاف من الأطفال الذين ولدوا في المدن، يعيشون الآن ويكبرون في الريف، بسبب عمليات الإجلاء، ستساعد البلاد كي تعود إلى أسلوب حياة زراعية أسهل.

بدأ إخضاع الثياب للتقنين، وبدأ نظام الحصص الآن يتجلى في رثاثة عامة، وقد توقعت منه أن يبرز الاختلافات الطبقية، لأنه إجراء غير ديمقراطي تماماً، لكنه لم يؤثر على الناس الأغنياء الذين لديهم مخزون من الثياب مسبقاً. كما أن نظام الحصص أيضاً ينظم عدد الثياب التي تستطيع شراءها فقط، ولا علاقة له بالثمن، لهذا أنت تتخلى عن نفس عدد القسائم من أجل معطف فرو بمائة جنيه ومعطف مطري بثلاثين شلناً. على كل الناس لبسوا في زي موحد رث الآن. اختفت ثياب السهرة عملياً، وازدادت البناطيل القطنية المتينة المضلعة والسيقان العارية عند النساء. ليس هناك بعد فيما يسمى تغييراً ثورياً في الثياب، لكن ربما تكون هناك واحدة

بسبب الحاجة المحضة إلى إنقاص الهدر في القماش. تتعامل هيئة الحرف مع المشكلة بإلغاء طيات نهايات البناطيل، وتفكر في وضع كل واحد في بزة حربية. نوع القماش يسوء، لكن بشكل أقل مما توقعت. مستحضرات التجميل أصبحت نادرة. السجائر فقدت ورقها الشفاف وأغلفتها المضادة للعرق، وباتت تُباع في أغلفة ورقية رخيصة أو بدونها. ورق الكتابة وورق التواليت يشبه صفيحة القصدير الآن. الأواني الفخارية للطبخ نادرة الآن، وتصنع من أدوات معدنية بياضها شائن مثل الأشياء التي يمكن أن تراها في السجون. كل الأشياء التي لم تضبط مثل قطع الأثاث والبياضات وساعات الحائط والأدوات، ارتفعت أسعارها بشكل حاد وخيالي. وبعد أن توقفت الحصة الأساسية من البنزين، أضحت السيارات الخاصة نادرة جداً على الطرقات. في الريف يعود الناس الآن إلى عربة الحصان ذات الدولابين مرة ثانية. في لندن ليس هناك وسائل نقل سوى القليل جداً من سيارات الأجرة العرضية بعد منتصف الليل. بات الأمر عادياً أن تنام في بيت الشخص الذي تتناول العشاء عنده. مع الغارات الجوية اعتاد الناس الذين يراقبون الحرائق على النوم خارج أسرتهم وفي أي مكان يجدونه. نقص الوقود ليس ملحوظاً بعد، لكنه سيشتد في شهر يناير/ كانون الثاني. منذ زمن طويل نجح مالكو الفحم في تخريب المحاولات لإدخال التقنين ونظام الحصص على الفحم. ومن المتوقع أن يصل النقص في مادة الفحم خمس وعشرون مليون طن في هذا الشتاء. الأبنية في كل مكان تزداد رثاثة، ليس بسبب أضرار الغارات الجوية فقط، وإنما من انعدام الإصلاحات. الجص يتقشر والنوافذ مرقعة بالقماش والكرتون، والمتاجر فارغة في كل شارع. أصبح ريجنسي لندن خراباً تقريباً. البيوت الجميلة لكن المهلهلة والتي لم يعد أحد يسكنها، تتساقط بسبب الرطوبة والإهمال. من الجانب الآخر، تحسنت الحدائق بفضل إزالة الأسيجة من أجل خردة الحديد، وكقاعدة زالت الأسيجة من الحدائق التي في الساحات أيضاً، لكن في أماكن أخرى نجح الأغنياء والمتنفذون في التمسك بأسيجتهم وأبقوا العوام خارجها. بشكل عام، حيث توجد النقود توجد الأسيجة.

أحد الأشياء التي تذكرك بشكل متكرر بتبدل الأشياء في إنكلترا منذ الحرب، هو وصول المجلات الأمريكية بحجمها الهائل وورقها الأملس وإعلاناتها الملونة الساطعة

الكثيرة التي تحثك على إنفاق المال من أجل كلام فارغ. لا شك أن الإعلانات الإنكليزية قبل الحرب، كانت ملونة وإبداعية بشكل أقل من الأمريكية، لكن جوها العقلي كان مماثلاً، ومنظر الصفحة الكاملة على ورق لماع يعطي المرء إحساساً بالعودة إلى عام ١٩٣٩. تخلت الدوريات عن حصة كبيرة جداً من حجمها المتضائل لصالح الإعلانات، لكن المقدار الكلي للإعلان الآن أصغر بكثير، وإعلانات الحكومة تفوز دائماً ضد الإعلانات التجارية. في كل مكان هناك لوحات إعلانات ضخمة فارغة. في محطات الأنفاق ترى عملية تطوير مهمة قائمة: الإعلانات التجارية تصغر أكثر فأكثر (بعضها لا يتجاوز قدم بقدمين) لتحل محلها الإعلانات الرسمية بشكل دائم. على كل حال هذا لا يعكس إلا تضاؤل التجارة الداخلية، ولا يشير إلى أي تبدل عميق في المشهد. المعلم البارز الاستثنائي للزمن، هي إعلانات لمنتجات لم تعد موجودة. أعطي مثالاً واحداً: كلمة حديد بأحرف كبيرة وتحتها صورة مؤثرة لدبابة، وتحتها مقالة صغيرة عن أهمية جمع خردة الحديد من أجل الإنقاذ، وفي أسفل الصورة رسالة بأحرف صغيرة جداً تذكر أن حبوب الحديد ستباع كما في السابق. هذا يلقي ضوءاً جانبياً على الواقع الغريب الذي نقلته مؤخراً ماس اوبزيرفر، وأكدته تجربتي الخاصة المحدودة بأن الكثيرين من عمال المصانع يخافون فعلياً من انتهاء الحرب، لأنهم يتنبؤون بالعودة الفورية للظروف القديمة مع ثلاثة ملايين عاطل عن العمل..إلخ. إن فكرة أن الرأسمالية القديمة محكومة بالهلاك مهما حدث، وأن الخطر الذي يهددنا أكثر من البطالة هو العمل القسري، لم تصل إلى الجماهير إلا بشكل فكرة غامضة بـ"أن الأشياء ستكون مختلفة". الإعلانات التي يبدو أنها تبدلت بسبب الحرب بشكل أقل من غيرها، هي تلك التي عن المسارح والأدوية المرخصة. أدوية محددة لا يمكن الحصول عليها، لكن البريطانيون لم يفقدوا أياً من حماسهم القديم لتناول الدواء بلا شك، وقد ازداد استهلاك الأسبيرين والفيناسيتين..إلخ. كل الحانات بلا استثناء تبيع الأسبيرين، وظهرت أدوية متنوعة جديدة مرخصة، أحدها شراب منشط سريع اسمه بليتز.

مرة أخرى، يبدو أنني سأحدثكم عن أشياء تافهة، لكن هذه التغيرات الثانوية في عاداتنا التي تتجه كلها نحو مساواة أكثر في طريقة الحياة، واعتماد أقل على وسائل الترف

المستوردة، يمكن أن تكون لها أهميتها في فترة الانتقال الصعب الذي يجب أن يحدث إن أصبحت بريطانيا بلداً اشتراكياً. نحن نعتاد تدريجياً على ظروف كان يتصورها المرء في الماضي لا تطاق، وقللنا من العقلية الاستهلاكية التي بذل كل من الاشتراكين والرأسماليين أقصى جهودهم لغرسها فينا في أوقات السلم. بما أن إدخال الاشتراكية يعني بشكل أكيد تقريباً هبوط في مستوى المعيشة أثناء السنوات القليلة الأولى، فربما يكون هذا عادلاً أيضاً. لكن طبعاً التغير في طعامنا وثيابنا ليس له أي معنى إذا لم يقترن بتغير بنيوي أيضاً. لأن الكثير من العمليات التي حدثت في الحرب الأخيرة تحدث الآن، وكان آنذاك أيضاً نقص في الطعام وكثرة في النقود وازدهار الزراعة وانتقال النساء إلى الصناعة بأعداد ضخمة، وتضخم عضوية النقابات العمالية، وتزايد تدخل الحكومة في الحياة الخاصة، واهتزاز النظام الطبقي بسبب الحاجة إلى أعداد كبيرة جداً من الموظفين، لكن لم يكن هناك انتقال حقيقي للسلطة. وفي ١٩١٩ عدنا إلى الوضع "العادي" بسرعة مروعة. لا أستطيع أن أصدق بأن الشيء نفسه سيحدث هذه المرة، لكن لا أستطيع القول أيضاً إنني أرى دليلاً ملموساً بأن ذلك لن يحدث. في الوقت الحاضر، إن الضمانة الوحيدة ضد ذلك كما يبدو لي، أن نقبل بما يمكن أن نسميه ميكانيكا الوضع. لا تستطيع الرأسمالية القديمة الفوز بالحرب، وأحداث السنوات الثلاثة الأخيرة توحي أننا لا نستطيع أن نطور نسخة محلية من الفاشية. لذلك يستطيع المرء الآن كما منذ سنتين، التكهن في المستقبل بشكل "إما - أو": إما أن ندخل الاشتراكية، أو أن نخسر الحرب. الحقيقة الغريبة وربما المقلقة أن التكهن بهذا في ١٩٤٠ كان سهلاً كما هو الآن، علماً أن الوضع الجوهري لم يتبدل تقريباً. بقينا سنتين على أرضية ديك تحترق، وبطريقة ما لم ينفجر المستودع ماغازين أبداً.

هناك جنود أمريكيون كثيرون جداً في الشوارع. كان السخط ظاهراً على وجوههم. لا أعرف إن كان هذا هو التعبير العادي للملامح الأمريكية التي بعكس الملامح الإنكليزية اللطيفة والغامضة والقلقة نوعاً ما عادة. في الحرس الوطني، لدينا أوامر لنكون دقيقين وحريصين على تحية الضباط، وأنا أخشى أنني لن أنفذها، وهم لا يتوقعونها. أعتقد أن بعض البلدات المحلية قد استولت عليها القوات الأمريكية. هناك كثير من الغيرة مسبقاً، ومن

الضروري أن يتم عمل شيء بخصوص الفروق في الراتب عاجلاً أم آجلاً. الجندي الأمريكي يتقاضى خمسة أضعاف ما يتقاضاه الإنكليزي، وهذا له تأثيره على الفتيات. أيضاً فتيات الطبقة العاملة ربما يجدن المتعة في سماع لهجة اعتدن عليها في الأفلام، وينطق بها وجه حي. لا أعتقد أن القوات الأجنبية هنا تستطيع أن تتذمر حول الطريقة التي تعاملهم بها النساء. لقد قام البولونيون بعملهم الصغير مسبقاً فيما يتعلق بحل مشكلة معدل الولادات عندنا. بارتيزان ريفيو، جورج أورويل. نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٢.

رسالة لندن إلى البارتيزان ريفيو
أواخر مايو/ أيار ١٩٤٣

أعزائي المحررين،

أبدأ رسالتي بعد انحلال الكومنتيرن، وقبل أن تتضح نتائجه الكاملة. من السهل التكهن بنتائجه الفورية في بريطانيا طبعاً. من الواضح أن الشيوعيين سيندمجون مع حزب العمال (هذا ما رفضه رئيس الحزب مسبقاً) ومن الواضح أن يُقال لهم يجب أن يحلوا أنفسهم وينضموا كأفراد، وبمجرد أن يكونوا داخل حزب العمال، سيحاولون العمل كزمرة منظمة مهما كانت الوعود التي أعطوها مقدماً. تكمن الأهمية الحقيقية في التنبؤ بالآثار بعيدة المدى للانحلال على حزب شيوعي من النموذج البريطاني. بتقدير الاحتمالات، أعتقد أن الإيماءة الروسية يجب أن تؤخذ بقيمتها الاسمية، أي أن ستالين يهدف بصدق إلى علاقة أقوى مع الولايات المتحدة وبريطانيا وليس مجرد "خداع البرجوازية" كما يجب أتباعه أن يعتقدوا. لكن ذلك لوحده لن يبدل سلوك الشيوعيين البريطانيين، لأن خضوعهم خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة، لم يرتكز أولاً وأخيراً على أية سلطة حقيقية. لا يمكن إعدام الشيوعيين البريطانيين أو نفيهم لو أنهم اختاروا العصيان. وبقدر معرفتي هم لم يتقاضوا أي مبلغ مالي من موسكو في السنين الأخيرة. إضافة إلى ذلك، فقد أظهر الروس بجلاء احتقارهم لهم. اعتمدت طاعتهم على سحر وشذا الثورة التي بدلت نفسها تدريجياً إلى ولاء قومي للدولة الروسية. إن الإنتلجنسيا اليسارية الإنكليزية تعبد ستالين، لأنها فقدت وطنيتها وإيمانها الديني من دون أن يفقدوا الحاجة إلى إله ووطن. قلت دائماً إن الكثيرين منهم سيحولون ولاءهم إلى هتلر، إن فازت ألمانيا بالحرب. طالما "الشيوعية" مجرد وسيلة تعزز مصالح وزارة الخارجية الروسية، من الصعب أن نشاهد أي فرق لزوال الكومنتيرن. يستطيع كل واحد تقريباً أن يرى دائماً من النظرة الأولى أية سياسة مطلوبة، حتى لو لم تكن هناك منظمة مركزية تسلم التوجيهات والتعليمات.

ومع ذلك يجب على المرء أن يأخذ بعين الاعتبار الأثر على عضوية الطبقة العاملة، التي لها وجهة نظر مختلفة عن المبتذلين المأجورين الذين يقبضون الرواتب في قيادة الحزب. لهؤلاء

الناس الإعلان الصريح بأن الأممي مات، يجب أن يحدث فرقاً، رغم أنه كان شبحاً مسبقاً في الحقيقة. وحتى في اللجنة المركزية للحزب، هناك اختلافات في وجهة النظر التي ربما تتسع، إذا بدأ الحزب الشيوعي البريطاني بعد مدة قصيرة بالنظر إلى نفسه كحزب مستقل. حتى الشيوعيون الدائمون، لن يعترفوا بأنهم مجرد عملاء للروس في غالب الأحيان، ولذلك لا يرون بالضرورة ما هي الخطوة المطلوبة، حتى تصل التعليمات من موسكو. لذلك حالما تم توقيع المعاهدة العسكرية الفرانكو - روسية، بات من الواضح أن الشيوعيين الفرنسيين والبريطانيين يجب أن يكونوا وطنيين، لكن حسب معرفتي فقد فشل بعضهم في إدراك هذا. أو مرة أخرى بعد توقيع المعاهدة الروسية الألمانية، رفض الكثيرون من الأعضاء القياديين قبول الخط المعادي للحرب، واضطروا إلى الزحف على بطونهم قبل أن يغفر لهم تمردهم. في الأشهر التي تلت ذلك، أصبح المعلقان الرئيسيان في الحزب، متعاطفين جداً مع النظرة العالمية النازية، رغم فزع بعض الآخرين الواضح. إن خط الانقسام بين المثقفين المستأصلة جذورهم مثل بالم دوت ورجال النقابات مثل بوليت وهانينغتون. بعد كل السنين التي أمضوها في الوظيفة، لم يستطع أي واحد من هؤلاء الرجال أن يتخيل أية مهنة سوى تأييد روسيا السوفيتية بحماس، لكنهم ربما اختلفوا حول أفضل طريقة لفعلها، إذا انسحبت القيادة الروسية حقاً. عموماً يجب أن أتوقع أن حلّ الكومنتيرن، ستكون له نتائج هامة، لكن ليست فورية، ويجب أن أقول إن الشيوعيين البريطانيين سيستمرون كما هم دائماً خلال ستة أشهر أو ربما أكثر، لكن بعد ذلك، ستظهر الانشقاقات، والحزب إما يتلاشى، أو يتطور إلى منظمة أكثر رخاوة وأقل حباً للروس تحت قيادة جديدة أحدث.

يبقى اللغز الأكبر، لماذا جرى حلّ الكومنتيرن. إن كنت على صواب وكان الروس فعلوها ليحدثوا الثقة، يجب على المرء أن يفترض أن حكام بريطانيا والولايات المتحدة أرادوا حلّ الكومنتيرن، وطالبوا به كجزء من ثمن الجبهة الثانية. لكن على كل حال، لم يكن في بريطانيا في السنين العشرة الأخيرة سوى إشارة صغيرة عن اعتراض جدي من الطبقة الحاكمة على وجود الحزب الشيوعي، فحتى أثناء فترة المؤتمر الشعبي، أبدت مقداراً مدهشاً من التسامح، وفي كل الأوقات الأخرى منذ عام ١٩٣٥ فصاعداً، كان الحزب الشيوعي ينال دعماً قوياً من قطاع أو آخر من الصحافة الرأسمالية. إن الشيء الذي يصعب التأكد منه هو من أين يحصل الشيوعيين على أموالهم. من غير المحتمل أنهم يحصلون عليها من داعميهم العلنيين. وأعتقد أنهم

صادقون في قولهم إنهم لا يحصلون على شيء من موسكو. الفارق أنهم ينالون "مساعدة" من الناس الإنكليز الأثرياء من حين إلى آخر، الذين يرون قيمة منظمة تقوم بدور مصيدة سمك للاشتراكيين الفاعلين. ينسب لبيفربروك عن صح أو خطأ، أنه مول الحزب الشيوعي في السنة الماضية أو السنتين. ربما هذه إشاعة أكثر منها حقيقة. حين يفكر المرء بتاريخ السنين العشرين الماضية، يصعب ألا يشعر المرء أن الكومنتيرن كان من ألد أعداء الطبقة العاملة. مع ذلك يسر القشرة العليا أن ترى زواله – حقيقة أدونها، لكني لا أستطيع تفسيرها بسرعة وسهولة.

كلن التطور السياسي الهام الآخر خلال الأشهر الثلاثة الماضية، هو نمو الكومنويلث، حزب السير ريتشارد اكلاند. ذكرت هذا في رسائل سابقة، لكنني بخسته أهميته. إنها الآن حركة يحسب لها حساب، ومكروهة من قبل كل الأحزاب الأخرى على السواء.

برنامج أكلاند الذي وُضع بلغة أطفال تقريباً في وريقات وكراريس كثيرة، يمكن وصفه بالاشتراكية ناقص الحرب الطبقية مع التأكيد على الدافع الأخلاقي بدلاً من الدافع الاقتصادي. يطالب البرنامج بتأميم كل الثروات الأساسية، وباستقلال الهند الفوري، والتشارك في المواد الخام بين البلدان التي تملك والتي لا تملك، وإدارة دولية للمناطق المتخلفة، وجيش مؤلف من أكبر عدد ممكن من البلدان للحفاظ على السلام بعد انتهاء الحرب. عموماً، هذا البرنامج لا يقل قسوة عن برامج الأحزاب المتطرفة اليسارية، بل وله صفات غير عادية جديرة بالملاحظة بما أنها تفسر التقدم الذي حققه الكومنويلث أثناء الأشهر القليلة الماضية.

في المقام الأول، جرى التخلي عن أيديولوجيا الحرب الطبقية كلها. رغم أن أصحاب الملكية كلهم سوف يُجردون من ملكياتهم، إلا أنهم سيتلقون تعويضاً ضئيلاً – بالتالي، سيُعطى البورجوازي معاشاً تقاعدياً مدى الحياة بدلاً من فريق الإعدام. واستنكرت وشجبت فكرة ديكتاتورية الطبقة العاملة بشكل خاص: يجب على الطبقتين الوسطى والعاملة الاندماج بدلاً من محاربة بعضهما. تهدف أدبيات الحزب بشكل رئيسي إلى كسب الطبقة الوسطى، كلاهما الطبقة الوسطى التقنية والرجل الصغير (المزارعين والحانوتيين..إلخ). ثانياً، يؤكد الجانب الاقتصادي من البرنامج على زيادة الإنتاج بدلاً من المساواة في الاستهلاك. ثالثاً، تبذل جهود للتوليف بين الوطنية وبين وجهة النظر الأممية، كما جرى التأكيد على أهمية اتباع التقليد البريطاني و"عمل الأشياء بطريقتنا الخاصة بنا"، فمن الواضح سيُحافظ البرلمان على شكله الحالي، ولم يُذكر شيء ضد النظام الملكي. رابعاً، كومنويلث لم يصف نفسه بـ"اشتراكي"،

وتحاشى بحرص الأسلوب الماركسي في التعبير، وأفصح عن نفسه بأنه يرغب في التعاون مع أي حزب آخر له أهداف مشابهة. (مع حزب العمال الاختبار هو أن يخرق الحزب الهدنة الانتخابية) خامساً - والأهم ربما - دعاية كومنويلث لها لذعة أخلاقية قوية. يتألف أفضل ملصق ببساطة من الكلمات " هل هي نافعة؟" التي شطبت واستبدلت ب"هل هي صحيحة؟" قساوسة أنجليكانيون كثيرون في مقدمة الحركة، لكن الكاثوليك يبدون ضدها.

أنا لست متأكداً إن كان لهذه الحركة مستقبل، لكن نموها منذ آخر مرة كتبت لكم فيها لافت جداً. مرشحو أكلاند يقاتلون في الانتخابات الفرعية في كل أنحاء البلاد. رغم أنهم لم يفوزا إلا بمقعدين حتى الآن، إلا أنهم أحدثوا انقلاباً في الأصوات ضد مرشحي الحكومة، وربما الأكثر مغزى أن الاقتراع كل يزداد أينما ظهر مرشحو كومنويلث. قام حزب العمال المستقل بمغازلة الكومنويلث من بعيد، لكن الأحزاب اليسارية الأخرى معادية وربما خائفة. النقد المعتاد أن الكومنويلث يحقق تقدماً بسبب الهدنة الانتخابية فقط - بكلمات أخرى، لأن حزب العمال على ما هو عليه، وقيل أيضاً إن عضوية الحزب كلها من الطبقة الوسطى. الشيوعيون طبعاً صنفوا كومنويلث كفاشيين، ويعملون الآن هم والمحافظون معاً في الانتخابات الفرعية.

البرنامج الذي أوجزته بفظاظة فيه مبادئ من الديماغوجية والطوباوية، لكنه يأخذ في اعتباره توازن القوى أكثر مما فعلته الأحزاب اليسارية القديمة. ربما تتوفر له الفرصة في السلطة إن ظهر وضع ثوري آخر، إما من خلال كارثة عسكرية، أو في نهاية الحرب. صرح بعض الذين يعرفون أكلاند أن لديه "عقدة الفوهرر"، وأنه إذا رأى الحركة تنمو وتخرج عن سيطرته، سيشقها ولن يشارك أحداً في السلطة. أنا لا أصدق أن الأمر سيكون هكذا، لكني لا أصدق أيضاً أن أكلاند لوحده يستطيع أن يخلق حركة على مستوى الأمة. هو ليس شخصية كبيرة بما يكفي، وليس رجل الشعب بأي شكل. رغم خلفيته الأرستقراطية والزراعية (إنه البارون الخامس عشر) له سلوك وهيئة الموظف المدني مع لهجة الطبقة العليا النموذجية. في إنكلترا أن تكون جنتلمان، فهي إعاقة خطيرة بالنسبة إلى القائد الشعبي. تشرشل مثلاً ليس جنتلمان. كريبس جنتلمان لكن لموازنة هذا فهو مشهور بـ"تقشفه" تلك اللمسة الغاندية التي يفتقدها أكلاند رغم ميله الأخلاقي والديني. أعتقد أن هذه الحركة يجب أن تراقب باهتمام. ربما تتطور إلى الحزب الاشتراكي الجديد الذي ننتظره كلنا، أو إلى شيء منحوس جداً: فيها بعض الأتباع المثيرين للريبة مسبقاً.

أخيراً، فإن كلمة عن العداء للسامية لا يمكن القول إنها وصلت إلى منزلة "المشكلة". لقد قلت في رسالتي إنها لم تكن تزداد، لكنني الآن أعتقد أنها تزداد. إن الإشارة الخطيرة والتي تعتبر وقاية أيضاً، أن الكل يعيها ويدركها ويجري نقاشها في الصحافة بشكل لامتناه. على الرغم من النظرة المزدرية لليهود في إنكلترا ومنعهم من ممارسة بعض المهن (أشك أن يقبل يهودي أن يعمل ضابطاً في البحرية مثلاً) إلا أن عداء السامية شيء طبقي في الأصل، وتجد أقوى أشكالها عند العمال الإيرلنديين، وقد رأيت بعض اللمحات من عداء الطبقة العاملة للسامية أثناء وجودي في الحرس الوطني لمدة ثلاث سنوات، الذي وفر مقطعاً أنموذجياً يمثل كافة أطياف المجتمع – في منطقة يتواجد فيها الكثير من اليهود. اكتشفت من خلال تجربتي أن الناس في الطبقة الوسطى يسخرون من اليهود، ويمارسون التميز ضدهم إلى حد ما، لكن وسط الطبقة العاملة، فهناك إيمان كامل بأن اليهود عرق ماكر وشرير يعيشون على استغلال غير اليهود (الوثنين حسب الدين اليهودي). بعد كل الذي حدث في السنوات العشر الأخيرة، فمن المخيف أن تسمع رجلاً عاملاً يقول "حسناً، أظن أن هتلر قام بعمل جيد حين طردهم". لقد سمعت ذلك أكثر من مرة. لا يبدو أن هؤلاء الناس، لم يدركوا أن هتلر فعل شيئاً باليهود غير طردهم، ولم يلاحظوا المذابح المنظمة والترحيل..إلخ. لكن يُشك إن كان الاعتراض على اليهودي كيهودي أم كأجنبي. ليس هناك اعتبارات دينية. إن اليهودي الإنكليزي الأرثوذكسي بصرامة والإنكليزي تماماً في عاداته، مكروه أقل من اللاجئ الأوروبي الذي لم يقترب من أي معبد منذ ثلاثين سنة. بعض الناس يعترضون على اليهود، بحجة أن اليهود ألمان! لكن العداء للسامية ينتشر الآن وسط الطبقة الوسطى أيضاً بأشكال مختلفة. الصيغة المعتادة هي "أنا لا أريدك أن تعتقد أنني معادٍ للسامية، لكن....". ويتبع هذا فهرس بالآثام اليهودية. يُتهم اليهود بالتملص من الخدمة العسكرية وخرق قوانين الغذاء، وشق طريقهم إلى مقدمة الطوابير..إلخ. يشير الناس الأذكى والأوسع معرفة إلى أن اللاجئين اليهود يستغلون هذه البلاد كملجأ مؤقت، وأنهم لا يظهرون أي ولاء نحوها. موضوعياً هذا صحيح، فانعدام اللباقة لدى بعض اللاجئين لا تصدق تقريباً. (مثلاً، سمعت ملاحظة ليهودية ألمانية خلال معركة فرنسا: "أفراد الشرطة الإنكليزية هؤلاء ليسوا أنيقين مثل رجالنا في الإس إس") لكن الحجج التي من هذا النوع عبارة عن عقلنة للتحامل. الناس يكرهون اليهود كثير جداً، لذلك لا يريدون أن يتذكروا عذاباتهم، وحين تُذكر أعمال الرعب التي تحدث في ألمانيا أو بولونيا، يكون الرد دائماً: "أوه نعم،

طبعاً ذلك مروع، لكن..."، وتأتي القائمة المعتادة من الشكاوي. ليست كل الإنتلجنسيا منيعة ومحصنة ضد هذا الشيء. هنا يكون المخرج والحجة عادة أن اللاجئين كلهم "بورجوازيون صغار". وهكذا يستمر التعسف ضد اليهود تحت قناع محترم. يجد السلاميون وآخرون من المعادين للحرب أنفسهم مجبرين في معاداتهم للسامية.

يجب ألا يضخم المرء خطر هذا النوع من الشيء. بداية هناك عداء للسامية الآن في إنكلترا، أقل مما كان عليه قبل ثلاثين سنة. في السرد القصصي الثانوي آنذاك، تجد أن اليهودي من مرتبة أدنى أو شخصية للسخرية، كشيء مسلم به وشائع بشكل أكثر مما تجد في هذه الأيام، وقد اختفت "دعابة اليهودي" من المسرح والراديو والصحف الهزلية منذ ١٩٣٤. ثانياً، هناك وعي كبير لخطر تفشي معاداة السامية وجهد مقصود للصراع ضده. لكن الشيء يبقى. وربما هو واحد من الأمراض العصابية المحتومة الناتجة عن الحرب. أنا بشكل خاص لست خائفاً من حقيقة أن عداء السامية لن يأخذ أشكالاً عنيفة. صحيح أنه لا أحد يريد أن تكون هناك مذابح جماعية منظمة ورمي أساتذة الجامعة اليهود في المجارير، لكن هناك جريمة قليلة جداً أو عنف في إنكلترا بأي حال. الشكل الألطف من معاداة السامية السائد هنا، يمكن أن يكون قاسياً بطريقة غير مباشرة، لأنه يجعل الناس يتغاضون عن مشكلة اللاجئين برمتها، ولا يبالون بمصير اليهود الأوروبيين الناجين. لأن يهودية بدينة اختطفت مكانك في الحافلة منذ يومين، تقوم وتطفئ المذياع حين يبدأ المذيع الحديث عن الغيتوهات في وارسو؛ هكذا تعمل عقول الناس في هذه الأيام.

هذه كل الأخبار السياسية التي عندي. الحياة تستمر إلى حد كبير كما في السابق. لم ألحظ أن طعامنا اختلف، لكن الوضع الغذائي يعتبر أسوأ عموماً. الحرب تضرب المرء بسلسلة متتابعة من الصفعات في أماكن غير متوقعة. منذ زمن طويل باتت شفرات الحلاقة مستحيلة المنال والآن ملمع الأحذية. الكتب تطبع على أردأ أنواع الورق في نسخ بالغة الصغر متعبة جداً للعيون. عدد قليل من الناس يلبسون أحذية ذات نعال خشبية. هناك مقدار مرعب من السكر والثمل في لندن. يبدو أن علاقة الجنود الأمريكيين بالسكان المحليين تتحسن، وربما تكيفوا مع المناخ..إلخ. الغارات الجوية مستمرة، لكن بمعدل هزيل. لاحظت أن الكثيرين أصبحوا يشعرون بالشفقة تجاه الألمان، لأنهم هم من يتعرض للقصف الآن - تبدل منذ عام ١٩٤٠ حين رأى الناس بيوتهم تنهار ركاماً حولهم أرادوا أن يروا برلين تُمحى من الخريطة.

جورج أورويل. بارتيزان ريفيو، يوليو / أغسطس - ١٩٤٣

رسالة من لندن إلى بارتيزان ريفيو
٣ يناير ١٩٤٣

أعزائي المحررين

اكتملت سنتان منذ أن كتبت لكم رسالتي الأولى. كتبت تلك الرسالة على أصوات المدفعية ونحن نمر في مصاعب شديدة، وأيضاً في الوقت الذي يبدو لنا أننا على حافة تقدم سياسي سريع. بدأت هذه الرسالة في وقت فيه الوضع العسكري أفضل بشكل هائل، لكن المشهد السياسي أشد سواداً مما كان عليه أبداً. لقد عنونتم بمبادرة منكم رسالتي الأخيرة التي كتبتها في مايو/ أيار من هذه السنة بالأزمة البريطانية. حسناً، تلك الأزمة انتهت، وفازت قوى الرجعية بالحكم. تشرشل ثبت على السرج ثانية، وكريبس أهدر فرصه، ولم يظهر أي قائد يساري أو حركة، والأهم أنه من الصعب أن نرى تكرر أي وضع ثوري حتى تنتهي الحرب في الغرب. أتيحت لنا فرصتان: دنكيرك وسنغافورة، ولم نغتنم أياً منهما. قبل التكهن بعواقب هذا، دعوني أجمل النزعات الرئيسية في هذه السنة كما أراها.

على الرغم من أن الحوادث الفردية لا تتوافق وتتناسب بشكل دقيق كما يجب، إلا أن القاعدة تظل صحيحة بأن الحكومة تنتقل إلى اليمين في أوقات النجاح، وإلى اليسار في أوقات الكارثة. انهيار في الشرق الأقصى - كريبس في الحكومة وإرسال كريبس إلى الهند (أحداث رتبت ربما لتؤكد أنها يجب ألا تكون مقبولة أبداً، لكنها كانت تنازلاً كبيراً لصالح الشعور الشعبي في هذه البلاد على الأقل) انتصارات أمريكية في الباسيفيكي، وفشل ألماني في الوصول إلى الإسكندرية - إلقاء القبض على قادة المؤتمر الهندي. انتصار بريطاني في مصر وغزو أمريكي لشمال أفريقيا - ارتباط مع دارلان، وتملق جديد لفرانكو. لكن خلال السنة كلها - في الواقع لقد ذكرتها في رسائل سابقة - كان هناك نمو ثابت للبليمبية وإبعاد "الحمر" بالقوة الذين كانوا مفيدين حين كانت المعنويات بحاجة إلى

تنشيط، لكن الآن يمكن التخلص منهم. إن الطرد المفاجئ لكريبس يرمز إلى عملية تحدث في كل مكان. بمعزل عن التأرجح نحو اليمين، هناك تطوران آخران مهمان كما يبدو. الأول التحريض والهياج حول الجبهة الثانية الذي وصل إلى ذروته في يوليو/ تموز ثم أخذ لوناً سياسياً أكثر وضوحاً من قبل. الحملة الأمريكية في شمال أفريقيا أسكتت مؤقتاً المطالبة الصاخبة حول جبهة ثانية، لكن الجدال والخلاف في الأشهر السالفة، لم يكن عسكرياً وإنما صراعاً بين مؤيدي روسيا ومعارضيها. التطور الآخر هو نمو الموقف الشعبي المعادي لأمريكا، والتحكم الأمريكي المتزايد في السياسة البريطانية. الموقف الشعبي من أميركا تبدل في اعتقادي في الأشهر القليلة الأخيرة. وسأعود إلى هذا في دقيقة. في الوقت الراهن الشكوك المتنامية بأننا قللنا في تقديرنا للقوة الرأسمالية، وأن اليمين ربما يكون قادراً أخيراً على الفوز بالحرب بمضربه هو دون اللجوء إلى أي تغيير راديكالي، محزنة جداً لكل شخص يفكر. الكلبية حول "ما بعد الحرب" انتشرت بشكل واسع، وتلاشى شعور عام ١٩٤٠ "كلنا فيها معاً".

الموضوع السياسي الكبير في الأسابيع القليلة الماضية، كان تقرير بيفربريدج عن الضمان الاجتماعي. يشعر الناس أن هذا الإجراء الإصلاحي المعتدل جيد وأكثر من أن يكون حقيقياً. ماعدا أقلية صغيرة جداً، فكل الناس يؤيدون بيفريدج ومنهم - صحف الجناح اليساري أيضاً التي منذ بضع سنوات مضت كانت ستشجب هذه الخطة وتعتبرها شبه فاشية - وفي الوقت نفسه لا أحد يصدق أن خطة بيفريدج سوف يتم تبنيها فعلياً. الرأي المعتاد: أنهم (الحكومة) ستتظاهر بقبول تقرير بيفرديج ثم تسقطه ببساطة. يتزايد الشعور بالعجز كما يبدو، وينعكس في التناقص المتزايد في أعداد المقترعين في الانتخابات الفرعية. المظاهرات الشعبية الأخيرة المهمة، كانت تلك التي تطالب بجبهة ثانية في الصيف الماضي. لم تخرج مظاهرات ضد صفقة دارلان، على الرغم من الرفض شبه الجماعي لها، ولم تخرج كذلك ضد قضية الهند رغم الشعور الشعبي المؤيد للمؤتمر. مازال اليسار المتطرف يميل إلى الانهزامية باستثناء موقفه من الجبهة الروسية، وفي كل مرحلة من الحملة الأفريقية تتمسك صحافته بيأس بتفسير متشائم للأحداث. أعتقد أنه من

الجدير أن نلاحظ أن الخبراء العسكريين المفضلين عند اليسار، كلهم من الانهزاميين، الذين لم تتضرر سمعتهم، حين دحضت تنبؤاتهم التشاؤمية الكئيبة، أكثر من تضرر سمعة المتفائلين المرحين المضللين لدى اليمين. على كل الأحوال هذا ناتج جزئياً من الغيرة و"العقلية المعارضة": عدد قليل جداً من الناس يؤمنون الآن بانتصار ألماني. بالنسبة إلى العبرة الحقيقية للسنوات الثلاثة الماضية - كان لدى اليمين شجاعة ومقدرة أكثر من اليسار - لم يقبل بها أحد.

الآن هذه كلمة حول العلاقات الأنغلوأمريكية. في رسالة سابقة، حاولت أن أشير باختصار شديد إلى تيارات مختلفة من الشعور المؤيد والمعادي للأمريكان في هذه البلاد. لقد كان هناك تنامٍ واضح من العداء لأمريكا منذ ذلك الوقت، وقد امتد الآن إلى أناس كانوا مؤيدين لأمريكا بشكل واضح، كالإنتلجنسيا الأدبية مثلاً. من المهم أن ندرك أن بريطانيا اختلفت في الخمس عشرة سنة الأخيرة عن أغلب البلدان، بعدم امتلاكها لإنتلجنسيا وطنية تستحق الحديث عنها. إن المثقف العادي معادٍ لبريطانيا، ورغم أنه يعبد الاتحاد السوفييتي بشكل رئيسي، إلا أنه يميل أيضاً للنظر إلى أمريكا، ليس بكونها ليست أكفأ وأحدث من بريطانيا فقط، وإنها أكثر ديمقراطية حقيقية وصادقة منها أيضاً. خلال فترة ١٩٣٥ - ٩ إنتلجنسيا اليسار خدعت إلى درجة مدهشة بسلوك "معادٍ للفاشية" تساهلت معه صحف أمريكية كثيرة. كان هناك أيضاً ميل إلى الانحناء والتذلل ثقافياً لأمريكا وإلحاح على تفوق وأفضلية اللغة الأمريكية واللهجة الأمريكية أيضاً. لكن هذا الموقف تبدل حين بدأ الإدراك بأن الولايات المتحدة الأمريكية إمبريالية كامنة، وسياسة ومواقف بريطانية متقدمة عليها كثيراً جداً. رأي مفضل في هذه الأيام: بينما يسترضي تشامبرلاين ألمانيا، فإن تشرشل يسترضي أمريكا. من الواضح في الواقع أن الطبقة الإنكليزية الحاكمة تقوت كثيراً بالأسلحة الأمريكية، وبذلك حصلت على فترة حياة جديدة لا يمكن لها أن تملكها لولا ذلك. الناس يلومون الولايات المتحدة الأمريكية الآن على كل حركة رجعية بشكل أكثر من أن يبرر حتى. مثلاً، حتى الناس المطلعون جيداً اعتقدوا أن وظيفة دارلان كانت "تدبيراً" قام به الأمريكيون من دون معرفتنا، ويفترض بالحكومة البريطانية أن تطلع عليه.

هناك شعور عدائي نحو أميركا وسط الطبقة العاملة بفضل وجود الجنود الأمريكان، وأعتقد أنه شعور عدائي لبريطانيا مرير جداً وسط الجنود أنفسهم. يجب عليّ أن أتكلم عن الدليل المتوفر والمستخدم هنا، لأن التواصل مع جندي أمريكي شبه مستحيل. تراهم في كل مكان في كل الشوارع، لكنهم لا يذهبون إلى الحانات العادية، وحتى في الفنادق وبارات الكوكتيل يبقون لوحدهم ولا يريدون أن يتكلم معهم أحد. ويقول المدنيون الأمريكان الذين يتواصلون معهم أنهم بمعزل عن تذمرهم العادي من الطعام والمناخ..إلخ، يتذمرون من المعاملة غير المضيافة ومن أنهم مجبرون على الدفع لقاء لهوهم وتسليتهم، وأنهم مشمئزون من القذارة وقدم الأشياء وتخلفها عن الموضة، والفقر العام للحياة في إنكلترا. من المؤكد أنه ليس من السائغ الانتقال الفجائي من رفاهية أمريكا وتساليها إلى بلدة ماطرة مسودة بالدخان في وسط البلاد، أنهكتها ثلاث سنوات من الحرب، وينقصها كل نوع من البضائع الاستهلاكية. ولكني أشك إن كان الأمريكي العادي سيجد إنكلترا مقبولة وتحتمل حتى في زمن السلم. إن الاختلافات الثقافية عميقة جداً وربما متضاربة وعنيدة، ومن الواضح أن الأمريكيين ينظرون لإنكلترا بأشد الازدراء وأشبه بالازدراء الذي يحس به الإنكليزي ضئيل الثقافة العادي تجاه الأعراق اللاتينية. كل من على تواصل مع الجنود الأمريكيين، ينقل عنهم أن هذه الحرب "حربهم" وأنهم قاموا بكل القتال فيها، وأن البريطانيين غير فالحين في أي شيء باستثناء الهروب..إلخ. إن انعدام التواصل بين الأمريكان والمحليين مروع. مرت الآن ثمانية أشهر على وصول أول جنود أمريكيين، ولم أر بعد جندياً بريطانياً وجندياً أمريكياً معاً. الضباط يفعلون ذلك من حين إلى آخر، أما الجنود فلا. يبدو أن الانطباع الجيد المبكر الذي شكله الجنود الأمريكيون عن النساء أصبح بالياً وقديماً الآن. لا يراهم المرء إلا مع مومسات أو أشباه مومسات، وهذا ما يحدث في أغلب أقسام البلاد، حسب ما تفيد به التقارير. لكن قيل إن العلاقات أفضل في اسكتلندا، حيث الناس مضيافون أكثر منهم في إنكلترا بالتأكيد. وأيضاً يبدو أن الناس يفضلون الزنوج على الأمريكان البيض. لو سألت الناس لماذا لا تحبون الأمريكيين، ستجد أولاً الجواب بأنهم "يتباهون دائماً". ومن ثم تجد شكوى ملموسة أكثر في مسألة راتب الجنود والطعام. الجندي النفر العادي الأمريكي ينال عشرة

شلنات في اليوم، ما يعني - حسب الأجور والدخل الآن - أن كل الجيش الأمريكي من الطبقة الوسطى مالياً وفي مكانة عالية فيها. بالنسبة إلى الطعام، أنا لا أتصور أن الناس يستاؤون من الجنود، لأنهم يتغذون بشكل أفضل من المدنيين، لأن الجيش البريطاني يتغذى بشكل أفضل أيضاً من حيث المكونات، وإنما لأن الأمريكيين تُعطى لهم مواد غذائية مخصصة للأطفال، ووسائل ترف مستوردة، تهدر وتقلص سعة سفن الشحن. حتى أنهم يستوردون البيرة، لأنهم لا يشربون البيرة الإنكليزية. ويشير الناس بشيء من المرارة، أن البحارة يغرقون حتى يجلبوا هذه المادة من الجانب الآخر للمحيط. يمكنك أيضاً أن تتخيل تركيز البرجوازية الصغيرة على أن الضباط الأمريكيين يحتكرون كل سيارات الأجرة ويشربون كل الويسكي، وضخموا إيجارات الغرف المفروشة إلى مستويات غير مسموع بها. التعليق المعتاد "لن أهتم وأعترض إن كانوا يقاتلون ولا يتكلمون فقط". هذا يقال بدافع الحقد، لكن هذا الموقف سوف يتبدل بشكلٍ عميق عندما يتورط الجيش الأمريكي في أوروبا. في الوقت الحاضر إن التشابه مع علاقاتنا مع أوروبا أثناء الحرب الزائفة، واضح جداً.

إن كانت هذه الحالة من العلاقات ستتبدل بوسائل دعائية أفضل، فإنه موضوع قابل للجدل. لاحظت أن الناس العائدين من الولايات المتحدة الأمريكية حديثاً أو الذي يلمون بالأوضاع فيها وخصوصاً الكنديين، مهتمون بالعلاقات الأنغلوأمريكية، ومتلهفين جداً إلى ضرورة تعزيز الجهد الحربي بشكل أعلى في الولايات المتحدة. إن مشاكل الدعاية البريطانية أعقد مما يدركه الناس. لنأخذ مثالاً واحداً: من الضروري سياسياً تملق الدول التابعة للتاج البريطاني الذي يشمل الإقلال من تبعيتها لبريطانيا. نتيجة لذلك يقدر الألمان أن يقولوا بشكل يقبل التصديق إن قتال بريطانيا يخوضه عنها جنود المستعمرات، لكن هذا يعتبر شراً أقل من إهانة الأستراليين الذين يرتبطون بالإمبراطورية بشكل رخو ويعادون بريطانيا ثقافياً. هذا المعضلة تفرض نفسها مرة تلو أخرى في اختلافات كثيرة. بالنسبة إلى أمريكا، بعض الدعائيين يرون أن الأفضل للأمريكان أن يكونوا معادين لبريطانيا، بما أن هذا يمنحهم اعتقاداً جيداً بأنفسهم و"يبقي معنوياتهم عالية". بعضهم مرعوب، لأن من يمثلوننا في أميركا أناس على

شاكلة اللورد هاليفاكس - الذي، يُخشى - أن يُعتبر إنكليزياً أنموذجياً. الخط المعتاد هو "لماذا لا نرسل بضعة من الشغيلة من ويغان أو برادفورد، لنبين لهم أننا أناس عاديون مثلهم؟". هذا يبدو لي عاطفية زائدة. صحيح طبعاً أن اللورد هاليفاكس ممثل لبريطانيا كرئيس قبيلة الهنود الحمر بالنسبة إلى الولايات المتحدة، لكن النظرية التي ترى أن عامة الشعب في كل الأمم يحبون بعضهم البعض من لمحة ليست مدعومة بالتجربة. إن الناس العاديين (العوام) في كل الأمم يعانون من الرهاب من الأجانب، لأنهم لا يستطيعون تعويد أنفسهم على الطعام الأجنبي والعادات الأجنبية. اعتناق آراء الجناح اليساري لا يشكل فرقاً إلى هذا، حقيقة انطبعت في ذهني في الحرب الأهلية الإسبانية. الود والرضا تجاه جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية في هذه البلاد، تعتمد جزئياً على حقيقة أن قلة من الإنكليز رأوا شخصاً روسيا. وعلى المرء أن ينظر فقط في العالم الناطق باللغة الإنكليزية بمتاهته من الضغائن الثقافية، ليرى أن التحدث بنفس اللغة ليس ضمانة للصداقة.

مهما يحدث، فإن بريطانيا لن تسلك الطريق الذي سارت فيه فرنسا. والعداوة المتنامية بين البريطانيين والأمريكيين، ليس لها أية أهمية حقيقية إلى أن تنتهي الحرب. لكن ربما يكون لها تأثير مباشر على الأحداث إذا - كما هو متوقع الآن - دحرت ألمانيا في وقت ما في عامي ١٩٤٣ أو ١٩٤٤ عندئذ سيتطلب حسم موضوع اليابان سنتين إضافيتين. في تلك الحالة يمكن بكل سهولة تصوير الحرب ضد اليابان بأنها "حرب أمريكية" وشكل بديل مقبول أكثر من "حرب يهودية".

إن الجماهير ترى، وبشكل ثابت، أن هتلر هو العدو، ومن الشائع والعادي أن تسمع جنودنا يقولون: "أنا سأتوقف عن القتال وأترك الجيش حالما تُهزم ألمانيا". هذا لا يعني أنهم كانوا يقصدون أو يقدرون أن يفعلوا هذا. وأعتقد أن رأي الأغلبية في الواقع، سيكون مع البقاء في الحرب، إذا لم تبدل الأطراف تحالفاتها في ذلك الوقت مرة أخرى. لكن السؤال "ماذا ننتظر؟" محكوم بأن يظهر بشكل أكثر حدة حين تهزم ألمانيا. وهناك عناصر قليلة مؤيدة لليابانيين في هذه البلاد، قد يكونوا أذكياء بما يكفي للانتفاع من ضجر حرب شعبية. إن الحرب في الشرق الأقصى، من وجهة نظر رجل الشارع، هي

حرب من أجل شركات المطاط والأمريكيين. وفي ذلك السياق قد تكون لاشعبية الأمريكيين هامة جداً. الطبقة الحاكمة البريطانية، لم تعلن أبداً عن أهداف الحرب الحقيقية، التي حدث أن تكون شيئاً لا يجوز ذكره. وطالما كانت الأمور تحدث بشكل سيئ، فقد دفعت بريطانيا نحو استراتيجية ثورية في جزء من طريقها. لذلك كانت هناك دائماً إمكانية دقرطة الحرب من دون خسارتها في الاستمرار. لكن الآن بدأ المد ينقلب، والعالم الكئيب، الذي نوى المليونيريون الأمريكان وأتباعهم البريطانيون أن يفرضوه علينا، بدأ يأخذ شكله على الفور. إن الشعب البريطاني بأغلبيته، لا يريد مثل هذا العالم، وقد يقول هذا بقوة حين يزاح النازيون عن الطريق. ما يريده الشعب، بالشكل الذي صاغه فكره، نوعاً من ولايات أوروبية متحدة، يسيطر عليها تحالف وثيق بين بريطانيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية. عاطفياً، أغلب الناس في هذا العالم يفضلون الارتباط مع روسيا، بدلاً من أمريكا، ومن الممكن تخيل الأوضاع التي تصبح فيها القضية الشعبية، هي قضية العداء لأمريكا. هناك علامات لهذا الاصطفاف في ردود الأفعال حول قضية دارلان. لا أعرف إن كان هناك أي قائد أو حزب قادر على الاستجابة لتلك الميول القوية وتبنيها، والتي ستنشأ حتى لو انتهى هتلر وكانت أوروبا في فوضى كبيرة.

لا توجد أخبار كثيرة أخرى. لقد ظهر حزب فاشي آخر، هو الحزب القومي البريطاني. إنه نفس الهراء المعتاد - معادٍ للبلشفية ومعادٍ للشركات الكبيرة..إلخ. هؤلاء الناس حصلوا على بعض المال من مكان ما، لكن لا يبدو أن لهم أتباعاً خطرين. انشق أعضاء حزب الكومنويلث بعد أن تشاجروا، لكن المجموعة الرئيسية مازالت تتقدم على الأرجح. هناك علامات أخرى عن نمو عصبة يسارية في كنيسة إنكلترا، التي كان لها ميول في هذا الاتجاه منذ سنين مضت. وتتركز هذه الميول عكساً لما يتوقعه المرء في "الحداثيين" وإنما في الأنغلوكاثوليك، الجناح اليمني المتطرف عقائدياً من الكنيسة.

ذا تشيرتش تايمز التي هي جريدة رسمية تقريباً لكنيسة إنكلترا (توزيع هائل في مقار القساوسة الريفية) أصبحت منذ سنين مضت جريدة يسارية معتدلة وذكية تماماً سياسياً. قسم من صحف الروم الكاثوليك أوغلت كثيراً في تأييدها للفاشية منذ قضية دارلان. هناك انشقاق واضح في الإنتلجنسيا الكاثوليكية حول قضية الفاشية برمتها، وقد هاجموا

بعضهم بعض علناً بطريقة يتجنبونها في العادة. لايزال هناك عداء للسامية، لكن لا توجد علامات على نموها. غذائنا كالمعتاد تقريباً. حلويات عيد الميلاد، التي هي دليلي إلى أوضاع الشحن البحري، كانت بنفس اللون تقريباً للسنة الماضية. تزداد صعوبة العيش مع الأسعار والضرائب الموجودة الآن، ويبدو أن المرء لديه ساعات أقل وأقل من وقت الفراغ بين ساعات العمل الطويلة، وبعدها مراقبة الحرائق والحرس الوطني والوقاية من الغارات الجوية وأمثالها، وخصوصاً بما أن كل الرحلات الآن بطيئة وغير مريحة. حظاً جيداً للعام ١٩٤٣.

بارتيزان ريفيو

مارس/ أبريل (آذار/نيسان) ١٩٤٣

رسالة لندن إلى البارتيزان ريفيو
مايو/أيار ١٩٤٦

أعزائي المحررين

لسوء الحظ، يجب أن أكتب هذه الرسالة وأنتهي منها، قبل أن تنبثق أية نتيجة من المفاوضات في الهند، وقبل انتهاء المعركة حول انضمام الشيوعيين إلى حزب العمال واندماجهم معه. الجماهير الكبيرة ليست متحمسة ومدركة إلى أهمية القضية الهندية، وقبل أن يحدث شيء دراماتيكي، من الصعب الحكم على مشاعرهم الحقيقية حول استقلال الهند. أثارت قضية الشيوعيين اهتماماً ملحوظاً أكبر. مازال من غير المؤكد إن كان الشيوعيون سيقومون بمحاولة انضمام أخرى، لكن بسبب الشذوذات في دستور حزب العمال، من الممكن أن ينجزوا ذلك بنتائج كارثية. من الواضح أن قادة حزب العمال يعتبرون الخطر جدياً، ووجهوا النقد والشجب للشيوعيين. إنها قضية معقدة، لكن أعتقد أنني أستطيع توضيحها أكثر، لو لخصت الخلفية السياسية العامة أولاً.

أولاً، وقبل كل شيء، بالنسبة إلى وقوف حكومة العمال مع الأمة ككل. هناك سؤال في ذهني: إن استمرار هذا جيد والدليل المفحم في شكل الانتخابات المحلية وتؤكده استفتاءات الرأي العام. في الوقت نفسه، ليس لدينا بعد فائدة ملموسة من تغيير الحكومة، والناس بشكل عام يدركون هذا - بالنسبة إلى كل واحد خارج القوات المسلحة، أصبحت الحياة مادياً منذ الهدنة أبغض مما كانت أثناء الحرب وربما أسوأ جداً، وذلك بسبب تراكم آثار حالات محددة من العجز والنقص. النقص في الثياب مثلاً أصبح أقل تحملاً، لأن ثيابنا باتت بالية أكثر فأكثر، وكان وضع الوقود أثناء الشتاء الماضي أسوأ مما كان في أي وقت من الحرب، ومازال الطعام كئيباً وبليداً كما حاله دائماً، والطوابير لم تقصر أبداً، والتباين بين الشخص الثري الذي يأكل في المطعم وربة البيت التي عليها أن تكتفي بحصتها، واضح وفاضح كما كان دائماً، وأي نوع من الحرمان يبدو مثيراً أكثر الآن، ولم تعد هناك حرب تبرره. لقد ازداد نشاط السوق السوداء منذ

توقفت الحرب، ولم يتحسن الوضع الإسكاني، ومن غير المحتمل أن يفعل حتى وقت طويل قادم. وهناك قدر هام وكبير من البطالة. ومن جانب آخر، هناك استياء ضد ساعات العمل الطويلة وظروفه السيئة، وتجلى هذا في سلسلة من الإضرابات "غير الرسمية". حين تستمع إلى الأحاديث في طابور السمك، لا يخامرك الشك بأن الشخص العادي من الطبقة العاملة ساخط ويشعر بأن نهاية الحرب كان يجب أن تجلب له راحة أكثر وتسلية، ولم يفهم السبب الذي يجعل أرغفة خبزنا أصغر أو بيرتنا خفيفة لمنع أوروبا من المجاعة. ومع ذلك مازال النقد العدائي على أسباب سياسية صرفة قليلاً بشكل غريب. لا يستطيع المرء الحصول على فكرة صحيحة عن رد الفعل العام من الصحافة البريطانية، لأن ملكية أغلبها تعود إلى التوريين، وقسم من صحافة الأقلية تحت تأثير الشيوعيين. لقد سمعت تذمراً لا نهاية له تقريباً، لأن "هم" لا يوفرون بيوتاً جديدة بالسرعة الكافية، أو لأنهم لا يسمحون لك بامتلاك كمية كافية من الفحم تدوم طيلة فصل الشتاء، أو بسبب ظروف النقل الرديئة وضريبة الدخل وبطء التسريح من الجيش وغلاء الخضار وصغر حصة الحليب، ولا أعرف ماذا أيضاً: لكن لم أسمع أي مواطن عادي يقول إن الحكومة لم تقم بأية خطوة محسوسة نحو إدخال الاشتراكية. حتى لو راعينا أن كل شيء يحتاج إلى وقت، فمن المدهش التغير القليل الذي يفترض أن يحدث في تركيبة المجتمع حتى الآن. بمعنى اقتصادي صرف، أعتقد أن الانجراف سيكون نحو الاشتراكية، أو نحو ملكية الدولة على الأقل. لقد جرى تأميم النقل مثلاً. باع المساهمون في الخطوط الحديدية حصصهم بأسعار يصعب عليهم الحصول عليها في السوق المفتوحة، لكن في النظام الاجتماعي ليس هناك أية علامة يمكن للمرء أن يستنتج منها أننا لا نعيش تحت حكومة محافظة. لم يكن هناك أي تحرك ضد مجلس اللوردات مثلاً، وليس هناك أي حديث عن سحب الدولة اعترافها بالكنيسة، وليس هناك سوى القليل جداً من استبدال السفراء التوريين ورؤساء الأقسام أو كبار الموظفين. وإن بذلت أية محاولة فعلية لدقرطة التعليم، فإنها لم تثمر عن أية نتيجة بعد. مازالت الطبقات العليا تعيش حياتها المعتادة رغم الإفقار العام، وهي لا تحب الحكومة العمالية بالتأكيد، ولا تبدو خائفة منها. هذا كله ينسجم مع التفضيل البريطاني لعمل الأشياء ببطء وعدم إثارة الكره الطبقي - علماً أن أي مراقب كان يتوقع تغييراً أكبر في الجو الاجتماعي، حين تصل حكومة عمالية ذات أغلبية ساحقة إلى السلطة لمدة ثمانية

أشهر. لكن الشخص العادي لا يعبر عن الاستياء على هذه الأسباب والمبررات. بقدر اهتمام الناس بالسياسة، مازالوا يشعرون أنهم فازوا بنصر عظيم الصيف الماضي - وهم فعلوا حقيقة - ورغم أفعال الحكومة الجديدة غير الملهمة، ليس هناك أيديولوجيا منافسة وشيكة. حزب المحافظين أفلس فكرياً حتى باعتراف معلقيه وإعلاميه، وكل ما يستطيع فعله النباح ضد "تدخل الدولة" و"البيروقراطية" اللتان يكرهما الشخص العادي، لكنه يفضلهما على عدم الأمان الاقتصادي. يعتقد عدد جيد من التوريين أن أملهم الأفضل يكمن في الشيوعيين الذين ربما ينجحون في شق حزب العمال، ويجبرون الجناح اليميني من الحزب على تشكيل تحالف آخر. أنا شخصياً لا أعتقد أن هذا سيحصل، لكن الحقيقة أن الشيوعيين في الوقت الحاضر هم الخطر الرئيسي على الحكومة، وقد يصبحون قوة سياسية حقيقية إن حصلت كارثة ما في الخارج، كقتال واسع النطاق في الهند مثلاً، وجعل سياسة الحكومة الخارجية غير شعبية بشكل حاد.

مازال العدد الحقيقي للشيوعيين و"رفاق السفر" يقدر ببضع عشرات الآلاف، وتناقص في السنة الماضية بالتأكيد. لكن في الوقت الذي خسروا فيه وتراجعوا مع الشعب، نجحوا في انتزاع قيادة عدد هام من النقابات، بالإضافة إلى وجود مجموعة شيوعية "سرية" من أعضاء البرلمان - انتخبوا كرجال من حزب العمال، لكنهم أعضاء في الحزب الشيوعي سراً أو متعاطفون معه بقوة. عدد هؤلاء ليس مؤكداً، لكن يجب أن أقول إن هناك عشرين أو ثلاثين منهم من مجموع ٣٠٠ عضو برلمان عمالي. تكتيكهم الصراخ خارج وداخل البرلمان من أجل سياسة تهدئة واسترضاء نحو جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، وفي الوقت نفسه، محاولة تجميع عناصر اليسار في البلاد حولهم باللعب على النقمة الداخلية. في الوقت الحالي عزلوا أنفسهم حين كشفوا عن أهدافهم، ويجري التراشق بعبارات مثل "تسرب" و"شيوعي سري" من قبل أشخاص لم يسمعوا بهكذا أشياء قبل سنة من الآن. حين قام بيفن بمواجهة حاسمة مع حزب العمال البرلماني حول مسألة سياسته الخارجية، لم يصوت له سوى ستة أعضاء برلمانين، رغم امتناع الآخرين عن التصويت. باعتبار أن الاتحاد السوفييتي يعادي - ويجب أن يكون - بشكل حقود وعنيد أية حكومة ديمقراطية من النموذج البريطاني. من الواضح أن تركيبة من شيوعيين علنيين مثل آرثر هورنر على رأس النقابات العمالية

وشيوعيين "سريين" مثل زيلياكوس في البرلمان و"متعاطفين" مثل بريستلي في الصحافة الشعبية، يمكن أن تكون تركيبة خطيرة جداً. لكن الصعوبة بالنسبة إلى هؤلاء الناس أنهم لا يستطيعون وضع تأكيدهم الرئيسي على المظالم والشكاوى الوطنية الداخلية. إنهم مرتبطون بالدفاع عن السياسة الخارجية الروسية التي يشعر الشخص العادي أنها لا تبرر، ويتعذر الدفاع عنها. قد تحصل من قراءة صحافة الأقلية اليسارية، على فكرة أن حزب العمال يغلي بالثورة، وأن نصراء الحزب من العمال العاديين يملؤهم الحماس نحو العمليات العسكرية الروسية في إيران ورومانيا..إلخ، وأيضا يتلهفون إلى تسليم أسرار القنبلة النووية من دون الحصول على أية معلومات عسكرية بالمقابل. لكن من المؤكد أن هذا ليس هو الحال. أظهرت استفتاءات الرأي التي أجرتها النيوز كرونيكل أن شعبية بيفن تصاعدت بشكل ممتاز ومثير بعد معركته مع فيشينسكي، وصمدت أكثر وسط مؤيدي وأنصار حزب العمال. حتى أنني أشك إن كان هناك أي شعور واسع الانتشار ضد سياسات بيفن في اليونان وأندونيسيا، بالقدر الذي لا تزال فيه هاتان القضيتان حيتين. لكن بالنسبة إلى الاتحاد السوفيتي، من النادر الإنكار حتى من قبل المحبين لروسيا، بأن الحماس الشعبي الذي كان في العام الماضي أو العامين بليَ وتآكل، وحتى لو لم تكن هناك أية علامة أخرى، أستطيع استنتاج هذا من حقيبة مراسلاتي فقط. كمدافعين علنيين عن النظام الستاليني، يلعب الشيوعيون الآن على ورقة خاسرة وهدف شبه مستحيل، ولكن إن استطاعوا الدخول في حزب العمال ككيان منظم، فربما يكونون قادرين على التسبب بضرر هائل. حتى أسوأ انشقاق لا يمكن أن يسفر عن حكومة يسيطر عليها الشيوعيون - والذي كما أعتقد سيكون أقل خطراً من وجهة النظر الروسية عن مشهد حكومة عمالية تحقق نجاحات حقيقية. سياسياً، ليس هناك الكثير مما يحدث غير ذلك. كان هناك نشاط خفيف من جانب أتباع موسلي والجماعات الفاشية، لكن ليس هناك أية علامة عن وجود أتباع حاشدة لهم. الصراع الثقافي بين أنصار ستالين وخصوم ستالين يستمر مع ارتدادات مثيرة متكررة في الاصطفاف من طرف إلى آخر. لقد علمت من مصادر موثوقة أن ويندهام لويس أصبح شيوعياً أو متعاطفاً قوياً على الأقل، وأنه يكتب كتاباً الآن في مديح ستالين، ليوازن كتبه السابقة التي فضل فيها هتلر. كل من يهتم بالسياسة منهمك وغارق في الصراع اليومي على تريستي وفلسطين والهند ومصر وتأميم الصلب

والفولاذ والقرض الأمريكي وإعادة الإسكان ووثيقة الخدمة الصحية وغيرها، ولكن لا يوجد أي شخص أعرفه لديه تصور لمستقبل مفعم بالأمل. الفكرة بأن حرباً بين روسيا وأمريكا خلال العقود القليلة القادمة، وأن بريطانيا محكومة بالتمزق إلى أشلاء بالقنابل النووية بسبب موقعها الجغرافي غير المواتي، هي فكرة مقبولة بنوع من التسليم الغامض، كما قبل الناس بالفكرة التي تقول إن الشمس ستبرد عاجلاً أم آجلاً، وسوف نتجمد حتى الموت. يبدو أن الشعب العام نسي موضوع القنبلة النووية التي نادراً ما تظهر في الأخبار. كل واحد مصمم على الاستمتاع بوقت جيد بقدر ما تسمح به ظروفنا الصعبة. مباريات كرة القدم تحضرها حشود ضخمة ودور السينما مكتظة بالمشاهدين دائماً، واستخدام السيارات انتعش إلى درجة مدهشة. لو أخذنا باعتبارنا أن البنزين لازال خاضعاً للتقنين نظرياً، فإن الحصة الأساسية هي خمسة غالونات فقط في الشهر. السيارات المستعلمة تباع بأسعار خيالية، وتُرى أشياء غير عادية بعضها بعمر عشرين أو ثلاثين سنة تنفث الدخان على طول الطرقات. وصل التزوير في كوبونات البنزين إلى المستوى الذي دفع السلطات إلى التخلي عن التقنين واليأس منه. ببعض الصعوبة تستطيع الآن شراء مكنسة كهربائية، لكنني لم أر ثلاجة للبيع حتى الآن، ومن المستحيل أن تفرش بيتاً وتجهزه بأقل شكل من دون أن تنفق مئات الجنيهات، وتجبر على القبول بقدر كبير من الأمتعة المصنوعة بشكل رديء. فمثلاً مازلنا بلا أوانٍ فخارية باستثناء أواني "المنفعة" الشنيعة أو الأطقم المستعملة وبأسعار خيالية. الندرة العامة تجعل كل واحد تنافسياً حول الممتلكات الصغيرة. وعندما تنجح في شراء شيء مثل ساعة يد أو قلم حبر، تتباهى به لمدة أسبوع بعد شرائه. نغمة التكبر تعود إلى الإعلانات. وعلى الرغم من الرثاثة الكلية يشعر المرء بضغط هادئ لدفع الناس إلى اللبس الرسمي مرة أخرى. منذ يومين حين كنت أمر بكنيسة القديس بول، كان يجري نوع من طقس ما، ولفت انتباهي رؤية القبعات العالية بأعداد كبيرة لأول مرة منذ ستة أشهر أو أكثر. لكنها كانت قبعات عالية بالية، ولم استطع أن أقول من خلال منظر الحشد إن كان الدور الذي يؤديه هذا الطقس حفل زفاف أم جنازة. لا يوجد سوى القليل جداً على الجبهة الأدبية لأخبركم به. لاتزال الصحف في حجمها المصغر، ويحتمل أن تبقى هكذا لبعض الوقت، لكن هنالك إشاعات مطردة عن إطلاق صحيفتين مسائيتين جديدتين أو ثلاثة ومجلة سياسية أسبوعية جديدة من أنموذج ذا

نيوستيتسمان أو التريبيون. الكتب نادرة وبيعها سهل كما هو الحال دائماً. أغلب الأوقات لا أستطيع أن أشتري نسخاً من كتبي المفضلة. المقتطفات الأدبية المختارة من نوع "قص والصق" والمنوعات تستمر في الظهور بأعداد كبيرة جداً. ومنذ أن كتبت لكم آخر مرة، ظهرت إلى الوجود مجموعة كبيرة كاملة من الشهريات والربعيات الأدبية. أغلب هذه المجلات أشياء صغيرة بائسة، وعلى الأرجح لن تعمر طويلاً، لكن النوع المنظم والقوي ذا الشكل المصقول والبارع من أشباه المجلات الثقافية التي اعتدتم عليها في الولايات المتحدة، بدأت الآن بالظهور هنا أيضاً. مثالان حديثان، هما فيوتشر وكونتاكت، وقيل إن هاتري الذي دخل إلى تجارة الكتب بعد أن خرج من السجن، هو الممول البارع الذي يقف خلف البعض من هذه المشاريع الجديدة. الناس المهتمون يراقبون هذه التطورات بوجل.

لكن من الواضح أنك لن تحصل على توزيع كبير لهذا النوع من المجلات التي توجد فيها طباعة الحرف حول حواف الصور، والتي تعطي القارئ العادي الشعور بأنه "تقدمي" من دون إجباره فعلياً على التفكير. ومن المعروف جيداً أن قسماً كبيراً من الدوريات الإنكليزية المطبوعة عتيقة بشكل ميئوس منه، وإذا لم تحدّث نفسها، فربما تستبدل فجأة بأي مجلات يقرر الأمريكان إطلاقها هنا. نوع "الديجست - الملخص" من المجلات يزداد شعبية أكثر فأكثر، وحتى المكتب المركزي للمعلومات (وزارة الإعلام سابقاً) ينشر هذا النوع في لغات كثيرة لتوزيعها في أوروبا. وفي البي بي سي يحدث الآن ما كان يرجى أن يكون تغييراً هاماً. بعد سنوات من النضال، تقرر تخصيص موجة واحدة للبرامج الذكية. من أكبر مشاكل البث في هذه البلاد أن البرنامج لا يُعتبر اقتصادياً إذا لم يجذب ملايين الأشخاص من الناس، وأن أي برنامج بأصغر درجة من الثقافة الرفيعة، يحرض عواصف من السخط من مستخدمي الراديو العاديين الذين يدعون أن الوقت الذي يصرفونه يضيع على مادة لا تجذب سوى أقلية من الناس. أيضاً بما أن البي بي سي شركة مرخصة، فقد تلقت مساعدات مالية ضخمة من الحكومة، فتعرضت لقدر عظيم من النقد العدواني في البرلمان الذي أرعب مديريها. إن عزلت مادة الثقافة الرفيعة في موجة منفصلة، يستطيع فيها المستمع المتوسط استقبال بث الهوم سيرفس لمدة ثلاث وعشرين ساعة باليوم من دون أن يمل، سيختفي الكثير من النقد، ويكون للأشخاص الأكثر ذكاء في البي بي سي حرية التصرف. وأعرف جيداً أن هنالك في كوادر البي

بي سي الدنيا أشخاصاً موهوبين كثيرين، يدركون أن إمكانيات الراديو لم تستكشف بعد، ولا يمكن أن تستكشف إذا لم يرض المرء بأقلية من المستمعين. على كل حال، رغم الادعاء بأن برامج "جيم" (البرامج التي ستبث على موجة منفصلة) ستكون تجريبية جداً وأغلبها غير خاضعة للرقابة، لكن في النهاية يظل الناس المسؤولون عنها من موظفي البي بي سي الدائمين الكبار، لذلك لا أتوقع حدوث تغيير حقيقي.

لا أستطيع التفكير بأية أخبار أخرى. الربيع جميل، وكل شيء فيه أزهر بشكل مبكر جداً. لم تجدد الأسيجة حول المتنزهات، لكن التماثيل تعود إلى قواعدها. لندن تبدو رثة وقذرة كما هي دائماً بعد سنة من الهدنة، ومازال الظلام (العتمة) متعة ظريفة.

بارتيزان ريفيو، صيف ١٩٤٦

رسالة إلى تي آر فايفل

غرانهام- ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي توسكو

شكراً جزيلاً لك لإرسال كتاب روث فيشر (**ستالين وألمانيا شيوعية**). لقد نويت شراءه، لكني قد لا أحتاج إليه بعد قراءة النسخة المستعارة. سوف أرى أن أعيده إليك. قرأت كتاب مارغريت نيومان (**تحت ديكتاتوريين اثنين**) ببعض الاهتمام. لم يكن كتاباً جيداً بشكل مميز، لكنها جذبتني كشخصية مخلصة. حصل غولانكس أيضاً على رواية رائعة تماماً عن معسكرات العمل القسري لشخص سمى نفسه باسم مستعار "ريتشارد كارغو"، أعتقد أنه بولوني، وأنا لست متأكداً من مدى موثوقيته، لكنه كتاب لافت بالطريقة السلافية (كتاب **المعذب** لريتشارد كارغو، وهو أحد الأسماء المستعارة لروبرت باين). هناك نقاط كثيرة في مقالاتك، نويت أن أناقشها معك. الأولى حول غراهام غرين. أنت تستمر في الإشارة إليه على أنه محافظ متطرف من النوع الرجعي الكاثوليكي المعتاد، وهو ليس هكذا إطلاقاً سواء في كتبه أو في شخصه. هو كاثوليكي طبعاً، وفي بعض القضايا ينحاز ويتحزب مع الكنيسة، لكن في نظرته هو يساري معتدل مع ميول حزبية شيوعية ضعيفة. حتى إنني فكرت أنه يمكن أن يصبح رفيقنا الكاثوليكي الأول في السفر، وهذا شيء لم يتواجد في إنكلترا، لكنه يتواجد في فرنسا إلخ. لو نظرت إلى كتبه مثل **بندقية للبيع** و**إنكلترا صنعتني** و**العميل السري**، سترى أن الموجود هناك هو المشهد اليساري المعتاد. الرجال السيئون هم أصحاب الملايين وأصحاب مصانع السلاح.. إلخ، والرجل الطيب شيوعي أحياناً. في كتابه الأخير هناك أيضاً الشعور اللوني المعكوس المعتاد. يرى راينر هيبنستول، أن غرين أيّد على مضض فرانكو أثناء الحرب الإسبانية الأهلية بطريقة ما، لكن **العميل السري** كُتب من وجهة النظر الأخرى. الشيء الآخر أنك تهاجم دائماً روائيين لعدم كتابتهم عن المنظر المعاصر. لكن هل يمكنك التفكير في رواية كتبت عن المنظر المعاصر بشكل حصري؟ أية رواية تكون محظوظة جداً أي تستحق القراءة، إن تأخرت ثلاث سنوات على الأقل عن المنظر المعاصر. إن حاولت في عام

١٩٤٩ أن تكتب رواية، فسوف تكون ببساطة "تحقيقاً صحفياً" وربما تبدو عتيقة وسخيفة قبل أن تستطيع نشرها. لدي رواية تتعامل مع عام ١٩٤٥ في رأسي الآن، لكن لن ألمسها قبل عام ١٩٥٠ حتى لو بقيت حياً لأكتبها. السبب ليس فقط أن المرء لا يستطيع أن يرى أحداث اللحظة بمنظور موضوعي، وإنما أيضاً يجب أن تعيش مع الرواية لسنين قبل أن تصبح كتابتها ممكنة، وإلا فلن يحدث عمل التفاصيل الذي يستغرق وقتاً هائلاً، ولا يمكن فعله إلا في لحظات غريبة. هذه تجربتي، وأعتقد أنها تجربة أشخاص آخرين. أحياناً أكتب ما يسمى برواية ضمن سنتين بعد التصور والفهم الأصلي لها، لكنها تكون دائماً عندئذ ضعيفة وسخيفة أكبحها فيما بعد. ربما تتذكر أن كل الكتب الجديرة عن حرب عام ١٩١٤ ظهرت بعد انتهائها بخمس أو عشر سنين أو أكثر حتى. أعتقد أن كتباً حول الحرب الأخيرة على وشك أن تظهر الآن، وستظهر كتب عن الفترة التي تلت الحرب مباشرة في وقت ما في الخمسينيات. لقد كنت مريضاً بشكل رهيب في الأسابيع الأخيرة القليلة. لقد عانيت من انتكاسة بسيطة، ثم قرروا أن أحاول مرة أخرى مع الستريبتومايسين الذي استفدت منه كثيراً سابقاً مؤقتاً على الأقل، ولكنه هذه المرة لم يكن له سوى نتائج شنيعة، وأعتقد أنني كونت حساسية أو شيئاً ما. على كل حال، أنا أفضل قليلاً الآن، لكنني لا أستطيع أن أعمل، ولا أعرف متى سأكون قادراً على ذلك. ليس لدي أمل في الخروج من هنا قبل أواخر الصيف. إن كان الطقس جيداً، فربما أذهب إلى اسكتلندا لبضعة أسابيع وليس أكثر، ثم أمضي فصل الخريف في مصحة سكنية. لا أستطيع رسم خطط حتى تتغير صحتي وتستقر في وضع محدد أكثر بشكل أو آخر. ريتشارد يزدهر أو هكذا كان حينما رأيته آخر مرة. سيبلغ الخامسة في شهر مايو/ أيار. أعتقد أنه سيذهب إلى مدرسة القرية هذا الشتاء، لكن في السنة التالية سوف أنقله إلى البر الأساسي لكي يستطيع الذهاب إلى مدرسة نهارية مناسبة....... إن كبر ليصبح مزارعاً، فيجب أن أكون راضياً، لكن أنا لن أحاول التأثير عليه.... (امتهن ريتشارد بلير الزراعة، وتزوج من إيلنور موار عام ١٩٦٤ وأنجبا صبيين اثنين).

المخلص لك جورج.

رسالة إلى إف جيه ورببرغ

٢٧ بي كانونبيري سكوير/ ازلينغتون
/ لندن أن ون/ ٤ مايو/ أيار ١٩٤٦.

عزيزي فريد

سأرسل يوم الأربعاء، في مغلف منفصل، كتاب تروتسكي حياة ستالين ومذكرات فيكتور سيرج الذي استلمته يوم أمس. لقد ألقيت نظرة فقط على الأخير ووجدت أنه مخطوط غير مرتب، لكن إن ارتقى إلى مستوى المقتطفات التي نشرت في البوليتكس، فيجب أن يكون كتاباً قيماً. أنا آسف لأقول إن إحدى شقيقاتي ماتت بشكل غير متوقع، ويجب أن أذهب إلى نوتينغهام يوم الأربعاء (أخته الكبرى مارجوري دانكن). لكني سأعود وأكون في لندن قبل أن أرحل نهائياً في حدود الجمعة القادمة، وأتمنى أن أراك وروجر (روجر سينهاوس مدير سيكر أند ورببرغ) آنئذ. بالنسبة إلى كتاب تروتسكي، فأنا لم أقرأه كله، لكني قرأت قدراً جيداً منه، أي أغلب الأشياء التي تتعامل مع طفولة ستالين، ومع الحرب الأهلية، ومع جريمة مقتل لينين المزعومة. بالنسبة إلى سبب سحبه السابق بواسطة هاربر، فهناك ملاحظة افتتاحية في بارتيزان ريفيو في عدد مارس- أبريل/ آذار-نيسان يوضح:

ثلاثة كتب إما نقدية أو معادية بشكل واضح للنظام الحاكم في روسيا، سُحبت من النشر بعد أن أعلن عنها أمام الملأ.... وكتاب حياة ستالين أيضاً. أرسل الكتاب الأخير للمراجعة فعلياً، ثم تمّ استرداده بعد بضعة أيام (في ديسمبر/ كانون الأول) بملاحظة موقعة من قبل بريزدنت كاس كانفيلد، وختمت الملاحظة بالآتي: "نحن نأمل أن تتعاون معنا في مسألة تحاشي أي تعليق مهما كان، بخصوص السيرة الذاتية وتأخيرها". أعتقد أنه من الواضح وخصوصاً بالنظر إلى التاريخ (بعد أسبوع من دخول الولايات المتحدة الحرب)، أن سبب السحب يجب أن يكون تجنب إزعاج العاطفة الروسية، وليس كما زعموا فيما بعد بسبب اعتراضات أثارها التروتسكيون. لو كان هناك أي من الأخيرين، لكنت سمعت بهم خصوصاً بما أنني أشرت مرة أو مرتين في الطباعة إلى وجود هذا الكتاب الممنوع. وعلى أي حال، إذا سحبت هاربر الكتاب سابقاً لأن التروتسكيين اعترضوا، فلماذا تعيد إصداره من جديد الآن؟ بالنسبة إلى قيمة الكتاب الجوهرية، أعتقد أنه

سيكون جديراً بالنشر إن استطعت شراء ألواح لنقل ألف نسخة وجلدتها. سيكون إنتاجه من جديد مكلفاً جداً في اعتقادي، وسوف يستهلك الكثير من الورق بالنسبة إلى كتاب متخصص نوعاً ما. يبدو لي أنه كتاب أصلي وغير مزيف، بمعنى أنه من عمل تروتسكي، وحتى في المقاطع غير المكتملة، فهو نوع الشيء الذي كان سيقوله هو. كان ناقصاً حين قتل، فأكمله المترجم. الأجزاء الأولى بالكامل هي لتروتسكي، لكن باقتراب النهاية هناك مقاطع طويلة كتبها المترجم كلها تقريباً. الأماكن التي لم يكتبها تروتسكي معلّمة بأقواس تربيعية، ويستطيع المرء التحقق من أرملة تروتسكي وآخرين مقربين منه بأن التنقيح تمّ بأمانة وصدق. وجدت الأقسام الأولى التي تشير إلى طفولة ستالين وتاريخه المبكر كثوري، مشوقة خصوصاً لأنها توضح صعوبة تأسيس أية حقيقة عن شخصية عامة، أصبحت موضوعاً للدعاية. أعتقد أن كل هذا القسم وذاك الذي يشير إلى الحرب الأهلية، يظهر بنجاح ما لا يمكن قوله كثيراً إلا نادراً بأن ستالين كان شخصية ثانوية حتى عام ١٩٢٥. والصورة الآن المقدمة له على أنه اليد اليمنى للينين إلخ، عبارة عن تلفيق. إن المقاطع التي تشير إلى السياسة الداخلية للحزب مملة بالنسبة إلي، لكني أعتقد أن لها أهمية بالنسبة إلى الأخصائيين. عموماً يجب أن أقول إن الكتاب له قيمة تاريخية، ورغم أنه ليس غير متحيز طبعاً، إلا أنه ناضج مقارنة بما كتب عن مواضيع مشابهة على الجانب الآخر. كل تاريخ الثورة الروسية يجب أن يجمع قطعة قطعة من شظايا كتبت هنا وهناك وسط أكوام هائلة من الأكاذيب، وإن الوثائق الشخصية المباشرة غير الرسمية التي تنشر هي الأفضل. بالنسبة إلى الإيحاء بأن ستالين كان مسؤولاً عن موت لينين، فإن تروتسكي لم يدع أنه قادر على إثباته، لكن يقترحه كشيء محتمل في الأصل، ويقدم قدراً محدداً من الدليل الداعم، ويبدو لي استنتاجاً ينبغي على المؤرخ السماح به حتى إن لم يتفق معه. ستالين أخيراً هو من اغتال تروتسكي.

هذا ليس نوع كتاب أنا نفسي أريد أن أقرأه بكامله من أجل ذاته فقط، لكن أظنه كتاباً ينبغي أن يُنشر. إذا أضاف المرء مقدمة للطبعة الإنكليزية، فقد يكون من الأجدر محاولة الحصول على معلومات أكثر حول ظروف اغتيال تروتسكي، التي ربما قررت جزئياً بسبب المعرفة التي كان يكتبها في هذا الكتاب بالذات. كانت هناك محاولة سابقة استهدفت حياته. ويجب أن يكون المرء قادراً على أن يستنتج شيئاً من معرفة تاريخ كهذا........

المخلص لك- جورج.

رسالة إلى إف جيه وربيرغ

بارنهيل/جزيرة جورا/ ٣١ مايو/ أيار ١٩٤٧.

عزيزي فريد

شكراً جزيلاً على رسالتك. لقد قمت ببداية جيدة في الكتاب (ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون) وأعتقد أنني كتبت ثلث المسودة. لم أصل إلى ما أملته في هذا الوقت، لأنني كنت في أبأس وضع صحي هذا العام منذ يناير/ كانون ثاني (صدري كالعادة)، ولم أستطع أن أتخلص منه. على كل، أنا مستمر على العمل بجد، وآمل أن أكمل المسودة أو على الأقل أقصم ظهرها حين أترك هذا المكان في شهر أكتوبر/ تشرين أول. طبعاً إن المسودة الأولية تكون عبارة عن فوضى شنيعة دائماً، ولها علاقة قليلة بالنتيجة المكتملة. لكن مع ذلك إنها الجزء الرئيسي من المهمة. لهذا إن أنهيت المسودة الأولية في أكتوبر/ تشرين أول، فيمكن أن أنهي الكتاب في أوائل عام ١٩٤٨ إلا إذا مرضت. أنا لا أحب الحديث عن كتب قبل أن تُكتب، لكن سأخبرك الآن أنها رواية عن المستقبل- أي بمعنى الفنتازيا لكن بشكل رواية من المذهب الطبيعي. هذا هو ما يجعلها مهمة صعبة -طبعاً ككتاب توقعات، سيكون بسيطاً كتابته بالمقارنة.

أنا أرسل إليك بشكل منفصل مخطط سيرة ذاتية طويلاً، تعهدت به أصلاً كنوع من ملحق وتعليق لكتاب سيريل كونولي أعداء الوعد، بعد أن سألني أن أكتب ذكريات من المدرسة الإعدادية التي كنا فيها معاً. أنا لم أرسلها في الواقع إلى كونولي أو هورايزن، لكونها طويلة نسبياً بالنسبة إلى مجلة دورية، وأعتقد أنها تشهيرية جداً على النشر. وأنا لست ميالاً إلى تغييرها باستثناء الأسماء ربما. لكن أعتقد أنها يجب أن تنشر عاجلاً أو آجلاً حين يكون أغلب الناس المعنيين موتى. وربما عاجلاً أو آجلاً قد أكتب كتاباً من مسودات مختارة. يجب أن أعتذر عن النسخة المطبوعة بالآلة الكاتبة. إنها ليست نسخة كربونية فقط، وإنما طباعة تجارية سيئة، كان عليّ أن أصححها إلى حد كبير-لكن أعتقد أنني أخرجت كل الأخطاء الفعلية. ريتشارد بصحة جيدة على الرغم من المصائب المتنوعة.

أولاً سقط وجرح جبينه، مما استلزم قطبتين، وبعد ذلك أصيب بالحصبة. هو يتحدث أكثر بكثير الآن (كان في الثالثة قبل أسبوع أو اثنين). الطقس تحسن بعد أن كان منتناً تماماً، والحديقة التي أنشأناها من غابة عذراء، أصبحت جميلة تماماً. من فضلك بلّغ تحياتي لباميلا وروجر.

المخلص لك/جورج.

رسالة إلى إف جيه ورييرغ

٣٠ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي فريد

شكراً على رسالتك. قرأت نحن منذ سنتين ولا تظن أني أريدها أن تطبع بشكل خاص، فأنا لا أريد أن أفرضها عليك، ولكن أظنها تستحق اهتمامك. وبأي حال يجب أن يعاد نشرها من قبل شخص ما. بالتأكيد فيها أخطاء، لكنها تبدو لي أنها تشكل رابطاً ممتعاً وحلقة في سلسلة من كتب اليوتوبيا. ومن جانب آخر هي تكشف وتعري أنموذج اليوتوبيات فوق المنطقي المتعي (أعتقد أنه انتحل إلى درجة ما من عالم جديد شجاع لألدوس هكسلي) لكنها من جانب آخر تهتم بالشيطانية، وتميل إلى العودة إلى شكلٍ مبكر من الحضارة يبدو أنه من جزء من الأنظمة الشمولية والاستبدادية. تبدو لي كتاباً جيداً في نفس طريقة العقب الحديدية، لكنها مكتوبة بشكل أفضل. لكن طبعاً ليس هناك علم إن كانت ستباع، وليس لدي رغبة في إنزالك إلى اليابسة مع فيل أبيض (شيء لا قيمة له). أظن أنه ينبغي على أحد ما أن ينشرها، ومن المخزي أن يبقى كتاب من هذا النوع مع تاريخه الغريب واهتمامه الحقيقي خارج النشر، في الوقت الذي ينشر فيه الكثير جداً من الهراء التافه يومياً.

لقد كنت في وضع صحي منحرف نوعاً ما، وأعاني من نوع من الناعور. لهذا السبب لم أكتب هذا بخط يدي. لقد منعوني من استخدام طابعتي لمدة أسبوع لأنها تتعبني كما يفترض. بلغ تحياتي للجميع.

المخلص لك- جورج

رسالة إلى إف جيه ووربيرغ

غرانهام/ ١٦ مايو/ أيار ١٩٤٩.

عزيزي فريد

شكراً جزيلاً على رسالتك. وكما أخبرتك هي، كان علي أن أؤجل سونيا بروانيل. أنا في أسوأ وضع صحي، وكنت على هذا الحال منذ أسابيع. كان من المفترض أن تجرى لي صورة شماعية أخرى، لكني كنت أعاني من الحمى منذ أيام وأعجز عن الوصول إلى غرفة الأشعة وأقف مقابل الشاشة. حين تؤخذ الصورة، أخشى أنه لن يبقى الكثير من الشك من أنها ستظهر أن كلا الرئتين قد فسدتا بشكل سيئ. سألت الطبيبة مؤخراً إن كانت تظن أنني سأنجو، ولم تقل أكثر من أنها لا تعرف. إذا كان "التشخيص" بعد هذه الصورة سيئاً، فسأحصل على رأي ثانٍ. هل تستطيع أن تمطيني اسم ذاك الاختصاصي الذي ذكرته؟ ثم بعد ذلك سوف أستشيره، أو الدكتور مورلوك اختصاصي آخر استشرته قبل الحرب. هم لا يستطيعون فعل أي شيء بما أنني لست حالة لعملية جراحية، لكني أرغب في رأي خبير ما حول كم يحتمل لي أن أبقى حياً. أنا أتمنى ألا يبدأ الناس بمطاردتي ويجعلوني أذهب إلى سويسرا التي يعتقد أنها تمتلك صفات سحرية. أنا لا أعتقد أن المكان الذي يكون المرء فيه، يشكل أي اختلاف، والسفر سيكون الموت بالنسبة إليّ. الفرصة الوحيدة للنجاة كما أتصور، هي في أن ألزم الهدوء. لا تظن أنني استسلمت وعزمت على الموت. على العكس لدي أقوى المبررات للرغبة في البقاء حياً، لكني أريد أن أحصل على فكرة واضحة لطول الفترة التي سأبقى حياً فيها، وأن يكف الأطباء عن ملاطفتي طول الوقت وعدم إخباري بالحقيقة.

نعم تعال لتراني. أنا أتمنى ذلك، وأثق أنه في بداية حزيران ربما أكون أفضل قليلاً، فعلى الأقل ستخف الحمى. أنا مسرور أن ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون حققت نجاحاً قبل النشر. نشرت ذا وورلد ريفيو أغبى مقطع فيها، واختصرت بطريقة حولتها إلى شيء تافه (ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون والخطاب الجديد وورلد ريفيو مايو/ أيار ١٩٤٩). كنت

لن أدع مور يرتب هذا لو عرفت أنهم نووا أن يقطعوها. على كل حال أعتقد أنه إعلان. رجل الإيفنينغ ستاندارد السيد كوران أتى ليقابلني، ورتب لبأتي ثانية، لكني أظن أنني سوف أؤجله لأنه أتعبني كثيراً في المرة الماضية وجادلني حول السياسة. بلغ تحياتي للجميع أرجوك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى إف جيه ورييرغ

مصح ومنتجع غرانهام/ غرانهام/
غلوسستر/ ٢٢ أغسطس/ آب ١٩٤٩.

عزيزي فريد

من فضلك هل ترسل نسخة واحدة من كل من أيام في بورما والصعود إلى الهواء إلى سونيا براونيل عن طريق صحيفة هورايزن. لقد أتى مورلاند لزيارتي، بناء على طلبي مرة أخرى هذا المساء (الدكتور أندرو مورلاند اختصاصي في مرض السل، استدعاه إف جيه وربيرغ). نصح مورلاند أن ينقل أورويل إلى مستشفى الجامعة في لندن. أعاني من شعور رهيب وشنيع متقطع. يأتي ويذهب، وأعاني من نوبات دورية من الحرارة العالية إلخ. سأخبرك ماذا قال مورلاند. ريتشارد عاد لتوه إلى جورا، وسوف يذهب إلى مدرسة القرية في الفصل الشتوي. لا أستطيع وضع خطط أبعد في الوقت الحالي. أنا سجلته في ويستمنستر، لكنه لن يكون هناك حتى عام ١٩٥٧ ولا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث حتى ذلك الوقت. كما حذرتك، فإنني قد أنوي الزواج مرة أخرى (من سونيا) حين أكون في أرض الأحياء مرة أخرى إن حصل ذلك قط. أعتقد أن كل واحد سوف يرتعب، لكن بمعزل عن اعتبارات أخرى، فأنا أعتقد أنني يجب أن أبقى حياً لفترة أطول إن تزوجت. لقد وضعت مخطط كتاب المقالات. أود أن أنشره السنة القادمة، لكنني أريد أن أضمنه مقالين طويلين عن جوزيف كونراد وجورج غيسينغ، وطبعاً لا أستطيع لمس هذين إلى أن أتحسن بشكل حاسم.

سلامي للجميع/جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير/
٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦.

عزيزي جورج (جورج وودكوك مؤلف وفوضوي ومحرر لمجلة ناو من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٧ ويعمل الآن أستاذاً في جامعة بريتش كولومبيا، منذ عام ١٩٥٩ محرر كنديان ليتريتشر. بعد جداله ومناظرته مع أورويل في "السلمية والحرب" تراسلا وبقيا أصدقاء حتى وفاة أورويل).

شكراً جزيلاً من أجل الشاي -لقد جاء في اللحظة المناسبة. ففي هذا الأسبوع جاءت القرية الأقرب إلى هنا في شاحنات، لتكون في حقل الذرة مقابل بيتنا، وطبعاً يجب أن يتدفق الشاي مثل الماء خلال استمرار العمل. كنا نساعد المزارع الصغير في قشه وذرته وهو جارنا الوحيد حين لم يجعل المطر العمل مستحيلاً على الأقل. كل شيء يعمل هنا بطريقة بدائية لا تصدق. حتى عندما يحرث الحقل بجرّار، تظل الذرة تبذر بالنثر ثم تحصد بالمناجل وتجمع في حزم يدوياً. يبدو أنهم ينثرون الذرة أو الشوفان في كل أرجاء اسكتلندا. ويجب أن أقول يبدو أنهم يحصلون عليها كما لو أنها عملت بواسطة آلة تقريباً. بسبب الرطوبة لا يدخلون القش حتى نهاية شهر سبتمبر/ أيلول أو بعده حتى. أحياناً لا يستطيعون تركه في العراء لوقت متأخر، ويجب أن يخزنوه في العليات. الكثير من الذرة لا تنضج تماماً وتطعم للقطيع في حزم مثل القش. يجب على المزارعين أن يعملوا بجد كبير، لكن بطرق أغنى وأكثر استقلالاً من عامل المدينة، وسيكونون مرتاحين تماماً، إن استطاعوا الحصول على مساعدة قليلة عن طريق الآلات والطاقة الكهربائية والطرقات، وإن استطاعوا إنزال ملاكي الأراضي عن ظهورهم وتخلصوا من الأيائل. هذه الحيوانات شائعة في هذه الجزيرة بالذات، لذلك تعتبر لعنة مطلقة. تأكل المراعي تماماً حيث ينبغي أن تكون الأغنام. وإن بناء أسيجة هو عمل مكلف أكثر بكثير مما هو ضروري. لا يسمح للمزارعين أن يطلقوا النار عليها، ودائماً يضيعون وقتهم في جرّ جيف الأيائل من سفح التل أثناء موسم المطاردة. كل شيء يضحى به للبهائم، لأنها مصدر

سهل للحم، ولذلك فهي مربحة للناس الذين يملكونها. أعتقد عاجلاً أو آجلاً أنه سوف يعتنى بهذه الجزر، ومن ثم يمكن أن تتحول إلى مناطق من الطراز الممتاز لإنتاج الألبان واللحوم، أو يساعدوا عدداً كبير من السكان المزارعين الذين يعيشون على تربية الماشية وصيد السمك. في القرن الثامن عشر كان عدد السكان هنا عشرة آلاف شخص- الآن عددهم أقل من ثلاثمائة.

سلامي إلى أنجي. أتمنى أن أعود إلى لندن في ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول.

المخلص لك/جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير/
٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٦.

عزيزي جورج (لاحقاً السيد جورج وودكوك)

لقد انبهرتُ تماماً عند سماعي منك عن توليك الإس بي سي (مركز الكتاب الاشتراكي). كيف حدث ذلك؟ أعتقد أنهم كانوا يعملون بشكل جيد تماماً. وماذا حدث بمنشوراتهم مثل الكراريس التي كانوا يصدرونها من حين إلى آخر؟ كان هناك واحد من كراريسي نشروه قبل بضعة أشهر (جيمس بيرنهام والثورة الإدارية) وأنا لا أعرف حتى كم نسخة بيعت منه. إنها ببساطة فاجعة إذا لم تبق مكتبة كبيرة يسارية واحدة ليست تحت سيطرة الحزب الشيوعي. لكن أنا لا أقول إنه يستحيل تأسيس منافس ناجح، لأن أي مكتبة للحزب الشيوعي ستكون معاقة ومقيدة كدكان، لكونها غير قادرة على تخزين النوع "الغلط" من الأدب. يجب علينا أن نناقش هذا حين أعود. ليس لدي فكرة ما هو الرأسمال المطلوب لتأسيس مكتبة ذات مخزون جيد، لكن أتصور أن يكون المبلغ عدة آلاف من الجنيهات. ليس أمراً لا يمكن تخيله أن يطلب المرء المال من شخص حسن النية مثل هولتون إن رأى أن حركته ليست خاسرة. الشيء هو إيجاد دكان بالإضافة إلى كونه يبيع الهراء اليساري كله، يكون مكتبة جيدة ولديه مكتبة إعارة، ويدار من قبل شخص يعرف شيئاً عن الكتب. ولأنني عملت في مكتبة، فعندي أفكار حول الموضوع سأخبرك عنها عندما أعود.

طبعاً من الرياء الشديد أن أملك تلك المقالة في البوليتكس؟ ليست لدي نسخة من **لتبقى الزنبقة ترفرف**. وجدت نسخة في مكتبة للكتب المستعملة منذ أشهر، لكني استغنيت عنها. هناك كتابان أو ثلاثة أنا خجل منها ولم أسمح بإعادة طباعتها أو ترجمتها، وهذا واحد منها. يوجد واحد أسوأ حتى يسمى **ابنة القس**. هذا كتب كتمرين، وكان يجب ألا أنشره، لكني كنت في أمس الحاجة إلى المال، والشيء نفسه حين كتبت **لتبقى الزنبقة ترفرف**. في ذلك

الوقت، لم يكن في داخلي كتاب، لكن كنت شبه جائع، وكان عليّ أن أصنع شيئاً ليجلب لي مائة جنيه.

أنا راحل من هنا في التاسع من هذا الشهر، وسأصل إلى لندن في الثالث عشر منه. سأهتف لك آنذاك. سلامي لإنجي. ريتشارد يزدهر.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير/
١٨ يونيو/ حزيران ١٩٤٧.

عزيزي جورج

نعم بالتأكيد الناس في ميونيخ ربما يعيدون طبع القطعة التي نشرت في دورية ناو (كيف يموت الفقراء). أنا مسرور أنك تدير عملاً ما، وأنك تفكر في كتابة شيء عن وايلد. أنا كنت دائماً مؤيداً لوايلد. أنا أحب دوريان غراي بشكل خاص، سخيف كما هو بطريقة ما. أنا قرأت مؤخراً حياة هيسكيث بيرسون -فقط السيرة المبتذلة العادية، لكني وجدت قطعاً صغيرة منها ممتعة، خصوصاً الجزء الذي عن الوقت الذي قضاه وايلد في السجن. أنا لا أظن أنني قرأت حياة وايلد من قبل، لكني قرأت منذ سنين بعض ذكريات كتبها فرانك هاريس، من الواضح أنها كاذبة، وقسم من الكتاب بقلم شيرهارد يرد فيه على سيرة هاريس الذاتية. أحب أن اقرأ وصفاً مفصلاً للمحاولتين. سررتُ بملاحظات تلك المرأة في المجلة الأمريكية التي أرسلتها إلي. يا لها من ساذجة! الطقس هنا انقلب واستاء مرة أخرى بعد أن كان جميلاً لمدة أسبوع أو اثنين.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورجوودكوك

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/٩ أغسطس/ آب ١٩٤٧.

عزيزي جورج

أخيراً اقتنعت للرد على رسالتك المؤرخة في الخامس والعشرين من يوليو/ تموز. أنا كما تعرف من حيث المبدأ، مستعد لأن أكتب مقالاً في السلسلة التي ذكرتها، لكن "من حيث المبدأ" صحيح تقريباً أنني مشغول، ولا أريد أن أتعهد بأي عمل أكثر آخر في المستقبل القريب. أنا أصارع مع هذه الرواية، وأرجو أن أنهيها في وقت مبكر من عام ١٩٤٨. أنا لا أتوقع أن أنهي المسودة الأولية قبل شهر أكتوبر/ تشرين أول، ثم يجب أن آتي إلى لندن لمدة شهر بعد ذلك لأهتم بأشياء مختلفة، وأكتب مقالة أو اثنتين وعدت بإنجازهما مسبقاً، ثم سأبدأ بإعادة كتابة الكتاب الذي سيستغرق مني من أربعة إلى خمسة أشهر، إن لم أفعل شيئاً آخر غيره. ولا أستطيع أن أتفادى كتابة مقالة عرضية عادة لإحدى المجلات الأمريكية، لأن المرء يجب أن يكسب بعض المال من حين إلى آخر.

أعتقد أنني سأعود في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني، وسأمضي الشتاء هنا. أستطيع أن أعمل هنا بانقطاع أقل، وأعتقد أن البرد سيكون أقل هنا. المناخ رغم أنه رطب، إلا أنه بارد تماماً مثل بريطانيا، والحصول على الوقود أسهل بكثير. نحن نوفر فحمنا بأقصى ما نستطيع، ونأمل أن نبدأ الشتاء باحتياطي من ثلاثة أطنان، ويمكنك الحصول على نفط ببرميل سعته أربعين غالوناً هنا، بينما الشتاء الماضي في لندن كنت تجبر على الركوع على ركبتيك لتحصل على غالون واحد كل أسبوعين.

يوجد أيضاً حطب ونبات نصف متفحم، لكن تجميعه متعب إلا أنه يساعد الفحم. قسم من الشتاء يمكن أن يكون قارساً، والمرء أحياناً ينقطع عن البر الرئيسي لمدة أسبوع أو أثنين، لكن لا يهم طالما لديك طحين متوفر تصنع منه الكعك. مؤخراً كان الطقس لا يصدق جداً وأخشى أننا سندفع ثمن ذلك قريباً. ذهبنا الأسبوع الماضي في جولة في القارب، وأمضينا

يومين على الجانب الأطلسي غير المأهول للجزيرة في كوخ رعوي تماماً- لا أسرة، لكنه مريح تماماً. توجد شواطئ بيضاء جميلة في ذلك الجانب، وإن تسلقت التلال لمدة ساعة، تصل إلى بحيرة مملوءة بالسمك المرقط، لكنك لن تصطاد شيئاً منه بسبب صعوبة اصطياده. في هذا الأسبوع الأخير طبعاً انكسرت ظهورنا في إدخال القش، ومعنا ريتشارد الذي يحب التدحرج على القش عارياً. إن أردت أن تأتي إلى هنا في أي وقت تعال طبعاً، لكن أخبرني فقط قبل أسبوع من اللقاء. بعد سبتمبر/ أيلول يصبح الطقس هائجاً، لكن أعرف أنه ستكون هناك أيام دافئة جداً حتى في منتصف الشتاء.

حصلت على نسختين من نشرة لجنة الدفاع عن الحريات. أنا لست سعيداً جداً حول متابعة حالة نان ماي، أي تصويره كرجل حسن النية جرت التضحية به. أعتقد أن وزير الداخلية يستطيع إرباك هذا الطلب إن أراد أن يفعل. أنا وقعتُ العريضة الأولى، لكن ليس من دون هواجس، لأنني أظن أن عشر سنين هي عقاب قاسٍ (بفرض أن أية عقوبة سجن مبررة). إن كان عليّ أن أناقش القضية، فيجب أن أشير إلى أنه لو أفشى المعلومات إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فربما حصل على تخفيف الحكم لسنتين على الأكثر. لكن الحقيقة أنه كان جاسوساً عادياً -لا أقصد أنه كان يعمل من أجل المال وخرج إلى كندا كجزء من حلقة تجسسية. أتوقع أنك قرأت الكتاب الأزرق حول الموضوع. يبدو لي أيضاً القول إنه شعر بأن المعلومات كانت تمنع من قبل حليف، لأنه في وضعه يفترض أنه عرف أن الروس لن ينقلوا معلومات عسكرية إلى أي أحد أبداً، عبارة عن حجة ضعيفة. لكن طالما كان الهدف إخراجه من السجن في وقت مبكر أكثر، فأنا لست ضده.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

الجناح رقم ثلاثة/ مستشفى هيرمايرز/
لاناراكشاير/ ٤ يناير/ كانون الأول ١٩٤٨

عزيزي جورج

نويت منذ بعض الوقت أن أكتب لأشرح أنني لن آتي إلى لندن أخيراً. كما كنت أخشى، فأنا مريض جداً. أعاني من سل في رئتي اليسرى......

أتمنى أن تفعل لجنة الدفاع عن الحريات شيئاً بخصوص هذه المطالب الثابتة، لتحظر موسلي وشركاه. أعتقد أن موقف التريبيون كان مخزياً. وحين كتب زيلاكوس الأسبوع قبل الماضي مطالباً بما يرقى إلى شريعة فاشية وخلق مواطنين من الدرجة الثانية، لم يرد عليه أحد كما يبدو. الشيء برمته رغبة مقنعة بستار شفاف لاضطهاد شخص ما لا يستطيع أن يرد وينتقم. وكما هو واضح إن مصير موسلي غير مهم البتة، ولا يمكن أن يحظى بمتابعة جماهيرية حقيقية. أعتقد أنها حجة من أجل كراسة، وأنا أتمنى فقط أن أتحسن بما يكفي لأكتب واحدة. الشيء المركزي الذي يجب أن يقبل به المرء، هو الحجة التي يقدمها هؤلاء المدافعون عن التشريع القمعي دائماً أنه "لا يمكن السماح للديمقراطية أن تُستخدم للإطاحة بالديمقراطية -لا يمكن السماح بالحرية لهؤلاء الذين يستخدمونها فقط لكي يدمروا الحرية". لكن لو حملنا هذا إلى نتيجته، فلن تكون هناك حجة للسماح بأي حرية سياسية أو ثقافية مهما كانت. لذلك من الواضح أنها قضية تميز بين تهديد حقيقي ومجرد تهديد نظري للديمقراطية، ويجب ألا يضطهد أي أحد بسبب التعبير عن آرائه مهما كانت معادية للمجتمع ومصلحته، ويجب ألا تقمع أي منظمة سياسية، إلا بعد أن يظهر أن هناك تهديداً قوياً لاستقرار الدولة. هذه هي النقطة الأساسية التي يجب أن أطرحها في كل الأحوال. طبعاً هناك نقاط كثيرة أخرى.

أصدق تحياتي إلى إنجي/ المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جورج وودكوك

الجناح رقم ثلاثة/ مستشفى هيرمايرز/
لاناراكشاير ٢٣ مارس/ آذار ١٩٤٨/

عزيزي جورج

شكراً جزيلاً على الكراريس الثلاث وعلى قصائدك. أنا نويت أن أكتب لك بشكل أطول عن الأخيرة، لكن أولاً هناك نقطتان:

١- توجد هفوة في مقدمتك لكراسة تولستوي. هو لم يمت في عام ١٩٠١ بأي حال كان فوق الثمانين، وأتصور أنه كتب عدداً كبيراً من الكراريس بعد هذه الواحدة.

٢- هل لجنة الدفاع عن الحرية أخذت أي موقف في هذه اللحظة حول هذا الحظر على الشيوعيين والفاشيين؟ (من المهم في هذه اللحظة فيما يتعلق بالشيوعيين ويستهدفهم فقط) ليس من السهل أن يكون لك موقف واضح، لأنه إذا اعترف المرء بحق الحكومات في الحكم، فيجب عليه أن يعترف بحقها في اختيار وكلاء وعملاء مناسبين. وأعتقد أن أي منظمة كالحزب السياسي مثلاً، لها الحق في أن تحمي نفسها ضد أساليب التسرب. لكن في الوقت نفسه، إن الطريقة التي ستعمل بها الحكومات مقلقة ومبهمة كما يبدو، وكل الأمور الظاهرة تبدو لي جزءاً من انهيار عام لوجهة النظر الديمقراطية. منذ أسبوع أو أسبوعين كان الشيوعيون يصرخون ويطالبون بأساليب غير دستورية كي تستخدم ضد الفاشيين، والآن نفس الأساليب تُستخدم ضدهم هم، وفي سنة أخرى أو اثنتين قد تستخدمها الحكومات المؤيدة للشيوعيين ضدنا. في الوقت الراهن يتزايد فتور الشعور العام بخصوص حرية التعبير إلخ باستمرار، والذي يهم أكثر بكثير مما يمكن أن يكون في كتب التشريع. تبدو لي حالة من أجل كراسة -لكن بأي حال فإن لجنة الدفاع عن الحريات ينبغي أن توضح موقفها بشكل صريح في اعتقادي. أتمنى أن ينجح مشروع كندا. سيكون تغيراً كبيراً. أعتقد أن هناك صيد سمك لا يصدق في كندا، إن كنت مهتماً في ذلك.

المخلص لك/ جورج

١-كانت الكراريس الثلاث الأولى والمنشورات الوحيدة في سلسلة "كراريس بوركوباين" التي حررها جورج وودكوك لمطبعة بوركوباين، وهي روح الإنسان تحت الاشتراكية لأوسكار وايلد؛ والعبودية في عصرنا لليو تولستوي؛ ودفاعاً عن الشعر ورسالة إلى لورد إيلينبورو لبيرسي بايش. راجع أورويل روح الإنسان تحت الاشتراكية في الأوبزيرفر في ٩ مايو/ أيار ١٩٤٨. القصائد التي شكر أورويل وودكوك عليها، كانت قصائده في كتاب تخيل الجنوب عام ١٩٤٧.

رسالة إلى جورج وودكوك

الجناح الثالث / مستشفى هيرمايرز/ إيست كيلبرايد/ لاندارك /٢٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٨.

عزيزي جورج

لم أكتب قبل هذا الوقت، لأنني كنت أمرّ بوقت عصيب طيلة نصف الشهر تقريباً مع آثار ثانوية للستريبتومايسين. لقد قرأت قصائدك باهتمام. أحببت القصيدة الطويلة في النهاية أكثر من الكل "جسر واترلو"، وبعد تلك أعتقد "لوح الأسلاف" و"المهيج" و"الجزيرة". أعتقد أنك وصلت إلى أفضل تأثير لك مع أبيات العشر مفردات التي هي شاذة نوعاً ما لتعطي نوعاً من الحركة مكسورة الظهر، مثل "ومرة أخرى أنا أفكر في الملائكة ووليام بليك" أو"هذه هي الساعة المنافية للعقل والطبيعة التي نهض فيها القياصرة". لكن أعتقد أنك تحتاج أن تقرر بشكل أفضل بخصوص موضوع القافية. في بعض الأحيان تستخدم قوافي عادية، لكن لفترة جيدة من الوقت تستخدم السجع والتوازنات إلخ. يجب أن أقول أنني ضد هذا النوع من القافية الذي يبدو لي فقط قافية فكرية موجودة على الورق، ونستطيع أن نرى أن الحروف الصامتة النهائية نفسها. إن نقص القافية في الإنكليزية صعوبة كبيرة جداً وتزداد مع الوقت، لأن القوافي المألوفة تبتذل أكثر فأكثر، لكنني كنت أشعر دائماً أنه إذا كان يجب على المرء أن يستخدم قوافي ناقصة، فمن الأفضل له أن يجعلها صوت الحروف اللينة وليس الحروف الصامتة.

كتبتُ مقالة قصيرة -ليست مراجعة نقدية في الواقع، لكنها واحدة من تلك المقالات التي يضعونها على الصفحة الافتتاحية- من أجل الأوبزيرفر عن أوسكار وايلد روح الإنسان تحت الاشتراكية التي قد تساعدها قليلاً. تشارلز ديفي، وهو أحد المحررين، سألني إن كنت أستطيع أن أكتب مقالة قصيرة عن لجنة الدفاع عن الحريات وأهدافها ومجالها. سوف أفعل طبعاً ولا شك. إنها سوف تجلب لي بعض المساهمات. أعتقد أنه يجب أن يكون القول صحيحاً بأنه لا يوجد الآن أي منظمة أخرى لها تلك الأهداف (ماعدا

طبعاً المجلس الوطني للحريات المدنية إن سي سي إل التي ربما أقدر أن أتخلص منها على الماشي)؟

المخلص لك جورج

ملاحظة. لقد ضيعت عنوانك الجديد -سوف أرسل هذا التذكير إلى منتدى التغيير الديمقراطي الإف دي سي.

رسالة إلى جورج وودكوك

مستشفى هيرماير/ ٢٤ مايو/ أيار١٩٤٨.

عزيزي جورج

استلمت رسالة أخرى من تشارلز ديفي، لفتت انتباهي إلى حقيقة أن أي أم فورستر استقال من المجلس الوطني للحريات المدنية. بعدئذ جلست أو بالأحرى وقفت مع فكرة كتابة تلك المقالة عن منتدى التغيير الديمقراطي، لكن عند إعادة النظر لا أعتقد أنني أستطيع أن أفعلها. بدايةً، لدي مقالتان طويلتان جاهزتان في متناولي، ولا أستطيع فعل أكثر بعد، لكن ما هو أقرب إلى القصد أنني لا أعرف كفاية عن منتدى التغيير الديمقراطي من أجل هذا الغرض في الحقيقة. هل تعتقد أنك تستطيع أن تكتب المقالة؟ أظن أنك قلت إن ديفي كتب لك، وربما يمكنك التحدث إليه بالهاتف. أنا لا أعرف إن كنت تعرفه -هو رجل مهذب. أنا لا أعرف بالضبط ماذا يريدون، لكني أفترض أنهم يريدون تقريراً عن اللجنة ونشاطاتها بشكل عام، مع بعض الملاحظات عن تهديد الحرية الفردية في الدولة المركزية الحديثة. أنا لا أحب ترك هذا عليك. ومن جانب آخر إن كانوا راغبين في أن تكتب لهم المقالة، سوف يدفعون لك مبلغاً جيداً لقاءها. لم أشكرك بعد على نسخة كتاب المقالات (**الكاتب والسياسة** -جورج وودكوك). طبعاً أنا مبتهج لأرى المقالات التي كتبت عني تظهر في شكل كتاب. أنا أحببت الكتاب الذي عن بيتس (هنري ولتر بيتس الذي زار أمريكا الجنوبية عام ١٨٤٨ وألف كتاب **الطبيعي على نهر الأمازون**) والذي قرأت كتابه منذ سنين مضت. كل كتب نابنتين سينتشري عن أمريكا الجنوبية لها جو رعوي، لكن أعتقد أنني كنت منجذباً إلى سهول البامبا العشبية أكثر من الغابات. أعتقد أنك قرأت **الأرض الأرجوانية**. أيضاً الكتاب الذي عن التراتيل الدينية، الذي كنت أنوي دائماً أن أكتب شيئاً عنه أنا نفسي. أعتقد أنك مخطئ في القول إن الناس يستجيبون إلى ترتيلة مثل "قم معي" (بالمناسبة ألا يجب أن تكون "الظلام يتعمق" وليس "يتجمع") بشكل رئيسي بسبب الحروب والبطالة إلخ. هناك قدر كبير من الحزن المتأصل والعزلة في الحياة الإنسانية يظل نفسه مهما كانت الظروف

الخارجية. أنت لم تذكر اثنين من أفضل التراتيل "تسبيح للأقدس" و"القدس بيتي السعيد" - أعتقد أن هذا الترتيل يجب أن يكون أسبق بكثير من المجموعات الأخرى التي كنت تدرسها. في قديم وحديث إن كنت أتذكر، يجب حذف الكثير لإخراج التخيل الكاثوليكي منه. أنا أفضل بكثير الآن، وأنهض لمدة ساعتين يومياً وأخرج قليلاً حين يكون الطقس دافئاً. لم يخبروني بالتحديد متى أستطيع أن أغادر المستشفى، لكن ربما في شهر أغسطس/ آب تقريباً. يبدون لي الآن أنهم يفكرون في أنني يجب ألا أستمر في العلاج حين أغادر، ما سيكون نعمة عظيمة، لأنه يعني أنني سأستطيع أن أعود إلى جورا، بدلاً من الجلوس في سكينة في غلاسغو أو أدنبره. ريتشارد ممتاز جداً بكل المقاييس ويكبر بشكل هائل. طبعاً لم أره منذ أشهر، لكنني أحاول أن أرتب لإحضاره إلى هنا بأي شكل في زيارة مسائية، بعد أن أصبحت أستطيع الخروج إلى الهواء الطلق وأراه في الأراضي. من فضلك بلّغ تحياتي لإنجي. لقد ذهبت وفقدت عنوانك الجديد، لكن سأفكر في شخص ما ليرسل هذا. سأكتب لتشارلز ديفي عن المقالة.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى سونيا براونيل

بارنهيل/ جزيرة جورا/ أغريلشاير
/١٢ أبريل/ نيسان ١٩٤٧.

العزيزة جداً جدا سونيا (سونيا براونيل سكرتيرة التحرير في هورايزن ١٩٤٥-٥٠ التي أصبحت زوجة أورويل الثانية في ١٩٤٩). أكتب بخط اليد، لأن آلة الطباعة خاصتي في الدور السفلي. وصلنا بخير من دون حادث يوم أمس. ريتشارد رائع كالذهب واستمتع بالنوم بعد أن تغلب على غربته الأولى. وفور وصولنا إلى داخل الطائرة في غلاسغو، غط في النوم ربما بسبب الضجيج. لم أستقل طائرة من قبل، وأظن أنها أفضل بكثير. تكلف جنيهان أو ثلاثة أكثر، لكنها توفر خمس ساعات وضجر الذهاب بالقوارب. وحتى إن كان المرء مريضاً، فهي ثلاثة أرباع الساعة فقط. بينما إن ذهب المرء بالبحر، فسيمرض لخمس أو ست ساعات في طقس سيئ. كل شيء هنا متخلف ومتأخر عما هو في إنكلترا، ونادراً ما ترى برعماً. ورأيت الكثير من الثلج يوم أمس، لكنه طقس ربيعي جميل. النباتات التي زرعتها في السنة الجديدة تبدو لي حية على الأغلب. النرجس البري في كل مكان والزهرة الوحيدة في الخارج. أنا مازلت أصارع تقريباً مع مرج عذري، لكن بحلول السنة القادمة سيكون لدي حديقة جميلة جداً هنا. طبعاً عانينا من كابوس كل اليوم في ترتيب الأشياء مع ريتشارد الجاهز جداً للمساعدة، لكن الأمر على ما يرام الآن تقريباً، وبدأ البيت يبدو متحضراً تماماً. يلزمنا بعض الأسابيع قبل أن نحل مشكلة النقل نهائياً. أنا سوف أرسل بطلب بعض الدجاج حالما نعمر قن الدجاج.

وهذه السنة سأكون قادراً على اتخاذ تدابير من أجل الكحول، لكي يكون عند المرء القليل من الروم في كل يوم. العام الفائت أجبرنا أن نكون من الممتنعين عن شرب الكحول عملياً. أعتقد أنه خلال أسبوع سيكون كل شيء على ما يرام، وسيتم إنجاز العمل الأساسي في الحديقة، ومن ثم أستطيع التفرغ إلى عمل آخر.

كتبت إلى جانيتا (صديقة سونيا بروانيل) أسألها أن تأتي كلما أحبّت، وأعطيتها تعليمات بشأن الرحلة. طالما هي ستجلب الطفل وليس إرساله، يجب أن يكون الأمر بسيطاً تماماً. أريد أن أعطيك التفاصيل الكاملة عن الرحلة التي ليست مرعبة كما تبدو على الورق. الحقائق هي التالي: الساعة الثامنة صباحاً تغادرين غلاسغو سنترال إلى غوركوك. التحقي بقارب إلى تاربيرت في غوروك. في الثانية عشرة ظهراً تصلين إلى إيست تاربيرت. سافري بالحافلة إلى ويست تاربيرت (الحافلة تسير في تزامن مع القوارب) التحقي بقارب إلى كريغهاوس (جورا) في ويست تاربيرت. في الثالثة والنصف بعد الظهر تصلين كريغهاوس. خذي سيارة مستأجرة إلى ليلت حيث نتقابل.

إن أردت القدوم بالطائرة، فهناك رحلات يومياً ما عدا أيام الآحاد كما أعتقد، وهي عادة تقلع دائماً إلا إذا كان الجو ضبابياً جداً. خط الرحلة كالآتي: ١٠.٣٠ تصلين إلى مكتب الخطوط الجوية الاسكتلندية في محطة اينوك غلاسغو (المكتب في محطة القطار).

١٠.٤٠ تغادر الحافة إلى رينفرو. ١١.١٥ تغادر الطائرة ايزلي (تلفظ ايلي). ١٢ ظهراً تصلين ايزلي. استأجري سيارة أو خذي الحافلة إلى العبارة التي تذهب إلى جورا. الساعة الواحدة تقريباً تعبر العبارة. استأجري سيارة إلى ليلت.

من المهم أن تدعينا نعرف مقدماً متى ستأتين بسبب السيارة المستأجرة. هنا بريدان في الأسبوع فقط ومناسبتان، أستطيع أن أرسل فيهما طلب سيارة إلى كريغهاوس. إن أتيت بقارب، ربما يمكنك أن تحصلي على سيارة بطلبها في رصيف الميناء، لكن إن أتيت جواً، فلن تكون هناك سيارة في المعبر (الذي يبعد عدة أميال عن كريغهاوس) إلا إذا طلبتها مسبقاً.

لذلك إذا نويت القدوم لنقل في ١٥ الشهر، فيجب عليك أن تكتبي في الخامس منه، لأنه حسب يوم الأسبوع قد يكون أربعة أو خمسة أيام قبل أن يصل البريد، وثلاثة أو أربعة أيام قبل أن أستطيع أن أرسل رسالة. لا فائدة من كتابة برقية، لأن البرقيات يجلبها ساعي البريد.

أنت تريدين معطفاً مطرياً، وإن كان ممكناً البسي بوطاً أو حذاء قوياً - إن كان لديك. ربما نملك بعض الجزم. أنا لست متأكداً. نحن أغنياء بالمشمع الإضافي وأشياء مثله. سوف يساعدك لو جلبت حصص أسبوع من الطعام، لأنهم ليسوا سريعين هنا في جلب حصص أي

قادم جديد إلى هنا، وجلبت قليلاً من الدقيق والشاي أيضاً. أخشى أنني أثير ضجة مهولة، لكن في الحقيقة فإن الأمر سهل والبيت مريح تماماً. الغرفة التي ستكون لك صغيرة قليلاً، لكنها تطل على البحر. أريدك أن تكوني هنا. في ذلك الوقت آمل أن نعثر على محرك للقارب. وإذا حصلنا على طقس محترم، يمكننا القيام بجولة في الرؤوس البحرية غير المأهولة نهائياً على الطرف الغربي من الجزيرة؛ حيث توجد رمال بيضاء جميلة ومياه صافية مع فقمات تسبح فيها. في واحد منها يوجد كهف نستطيع أن نتخذه ملجأ حين تمطر، وواحد آخر يوجد فيه كوخ راعٍ مهمل، لكنه ملائم للعيش تماماً؛ حيث يمكن للمرء أن يقوم بنزهة ليوم أو اثنين. بأي حالٍ تعالي وتعالي متى ترغبين ومتى تحبين، ولكن دعيني أعرف بذلك مسبقاً. وفي الوقت الراهن اعتني بنفسك وكوني سعيدة.

تذكرت للتو أنني لم أدفع لك من أجل البراندي الذي جلبته لي، لهذا وضعت ثلاثة جنيهات داخل الرسالة. أعتقد أن المبلغ كان قريباً أليس كذلك؟ كان البراندي رائعاً جداً وعرفنا قدره في الرحلة، لأنهم لا يستطيعون الحصول على الكحول هنا بسهولة. الجزيرة التالية اسمها ازلي وتقطر الويسكي، لكنه يصدر كله إلى أمريكا. أعطيت سائق الشاحنة لكمة ضخمة أكبر من اثنتين، واختفت فوراً وبدا أنها ضربت أسفل بطنه.

مع حبي الكبير/جورج

رسالة إلى رئيس تحرير فورورد

سيدي

أثناء محاكمات موسكو السياسية عام ١٩٣٦ كانت هناك تلميحات وإشارات كثيرة إلى زمالة مزعومة بين ليون تروتسكي ومتهمين آخرين من جانب، وبين الحكومة النازية والجيستابو (البوليس السري النازي) من جانب آخر.

لمتابعة محاكمات موسكو، شُكلت لجنة استقصاء، بادرت بها اللجنة الأمريكية للدفاع عن ليون تروتسكي، وحصلت على تفويض من منظمات مماثلة في بلدان أخرى. بعد الاجتماع في أمريكا عملت اللجنة تحت رئاسة الدكتور جون ديوي الخبير في الشؤون العامة والعالم التربوي البارز، تساعده المؤلفة والصحفية سوزان لا فوليت كسكرتيرة، ويساعده كمستشار جون بي فينيتري المشهور كمستشار سابق لساكو وفانزيتي وتوم موني. بقية اللجنة كانت مؤلفة من شخصيات شعبية مشهورة -علماء اجتماع وعلماء تربية ورؤساء تحرير وصحفيين ومؤلفين. في التقرير الضخم الذي أصدرته اللجنة لاحقاً، وصف المفوضون أنفسهم بأنهم "يحملون آراء سياسية واجتماعية متباعدة جداً، ولم يكن أي منهم نصيراً سياسياً لليون تروتسكي...". اللجنة تبرئ تروتسكي تماماً من التهم الموجهة ضده.

في عامي ١٩٣٦ و٣٧ حين وقعت المحاكمات في موسكو وفي عام ١٩٣٧ حين انعقدت لجنة التحقيق، لم يكن طبعاً ممكناً لكلا الجانبين أن يتفحصا ادعاءات التواطؤ بين تروتسكي والنازيين بالرجوع إلى مصادر نازية. أما الآن فالوضع مختلف. كل سجلات الجستابو في أيدي قوى التحالف وهيس -النازي الوحيد المسمى في اتهامات موسكو- متوفرة في نورنبرغ للاستجواب العام. لهذا فإن الفرصة المتاحة لتحقيق يهدف إلى ترسيخ حقيقة تاريخية، استناداً على الاستقامة السياسية والأرقام والشخصيات وميول الموقف الدولي نفيسة.

لذلك نحن نقترح الآتي:

١-أن يستجوب هيس في نورنبرغ بخصوص لقائه المزعوم مع تروتسكي.

٢-أن يستدعى ممثل معتمد عن أرملة ليون تروتسكي ناتاليا سيدوف تروتسكي لحضور هذه الجلسة من محاكمة نورنبرغ مع سلطة لاستجواب المتهم والشهود.

٣-أن تعطى تعليمات لخبراء التحالف الذين يفحصون سجلات الجستابو، إن كانت هناك أي وثائق تثبت أو تنفي أي صلة بين الحزب النازي أو الدولة، وبين تروتسكي أو قادة البلاشفة القدماء الآخرين في محاكمات موسكو. وإن كان كذلك، فيجب أن تكون متاحة للنشر.

المخلصون لكم إلخ

جورج بادمور. بول بوتس. اف ايه ريدلي. هنري سارا. سي ايه سميث. جوليان سيمونز. إتش جي ويلز- جون بيارد. ايه ايه بالاراد. فرانك هورابين. آرثر كيسلر. جورج أورويل. ٢٥ فبراير/ شباط ١٩٤٦. فورورد، ١٦ مارس/ آذار ١٩٤٦.

رسالة إلى جوليان سيمونز

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/ ٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٧.

عزيزي جوليان (جوليان سيمونز شاعر وروائي وكاتب سيرة وكاتب جرائم، ترأس تحرير تونتيث سنتشري فيرس ١٩٣٧-٩. قابل أورويل أثناء الحرب، وبقيا صديقين حتى موت أورويل).

سوف أكون في لندن في شهر نوفمبر/ تشرين ثاني، وسأصل في الخامس منه، وأعتقد وأرجو أن نستطيع أن نلتقي. سوف أتلفن وأكتب إليك مع اقتراب الوقت. أنت كتبت مراجعة نقدية لطيفة جداً لذلك الكتاب السخيف الشعب الإنكليزي في مانشستر إيفنينغ نيوز. العذر الوحيد الحقيقي له، هو أنني كتبته تحت التنمر البدني والترهيب من قبل تيرنر. لقد كتب في بداية عام ١٩٤٤ لكنه لم يظهر من النص بعد أن توغل فيه السنة الماضية مصحح البروفات المطبعية بسرعة وأقحم ملاحظة هنا وأخرى هناك، ليظهر أن الانتخاب الطبيعي قد حدث في الوقت المحدد.

..... نحن كنا قادرين أيضاً على أن نقوم بترتيب بخصوص المزرعة المهملة التي يقع عليها هذا البيت لكي تحرث أخيراً. لهذا فإن ضميري لن يوجعني حول منع شخص آخر من الأرض القابلة للحراثة. ريتشارد يكبر بشكل ضخم ويتحدث كثيراً. إنه يستمتع بصيف حافل يشمل الحصبة، وانقطعت قطعة هائلة من جبينه على إبريق مكسور، وأيضاً تحطم على جزيرة قاحلة وأوشك على الغرق. الطقس بالمجمل كان إعجازياً. مرت علينا ستة أسابيع من دون مطر. في الواقع لا يوجد لدينا ماء في الحنفيات منذ أسبوع أو اثنين. لاحقاً هطلت كمية جيدة من المطر، لكنهم دخلوا في الحصاد بمعاناة أقل من العام الماضي.

بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك.

جو. أورويل

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ إيست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ٢ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً لإرسالك لي القلم الذي استعمله كما ترى. طبعاً سيكون جيداً كما يبدو وأفضل لون الحبر. قلمي الآخر كان على ساقه الأخيرة، ولا تستطيع استخدام حبر في السرير. أعتقد أنني تحسنت قليلاً. لا أشعر أنني هزيل وشبحي تماماً وأتناول طعاماً أكثر من قبل. هم يحشونني بالطعام كل الوقت هنا. أنا لا أعرف إن كان وزني سيزداد، لأنني ألزم السرير بشكل صارم في هذه المرحلة من العلاج..... من السخرية أن تعتقد دائماً أن اسكتلندا يجب أن تكون باردة. القسم الغربي ليس أبرد من إنكلترا، والجزر ليست حارة جداً. حينما أصبحُ بصحة جيدة تكفي لأغادر المستشفى، سوف أستمر في عملية ضخ الهواء، لهذا سوف أبقى إما في غلاسغو أو لندن لعدة أشهر، وأنتقل إلى جورا حين أستطيع. لقد رتبت الأشياء بشكل جيد هناك. أنا وأختي نملك البيت. ومعنا فتى فقد قدمه في الحرب يشاركنا حياة المزارعين ويفلح المزرعة. ولي صديق آخر يتصرف كشريك نائم يمول المزرعة ويأتي للمساعدة في الأوقات التي فيها عمل كثير. ليس في داخلي ضمير سيء حول العيش في بيت مزرعة والاحتفاظ بشخص يعتنى بحيواناتنا في غيابنا كلما أردت ذلك حينما أغادر المزرعة. أنا سوف أباشر بالأبقار واحدة أو اثنتين، لأنني في رعب من أن يصاب ريتشارد بهذا المرض.

حول مراجعة الكتاب. ليس لدي أفكار في العودة إلى مانشستر إيفنينغ نيوز. أنا أرتب لكتابة مقالة نقدية مرة كل نصف شهر للأوبزيرفر. وأظن أنني سأحاول، وأثبت مرة واحدة في نصف الشهر لأحد آخر. كما سأكتب مقالة واحدة في الأسبوع الآن. أعتقد أن ذلك يبين أنني الآن في وضع صحي أفضل، لم أستطع أن أتوقعه قبل بضعة أسابيع. لا أستطيع القيام بأي عمل جدي – لا أستطيع أن أعمل وأنا في السرير أبداً، حتى لو شعرت أنني بصحة جيدة. لا أستطيع أن أريك الرواية التي اكتملت جزئياً. أنا لم أرها لأي أحد، لأنها مجرد فوضى ولا تمت إلى المسودة النهائية

بأي صلة. أنا دائماً أقول إن الكتاب لا يعتبر موجوداً إلى أن يكتمل. أنا مسرور لأنك أكملت حياة أخيك. (ايه جي ايه سيمونز شخصية مشهورة في المشهد الأدبي في لندن. باحث ومجمع كتب ومؤلف البحث عن كورفو) إنه جهد ضخم أن تكمل كتاباً في هذا الوقت.

أنا أتفق معك حول التريبيون، لكن أظن أن فايفل وليس كيمشي هو المسؤول عن التأكيد الزائد على الصهيونية (جون كيمشي صحفي ومؤلف ورئيس تحرير التريبيون ورئيس تحرير الأوبزيرفر اليهودية لاحقاً). كانت ستقوم بدور أفضل عندما يصفها حزب العمال بشكل صريح بأنها عميلة للحكومة (أ) لأنها متفقة مع الحكومة في كل المسائل الرئيسية (ب) لأن حزب العمال ليس لديه صحيفة أسبوعية مخلصة له بشكل واضح، وتكون دفاعية عنه في الحقيقة بأقصى ما تستطيعه الصحافة. أعتقد أن العبقري الشرير في الصحيفة كان غروسمان الذي أثر عليها عبر فوت أند فايفل (ره س غروسمان أكاديمي وصحفي ورئيس تحرير وسياسي يساري) (مايكل فوت عضو في البرلمان). ظن غروسمان وبقية العصابة أنهم رأوا منفذاً لأنفسهم في الصراخ حول السياسة الخارجية التي كانت ملزمة بأن تسوء في تلك الظروف. وهكذا كانت التريبيون في موقع السقوط إلى جانب الحكومة، كلما كانت هناك قضية رئيسية كالتجنيد الإلزامي مثلاً. وفي نفس الوقت كانت تحاول أن تنظر بخوف إلى اليسار برفع صرخة حول اليونان مثلاً. أنا فعلاً أفضل قدر زيلاكوس بما أنهم كلهم يملكون سياسة أي تهدئة روسيا. بدأت بكتابة رسالة مفتوحة إلى التريبيون عن هذا، لكني مرضت قبل أن أنهيها. (دفاعاً عن الرفيق زيلاكوس) أنا أكره بشكل خاص تلك الخدعة في تملق زمر اليسار من خلال مهاجمة أمريكا دائماً، بينما نعتمد على أمريكا لإطعام وحماية أنفسنا، حتى أنني حصلت على رسائل من طلاب جامعة أمريكية يسألونني لماذا تختار التريبيون دائماً مهاجمة الولايات المتحدة وبتلك الطريقة الجاهلة.

حسناً هذه رسالة طويلة. شكراً كثيراً مرة أخرى لإرسالك القلم إلي. سأرسل قلم بيرو القديم في وقت ما حين أحصل على قليل من الورق. وربما تكون لطيفاً وتملأه بالحبر من جديد. أحر تحياتي لزوجتك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ٢١ مارس/ آذار ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

أخيراً وجدت صندوقاً أضع فيه هذا القلم. لهذا أنا مدين لك بالشكر إن استطعت أن تبعث لي عبوة جديدة. ليست هناك عجلة. أرفقه بحوالة بريدية من أجل ٣/٦ عبوات. نسيت كم تكلف العبوة. أعتقد أنك تحب أن تسمع أن صحتي تحسنت كثيراً. كنت أتعالج بالستروبتومايسين لمدة شهر تقريباً، ومن الواضح أنه قام بعمله جيداً. لم أكسب وزناً كثيراً، لكني أفضل بكثير في كل الطرق الأخرى وأتوق إلى النهوض من السرير الذي طبعاً لن يدعوني أفعله لقرون قادمة بعد. مازلت أستطيع فعلاً القيام بأعمال خفيفة فقط مثل كتابة مراجعات نقدية للكتب. كتبت مقالتين طويلتين، لكني وجدت أصابعي كلها إبهامات حالما حاولت بأي شيء جدي. على كل إن الطبيب راض جداً بطريقتي التي أتقدم فيها، ويقول يجب أن أنهض من الفراش في فصل الصيف تقريباً. ربما أستمر بمعالجة دورية لعدة أشهر بعد ذلك، لكن في تلك الحالة سأستأجر غرفة في غلاسغو وأهرع إلى جورا أو إلى لندن ين فترات العلاج. الظاهر، حتى بعد أن قتلوا كل الميكروبات، أنهم أبقوا الرئة منخمصة إلى أن يعتبروها شفيت.

ريتشارد بخير، وبقدر استطاعتي على الحكم على الأشياء من الصور، فهو ينمو بسرعة. لن أستطيع رؤيته إلى أن أصبح غير معدٍ وهذا مزعج قليلاً. لقد زارني أناس متنوعون منهم فريد وربيرغ الذي جلب لي نسخة غير منجزة من طبعتي النظامية التي بدأنا بها هذه السنة. لقد فزعت قليلاً لأجد أنه اختار غلافاً لونه أخضر فاتح، لكن ربما يقدر أن يحصل على لون أغمق. أعتقد أن الطبعة النظامية يجب أن تكون دائماً بسيطة المظهر، ويفضل اللون الأزرق الغامق. قرأت مقالتك عن جورج إليوت في الويند ميل (مجلة أدبية) باهتمام، لكن يجب أن أقول إنني لم أستطع أن أقرأ جورج إليوت نفسه. لا شك أنني سأعود إليها يوماً ما. مؤخراً قرأت رواية أو

اثنتين من روايات شارلوت برونتي الثانوية التي لم أقرأها من قبل -ودهشت كم كانت جنسية ومثيرة. وقرأت ثيرزي لمورياك وهي ليست بجودة امرأة من المرائين، لكنها جعلتني أفكر في الروائيين الكاثوليك. وبعد قراءة مقالة هابينستال في البارتيسان ريفيو، فأنا أحاول أن أحصل على ليون بلوي التي لم أقرأها أبداً. أرسلت البوليتكس أند لترز نسخة من مجلتهم وكتباً لسلسلة "الناقد واللوثيان" رغم أنني فعلاً لا أستطيع أن أكتب مقالات طويلة الآن. كنت متأثراً جداً بالمجلة التي لم أرها من قبل، وربما سوف تتطور إلى نوع الشيء الذي نحن في أمس الحاجة إليه. من الواضح أن البوليتكس تتأرجح مسبقاً -أصبحت مجلة ربعية، وهذا فأل سيء جداً عادة. أرسل إلي دوايت مكدونالد نسخة من كتاب صغير عن ولاس نشر لتوه -كتاب جيد جداً، وأنا أحث غولانكس لأن ينشره هنا. أخشى أن دبليو قد يجعل "رجلنا" يخسر الانتخابات، ومن ثم لا يعرف إلا الرب ماذا سيحدث. لكن مهما كانت الطريقة التي ينظر المرء فيها إلى الأخبار، فإنه يجدها محزنة جداً للحديث عنها.

اكتب لي أن توفر لك الوقت وأرجوك بلغ تحياتي لزوجتك. أتمنى أن أكون في المتناول في الصيف وأكون قادراً على أن أرى كل واحد مرة ثانية.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد
/لانارکشاير/ ٢٠ أبريل/ نيسان ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً لإرسالك القلم والشوكولا المرتقبة التي ذكرتها. أنا مسرور جداً لسماعي أنك ستزرق بطفل. الأطفال متعة هائلة رغم الإزعاج، وحين ينمون يعيش المرء طفولته ثانية معهم. أعتقد أن هناك شيئاً واحداً على المرء الاحتراس منه، وهو فرض طفولتك الخاصة بك على الطفل، لكن أعتقد أنه من السهل نسبياً إعطاء الطفل وقتاً لائقاً في الوقت الحاضر، والسماح له بالفرار من العذابات غير الضرورية التي عانيتها أنا مثلاً. لست متأكداً إن كان على المرء أن يضايق نفسه كثير جداً في إنجاب طفل إلى عالم القنابل الذرية آم لا، لأن الذين يولدون الآن لن يعرفوا أبداً أي شيء سوى الحروب وحصص الطعام إلخ، وربما يستطيعون أن يكونوا سعداء في هذه الخلفية إن حصلوا على بداية سيكولوجية جيدة. أنا أفضل بكثير، لكنني مررت بنصف شهر سيئ مع آثار ثانوية للستريبتومايسين. أعتقد أن كل هذه الأدوية مثل حالة إغراق السفينة للتخلص من الجرذان. على كل حال أوقفوا الستريبتومايسين الآن، ومن الواضح أنه أدى دوره. أنا لازلت ضعيفاً بشكل مخيف ونحيلاً، لكنهم يبدون راضين عن حالتي. وأظن أنني ربما أخرج من المستشفى في وقت ما خلال الصيف. إن فعلت، فأتخيل أن أبقى في غلاسغو أو في مكان قريب في كل الأحوال، لكي أراجع المستشفى كل نصف شهر تقريباً، ويعاد فحصي "ويملؤوني ثانية" (بالهواء). لا شك أنني سأكون قادراً بين الحين والآخر على أن أنزل إلى لندن وإلى جورا أيضاً، لكنهم أخبروني أنني يجب أن أقلل من السفر بأقصى ما يمكن، وعلى أي حال أن أرتاح لمدة سنة تقريباً. من الأفضل أن أستمر في العلاج في هذه المستشفى، إنها مستشفى جيدة وهم يعرفون حالتي. أنا مشتاق للذهاب إلى جورا لبضعة أيام، لأرى ريتشارد وأرى كيف وضع المزرعة. لكن يجب أن أكون حذراً ألا أعمل كثيراً. أخشى حتى عندما أشفى تماماً أنني لن أكون جيداً كثيراً بدنياً لبقية حياتي -أنا لم أكن قوياً

ورياضياً قط، لكنني لا أحب حياة الجلوس بالمجمل، ويجب عليّ أن أغير عاداتي لكي أتحرك من دون بذل جهد عضلي كبير وأكف عن الحفر وتقطيع الحطب مثلاً.

من المضحك أنك ذكرت غيسينغ. أنا من أنصار أعماله الكبار (لكني لم أقرأ أبداً وُلد في المنفى التي يقول البعض إنها تحفته، لأنني لم أستطع الحصول على نسخة منها) وكنت على وشك أن أقوم بقراءة ثانية للطبعتين اللتين وعدت أن أكتب عنهما مراجعة نقدية لبوليتكس أند لاترز. أظن أنني سوف أكتب مقالة طويلة لها أو لجريدة أخرى. أعتقد أن النساء الغريبات واحدة من أفضل الروايات باللغة الإنكليزية. سألتني عن طبعتي النظامية الموحدة. هم بدؤوا مع رواية تسمى الصعود إلى الهواء نشرت في عام ١٩٣٩ وقتلتها تقريباً الحرب، وسيطبعون أيام في بورما في وقت لاحق من السنة. صححت للتو البروفات الطباعية للرواية الأخيرة التي كتبتها قبل أكثر من خمس عشرة سنة، وربما لم أنظر إليها منذ عشر سنوات. كانت تجربة غريبة- تقريباً مثل قراءة كتاب بقلم شخص آخر. أنا أيضاً سوف أحاول أن أجعل هاركورت بريس يعيد طبع هذين الكتابين في الولايات المتحدة، ولكن حتى لو فعلوا فإنهم على الأرجح سيأخذون (ألواح) فقط التي لن تنفع كثيراً. المضحك أن يوشك الناشرون الأمريكيون على إعادة طبعه. هاركورت بريس يضايقني منذ سنتين من أجل مخطوط من أي نوع، والآن يناقشون معي فكرة عمل سلسلة من إعادة الطباعة، لكن حين حثثته أن يعيد طبع أيام في بورما فوراً بعد أن ركز جهوده على مزرعة الحيوان لم يفعل. ولم يفعل الناشرون الأصليون، رغم أنهم كانوا يحاولون أن يحصلوا على شيء ما مني. من الواضح أن إعادة الطبعات في الولايات المتحدة تتم أغلبها بواسطة شركات خاصة تتعهدها وتقوم بها إن كانت آمنة وتحقق بيعاً ضخماً. نعم أظن أن عدد البوليتكس الأخير جيد تماماً، لكن يجب أن أقول إنه بالرغم من كل قصائدها الرثائية، فأنا أحتفظ بشكوك قائمة حول غاندي مؤسسة على إشاعات فقط، لكن هذا الكم الكبير من الإشاعات يجب أن يكون شيء فيها باعتقادي.

أرجو أن تبلغ تحياتي إلى زوجتك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ١٠ مايو/ أيار ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

شكري الجزيل والدائم أبداً لك ولزوجتك، من أجل الشوكولا والشاي والرز الذي وصل إلى هنا الأسبوع الماضي. كانت أنوي أن أكتب إليك. أنت ترى أنني جهزت آلة الطباعة أخيراً. إن استخدامها في السرير مربك قليلاً لكنه يوفر الأخطاء الطباعية الشنيعة في المراجعات النقدية التي تسببها الكتابة بخط اليد. كما تقول فإن قلم الحبر الناشف هو المرحلة الأخيرة في فساد الخط. لكني تبرأت من خطي منذ سنين. في الماضي اعتدت أن أمضي ساعات مع أقلام المخطوطات والورق المربع محاولاً أن أعلم نفسي من جديد أن أكتب. لكن كان الأمر عبثاً. بعد أن تعلمت على الكليشة النحاسية شجعتني أن أكتب بيد "أكاديمية". كتابة الأطفال في الوقت الحاضر أسوأ مما كانت كتابتنا، لأنهم يعلمونهم الكتابة غير المتصلة البطيئة. من الواضح أن أول شيء يجب الحصول عليه هو الكتابة بأحرف متصلة جيدة، لكن الأهم يجب أن تتعلم التحكم باليد. وفي الواقع إن تعلم الكتابة يتضمن تعلم الرسم. من الواضح أنه يمكن أن تتم كما في بلدان مثل الصين واليابان، حيث كل من يستطيع الكتابة يكتب بشكل جميل تقريباً.

أنا سعيد أن (إي) و(إس) راضيان بالسيرة الذاتية، لكن دعهم يفران مع "البحث عن ايه جي ايه سيمونز" كعنوان. صحيح إذا كان الكتاب سيباع، فلن يقتله عنوان، لكن أنا واثق بأنه عنوان سيئ. طبعاً لا أستطيع أن أقدم اقتراحات بدون رؤية الكتاب، بيد أنهم إن أصروا على اسم شيء مثل "ايه جي ايه سيمونز: مذكرات" فهو اسم غير كريه دائماً.

الصعود إلى الهواء ليست كبيرة جداً، لكني أظنها تستحق أن تطبع ثانية، لأنها قتلت باندلاع الحرب، ثم قصفت إلى خارج الوجود بشكل كامل. لذلك لكي نحصل على نسخة منها لإعادة تنضيدها، علينا أن نسرق واحدة من مكتبة عامة. طبعاً أنت محق تماماً حول

شخصيتي، فهي تتطفل على القاص دائماً. أنا لست روائياً حقيقياً بأي حال، وتلك النقيصة بشكل خاص متأصلة في كتابة رواية في الشخص الأول (أنا) وهو ما يجب ألا يفعله المرء أبداً. إحدى الصعوبات التي لم أحلها أبداً، هي أن المرء لديه أعداد هائلة من التجارب يريد بحماس الكتابة عنها، كالقسم الذي عن صيد السمك في ذلك الكتاب مثلاً، ولا توجد طريقة للاستفادة منها، إلا بإخفائها تحت قناع رواية. طبعاً الكتاب كان ملزماً بأن يوحي بويلز مخفف. أنا أكن إعجاباً عظيماً لويلز ككاتب، وكان له تأثير مبكر جداً علي. أظن أنني كنت في العاشرة أو الحادية عشرة حين حصلنا أنا وسيريل كونولي على نسخة من كتاب ويلز بلاد العميان (قصص قصيرة)، وقد افتتنا به وبقينا نسرقه من بعضنا. مازلت أتذكر في الساعة الرابعة تماماً في صباح منتصف الصيف والمدرسة نائمة بعمق والشمس مائلة من خلال النافذة، وأنا أزحف عبر ممر إلى مهجع كونولي؛ حيث أعرف أن الكتاب سيكون بجانب سريره. نحن تورطنا أيضاً في مشكلة قاسية لامتلاكنا نسخة من كومبتون ماكينزي شارع منحوس. الآن أخبروني أنني يجب أن أبقى هنا حتى آب تقريباً. إن الميكروبات صفيت بوضوح، لكن الشفاء الفعلي للرئة وتعزيز القوة يستغرق وقتاً طويلاً.

لا أزال ألهث بشكل رهيب، وأعتقد أنني سأستمر هكذا طالما يقولون الرئة منخمصة لسنة أو أكثر. على كل حال إنها تستحق تصليحاً جيداً. هم الآن يدعونني أخرج إلى الهواء الطلق فترة قصيرة كل يوم، وأنا أشعر بتحسن أكبر، لذلك أشعر أنني سأكون قادراً على أن أقوم بعمل جدي قليل مرة أخرى. ما يقلقني بشكل رئيسي، هو ريتشارد الذي لم أره منذ أربعة أو خمسة أشهر. لكن ربما أكون قادراً على ترتيب زيارة قصيرة له في غلاسغو، ومن بعدها يستطيع أن يأتي ويزورني. أنا لا أعرف من وضع ذلك المعدل في الستاندارد. شخص عرفني، لكن هناك الأخطاء المعتادة. أنا لا أظن أنهم ينبغي أن يعطوا اسمي الحقيقي.

أرجوك بلغ تحياتي لزوجتك.

المخلص لك/ جورج.



رسالة إلى جوليان سيمونز

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ١٠يوليو/ تموز ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

يجب أن أشكرك على لطفك الزائد للمراجعة النقدية في أم ي نيوز (كتب جوليان سيمونز مراجعة نقدية لرواية **الصعود إلى الهواء** في طبعتها الثانية في مانسشتر إيفنينغ نيوز في ١٩ مايو/ أيار ١٩٤٨) التي حصلت منها على قصاصة. أتمنى أن تكون زوجتك في أحسن حال وأن كل شيء سار على ما يرام. ظننت أنك قد تحب أن تسمع أنني سأغادر هذا المكان في الخامس والعشرين من الشهر. يبدو أنهم يعتقدون أنني بصحة جيدة الآن، ولكن يجب أن آخذ الأشياء بهدوء جداً لوقت طويل ربما سنة أو هكذا. يجب أن أنهض من الفراش لمدة ست ساعات فقط في اليوم، لكني لا أعرف إن كان ذلك سيشكل فرقاً كبيراً بما أنني يجب أن أتعود على العمل في السرير. أختي أحضرت ريتشارد إلى هنا ليزورني هذا الأسبوع، وهذه أول مرة أراه منذ عيد الميلاد. هو في وضع صحي ممتاز ولديه طاقة مخيفة. لازال حديثه يبدو مرتبكاً، لكنه بطرق أخرى كان متقدماً. تبدو حياة المزرعة تناسبه، لكني واثق بأنه واحد وهوايته في الميكانيك أكثر منها في الحيوانات. أنهض من الفراش لمدة ثلاث ساعات يومياً في الوقت الحاضر، وأذهب في مشاوير مشي قصيرة، وألعب الكروكيت لكني بدأت أضجر هنا، وأتطلع بتشوق للذهاب إلى البيت. أنا لا أعتقد أنني سأكون في لندن حتى الشتاء، وفي هذا الوقت أتمنى أن أكمل هذه الرواية البغيضة التي يفترض أن تكتمل في هذا الربيع. أيضاً أخشى أنني إذا ذهبت إلى لندن، فلن أمكث في السرير. لا يوجد أحد أتحدث معه هنا. في الجناح في الأسفل هنا محرر هوتسبير مريض لكنه بليد. أخبرني أن حجم توزيعهم ثلاثمائة ألف نسخة. كتبت مؤخراً مقالاً طويلاً عن غيسينغ لدورية بوليتيكس أند لترز، لكني اضطررت إلى فعلها من دون كتب، لأنه من الصعب الحصول على كتب غيسينغ الآن. بقدر ما اكتشفته، ليس هناك سيرة ذاتية لغيسينغ باستثناء تلك السيرة السخيفة في شكل رواية بقلم مورلي روبيرتس. إنها

مهمة تصيح بصوت عالٍ ليفعلها أحد. قبل سنة أو سنتين سألني الناشر (هوم وفان ثال) إن كنت سأكتب واحدة، لكن طبعاً لا أستطيع أن أقوم بكل البحث الذي سيكون مطلوباً. مؤخراً قرأت رواية غراهام غرين الجديدة وأظنها مروعة. وأنا أيضاً لم أكن مبتهجاً مثل أغلب الناس برواية إيفلين واو الشخص المحبوب، رغم أنها كانت مسلية. بخلاف الكثيرين من الناس، أظن زيارة ثانية لبرايدزهيد كانت جيدة جداً بالرغم من أخطاء شنيعة على السطح. كنت أحاول أن أقرأ مقتطفات من كتاب ليون بلوي (روائي فرنسي) الذي لم أنجح أبداً في الحصول على رواياته. لقد أثار سخطي وكذلك فعل بيغاي (شاعر وفيلسوف فرنسي) قليلاً، وهو الذي حاولت أن أقرأه مؤخراً أيضاً، وجعلني أشعر بالتوعك. أعتقد أنه حان الوقت لكي أقوم بهجوم مضاد على هؤلاء الكتاب الكاثوليك. قرأت أيضاً ستودس لونيغان لفاريل للمرة الأولى، وشعرت بخيبة أمل كبيرة جداً. أنا لا أعرف إن كنت قرأت أكثر من ذلك. كان الطقس هنا قذراً كل شهر يونيو/ حزيران، لكنه الآن تبدل أخيراً، وهم الآن يحصدون القش بسرعة كبيرة. أنا مشتاق للذهاب إلى صيد السمك، أكني أعتقد أنني لن أكون قادراً على ذلك هذه السنة، ليس لأن السمك بحد ذاته يسبب الكثير من الإجهاد، وإنما لأنه يجب عليك أن تمشي من خمسة إلى عشرة أميال دائماً لتنتهي وقد بللك العرق كلك. بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك. بعد الخامس والعشرين سيكون عنواني كالسابق أي بارنهيل، جزيرة جورا، ارغيلشاير.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٢٩ أكتوبر/ تشرين أول ١٩٤٨.

عزيزي جوليان

لا أستطيع أن أشكرك بما يكفي من أجل الشاي الذي أتمنى أنك استطعت الاستغناء عنه. أختي التي تعتني بأمور البيت من أجلي افتتنت برؤيته، وطلبت مني أن أقول إنها سوف تحزم لك قليلاً من الزبدة في يوم الخض التالي. أنا سعيد جداً لأسمع أن كل الأمور جيدة مع زوجتك وابنتك وأنك تستمتع بولادة طفلة. هما متعة عظيمة فعلاً لذلك أجد نفسي أتمنى في كل مرحلة أن يبقيا كذلك. أفترض أنك تبذل قصارى جهدك للحفاظ على التوازن في حياتك مع خمس قوارير حليب وخمسة عشر حفاظاً في اليوم الواحد. شيء مضحك أن يكونوا جشعين جداً ونهمين حين يكونون أطفالاً صغاراً، ثم بين الثانية والسادسة من العمر يكون هناك قتال مر كي تجعلهم يأكلون في أوقات ما بين الوجبات. أتساءل أي نوع من الحليب تستعمل. نحن جلبنا لريتشارد اوسترميلك الذي يبدو أفضل من ناشينال درايد... يجب أن تخوض معركة كبيرة سلفاً حين يصل الأمر إلى وقت الفطام. لقد تحسنت صحتي لبعض الوقت بعد خروجي من المستشفى، لكنني توعكت كثيراً في الشهر الماضي. السخرية أنها بدأت مع عودتي إلى المستشفى ليعاد فحصي، وكنت متضايقاً من الرحلة. لقد مررنا بصيف قذر لم يساعدني على الشفاء. أخيراً الطقس كان جميلاً لكنني كنت مريضاً جداً وآسفاً لأنني لم أخرج من البيت. أستطيع أن أعمل، لكن هذا كل ما أستطيع فعله تقريباً. حتى المشي لمدة نصف ساعة يضايقني. كنت سأنزل إلى لندن في يناير/ كانون ثاني، لكنني استشرت طبيبي إن كان يعتقد أن الأفضل لي أن أذهب إلى مصحة خاصة فيها لو استطعت أن أجد واحدة، من أجل أسوأ أشهر الشتاء أي يناير وفبراير. ربما أستطيع الذهاب إلى خارج البلاد، لكن الرحلة ستكون مثل الموت بالنسبة إلي، لهذا ربما تكون المصحة هي الأفضل. أعتقد أنني سوف أتخلى عن شقتي في لندن بما أنني لن أستخدمها في الوقت الحاضر، وتكلفني مائة جنيه سنوياً وكثيراً من الإزعاج. طبعاً علي أن أجد مكاناً آخر في لندن. سوف أكمل كتابي، في أسبوع أو عشرة أيام، لكني أجفل نوعاً ما من طباعته بالآلة الكاتبة،

فهي عملية متعبة في أي حال لا يمكن تنفيذها في السرير؛ حيث يجب أن أكون نصف اليوم. لهذا أنا أحاول أن أجلب كاتب اختزال إلى هنا لمدة نصف شهر. لا أستطيع أن أرسل ال أم اس بعيداً، لأنها في فوضى كبيرة، ولن تكون واضحة إلا إن كنت هناك لأشرحها. المشكلة ليس من السهل الحصول على ضارب آلة كاتبة لفترات قصيرة في الوقت الحالي على الأقل ضارب جيد، والبعض قد يخشى من الرحلة. إنها رحلة ساعتين فقط، لكن يمكن أن يمرض المرء في ساعتين كما أعرف جيداً. أنا مندهش لسماعي عن انضمام جون دافنبورت (ناقد وأديب) إلى صحيفة الحزب الشيوعي أو القريبة منه (اوار تايم). هو لم يكن يميل إلى ذلك الطريق وهذا ما عرفته عنه. أنا آسف لأقول إن بوليتكس أند لترز قد اختفت، ويفترض أن تعود إلى الظهور كصحيفة شهرية. ومما يزيد في إزعاجي أن لي عندها مقال. هراء ما قاله فيفل عن إليوت بأنه معادٍ للسامية. طبعاً يمكن أن تجد ما يسمى الآن بعداء السامية في أعماله السابقة، لكن من الذي لم يقل مثل هذه الأشياء في ذلك الوقت؟ يجب على المرء أن يميز بين ما قيل قبل عام ١٩٣٤ وما قيل بعده. طبعاً كل ذلك التحامل القومي سخيف، لكن كره اليهود ليس أسوأ فعلياً من كره الزنوج أو الأمريكيين أو أي كتلة أخرى من الناس. في أوائل العشرينيات كانت ملاحظات إليوت المعادية للسامية متساوية مع السخرية الآلية التي يطلقها المرء على الكولونيلات الأنغلوهنود في الفنادق الصغيرة. من جانب آخر، إن كتبت بعد بدء أعمال الاضطهاد، فإنها تعني شيئاً مختلفاً تماماً. انظر مثلاً إلى بغض الإنكليز الشديد في الولايات المتحدة الذي يشارك فيه أناس مثل إدموند ويلسون حتى. هو غير مهم لأننا لا نتعرض للاضطهاد. لكن لو قتل ستة ملايين إنكليزي مؤخراً في عربات الغاز، فأتصور أننا سنشعر بعدم الأمان حتى لو رأيت دعابة في مجلة هزلية فرنسية عن أسنان نساء إنكليزيات بارزة للخارج. بعض الناس يذهبون من مكان إلى آخر بحثاً عن أخبار عداء السامية طوال الوقت. ليس لدي شك بأن فيفل يعتقد أنني معادٍ للسامية. لقد كُتب هراء حول الموضوع أكثر من أي شيء آخر أستطيع تذكره. لقد حصلت للتو على كتاب سارتر حول الموضوع لمراجعته، وأشك إن كان ممكناً حزم هراء أكثر في متسع صغير جداً. قلت دائماً ومنذ البداية إن سارتر شخص ثرثار بشكل مزعج، لكن حين يأتي الأمر إلى الوجودية التي لا أعترف أنني أفهمها، قد يكون الأمر غير ذلك. ريتشارد يزدهر. مازال متخلفاً في التحدث كما أعتقد، لكنه نشيط جداً في طرق أخرى ومفيد فعلاً في المزرعة والحديقة. أحياناً يخبرني أنه لن يكون واحداً من متعلمي الكتب وأن ميله لعلم الميكانيك. أنا لن أحاول التأثير عليه، لكن إن كبر مع

طموح أن يكون مزارعاً، فيجب أن يرضيني. طبعاً ربما تكون تلك هي المهنة الوحيدة المتبقية بعد القنابل الذرية. إن بدأ العرض وكان سيئاً كما يخشى المرء، سيكون من السهل أن تكون معيلاً لنفسك على هذه الجزر بشرط ألا يسلبك أحد. الشتاءات جيدة وأكثر اعتدالاً مما هي في إنكلترا، مما يعني بوجود فرصة كي يستطيع المرء تربية الحيوانات خلال الشتاء بلا علف. وفي الواقع نادراً ما تعلف الخراف في الشتاء العادي. للمرة الأولى في حياتي جربت تربية خنزير. هي بهائم مقرفة فعلاً وكلنا نتوق إلى اليوم الذي يذهب فيها إلى الجزار، لكني مسرور برؤيتها تزدهر هنا. لقد كبر إلى حجم هائل على الحليب والبطاطا فقط من دون شراء أي طعام له من الخارج. بعد سنة أخرى سأفكر في تعليم ريتشارد، لكني لن أرسم أي خطط، لأن المرء لا يستطيع أن يرى المستقبل البعيد الآن. أنا لن أدعه يذهب إلى مدرسة داخلية قبل أن يبلغ العاشرة، وأحب أن يبدأ بالمدرسة الابتدائية إن استطعت أن أجد مدرسة جيدة. إنها قضية صعبة. من الواضح أنه من الديمقراطية لكل واحد أن يذهب إلى نفس المدارس أو على الأقل أن يبدأ من هناك، لكن حين ترى وضع المدارس الابتدائية والنتائج، تشعر أن أي طفل يمتلك الفرصة يجب أن يُنقذ منها. من السهل تماماً مثلاً أن تترك تلك المدارس في سن الرابعة عشرة من دون أن تتعلم القراءة. سمعت على الراديو مؤخراً أن عشرة بالمائة من المتطوعين في الجيش من عمر التاسعة عشرة يجب أن يتعلموا القراءة بعد أن ينضموا إلى الجيش. أتذكر أنني قابلت جون ستاركي عام ١٩٣٦ في الشارع -ثم عضو حزب شيوعي أو على الأقل على هيئة صحيفة الديلي ووركر- وأنه أخبرني أن لديه ابناً وضعه في إيتون، قلت له "كيف يمكنك فعل ذلك؟" قال إنها بعرف مجتمعنا أفضل تعليم موجود. حقيقة أنا أشك إن كانت الأفضل، لكن من حيث المبدأ أنا لست واثقاً أنه كان مخطئاً. على كل حال أنا لم أتخذ أي قرارات بخصوص ريتشارد بشكل أو بآخر. طبعاً ربما نقتل كلنا قبل أن يصبح الأمر ملحاً، لكن أنا شخصياً لا أتوقع حرباً بالرصاص لمدة خمس أو عشر سنوات. بعد أن استرد الروس وضعهم تماماً وباتوا يملكون القنابل الذرية، أظن أن تفاديها أصبح غير ممكن. وحتى لو تم تفاديها، فهناك الكثير من المزعجات التي تتفجر.

أرجو أن تبلغ زوجتك تحياتي، وأفضل تحياتي إلى ابنتك.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

مصحة كوستولد/ غرانهام/ غلوسستر
/٢ فبراير/ شباط ١٩٤٩/

عزيزي جوليان،

أتساءل كيف تطور علاقتك أنت والعائلة. أنا مقيم في هذا المكان منذ شهر. أعتقد أني أخبرتك في المرة الأخيرة أنني أشعر بوضع صحي رديء جداً مرة أخرى....

طفلكم يجب أن يكون في وزن جيد، ويجب أن تكون لديه أسنان قاطعة ويأكل الطعام الصلب. أتساءل إن دخلت في معركة حول الفطام مثل تلك التي خضناها مع ريتشارد. إنها مثل ما قاله مكيافيلي عن الحكومة: لا يمكنك أن تعملها إلا بالقوة أو بالخداع. ريتشارد أصبح في الخامسة الآن وهو ضخم وصحته جيدة، لكنه مازال غير مهتم بتعلم الحروف. هو يحب أن نقرأ له، لكنه لا يرى أي مبرر للتعلم بنفسه. أفترض منه في هذا الشتاء أن يبدأ بالذهاب إلى المدرسة التي سيستمتع بها بالتأكيد لأنه اجتماعي جداً.

كتابي الجديد يفترض أن يصدر في يوليو/ تموز (قال وربيرغ في مايو/ أيار أو يونيو/ حزيران مما يعني يوليو/ تموز في لغة الناشر) لكن ربما تصدر الطبعة الأمريكية أولاً. على أي حال سأراك وأجلب إليك نسخة. يجب أن أشكرك على بعض الإشارات الودية في أم أي نيوز التي تضمنت إشارة إلى ذلك الكتاب البغيض من الكراريس الذي اشتركت في نشره متردداً. سأقوم بمحاولة أخرى لأجعل وربيرغ يعيد طبع بعض من كتب غيسنغ التي سأكتب لها مقدمة بنفسي. هم أعادوا طبع (نسيت أي ناشر) ثلاثة منها السنة الماضية، لكن الكتب الخطأ منها طبعاً. في الوقت الحالي مازلت أحاول الحصول على نسخة من **شارع جراب الجديد** وأحاول الآن في نيويورك. الشيء المزعج لي أن صحيفة بوليتكس أند لترز طلبت مني أن أكتب مقالاً عن غيسينغ ومن ثم مات، ولم يرجع مقالي إلي أو أن تجيب عن سؤالي عنه، لكن يبدو بوضوح أنه من غير المحتمل أن تعاود المجلة إلى الظهور ثانية. يا له من بؤس أننا لا نستطيع أن نجد طريقة لتمويل مجلة محترمة في هذه البلاد. أعتقد أنها مسألة خسارة ألفين جنيه

في السنة. البارتيزان ريفيو إما أنها زادت مبيعاتها أو حصلت على بعض المال من مكان ما، كما ألاحظ أنهم يدفعون الآن بشكل كريم تماماً. من أجل كل تلك المقالات التي كتبتها خلال الحرب لهم، حصلت على عشرة دولارات فقط على كل مرة.

لا أعرف هذا الجزء من البلاد، لكن يفترض به أن يكون بقعة جميلة. البروفيسور تاوني يعيش قريباً مني، لكن لسوء الحظ يجب عليه أن يعود إلى لندن مع بداية الفصل الدراسي. الطقس لا يصدق أبداً، شمس ساطعة وطيور تصدح كما لو كنا في أبريل/ نيسان. بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك، وسامحني على خط يدي السيئ.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

مصحة كوستولد/ غرانهام/ غلوسستر
/٤ فبراير/ شباط ١٩٤٩

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً على رسالتك. هل أرسلت لي نسخة من روايتك المثيرة (**بداية عليلة**). أنا متأكد بأنني سأستمتع بها. أنا لا أعمل شيئاً الآن باستثناء القراءة بأي حال، وأنا هاوي قصص بوليسية، لكن كما تعرف لدي ذوق قديم الطراز فيها. بالمناسبة قرأت مؤخراً لأول مرة **ساعي البريد يدق جرس الباب مرتين دائماً**- يا له من كتاب بغيض. أحب لو استطعت أن تأتي وتزورني في أي وقت، لكن طبعاً لا تربك نفسك. أعتقد أن شخصاً آخر سيأتي في الثاني عشر أو السادس والعشرين من فبراير/ شباط، ولكن أي تاريخ آخر غير ذلك مناسب. قال تاوني باول إنه قد يتمكن من أن يأتي ليزورني -إن كان الأمر كذلك، فيمكن أن تأتي في اليوم نفسه. ستصل إلى هنا عند وصولك إلى ستراود على سكة الحديد الغربية الكبرى. كتابي الجديد يوتوبيا في شكل رواية. لقد عملتها بصورة رديئة، وهذا يعود إلى مرضي الشديد حين كتبتها، لكني أعتقد أن بعض الأفكار قد تهمك وتمتعك. لم نثبت العنوان بشكل محدد وواضح، لكن أعتقد أنها ستسمى "**ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون**". توني يقول إن مالكولم لديه رواية ستصدر في الوقت نفسه.

أرجو أن تبلغ تحياتي للعائلة

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى جوليان سيمونز

غرانهام/ ١٥ مارس/ آذار ١٩٤٩

عزيزي جوليان

هل أنت تعمل على حياة ديكنز تلك (كتاب ديكنز: شخصيته، السيرة والكوميديا تأليف هيسكث بيرسون الذي نشر في نيويورك). فكرت أنك يجب أن تلقي نظرة على هذا (أنا لا أريدك أن تعيدها). لم يطبع بعد في هذه البلاد حتى الآن حسب علمي، ولا أعتقد أن فيه شيئاً لم تستخلصه أنت من بوب-هينيسي، لكنه يثير نقطة ثانوية مهمة أو اثنتين، فهو يوضح مثلاً أن قبول ديكنز لمنصب البارون قبل موته مباشرة كان مجرد نوع من الدعابة العملية. هيسكث بيرسون في كتابها تبدو أنها توحي أن الأمر ليس هكذا. أنا لم أتابع هذا إلى الآخر، ويجب أن أقول إنني لا أعتبره أمراً مهماً بما أن عقل ديكنز في ذلك الوقت لان واستسلم بأي حال. ويقول أيضاً ما لم أعرفه من قبل إن ديكنز تأثر بإدغار آلان بو الذي يجب أن يكون آنذاك (١٨٤٢) مغموراً، وحاول من دون أن ينجح أن ينشر له حكايات في شكل كتاب. تساءلت كثيراً إن كان بو قد تأثر بحكاية الرجل المجنون في بيكويك.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى جوليان سيمونز

نزل غرانهام /غرانهام/ غلوسستر
/١٦ يونيو/ حزيران ١٩٤٩.

عزيزي جوليان

أظن أنك أنت من راجع ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون في ملحق التايمز الأدبي. يجب أن أشكرك على هذه المراجعة النقدية الرائعة والكريمة أيضاً. لا أعتقد أنه كان من الممكن أن تظهر معنى الكتاب بشكل أفضل في هكذا متسع قصير. أنت محق طبعاً حول فظاظة وسوقية "الغرفة ١٠١". كنت مدركاً لهذا، وأنا أكتبها، لكني لم أعرف طريقة أخرى للوصول إلى مكان قريب من النتيجة التي أردتها. لقد كنت مريضاً بشكل مرعب منذ أن رأيتك، لكني أصبحت أفضل بكثير في الأسابيع القليلة الأخيرة، وأتمنى الآن أن أكون قد تجاوزت مرحلة الخطر. الأطباء الذين فحصوني كلهم كانوا مشجعين جداً لكنهم قالوا إنني يجب أن أبقى هادئاً، وأن أتوقف عن العمل لوقت طويل قد يصل إلى سنة، أتمنى ألا يكون بهذا الطول طبعاً. إنه شيء مضجر لكنه يستحق إن كان يعني الشفاء. ريتشارد يقيم في مكان قريب في فترة الصيف ويأتي ويزورني كل أسبوع. بدأ الدوام في روضة أطفال. وفي هذا الشتاء سيذهب إلى مدرسة القرية في جورا. أنا لا أعرف إلى متى. كنت أفكر بويستمنستر بالنسبة إليه حين يكبر. لقد تخلوا عن قبعاتهم العالية كما علمت. إنها مدرسة نهارية وهذا ما أفضله، وأظن أنها تملك نقاطاً جيدة أخرى. بأي حال أنا سوف أقوم باستفساراتي وأسجل اسمه إن كانت مناسبة. طبعاً يعرف الرب ماذا سيحدث عندها، لنقل في عام ١٩٥٦ لكن يجب أن يخطط المرء كما لو أنه لن يتبدل أي شيء بشكل جذري. هل لديك أي أخبار عن الـ ايمبسون الذين كانوا في بكين؟ أنا لا أعرف إن كنت تعرفهم. كانت هناك إشاعات مختلفة، وأنا أحاول أن أحصل على بعض الأخبار من ناشري ايمبسون في أمريكا. هل قرأت كتاب روث فيشر ستالين **وألمانيا شيوعية**! هي ستزورني غداً كما أتوقع.

أتمنى كل الخير لك، والازدهار للطفلة. بلغ تحياتي لزوجتك.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى جوليان سيمونز

غرفة ٦٥/ جناح خاص/ مستشفى يوسي/شارع غاور.
دبليو سي ١ /١٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٩.

عزيزي جوليان

شكراً جزيلاً على رسالتك. منذ نصف شهر وأنا هنا. نويت أن أكتب إليك أو أهاتفك، منذ يوم أو اثنين فقط. لم أتوقع أن يأتيني زوار. كنت مريضاً بشكل مروع فعلاً لعدة أشهر، لكني الآن أفضل قليلاً. إنها عملية بطيئة، ويعلم الرب متى سأكون قادراً على النهوض من الفراش والعودة إلى العمل ثانية. كما رأيت من تلك الأسعار الفاحشة في الصحف، فأنا وسونيا نفكر في الزواج بينما لاأزال مريضاً، مما سيسهل الأمر لها لتأتي وتعتني بي أينما أذهب بعد خروجي من المستشفى بالإضافة إلى أشياء أخرى. تعال وزرني في وقت ما. يفترض بي أن أستقبل زائراً واحداً فقط لمدة عشرين دقيقة (طبعاً يمكن تمديدها قليلاً) لهذا فهي لا تستحق القيام ببعثة خاصة. ربما يمكنك أن تهاتفني ونرتب يوماً يناسبك. إن هتفت لي ستحولك المستشفى إلى غرفتي. إن أفضل وقت للقدوم في المساء، أي وقت بعد الخامسة. أود كثيراً أن أرى سيرة أخيك إن جلبتها معك.

أستطيع التعاطف مع محاولتك للكتابة في شقة مع طفل صغير. إن لم تجد مكاناً مناسباً في ايسكس، فيمكنك أن تحاول في هيرتفوردشاير. إنه ريف جذاب من حيث المكان وزراعي جداً. ينبغي أن أقول إن غولانكس يتحدث بغباء عن إصدار روايتك تحت اسم آخر. أفترض أن الصحيح لو كنت بيتر تشيني أو جيمس هادلي تشيز.

ريتشارد لم يكن يقيم قربي في فترة الصيف (في المستعمرة الفوضوية في وايتواي) والآن عاد إلى جورا. هو يداوم في مدرسة القرية، وأعتقد أنه سيستمتع بها. إنه ينمو بشكل ضخم وهو نشيط بشكل مفرط، لكنه مازال مرتبكاً قليلاً في التحدث. هو يحب الزراعة والقوارب، حتى إنه في السنة الماضية ساعدني بعمل المزرعة لدرجة أنه كان مفيدا تماماً. لن أؤثر عليه إن استطعت تفادي ذلك، لكن إن كبر ليصبح مزارعاً أو بحاراً أو مهندساً مدنياً أو شيء ما مفيد

من هذا القبيل، سأكون راضيا جداً. ما رأيك في تخفيض القيمة؟ أنا أتخيل أنه كان عليهم أن يفعلوها عاجلاً أو آجلاً، لكني لم أتوقع ذلك حتى بعد الانتخابات.

بلغ تحياتي لزوجتك من فضلك.

المخلص لك جورج.

رسالة إلى فيكتور غولانكس

٢٧ بي كانونبيري سكوير/ ازلينغتون، أن ١
/١٤ مارس/ آذار ١٩٤٧.

عزيزي غولانكس

أعتقد أن ليونارد مور تكلم إليكم مسبقاً عن العقد الذي مازال سارياً معكم وعن رغبتي للتحرر منه. أعتقد أن العقد الذي لازال مستمراً بيننا هو العقد من أجل **لتبقى الزنبقة ترفرف** في عام ١٩٣٧ الذي اشترط فيه أن أعطيكم حق المنفعة من رواياتي الثلاث التالية. قبلتم **الصعود إلى الهواء** لكنكم لم تقبلوا **مزرعة الحيوان** التي رأيتموها ورفضتموها عام ١٩٤٤. لهذا أنا مازلت مدين لك حسب شروط العقد بحق رفض أو قبول روايتين. أنا أريد أن أطلب منك أن تقدم لي منك خدمة كبيرة في طلبي منك إلغاء العقد، لكن ظروف متنوعة تبدلت في السنين العشر منذ أن وقعناه، وأعتقد أن إنهاءه سيكون لمصلحتك كما هو لمصلحتي بالتأكيد. ما جرى هو أنك نشرت لي ثلاثة من كتبي، لكنك رفضت أيضاً كتابين آخرين لأسباب سياسية، وكان هناك أيضاً كتاب آخر لم ترفضه، لكن يبدو من الطبيعي أنك ستأخذه إلى ناشر آخر، وكانت القضية الحاسمة **مزرعة الحيوان**. في الوقت الذي أنهي فيه هذا الكتاب، سيكون من الصعب جداً نشره. وأنا صممت إن تمكنت من ذلك، أن آخذ كل نتاجي المستقبلي إلى الناشر الذي ينشرها لي، لأنني عرفت أن الناشر الذي يخاطر بهذا الكتاب سيخاطر بأي شيء. إن سيك اند وربرغ ليس مستعداً لنشر **مزرعة الحيوان** فقط، بل راغب أيضاً حين يتوفر الورق في نشر طبعة موحدة لبعض من كتبي أعتبرها جديرة بطبعة ثانية، وضمنها بعضاً من الكتب التي خارج النشر تماماً في الوقت الحاضر.

كما أن سيك أند وربرغ متشوق أيضاً لإعادة نشر روايتي **الصعود إلى الهواء** في طبعة عادية هذه السنة، لكن ليس بشكل غير طبيعي، وإنما راغب فقط أن يعمل كل هذا إن استطاع أن يحصل على عقد شامل يعطيه التحكم بأي شيء أكتبه.

من وجهة نظري، من غير المرضي تماماً أن يتوجب علي أن آخذ كل رواياتي إلى ناشر واحد، وفي الوقت نفسه أكون ملزماً على الأقل في بعض الحالات بأن آخذ الكتب غير القصصية إلى مكان آخر. أنا أعترف طبعاً بأن الوضع السياسي الآن ليس ما كان عليه بالضبط حين رفضت أنت مزرعة الحيوان. وعلى أي حال أنا أحترم عدم استعدادك لنشر كتب تتعارض مع مبادئك السياسية بشكل مباشر. لكن يبدو لي أن هذه صعوبة يحتمل أن تظهر مرة أخرى في شكل أو آخر، وأنه من الأفضل لو كنت مستعداً وراغباً بوضع حد لهذا الأمر كله. إن رغبت في أن أراك بخصوص هذا، فأنا تحت تصرفك وسأكون في هذا العنوان حتى العاشر من أبريل/ نيسان.

المخلص لك/ جو. أورويل.

رسالة إلى فيكتور غولانكس

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون/
لندن أن ١/٢٥ مارس/ آذار ١٩٤٧.

عزيزي غولانكس

يجب أن أشكرك على رسالتك العطوفة والكريمة والتي فكرت فيها باهتمام. لكن رغم ذلك مازلت أعتقد إن كنت راغباً في الموافقة، فذلك سيكون أفضل لإنهاء عقدنا. ليس هناك أي شيء في الكتاب الذي أكتبه الآن قد يؤدي إلى مشاكل، لكن يجب أن أفكر في الوضع الإجمالي. لن يستطيع وربيرغ أو أي أحد غيره أن يعتبرني عرضاً جيداً إذا لم يستطع أن يكون له حق التصرف بكامل نتاجي الذي لا يعتبر كبيراً بأي حال. من الواضح أن الأفضل لو أستطيع أن أوقف الكتابة عن السياسة من حين إلى آخر، فأنا أخشى من ظهور خلافات أكثر مما كان في الماضي. أنت تعرف أي صعوبة هي روسيا. لخمس عشرة سنة كنت أنظر إلى النظام الحاكم هناك برعب خالص، ورغم ذلك أنا سأبدل رأيي إن رأيت مبرراً طبعاً، ولا أعتقد أن مشاعري سوف تتبدل طالما بقي الحزب الشيوعي في السلطة. أنا أعرف أن موقفك في السنوات الأخيرة لم يكن بعيدا جداً عن موقفي، لكن لا أعرف كيف سيكون إن كان هناك تقارب آخر من جديد بين روسيا والغرب في السنوات القليلة القادمة، أو مرة أخرى في وضع حرب فعلية. أنا لا أريد اندلاع حرب، لكن إن أجبر المرء أن يختار بين روسيا وأمريكا - وأعتقد أن ذلك هو الخيار الذي يجب على المرء أن يتخذه - فسأختار أمريكا دائماً. أعرف وربيرغ ورأيه جيداً، وأنه من غير المحتمل أبداً أن يرفض أي شيء لي لأسباب سياسية. كما تقول لا يوجد ناشر يستطيع أن يوقع على بياض ضماناً بطبع أي شيء ينتجه كاتب، لكني أعتقد أن احتمال رفض وربيرغ أقل من أغلبهم. أنا أعرف أنني أطلب شيئاً كثيراً منك نظراً لأن بيننا عقداً أنا وقعته بحريتي ومازلت ملزماً به. إن قررت أن يبقى العقد طبعاً، فأنا لن أنتهكه، لكن في حقيقة مشاعري أحب أن أنهيه. أرجوك سامحني على كل ما يبدو أنه فظاظة مني، وعلى المشاكل التي سببتها لك.

المخلص لك/ جو. أورويل.

رسالة إلى فيكتور غولانكس

٢٧ب كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون، أن ١
/٩ أبريل/ نيسان ١٩٤٧.

عزيزي غولانكس

كان يجب أن أكتب إليك منذ عدة أسابيع، لكني كنت مريضاً وطريح الفراش.

شكراً جزيلاً لك على فعلتك الكريمة.

المخلص لك/ جورج أورويل.

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٧.

عزيزي توني (روائي وصديق أورويل)

شكراً جزيلاً لك على بطاقتك البريدية التي أعتقد أنها كانت محظوظة لتصل إلى هنا- بأي حال أعتقد أن المزارع الذي جلب البريد في الأميال السبعة الأخيرة كان سيمنعها لو رآها. أنا قادم إلى لندن في بداية شهر نوفمبر/ تشرين ثاني، لكن ربما لمدة شهر واحد فقط. نحن نخطط إلى قضاء الشتاء هنا، لكي أستطيع الاستمرار في عملي من دون أن أغرق في الكتابة الصحفية. وأظن أيضاً أن الجو سيكون مريحاً لي أكثر هنا، بالرغم من الطين والعزل. والمرء في حال أفضل هنا بالنسبة إلى الوقود. وبالمجمل أفضل بالنسبة إلى الطعام. أسوأ عوز حقاً هو تخصيص الخبز والنقص الجديد في البنزين، وذلك لأننا يجب أن نقوم برحلة في السيارة، يتعذر تجنبها مرة أسبوعياً لجلب البقالة إلخ. أصبح البيت مريحاً تماماً الآن ماعدا طبعاً أننا مازلنا نستخدم المصابيح التي تعمل بالزيت للإضاءة، ولدي حديقة صغيرة حول البيت. مررنا بطقس لا يصدق في الحقيقة، جفاف قاسٍ، ونتيجة ذلك لم يكن هناك ماء في الحنفيات لمدة نصف شهر تقريباً، وخلال هذه الفترة لم يستحم أحد. نظرياً يستطيع المرء الاستحمام في البحر، لكني أجده بارداً جداً والذي لم أغص فيه أبداً ماعدا مرة أو اثنتين طوعياً في أي وقت من حياتي. مؤخراً أربعة منا بما فيهم ريتشارد غرقنا كلنا في البركة المشهورة في كوريفريشان التي وردت في فيلم اسمه "أنا أعرف إلى أين أنا ذاهب". كان هناك وصف غير صحيح أبداً للكارثة في الديلي إكسبريس. كان الأمر بغيضاً حين انتهى بنا الحال أن تحطمنا على جزيرة صحراوية كان يمكن أن نحبس فيها ليوم أو اثنين، لكن لحسن الحظ رأى صيادو جراد البحر النار التي أشعلناها كإشارة وأخرجونا منها. ريتشارد أحب كل لحظة منها ماعدا حين كان في الماء فعلياً. هو يكبر بشكل ضخم ويتحدث كثيراً. لقد سقط سقطة سيئة في وقت مبكر في السنة، تركت ندبة في جبهته، لكن أتخيل أن الندبة ستختفي بعد سنة أو اثنتين. أنا أتقدم في

روايتي وأتمنى أن أنهيها في فصل الربيع إن لم أفعل شيئاً غيرها. أنا أعرف أنني إن رجعت إلى لندن وعلقت بالمقالات الأسبوعية، لن أبدأ بأي شيء أطول. يبدو أن للمرء قدرة محدودة على العمل في هذه الأيام وعلى المرء أن يقتصد بها. السيدة كريستين تقول إنك أرسلت لي كتاباً (روايات من مجتمع رفيع من العصر الفيكتوري) أعتقد أنه طبعة جديدة من روايات من العصر الفيكتوري أنت كتبت لها مقدمة -لكنها لم ترسله بعد. شكراً جزيلاً على كل حال. سوف أتلفن لك حالما أعود إلى لندن. أرجوك بلغ تحياتي لفايوليت.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٢٣ أكتوبر/ تشرين أول ١٩٤٧.

عزيزي توني

قراءة كتب غيسينغ مرة جديدة- أحب أن أفعل ذلك، لكني في الحقيقة أخشى أنني يجب أن أقول لا. الشيء هو أنني لا أتصارع مع هذا الكتاب خاصتي فقط، ولكن سأكون منشغلاً أيضاً حين أكون في لندن. لدي كل الوسائل لفعل أشياء تضييع الوقت، بالإضافة إلى أنني كلفت بمقالة أخرى لا أستطيع التهرب منها. أتمنى بأي حال أن أعمل بجد كبير عليها خلال وجودي في لندن، لكن ذلك لا يعني التعهد بأي شيء آخر. أنا آسف، فقد كنت أود لو أنني كتبت مقالة عن غيسبنغ.

أنا آت في السابع من الشهر وسأتلفن لك. بدأ الشتاء هنا مظلماً وكئيباً نوعاً ما. مسبقاً أنرنا المصابيح في الخامسة والنصف تقريباً. لدينا قدر من الفحم هنا أكثر مما يفترض أن يكون لدينا في لندن، وهذا بيت صامد للعوامل الجوية أكثر من شقتي؛ حيث كان الماء يأتي عبر السقف في اثني عشر مكاناً في الشتاء الماضي. أرجوك بلغ محبتي إلى فايوليت.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧.

عزيزي توني

شكراً جزيلاً على رسالتك. أنا مازلت مستلقياً على ظهري، لكن أعتقد أنني أتحسن فعلياً الآن بعد انتكاسات كثيرة. أنا ربما أكون على ما يرام في هذا الوقت إن استطعت الوصول إلى أخصائي صدر خاص بي، لكن لا أجرؤ على أن أقوم بالرحلة إلى البر الأساسي، وأنا أعاني من ارتفاع حرارتي. إنها رحلة قذرة في الشتاء فعلاً، حتى لو ذهب المرء بالطائرة في قسم من الطريق. على كل حال، لقد رتبت لرجل أن يأتي من غلاسغو ويلقي عليّ نظرة فاحصة سريعة، ثم ربما بعدها سوف أنهض من السرير وأذهب إلى لندن أو ربما إلى غلاسغو فقط. أعتقد أنني يجب أن أدخل إلى المستشفى لفترة قليلة. فبالإضافة إلى العلاج هناك تصوير شعاعي إلخ. وبعد ذلك ربما أقوم بمحاولة الذهاب إلى خارج البلاد لمدة شهرين إن استطعت الحصول على مهمة صحفية إلى مكان ما دافئ. طبعاً لم أقم بأية كتابة منذ أسابيع- لقد كتبت فقط مسودة أولية لروايتي التي أعتبرها دائماً العلامة الوسطى. كان من المفترض أن أنهيها في مايو/ أيار- يعرف الرب متى. أنا مسرور لأن كتاب أوبري وصل أخيراً (جون أوبري وأصدقاؤه). أعتقد أنه على المرء في هذه الأيام أن يضع موعداً للكتابة، بالإضافة إلى وضع موعد للنشر. في الربيع سأعيد طبع رواية لي خرجت في عام ١٩٣٩ وقتلتها الحرب (**الصعود إلى الهواء**) لذلك هذا سيجعلني أتأخر قليلاً بروايتي الجديدة.

من الظاهر أن السيدة كريستين قد أبحرت للتو. ما كتبته جزئياً عن هذا كان: هل لديك أو هل تعرفين أي أحد لديه سرج للبيع؟ الحالة الجيدة ليست ضرورية جداً طالما فيه حزام كامل وركابان. إنه لحصان قياس الجانب المتين منه فقط ١٤ إنشاً، لهذا من المحتمل جداً أن يكون سرج يعود إلى حصان كبير وافياً بالغرض. إنه نوع الشيء الذي قد يكون مرمياً ولا تستطيع

شراءه أبداً. حصان المزرعة لدينا هنا يركب لأغراض معينة لتوفير البنزين، كما أن الركوب من دون سرج متعب جداً. أنا مستعد أن أدفع سعراً معقولاً.

ريتشارد جيد بشكل قوي ومليء بالعنف، كما عانى من سعال وشهيق من دون أن نلاحظ أنه أصيب به. حبي للجميع. أتمنى أن أراكم جميعاً يوماً ما.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ ايست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ٢٥ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٨.

عزيزي توني

شكراً جزيلاً على رسالتك. لا توجد مشكلة بخصوص السرج. يفترض أن يأتينا واحد، لكن إن حدث وصادفت واحداً آخر، فأنا سأشتريه، لأنه لا يضر أن أملك اثنين. وضع البنزين كارثي، لذلك على المرء أن يستخدم الخيول لأغراض معينة، وأيضاً الفتى الذي يسكن معنا ويفلح المزرعة، تعثر في إيطاليا، وأسهل له أن يجمع قطيعاً على ظهر حصان. كلا لا أظن أن المرء يستطيع أن يستخدم سرجاً جانبياً. سيكون مثل إطلاق نار على ثعلب جالس أو شيء ما. أحياناً أفكر سراً أن أجرب الركوب على الحصان بشكل جانبي (القدمين على نفس الجهة)، لأنني أعتقد أنه من شبه المستحيل أن تسقط منه... كل الأفضل لفايوليت. أتمنى أن أراك بعد بضعة أشهر من الآن.

المخلص لك جورج

رسالة إلى أنتوني باول

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ لاناركشاير
/ ٢٥ يونيو/ حزيران ١٩٤٨.

عزيزي توني

تلقيت رسالة من صديقك سيسيل روبيرتس، يسألني فيها إن كان يستطيع أن يأخذ شقتي. يجب أن أكتب وأخبره أنه أمر مستحيل. أنا آسف جداً بخصوص هذا، لكنهم كانوا يدفعونني مسبقاً إلى مثل هذا الكابوس وإعارتها إلى السيدة كريستين، ويهددون أن يدعوا بورو يأخذها مني. أنا لا أريد أن يحدث هذا، لأنه يجب أن يكون لي منزل مؤقت ثانوي في لندن، وأيضاً لدي أثاث قليل مازال هناك والكثير من الأوراق التي من المربك تخزينها في مكان آخر. حتى لو تخليت عن الشقة، فلن يدعوني أنقل عقد الإيجار، وطبعاً هم لديهم مرشحوهم الخاصون بهم جاهزين مع رشاوى بأيديهم. إن صدف ورأيت غراهام غرين، هل تفاجئه وتخبره أنني كتبت مراجعة نقدية رديئة لروايته لب القضية للنيويوركر. لم أستطع أن أفعل غير ذلك. أظن أن الكتاب شنيع، لكني لم أعبر عنه بتلك الطريقة طبعاً. أنا سوف أكتب مراجعة كتاب كينغزميل للأوبزيرفر في أقرب فرصة، لكن مازال لدي كتاب آخر يجب أن أزيله عن دربي أولاً. يبدو أنني أعود إلى طاحونة الصحافة، لكن أنا أقوم بأعمال صغيرة على روايتي ولا شك سوف أكملها في نهاية السنة. أنا أفضل بكثير الآن، وأستطيع النهوض من الفراش لمدة ثلاث ساعات يومياً. كنت ألعب الكروكيت كثيراً وهي تبدو لعبة قاسية تماماً حين تكون مستلقياً على ظهرك لمدة ستة أشهر. في الجناح تحتي رئيس تحرير هتسبير مريض. أخبرني أن حجم توزيعهم ٣٠٠ ألف. يقول إنهم لا يدفعون معدلات جيدة جداً حسب الشخص، لكنهم يعطون الناس عملاً دائماً ويعطونهم أيضاً حبكات الروايات، وعليهم فقط أن يقوموا بالكتابة الفعلية. يستطيع الرجل بهذه الطريقة أن ينتج ٤٠ ألف كلمة في الأسبوع، ولديهم رجل واحد اعتاد أن يعمل ٧٠ ألف كلمة، لكن مادته عبارة عن "قالب" تقريباً. أتمنى أن أخرج في أغسطس/ آب، لكن

الموعد ليس ثابتاً، لأنه يعتمد على متى تستأنف رئتاي شكلها الطبيعي بعد أن يقل العلاج. ريتشارد قادم ليزورني في وقت مبكر من يوليو/ تموز. لم يستطع قبل ذلك بسبب العدوى. أظن أنني لن أعرفه إلا بصعوبة بعد ستة أشهر من الغياب.

اليوم يصادف عيد ميلادي الخامس والأربعون، أليس الأمر مروعاً. حصلت أيضاً على أسنان اصطناعية، وازداد الشعر الرمادي في رأسي. أرجوك بلغ تحياتي لفايوليت.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/١٥ نوفمبر/ تشرين أول ١٩٤٨.

عزيزي توني

أرجوك اعذرني على الطباعة الرديئة، لكنني في الفراش وهذه آلة كاتبة بالية جداً. شكراً كثيراً لك على رسالتك. نعم أنا أرسل كتب باري بين (روائي ساخر مؤلف كتب ايلايزا من المصر الإدواردي). أنا أحب أي شيء يشبه ذلك. ربما بعضها جديرة بالتجليد. هناك أشخاص في ادنبره يجلدون الكتب. خرجت من المستشفى في يوليو/ تموز بوضع أفضل بكثير، لكني كنت في حالة صحية قذرة في الشهر الأخير، وأحاول أن أرتب كي أمضي أسوأ فترة من الشتاء في مصحة. أعتقد أنها زيادة عن الشتاء الماضي، أي مصحة وليست مستشفى، وربما أقدر أن أقضي الشتاء في البيت، وربما أستطيع الذهاب إلى الخارج، ولكن أخشى أن تكون الرحلة هي الموت حرفياً بالنسبة إلي. أستطيع أن أكتب، لكن ذلك كل ما أستطيع فعله. إن مشيت ولو بضع مئات من الياردات، فإني أشعر بالانزعاج. إنه شيء مزعج أنه بعد صيف قذر أن نكون في طقس خريفي جميل ولا أستطيع أن أجز عشبة واحدة من حديقة البيت. أنا باشرت الآن بالمهمة الرهيبة في طباعة روايتي. لا أستطيع أن أطبع كثيراً لأن الجلوس وراء طاولة يتعبني كثيراً جداً، وطلبت من روجر سينهاوس أن يرسل إلي كاتب اختزال لمدة نصف شهر، لكن طبعاً ليس من السهل العثور على شخص لفترة قصيرة مثل تلك. من المروع حين أفكر أنني كنت أعبث مع هذا الكتاب منذ يونيو/ حزيران ١٩٤٧ ولايزال فوضى فاضحة حتى الآن. لكن طبعاً كنت مريضاً جداً لمدة سبعة أشهر أو ثمانية من الفترة. ريتشارد يزدهر ويزداد حجمه. أنا لا أعتقد أنه سيكون واحداً من رجال المعرفة. هو متخلف قليلاً في الحديث ولا يبدي أي اهتمام في حروفه (عمره أربع سنوات ونصف) لكن من جانب آخر هو بارع في الآلات ويحب العمل في المزرعة وصيد السمك وأشياء مثل تلك. أنا لن أؤثر عليه، لكن إن ذهب إلى الزراعة فسأحب هذا، فربما هي الوظيفة الوحيدة التي ستظل موجودة بعد القنابل

النووية. سنة أخرى وأعتقد أنه سيذهب إلى المدرسة. أنا قرأت ثانية روايتك من فكرة إلى حالة موت واستمتعت بها كثيراً جداً. طلبت كتب أوبري مع الأوبزيرفر، لكن لا أعرف إن كنت سأحصل عليها أم لا. إن رأيت مالكولم أخبره عني أنني قرأت كتابه مؤخراً عن صامويل بتلر. ورغم أنني استمتعت به، إلا أنني أعتبره مخجلاً تماماً. رجاء بلغ تحياتي لفايوليت. أرجو أن تكون العائلة كلها بخير.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

كرانهام/١١ مايو/ أيار ١٩٤٩.

عزيزي توني

شكراً جزيلاً لك على رسالتك. أخيراً (فقط أمس) حصلت على نسخة من جون أوبري وأنا أقرأه باهتمام. أنا لست مدركاً أنه كان فتى متعدد المواهب -فكرت فيه بالارتباط مع حكايات مخزية. أنا أتطلع إلى مجموعاتك المختارة. نعم أنا قرأت كتاب مارغريت نيومان. أخبر مالكولم مارغريدج إن لم يره، فينبغي عليه أن يقرأ كتاب روث فيشر (ستالين والشيوعية الألمانية)- بأي درجة إنه كتاب مفيد امتلاكه كمرجع. أنا آسف حول المسكين هيو كينغزميل. أنا لا أعرف إن كنتَ قد رأيته، لكن إن فعلت، أخبره أنني قرأت كتابه عن ديكنز (تأخر الفجر) مرة أخرى، وقد حصلت عليه بصعوبة، وأظن كما من قبل - أنه كتاب رائع لكنه حجة المقاضاة. أتساءل لماذا لا يعيد أحد ما طبع بعد البيوريتانية. أقحمت تنويهاً عنه حين كتبت مراجعة نقدية لكتابه الآخر الذي أعادوا طبعه، لكن تم قصه كما تجري الأمور في المراجعات النقدية.

حصلت بالمناسبة أخيراً على نسخة من شارع غروب جديد وقمت بمحاولة أخرى على حمل أحد كي يعيد طباعته. يفكر المرء بأن مكتبة إيفريمان قد تمتلك واحداً من كتب غيسينغ على الأقل، لكن لا أعرف كيف سيتقرب المرء منها -على الأقل أنا لا أملك سلكاً أستطيع شده هناك. كنت مريضاً بشكل مفرط. لا أستطيع وضع أي خطط ثابتة وقوية. إن كنت سأقدر على المشي ولن أستطيع مواجهة الرحلة، فسوف أبقى في مكان ما مثل برايتون. إذا كان علي أن أستمر في السرير، فسأحاول أن أنتقل إلى مصحة ما قرب لندن؛ حيث يستطيع الناس أن يأتوا ويزوروني بسهولة أكبر. يبدو كما لو أنني سأمضي بقية حياتي إن لم يكن في السرير فعلياً، فعلى كافة الأحوال في مستوى كرسي المقعدين. أستطيع الصمود لخمس سنوات إن استطعت أن أعمل فقط. في الوقت الحاضر لا أستطيع أن أفعل شيئاً ولا كتابة مراجعة نقدية لكتاب حتى.

أرجوك بلغ حبي للجميع. المخلص لك/ جورج

رسالة إلى أنتوني باول

كرانهام لودج/ كرانهام/
غلوسستر/ ٦ يونيو/ حزيران

عزيزي توني

شكراً لإرسالك لي كتاب أوبري. (حيوات موجزة وكتابات أخرى مختارة من جون أوبري). أنا مسرور جداً لأنك أدخلت المفضلة عندي السيدة أوفراول أخيراً والقصة التي عن السير دبليو راليف وابنه أيضاً. أنا آسف جداً بخصوص هيو كنغزميل. إن كانوا يحاولون الحصول على معاش تقاعدي لأرملته، فاشملني معكم إن كان توقيعي ينفع بأي شكل طبعاً. أنا أفضل بكثير وواثق أن هذا سيستمر. لدي أخصائي من لندن قال نفس الكلام الذي قاله الناس هنا، أي أنني لو وصلت إلى ناصية الشارع، فأستطيع أن أكون جيداً لعدة سنين، لكن يجب علي أن أبقى هادئاً، وألا أحاول أن أعمل لوقت طويل ربما لفترة سنة أو سنتين- أنا واثق بأنها لن تكون طويلة مثل تلك. شيء ممل جداً لكنه جدير إن كان يعني أني أستطيع أن أعمل مرة أخرى لاحقاً. ريتشارد (ابنه بالتبني) يقيم في مكان قريب في فترة الصيف ويأتي ويزورني مرة أو مرتين في الأسبوع. أرجوك بلغ تحياتي للجميع. أتمنى أن تأتي أنت ومالكولم (مالكولم ماغريدج) وتزوروني في وقت ما- لكن طبعاً لا تتعبا نفسيكما. أنا أعرف أي رحلة متعبة يجب أن تكون.

المخلص لك/جورج

ملاحظة: أنا أقرأ دانتي!

رسالة إلى سيليا كيروان

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/١٧ أغسطس/ آب ١٩٤٦

عزيزتي سيليا (مساعدة رئيس التحرير في البوليمك آنذاك)

كم رائعاً منك أن تشتري البراندي وترسليه بمبادرة منك. أرفق شيكاً بالمبلغ المقدر. أتمنى ألا تكوني قد تكلفت نفقات أخرى بشأنه - إن كان هناك أي شيء آخر، رجاء دعيني أعرف.

نسيت أن أقول إني أعتقد أن واحداً أو اثنين من العناوين (الكراريس وهلم جرا) في مقالات سويفت غير صحيحة (السياسة مقابل الأدب) لأنني كنت أقتبسها من الذاكرة دائماً، لكن حالما أرى البروفة الطباعية، سيكون من السهل تصحيحها.

أنا آسف أنك تعانين في لندن. يجب أن يكون كائن مقمل هناك في هذا الوقت من السنة، خصوصاً إن كان لديك مثل هذا الطقس العجيب كالذي عندنا هنا في الأسبوع الأخير أو الأسبوعين الأخيرين.

حتى الآن لم أفعل أي عمل يمكن الكلام عنه، ويبدو هناك دائماً الكثير الذي تفعله من أنواع أخرى والرحلات التي يقوم بها المرء مذهلة جداً. وصل طفل سوزان إلى هنا أمس، ويفترض بي أن أذهب إلى غلاسغو للقائه. انطلقت قبل صباح الأمس، لكني ثقبت إطار دراجتي النارية على الطريق، ولهذا فقدت القارب. بعد ذلك أقلني صاحب شاحنة، ثم ركبت في سيارة، وعبرت بالعبارة إلى الجزيرة التالية، على أمل أن تكون هناك طائرة إلى غلاسغو. لكن الطائرة كانت مملوءة، لهذا أخذت الحافلة إلى ميناء إيليم؛ حيث يكون هناك قارب في صباح الجمعة. كان ميناء إيلين مملوءاً إلى حوافه بسبب معرض للقطعان، وكانت كل الفنادق مملوءة، لهذا نمت في زنزانة في مخفر الشرطة مع عدد كبير من الناس بمن فيهم زوجان متزوجان مع عربة أطفال. في الصباح استيقظت، وذهبت إلى القارب، وحملت الطفل وأعدته، ثم استأجرنا سيارة من أجل العشرين ميلاً الأولى ومشينا الخمسة أميال الأخيرة إلى البيت. هذا الصباح أقلني قارب بمحرك إلى حيث كانت دراجتي، فأصلحت الإطار المثقوب

وركبتها وعدت إلى البيت -كل هذا في ثلاثة أيام. أعتقد أننا كنا سنحصل على قارب بمحرك، أي قارب مع محرك خارجي بعيد عن وسط المركب، بما أنه أفضل وسيلة سفر هنا حين يكون الطقس لطيفاً. في الوقت الحاضر لدينا فقط قارب تجديف صغير مناسب لصيد السمك، لكن لا يمكنه الذهاب إلى مسافة بعيدة في البحر. نحن نذهب إلى الصيد تقريباً كل ليلة، لأننا نعتمد جزئياً على السمك كغذاء لنا. واصطدنا أيضاً قدرين من جراد البحر. وأمسكنا عدداً محدداً من القريدس والسرطانات. الآن تعلمت كيف أربط مخالب السرطان الذي عليك أن تفعله إن كنت ستبقيه حياً، لكنه خطير جداً خصوصاً في الظلام. نحن أيضاً اصطدنا أرانب برية حين قلت اللحوم المحفوظة، وزرعنا خضاراً، لكني لم أبق هنا وقتاً طويلاً طبعاً للحصول على مرتجعات من الأرض بما أنها كانت دغلاً حين وصلت إلى هنا. مع كل هذا يمكنك أن تتخيل أنني لم أنجز عملاً كبيراً- على كل، لقد بدأت بكتاب جديد فعلياً، وأرجو أن أتمم أربعة أو خمسة فصول قبل عودتي في شهر أكتوبر/ تشرين أول. أنا سعيد لأن همفري (هيو سلاتر) راضٍ بـ -أتساءل كيف يباع المهرطقون؟ رأيت أن نورمان كولينز (كاتب ومؤلف وصحفي) كتب مراجعة نقدية متكبرة للكتاب في الأوبزيرفر.

ريتشارد يلبس الآن سروالاً قصيراً لطفل آخر كبر عليه وحمالات، وحصلت على حذاء عامل مزرعة حقيقي له. يجب أن يلبس حذاء طويل الساق هنا حين يذهب بعيداً عن البيت، لأنه لو كان لديه حذاء عادي من المحتمل أن يرميه. وتوجد أفاع هنا. أعتقد أنك ستحبين هذا المكان. تعالي في أي وقت تريدين. لكن إن فعلت حاولي ودعيني أعرف مقدماً (يعني اكتبي لي قبل أسبوع لأن رسائلنا تصل مرتين في الأسبوع فقط) لكي أستطيع ترتيب موضوع استئجار سيارة. أيضاً لا تحضري أمتعة أكثر من حقيبة ظهر وجراب، لكن من جانب آخر اجلبي لي قليلاً من الدقيق إن استطعت. نحن دائماً تقريباً نعاني من نقص في الخبز والدقيق هنا، منذ أن خضعنا لنظام الحصص. لكن لن تحتاجي إلى ثياب كثيرة طالما لديك معطف مطري وحذاء طويل الساق متين أو حذاء عادي. تذكري أن القارب يبحر أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، ويجب أن تغادري غلاسغو في حوالي الساعة الثامنة. أتوقع أن أكون هنا حتى العاشر من أكتوبر/ تشرين أول.

مع محبتي/ جورج

رسالة إلى سيليا كيروان

بارنهيل/ جزيرة جورا/ اغريلشاير
/٧ ديسمبر كانون أول /١٩٤٧.

عزيزتي سيليا

كم هو جميل أن أستلم رسالتك. لسوء الحظ أنا لا أستطيع الرد برسالة طويلة، لأنني مريض جداً في الواقع. بالنسبة إلى سؤالك اينيز (اينيز هولدن مؤلفة وصحفية عمة سيليا كيروان وصديقة أورويل) لم أسمع منها في الواقع، لكن حين وجدت أنني لا أستطيع الذهاب إلى لندن (بسبب هذا المرض) كتبت اسألها أن تتلفن وتخبر أصدقائي المتنوعين وهذا ما فعلته، لهذا هي في المتناول بأي حال. أنا مريض في الفراش منذ ستة أسابيع، وأشعر باعتلال صحي في وقت ما قبل ذلك. حاولت أن أبقى بصحة كافية للقيام برحلة لندن - أخيراً أحضرت أخصائي صدر إلى هنا. يقول إنني يجب أن أذهب إلى مصحة ربما لأربعة أشهر تقريباً. إنه ملل مرعب، لكن ربما يكون الأفضل إن استطاعوا علاجي وشفائي. أنا لا أظن أن العيش في جورا كان له أثر سيئ على صحتي - على أي حال، فإن المصحة التي سوف أذهب إليها قريبة من غلاسغو من نفس المناخ. في الواقع مررنا بطقس عجيب هذه السنة وجاف جداً. حتى الآن أنا أتطلع كيف يمكن أن يكون اليوم في الربيع إذا كان السرخس أخضر. ريتشارد بصحة جيدة دائماً وأصبح صلباً وثقيلاً. سأدعك تعرفين عنوان المصحة حين أصل إلى هناك. وسأحاول أيضاً أن أكتب إليك رسالة أفضل إن سمحوا لك بالجلوس هناك. أود أن أراك في وقت ما - لكن الرب يعرف متى سيحدث ذلك.

مع محبتي/ جورج

رسالة إلى سيليا كيروان

جناح ٣/ مستشفى هيرمايرز/ لاناركشاير
/ ٢٠ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٨.

عزيزتي سيليا

سررت كثيراً برسالتك اللطيفة الطويلة. أنا هنا منذ شهر تقريباً بعد أن كنت مريضاً لمدة شهرين في البيت. أعتقد أنني أخبرتك عن نوع المشكلة الصحية التي أعاني منها. إنها السل الرئوي الذي سينال مني عاجلاً أو آجلاً. وفي الحقيقة أنا مصاب به منذ زمن، لكن ليس بهذه الدرجة من السوء. على كل حال، أنا لا أظنه خطير جداً ويبدو أنني أتحسن ببطء. لا أشعر بشحوب شديد كما فعلت منذ شهر بعد أن خسرت حجرين تقريباً (١٤ باونداً). اليوم حين أجريت فحص الأشعة السينية، قال لي الطبيب إنه استطاع أن يرى تحسناً محدوداً. لكن يحتمل أن أبقى هنا لفترة طويلة، بما أن المعالجة بطيئة، ولا أظن أنني سأكون لائقاً للخروج من السرير لمدة شهرين تقريباً......... هذا عيد الميلاد الثاني الذي أمضيه في المستشفى. إنه دائماً شيء يغيظ مع "حفلات" يقيمونها -كل الأسرة تجر إلى داخل جناح واحد، ثم هناك حفلة موسيقية وشجرة عيد ميلاد. هذه مستشفى جيدة وكل واحد بأقصى اللطف معي، وأنا لدي غرفة لوحدي. بدأت أحاول القيام بعمل قليل جداً، أي مراجعة نقدية عرضية لكتاب ما، بعد تعطل عن العمل لمدة ثلاثة أشهر.

نعم أتذكر لا دو ماغو (مقهى باريسي يلتقي فيه الأدباء). أعتقد أنني رأيت جيمس جويس هناك في عام ١٩٢٨، لكنني لم أكن قادراً أبداً أن أجزم بذلك، لأن جيمس لم يكن ذا مظهر مميز جداً. ذهبت أيضاً إلى هناك لأقابل كامو الذي كان من المفترض أن يتناول الغداء معي، لكنه كان مريضاً ولم يأت. أعتقد أن باريس ابتهجت قليلاً منذ أن كنت هناك في بداية عام ١٩٤٥. كانت كئيبة جداً من أجل الكلمات، ثم وطبعاً كان من المستحيل أن تحصل على أي شيء يؤكل ويشرب وكل واحد كان رث الثياب وشاحباً. لكنني لا أستطيع أن أصدق أنها الآن مثلما كانت. لحسن حظك أنك كنت صغيرة جداً ولم تريها في العشرينات؛ حيث بدت

دائماً شبحية وغريبة قليلاً بعد ذلك حتى قبل الحرب. أنا لا أعرف متى سأزور فرنسا مرة أخرى لأن المرء لا يستطيع السفر في الوقت الحاضر بسبب قضية العملة، لكن إذا نجح أحد كتبي وحالفه الحظ، فسوف أجعلهم يحتفظون لي ببعض الفرنكات في فرنسا لكي أستطيع الذهاب وأصرفها. إن شفيت.

في ذلك الوقت تقريباً كما أفترض أنني سأفعل، سوف أحاول أن أحتال لأجد وظيفة مراسل هذا الشتاء، لكي أقضي الشتاء في مكان دافئ. شتاء عام ١٩٤٦-٧ في لندن كان فعلاً غليظاً جداً نوعاً ما، وأظنه هو الذي أوصلني إلى هذه الحال على الأرجح. في جورا الأمر أفضل قليلاً، لأن الجو ليس بارداً جداً، ونحصل على فحم أكثر وطعام أكثر، لكنها مربكة قليلاً إن احتاج المرء إلى رعاية طبية في وقت لا يستطيع فيه أن يصل إلى البر الرئيسي. في وقت مبكر من هذا العام انخلع ذراع أختي، وكادت أن تغرق عند العبور إلى الطبيب في قارب صغير جداً يعمل بمحرك. اينيز بالغت في مغامرتنا الأخيرة قليلاً، لكن حصل معنا حادث كريه في دوامة كوريفريشان الشهيرة (التي وردت في فيلم اسمه "أنا أعرف أين أنا ذاهب") وكنا محظوظين بأننا لم نغرق. الشيء البغيض كان وجود ريتشارد معنا، لكنه أحب كل لحظة منها باستثناء تواجدنا في الماء. أعتقد أن جورا أفادته كثيراً ولكنه لم ير عدداً كافياً من الأولاد هناك، لذلك مازال متأخراً في الحديث، وغير ذلك فهو مقدام جداً ومملوء بالحيوية ويخرج إلى العمل في المزرعة طوال اليوم. جميل أن أتمكن من تركه يتجول في المكان من دون أن أخشى من حركة سير في المكان. اكتبي لي مرة أخرى إن توفر لك الوقت. أحب أن تصلني رسائل.

مع محبتي/جورج

رسالة إلى سيليا كيروان

جناح اس/ مستشفى هيرمايرز/ايست كيلبرايد
/لاناركشاير/ ٢٧ مايو/ أيار ١٩٤٨.

عزيزتي سيليا

شكراً جزيلاً على رسالتك. يجب علي أن أقول إن أي شيء يتعلق باليونيسكو، يبدو محبطاً للهمم. بأي حال يجب أن أستخرج كل النقود التي أستطيع أخذها منهم، وأفترض أنهم سيبقون لفترة أطول.

أنا أفضل بكثير الآن من أي وقت مضى، ولبعض الوقت لم يجدوا أي جراثيم في جسدي. هم الآن يقومون بآخر محاولة. إن لم يجدوا أي شيء هذه المرة، فإننا نستطيع أن نعتبر الجراثيم قد قمعت، لكن عملية العلاج طبعاً تستغرق وقتاً طويلاً. أنا مازلت ضعيفاً بشكل مخيف ونحيل، لكنني أنهض من السرير لمدة ساعتين يومياً وأذهب إلى الخارج قليلاً. مازالت غير قادر على القيام بقدر كبير من العمل، لكنني أقوم بالقليل جداً منه يومياً. لم يقولوا بالضبط متى سوف أغادر المستشفى، لكن ربما يكون ذلك في أغسطس/ آب. والخبر الجيد جداً أنهم على ما يبدو يفكرون الآن في أنني يجب أن أستمر في المعالجة كمريض خارجي، ما يعني أنني أستطيع العودة إلى جورا بدلاً من اضطراري إلى البقاء في غلاسغو أو أدنبره. يبدو أنهم استمتعوا بطقس إعجازي في جورا، وانشغلنا جداً نحن بعمل المزرعة بما فينا ريتشارد. أنا لم أره منذ قبل عيد الميلاد خشية إصابته بالعدوى، لكن سأستطيع رؤيته إن استطعت أن أرتب ذلك وأجلبه إلى هنا ليوم أو يومين. هو يكبر بشكل ضخم، وواضح أنه تعلم التحدث أكثر. سيحين عيد ميلاده الرابع هذا الشهر.

كم أتمنى لو كنت معك في باريس بما أن الربيع بدأ هناك. هل ذهبت قط إلى حديقة النباتات؟ كنت أحبها علماً أنه لم يكن فيها ما يثير الاهتمام حقاً سوى الجرذان التي غزتها مرة وكانت أليفة جداً، لذلك كانت تأكل يدك تقريباً. في النهاية أصبحت تشكل إزعاجاً كبيراً، لذلك أدخلوا القطط التي قضت عليها تقريباً.

أشجار الدلب جميلة جداً في باريس، لأن اللحاء لم يصبح أسود بالدخان كما حصل له في لندن. أعتقد أن الطعام وهلم جرا مازال شنيعاً جداً، لكن ذلك سوف يتحسن إن نجحت خطة مارشال. أرى أنك ستضمين طابعاً بعشر فرنكات على رسالتك مما سيعطيك فكرة عن كلفة وجبات الطعام الآن.

لا أستطيع تفادي الشعور أنه نوع من الخيانة من جانب آرثر إن استقر في الولايات المتحدة. هو تحدث عن القيام بذلك سابقاً. أعتقد أنه غاضب حول ما يحدث في فلسطين، لكن أنا لا أعرف ماذا يمكن أن يتوقعه المرء غير ذلك. يبدو أن جولة محاضراته كانت ناجحة تماماً. أتساءل إن كان قد عاد أم لا، وماذا سيفعل بخصوص مكانه في ويلز. يبدو لي أنه من المثير للشفقة البدء بحبس الجذور في مكان آخر، ثم تمزيقها مرة ثانية، وأتخيل أن ماميان لا يحبها.

يبدو وكأن سنوات طويلة مرت منذ أن رأيتك آخر مرة، وفي الواقع يجب أن تكون خمسة عشر شهراً. المضحك التفكير أنني لم أخرج من اسكتلندا منذ أكثر من سنة، علماً أنني أحببت أن أخرج لو بقيت بصحة جيدة. هذه القضية (المرض) أجلت عملي بشكل مخيف. الكتاب الذي أعمل فيه كان من المفترض أن ينتهي في بداية هذه السنة- الآن لا يمكن أن ينتهي قبل نهاية السنة، مما يعني أنه لن يخرج حتى نهاية عام ١٩٤٩. على كل هو شيء قابل للعمل عليه من جديد. السنة الماضية قبل أن يجلبوني إلى هنا، شعرت حقاً كما لو أنني انتهيت. أشكر الرب أن ريتشارد سوف يتمتع بصحة جيدة على ما يبدو. لدينا الآن بقرتان خضعتا للفحص، لهذا في كل الأحوال لن يصاب المريض من خلال الحليب، وهو الطريق المعتاد مع الأطفال. اعتني بنفسك واكتبي لي مرة أخرى في وقت ما.

مع محبتي/ جورج

رسالة إلى راينر هابنستول

ذا ستورز/ ولنغتون/ ن ربولدكوك،
هيرتس/ ١١ أبريل/ نيسان ١٩٤٠.

عزيزي راينر (روائي وشاعر وناقد، من أشهر مؤلفاته وهج الظهيرة وأربعة غائبين صديق أورويل).

هل وصلت هذه الصور إلى أي شيء؟ إن كان كذلك، فسأكون شاكراً لجميلك لو أرسلت إلي أية واحدة تبدو تستحق إعادة إنتاجها، ودعني أعرف ما هي كلفة المسودات. لدي شيء من نوع ما من أميريكان ليتراري تريدني أن أرسل إليهم صورة، وأعتقد أنه من الأفضل أن أذعن بما أنها من أجل إعلان.

أتمنى أن تكون الأمور معك تسير بشكل جيد. أنا هنا لوحدي. إيلين (زوجة أورويل) ستأتي في عطلة نهاية الأسبوع إن استطاعت. هم يتعبونها حتى الموت في المكتب (مكتب رقابة المطبوعات) وأريد أن أخرجها منه إن أمكن؛ لكن في الوقت الحاضر لا شيء مرشح من أجل وظيفة لي. أنا لم ألمس روايتي (قصة عن أعمال بطولية لم يبدأها أورويل جدياً أبداً) لكنني كنت مشغولاً بكتابة مراجعات نقدية تساعدني على إبقاء الذئب على بعد بضع خطوات من الباب الخلفي. أيضاً في الحديقة بذار الربيع في أوجها. أنا أهدف إلى زراعة ستمائة رطل من البطاطا ضد المجاعة التي أتنبأ بها في الشتاء القادم. صحيح، هل ذهبت إلى مؤتمر الايستر في لانغهام (مقر فرع لاديلفي)؟ طلبوا مني أن ألقي خطاباً، وأنا لم أستطع التهرب، لكني أرسلت محاضرة سوف يقرؤها أحد ما آخر، هاجمت فيها السلمية بكل قوتي. لا أعرف كيف أحبوها، وأود أن أسمع من شخص كان هناك. من فضلك بلغ تحياتي لمارغريت (زوجة راينر). أتمنى أنها تتواصل بشكل جيد.

المخلص لك/ إيريك.

ملاحظة لديّ بعض المطبوعات بواسطة أشخاص يسمون أنفسهم المدرسة الرؤيوية النبوئية، لأكتب مراجعة نقدية عنهم مؤخراً وأغتنم الفرصة لإعطاء تعزيز لديلان (توماس ديلان) الذي قررت أنني أحب مادته فعلاً.

رسالة إلى راينر هابنستول

ذا ستورز/ ولنغتون/ ن ر بولدكوك،
هيرتس/ ١٦ أبريل/ نيسان ١٩٤٠.

عزيزي راينر

آلاف التهاني على الطفلة. آمل وكلي ثقة بأن كليكما أحسنتما صنعاً. من فضلك بلغ مارغريت أفضل التهاني مني. يا له من شيء رائع أن يكون لك طفل أو طفلة من لحمك ودمك، أنا أردت ذلك دائماً. لكن يا راينر لا تورط الطفلة الصغيرة المسكينة باسم سيلتي، إذ لا أحد يعرف كيف يهجئه. سوف تنضج نفسياً وتصبح وسيطة روحانية أو شيئاً ما. الناس دائماً يكبرون مثل أسمائهم. استغرق الأمر مني ثلاثين سنة تقريباً للتخلص من آثار تسميتي بإيريك. إن أردت الفتاة أن تكبر وتكون جميلة، فسمها إليزابيث، وإن أردتها أن تكون مخلصة وصادقة وطباخة جيدة، فاختر شيئاً مثل ميري أو جين. المشكلة أنك إن أسميتها إليزابيث، سيفكر كل واحد أنك أسميتها على اسم الملكة كما يفترض أن تكون في يوم ما.

شكراً لك على الصور، لكنك لم تخبرني ماذا كلفت المسودات. اخترت صوراً معلمة برقم ثلاث وخمس لأرسلها إلى الناس. أظن أن الصورة المرقمة بثلاث هي أفضل شبه بي، لكن طبعاً هذه من أجل الناس في الجانب الآخر من العالم. أنا لا أعرف لماذا يجب ألا يرسل المرء صورة لصبي وسيم في القوى الجوية أم ما شابه. أنا أخشى بالتحديد من نقص الفتنة، لأنني حصلت على عدد كبير من الرسائل من نساء صغيرات يخبرنني فيها أنني شيخ. لدي رسائل رائعة واحدة من قابلة كتبتُ لها رداً من دون أن أخبرها أنني متزوج، لكن في النهاية كانت فرحة إيلين كبيرة، إذ تبين أنها في الخامسة والثلاثين من العمر ولديها أربعة أطفال.

أنا لا أعرف متى سنكون في المدينة. أنا مدفون تحت كتب ومستمر في المراجعات النقدية، ولم أعمل في كتابي الخاص بي. يعرف الرب إن كان سيُكتب قط، أو أن هكذا أشياء مثل نشر الروايات سوف تظل تحدث بعد سنتين من الآن. أتمنى الأفضل للجميع.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى راينر هابنستول

مؤسسة البث الإذاعي البريطانية/ دار البث،
لندن، دبيلو ١/ ٢٤ أغسطس/ آب ١٩٤٣.

عزيزي راينر

شكراً لك على رسائلك. أتمنى ألا يكون بريدك الجديد مخزياً جداً. سأحاول لأجد الوقت لحديث من أجلك في حصتنا الأدبية التالية، لكن ذلك سيكون بعد ستة أسابيع أو أكثر من الآن- الجدول مملوء حتى ذلك الحين.

أتساءل ألا تشعر أنك ملائم لتعيد صياغة القصة الرئيسية للإذاعة؟ نحن نعمل ذلك مرة كل ثلاثة أسابيع. أنا كتبت أول قصتين بنفسي، واخترت كرينكيلبيل للكاتب أناتول فرانس، والثعلب للكاتب لايغانزيو سيلوني (هذان برنامجان لنصف ساعة) ربما أسلم وظيفة إعادة الصياغة في قصص مستقبلية إلى ليونيل فيلدن، لكنه ليس بالضرورة سيفعلها في كل مرة. الصعوبة الرئيسية تكمن في اختيار القصص المناسبة، لأنها يجب أن تكون (أ) بالطول الصحيح تقريباً (ب) لها حبكة قوية (ج) شخصياتها ليست كثيرة جداً (د) ألا تكون محلية جداً لأن هذه القصص موجهة إلى الهند. هل لديك أي أفكار؟ أستطيع أن أرسل إليك نصاً مكتوباً كعينة، ولا شك بأنك تستطيع أن تحسن تكنيكي في كتابة القصة.

الكلبية مرة جديدة. أنت ستكون كلبياً إن كنت في هذه الوظيفة. لكن أنا سأتركها بالتأكيد في غضون ثلاثة أشهر. ثم في وقت ما من عام ١٩٤٤ ربما أكون إنساناً تقريباً مرة جديدة وقادراً على أن أكتب شيئاً جدياً. في الوقت الحاضر، أنا مجرد برتقالة داسها بوط قذر جداً.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى راينر هابنستول

٢٧ ب كانون بيري سكوير/ ايزلنغتون ن١
/٢٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٧.

عزيزي راينر

شكراً على رسالتك بخصوص مزرعة الحيوان (صاغ أورويل مزرعة الحيوان من جديد وكيفها من أجل الراديو وأنتجها راينر). كان لدي عدد من الناس هنا واستمعوا إليها في اليوم الأول، ورأوا كلهم أنها جيدة، وبروتيوس (هيو غوردون بروتيوس: ناقد أدبي وخبير بالأدب الصيني) الذي لم يقرأ الكتاب، فهم ما كان يحدث بعد بضع دقائق. أنا أيضاً وصلتني رسالة أو اثنتان من معجبين، وكانت ملاحظات الصحافة جيدة باستثناء التريبيون التي تصرفت بدافع محلي. بالنسبة إلى ما أظنه بنفسي، من الصعب علي أن أكوّن موقفاً معزولاً، لأنني كلما أكتب شيئاً من أجل الإذاعة يتكون لدي انطباع أنه أفسد، وذلك يعود إلى خروجه المحتوم بشكل مختلف عن تصوري له. يجب أن أقول إنني لا أوافق على أن يكون هناك قصاص كثير جداً، وإن فكرت بأي شيء، فسيكون ضرورة وجود تفسير أكثر. يتوق الناس دائماً إلى التخلص من القصاص، لكن يبدو لي أنه إن لم يتم التغلب على مشاكل معينة، فأنت تتخلص من القصاص على حساب اضطرارك إلى لعب خدع غبية، تدع الناس من خلالها يعرفون ماذا يحدث. إن الشيء هو جعل القص يبدو جيداً، لكن ذلك يعني كتابة نثر جدي لا يريده الناس، ويجعل الممثلين يلتزمون به بدلاً من الضحك ومحاولة جعل كل شيء مريح ودافئ وطبيعي.

أنا لا أستطيع أن أكتب أو أتعهد بأن أكتب أي شيء أكثر، ففي الوقت الحاضر أنا مشغول. مازالت لدي أفكار عن قصص الجنيات. أتمنى أن تُستخرج، وأصوغ من جديد نسختي من "ثياب الإمبراطور الجديدة". لقد تم عملها على الخدمات الشرقية والأفريقية، لكن في تلك الأيام لم أكن مرتبطاً بشكل يكفي لأحطم البيت. أتوقع أن الأسطوانات سوف تكسر. لقد أعدت تسجيلها بشكل محظور في استديو تجاري، لكن الكثير منها ضاع. فكرت ملياً دائماً بسندريلا التي هي على قمة قصص الجنيات طبعاً، لكن من النظرة الأولى هي مثيرة

للصور الذهنية أكثر مما ينبغي لتناسب الإذاعة. لكن لا تظن أن المرء يستطيع أن يحول العرّابة إلى مغنية رائعة يمكنها أن تغني بنغمة أعلى من أي أحد آخر أو شيئاً من هذا النوع؟ أفضل طريقة ستكون إن كان لديها صوت رائع، لكن لا تستطيع أن تغني بالنغمة المناسبة مثل تريلباي والعرابة. لقد عالجت هذا. يمكن للمرء أن يجعلها هزلية تماماً مع الأخوات الشريرات اللواتي يغنين بأصوات زاعقة. ربما هذا يستحق الحديث في وقت ما.

بلغ حبي لمارغريت

المخلص لك إيريك.

رسالة إلى روبرت جيرو

مصحة كوستولد / /غلوسستر
/ ١٤ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي السيد جيرو

شكراً جزيلاً على رسالتك في الحادي عشر من الشهر. طبيعي أنا مبتهج لأن كتاب نادي الشهر اختار ١٩٨٤ أخيراً. قبل موعد النشر بقليل، سوف أسالك أن تكون لطيفاً وترسل لي نسخاً مجانية إلى دزينة من الأشخاص في الولايات المتحدة. سوف أرسل إليك الأسماء عبر ليونارد مور. في الواقع بعضهم على قائمتك مسبقاً.

المقال عن لير الذي طلبته مؤخراً (في الواقع إنه عن مقال تولستوي عن شكسبير) ظهر منذ سنتين مضت في مجلة دامت لفترة قصيرة اسمها بوليمك. لسوء الحظ ليس لدي نسخة عنها، وكنت أحاول أن أحصل على واحدة بما أنني قد أريد أن أعيد طبعها في وقت ما. يهمني أن أعرف أين ظهر مقال ايمبسون، كما أحب أن أعرف ماذا كان عليه أن يقول عن لير. هو اختفى في الصين بالطريقة التي يعمل بها الناس، وأنا لا أريد أن أعرف حتى أنه كان يكتب أي شيء في الوقت الحاضر.

كنت مريضاً جداً في الأسابيع القليلة الماضية، لكني أفضل إلى حد ما الآن. أنا أثق بأنني الآن على طريق الشفاء، وسأخرج من هنا قبل أن ينتهي فصل الصيف. لكن من المؤكد أن تكون مهمة بطيئة في أفضل حال. لقد وضعت مخططاً لروايتي التالية، لكني لن ألمسها حتى أشعر أنني بت أقوى. ليس هو العمل الذي يتعبني فقط، وإنما أخشى من القيام بانطلاقة زائفة وأصاب بالإحباط.

المخلص لك/ جو. أورويل

رسالة إلى ليونارد مور

٢٧ كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون
/لندن أن ١/ ٢٣ فبراير/ شباط ١٩٤٦.

عزيزي السيد مور (وكيل أورويل الأدبي حتى وفاته)

شكراً جزيلاً من أجل القصاصات من ساندي مورنينغ هيرالد التي أرجعتها مرفقة. أعتقد أنها جيدة تماماً، لكنني لا أظن أنها نوع الشيء تماماً الذي يستحق دمجه في كتاب إن تقرر أن تعمل طبعة توضيحية لمزرعة الحيوان. سأتحدث بهذا مع وربيرغ مرة أخرى. (ف ج وربيرغ المدير الإداري لسيكر أند وربيرغ وهو الذي نشر **الحنين إلى كاتالونيا ومزرعة الحيوان**) أعتقد أن الكتاب سوف يعاد إصداره في وقت ما وبالتأكيد سيكون من المسر امتلاكه موضحاً. هناك فكرة غامضة ما بأنه سوف يفعلها (لو- ديفيد لو يساري ومشهور بأنه أفضل رسام صور متحركة بريطاني في جيله) كما جاء عن هورابين بأن لو علّق مرة بأنه يود أن يفعلها (ج ف هورابين صحفي يساري ورسام صور متحركة). لكن أنا لا أعتقد أن ذلك سيصل إلى أي شيء، وأخمن في وقت ما أنني سأصادف فناناً صغيراً يكون أسلوبه مناسباً. أنا أرفق أيضاً عقداً إيطالياً موقعاً كما ينبغي. إن تبين لاحقاً وجود أية صعوبة حول الاسترليني، أي بالنسبة إلى المقدم (السلفة) فلا تضغط عليهم. من المهم أن يترجم الكتاب إلى اللغة الإيطالية، وإذا وجدت أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا إلا بالليرة، فأستطيع أن أجد دائماً طرقاً لصرف المال في إيطاليا. في تلك الحالة أنا سأعوضك عن عمولتك. أنا سعيد جداً بسماع أخبار عن مشروع الترجمات الدانمركية والنرويجية. المرأة التي تقوم بالترجمة البولونية أكملتها كما أعتقد. ناشر بولوني في غلاسغو هو الذي سيصدرها. امرأة روسية تحاول أيضاً أن تثير اهتمام ناشرين روس متواجدين في نيويورك. أخبرتها كما في الحالة البولونية، أنني لا أريد أي مال مقابلها، لكن الغريب أنهم إن تبنوا الكتاب، فينبغي أن يكون ممكناً التخلص من بضع نسخ من الترجمة الروسية، لأن حشود من دي بي وروس آخرين لا يمكن تصنيفهم عموماً الآن في ألمانيا وفرنسا. الوصف المفصل في التايمز جيد جداً، وينبغي أن يساعد الطبعة الأمريكية إن ظهرت

قريباً جداً. أعتقد أن الناشرين مدركون لهذا. أنت ذكرت في رسالتك الأخيرة شيئاً عن إعطاء هاركورت بريس حق الاختيار على الكتب المستقبلية. إنه أمر سابق لأوانه بما أنني لا أملك كتاباً معداً جاهزاً بعد، لكن يجب أن أفكر في أن هاركورت بريس هم الأشخاص الذين أرتبط معهم بما أنهم لديهم الشجاعة لنشر مزرعة الحيوان. ربما يؤجلون الفكرة إن أخفق الكتاب في الولايات المتحدة كما يحتمل أن يحدث. أنا لست واثقاً بأن المرء يستطيع الاعتماد على فهم الجمهور الأمريكي لفحوى الكتاب ومغزاه. ربما تتذكر أن ديال بريس كانت قد طلبت مني منذ سنين مخطوطاً، لكن حين أرسلت عملاً لهم في عام ١٩٤٤ أعادوه لي وقالوا باختصار "من المستحيل بيع قصص عن الحيوانات في أمريكا". حديثاً هم كتبوا يقولون إنه "كان هناك خطأ ما"، وأنهم يودون أن يقدموا عرضاً آخر من أجل الكتاب.

أنا أرى أنهم اعتبروها مجرد قصة حيوانات في البداية. لهذا ربما تجدر الإشارة إلى غلاف كتاب للطبعة الأمريكية يبين فيه مضمون الكتاب. إن هاركورت بريس سيكون أفضل الحكام عليها.

أنا سوف أسقط كل الكتابات الصحفية لمدة ستة أشهر اعتباراً من نهاية أبريل/ نيسان، وأبدأ في كتاب جديد. لا أعتقد أنني سأنهي كتاباً في ذلك الوقت، لكنني سوف أنجز القسم الأكبر منه. سيكون الكتاب رواية، لكن أنا لا أرغب في التكلم عنها أكثر من ذلك في الوقت الحاضر.

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى ليونارد مور

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلنغتون
/لندن ن١/٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦.

عزيزي مور

شكراً جزيلاً على رسالتك المؤرخة في الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني. فكرت ملياً بعرض النيويوركر باهتمام، ولا أظن أن هناك أي شيء أعترض عليه. فقط نقطتان مريبتان ظهرتا، أي النقطة التي أشاروا إليها بـ (ج) إعادة طبع مقالاتي في كتاب تصدره النيويوركر، ومسألة "تحرير" مراجعتي النقدية. أنا لست مهتماً بإعادة طبع هذا النوع من المقالات، لأنه سيكون كتاب مراجعات نقدية بشكل كامل، ولن تكون المقالة الواحدة أكثر من ألف وخمسمائة كلمة. أنا لن أعيد طباعتها في كتاب بأقل من ألفي كلمة. لهذا أنا لا يهمني بشكل خاص إن هم اختاروا أن يشملوا أشياء من مقالاتي في مجموعات من القصاصات. حين يكون لدى المرء أي شيء يضمنه في كتاب من هذا النوع، كما يفعل المرء من حين إلى آخر، فلن يحصل على أكثر من جنيهات قليلة منه كما يبدو، وأنا لا أرى كيف يمكن توقع أي شيء غير ذلك بما أن حقوق المؤلف يجب أن تجزأ بين مساهمين متنوعين. أظن أن الأمر لا يستحق أن أسأل النيويوركر كي يحيدوا عن خبرتهم المعتادة في هذه المسألة. مسألة "التحرير" قد تكون أصعب. في تجربتي، وجدت أن المرء لا يستطيع أبداً أن يكون متأكداً من أن مادة المرء ستصل إلى المطبعة من دون تبديل في أي دورية يومية أو أسبوعية. الأوبزيرفر مثلاً، عادة تقص مقالاتي من دون التشاور معي إن كان هناك نقصاً في الدقيقة الأخيرة. في الكتابة للصحف مثل الإيفنينغ ستاندارد، لدي أشياء ليست مجرد قص وقطع وإنما تبديل فعلي، وطبعاً حتى القص دائماً يعدل الإحساس بالمقالة ويبدلها إلى حد ما. ما يهم في الحقيقة هنا، هو إن كان المرء يتعامل مع صحيفة متحضرة ذكية أم لا. ستكون النيويوركر ملزمة بالقيام ببعض القطع والقص من حين إلى آخر، ولن يكون لديها الوقت للتشاور معي كالعادة، لكنني لا أتخيل أن يقوموا بتغيير المقالات بأي طريقة، وهذا ما أعارضه بقوة. لهذا إجمالاً أعتقد أننا نستطيع أن نقبل بمقترحهم كما هو.....

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى ليونارد مور

مصح كوتسود/ كارنهام/ غلوس.
/١٧ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي مور

سوف أبعث إليك رسالة روبيرت جبرو (محرر في شركة هاركورت أند بريس) التي أرسل إلي منها نسختين.

أنا لا أستطيع الموافقة بأي شكل على نوع التبديل والاختصار المقترح. سوف يبدل كل لون الكتاب ويترك قدر كبير ضروري وجوهري للكتاب. أعتقد أيضاً أنه سوف - رغم أن الحكام الذين قرؤوا الأجزاء المقترحة للحذف يقدرون هذا- يجعل القصة غامضة وغير مفهومة. سيكون هناك أيضاً شيء خطأ بشكل مرئي مع بينة الكتاب إن قطع وقص منه الخمس أو الربع، ومن ثم أقحم الفصل الأخير إلى الجزء الرئيسي المختصر. الكتاب مبني كتركيب متوازن، ولا يستطيع المرء أن يزيل ببساطة أجزاء كبيرة منه هنا وهناك إذا لم يكن المرء مستعداً لأن يعيد صياغة الشيء كله. في حالتي، إن مجرد حذف الفصول المقترحة واختصار المقاطع من "كتاب ضمن الكتاب"، سيعني المزيد من إعادة الكتابة التي لا أشعر أنني قادر عليها ببساطة.

الشروط الوحيدة التي أستطيع الموافقة عليها في أي ترتيب كهذا، سيكون إن كان الكتاب سينشر كنسخة مختصرة، وإن تبين بوضوح أن الطبعة الإنكليزية تحتوي على فصول عدة لم تحذف. لكن من الواضح أن جماعة كتاب الشهر لا يمكن أن نتوقع منهم أن يوافقوا على شيء كهذا. كما قال روبيرت جبرو في رسالته، فإنهم لم يتعهدوا أن ينتقوا الكتاب بأي حال، لكنه يأمل بوضوح أنهم قد يفعلون ذلك، كما أظن بأن الأمر سيكون مخيباً لهاركورت بريس إن رفضت الاقتراح. وأفترض أيضاً أنك ستخسر مقداراً جيداً من العمولة. لكن أنا في الحقيقة لا أستطيع أن أسمح لعملي أن يتسكع ويتجول أبعد من نقطة ما، وأشك إن كان ذلك مجدياً مالياً على المدى الطويل. يجب أن أكون شاكراً كثيراً إن أوضحت نقطتي لهم.

المخلص لك/ إيريك بلير

رسالة إلى ليونارد مور

غرفة ٦٥/ جناح خاص/ مستشفى يو سي
/١١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٩.

عزيزي مور

أتساءل إن كنت تستطيع أن تتعامل مع الرسائل المرفقة.

أنا لاأزال ضعيفاً جداً ومريضاً، لكني أعتقد أنني أفضل بالمجمل. أنا تزوجت بصورة غير متأنية جداً هذا الأسبوع. سوف يمر وقت طويل على الأرجح قبل أن أستطيع الخروج من السرير. لكن إن كنتُ قادراً على السفر في نهاية العام، فقد اقترح الطبيب أنني يجب أن أقضي أسوأ أيام الشتاء خارج البلاد، ربما في فرنسا. سيسمحون لي بلا شك ببعض العملة، لكن ربما ليس بما يكفي. وأريد أن أنقل بعض الفرنكات إن أمكن. إذا كنت أملك أي فرنكات تعود لي (مثلاً من الترجمة الفرنسية لرواية ١٩٨٤) هل تعتقد أنك تستطيع أن ترتب لها أن تبقى في فرنسا بعد حسم عمولتك.

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى تي إس إليوت

مسودة الرسالة

عزيزي إليوت

أتساءل إن كنت تود المشاركة في برنامج يوم الثلاثاء في الثالث من نوفمبر/ تشرين الثاني. لدينا عدد مجلة واحد كل شهر يسمى "صوت"، ويدعي أنه مجلة في شكل بث إذاعي. نحن نحاول ضمن الممكن أن نأتي بشعراء يقرؤون أعمالهم. ونرتب عادة كل عدد حول موضوع مركزي، ونحن نفكر في تقديم عدد أمريكي من المجلة في المرة القادمة. أنت في اعتقادي الشاعر الأمريكي الوحيد في إنكلترا في الوقت الحاضر، لكن ربما هناك آخرون، وفي هذه الحالة يسعدني أن سمع عنهم. على أي حال نحن نحب كثيراً أن تشارك ونسمع شيئاً من أعمالك إما قصيدة واحدة أو اثنتان تستغرق قراءتها خمسة دقائق. الأشخاص الآخرون الذين يمكن أن يشاركوا هم هربرت ريد وويليام ايمبسون وأنا ومولك راج أناند، ولكننا سنحاول أن نجد بعض الكتاب الأمريكيين إن استطعنا. نرجو أن توافق إن كان هذا التاريخ ممكناً بالنسبة إليك. إنه يعني التخلي عن صباح ذلك اليوم بالذات.

المخلص لك

جو. أورويل- منتج الأحاديث في القسم الهندي.

رسالة إلى المبجل إيرويرث جونز

١١١ لنغفورد كورت / ابي رود /
لندن أن دبليو اس/ ٨ أبريل/ نيسان

عزيزي جونز. (قس من الطائفة البروتستانتية)

شكراً جزيلاً على رسالتك (رسالة طلب فيها القس الإفاضة في نقاط محددة في مقال أورويل الأسد ووحيد القرن). ربما في نقطة أو نقطتين عبرت عن نفسي بطريقة غامضة نوعاً ما، وأستطيع توضيح الأشياء أكثر بالرد على بعض من تساؤلاتك.

١ - "ستحتاج الولايات المتحدة إلى تعبئة مواردها حتى لو أجبرت الشركات الكبيرة على ذلك". تعليقك بأن المضربين هم الذين يعطلون الإنتاج. الأمر هكذا طبعاً، لكني كنت أحاول أن أنظر إلى أعمق من الإعاقة المباشرة. إن نوع الجهد الذي تحتاجه الأمة التي في حالة حرب الآن، لا يمكن توفيره إلا إذا جند العمل ورأس المال كلاهما. جوهرياً إن المطلوب والضروري هو أن يكون العمل تحت انضباط كبير كما في القوات المسلحة. هذا الحالة موجودة عملياً في جمهوريات الاتحاد السوفيتي والبلدان الديكتاتورية. لكن من الممكن إجراؤها فقط إن خضعت كل الطبقات إلى نظام صارم على السواء، وإلا سيكون هناك امتعاض واحتكاك اجتماعي يظهر نفسه في إضرابات وأعمال تخريبية. على المدى البعيد، أعتقد أن أصعب الأشخاص الذين سيجبرون، هم رجال الأعمال والتجار الذين يملكون الكثير ليخسروه بزوال النظام الحالي، وفي بعض الحالات سيكونون مؤيدين متعمدين لهتلر. بعد نقطة محددة سوف يصارعون ضد خسارة حريتهم الاقتصادية، وطالما يفعلون هذا سوف تظل أسباب اضطراب العمل موجودة.

٢- أهداف الحرب. طبعاً أنا أؤيد الإفصاح العلني لأهداف الحرب، رغم وجود خطر في التصريح بأي مخطط مفصل جداً عن إعادة البناء بعد الحرب. ومثال ذلك هتلر الذي لن يزعج نفسه في الالتزام بوعوده، وسوف يقدم عرضاً أعلى فور التصريح بأهدافنا. كل ما احتججت ضده في الكتاب كان فكرة أن الدعاية من دون إظهار للقوة العسكرية، لا يمكن أن تنجز أي

شيء. كتاب اكلاند كفاحنا الذي أشرت إليه بأنه: افترض لو أننا أخبرنا الألمان بأننا نريد سلاماً عادلاً فسيوقفون القتال. نفس الفكرة طرحت لكن في هذه الحالة ليست بنية طيبة من قبل تجمع ميثاق الشعب (بريت وشركاه) (نظم في يناير/ كانون الثاني ١٩٤١ من قبل الشيوعيين، وأسس ظاهرياً للقتال من أجل حقوق الشعب وأجور أعلى واحتياطات أفضل ضد الغارات الجوية إلخ، وصداقة مع الاتحاد السوفيتي، لكن يقول بعض المؤرخين إن هدفه الحقيقي التحريض ضد جهد الحرب). (دي أن بريت عضو برلماني عمالي، تم طرده من الحزب لخلافات سياسية. عضو برلمان اشتراكي مستقل. محامٍ مؤيد لقضايا اليسار والاتحاد السوفيتي).

٣- تمرد مؤيد للفاشيين في الهند. لم أكن أفكر بتمرد يقوم به الهنود أساساً، وإنما كنت أفكر بالجالية البريطانية في الهند. جنرال بريطاني يحاول القيام بانقلاب فاشي، استطاع أن يستخدم الهند كنقطة انطلاق كما استخدم فرانكو المغرب، وهذا طبعاً غير محتمل في هذه المرحلة من الحرب. لكن يجب أن يفكر المرء في المستقبل. إن كانت هناك محاولة لفرض فاشية صريحة على بريطانيا، فسوف تُستخدم قوات ملونة بالتأكيد تقريباً كما أعتقد.

٤- غاندي ورفض الحرب (السلمية). ربما لا ينبغي أن أشير ضمناً إلى أن السلميين دائماً هم أناس يعيشون حياة محمية كأفراد. وفي الحقيقة ينتمي السلميون "الصرف" عادة إلى الطبقات الوسطى ويكبرون في ظروف استثنائية نوعاً ما. لكن الفاشية كحركة نادراً ما توجد إلا في مجتمعات لا يشعر الناس فيها بأن الغزو الأجنبي أو الفتح شيء محتمل. لهذا السبب تتواجد الحركات الفاشية دائماً في البلدان البحرية (يوجد هناك كما أعتقد حركة سلمية مهمة في اليابان حتى).

الحكومة لا تستطيع أن تدار على سياسات سلمية صرفة، لأن أي حكومة ترفض استخدام القوة في كل الظروف، يمكن أن يطاح بها من قبل أي شخص، وحتى من قبل أي فرد مستعد وراغب في استعمال القوة. السلمية ترفض أن تواجه مشكلة الحكومة. والسلميون يفكرون دائماً كأناس لن يكونوا أبداً في وضع تحكم وسيطرة. لهذا أنا أسميهم باللامسؤولين.

ظلت حكومة الهند تنظر إلى غاندي كواحد من مساعديها الرئيسيين لمدة عشرين سنة. أنا أعرف ما أتكلم عنه -أنا كنت ضابطاً في الشرطة الهندية. كان يُعترف بأسوأ طريقة ساخرة أن

غاندي سهّل على البريطانيين أن يحكموا الهند بسبب تأثيره، حين كان القيام بأي عمل عسكري يشكل فرقاً دائماً. ولهذا السبب كانت الحكومة تعامل غاندي دائماً بهذا التساهل واللين حين يكون في السجن، وتؤخذ منه اعترافات بسيطة أحياناً. وحين يكون في واحدة من فترات صومه الطويلة الخطيرة، يصيب الضباط البريطانيين الرعب، ويخشون من أن يموت ويحل محله أحد ما يؤمن أقل بـ "قوة الروح" وأكثر في القنابل. غاندي طبعاً صادق تماماً شخصياً وغافل عن الطريقة التي يُستغل بها، واستقامته الشخصية تجعله مفيداً أكثر. أنا لن أفترض القول إن أساليبه لن تنجح على المدى الطويل. لا يستطيع المرء القول إنه بمنع العنف ومنع الملاقات من أن تسوء إلى أبعد من نقطة محددة تبين أن الأرجح أن تسوى مشكلة الهند بطريقة سلمية أخيراً. لكن من الصعب التصديق أن يخرج البريطانيون من الهند بتلك الوسائل. ومن المؤكد أن البريطانيين لا يفكرون بهذا الشكل الآن. بالنسبة إلى فتح واحتلال إنكلترا، فإن غاندي بالتأكيد سينصحنا أن ندع الألمان يحكمون هنا بدلاً من القتال ضدهم – في الواقع إنه يؤيد هذا فقط. وإذا قهر هتلر إنكلترا وهزمها، أتخيل أنه سيحاول أن يشكل حركة سلمية قومية شاملة، ستمنع أي مقاومة جدية، ولذلك يسهل عليه الحكم.

شكرا لك على الكتابة.

المخلص لك/ جورج أورويل.

رسالة إلى جون ليمان

دوريت تشامبرز/ تشاغفورد ستريت/
ايفور بليس ن دبليو١ / ٦ يوليو/ تموز.

عزيزي ليهان (شاعر وناقد ورئيس تحرير)

شكراً على رسالتيك الاثنتين اللتين وصلتا في مغلف واحد. أنا شديد الأسف لأنني لم أكتب شيئاً بعد أن وعدت بأنني سأفعل. بدأت بشيء ما، ثم بدأت الحرب تزداد خطورة. لا أستطيع أن أكتب وهذا الشيء يستمر. لم أكتب أي شيء سوى مراجعات نقدية للكتب إلخ منذ وقت طويل، ووقتي مملوء أيضاً بالمساعدة في متطوعي الدفاع المحلي. الرهيب جداً في هذا النوع من الوضع، أن تكون قادراً ألا تفعل أي شيء. الحكومة لن تستغلني بأي طاقة إنتاجية ولا حتى كاتباً في مكتب، وفشلت في الدخول إلى الجيش بسبب رئتاي. إنه شيء فظيع أن تشعر بأنك بلا فائدة، وفي الوقت نفسه ترى من كل جانب معاقين عقلياً ومؤيدين للفاشية يملؤون الوظائف المهمة. على كل حال إن الأشياء تتحرك قليلاً. لقد قيل لي في وزارة الحرب إنها لم تعد ممتعضة من رجل حارب في الحرب الأهلية الإسبانية. طبعاً يمكنك أن تستخدم مخطوط الفيل (إعدام فيل) مرة أخرى أن أحببت. جنيهان سيكونان ملائمين جداً. بالنسبة إلى الصورة التي أشرت إليها في رسالتك الأخرى، هل يجب أن تكون صورة فنية حقيقية للوجه أم مجرد لقطة سريعة خاطفة تفي بالغرض؟ أنا لست بارعاً بالتقاط الصور عادة. الصورة المرفقة بالرسالة أخذت من أجل بطاقة الهوية، وفيها شبه كبير وجيد، لكن لا أعرف إن كانت تكبّر أم لا. في حال كان من الضرورة أن أتصور فعنواني هو المذكور آنفاً في الأسبوع القادم على كافة الأحوال. أنا أعيش في لندن، لأنني الآن أكتب نقداً مسرحياً للتايم أند تايد.

المخلص لك/ جورج أورويل.

رسالة إلى ايه اس اف غاو

٢٧ كانونبيري سكوير/ لندن ن١
/١٣ أبريل/ نيسان ١٩٤٦.

عزيزي غاو (باحث كلاسيكي، أستاذ مساعد في كلية ايتون ومعلم أورويل)

من اللطيف جداً أن أسمع منك وعن أخبارك بعد كل هذا الوقت الطويل. سمعت بنفس الوقت تقريباً من (هيل أند هون- رسالتا ماجستير كتبهما جورج ليتون) من الذي كتب لي حول جيم وماغنت؟ جورج ليتون الذي يحرر الآن سلسلة للهوم أند فان تاي وأراد مني أن أكتب شيئاً ما. مع أسفي الشديد سأقول لا على الأقل في الوقت الحالي، لأنني على وشك أن أسقط كل الكتابات الصحفية والأعمال العرضية الأخرى لمدة ستة أشهر. قد أبدأ بكتاب آخر خلال هذه الفترة، وعقدت العزم أن أوقف الأدب التجاري لفترة قليلة، لأنني كنت أكتب ثلاث مقالات في الأسبوع في السنتين الماضيتين، وفي السنتين السابقتين لهما كنت أعمل في البي بي سي؛ حيث كتبت ما يكفي من النفاية (أخبار وتعليقات وهلم جرا) تملأ رف كتب. أصبحت أشبه أكثر فأكثر ببرتقالة ممصوصة، وسوف أخرج منها وأذهب إلى اسكتلندا لمدة ستة أشهر؛ حيث لا يوجد هاتف ولا الكثير من الخدمات البريدية.

لقد حدث الكثير لي منذ أن رأيتك. أنا آسف جداً لأقول إنني فقدت زوجتي قبل أكثر من سنة بقليل بشكل مفاجئ جداً وغير متوقع، مع أن صحتها كانت عادية لبعض الوقت. لقد تبنيت ولداً عمره الآن سنتين تقريباً، وكان عمره عشرة أشهر مع أمه، زوجتي ماتت. كان بعمر ثلاثة أسابيع حين تبنيناه. هو طفل ممتاز ولحسن الحظ صحته ممتازة وهو متعة عظيمة بالنسبة إلي. أنا لا أقوم بعمل كثير في الحرب، لأنني صنفت من الفئة الرابعة لكوني مصاباً بمرض يسمى توسع الشعب القصبية، وأيضا بسبب آفة في إحدى الرئتين التي لم تشخص أبداً حين كنت صبياً، لكن صحتي في الواقع كانت أفضل في السنوات القليلة الأخيرة، ويعود الفضل إلى أم أند بي. الشيء القليل من الحرب الذي رأيته عدا عن الغارات الجوية والحرس الوطني، أنني كنت مراسلاً حربياً لفترة قصيرة في ألمانيا، في الوقت الذي انهارت فيه، وكان

شيئاً ممتعاً تماماً. أنا كنت في الحرب الإسبانية لفترة قليلة، وقد جرحت في عنقي مما سبب شللاً لواحد من حبالي الصوتية، لكن هذا لم يؤثر على صوتي. كما جمعت أنت من أخبار، فقد مررت بوقت صعب بسبب كسب معاشي من الكتابة في البداية. لكن حين أنظر إلى الماضي الآن وأعرف أي جلبة هي الصحافة الأدبية، أرى أنني كنت أستطيع أن أدبر الأمر بشكل أفضل بكثير لو أنني كنت أعرف الحبال. في الوقت الحاضر، فإن الصعوبة مع كل الكتاب الذين أعرفهم هي كالتالي: في الوقت الذي أصبح فيه من السهل جداً كسب المعاش من الكتابة الصحفية والعمل في الإذاعة، بات العيش من الكتب شيئاً مستحيلاً. قبل الحرب كنا أنا وزوجتي نعيش من الكتب، لكن بعدها عشنا في الريف على دخل خمس جنيهات في الأسبوع، كانت تكفي آنذاك، ولم نرزق بطفل. في السنوات القليلة الأخيرة أصبحت الحياة مكلفة بشكل فاضح، فوجدت أن الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أكتب فيها كتباً هي أن أكتب مقالات طويلة للمجلات ثم أعيد طباعتها. لكن كل هذا العمل التجاري الذي اشتغلت به في السنين القليلة الأخيرة، كان له فائدة، لأنه أكسبني جمهوراً جديداً. وحين كنت أنشر كتاباً، كان يباع أكثر مما اعتدته في أيام قبل الحرب. أنت ذكرت فريدي ايار. أنا لم أعرف أنك تعرفه. هو صديق كبير لي. هذه المجلة الجديدة اسمها بوليمك، وقد قامت بظهورين اثنين حتى الآن، لكن لدي أمل كبير أنها ستتطور إلى شيء جيد. برتراند راسل النجم الرئيسي طبعاً في الكوكبة. كان مقتل بوبي لونجن عملاً سيئاً (ايه جيه ار. فيلسوف ألف اللغة، العقل والمنطق، كان أستاذ المنطق في جامعتي أكسفورد ولندن). (روبرت بوبي لونجن معاصر لأورويل وكونولي في إيتون. أصبح مدير مدرسة ويلينغتون قبل الحرب وقتل ١٩٤٠ بشظايا قنبلة ضربت المدرسة). أعتقد أن ويلينغتون أصبحت منورة ثقافياً جداً حين كان هو هناك. صبي ربما تعرفه اسمه مايكل ماير كان في سلاح الجو الملكي، والآن أعتقد أنه عاد إلى كامبريدج من جديد، كان في ويلينغتون وكان يعمل عند بوبي ويكنّ له احتراماً كبيراً.

سوف آتي وأزورك في المرة القادمة التي أكون فيها في كامبريدج بالتأكيد، لكن لا أعرف تماماً متى سيكون ذلك. فكرت فيك المرة الماضية التي كنت فيها منذ سنتين عندما كنت أحاضر في كلية لندن للعلوم الاقتصادية التي نقلت إلى هناك. بخصوص اسمي. أنا استخدمت اسم أورويل كاسم مستعار منذ أكثر من عشر سنوات. وأغلب الناس الذين

أعرفهم يتادونني بجورج، لكنني في الواقع لم أبدل اسمي ولازال بعض الناس ينادونني بلير. سيكون إزعاجاً إن نويت أن أبدله بشكل قانوني، إذ يجب علي أن أذهب إلى محامٍ إلخ، وذلك سيعيقني.

المخلص لك/ إيريك بلير.

ملاحظة لا نتوقع منك أن تقرأ كل الكتب التي أنتجها تلاميذك السابقون، لكني أتساءل إن كنت رأيت كتابي الأخير، مزرعة الحيوان؟ إن كنت لم تره، فيسعدني أن أرسل إليك نسخة منه. إنه كتاب قصير وربما يسليك.

رسالة إلى فينون ريتشاردز

بارنهيل/ جزيرة جورا/ ارغيلشاير
/٦ أغسطس/ آب ١٩٤٦.

عزيزي ريتشاردز (مهندس مدني وصحفي وفوضوي)

أرفق نسخة من عريضة نان ماي (الآن نان ماي عالم فيزياء نووية كان يعمل في مركز سري للبحوث، مرر معلومات عن القنبلة النووية ساعدت الاتحاد السوفيتي في تطوير قنبلته النووية. حكم بالسجن عشر سنوات) التي وقعتها، لكن ليس بلا شكوك خفيفة. أعتقد أن من الحق أن تقدم العريضة (أ) لأن الحكم كان طويلاً جداً و(ب) لأنه طالما كان التساهل مع الجواسيس المقبوض عليهم أقل فهو للأفضل، لكن لا أستطيع تجنب الشعور بشكل شخصي أن العريضة في صيغتها الحالية لم تبين الوقائع بشكل صحيح تماماً. يبدو من الواضح أن دافع نان ماي كان ببساطة أن يسلم سراً عسكرياً إلى جمهوريات الاتحاد السوفيتي وليس إلى العالم كله، فهو لم ينشر معلوماته، وإنما سلمها باليد إلى عميل استخبارات حسب ما جاء عن الشاهد في جلسة الاستماع الأولى، وأيضاً حدد موعداً لمقابلة عميل آخر لاحقاً في لندن. أنا لا أظن أبداً أنه أراد أو توقع أن ينال أجراً على ذلك، لكن بما أن الروس لم يدفعوا له شيئاً فهم يعتبرون أنهم ببساطة يشترون عينة من المعلومات، وهو يجب عليه أن يعرف أي نوع من الناس كان يتعامل معهم. يجب أن أفكر في أن النقطة الأقوى التي يجب أن يشار إليها، هي التاريخ. أنا نسيت أي تاريخ كانت، لكن ألم يحدث هذا بعد أن انتهت الحرب؟

تحياتي إلى ماري لويس. أتوقع أن أعود إلى لندن في أكتوبر/ تشرين الأول. استمتعت بأشهر عديدة مجيدة لم أقم فيها بأي عمل. ريتشارد بصحة ممتازة وبدأ يتحدث قليلاً.

المخلص لك/جو. أورويل.

رسالة إلى آرثر كيسلر

٢٧ ب كانونبيري سكوير/
ايزلينغتون/ لندن ن١/ ١٩٤٦.

عزيزي آرثر

رأيت باربارا وارد (اقتصادية وكاتبة سياسية ناشطة في الحرية الفردية والحقوق المدنية، عرفت لاحقاً بالليدي جاكسون) وتوم هوبكنسن (مؤلف وصحفي مشهور بآرائه الليبرالية واليسارية - رئيس تحرير بيكتشربوست) وأخبرتهما عن مشروعنا. (في أواخر عام ١٩٤٥ شعر كل من أورويل وكيسلر بوجود انحدار في الشعور الديمقراطي في كل أرجاء العالم، ودعيا إلى تشكيل منظمة دولية مشابهة لعصبة حقوق الإنسان التي تشكلت قبل الحرب. أهدافها حماية الأفراد بغض النظر عن بلدانهم ومنع الاعتقال التعسفي والحبس من دون محاكمات ومنع ترحيل الأشخاص من أوطانهم ومنع تقييد الحركة ضمنها، وتعزيز حرية التعبير والصحافة وحق كل فرد في الترشح للمنصب والتصويت للمرشح الذي يختاره. الأسماء المقترحة للمنظمة الجديدة: عصبة الدفاع عن تطوير الديمقراطية والعصبة من أجل حرية الإنسان وكرامته). كانا خائفين قليلاً، والسبب الرئيسي برأيي هو أن منظمة من هذا النوع ستكون عملياً معادية للروس أو سوف تجبر أن تصبح معادية للروس، وهما سوف يمران بطور حاد من معادة التأمرك. لكنهما متلهفان لسماع المزيد، وبالتأكيد هما ليسا عدائيين نحو الفكرة. أنا قلت إن الخطوة التالية ستكون أن أريهما نسخاً من مسودة البيان أو مهما كانت حين توضع المسودة. أتساءل إن كنت رأيت برتراند راسل، وإن حدث ذلك ماذا قال. أنا لا أشك أن هذين الاثنين سيساعداننا على تمرير أفكارنا وإيصالها إلى أناس آخرين، لكن في مرحلة ما ربما يكون من المفيد أكثر الاتصال مع هولتون شخصياً، وهذا أمر بمقدوري أن أقوم به. (ناشر ذو آراء ليبرالية ومالك بكيتشربوست). لم أكتشف أي شيء هام حول عصبة حقوق الإنسان. لا أحد لديه الكثير عنها في ملفاته كما يبدو. كل ما استطعت أن أكتشفه هو أنها مازالت موجودة في فرنسا، وأنها كانت موجودة في ألمانيا إلى عهد هتلر. لهذا يفترض أنها كانت منظمة دولية. يوجد شيء ما عنها في كتاب إتش جي ويلز صليب انساتا (الذي لم أستطع الحصول عليه)، لهذا من المحتمل أنه كتب مسودة إعلان حقوق الإنسان الذي يثرثر ويلز به دائماً. لكن أنا

متأكد أنه قبل الحرب بسنوات أصبحت منظمة ستالينية، كما أتذكر بشكل واضح، وأنها رفضت التدخل لصالح التروتسكيين في إسبانيا، أو بقدر ما أتذكر لم تفعل أي شيء بخصوص محاكمات موسكو. لكن ينبغي على المرء أن يتأكد من صحة كل هذا. أتمنى أن تكونوا بخير. أنا مشغول جداً كالعادة. تناولت طعام الغداء مع نيغرين قبل يوم أمس، لكني لم أستطع الحصول على معلومات كثيرة منه. (جوان نيغرين رئيس وزراء إسبانيا في الطور الأول من الحرب الأهلية الإسبانية بعدها أسس حكومة في المنفى). لم أنجح أبداً في أن أراه لوحده. لكن مازلت أشعر وأنا واثق من ذلك أنه ليس رجل الروس كما نسب إليه أثناء الحرب الأهلية. على كل حال، أنا لا أعتقد أن هذا يشكل فرقاً كبيراً، كما أنني أخشى عدم وجود فرصة كبيرة لعودة نيغرين حين يرحل فرانكو. سأتناول طعام الغداء أيضاً مع بيفربروك الأسبوع القادم. وإن توفرت الفرصة وتكلمت معه على قدم المساواة، فسوف أسأله عن ستالين، فهو أخيراً رآه عن قرب عدد من المرات.

الناشر الفرنسي الذي وقع عقداً لترجمة مزرعة الحيوان، شعر بخوف شديد، ويقول إنها مستحيلة "لأسباب سياسية". من المؤسف فعلاً التفكير في شيء مثل الذي يحدث في فرنسا من بين كل بلدان العالم. على كل، أنا أخمن أن أحداً ما سيخاطر وينشرها. هل أخبرتك أنني أصلحت وثبتّ الطبعة الأمريكية؟ كتاب المقالات يطبع الآن ويقولون إنهم لا يستطيعون إجراء تبديلات في النص، لكن سوف يدخلون قسيمة طباعية على الأقل بخصوص القضية الألمانية أو الإنكليزية. (أوضح التصحيح في كتاب المقالات **مقالات نقدية** في مقال أورويل عن "آرثر كيسلر" أن كتب كيسلر الأولى كُتبت باللغة الألمانية).

من فضلك بلّغ تحياتي لماميان (زوجة كيسلر). ريتشارد الآن بصحة جيدة (ابن أورويل بالتبني). سيلا أتت على موعد الشاي يوم الثلاثاء ورأته وهو يستحم. (الأخت التوأم لزوجة كيسلر).

المخلص لك/ جورج.

ملاحظة. أنا لم أشكرك قط من أجل إقامتنا. لدي نوع من النهي حول ذلك، لأنني كطفل علموني أن أقول "شكراً لك على استضافتي" ويبدو لي هذا التعبير بغيضاً جداً.

رسالة إلى آرثر كيسلر

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلينغتون
/لندن ن١/ ١٣ أبريل/ نيسان/ ١٩٤٦.

عزيزي آرثر

أنا أعود إلى مذكرة ستيفن كينغ هول التي قرأتها باهتمام (القائد ستيفن كينغ هول تقاعد من البحرية بعد سيرة بحرية مميزة عام ١٩٢٩ وثم أصبح عضو برلمان قومي مستقل. يميني وصريح). مررت لديفيد أستور الاقتراح بأنك قد تعمل قطعتين في الشهر من أجل الأوبزيرفر. أعتقد أنهم سيفرحون ويوافقون على ذلك. اقترحت لديفيد أنه من الضروري أن يكتب لك أحد من الأوبزيرفر الآن. (المبجل ديفيد أستور رئيس تحرير الأويزيرفر، التقى بأورويل في بداية الحرب وظلا صديقين إلى وفاة أورويل).

بالنسبة إلى نادي الشعراء وكتاب المسرح والروائيين، فقد استلمت رسالة روتينية من ديزموند مكارثي يسألني الانضمام إليه (ديزموند مكارثي أديب وواحد من أكثر النقاد المتنورين والمبهجين والطيبين. رئيس تحرير النيوستيتسمان أند نيشن). هو يمتلك في الحقيقة الوقاحة للإشارة إلى ذلك الكتاب المفزع **حرية وتعبير** الذي نشروه السنة الماضية (كتب أورويل مراجعة نقدية لكتاب **حرية وتعبير** الذي أعده هيرمان أولد في التريبيون، وهذه المراجعة نشطت مقالة أورويل "منع الأدب"). يجب أن أرسل إليه قصاصة من المراجعة النقدية التي كتبتها للكتاب في ذلك الوقت. حتى لو سألوني أن أصبح شيئاً في اللجنة التنفيذية، فأنا لا أستطيع أن أعمل ذلك النوع من العمل. إنه عبارة عن رمي وقت المرء وقدراته في بالوعة المصرف. بأي حال كما تعرف أنا راحل خلال الصيف كله، وسوف أفر من كل هذا. كل من يأتي إلي يريدني أن ألقي محاضرات أو أكتب كتيبات بناءً على الطلب أو أن أنضم إلى هذا أو ذاك إلخ- أنت لا تعرف كيف أتوق إلى التحرر منها كلها وأوفر الوقت لأفرّ مرة ثانية.

تحياتي لماميان.

المخلص لك/ جورج

رسالة إلى آرثر كيسلر

٢٧ ب كانونبيري سكوير/ ايزلينغتون
/لندن ن١/ ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٧.

عزيزي آرثر

أنا أفكر بلاجئ أوكراني اسمه ايهور سيفشينكو ربما كتب لك-أخبرني أنه كتب ولم يحصل على ردّ بعد. هو يريد أن يعرف إن كان يستطيع أن يترجم بعضاً من كتاباتك إلى اللغة الأوكرانية من دون أن يدفع مالاً طبعاً، ويوزعها بين الأشخاص المهجرين الأوكرانيين المطرودين من بيوتهم، التي تبدو الآن أنها تمتلك تجهيزات طباعية خاصة بها داخلة في المنطقة الأمريكية في بلجيكيا. أخبرته أنك ستفرح أن تنتشر كتاباتك وسط المواطنين السوفييت، ولن تلح من أجل مكافأة مالية والتي لا يستطيع هؤلاء الناس دفعها. لقد أنجزوا ترجمة أوكرانية لمزرعة الحيوان، وظهرت مؤخراً، وكانت طباعة جيدة ومعقولة ومظهرها جيد، وبقدر ما يمكنني الحكم من مراسلاتي مع سيفيشنكو، فقد كانت الترجمة جيدة. لقد سمعت للتو منهم أن السلطات الأمريكية في ميونيخ استولت على ألف وخمسمائة نسخة وسلمتها إلى الناس الأسرى السوفييت العائدين إلى الوطن، لكن تبين أن حوالي ألفي نسخة وزعت بين الأشخاص المطرودين من بيوتهم أولاً. إن قررت أن تسمح له ببعض من كتاباتك، فأعتقد أنك يجب أن تتعامل مع الأمر كقضية ثقة وسر، وألا تخبر الكثير جداً من الناس عن هذا الهدف بما أن الأمر برمته محظور تقريباً.

سألني سيفيشنكو في الوقت نفسه إن كان لاسكي سيوافق أن يترجم (سيفيشنكو) بعضاً من أعماله (هارولد جيه لاسكي منظر سياسي ماركسي ومؤلف وصحفي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة لندن، وعضو في المؤسسة الفابية، وعضو في اللجنة التنفيذية لحزب العمل، وله صلة بمدرسة لندن للعلوم الاقتصادية) (من الواضح أنهم يحاولون الحصول على نماذج تمثل الفكر الغربي). أخبرته أن يتجنب لاسكي، وألا يدع شخصاً من ذلك الأنموذج بأي شكل من الأشكال يعرف أن طباعة محظورة في اللغات السوفييتية تجري في مناطق الحلفاء.

لكنني أخبرته أنك شخص يمكن الثقة به. أنا واثق بأننا يجب أن نساعد هؤلاء الناس بكل ما نستطيع، وأنا قلت وأقول دائماً منذ عام ١٩٤٥ إن الأشخاص المطرودين من بيوتهم كانوا فرصة سعيدة غير متنظرة لإسقاط الجدار بين روسيا والغرب. إن كانت حكومتنا لا ترى هذا، فيجب على المرء أن يعمل ما يستطيع بشكل شخصي وسري. سوف أكون في لندن أثناء نوفمبر/ تشرين الثاني، ولكني سوف أقضي الشتاء هنا، لأنني أعتقد أنه سيكون أسهل علي أن أبقى دافئاً (فحم أكثر إلخ) ولأنني أريد أن أبدأ بروايتي التي أعمل عليها. أتمنى أن أنهيها في الربيع القادم تقريباً، وأنا لن أعمل الكثير غيرها في الوقت الحالي. لقد كنت في حالة صحية بائسة لمدة طويلة من السنة الماضية -صدري كالعادة- بدأ معي في الشتاء الماضي. لكننا نشعر براحة تامة هنا، والوضع من ناحية الطعام أفضل من الوضع في لندن. ريتشارد يكبر بشكل ضخم. تحياتي إلى ماميان.

المخلص لك/ جورج.

رسالة إلى آرثر كيسلر

لندن ١٦ مارس/ آذار ١٩٤٦

عزيزي آرثر

كنت مريضاً خلال هذا الأسبوع (شيء غامض يدعى التهاب معدة، يعني أن هناك خللاً في بطني- أفترض لو كان الألم رأسك لسموه التهاب رأس هلم جرا) وقد برحت السرير للتو. بينما كنت في السرير مريضاً، زارني أمريكي يدعى هينسون، وأخبرني عن منظمة أمريكية مشابهة جزئياً لخطوطنا التي يجب أن ننضم إليها كما هو واضح. أرفقُ ورقة بمفكرتهم، ويمكنك أن ترى من يرعاها ونسخة أيضاً من المذكرة عن العلاقات الأنغلوأمريكية التي تركها معي. الغرض من اللجنة الدولية للإنقاذ والإغاثة كما فهمت، هو مساعدة ضحايا الأنظمة الشمولية وخصوصاً في قضايا مثل إعطاء الإغاثة للناس المعوزين ومساعدة اللاجئين للخروج من الأراضي التابعة للأنظمة الشمولية إلخ. أعتقد أنها منظمة غير ستالينية بالتأكيد، ويعرفون كل شيء عن الأساليب الستاليتية إلى درجة أن الناس الذين يساعدون أغلبهم هم من التروتسكيين إلخ. ويبدو أن هناك موارد مالية ضخمة تحت تصرفهم، ولذلك هم قادرون على أن يساعدوا الناس بطريقة قوية.

إن فرانسيس هنسون أمريكي (مات ١٩٦٣) وأحد ممثلي لجنة الإنقاذ والغوث الدولية في أوروبا. في ١٩٤٩ كان مدير التعليم لعمال السيارات المتحدين. استنتجت نوعاً من ارتباط ضعيف مع أي آر آر سي، لكنه كان يقول إن الستالينيين أو رفاق السفر غير مستثنين تماماً من تلك، وسألني عن منظمتنا، وأخبرته بالمدى الذي وصلت إليه ومن كان متزاملاً معها. هو مهتم جداً للحصول على أي تفاصيل عن اجتماعنا في عيد الفصح. سيرى أناساً متنوعين من حزب العمال قبل ذهابه إلى باريس. استنتجت أنه سيكون في باريس لبعض الوقت، ويمكن الكتابة إليه على العناوين المرفقة. من الواضح أن هؤلاء هم الناس الذين يجب أن نبقى على تواصل وثيق معهم، لأننا في نفس الشارع تقريباً. أخبرته أنه حالما يكون لديّ أي شيء واضح، فسوف نخبر المثقفين الأمريكيين والمعلقين، وأعطاني عنوانين اثنين لم أعرفهما. أحدهما بيرترام

وولف (كاتب وباحث أمريكي من كتبه: دييغو ريفيرا، ثلاثة صنعوا ثورة، روزا لوكسمبورغ والثورة الروسية)، والثاني بيرت جوليس الذي ربما لا تعرفه، ولكنه يفكر مثلنا تقريباً. أضفت عنوان فيكتور سيرج (روسي الأصل فرنسي التبني، واحد من أكثر المثقفين الشيوعيين الأوائل، ومؤلف لما يزيد عن عشرين كتاباً. معارض يساري في روسيا ومراسل للبيوم في الحرب الإسبانية) كما سمعت منه مؤخراً. أفترض أنك أو أحداً ما بدأ بتضبير العناوين المناسبة. من الواضح أننا يجب أن تكون لدينا قوائم شاملة للمتعاطفين في كل البلدان. لن أكتب المزيد، لأنني مازلت أشعر بالمرض.

رسالة إلى آرثر كيسلر

٣١ مارس/ آذار ١٩٤٦

أرفق لك رسالة من أشخاص من الاي آر آرسي الذين كتبت لك عنهم من قبل ومعها نسخة من نشرتهم. القسم الذي عن جيني لي ومايكل فوت غامض نوعاً ما، ولم أتأكد ماذا يريدني أن أفعل، لكن أرجو أن أرى جيني لي غداً وأتكلم معها عن ذلك. مايكل في طهران. أعتقد أنني سأرى مالوري براون يوم الأربعاء، وسأخبره بإلغاء اجتماع عيد الفصح. هل أخبر أحد مايكل؟ أظن أن كوخي في جارا سيكون جاهزاً في مايو/ أيار، وأنا أرتب لإرسال أثاثي إليه في نهاية أبريل/ نيسان، ومن ثم إن كان كل شيء على ما يرام، فسأذهب إلى هناك في مايو/ أيار. إن فشل أي شيء، فسأذهب إلى مكان آخر. لكن في كل الأحوال سأغادر لندن، ولن أكتب أي شيء لشهرين. أنا متعب ومنهك تماماً. ريتشارد في أحسن حال ونشيط، لكنه مازال لا يتكلم. لقد حصلت للتو على كتاب للعالم الذي كلمتك عنه جون بيكر. هو واحد من الناس الذين يجب أن نراسلهم ونخبرهم حين تكون لدينا طلبات جاهزة. يمكنه أن يكون مفيداً أيضاً في إخبارنا عن علماء آخرين لا يميلون إلى الشمولية. وهذا مهم، لأنهم ككيان خاضعون للعادات الشمولية في التفكير أكثر من الكتاب، ولديهم هيبة شعبية أكبر. همفري (هوغ سليتر. رسام ومؤلف وشيوعي سابق) تغلب على وادينغتون (عالم أحياء ومهتم بالسياسة وتطبيق العلوم لغايات اجتماعية) الذي هو قضية مشوشة وصعب تصنيفه، وإن كتب مقالة للبوليمك فهي نقلة جيدة، لأنها ستظهر في نفس العدد الذي نفتح فيه وابل نارنا ضد المودرن كورترلي (تأسست عام ١٩٣٨ وهدفت إلى إعادة تقييم اجتماعية وواقعية للفنون والعلوم، وكرست اهتماماً خاصاً بالدراسات المؤسسة على التفسير المادي للكون) لكنها لسوء الحظ كانت مقالة سيئة.

الحب لمامیان.

الطقس ربيعي جميل أخيراً والنرجس في كل مكان. في كل شتاء جديد أجد صعوبة أكبر في الاعتقاد بأن الربيع سيأتي فعلاً.

المخلص لكم جورج

رسالة إلى رئيس تحرير تايم أند تايد

٢٢ يونيو/ حزيران ١٩٤٠.

سيدي

من شبه المؤكد أن إنكلترا ستتعرض إلى غزو في الأيام والأسابيع القليلة القادمة من قبل قوات محمولة بحراً على الأرجح. في وقت كهذا يجب أن يكون الشعار سلحوا الشعب. لست كفؤاً للتعامل مع أسئلة أكبر عن صد الغزو، لكن الحملة في فرنسا والحرب الأهلية الأخيرة في إسبانيا وضحتا حقيقتين اثنتين. الأولى حين يكون السكان المدنيون عزلاً، لا يستطيع المظليون والدراجون والدبابات الضالة القيام بدمار مخيف فحسب، بل يجبرون قطعات كبيرة من الجنود النظاميين الذين يفترض بهم صد العدو الأساسي على التراجع والانسحاب إلى الداخل. الحقيقة الثانية، اتضح من الحرب الإسبانية أن فوائد تسليح المدنيين تفوق خطر وضع السلاح في الأيدي الخطأ. أظهرت الانتخابات الفرعية منذ بدء الحرب، أ، أقلية قليلة جداً من الشعب الإنكليزي غير متعاطفة، وأغلب هؤلاء عرفوا وحددوا.

سلحوا الشعب: عبارة غامضة بحد ذاتها، وأنا لا أعرف طبعاً ما هي الأسلحة المتوفرة للتوزيع الفوري، لكن هناك أشياء كثيرة على أي حال يجب فعلها الآن خلال الأيام الثلاثة التالية:

١- القنابل اليدوية: إنها السلاح الوحيد الذي يمكن تصنيعه بسرعة وسهولة وهو الأكثر نفعاً. مئات الآلاف من الرجال في إنكلترا اعتادوا على استعمال القنابل اليدوية، وهم مستعدون جيداً لتعليم الآخرين. لقد قيل إنها مفيدة ضد الدبابات وستكون ضرورية إن نجح مظليو العدو في تثبيت أنفسهم في بلدات كبيرة. لدي رؤية ممتازة في قتال الشوارع في برشلونه في مايو/ أيار ١٩٣٧ أقنعتني بأن الرشاشات تستطيع شل حياة مدينة كبيرة. ولأن الطلقة لا تخترق حجارة الجدران العادية فيمكن تفجيرها بالمدفعية. لكن ليس من الممكن دائماً أن تجلب مدفعاً وتحمله. من جهة أخرى تبين من قتال الشوارع السابق في إسبانيا أنه يمكن طرد الرجال المسلحين من الأبنية الحجرية بالقنابل اليدوية أو بأصابع الديناميت حتى، إن استخدمت بالشكل الصحيح.

٢ - بنادق الرش: هناك حديث عن تسليح بعض جماعات الدفاع الوطني الطوعي بهذه البنادق. قد يكون هذا ضرورياً إن احتاج جنود الجيش النظامي إلى كل البنادق وبنادق برن. في تلك الحالة يجب أن يتم التوزيع الآن، ويجب أن تصادر كل الأسلحة فوراً من محلات صنع الأسلحة. راجت أحاديث عن تنفيذ ذلك، لكن في الواقع لا تزال واجهات محلات الأسلحة تعرض صفوفاً من البنادق وهي خطر حقيقي؛ إذ يمكن أن تتعرض هذه المحلات إلى غارات بسهولة. كما يجب أن تشرح قدرات ونقائص بندقية (مع الخردق الكبير المدى القاتل حتى ستين ياردة) للجمهور بواسطة الراديو.

٣- سد الحقول بوجه هبوط الطائرات: هناك حديث كثير لكن لم يتم فعل سوى القليل وبشكل عشوائي، لأن الأمر ترك للجهد التطوعي، أي للناس الذين ليس لديهم الوقت أو القدرة على مصادرة المواد اللازمة. في بلاد صغيرة مأهولة جداً بالسكان مثل إنكلترا نستطيع خلال بضعة أيام أن نجعل من المستحيل لأي طائرة أن تهبط في مكان عدا المطارات. العمل هو كل المطلوب. لذلك يجب أن يمتلك المسؤولون المحليون السلطات لتجنيد العمل ومصادرة المواد التي يحتاجونها.

٤ - طلي أسماء الأماكن العامة بالدهان. لقد تم ذلك بإشارات الطرق، لكن لا تزال هناك واجهات المحلات وعربات الحرفيين التي تحمل أسماء مناطقهم. يجب أن تمتلك السلطات القوة لفرض طلائها على الفور، ويجب أن يشمل أسماء مخامر الجعة في المقاهي العامة. أغلب هذه الأماكن محصور في منطقة صغيرة، والألمان دقيقون تماماً في هذا.

٥ - محطات اللاسلكي. يجب أن يكون لكل مركز قيادة من قوات الدفاع المحلي التطوعي محطة استقبال لاسلكية خاصة به، يمكنها تلقي الأوامر في حالات الضرورة. من الخطأ المميت الاتكال على الهاتف في الحالات الطارئة. بالنسبة إلى الأسلحة، يجب ألا تتردد الحكومة في مصادرة ما تحتاجه منها.

كل هذه الإجراءات يمكن تنفيذها في غضون أيام قليلة. وفي الوقت الراهن، نكرر القول سلّحوا الشعب، على أمل أن تزداد الأصوات التي تتبنى ذلك. للمرة الأولى منذ عقود لدينا حكومة ذات مخيلة (في ١٠ مايو/ أيار سقطت حكومة تشامبرلاين، وأصبح ونستون تشرشل رئيساً للوزراء على رأس حكومة ائتلافية) وهناك فرصة على الأقل أن تصغي.

رسالة إلى إف تينسون جيسي

لندن، ٤ مارس/ آذار ١٩٤٦.

عزيزتي الآنسة تينيسون جيسي، (روائية وصحفية بريطانية)

أنتِ تسألين عن معرفتي ببورما. إنها معرفة قديمة، لكنها من النوع الجيد. لقد كنت في الشرطة الإمبريالية في بورما من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٧ لهذا أنا أعرف من الداخل القليل عن عمل حكم بلاد من ذلك النوع. أنا أيضاً أعرف كيف كان الأوروبيون يتصرفون. ومما استطعت تعلمه من البورميين ومن معارفي الإنكليز أنهم لم يتحسنوا كثيراً في السنوات الأخيرة. في كتابكِ لم تقولي شيئاً عن استغلالنا السياسي للبلاد وعن الطريقة التي نحصل فيها على النفط والمواد الخام، مقابل جزء بخس مما ستكلفه لو كانت بورما دولة مستقلة. كما أنك لطّفت سوء السلوك الاجتماعي السيئ والفظ للبريطانيين، والخلاف الذي سببه خلال فترة طويلة. بالنسبة إلى أعداد الطابور الخامس البورمي، فأنا لا أرى أن الرقم خمسة آلاف قريباً من الحقيقة بأي شكل، رغم أني أؤمن جيداً أن العدد أقل من العدد الذي نقل في الأخبار في ذلك الوقت. إن صفة الرسمية على الرقم خمسة آلاف لا تعطيه أي مصداقية إضافية، بل على العكس فالمسؤولون عن الإدارة يقللون أعداد المعارضة بشكل طبيعي. منذ ١٩٣١ كان قتال العصابات المتقطع يحدث في بورما، وشمل أعداداً من الناس أكبر من ذلك، وقد جرى الاعتراف خلال حملة عام ١٩٤٢ أن هناك عدداً كافياً من البورميين يعملون مع اليابانيين ليؤثروا على القضية العسكرية بدرجة ما. لدي أقوال وروايات لشخصين كانا في بورما آنذاك. كل الإدارة في البلاد انهارت ببساطة في وجه تهديد جدي. وكان من المحتمل التكهن قبل سنين بأن هذا سيحدث. لقد عاملنا بورما أفضل مما عاملنا بعض البلدان الأخرى، لكن في المجمل إنها قصة قذرة، ويجب على كل من يريد أن يكتب كتاباً عن بورما، أن يبدأه بهذا القول. هل قرأت قط روايتي عن بورما (أيام بورمية)؟

أخمن أنها غير مستقيمة بطريقة ما، وغير دقيقة في بعض التفاصيل، لكن أكثرها تقرير ووصف لما رأيته.

المخلص لك جورج أورويل.

رسالة إلى إف تينسون جيسي

١٤ مارس/ آذار ١٩٤٦.

عزيزتي الآنسة تينيسون جيسي.

أنا مريض وطريح الفراش، ولهذا لم أستطع أن أرد على رسالتك في وقت أسبق. وحتى الآن لا أستطيع أن أكتب رسالة مناسبة وصحيحة. أعتقد أنك لم تفهمي قصدي، فهو لم يكن الذي قلتيه عن البريطانيين في بورما، وإنما الذي لم تقوليه. لا يستطيع أحد أن يستنتج من كتابك أن البريطانيين فعلوا أي شيء أسوأ من كونهم كانوا أغبياء قليلاً، وأحيانا اتبعوا سياسات خاطئة. لم تذكري شيئاً عن النهب والاستغلال الاقتصادي للبلاد من خلال كونسيرنات مثل شركة بورما للنفط، ولا عن السلوك الاجتماعي البريطاني المقرف الذي لم ينته إلا مؤخراً. أنا أعرف شيئاً عن هذا. بمعزل عن الوقت الذي أمضيته هناك، لدي علاقات عائلية مع البلاد لأكثر من ثلاثة أجيال. جدتي عاشت أربعين سنة في بورما، وفي النهاية لم تستطع النطق بكلمة بورمية واحدة –وكانت مثالاً أنموذجياً لموقف المرأة الإنكليزية العادية.

المخلص لك جورج أورويل.

رسالة إلى رئيس تحرير النيوز كرونيكل

غرانهام/ غلوسسترشاير

أناشدكم للوقوف إلى جانب الجمهوري الإسباني إنريكي ماركو نادال المحكوم بالإعدام في إسبانيا. لقد أسره الإيطاليون حين انهارت الحكومة الإسبانية في عام ١٩٣٩ ثم أسره الألمان في ١٩٤٤-٥ بعد قتاله مع الفرنسيين.

دخل إسبانيا مرة أخرى بشكل سري بعد الحرب، وحكم عليه بالإعدام من دون محاكمة. ربما لم يفعل أي شيء يشكل جريمة قانونية في أي بلد ديمقراطي.

جورج أورويل
النيوزكرونيكل ٣ مارس/ آذار ١٩٤٩.



رسالتان إلى رئيس تحرير التريبيون

[عند قراءة "رسالة لندن" التي كتبها أورويل.. أنا زيلاياكوس أرد عليه بالرسالة التالية.] (سياسي وكاتب كراريس ومؤلف كتب ذات مواضيع سياسية، عضو برلمان عمالي، مؤيد ومتطرف للسوفييت).

أرسل إلي صديق في الولايات المتحدة نسخة من البارتيزان ريفيو (المجلد الثامن العدد الثالث صيف ١٩٤٦) يتضمن "رسالة لندن" بقلم السيد جورج أورويل، عبر فيها عن ذعره واستيائه من الأذى الذي ربما لحق بسياسية السيد بيفن الأجنبية المجيدة من قبل المعارضة، التي نعتها أعضاء برلمان شيوعيين سريين -أي أعضاء برلمان انتخبوا كرجال من حزب العمال، ولكنهم في السر عبارة عن شيوعيين "سريين" مثل زيلاياكوس في البرلمان، و"متعاطفين" مثل بريستلي في الصحافة.

شيء دنيء حتى بالنسبة إلى رجعي (توري) أن يشوه سمعة عضو برلماني عمالي في الصحافة الأمريكية، لأن ذلك يطعن في نزاهة البرلمان نفسه بشكل غير مباشر. يبدو لي شيئاً خسيساً من السيد أورويل أن يفعل ذلك، فمن المفترض أنه يؤيد حزب العمال.

بما أنه رأى من اللائق تشويه سمعة العمال المعادين لسياسة بيفن -تشرشل الخارجية الأجنبية علانية بشكل عام وأنا بشكل خاص، فأغنى أن تسمحوا لي أن أفضحه بلفت الانتباه إلى مقالته، وأن أسأله بضع أسئلة.

هل السيد أورويل متأكد من أنني عضو سري في الحزب الشيوعي؟ أنا لست عضواً في الحزب الشيوعي، ولم أكن أبداً عضواً في الحزب الشيوعي، وسأعتبره شيئاً مخزياً أن تكون عضواً سرياً في أي حزب أو منظمة، وهي عضوية لا تنسجم مع عضوية حزب العمال. أنا فخور من حقيقة أنني انضممت إلى حزب العمال حين سرحت من الجيش بعد الحرب العالمية الأولى منذ ٢٨ سنة تقريباً، وبقيت فيه، وعملت من أجله دائماً بعد ذلك في الظروف الجيدة والرديئة على السواء.

بالنسبة إلى كوني "متعاطفاً موثوقاً" مع الحزب الشيوعي، فإن قراء التريبيون قد يتذكرون كيف شجبت بقسوة دخول الحزب الشيوعي في المعارضة التي وقفت ضد الحرب (وأيضاً نقدي اللاذع لمعاهدة الصداقة وعدم الاعتداء السوفييتية الألمانية حين كنت أفكر أنني يميني. وواصلت الاعتقاد بذلك، إلى أن رأيت دليلاً معاكساً لذلك أي أن آخرون مثله يسلكون سياسة لا تفرق إلا بصعوبة عن سياسة الحزب الشيوعي، أي أنهم في النتيجة عملاء دعاية للاتحاد السوفييتي في هذه البلاد، وأنهم حين تبدو المصالح السوفييتية والبريطانية تتصادم، فسوف يؤيدون المصلحة السوفييتية. أنا لا أستطيع أن أثبت هذا أمام محكمة قضائية أكثر مما استطعت أن أثبت قبل الحرب أن الكنيسة الكاثوليكية متعاطفة مع الفاشية. أنا أستنتج هذا فقط من الخطابات والكتابات وأفعال سياسية أخرى للسيد زيلاياكوس وجماعته، وبشكل خاص جهودهم الحثيثة لإقناع الجمهور في هذه البلاد أن أنظمة الدمى الحاكمة في أوروبا الشرقية هي ديمقراطيات. إن لم يكن زيلاياكوس "متعاطفاً موثوقاً" للحزب الشيوعي، فدعوه يظهر هذا في أفعاله. يجب أن أقول إن رسالته هذه تؤيد نظريتي نوعاً ما. وإذا كان ما قلته غير صحيح بشكل واضح، فلماذا انفعل وغضب كثيراً منه؟ مؤخراً وجدتُ نفسي أُوصفُ على صفحات مجلة أمريكية بأنني فاشي. أنا لم أكتب رسالة أشجب هذا كـ "تشويه سمعة" لأن رأيه السياسي لا يهم ولا يعار أي اهتمام. لماذا لا يشعر السيد زيلاياكوس نفسه بأنه قادر بالتساوي أن يهمل الإيحاء بأنه هو نفسه "عضو سري"؟

إن السيد زيلاياكوس شوّه ما قلته في البارتيزان ريفيو، وجعل الأمر يبدو وكأنني مؤيد ساذج لسياسة بيفن الخارجية، وأنني اعتبرها وربما وصفتها بـ "المجيدة" حتى. في الحقيقة أنا كتبت تنويهاً مختصراً فقط حول السياسة الخارجية في المقالة المشار إليها، والنقطة الرئيسية التي أشرت إليها أنه كانت إذا نجح "الأعضاء السريون" في شق حزب العمال، فسيكون المستفيدون هم الرجعيين (التوريين). يبدو أن السيد زيلاياكوس يفكر في أنه من "الخسة" و"الحقارة" وهلم جرا، أن تكيل اتهامات ضد عضو برلماني بريطاني في صحافة دولة أجنبية. لماذا؟ عضو البرلمان شخصية عامة ولناخبيه كل الحق للتعليق، وأنا أكون وكأني أتهرب من واجبي في "رسائل لندن" إلى البارتيزان ريفيو، إن لم أقل بالضبط ماذا أفكر بالرجال القادة لهذه البلاد. في رسالته الحالية يدعي السيد زيلاياكوس بوجود "تحالف بيفن تشرشل من تحت

الطاولة" هل سيتردد في تكرير هذا الاتهام في نيويورك أو من أجل تلك المسألة في موسكو؟ وإن كان الجواب لا، فلماذا يجب عليّ أن أمتنع من التعبير عما يدور في ذهني حول المجموعة المعروفة بـ "الأعضاء السريين"؟ عند النظر إلى "رسائل لندن" وتفحصها خلال أربع سنوات، أجد إشارات وصلات على الأقل مساوية للعدائية ضد اتلي وتشرشل وبيفربروك وهاليفاكس إلخ، لكني لم أر السيد زيلاياكوس في تلك المناسبات يهبّ للإنقاذ على أساس أنني كنت "أشوه سمعة البرلمان". هل يتخيل أنه وأفراد جماعته الصغيرة يظنون أنه يجب أن يكون معفياً ومستثنى بشكل خاص من النقد؟ أم هل هو تحت تأثير الانطباع بأنه يستطيع إخافتي وإسكاتي؟ دعوه يتأكد أنني سوف أواصل جهودي في الرد على الدعاية الشمولية الاستبدادية في هذه البلاد.

من جانب آخر، لو بدل آراءه في أي وقت، وأصبح مرة ثانية مؤيداً للديمقراطية، فسأكون واحداً من أوائل الذين سيلاحظون هذا، وبالتأكيد سوف أكون مستعداً للاعتراف به وقبوله.

جورج أورويل. لندن ن١.

رسالة إلى ستافورد كوتمان

٢٧بي كنتونبيري سكوير/ ايزلينغتون
لندن ن١/٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٦.

عزيزي ستاف (موظف في الحكومة المحلية، ثم انضم إلى حزب العمال المستقل. قابله أورويل في إسبانيا، وهو رقيب في سلاح الجو الملكي أيضاً).

شيء لطيف جداً أن أسمع منك. لم أعرف أنك مازلت في سلاح الجو الملكي. ثق وابحث عني في لندن حين أكون هنا (إن كنت تعرف رقم الهاتف ستجدني دائماً) لكني قريباً سأرحل لمدة ستة أشهر. لقد قمت بكتابة الكثير من المقالات الصحفية التجارية في السنين العديدة الماضية، وقررت أن أتوقف عن ذلك قليلاً -لمدة شهرين، أقصد ألا أفعل أي شيء، ثم بعدها ربما أبدأ بكتاب آخر. لكن على أي حال لن أكتب للصحافة حتى الخريف القادم.

لقد كنت أكتب ثلاث مقالات في الأسبوع لمدة سنتين، بالإضافة إلى كل الهراء الذي كتبته لمحطة البي بي سي لمدة سنتين قبل ذلك. تخليت عن البيت الريفي الصغير في هيرتفوردشاير، وأخذتُ بيتاً آخر في جزيرة جورا في الهيبريدز، وأتمنى أن أذهب إلى هناك في العاشر من مايو/ أيار تقريباً إذا وصل أثاثي في ذلك الوقت. إنه مكان يصعب الوصول إليه، لكنه بيت جميل. وأعتقد أنني أستطيع أن أجعله مريحاً جداً ببعض العناء. وبعدئذ سيكون لدي مكان ظريف أعتكف فيه بين الحين والآخر بلا إيجار تقريباً.

ابني الصغير الذي أعتقد أنك لم تره أبداً، أصبح عمره الآن سنتين وهو نشيط بشكل مفرط، وهذا أحد الأسباب التي تجعلني متشوقاً للخروج من لندن في فصل الصيف. كان في شهره العاشر حين ماتت إيلين. كان موتها عاراً بغيضاً -لقد أرهقت بعمل شاق لسنين كثيرة، وكانت في صحة بائسة، ثم بدت الأشياء تتحسن وحدث ذلك. إن الشيء الوحيد الذي لم نتوقعه في اعتقادي، أن يحدث أي خطأ في العملية الجراحية. ماتت نتيجة المخدر عندما أعطوه لها مباشرة تقريباً. كنت في فرنسا في ذلك الوقت، لأن لا أحد منا توقع أن تكون العملية

خطيرة جداً. أعتقد أن الطفل كان صغيراً جداً ليفقدها ويشتاق إليها، وقد ازدهر في صحته وكل شيء آخر. لدي ربة منزل جيدة تعتني به وبي.

في اليوم قبل الماضي، صادفتُ بادي دونوفان في طريق ايجوير. يعمل في وظيفة تنظيف النوافذ، وقال إنه سيتلفن لي لكنه لم يفعل بعد. كان رائعاً في ألمانيا في وقت عبور الراين. لا تنسَ أن تتلفن لي إن كنت في البلدة في الخريف القادم.

المخلص لك/ إيريك بلير.

رسالة إلى السير ريتشارد ريز

كرانهام/ ٢٨ يناير/ كانون ثاني ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

فكرت ملياً بما قلت، ويبدو لي إذا لم يُرد بيل بشكل واضح، فسيكون من المؤسف جداً أن يقطع علاقته مع بارنهيل التي وضع كثيراً من العمل فيها. إن نقل المخزن سيكلف قدراً كبيراً من المال. ومن جانب آخر، فإن بيعه والبدء من جديد، سيشكل خسارة على الأرجح. كان يجب أن أفكر بأن آل فليتشرز (يملكون الطرف الشمالي من جزيرة جورا وأجّروا بارنهيل لأورويل) المهتمين في إبقاء نورث ايند تحت الحراثة، ربما يستطيعون تدبير شخص يدير أمور البيت لبيل أثناء الشتاء. اقترحت على أفريل إن كانت تريد ذلك فيمكنها أن تقيم هناك، وأنا سأقوم بترتيبات من أجل ريتشارد ومن أجلي أثناء أشهر الشتاء. بقدر ما يهمني، يجب أن أكون آسفاً جداً، لأنني لم أكن قادراً على أن امتلك بارنهيل كمكان لي خلال فصل الصيف. أغلب أثاثي وكتبي هناك الآن، والحديقة تقريباً تحت السيطرة، ويمكن أن يعاد تنظيمها كي لا تحتاج إلى الكثير من العمل. من جانب آخر ليس لدي شك بأنني يجب أن أعيش حياة بطالة في فصول الشتاء من الآن فصاعداً. في البداية طبعاً أخذنا المكان كمنزل صيفي، وكانت فكرتي أن نمضي فصول الشتاء في لندن. والشيء غير السار نهائياً هو أن العمل المستمر في المزرعة يعتمد تقريباً على حضورنا، علماً أننا لسنا مزارعين. وأشعر بالحزن لأن صحتي يجب أن تتعارض مع هذا. يجب أن أعتبرها ترتيباً ممكناً أن يعيش بيل مع روسغاس (حرثوا المزرعة الصغيرة التي تقع إلى الشمال من بارنهيل) إن اتفق هو وهم، وإذا أخذ أبقاره الحلوبة إلى هناك. خطر لي أن على روسغاس أن يدفع من أجل إقامته، وهذا ربما يهدئهم ويدفعهم إلى التفاهم إن حققا مكسباً قليلاً من الصفقة. وأنا لن أعترض على أن أساهم بشيء من أجل هذا كل أسبوع. أنا أؤيد الحفاظ على استمرار المؤسسة وعلى أن تبقى نورث ايند مأهولة. يمكنك أن تخبرني عن رأيك في كل هذا. لا تنسَ أنني أدين لك بمبالغ من المال. من أجل وديعة الشراب وسجادة ووسادتين ولا شك من أجل أشياء أخرى نسيتها. من الأفضل أن نستقر قبل أن تختلط الأمور كثيراً. كان علي أن أساهم بـ ٢٥ جنيهاً من أجل الشاحنة.

يبدو الناشر الأمريكي متشوقاً جداً حول كتابي، لهذا سوف يتابعون من دون أن ينتظروا البروفات الطباعية من وربيرغ. هذا سوف يعني مجموعتين من البروفة الطباعية يجب تصحيحهما. أنا لا أعتقد أنها سوف تظهر، لكن إن حدث هذا فأنا أشعر بتوعك كبير وغير كفء لتصحيح البروفات الطباعية. فهل تعتقد أنك تستطيع فعل ذلك من أجلي؟ بما أن هناك الكثير من الألفاظ الجديدة، فمن الضروري أن يكون هناك أخطاء مطبعية كثيرة من النوع الغبي، والمنضدون الأمريكيون يتضايقون جداً من التعامل معها لأنهم يظنون دائماً أنهم يعرفون أفضل من المؤلف. أنا لن أثق بالناشرين أو وكلائهم ليقوموا بهذه المهمة. ومن جانب آخر لا أتوقع أن يكون هناك أكثر من هفوات قليلة جداً. من الأهمية البالغة ألا يكون هناك أخطاء مطبعية في كتاب من هذا النوع. لكن كما قلت لا أتخيل أن هذا سوف يظهر. كنت أشعر بتحسن ولم أعانِ من ارتفاع في الحرارة الآن، لكنني لا أعرف كم هو مقدار التقدم الذي حققته بما أنني لم أزن نفسي بميزان أو أجري أي فحص شعاعي منذ المرة الأولى. هذه المادة تجعلني أشعر بالغثيان، لكنها من جانب آخر لا يبدو أن لها تأثيرات ثانوية، وهم هنا يعتنون بالمرء بشكل جيد جداً، لكن الأطباء لا يهتمون كثيراً. أنا لم أر الطبيب الرئيس الدكتور هوفمان قط، والطبيب الآخر امرأة تطل كل صباح ببساطة وتسأل كيف أشعر، ولم تستخدم سماعة الطبيب أبداً. على كل حال، أعتقد أنهم يعرفون أفضل منا. حين أكون قريباً مرة ثانية، أعتقد في هذا الصيف، فسوف أرى أخصائياً في لندن، وإن أمكن سيكون الرجل الذي رأيته قبل الحرب. هم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لك، لكنني أريد رأي خبير لأعرف كم من الوقت يحتمل لي أن أعيش، لأنني يجب أن أرسم خططي بناءً على ذلك.

أرفق ملاحظات من المجلة الروسية ترجمها ستراوس. لا تضيعها. هل ستفعل. لأنني لا أملك نسخة. حتى مع السماح لجور ممكن في الترجمة، فيجب ألا يفاجئك أن هناك شيئاً غريباً حول لغة الأدب الشمولي الاستبدادي -نوع غريب متشدق بالمساواة كما لشخص يختنق من الهياج ولا يستطيع أبداً أن يجد الذي يريده؟ أتمنى أن تكون قادراً على قراءة هذا. الكتابة اليدوية السيئة تعود إلى يدي الباردتين. لقد ازداد البرد بعد أن كان الجو لطيفاً بشكل لا يصدق لبضعة أيام. أنا دافئ تماماً في السرير، لأنني أملك بطانية كهربائية حارة، وهي أفضل بكثير من قارورة المياه الحارة.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

مصحة كوتسولد/ كرانهام/ غلوس.
/ ٤ فبراير/ شباط ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

أرفق شيكاً بما أدين به لك. سوف تلاحظ أنني أضفت ثلاثة جنيهات. هل تتكرم أن تطلب من تاجر النبيذ خاصتك أن يرسل إلي قارورتين من شراب الروم اللتين أعتقد أن سعرهما سيكون حوالي ذلك. أفترض أنه سيصرهما ويغلفهما كي لا تتكسران.

سمعت من أفريل التي تقول إنها وبيل يعتقدان أن الأفضل الانتقال إلى مزرعة في البر الرئيسي. أعتقد أنهما محقان، لكن لا أستطيع تحاشي الشعور بالسوء حولها، بما أنني أشعر أن صحتي هي العامل العاجل والمندفع، ولكن حالة الطريق تساعد بشكل جيد. أعتقد أنك ستكون متهوراً إن تغرق نقوداً أكثر في أي تحسينات غير قابلة للنقل إلخ، لأن هكذا مكان قد يكون من طبيعته أن يصبح الدفاع عنه متعذراً في وقت ما. أنا واثق من أنه سيكون من الممكن أن ننتقل من دون أن نبيع المستودع ونخسر في الصفقة. أخشى أن تكون النقلة الفعلية عملية بغيضة. أنا سأتغيب عنها عندما تحدث. طلبت من أفريل أن تخبر روبين أنه إذا لم يعثر على مستأجر يحرث المكان، فإنني أحب أن أستمر في عقد إيجار البيت. أنا لا أرى لماذا لا يجعلها مكاناً للإجازات الصيفية. والمرء يستطيع أن يترك أسرّة وفرش التخييم هناك. طبعاً أنا لن أكون قوياً بما يكفي من أجل هذا النوع من الشيء ثانية أبداً حتى في فصل الصيف، لكن الآخرين ربما يكونون كذلك، والأجرة هي شيء لا يذكر تقريباً.

أنا أقرأ آخر كتاباً لبرتراند راسل الآن عن المعرفة الإنسانية. (المعرفة الإنسانية: مداها وحدودها)

هو اقتبس شكسبير "أشك أن تكون النجوم ناراً، وأشك أن تكون الأرض تتحرك" وتتابع كما أظن "أشك أن تكون الحقيقة أكذوبة، لكني لا أشك أبداً بأنني أحب" لكن هو يجعلها "أشك أن الشمس تتحرك" ويستخدم هذا كمثال عن جهل شكسبير. هل ذلك

صحيح؟ أنا لدي فكرة أنها كانت "الأرض"، لكني لا أملك كتب شكسبير هنا، ولا أستطيع أن أتذكر حتى أين وردت أبيات الشعر (يجب أن تكون في إحدى مسرحياته الكوميدية كما أعتقد). أتمنى أن تتأكد من صحة هذا من أجلي إن استطعت أن تتذكر أين وردت. بالمناسبة، أنا أرى أن المطبعة الروسية وصفت بي آر (برتراند راسل) بالذئب في سترة عشاء وبهيمة برية في ثياب فيلسوف.

أنا لا أعرف حقاً إن كنت سأهتم جداً بذلك الكتاب عن ورق اللعب إلخ. سمعت من ذلك الفتى من قبل، لكني لا أستطيع أن أكون مهتماً بالتخاطر، إلا إذا أمكن تطويره إلى طريقة موثوقة. كنت أقرأ أوروبا الأولى (تاريخ عصور الظلام) كتاب ممتع جداً، رغم أنه كتب بطريقة مضجرة نوعاً ما. لأنني لم أجلب مخزوني من الكتب في الأسبوع الأول أو الأسبوعين إلى هنا، فقد اضطررت إلى أن أعتمد على المكتبة -في الواقع ليست بالسوء الذي توقعته - تجد نوعاً من روائي طبيعي مثل ايه اس أم هتشينسون وأيضاً بيتر تشيني الذي من الواضح أنه انتعش من كتبه، كما اعتدت كثيراً أن أحصل على دعوات منه من أجل حفلات ممتازة في دورتيشستر. أرسلت بطلب بعض من روايات هاردي، وأنا أنظر إليها بلا تحمس نوعاً ما.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام/ ٣ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً جزيلاً لك على رسالتك مع القصاصات التي أظنها قد أعطت عرضاً جيداً لسياسة الحزب الشيوعي. أنا دائماً لا أوافق، لكن حين ينهي الناس بقول إنهم يستطيعون مقاتلة الشيوعية والفاشية أو مهما يكن، فقط إذا طورنا عصبية مماثلة ومعادلة. يبدو لي أن المرء يهزم المتعصب بالضبط بألا يكون متعصباً مثله، وذلك باستخدام المرء لذكائه بنفس الطريقة التي يستطيع الرجل فيها أن يقتل نمراً لأنه لا يحب النمر، ويستخدم دماغه لاختراع بندقية لا يستطيع أي نمر أن يخترعها. بحثت عن المقطع في كتاب راسل. إذاً إن نقض عبارة "بعض" هو دائماً عبارة "كل"، فإنه يبدو لي أن النقض لعبارة "بعض الرجال بلا ذيل" ليس "كل الرجال لهم ذيول" وإنما "كل الرجال بلا ذيول". يبدو أن راسل في تلك الفقرة يستشهد بأزواج من العبارات واحدة منها غير صحيحة، لكن من الواضح أن تكون هناك بالضرورة حالات كثيرة حين تكون كل من "بعض" و"كل" صحيحتين ماعدا أن "بعض" تقليل للقيمة وتبسيط لها. لهذا "بعض الرجال بلا ذيول" صحيحة إلا إذا ضمنتها أن بعض الرجال لهم ذيول. لكنني لا أستطيع أبداً أن أتبع ذلك النوع من الشيء. إنه نوع الشيء الذي يجعلني أشعر أن الفلسفة يجب أن يحرمها القانون.

لقد رتبت الأمور لأكتب مقالاً عن إيفلين واو. لقد قرأت كتابه المبكر عن روسيتي وأيضاً **سرقة تحت القانون** (عن المكسيك). أنا الآن أقرأ حياة جديدة لديكنز بقلم هيسكث بيرسون، ويجب عليّ أن أكتب له مراجعة نقدية. (**ديكنز: الشخصية والكوميديا والسيرة**). إنه ليس جيداً تماماً. لا يبدو أن هناك حياة مثالية لديكنز -رغم أنه منحرف وجائر. أنا أعتقد فعلاً أن كتاب كينغزميل هو الأفضل (**الرحلة الوجدانية: حياة تشارلز ديكنز**). أنت كنت محقاً حول كتب هكسلي (**قرد وجوهر**)- إنه رديء. وهل لاحظت أنه كلما ازداد قداسة كلما كانت كتبه تغرق في الجنس أكثر. هو لا يستطيع أن ينفك عن طرح

موضوع جلد النساء بالسياط. ربما لو كانت لديه الشجاعة لخرج وقال إن هذا هو الحل لمشكلة الحرب. إن أخذناها بقليل من السادية الخصوصية التي أخيراً لا تتسبب بالكثير من الألم، ربما نحن كنا لا نريد أن نسقط القنابل إلخ. قرأتُ أيضاً بعد سنوات كثيرة تيس أوربيرفيل وجود الغامض (لأول مرة) تيس هي الأفضل كما أتذكر وعرضياً مسلية تماماً في أماكن لا أظن أن هاردي كان قادراً عليها.

يقول الدكتور أنني سوف أبقى في السرير لمدة شهرين آخرين، أي حتى شهر مايو/ أيار.

لهذا أعتقد أنني لن أخرج إلى الخارج فعلياً حتى يوليو/ تموز. على أي حال، أنا أعرف أنني لن أرى الصغير ريتشارد. أنا خائف جداً من ابتعاده المتزايد عني، أو أن يكون رأيه بي أنني مجرد شخص مستلقٍ في السرير دائماً ولا يستطيع اللعب. طبعاً، الأطفال لا يستطيعون أن يفهموا المرض. اعتاد أن يأتي إلي ويقول "أين أذيت نفسك؟" - أظن أن هذا هو المبرر الوحيد الذي استطاع أن يفهمه لوجودي الدائم في السرير. لكن من جانب آخر فأنا لا أعترض على وجودي هنا، وأنا مرتاح ويُعتنى بي بشكل جيد. أشعر أنني أفضل بكثير صحياً وشهيتي أفضل أيضاً. (بالمناسبة أنا لم أشكرك لإرسال ذلك الروم. هل دفعت لك الثمن الكافي الذي يستحقه؟) أتمنى أن أبدأ بعمل جدي ما في أبريل/ نيسان. وأعتقد أنني أستطيع أن أعمل بشكل جيد هنا بما أن المكان هادئ ولا توجد معيقات كثيرة. أناس مختلفون أتوا لزيارتي، وأنا نجحت في البقاء متزوداً بالكتب بشكل جيد. على عكس ما قاله الناس إن الوقت يبدو سريعاً جداً حين تكون في السرير والأشهر تمر مسرعة من دون أن يظهر منها سوى الأزيز.

المخلص لك/ إيريك/ انكاونتر ١٩٦٢.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام/ ١٦ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

أتمنى أن يسير كل شيء بشكل جيد معك. سمعت مرة أو مرتين من بارنهيل وأشياء بدت لي أنها ازدهار ملائم. أفريل تقول إن بيل سوف يزرع حوالي أكر من اللفت. إيان مككيتشني هناك في الوقت الحاضر، يعمل على الطريق، وفرانسيس بويلي قام ببعض العمل في الحديقة. اقترح بيل أننا يجب أن نبيع الأبقار الحلوبة بما أن بعضاً من أبقاره سوف تلد، وسيكون هناك فائض من الحليب وطبعاً سوف توفر متسعاً أكبر في الزريبة. من جانب آخر، توجد مسألة التراكب، لهذا اقترحت الاحتفاظ بواحدة في ايارشاير. القارب في حال جيد كما يبدو، وقد ذهبوا به إلى كرينان. أفريل تقول إنها اكتشفت حول النقود، أي أنها فهمت أنك تستطيع أن تشتري حلويات بها، لهذا أتوقع أنه من الأفضل أن تبدأ بإعطائه مصروف جيب علماً أنه لا يملك الفرصة لإنفاقها في الوقت الحاضر. عرضياً، إن الحصول على مصروف جيب سيعلمه أيام الأسبوع ربما. لقد شعرت بتحسن في صحتي لكنهم طبعاً لن يتركوني ولو بالحلم. أغلب الوقت كان الطقس جميلاً كما لو كان ربيعاً. كنت أقرأ كتب إفلين واو المبكرة (عن روسيتي وواحداً أو اثنين آخرين) لأني تعهدت بكتابة مقال عنه للبارتيزان ريفيو. أيضاً فهناك كتاب حياة ليست جيدة جداً لديكنز بقلم هيسكث بيرسون الذي يجب أن أكتب له مراجعة نقدية. أيضاً قرأت من جديد إسرائيل زانغويل أطفال الغيتو الذي أعتقد أنه كان أفضل من الآخر. أنا لا أعرف ماذا كتب أيضاً، لكن أعتقد أنه كتب الكثير. أعتقد أنه روائي جيد جداً لم ينل حق قدره، لكن ألاحظ الآن أن لديه مسحة قوية جداً من الصحافة اليهودية من النوع الممل نوعاً ما. أرسلت بطلب مفكرة ماري باشكيرتسيف التي لم أقرأها أبداً، وهي الآن تحدق بوجهي كمجلد ضخم ومرعب قليلاً. أنا لم أر كتاب كيسلر الجديد الذي أعتقد أنه لم ينشر إلا في الولايات المتحدة. لكن أعتقد أنني سأرسل في طلبه. أعلن أن كتابي سيظهر في الخامس عشر من يونيو/ حزيران. سيكون كتاب الشهر للإيفنينغ ستاندارد الذي أعتقد أنه لا يعني شيئاً بشكل خاص.

هل نزعت سجل الثياب؟ (انتهى تخصيص الثياب لنظام الحصص في ١ فبراير/ شباط ١٩٤٩). رد فعل أي أحد هنا كان نفسه- "يجب أن تكون مصيدة". طبعاً الثياب الآن توزع بالسعر. أعتقد أنا سأطلب لنفسي سترة جديدة رغم كل شيء.

المخلص لك/ إيريك

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام/ ١٨ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

أنا آسف لأنني لم أرد مباشرة على رسالتك السابقة. إن تقرضني بعض المال فهذا لطف وكرم كبير منك، لكن حقيقة أنا لا أحتاجه. أنا مرتاح تماماً لبعض من الوقت القادم. الشيء الوحيد الذي يقلقني حول وضعي المالي، هو احتمال أن أصبح مثل بعض الناس هنا، أي أن أكون قادراً على أن أبقى حياً، لكني غير قادر على العمل. على كل، هذا غير محتمل جداً. بخصوص سؤالك الآخر، فأنا لم أفكر كثيراً بكتاب سليتر (المتآمر). يبدو لي أنه روتيني وميكانيكي، وأظن كما فعلت أنت أن مادة الجنس كانت خارج مكانها وبذوق رديء. أنا حقيقة أظن أن هذه عادة حديثة لوصف الجماع بالتفصيل، شيء ستنظر إليه أجيال المستقبل كما نفعل نحن على أشياء مثل موت نيل الصغير.

ليس لدي أي مبرر للظن بأن هناك من يعبث برسائلي. في مناسبة واحدة منذ عشر سنوات، فُتحت رسالة لي فعلاً من قبل الشرطة، لكن كان ذلك لأنها معنونة إلى ناشر باريسي كانت كتبه ممنوعة بالجملة. أخبرني أناس آخرون أحياناً أنهم يظنون أن رسائلهم كانت تفتح. وفي إحدى المرات حاولت أن أخترع مغلفاً لا يمكن فتحه من دون أن يصبح ذلك ظاهراً. لكن أنا لا أظن بوجود أي مبرر للاعتقاد أن الحزب الشيوعي له أي يد في ذلك النوع من الشيء، أو أي سلطة للوصول إلى رسائل الناس.

شكراً لإرسالك الهاي ويه (هاي ويه مجلة تصدرها جمعية العمال التعليمية، فيها مراجعة نقدية بقلم ج م كامبرون لمقالة لفلاديمير ويدلي مأزق الفنون). أعتقد أن المقالة جيدة تماماً، لكنني لم أفكر كثيراً في كتاب ويدلي حين حاولت أن أقرأه في وقت ما سابق–في الحقيقة بدا لي أنه ورّط نفسه بفوضى.

أتى روبرت ويلر بزيارة قصيرة بعد ظهر هذا اليوم. (مزارع يعيش قرب كرانهام طلب منه السير ريتشارد ريس أن يزور أورويل). لقد كان في سويسرا.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام/ ٣١ مارس/ آذار ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً جزيلاً لك من أجل رسالتك. أرسلت معها نسخة من البارتيزان ريفيو مع المقالة التي تكلمت لك عنها. اف دي أرسلها سابقاً. وأظنها ستثير اهتمامك. لكنني كنت تحت تأثير الانطباع بأنك تفهم البارتيزان ريفيو. سيليا كيروان كانت هنا قبل أمس وسوف ترسل نسخة من ذلك العدد من البوليمك الذي فقدته والذي فيه المقال الذي كتبته عن تولستوي. إنه في الحقيقة يرتبط مع المقالة التي كتبتها عن غاندي. نعم يجب أن يدبر لي أحد هذه القضية بشكل مقبول. لقد كتبت وصيتي كما ينبغي بمساعدة محامٍ، ثم حينما أردت أن أقوم ببعض التعديلات، أعدت كتابتها بنفسي. وأظن أن المسودة الثانية غير قانونية رغم توقيع الشهود عليها. هل لديك محامٍ في أدنبره؟ أنا فقدت الاتصال مع المحامين الذين أعرفهم في لندن. من المهم أن تضبط الوصية بشكل لائق ودقيق، وأيضاً لأتأكد حول وضع ريتشارد لأن هناك اختلافاً قانونياً نسيت ما هو في حالة الطفل المتبنى. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن أحدث الملاحظات التي تركتها لك حول كتبي أي حول الطبعات اللاحقة.. إلخ. حين عادت أفريل من البلدة، جلبت صناديق ملفات مكتوب عليها "شخصي" التي أعتقد فيها كل المادة اللازمة. هل تعتقد أنك حين تكون في بارينهيل ستستطيع أن تراجع هذه الملفات وترسل إلي الأوراق اللازمة. أريد وصيتي، أي الوصية الثانية المؤرخة في بداية عام ١٩٤٧ كما أعتقد. إن الملاحظات التي تركتها لك والمذكرة المعلمة بـ "مقالات يعاد طبعها" بحاجة إلى تحديث. من المهم أن تكون سلطاتك واضحة، أي يجب أن يكون لك القول الأخير حين يتم توريط أي قضية أدبية محددة. مثال. جماعة كتاب الشهر الأمريكي على الرغم أنهم لم يتعهدوا في الحقيقة وإنما شبه تعهدوا أن يختاروا كتابي الحالي، إن استطعت أن أستأصل ربعه تقريباً. طبعاً أنا لن أفعل هذا، لكن لو أنني مت في الأسبوع الماضي، فسيقفز مور والناشرون الأمريكيون من الفرح بالعرض ويدمرون الكتاب، حتى أنهم لن

ينتفعوا من ملكيتي كثيراً، لأنه كلما كسبت مبلغاً كبيراً، فأنت في صنف الضريبة الإضافية، وستؤخذ كلها منك مرة ثانية.

لقد كنت في وضع صحي رديء جداً، وكنت أبصق كميات من الدم. هذا لن يسبب بالضرورة أي ضرر. وفي الحقيقة قال الدكتور مورلوك الاختصاصي الذي ذهبت إليه قبل الحرب، إن البصاق قد يقوم بعمل جيد حتى، لكنه دائماً يوهن عزيمتي ويثير اشمئزازي ويشعرني بالكآبة. لا يوجد شيء محدد جداً يستطيعون فعله من أجلي. هم يتحدثون عن إجراء عملية "صدر"، لكن الجرّاح لن يتولاها لأنه يجب أن تملك رئة واحدة سليمة، وهذا ما لا أملكه. من الواضح أن الشيء الوحيد الممكن فعله هو أن ألتزم الهدوء. إن قلقي هو أرى الصغير ريتشارد، لكن ربما أستطيع أن أرتب له أن يزورني لاحقاً بطريقة ما. إن نهضت من الفراش في هذه السنة، فأريد أن آخذه في رحلة إلى لندن.

المخلص لك/ إيريك

سامحني على هذه الكتابة. لقد منعوني من استخدام الآلة الكاتبة في الوقت الحالي لأنها متعبة.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

٨ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

ظننت أنك تود أن تعرف أنني تلقيت برقية تقول إن نادي كتاب الشهر اختار روايتي أخيراً، بالرغم من رفضي إجراء التغييرات التي طلبوها. هذا يبين أن الفضيلة هي مكافأة نفسها، أو أن الصدق هو أفضل سياسة، لقد نسيت أيها. أنا لا أعرف إن كنت أخيراً سأنهي أموري بأرباحي الصافية، لكن بأي حال هذا يجب أن يسدد متأخرات ضريبة الدخل التي عليّ.

طلبت من مكتب البرقيات في المصحة أن يبلغ المجلات التي تعهدت لها بمقالات، وقلت إنني غير مؤهل للقيام بأي عمل، وهذه هي الحقيقة.

لا تنكد على الآخرين كثيراً جداً بهذا، لكن الواقع أنني في طريق سيئ في الوقت الحاضر. سوف يجربون الستريبتومايسين مرة ثانية. وقد طالبتهم سابقاً أن يجربوه، واعتبره السيد ديك هذه الفكرة بأنها فكرة جيدة. كانوا يخشون منه بسبب آثاره الثانوية، لكنهم يقولون الآن إنهم يستطيعون إبعاد هذه الآثار إلى مدى ما مع النيكوتين أو شيء ما. وفي أي حال يستطيعون دائماً أن يوقفوه إن كانت النتائج سيئة جداً. إذا سارت الأمور بشكل سيء -طبعاً نحن نأمل أنها لن تكون كذلك لكن على المرء أن يستعد للأسوأ- سوف أسألك أن تجلب لي ريتشارد الصغير ليراني قبل أن يصبح مظهري مخيفاً جداً. أعتقد أنه سوف يزعجك أقل مما يزعج أفريل، وقد يكون هناك صفقات عمل نتحدث حولها أيضاً. إن اشتغلت المادة كما يبدو، كما في المرة السابقة، فسوف أهتم هذه المرة بأن أحافظ على التحسن بممارسة نمط حياة عاجزة في بقية السنة.

نسيت أن أقول إنني أتمنى أن تلقي نظرة على كتبي في وقت ما وترى أنها لم تتعفن جداً (طلبت من أفريل أن تشعل ناراً من وقت إلى آخر من أجل ذلك الغرض) وأن تكون المجلات

التي في الرف السفلي في حالة منظمة نوعاً ما. أريد أن أحتفظ بكل المجلات الموجودة هناك لأن في بعضهن مقالات لي ربما أريد أن أعيد طبعهن. الكتب تتكدس هناك، وأنا سوف أرسلها إلى البيت في وقت ما، لكنني لا أستطيع أن أقسمها في رزم في الوقت الحاضر.

حبي للجميع

إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً على رسالتك. كانت صحتي في نوع من الصعود والهبوط، لكن بالمجمل أنا في حال أفضل كما أعتقد. مازلت غير قادر على أن أضع أي خطط، لكني تحسنت. أما في فصل الشتاء تقريباً، فقد رأيت أنها لن تكون فكرة سيئة أن أسافر إلى مكان ما إلى الخارج. وقد اقترح علي الصحفي أرلاندو (لا أدري إن كنت تعرفه فهو يكتب للأوبزيرفر أحياناً) كابري كمكان جيد للإقامة. يبدو أن فيها طعاماً جيداً ونبيذاً. وصديقي سيلوني يعيش هناك أيضاً، وسيكون قادراً على أن يرتب لي مكاناً ما أقيم فيه. على أي حال، هذا شيء يستحق التفكير فيه جيداً. جاء آل تاوني قبل يوم أمس. أظن أنهم سيعودون إلى لندن فوراً تقريباً، لهذا أخشى أنني لن أراهم مرة ثانية. بالنسبة إلى عيد ميلاد ريتشارد الصغير، سوف تحاول إينز هولدن أن تجلب لي الآن واحدة من الآلات الكاتبة الخاصة بالأطفال التي تراها في الإعلانات، إن لم تكن غالية جداً جداً. أعتقد أنه إذا استطاع أن يمتنع عن تحطيمها، ستكون مفيدة له حين يبدأ بتعلم الأحرف بشكل جدي، وسوف تبعده أيضاً عن آلتي الكاتبة. أخذ آل تاوني كتابك وسوف يرسلونه إليك. حين تأتي بريندا، فسوف أجعلها ترتب بعض الرزم لي وأرسل بعض الكتب التي تتكدس بشكل مخيف إلى البيت. مازلت لا أستطيع القيام بأي عمل. يوماً ما سوف آخذ قلماً وورقة وأحاول أن أكتب بضعة أسطر، لكن هذا مستحيل. حين تكون في هذه الحالة، تكون تحت تأثير الانطباع أن دماغك يعمل بشكل عادي حتى تحاول أن تضع الكلمات معاً، ومن ثم تجد أنك اكتسبت نوعاً من الثقل البغيض والخرق، بالإضافة إلى العجز عن التركيز لأكثر من بضع ثوانٍ. أنا أقرأ **رحلة السيد سبونج الرياضية** التي لم أقرأها من قبل. أنا لا أعتقد أنها بجودة **هاندلي كروس**. كما قرأت مؤخراً **دوريت الصغيرة** مرة جديدة لأول مرة منذ سنين كثيرة. إنه كتاب ممل بطريقة ما، لكنه يحتوي على شخصية مصقولة، هي شخصية ويليام دوريت التي لا تشبه تماماً أغلب شخصيات ديكنز. أحد ما في الولايات المتحدة نجح في إرسال نسخة لي من كتاب غيسنغ **شارع غراب جديد** أخيراً. لا تضيّع **النساء الغريبات**، لن تفعل.

المخلص لك/ إيريك.

رسالة إلى السير ريتشارد ريس

كرانهام لودج/ كرانهام/ غلوسستر
/٢٨ يوليو/ تموز ١٩٤٩.

عزيزي ريتشارد

شكراً جزيلاً لك على رسالتك والقصاصات. هل تعتقد أنك تستطيع أن تجعل السيد روبرتس يصنع لي خزانة كتب بنفس الأبعاد، ولكن أن يكون العرض خمسة أقدام إن كان يستطيع تدبر ذلك. إن حدث كما أفترض، فلتكن من الخشب الأبيض. وأفترض أنه يجب أن تبقع أو تطلى بأي لون فهذا لا يهمني، بيد أنها إن طليت باللون البيج فإنه سيكون اللون الأفضل. سأكون ملزماً كثيراً إن استطعت أنت أن تجعله يفعل هذا ويرسلها إلى بارنهيل.

أعتقد أنك سوف تجد في بارنهيل واحدة من روايات تشارلز ويليامز اسمها مكان الأسد أو شيء قريب من ذلك من منشورات غولانكس. هو غير مقروء تماماً، وواحد من هؤلاء الكتاب الذين يستمرون في الكتابة وليس لديهم فكرة عن الاختيار. أعتقد أن استحسان إليوت له يجب أن يكون طائفياً بكل معنى الكلمة (أنغلوكاثوليكي). لم يفاجئني أن أعلم أن إليوت استحسن سي إس لويس أيضاً. كلما رأيت أكثر، شككتُ أكثر إن كان الناس قد أطلقوا حقيقة أحكاماً جمالية قط. كل شيء يحكم عليه لأسباب سياسية، ثم يُعطى قناعاً جمالياً. فمثلاً حين لم يستطع إليوت أن يرى أي شيء جيد في شيلي أو أي شيء سيئ في كيلينغ، كان السبب الخفي الحقيقي الذي يجب أن يكون هو أن الأول من النوع الراديكالي المتطرف، والآخر من النوع المحافظ التقليدي. لكن من الواضح أن لدى المرء ردود أفعال جمالية، وخصوصاً بما أن الكثير من الفن وحتى الأدب محايد سياسياً، وأيضاً لوجود معايير محددة واضحة، مثال: هومر أفضل من إدغار ولاس.

ربما الطريقة التي يجب أن نضعها فيها: كلما كان المرء واعياً ومدركاً لانحيازه السياسي، كلما استطاع أكثر أن يكون مستقلاً عنه. وكلما زعم المرء أكثر أنه سيكون حيادياً، كلما كان انحيازه أكثر.

حظيت ألف وتسعمائة وأربعة وثمانون بمراجعة نقدية جيدة في الولايات المتحدة، لكن طبعاً مع بعض من الدعاية التي تجعلك تخجل. سوف يسعدك أن تسمع أن مزرعة الحيوان ترجمت إلى اللغة الروسية أخيراً في صحيفة في فرانكفورت. أنا أحاول أن أرتب لها أن تكون في شكل كتاب.

المخلص لك/ إيريك.

انكاونتر يناير/ كانون الثاني ١٩٦٢.

جورج أورويل

الأعمال السياسية والأدبية

العقول الحرة – كما يقول نيتشه – تحدث ضجيجاً عظيماً. وجورج أورويل صاحب عقل حر، ولكنه مضاد لنيتشه فيما يتعلق بالعرق والحريات والأخلاق. إنه النقيض الأخلاقي بمعنى ما.

لقد أحدث جورج أورويل، في حياته وبعد مماته، ضجيجاً كبيراً، لا يزال يسمع صوته إلى الآن. ورغم هدير قنابل الطائرات والقذائف الحارقة، زمن الحرب العالمية الثانية، إلا أن صوت أورويل كان قوياً كفاية، ليلفت الأنظار إليه؛ مع أن صوته كان مضاداً للهمجية الغربية برمتها، وقتلها للإنسان في الأرض الأوروبية أو في الأمكنة البعيدة.

هذا العقل الناضج والخطر، حمل الآخرين على نعته بمعاداة الوطن، أو بالجبان، لأنه ناهض احتلال الآخر والليبرالية والديمقراطية الزائفة، ودافع عن الإنسان في أي مكان.

يقرأ أورويل الأدب السابق والمعاصر له، بذهنية مفتوحة، ولا يتطرف أبداً في الحكم على الأعمال الأدبية، مع أنه ينظر إليها من زاوية خاصة، زاوية فنية إنسانية في الوقت نفسه. ولعل من الملفت أنه يضيء نقاطاً قلما ينتبه إليها القارئ، ومن خلالها يحرض على قراءة ثانية لهذا العمل أو ذاك.

هنا، في هذا الكتاب، يرتقي أورويل ككاتب مقال أدبي وسياسي رفيع، ولن أكون متطرفاً إذا قلت إن مقالاته أشد حيوية من رواياته. إنه هنا يتحالف مع الفن والعقل والفضيلة، بشجاعة فائقة.

عقبة زيدان


ISBN 978-9933-38-149-3
9 789933 381493

